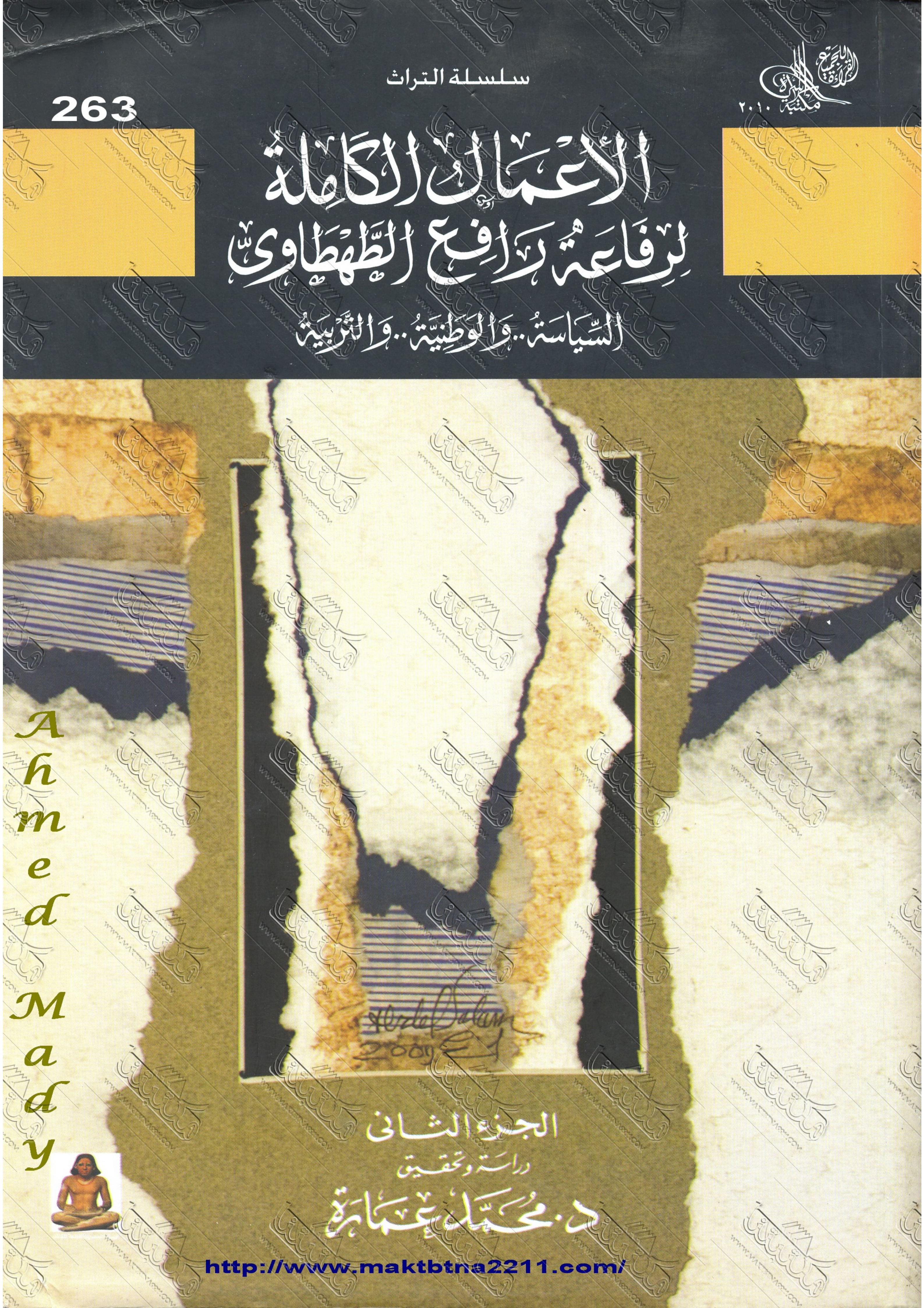
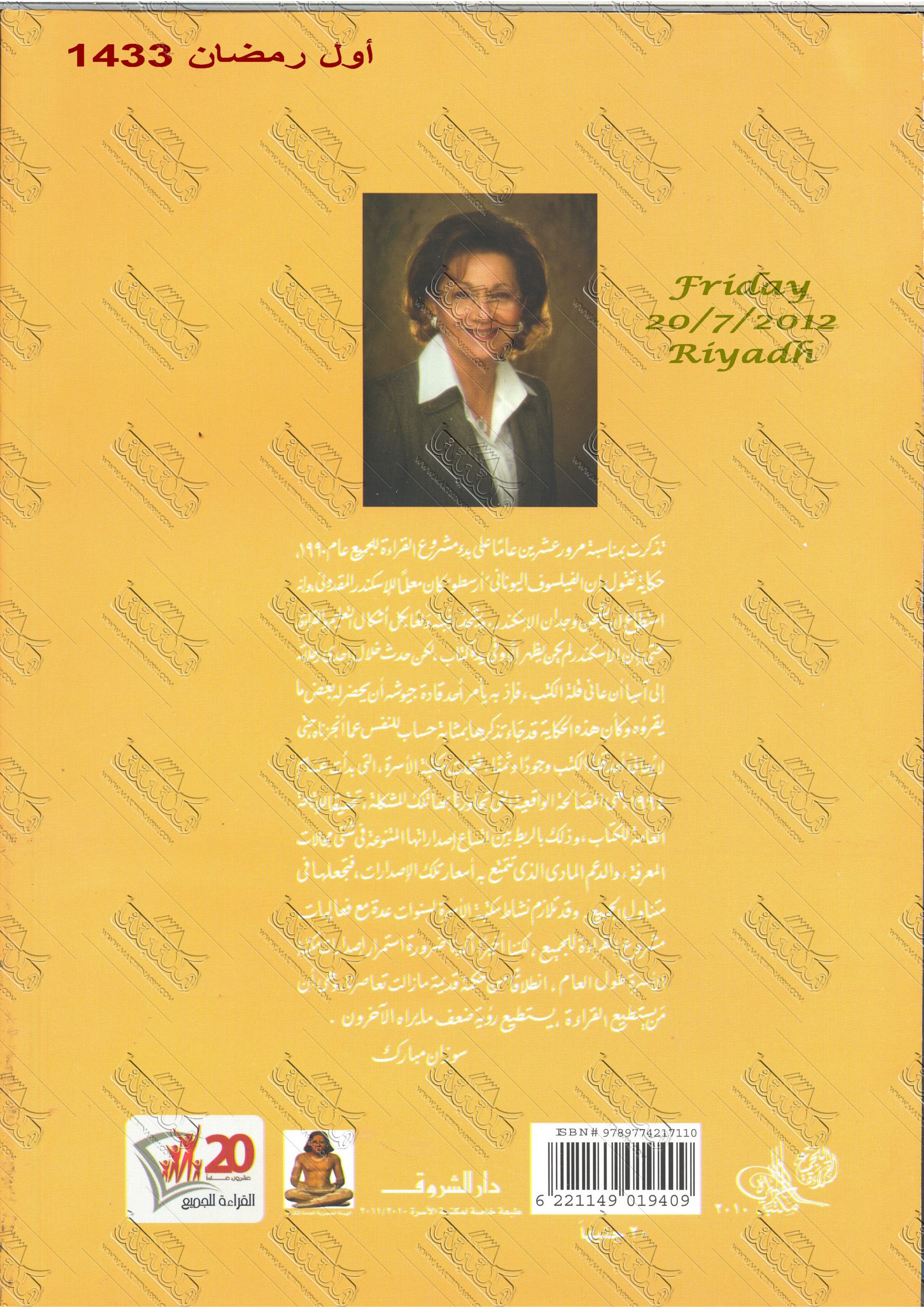


القراءة للجميع
مكتبة الأسرة
٢٠١٠
سلسلة التراث
263
الأعمال الكاملة
لرفاعة رافع الطهطاوى
السياسة.. والوطنية.. والتربية
الجزء الثانى
دراسة وتحقيق
د. محمد عمارة
Ahmed Mady
http://www.maktbtna2211.com/


أول رمضان 1433
Friday
20/7/2012
Riyadh
تذكرت بمناسبة مرور عشرين عاماً على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠،
حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلماً للإسكندر المقدوني، وإنه
وجدان الإسكندر، وشغفاً بكل أشكال
حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر الكتاب، لكن حدث خلال
إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذا به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما
يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى
الكتب وجوداً وثمناً الأسرة، التي بدأت
المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة،
العامة للكتاب، وذلك بالربط بين إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات
المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فيجعلها في
متناول الجميع. وقد تلازم نشاط لسنوات عدة مع فعاليات
مشروع القراءة للجميع، لكننا ضرورة استمرار إصدار
طول العام، انطلاقاً قديمة مازالت تعاصرنا
من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون.
سوزان مبارك
20
عشرون عاما
القراءة للجميع
دار الشروق
طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠١٠-٢٠١١
ISBN # 9789774217110
6 221149 019409
٢٠١٠



الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي

الجزء الثاني

السياسة.. والوطنية.. والتربية

دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة

مكتبة الأسرة
٢٠١٠

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى

والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

المحتويات

المقالة الرابعة: فى أحوال البعثة المصرية بباريس

المقالة الخامسة: فى ثورة سنة ١٨٣٠ بباريس

المقالة السادسة: فى علوم الفرنسيين ومعارفهم

الخاتمة: فى الرجوع إلى مصر كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين

مقدمة فى التربية

الباب الأول: فى الإنسان

الباب الثانى: فى الصفات العامة والخاصة لدى الذكور والإناث

الباب الثالث: فى التعلم والتعليم

كتـابُ

تخليص الإبريز فى تلخيص باريز

أو

الديوان النفيس بإيوان بَاريسُ





الخطبة

سبحان من سير أقدام الأنام إلى ما مضى فى سابق علمه، ويسر للإنسان الإقدام على محتم قضائه وحكمه، فلا محيص لقوى وضعيف، ووضيع وشريف، عما جرى فى أم الكتاب، ولا مفر لغنى وفقير، وخطير وحقير، عن الاقتراب، إلى مطوى ذلك الحجاب. أحمده سبحانه وتعالى حمد من ابتلاه فصبر، وأغناه فشكر، وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير إلى مرضاته، فتنزه فى رياض القبول وجناته، وأصلى وأسلم على من سارت ركائب شوقه إلى مدبره، وأشارت مواكب حسن خلقه إلى طيب عنصره، سيدنا محمد الذى سافر إلى الشام وهاجر إلى المدينة وسار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان جبريل أمينه، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحبابه، وأتوسل إلى الحضرة العلية، بالحضرة المحمدية، فى نشر ألوية العز والعدل، وكمال الجنة والفضل، على سائر الأقطار المصرية، وجميع الأقاليم الحجازية والسودانية والشامية،(١) بإشراق طالع التدبير العجيب، والتشييد الغريب، الوزير الأعظم، والدستور المكرم المفخم، نادرة وزراء الزمان، وشاردة أمراء الأوان، من أحيا العلوم باجتهاده، ونصب رسوم الإسلام بغزوه وجهاده،

---

(١) كتب الطهطاوى هذه المقدمة ـ الخطبة ـ ومصر تكون مع هذه الأقاليم دولة واحدة. . ففيما بين سنة ١٨١١ وسنة ١٨١٦م امتدت حدود الدولة لتشمل الحجاز، بعد الحملة ضد الحركة الوهابية، وفيما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٢م دخل السودان فى إطارها بعد فتح الجيش المصرى له، وفى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣١م بدأت الحملة المصرية ضد القوات العثمانية فى الشام، وهى الحملة التى وحدت الشام مع مصر من سنة ١٨٣١ حتى ١٨٤١ م. انظر كتابنا [العروبة فى العصر الحديث] ص ١٦٠ وما بعدها.

صاحب العلم المنيف، وفاتح الحرم الشريف، حضرة أفندينا ولى النعم، عظيم الشيم، الحاج محمد على باشا، بلغه الله تعالى ما يشاء، وما شاء آمين.

أبقاه ربى بخير وعزة وسعاده
بجاد خير البرايا والآل أهل السياده

أما بعد، يقول العبد الفقير إلى إمداد سيده ومولاه، السائر حيث وجهه وولاه، المعتمد على الكريم النافع، رفاعة ابن المرحوم السيد بدوى رافع. الطهطاوى بلدا، الحسينى القاسمى نسبا، الشافعى مذهبا: لما مَنَّ الله سبحانه وتعالى علىّ بطلب العلم بالجامع الأزهر، والمحل الأنور، الذى هو جنة علم دانية الثمار، وروضة فهم يانعة الأزهار، كما قال أستاذنا العلامة العطار(1):

لازم إذا رمت الفضائل مسجدا بشموس أنواع العلوم تنورا
فيه رياض العلم أينع زهرها فلذلك المعنى تسمى الأزهرا

وقال بعضهم، وأحسن، بيتين، معرضا بعلماء الحرمين:

ومن يغترب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات وغيره بحور عروض لا تجود بماء

وحصلت ما يسر به علىّ الفتّاح مما يخرج به الإنسان من الظلام، ويمتاز به عن مرتبة العوام، وكنت من معشر جارت عليهم الأيام بعد أن أجرت غيثها فى ديارهم، وأشارت إلى نصبهم الأعوام بعد أن نصبت أعلام راحتها فى مزارهم، ومن المركوز فى الأسماع فى القديم والحديث، وعليه الإجماع بعد الكتاب والحديث: أن خير الأمور العلم، وأنه أهم كل مهم، وأن ثمرته فى الدنيا والآخرة على صاحبه السعادة أولا فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية، ثم منها إلى رتبة مبعوث فى باريس، صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه

(1) حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥ م) أحد شيوخ الأزهر، وأستاذ الطهطاوى، وهو من أوائل علماء الأزهر الذين أدركوا - بعد حملة بونابرت على مصر - أهمية الانفتاح على الحضارة الأوروبية.

المدينة البهية، فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين، وعزمت على التوجه، أشار على بعض الأقارب والمحبين، لا سيما شيخنا العطار، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار، والاطلاع على غرائب الآثار، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة، وأن أقيده، ليكون نافعا فى كشف القناع، عن محيا هذه البقاع، التى يقال فيها عرائس الأقطار، وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار، خصوصا وإنه من أول الزمن إلى الآن، لم يظهر باللغة العربية، على حسب ظنى، شىء فى تاريخ مدينة باريس، كرسى مملكة الفرنسيين، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها. فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة، وفى عهده، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون، فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة، نزهتها عن خلل التساهل والتحامل، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل، ورشحتها ببعض استطرادات نافعة، واستظهارات ساطعة، وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية، والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع. ولعمر الله أننى مدة إقامتى بهذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه، وإياك أن تجد ما أذكره لك خارقا عن عادتك، فيعسر عليك تصديقه، فتظنه من باب الهذر والخرافات، أو من حيز الإفراط والمبالغات، وبالجملة، فبعض الظن إثم، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت مدركا لا تمار

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم على استحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها، على حسب ما يقتضيه الحال، ومن المعلوم أنى لا أستحسن إلا مالم يخالف نص الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية.

وليت هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه فقط، بل هى مشتملة أيضًا على ثمرته وغرضه، وفيها إيجاز العلوم والصنائع المطلوبة، والتكلم عليها على

طريق تدوين الإفرنج لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها، ولذلك نسبت فى غالب الأوقات الأشياء التى هى محل للنظر أو للاختلاف، مشيرا إلى أن قصدى مجرد حكايتها.

وقد سميت هذه الرحلة (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز)، أو (الديوان النفيس، بإيوان باريس)، وقد رتبتها على (مقدمة) وفيها عدة أبواب، وعلى (مقصد) وفيه عدة (مقالات)، وكل مقالة فيها عدة (فصول)، أو (كتب) مشتملة على (فصول)، وعلى (خاتمة)[1]. وقد حاولت فى تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز، وارتكاب السهولة فى التعبير، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه، والوفود على رياضه، ولو صغر حجمه، وقل جرمه، فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد، وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد. (شعر):

فإذا بدا لا تستقلوا حجمه وحياتكم فيه الكثير الطيب

واسأل الله، سبحانه وتعالى، أن يجعل هذا الكتاب مقبولا لدى صاحب السعادة، ولى النعم، معدن الفضل والكرم، وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام، من عرب وعجم، أنه سميع مجيب، وقاصد لا يخيب.

---

(١) «راجع الفهرست فى أول الكتاب». ذكر الطهطاوى هذه العبارة، كجملة معترضة فى متن الخطبة، أما نحن فقد جعلنا الفهرس فى نهاية هذا الجزء، وذلك علاوة على الفهارس العامة لمجموع أعماله الكاملة التى ستأتى فى الجزء الأخير من هذه الأعمال.

المقــدمــة...

الباب الأول

فى ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد، التى هى ديار كفر وعناد، وبعيدة عنا غاية الابتعاد، وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد!!

أقول: إن هذا يحتاج إلى تمهيد، وهو أن الأصل فى الإنسان الساذجية، والخلوص على الزينة، والوجود على أصل الفطرة، لا يعرف إلا الأمور الوجدانية، ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها، وإنما كشفت له بالصدفة والاتفاق، أو بالإلهام والإيحاء، وحكم الشرع أو العقل بنفعها فاتبعت وأبقيت، مثلا: كان فى أوائل الزمن يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران، لجهل النار بالكلية عندهم، ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس، أو أكل الأشياء النيئة، كما هو فى بعض البلاد إلى الآن، ثم إنه حصل، اتفاقا، أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان بمصادمة حديدة أو نحوها، ففعل مثل ذلك، وقدم وأخرج النار وعرف خاصيتها. وكان فى الناس من يجهل الصبغ والتلوين للثياب باللون الأرجوانى مثلا، فرأى بعضهم كلبا أخذ محارة من البحر وفتحها وأكل ما فيها فاحمر حنكه وتلون بما فيها، فأخذوها وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون، كما يحكى عن أهالى صور ببر الشام، وكانت الناس فى أول الأمر تجهل ركوب البحر، ثم بإلهام إلهى، أو باتفاق بشرى عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء، فصنعوا السفينة، ثم تبحروا فى السفن، وعمروها ونوعوها أنواعا، فكانت أولا صغيرة للتجارات، ثم ترفعوا فيها حتى صلحت للجهاد والحرابات، وقس على ذلك ما أشبه من المحاربة بالسهام والرماح أولا، ثم بعد ذلك بالسلاح، ثم بالمدافع والأهوان.

وقد كانت الناس فى أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك، ثم بإلهام الله تعالى، وبإرساله الرسل، صاروا يعبدون إلها واحدًا، فكلما تقادم الزمن فى الصعود رأيت الناس فى الصنائع البشرية والعلوم المدنية، وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم فى ذلك، وبهذا الترقى وقياس درجاته، وحساب البعد عن الحالة الأصلية والقرب منها، انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الهمل المتوحشين.

المرتبة الثانية: مرتبة البرابرة الخشنيين.

المرتبة الثالثة: مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين.

مثال المرتبة الأولى، همل بلاد السودان، الذين هم دائما كالبهائم السارحة لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يقرءون ولا يكتبون، ولا يعرفون شيئا من الأمور المسهلة للمعاش ولا للمعاد، وإنما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم، فيزرعون بعض شىء أو يصيدونه لتحصيل قوتهم، ويخصصون بعض أخصاص أو خيام للتوقى من حر الشمس ونحوه. ومثال المرتبة الثانية، عرب البادية، فإن عندهم نوعا من الاجتماع الإنسانى والاستئناس والائتلاف، لمعرفتهم الحلال من الحرام، والقراءة والكتابة، وغيرها، وأمور الدين، ونحو ذلك، غير أنهم أيضًا لم تكمل عندهم درجة الترقى فى أمور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية والنقلية، وإن عرفوا البناء والفلاحة وتربية البهائم، ونحو ذلك. ومثال المرتبة الثالثة، بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والإفرنج والمغرب وسنار وبلاد أمريكة، على أكثرها، وكثير من جزائر البحر المحيط، فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم وصناعات، وشرائع وتجارات، ولهم معارف كاملة فى آلات الصنائع والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق، ولهم علم بالسفر فى البحور، إلى غير ذلك.

وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها، وحسن حالها، وتقليد شريعة

من الشريعة، وتقدمها فى النجامة،[1] مثلا: البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة، أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية، وتوصلوا إلى دقائقها وأسرارها، كما سنذكره، غير أنهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا سبيل النجاة أبدا. كما أن البلاد الإسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية، والعمل بها، وفى العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه، ولهذا حكم الإفرنج بأن علماء الإسلام إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم، يعنى ما يتعلق باللغة العربية، ولكن يعترفون لنا بأنا كنا أساتيذهم فى سائر العلوم، وبقدمنا عليهم، ومن المقرر فى الأذهان، وفى خارج الأعيان، أن الفضل للمتقدم، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالته، ويهتدى بدلالته؟ وما أحسن قول الشاعر:

ومما شجانى أننى كنت نائما — أعلل من فرط الكرى بالتنسم

إلى أن بكت ورقاء فى غصن أيكة — تردد مبكاها بحسن الترنم

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة — بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا — بكاها فقلت الفضل للمتقدم

ويعجبنى أيضًا قولهم فى هذا المعنى عند المكافأة:

أنا الشجاع الذى قد كنت فى ظمأ — وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى

فجدت بالماء فضلا منك مبتدأ — بغير قل فأشفى غلة الصادى

هذا جزاؤك منا لا نمن به — فضلا بفضل وكان الفضل للبادى

فإننا كنا فى زمن الخلفاء أكمل سائر البلاد، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم، على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه، فانظر

---

(١) أحد معانيها: الظهور.

إلى المأمون بن هارون الرشيد فإنه زيادة عن إعانة «ميقاتية»[1] دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك، كيف وهو الذى قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده بالامتحان ثلاثة وعشرين درجة وخمسة وثلاثين دقيقة، وغير ذلك. وكما فعل جعفر المتوكل من العباسية، فإنه أعان اصطفان[2] على ترجمة الكتب اليونانية ككتاب ذيسقوريدس فى الأدوية، وكما قد طلب الملك عبد الرحمن الناصر، صاحب الأندلس، من ملك قسطنطينية المسمى أرمانيوس أن يبعث إليه رجلا يتكلم باللسان اليونانى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده، فبعث له راهبا يسمى «نقولا» إلى غير ذلك. فمن هنا تفهم أن العلوم لا تنتشر فى عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله، وفى الأمثال الحكمية: الناس على دين ملوكهم.

وقد تشتت عز الخلفاء، وانهدم ملكهم، فانظر إلى الأندلس فإنها الآن بأيدى النصارى الإسبانيول من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة، وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم، ومعرفتهم فى الحرابات، وتنوعهم واختراعهم فيها، ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله، سبحانه وتعالى، لكان كل شىء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم، وغير ذلك، ومن المثل المشهور: إن أعقل الملوك أبصرهم بعواقب الأمور. ولهذا تنبه ولى النعمة، حفظه الله الله تعالى، حيث ولاه الله سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة أن يرجع إليها شبابها القديم، ويحيى رونقها الرميم، فمن مبدأ توليه، حفظه الله سبحانه وتعالى، وهو يعالج فى مداواة دائها، الذى لولاه كان عضالا، ويصلح فسادها، الذى قد كاد أن يكون زواله محالا، ويلجتى إليه أرباب الفنون البارعة، والصنائع النافعة، من الإفرنج، ويغدق عليهم فائض نعمته، حتى إن العامة بمصر، بل وبغيرها، من جهلهم يلومونه غاية

---

(١) أى علماء الفلك الذين يشتغلون ـ ضمن ما يشتغلون ـ بحسابات المواقيت الخاصة بالعبادات.

(٢) يذكر ابن النديم فى (الفهرست) عددا من التراجمة بهذا الاسم، منهم «أصطفن القديم» الذى ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة (ص ٢٤٨، ٢٤٩) و«أصطفن الراهب» (ميخائيل) الموصلى، (ص ٣٥٩) وكذلك «أصطفن بن باسيل» وهو من تلامذة حنين بن إسحق، وله سبق فى ترجمة كتب الطب إلى العربية.

اللوم بسبب قبول الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم، جهلا منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى، فالحاجة دعت إليه، ولله در من قال:

إن المعلم والطبيب كلاهما لم يبذلا نصحا إذا لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يتأتى لإنسان أن ينكر أن الفنون والصنائع بمصر قد برعت الآن، بل وقد وجدت بعد أن لم تكن، فما أنفقه صاحب السعادة على ذلك كان فى محله اتفاقا. فانظر إلى الورش والمعامل والمدارس ونحوها، وانظر إلى ترتيب أمر العساكر الجهادية، فإنه من أحسن ما صنعه صاحب السعادة وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات، ولا يمكن إدراك ضرورية هذا النظام إلا لمن رأى بلاد الإفرنج أو شاهد الوقائع. وبالجملة والتفصيل، فولى النعمة آماله دائما متعلقة بالعمارات، ومن الحكم المعروفة: العمارة كالحياة، والخراب كالموت، وبناء كل ملك على قدر همته. وقد سارع ولى النعمة، حفظه الله تعالى، فى تحسين بلاده، فأحضر فيها ما أمكنه إحضاره من علماء الإفرنج، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر إلى تلك البلاد، فإن علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية، وفى الحديث: «الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك». قال بطليموس الثانى[1]: خذوا الدر من البحر، والمسك من الفأرة، والذهب من الحجر، والحكمة ممن قالها. وفى الحديث: «اطلب العلم ولو بالصين». ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون، وإن كان المقصود من الحديث السفر إلى طلب العلم. وبالجملة، حيثما أمن الإنسان على دينه فلا ضرر فى السفر، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة. ولعل هذا كله مطمح نظر صاحب السعادة فى هذه الإرسالية وغيرها من الإرساليات المتتالية المتسلسلة، فثمرة هذا السفر تحصل، إن شاء الله تعالى، بنشر هذه العلوم والفنون الآتية فى الباب الثانى، وبكثرة تداولها وترجمة كتبها وطبعها فى مطابع ولى النعم.

---

(١) هو فيلادلفوس، أى المحب لأخته (٣٠٨-٢٤٦ ق. م) أحد حكام مصر فى عهد البطالسة.

فينبغى لأهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة، وليس هذا الزمان قابلا لأن يقال كما قال بهاء الدين أبو حسين العاملى(١) فى صرف العمر فى جمع كتب العلم وادخارها ومطالعتها، فى شعره:

على كتب العلوم صرفت مالك ... وفى تصحيحها أتعبت بالك

وأنفقت البياض مع السواد ... إلى ما ليس ينفع فى المعاد

تظل من المساء إلى الصباح ... تطالعها وقلبك غير صاح

وتصبح مولعا من غير طائل ... بتحرير المقاصد والدلائل

وتوضيح الخفا فى كل باب ... وتوجيه السؤال مع الجواب

لعمرى قد أضلتك الهداية ... ضلالا ما له أبدا نهاية

وبالمحصول حاصلك الندامة ... وحرمان إلى يوم القيامة

وتذكرة المواقف والمراصد ... تسد عليك أبواب المقاصد

فلا ينجى النجاة من الضلالة ... ولا يشفى الشفاء من الجهالة

وبالإرشاد لم يحصل رشاد ... وبالتبيان ما بان السداد

وبالإيضاح أشكلت المدارك ... وبالمصباح أظلمت المسالك

وبالتلويح ما لاح الدليل ... وبالتوضيح ما اتضح السبيل

صرفت خلاصة العمر العزيز ... على تنقيح أبحاث الوجيز

بهذا الأمر صرف العمر جهل ... فقم واجهد فما فى الوقت مهل

ودع عنك الشروح مع الحواشى ... مهن على البصائر كالغواشى

---

(١) (١٥٤٧ - ١٦٢٢ م) عالم وأديب وشاعر، شيعى، ولد ببعلبك، وتنقل وعاش بإيران ومصر والشام وفلسطين، وله آثار مطبوعة وأخرى مخطوطة، ولقد ألف فى الفارسية إلى جانب تآليفه بالعربية.

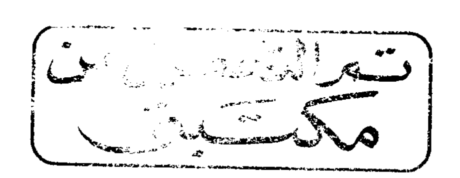
وقــولـــه

أيهــا القــوم الذى فى المـدرســة كل مــا حـصلـتـمــوه وسـوسـة

فكركم إن كـان فى غـيـر الحـبيب مـــا له النشـــأة الأخــرى نصــيب

فـاغـسلوا بالـراح عن لوح الفـؤاد كل عـلـم ليس يـنجى فـى المعـــاد

لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيا، وانهمك على الأخرى، أو من اشترى العلوم بأعلى ثمن، فبخس صفقها حادث الزمن.



الباب الثانى

يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة، لتعرف أهميتها ولزومها فى أى دولة من الدول. وهذه الفنون إما واهية فى مصر أو مفقودة بالكلية، وهى قسمان: قسم عام للتلامذة، وهو الحساب، والهندسة، والجغرافيا، والتاريخ والرسم، وقسم خاص متوزع عليهم، وهو عدة علوم: العلم الأول: علم تدبير الأمور الملكية. ويتشعب عنه عدة فروع: الحقوق الثلاثة التى يعتبرها الإفرنج، وهى الحقوق الطبيعية، والحقوق البشرية، والحقوق الوضعية.

وعلم أحوال البلدان ومصالحها وما يليق بها، وعلم الاقتصاد فى المصاريف، وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات والخازندارية وحفظ بيت المال.

العلم الثانى: علم تدبير العسكرية.

العلم الثالث: علم القبطانية والأمور البحرية.

العلم الرابع: فن معرفة المشى فى مصالح الدول، يعنى علم السفارة، ومنه «الأيلجية»[(١)] وهى رسالة البلدان، وفروعه: معرفة الألسن، والحقوق والاصطلاحات.

العلم الخامس: فن المياه، وهو صناعة القناطر والجسور والأرصفة والفساقى، ونحو ذلك

العلم السادس: الميكانيقا، وهو آلات الهندسة وجر الأثقال.

العلم السابع: هندسة العساكر.

---

(١) «أيلجى» كلمة تركية، الأصح فيها: «آلجى»، ومقطعها الأول ـ «ال» ـ يعنى السلم أو التحالف، والثانى ـ «جى» ـ يعنى رسول السلام أو سفير أو وزير مفوض. انظر هذه المادة فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية، الثانية.

العلم الثامن: فن الرمى بالمدافع، وترتيبها، وهى فن الطبجية.

العلم التاسع: فن سبك المعادن لصناعة المدافع والأسلحة.

العلم العاشر: علم الكيمياء وصناعة الورق، والمراد بالكيمياء معرفة تحليل الأجزاء وتركيبها، ويدخل تحتها أمور كثيرة، كصناعة البارود، والسكر. وليس المراد بالكيمياء حجر الفلاسفة،[1] كما يظنه بعض الناس، فإن هذا لا تعرفه الإفرنج ولا تعتقده أصلا.

العلم الحادى عشر: فن الطب، وفروعه: فن التشريح، والجراحة، وتدبير الصحة، وفن معرفة مزاج المريض، وفن البيطرة أى معالجة الخيل، وغيرها.

العلم الثانى عشر: علم الفلاحة، وفروعها: معرفة أنواع الزروع، وتدبير الخلاء بالبناء اللائق به، وغيرها، ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبرة للمصارف.

العلم الثالث عشر: علم تاريخ الطبيعيات، وفروعه: مرتبة النباتات، ومرتبة المعادن.

العلم الرابع عشر: صناعة النقاشة، وفروعها: فن الطباعة، وفن نقش الأحجار، ونحوها.

العلم الخامس عشر: فن الترجمة، يعنى ترجمة الكتب، وهو من الفنون الصعبة، خصوصا ترجمة الكتب العلمية، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه، والفن المترجم فيه.

فإذا نظرت بعين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا، ومن جهل شيئا فهو دون من أتقن ذلك الشيء، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته! فالحمد لله الذى قيض ولى النعمة لإنقاذنا من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا، وأظن أن من له ذوق سليم وطبع مستقيم يقول، كما أقول. وسأذكر بعضها بالاختصار فى آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى وهو المستعان.

(١) من مباحث الكيمياء القديمة، كانوا يزعمون أن مثله كمثل أكسير الحياة فى القدرة على إحالة المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وإعادة الشباب إلى الإنسان.

الباب الثالث

الباب الثالث

فى ذكر وضع البلاد الإفرنجية ونسبتها إلى غيرها من البلاد، ومزية الأمة الفرنساوية على ما عداها من الإفرنج، وتبيين تخصيص صاحب السعادة لها بإرسالنا فيها دون ما عداها من ممالك الإفرنج.

فنقول: إعلم أن الجغرافيين، من الإفرنج، قسموا الدنيا من الشمال إلى الجنوب، ومن المشرق إلى المغرب، خمسة أقسام[١] وهى: بلاد أوربا[٢] وبلاد آسيا[٣] وبلاد إفريقية، وبلاد الأمريكية، وجزائر البحر المحيط[٤]. فبلاد أوربا محدودة جهة الشمال بالبحر المتجمد، المسمى بحر الثلج الشمالى، وجهة الغرب ببحر الظلمات، المسمى البحر المظلم والبحر الغربى، وجهة الجنوب بحر الروم، المسمى البحر المتوسط والبحر الأبيض، وببلاد آسيا، وجهة الشرق ببحر الخزر[٥]، المسمى بحر جرجان وبحر طبرستان، وببلاد آسيا. فحينئذ بلاد أوربا تقال على بلاد الإفرنج، وبلاد الأروام، وبلاد قسطنطينية، وبلاد الخزر، والبلغار[٦] والأفلاق والسرب وغيرها، وهى نحو ثلاثة عشر أرضا، أى ولاية أصلية، أربعة منها فى الشمال، وهى: بلاد الإنكليز، وبلاد دنيمرق[٧] وبلاد أسوج[٨]، وبلاد الموسقو،

---

(١) أى قارات

(٢) بضم الهمزة والراء، وتشديد الباء. (الطهطاوى).

(٣) بكسر السين. (الطهطاوى).

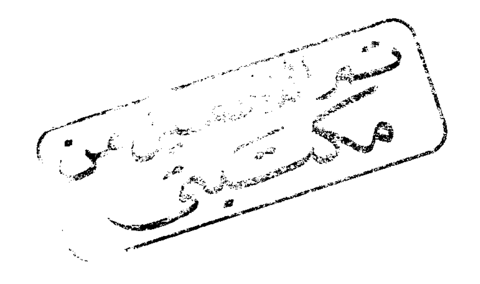
(٤) أى أستراليا.

(٥) بضم الخاء والزاى. (الطهطاوى).

(٦) بضم الباء، وفتح الغين. (الطهطاوى).

(٧) بكسر النون وفتح الميم وسكون الراء. (الطهطاوى).

(٨) بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الواو. (الطهطاوى).



وستة فى الوسط، وهى بلاد الفلمنك[١] وبلاد الفرنسيس، وبلاد السويسة،[٢] وبلاد النمسة، وبلاد البروسة[٣] وبلاد جرمانية[٤] المتعاهدة، وثلاثة فى الجنوب وهى: بلاد إسبانيا مع البرتوغال، وبلاد إيطاليا، وبلاد الدولة العثمانية فى بلاد أوربا وهى بلاد الأروام، والأرناؤط، والبشناق،[٥] والسرب[٦]، والبلغار، والأفلاق، والبغدان،[٧].

فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد أوربا ببلاد الإفرنج، فيه قصور، اللهم إلا أن تكون بلاد الإفرنج تطلق على ما يعم بلاد الدولة العلية، ولكن يناقض ذلك أن الدولة العثمانية يقصرون بلاد أفرنجستان على ما عدا بلادهم من بلاد أوربا، ويسمون بلادهم ببلاد الروم، وإن كانوا يعممون أيضا فى لفظ الروم فيريدون به ما يعم بلاد الإفرنج وبعض البلاد الداخلة فى حكمهم من بلاد آسيا.

وبلاد آسيا محدودة أيضا جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالى، وجهة الغرب ببلاد أوربا، والإفريقية، وجهة الجنوب ببحر الهند وبحر الصين، وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط، وببحر بهرنغ[٨] وهى تنقسم أيضا إلى عشرة أراض أصلية، واحدة جهة الشمال، وهى بلاد سبير[٩] وسبعة فى الوسط، وهى: بلاد الدولة العثمانية التى هى الشام. وأرمنية، وكردستان، وبغداد والبصرة وقبرص، وغيرها، وبلاد العجم، وبلاد بلوجستان[١٠] وبلاد قابولستان[١١] وأفغانستان[١٢]

(١) بفتح الفاء واللام والميم وسكون النون. (الطهطاوى).
(٢) بضم السين الأولى مع التشديد وكسر الواو. (الطهطاوى).
(٣) بضم الباء. (الطهطاوى).
(٤) بكسر الجيم وسكون الراء وكسر النون. (الطهطاوى).
(٥) بضم الباء وسكون الشين. (الطهطاوى).
(٦) بالباء أوالفاء. (الطهطاوى).
(٧) بضم الباء وسكون الغين. (الطهطاوى). والأفلاق والبغدان هما الآن فى رومانيا.
(٨) بكسر الباء وسكون الهاء وفتح الراء وسكون النون، وبالغين أو الكاف. (الطهطاوى). وهو بين شبه جزيرة ألاسكا والقارة الآسيوية.
(٩) بكسر السين والباء. (الطهطاوى).
(١٠) بضم الباء وسكون السين. (الطهطاوى).
(١١) بكسر اللام وسكون السين. (الطهطاوى).
(١٢) بفتح الهمزة وسكون الفاء وفتح الغين وكسر النون وسكون السين. (الطهطاوى).

وبلاد التتار الأكبر، وبلاد الصين، وبلاد الصين، وبلاد يابونيا[1] واثنان فى الجنوب، وهى بلاد العرب، وبلاد الهند. فبلاد الحجاز، وبلاد الوهابية[2] تحت حكم الدولة العلية، وبلاد اليمن تحت حمايتها، وبلاد عمان مستقلة، وكلها أقاليم جزيرة العرب. فهذه هى ولايات آسيا.

ثم بلاد إفريقية، وهى محدودة جهة الشمال ببحر الروم، وجهة الغرب بالبحر الاطلنطيقى،[3] المسمى بحر الظلمات، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبى، وجهة الشرق ببحر الهند، وببغاز باب المندب، وبحر القلزم، المسمى البحر الأحمر، وببلاد العرب، ويمكن تقسيم الإفريقية إلى ثمانية أراض أصلية: اثنتان فى الشمال، وهى: بلاد المغارية، وبلاد مصر، وأربعة فى الوسط، وهى: السينيغبنية[4] وبلاد الزنج، وبلاد النوبة، وبلاد الحبشة، واثنتان فى الجنوب، وهما: بلاد غينا،[5] وبلاد كفريرية، فهذا ما يسمى الآن عند الإفرنج بلاد إفريقية، وإن كانت إفريقية فى الأصل بلدة معلومة جهة تونس، وبلادها ما حواليها، ثم أضيف إلى بلاد أوربا ما قاربها من الجزائر، وكذلك لبلاد آسيا وإفريقية.

وهذه الأقسام الثلاثة، يعنى أوربا وآسيا وإفريقية تسمى الدنيا القديمة، أو الأرض القديمة، يعنى المعروفة للقدماء.

وأما بلاد الأمريكة، أو أمريكية،[6] فهى تسمى الدنيا الجديدة، وتسمى أيضا الهند الغربى، وتسمى بالعربية: عجائب المخلوقات، وهى إنما عرفت للإفرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الأندلس وإخراج العرب منها، وتتصل بلاد الأمريكة بستة بحور، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المتجمد، وبحر يافين، ومن جهة الشرق ببحر الظلمات، وببحر جزائر الأنتيلة، وبالبحر المحيط الأكبر المسمى

(١) بكسر النون. (الطهطاوى).
(٢) المراد ببلاد الوهابية: نجد.
(٣) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح اللام وسكون النون. (الطهطاوى).
(٤) بكسر السين والنون وفتح الغين المعجمة وسكون النون وكسر الياء. (الطهطاوى).
(٥) بالغين المكسورة أو الكاف. (الطهطاوى).
(٦) بالكاف أو القاف. (الطهطاوى).

أقيانوس. وبحر بهرنغ جهة الغرب. وهى قسمان، الأمريكية الشمالية، والأمريكية الجنوبية، فالأمريكية الشمالية ستة أراض أصلية، وهى: الأمريكة الروسية، أو المحكومة بالموسقو، وبلاد أغرونلند[١]، وبلاد أبرطانية الجديدة[٢]، أو بلاد الإنجليز الجديدة، وبلاد الإيتازونيا،[٣] وهى الأقاليم المجتمعة، وبلاد مكسيك،[٤] وبلاد غواتيملا،[٥] والأمريكة الجنوبية تسعة أراض، وهى بلاد كلنبيا،[٦] وبلاد غيانة[٧]، وبلاد أبريزبلة،[٨] وبلاد بره[٩]، وبلاد بولوية [١٠] المسماة بروا العليا، وبلاد براغية،[١١] وبلاد بلاطة، وبلاد شلى،[١٢] وبلاد بتاغونيا،[١٣].

وأما جزائر البحر المحيط فإنها غربى بلاد الأمريكة، وعلى الجنوب الشرقى من بلاد آسيا، وهى محدودة من سائر جهاتها بالبحر المحيط، وهى ثلاثة أجزاء أصلية: النوتازية[١٤] والأستورالية[١٥] والبولينيزية[١٦] ثم بلاد أوربا فيها أربع بنادر أصلية

---

(١) بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة، ثم راء مضمومة يليها واو مفتوحة ثم نون ساكنة فلام مفتوحة فنون ساكنة ثم دال مهملة. (الطهطاوى).

(٢) بكسر الهمزة وسكون الباء وكسر الراء والنون. (الطهطاوى).

(٣) بكسر الهمزة والنون. (الطهطاوى).

(٤) بفتح الميم وسكون الكاف وكسر السين. (الطهطاوى.

(٥) بضم الغين وفتح الميم. (الطهطاوى).

(٦) بضم الكاف واللام وسكون النون وكسر الباء. (الطهاوى).

(٧) بكسر الغين. (الطهطاوى).

(٨) بسكون الباء. (الطهطاوى).

(٩) بكسر الباء وضم الراء. (الطهطاوى).

(١٠) بضم الباء وسكون الواو الأولى وكسر الثانية. (الطهطاوى).

(١١) بفتح الباء. (الطهطاوى).

(١٢) بكسر الشين وتشديد اللام المكسورة. (الطهطاوى)

(١٣) بفتح الباء والتاء وضم الغين وكسر النون. (الطهطاوى.

(١٤) بضم النون المشددة وكسر الزاى وتشديد الياء المفتوحة. (الطهطاوى).

(١٥) بضم الهمزة وسكون السين وضم التاء وكسر اللام. (الطهطاوى).

(١٦) بضم الباء وكسر اللام والنون والزاى. (الطهطاوى).

مشهورة بالتجارة: إسلامبول، تخت الدولة العلية، ولوندرة[1] تخت بلاد الإنكليز، وباريز، تخت بلاد الفرنسيس، ونابلى، ببلاد إيطاليا.

والبنادر الأصلية ببلاد آسيا أربعة أيضا: بكين[2] قاعدة بلاد الصين، وقلقوطا[3] قاعدة بلاد الهند، والتى تحت حكم الإنكليز، وصورة ببلاد الهند أيضا، ويقال هى التى كانت تسمى المنصورة، ومباقو[4] فى بلاد جزيرة يابونيا[5] وهى بلاد الفرفور.

والبنادر الأصلية ببلاد الإفريقية أربعة: القاهرة، قاعدة حاكم مصر، وسنار، قاعدة حاكم بلاد النوبة، والجزائر، وتونس بلاد المغاربة.

والبنادر الأصلية ببلاد أمريكية الشمالية هى: مكسيكو ببلاد مكسيك، ونويرق[6] فى بلاد لابتازونيا، وفيلادلفيا[7]، ومدينة وسهنغتون[8]، وأربعة فى أمريكة الجنوبية، وهى: ريو جانير[9]، فى بلاد أبريزيلة[10]، وبنوسيرس[11]، فى بلاد بلاطة[12]، وليمة[13] فى بلاد بروقيطو[14]، في بلاد غرناطة الجديدة.

وفى بلاد البحر المحيط بندران شهيران، وهما: مدينة بتاويا[15]، ومدينة مانيلة، وبندر جزيرة جاوة.

---

(١) بضم اللام وسكون النون وفتح الدال. (الطهطاوى).
(٢) بكسر الباء والكاف. (الطهطاوى).
(٣) بفتح القاف واللام وضم القاف. (الطهطاوى).
(٤) بكسر الميم وضم القاف. (الطهطاوى).
(٥) بضم الباء وكسر النون. (الطهطاوى).
(٦) بضم النون والياء وسكون الراء. (الطهطاوى).
(٧) بكسر الفاء والدال وسكون اللام وكسر القاف وفتح الياء. (الطهطاوى).
(٨) بسكون السين وكسر الهاء ثم نون ساكنة بعدها غير مكسورة. (الطهطاوى).
(٩) بكسر الراء وضم الياء وكسر النون. (الطهطاوى).
(١٠) بكسر الباء والراء. (الطهطاوى).
(١١) بفتح الباء وكسر السين والراء. (الطهطاوى).
(١٢) بفتح الباء. (الطهطاوى).
(١٣) بكسر اللام. (الطهطاوى).
(١٤) بكسر القاف وسكون الياء وضم الطاء. (الطهطاوى).
(١٥) بفتح الباء. (الطهطاوى).

ثم إن بلاد الإفرنج أغلبها نصارى، وبلاد الدولة العلية هى بلاد الإسلام بهذه القطعة، وأما بلاد آسيا فإنها منبع بلاد الإسلام، بل وسائر الأديان، وهى أوطان الأنبياء والمرسلين، وبها نزلت سائر الكتب السماوية، وهى تتضمن أشرف الأماكن، والأرض المباركة، والمساجد التى لا تشد الرحال. إلا إليها[1]، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الأولين والآخرين، والصحابة. وهى منشأ الأئمة الأربعة، رضى الله تعالى عنهم، لأن منشأ الإمام الشافعى رضى الله عنه «غزة»، ومنشأ الإمام مالك، رضى الله عنه، «المدينة» المشرفة، ومنشأ الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان «الكوفة»، ومنشأ الإمام أحمد بن حنبل «بغداد»، التى كانت، كما قيل، فى أيام الخلفاء: بالنسبة للبلاد كالأستاذ فى العباد. وكلها من بلاد آسيا، وبها، يعنى ببلاد آسيا العرب، وهم أفضل القبائل على الإطلاق، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق، وفيهم بنو هاشم، الذين هم ملح الأرض، وزبدة المجد، ودرع الشرف. ومما يدل على فضلها أن بها الأماكن المفضلة، كالقبلة التى يجب على كل إنسان أن يتوجه إليها خمس مرات فى اليوم والليلة، والمدينتان اللتان نزل بهما القرآن العظيم. ففضائلها لا تحصى وآثار أهلها لا تستقصى، قال بعض أهلها:

عطفة يا جيرة العلم ... يا أهيل الجود والكرم
نحن جيران لذا الحرم ... حرم الإنسان والحسن
نحن قوم به سكنوا ... وبه من خوفهم أمنوا
وبآيات الكتاب عنوا ... فاتئد فينا أخا الوهن
نعرف البطحا وتعرفنا ... والصفا والبيت يألفنا
ولنا المعلى وخيف منا ... فاعلمن هذا وكن وكن
ولنا خير الأنام أب ... وعلى المرتضى حسب
وإلى السبطين ننتسب ... نسبا ما فيه من دخن[2]

---

(١) وهى مساجد مكة والمدينة والقدس، إشارة إلى حديث مروى فى ذلك عن الرسول عليه السلام.

(٢) الدخن: من معانيه الخبث والفساد والمكر والتغير.. إلخ.. إلخ..

ومع أن الإسلام قد تولد فيها، وانتشر منها إلى غيرها، ففيها جزؤ عظيم باق على الكفر كبلاد الصين وبعض بلاد الهند، ومنها جزؤ سالك فى إسلامه طريق الضلال كروافض العجم[١].

وأما بلاد إفريقية فإنها تشتمل على أعظم البلاد، كبلاد مصر التى هى من أعظم البلاد وأعمرها، وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء، وكبلاد المغرب التى أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل، وإن شاء الله يمتد بها الإسلام عند كفار السودان بأنفاس ولى النعمة، حفظه الله تعالى.

وأما أمريكة فهى بلاد كفر، وذلك أنها كانت عامرة فى الأصل بهمل عبدة الأصنام، فتغلب عليها الإفرنج لما قويت شوكتهم فى الفنون الحربية، ونقلوا إليها جماعة من بلادهم، وأرسلوا إليها قسيسين فتنصر كثير من أهلها، فالآن بلاد أمريكة غالبا نصارى، إلا الهمل فيهم وثنيون، ولم يوجد بها دين الإسلام، وسببه قوة الإفرنج فى علم ركوب البحر ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ورغبتهم فى المعاملات والتجارات وحبهم للسفر، وقال الشاعر:

إن العلا حدثتنى وهى صادقة ... فيما تحدث أن العز فى النقل

لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال آخر:

قلقل ركابك للفلا ... ودع الغوانى والقصور

فمحالفوا أوطانهم ... أمثال سكان القبور

لولا التغرب ما ارتقت ... درر البحور إلى النحور

---

(١) يريد الطهطاوى بروافض العجم الشيعة الإمامية.. ولكن تعبير الروافض لا يطلق عليهم - إذا شئنا الدقة - هكذا بإطلاق.. فالرفض فى التشيع يعنى فى الأغلب الغلو، ولذلك خصوه بالفرق التى غلت فى الإمام على بالتأليه وما أشبهه، كما أن البعض قد أطلق هذا التعبير على الذين رفضوا إمامة زعيم الشيعة الزيدية «زيد بن على» كما يطلقه البعض على الشيعة الذين رفضوا الاعتراف بشرعية إمامة أبى بكر وعمر. انظر الدراسة التى قدمنا به الجزء الأول من (رسائل العدل والتوحيد) ص ٥١ طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

وقال الحريرى[1]:

لجـــوب البـــلاد مع المتـــربه أحـب إلـى مـن المرتبـــــــــه

وقال غيره:

قم واغـتـرب فى البـلاد مـجتـهـدا فــــــمـن ثـوى فـى بلاده هـانـا

كـبـيـدق[2] لا يزال مـحـتـقـرا حـتى إذا ســار صــار فـرزانا[3]

وقال:

أنفق من الـصـبـر الجـمـيل فـإنه لم يخش فـقـرا منفق من صـبـره

والمرء لـيس ببـــالغ فـى أرضـــه كـالصـقـر ليس بصـائد فى وكـره

ومن المعلوم أن الدر والمسك لا يشرفان ما لم يفارقا وطنهما ومعدنهما. وكل هذا لا ينافى أن حب الوطن من شعب الإيمان، لأن المقصود السياحة والأخذ فى أسباب طلب الرزق، وهذا لا يمنع من تعلق الإنسان بوطنه ومسقط رأسه، فإن هذا أمر جبلى، قال الشاعر:

يا بعــــيــــد الدار عـن وطنـه مـــفـــردا يـبكى عـلى شـــجـنه

كلمـــا جـــد الـرحـــيـل به زادت الأســـــقـــام فـى بدنـه

وقال غيره:

ولقـــد زاد الـفـــؤاد شـــجى طـــائـر يــبـكــى عــلـى فـنـنـه

شـــفــــه مــــا شـــفنى فــبـكى كــلــنـا يـبـكـى عـلـى سـكـنـه

ولا ينافى هذا الأمر مادة التوكل والاعتماد على المولى، كما يفهم من كلام الشاعر فى قوله:

(١) هو الحريرى القاسم بن على صاحب المقامات المشهورة بمقامات الحريرى (١٠٥٤ - ١١٢٢ م).

(٢) البيدق: طائر من الجوارح.

(٣) الفرزان هى الملكة فى لعبة الشطرنج، وهى كلمة من الكلمات الدخيلة على العربية.

لقد علمت وما الإسراف من خلقى إن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى إليه فيعيينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعيينى

وقول الآخر

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعرض للإرادات

فما صفى البحر إلا وهو منتقص وما تكدر إلا فى الزيادات

فإن هذا معناه التسلية لمن لا يحب الأسفارا، والنهى عن السفر للطمع.

وأما بلاد جزائر البحر المحيط فإنها قد فتح كثير منها بالإسلام كجزيرة جاوة[1] فإن أهلها مسلمون، وبالجملة، فبلاد النوتازية أغلبها إسلام، وندر وجود دين النصرانية فيها. ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن أقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها عن بعض، يعنى تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه، بحسب مزية الإسلام وتعلقاته، فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع، ثم إفريقية لعمارها بالإسلام والأولياء والصلحاء، خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة، ثم تليها بلاد أوربا، لقوة الإسلام ووجود الإمام الأعظم إمام الحرمين الشرفين، سلطان الإسلام فيها، ثم بلاد الجزائر البحرية، لعمارها بالإسلام أيضا، مع عدم تبحرها فى العلوم كما هو الظاهر، فأدنى الأقسام بلاد أمريكة، حيث لا وجود للإسلام بها أبدا. هذا ما يظهر لى، والله أعلم بالصواب. وهذا كله بالنظر للإسلام والأمور الشرعية والشرف الذاتى، فإن المراد بالشرف ما يعم الشرعى وغيره، فلا يقال إن أغلب ذلك من باب المزية، وهى وحدها لا تستدعى أفضلية، ولا ينكر منصف أن بلاد الإفرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية وأعلاها فى التبحر. من ذلك بلاد الإنكليز والفرنسيس والنمسا، فإن حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطاطاليس[2] وأفلاطون[3] وبقراط[4] وأمثالهم، وأتقنوا الرياضيات والطبيعيات والإلهيات وما

---

(١) بفتح الواو. (الطهطاوى).

(٢) عاش من سنة ٣٨٤ حتى سنة ٣٢٢ ق.م

(٣) عاش من حوالى سنة ٤٢٧ حتى سنة ٣٤٧ ق.م.

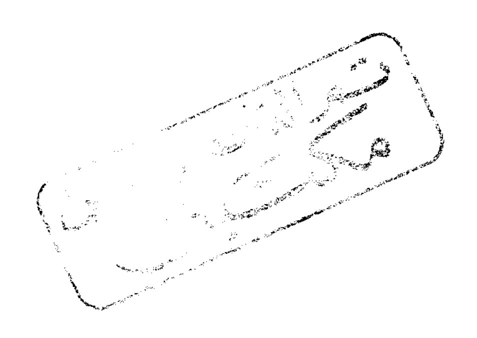
(٤) عاش من سنة ٤٦٠ حتى سنة ٣٧٠ ق.م.

وراء الطبيعيات أشد إتقان، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين، لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى وبقاء الأرواح والثواب والعقاب، فأعظم مدائن الإفرنج مدينة «لوندرة»، وهى كرسى الإنكليز، ثم «باريز»، وهى قاعدة ملك فرانسا، وباريز تفضل على لوندرة بصحة هوائها، كما قيل، وطبيعة الأهل، وبقلة الغلاء التام، وإذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيها وحظهم وانبساطهم مع أهلها، فالغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء ومراعاة خاطرهم، ولو اختلف الدين، وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون أن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، فإذا ذكرت له دين الإسلام فى مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها من حيث إنها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وإذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال: إنه لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية. وبالجملة، ففى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان، فلا يعارض مسلم فى بنائه مسجدا، ولا يهودى فى بنائه بيعة، إلى آخره، كما سيأتى فى ذكر سياستها. ولعل هذا كله هو علة تخصيص ولى النعمة لها بإرساله فيها أبلغ من أربعين نفسا لتعلم هذه العلوم المفقودة، بل سائر ممالك النصارى تبعث أيضا إليها، فيأتى إليها من بلاد أمريكة وغيرها من الممالك البعيدة، وقد بعث حفظه الله عدة للعلوم ببلاد الإنكليز، لكنهم ليسوا عديدين، وبالجملة، فسائر الأمم تطلب العز وتسعى إليه، كما قال الشريف الرضى:

★ اطلب العز فما العز بغال ★

ولا أعز من العلوم والفنون، تطلبها الملوك، فإنه كلما كان الملك أجل خطرا وجب أن يكون أدق نظرا.

الباب الرابع



«فى ذكر رؤساء هذه السفرة»

قد بعث صاحب السعادة فى السفر إلى بلاد فرانسا ثلاثة رؤساء من أكابر ديوانه السعيد، وجعلهم أرباب نظر على من عداهم، وهم على هذا الترتيب، فأولهم: صاحب الرأى التام، والمعرفة والأحكام، حائز فضيلتى السيف والقلم، والعارف برسوم العرب والعجم، حضرة جناب عبدى أفندى، المهردار، والثانى: صاحب الرأى السديد، والطالع السعيد، من خلع فى حب المعالى العذار، حضرة مصطفى مختار أفندى، الدويدار، والثالث: الحاوى بين العلم والعمل، واليراع والأسل،[1] حضرة الحاج حسن أفندى الإسكندرانى، بلغه الله فى الدارين الأمانى، أمين.

ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة يتعلمون أيضا كالباقى، فحضرة الأفندى المهردار. سابقا، يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية، وحضرة الأفندى الدويدار، سابقا، يشتغل بعلم تدبير الأمور العسكرية، وحضرة الحاج حسن أفندى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية. ولسائر الثلاثة اجتهاد زائد، وتحصيل بالغ، مع أن الإمرة فى الغالب تأنف ذلك. وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة، فكانت نوبة الواحد يوما والآخر يوما آخر، وهكذا، فآل الأمر إلى أن صارت شهرا شهرا. ثم صار الأفندى المهردار وحده، ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب مسيو «جومار» الذى ولاه صاحب السعادة ناظرا على الدروس. وهو أحد علماء «الأنستتوت»[2] أى مشورة العلوم، وأكابرهم، والذى يتراءى فى

(١) نبات دقيق الأغصان وطويلها، ويطلق اللفظ أيضا على الرمح والسيف والسكين.

(١) بفتح الهمزة وسكون النون وكسر السين. (الطهطاوى). وهى الكلمة الفرنسية: (L'Institut)

طبعه حب حضرة صاحب السعادة وخدمته بنصح، ويشاهد منه دائما أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها، بل وفى سائر بلاد الإفريقية، كما يفهم ذلك من حاله ومما قاله فى طالعة[1] رزنامته[2] التى ألفها سنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة[3] وشهرة معارف مسيو «جومار» وحسن تدبيره يوقع فى نفس الإنسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف، لأنه يدبر بقلمه مالا يدبر غيره بسيفه ألف مرة، ولا عجب فبالأقلام تساس الأقاليم، وهمته فى مصالح العلوم سريعة كثيرة التأليف والاشتغال، والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الإفرنج، فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر، وكالمفتاح الحديد إذا ترك ارتكبه الصداء، وجناب مسيو «جومار» يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار، وسيأتى ذكره عدة مرات، وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التى وصلت بيدى، إن شاء الله تعالى. وهنا انتهت المقدمة.

* * *

(المقصد)

فى مدة السفر من مصر إلى باريس، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق، ومدة الإقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية والفنون، والعدل العجيب، والإنصاف الغريب، الذى يحق أن يكون من باب أولى فى ديار الإسلام وبلاد شريعة النبى، ﷺ وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات تشتمل على عدة فصول[4]. . .

(١) مقدمة. .

(٢) الرزنامة هى التقويم الذى يتضمن معرفة الأيام والشهور وطلوع الشمس والقمر على مدار السنة.

(٣) وتوافى سنة ١٨٢٨.

(٤) هنا عدّد الطهطاوى مقالات كتابه فإذا هى أربعة. . وهو ما يغاير الواقع الذى تطور إليه الكتاب، فلقد كان كذلك عند وضعه بباريس، ثم بلغ ست مقالات وخاتمة بعد عودته إلى مصر. . ولقد آثرنا أن نصدر كل مقالة بالنبذة التى كتبها تعريفا بها فى هذا المكان.

المقـالـة الأولى

(فيـمـا كـان من الخـروج من مصـر إلى دخـول مـدينـة مـرسـيليـا، التى هى فـرضـة من فـرضـات الفرنسيس.

وفيـها عـدة فصـول).

الفصل الأول

فى الخروج من مصر إلى دخول ثغر الإسكندرية

كان خروجنا من مصر يوم الجمعة، الذى هو ثامن يوم من شعبان سنة إحدى وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة[1] المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع، وأن التسليم سيقوم مقام الوداع، فركبنا زوارق صغيرة وتوجهنا إلى إسكندرية، وأقمنا على ظهر النيل المبارك أربعة أيام، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التى رسينا عليها. وكان دخولنا إسكندرية يوم الأربعاء، ثالث عشر يوما[2] من شهر شعبان، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما فى سراية ولى النعمة. وكان خروجنا إلى البلد فى هذه المدينة قليلا، فلم يسهل لى ذكر شىء عنها، غير أنه ظهر لى أنها قريبة الميل فى وضعها وحالها إلى بلاد الإفرنج، وإن كنت وقتئذ لم أر شيئا من بلاد الإفرنج أصلا، وإنما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر، ولكثرة الإفرنج بها، ويكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شىء من اللغة الطليانية، ونحو ذلك، وتحقق ذلك عندى بعد وصولى إلى مرسيليا، فإن إسكندرية عينة مرسيلية وأنموذجها، (ولما ذهبت إليها سنة ٦٢[3] وجدتها قطعة من أوربا)[4].

---

(١) وتوافق سنة ١٨٢٦م.

(٢) صوابها اللغوى: الثالث عشر.

(٣) أى سنة ١٢٦٢ هجرية، وهى سنة ١٨٤٦.

(٤) هذه الجملة أضافها الطهطاوى فى طبعة الكتاب الثانية التى صدرت سنة ١٨٤٩م. ومعلوم أن طبعته الأولى صدرت سنة ١٨٣٤م. ولقد تضمنت طبعتنا هذه كل الإضافات التى ضمنها الطبعة الثانية لكتابه والتى لم توجد فى الطبعة الأولى ولا الثالثة، حيث إن الطبعة الثالثة الصادرة سنة ١٩٠٥م قد جاءت أقرب إلى الطبعة الأولى منها إلى الثانية.



الفصل الثانى

فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته

فنقول: إن إسكندرية منسوبة إلى إسكندر[1] ابن اليفلسوف وهو الذى قتل دارا وملك البلاد، «والإسكندرية ستة عشر بلدا[2] منسوبة إليه بلدة ببلاد الهند، وبلدة بأرض بابل، وبلدة بشاطئ النهر الأعظم، وبلدة بصغد سمرقد، وبلدة بمرو، واسم لمدينة بلخ، والثغر الأعظم ببلاد مصر، وقرية بين حماة وحلب، وقرية على دجلة قرب واسط، ومنها الأديب أحمد بن المختار بن مبشر، وقرية بين مكة والمدينة، وبلدة فى مجارى الأنهار بالهند، وخمس مدن آخر». انتهى.

ومرو بلدة من خراسان ببلاد الفرس، والنسبة إليها مروى ومروزى. وانظر ما مراده بالنهر الأعظم؟؟ ثم رأيت فى كتاب (تقويم البلدان) لعماد الدين أبى الفدا[3] إسماعيل بن ناصر، سلطان حماه: أن بالأندلس نهرا يسمى بالنهر الأعظم، وهو نهر أشبيلية ونص عبارته: «ومنها نهر أشبيلية من بلاد الأندلس، ويسمى عند أهل الأندلس النهر الأعظم». انتهى ولعله إنما سمى عندهم بالنهر الأعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر، كما نبه على ذلك أبو الفدا فى قوله: «يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الأرحا - لا تزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر صاعدة مع المد. وقال بعضهم فى المد والجزر:

---

(١) بفتح الهمزة. (الطهطاوى). وصواب الاسم. إسكندر بن فيلبش.

(٢) انظر (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) لصفى الدين البغدادى. جـ١ تحقيق على البيجاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤م.

(٣) أمير عربى، ومؤرخ، جغرافى (١٢٧٣ - ١٣٣١م) وهو صاحب (المختصر فى تاريخ البشر). تولى حكم «حماة» بسوريا، وشارك فى قتال الصليبيين.

خليلى بادر بى إلى النهر بكرة وقف منه حيث المد يثنى عنانه
ولا تجز الارحا فإن وراءها يبابا وعينى لا تريد عيانه

انتهى.

فعلى هذا تكون إسكندرية اسم بلد بالأندلس، ولعل إسكندر حين اجتيازه بجزيرة الأندلس بنى بها بلدة.

وذكر صاحب كتاب (نشق الأزهار فى عجائب الأقطار)[1] أن إسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الأندلس، وفتح بها «بغاز» جبل الطارق، والمسمى بحر الزقاق، وأن محل هذا «البغاز» كان أرضا بين طنجة وبلاد الأندلس، ولم يذكر فى هذا الموضع أن إسكندر بنى بلدة بهذه الجزيرة، لكن هذا لا يدل على عدم وجود بلدة بها. وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان كل منهما يسمى الإسكندر أحدهما إسكندر بن فيلسوف، والآخر بفتح الهمزة هو قاتل دارا، وقال فى القاموس فى موضع آخر: «ذو القرنين إسكندر الرومى، لأنه لما دعاهم إلى الله تعالى ضربوه على قرنه، فأحياه الله تعالى، ثم دعاهم فضربوه على قرنه الآخر، فمات، ثم أحياه الله، أو لأنه بلغ قطرى الأرض، أو لضفيرتين له». انتهى. فظاهر كلامه أن إسكندر ذا القرنين هو نفس إسكندر الرومى.

والذى عليه علماء الشرق أن ذا القرنين المذكور فى الآية الشريفة هو غير إسكندر اليونانى، فإن الأول أقدم من الثانى، وهو الذى قيل بنبوته، وإنه بنى سد يأجوج ومأجوج، وإنه بحث عن ماء الحياة بلا طائل، وفاز به الخضر، عليه السلام، فلذلك كان حيا إلى الآن. وأما الثانى فإنه يسمى إسكندر الرومى أو اليونانى، يعنى الإغريقى، لأن قدماء الأغارقة تسمى: اليونان، والمتأخرون يشتهرون باسم الأروام.

أما الإفرنج فلا يقولون إلا بوجود إسكندر الأكبر بن فليبش، أو ابن فيلبوش، المقدونى، ويجعلونه عين ما يعبر عنه فى التواريخ العربية باسم إسكندر ذى القرنين، وينسبون إليه سائر ما يحكى عنه من العجائب، كسد يأجوج ومأجوج، ونحو ذلك، غير أنهم لا يصدقون بما لا يوافق العادة.

---

(١) هو المؤرخ ابن إياس، محمد بن أحمد (١٤٤٨ - ١٥٢٤ م) صاحب (بدائع الزهور فى وقائع الدهور).

وعلى كل حال فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الإفرنج على أن إسكندرية تنسب إلى إسكندر الرومى، وقد سلف فى عبارة القاموس أسماء البلاد التى تسمى بإسكندرية، وليس مما ينسب إلى إسكندر الرومى الشهير بلدة الأرناؤط المسماة «إسكندر ياسى»، يعنى إسكندرية، بل هى منسوبة إلى إسكندر بيك. وقال بعضهم: مدينة إسكندرية ببر مصر كانت تسمى قبل بناء الإسكندر لها بنحو ثلاثمائة واثنين قبل ظهور عيسى عليه السلام قيسون[1]. وقال الإفرنج: إنها كانت تسمى «نو»[2] وقبل فتحها بالإسلام كانت تارة تحت حكم الرومان وتارة تحت حكم الأروام أو اليونان. وفتحها عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب، ولما فتحها عمرو بن العاص كتب إلى عمر رضى الله عنهما، أنه وجد بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودى تدفع الجزية، وأربعمائة ميدان، واثنى عشر ألف بقال وخضرى وفاكهانى، ولعل هذا من مبالغات المؤرخين، كما بالغوا فى غيرها من البلاد، كمدينة بغداد. ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص[3]، رضى الله تعالى عنه، فكانت عدة ما فيها من الكتب سبعمائة ألف مجلد، وقد كان أهل هذه المدينة فى سالف الزمان ثلثمائة ألف نفس تقريبا، وأهلها الآن أقل من ذلك بكثير، وقد تغلب عليها الفرنسيس ثم أخرجهم الإنكليز منها ورجعت إلى يد الإسلام، وهى الآن تلوح عليها أنوار العمارات بأنفاس صاحب السعادة، وبها بهجة التجارة، كما أنها كانت فى الزمن السابق مركزا للتجارات، وصارت فى هذا دار إقامة صاحب السعادة بها أغلب الأوقات، وهى أشبه وضعا وعمارة بفرضات الإفرنج، وهى على الشمال الغربى من القاهرة بنحو خمسين فرسخا، موضوعة فى إحدى وثلاثين درجة وثلاثة عشر دقيقة من العرض، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء، وسيأتى ذكر المسافة بينها وبين باريس.

(١) بفتح القاف وسكون الياء. (الطهطاوى).

(٢) بضم النون. (الطهطاوى).

(٣) قول الطهطاوى ترديد لرواية تاريخية، وكاذبة، فكل المؤرخين القدامى الذين أرخوا للفتح العربى لمصر لم يذكروا حرق العرب لمكتبة الإسكندرية، ولقد قام المؤرخ الإنجليزى «بتلر» بتفنيد هذه الفرية فى كتابه (فتح العرب لمصر) انظر طبعة القاهرة العربية. ترجمة محمد فريد أبو حديد.

الفصل الثالث

فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الإسكندرية

إعلم أن هذا البحر يسمى فى كتب الجغرافيا العربية بحر الروم، لأنه يتصل من أحد جهاته ببلاد الروم، ويسمى أيضا فيها بحر الشام، لمجاورته أيضا لبلاد الشام، ويسمى أيضا عند الإفرنج البحر المتوسط، أو الجوانى، وإنما سمى بذلك لأنه داخل الأراضى الناشفة[1] بخلاف البحر المحيط، فإنه محيط بجميع الأراضى، حتى قال بعضهم: إنه متواصل الجريان تحت الأرضى العالية على سطح مائه! وإن حقق بعضهم خلافه، لوجود الأراضى اليابسة تحت سطحه. كبعض أراضى الموسقو. ويسمى هذا البحر الجوانى باللسان التركى بحر «صفيد». لمقابلته بحر «بنطش»، أو البحر الأسود. وهناك بحر آخر يسمى بالبحر الأبيض وهو فى بلاد الموسقو، وهو المراد بالبحر الأبيض فى إطلاقات علماء الجغرافيا.

كان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الأربعاء، خامس من يوم رمضان، وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية، لا تغادر فى فؤاد الإنسان رعبا!، ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب حتى يصير فى وسطها صبا. محتوية على سائر ما يحتاج إليه من الحرف والصنائع، مشتملة على آلات الحروب وعلى الجربجية[2] ومحصنة بثمانية عشر من المدافع، وكان مجراها يوم الخميس، سادس يوم من شهر رمضان المبارك، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا، فسرنا من غير إشعار بالسير، ولم نتألم بذلك أبدا، وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء إلى

(١) أى اليابسة.

(٢) لعلهم الحاملون للجرابات - الجبخانات - المحتوية على ذخائر آلات الحرب.

إسلامبول، من تجرع حثوات[1] عظيمة من ماء البحر المالح، وقال: إنه يدفع ألمه، فكان الواقع إنه لم يحصل لى ألم، على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة:

★ وربما صحت الأجسام بالعلل★

ولا زلنا نسير من غير شدة تحرك واضطراب نحو أربعة أيام وبعدها عصفت الرياح، وتموج ماء البحر، وتلاعب بالأشباح والأرواح، فلازم أكثرنا الأرض، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض، ووقع عندنا الموقع قول بعض الظرفاء: خاطر من ركب البحر، وأشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة! وتحقق عندنا تضمين صاحبنا العلامة الصفتى لهزل أبى نواس فى قوله:

رأيت جميع الهائلات محيطة　　　بوطيى لأجل الحمل جارية البحر

فأقسمت عمرى لا ركبت سفينة　　　ولا سرت طول الدهر إلا على الظهر

غير أن المعتمد على الكريم لا يخشى من الخطب العظيم، وما أحسن قول من قال:

لما ركبنا ببحر　　　وكاد من خاف يتلف

على الكريم اعتمدنا　　　حاشاه أن يخلف

وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام، وصار يزور غبا.

ومما يستحسن فى طباع الإفرنج، دون من عداهم من النصارى، حب النظافة الظاهرية، فإن جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبطة مصر من الوخم والوسخ أعطاه للإفرنج من النظافة، ولو على ظهر البحر، فإن أهل المركب التى كنا فيها يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن، حتى أنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام، ويكنسونها فى صف النوم كل نحو يومين، وينفضون الفراش وغيره، ويشممونها رائحة الهواء، ويزيلون أوخامها، مع أن النظافة من الإيمان، وليس عندهم منه مثقال ذرة! ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة

(١) أى حسوات، وهذا هو صوابها.

لبلادنا، فإنهم لا يعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب (العوائد والأخلاق) المؤلف باللغة الفرنساوية، وعبارته: «أعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل أهل الفلمنك، فتجد فى مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض، المتعهد بالتنظيف، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضا، وشبابيكهم القزاز تغسل دائما، بل وحيطانهم الخارجة، وقد توجد النظافة فى حصة من بلاد الإنكليز، وببلاد الأقاليم المجتمعة من أمريكة، وهى قليلة فى فرنسا والنمسا وغيرهما، ومن الأمم من هى كثيرة الاتساخ وكثيرة القمل، بل نجد بعض أناس يأكلهم القمل ولا يبالون، وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الأقمصة البيض التى تغسل ويغير بها كل أسبوع مرة أو عدة مرات، فالملابس البيض من جملة ما أنتج النظافة والسلامة من آثار الأوساخ الرديئة». انتهى.

الفصل الرابع

فيما رأينا من الجبال والبلاد والجزائر

وقد مررنا على جزيرة كريد سابع يوم من سفرنا، ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان أيدا، الشهير بالأمور الغريبة فى تواريخهم، ثم فى اليوم الثالث عشر منه رأينا جزيرة سيسيليا[1] وهى مشهورة باللسان العربى باسم صقالية أو صقلية، وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد إيطاليا، ومنفصلة عنها بالبغاز المسمى بوغاز مسينة[2] وهى من أعظم جزائر البحر المتوسط وأخصبها، ولذلك كانت تسمى فى الزمن السابق «شونة رومة» وكانت فى الأعصر السالفة سببا لحرب الرومانيين مع أهل قرطاجة، أى سكان الغرب، ثم انتهى الأمر إلى أنها وقعت تحت حكم الرومانيين، ثم انتقلت منهم إلى ملوك اليونان، ثم فتحها المسلمون، ثم تغلب النصارى النرمندية[3] فرقة من الفرنساوية، ثم حكمها بعض ملوك الإسبانيول، ثم النيمسا، ثم انتهى الأمر إلى أن كانت جزءا من مملكة نابلى الكنان المسماة بولية حتى إنها هى ونابلى قد يسميان الآن عند الإفرنج السيسلتين بتغليب سيسليا على نابلى، وفى كتب الجغرافيا أن أهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ومدنها فوق الجبال، وقد رأينا بهذه الجزيرة، على بعد، فى اليوم الرابع عشر، الجبل المسمى منتثنا[4] ومنتثنا كلمة مركبة من كلمتين، إحداهما «منت» معناها جبل والأخرى «أثنا» فالأحسن كتابتهما هكذا منت أثنا، وهو مشهور الآن بلفظة جبل،

---

(١) بكسر السينين واللام والمهملتين، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين. (الطهطاوى).

بفتح الميم وتشديد السين المكسورة المهملة وسكون الياء وفتح النون. (الطهطاوى).

(٣) بضم النون المشددة وسكون الراء وفتح الميم وكسر الدال وفتح الياء المشددة. (الطهطاوى).

(٤) بفتح الميم وسكون النون وكسر التاء الفوقية وسكون التاء المثلثة. (الطهطاوى).

ويظهر لى أن هذا الاسم تحريف جبل فهو عربى أدخله المسلمون فى هذه الجزيرة وأطلقوه على هذا الجبل فبقى بعد خروجهم إلى الآن وتغير بتصحيف أهل هذه الجزيرة له، وهذا الجبل جبل نار، فإنه يخرج منه بالنهار دخان وبالليل لهب وقد يقذف مواد حجرية محترقة، ثم إن جبال النار تسمى بالإفرنجية الجبال البلكانية، ويسمى الجبل النارى بلكان[1] وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة بركان بالراء، ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس، ويسمى طهمة[2] كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى (مروج الذهب)، وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية كراتيرة[3] ولا يوجد جبل النار غالبا إلا فى الجزائر، وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاثة أقدام، وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنساوية، ودائرة فوهته ربع فرسخ، ثم إن العادة أن جبل النار يهيج ثم يسكن ثم يهيج، وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ثم يهيج ثانيا بعد مدة أعصر، وقد هاج جبل أثنا إحدى وثلاثين مرة، ومنها هيجانه سنة ألف وثمانمائة وتسعة، بتاريخ الإفرنج، وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاثة وتسعين، حيث إنه خرب مدينة كابان وأهلك ثمانية عشر ألف نفس، وعلامة هيجان البركان شدة العجيج والقرقعة والدوى تحت الأرض، وابتداء التدخين أو ازدياده. قال بعض الطبائعية: إننا إذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهى النيران التى تحت الأرض أو المحتقنة فى باطنها، إلا أن آثار الزلازل أوسع من آثار البراكين، يعنى أن آثار الزلازل تظهر فى متسع عظيم من الأرض بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد إلا بجوار قرب جبل النار، وقد جرت العادة أيضا أن الزلزلة تعظم بقدر البعد من البركان، علل ذلك بعضهم بقوله: إن النار التى تحت الأرض تحاول منفسا لتخرج منه، فإن كان فى الأرض بركان فإنها تخرج منه فتذهب قوة النار فتفقد الزلزلة، بخلاف الأرض الخالية من البراكين فإن النيران تحاول منفسا فيها فلا تجده، فترتج الأرض بذلك. وقال بعض الحكماء أيضا: إن كلا من الحوادث البركانية

---

(١) بضم الباء الموحدة وسكون اللام. (الطهطاوى). من الكلمة الفرنسية (Cratere).

(٢) بفتح الطاء وسكون الهاء. (الطهطاوى).

(٣) بكاف وتاء فوقية مكسورتين وفتح الراء الثانية. (الطهطاوى).

والزلازل صادر عن جاذبية المحاكة المسماة بالفرنساوية الإكتريستة[١]، المسماة الرسيس[٢] التى هى خاصة الكهرباء عند حكها. قال بعضهم، فى رد هذا القول: إنه ينافى ما اعتمده بعض الحكماء فى بناء الأرض، ونظم طبقات صخورها، ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه، ويقل كلما عظم العلو، وهذا ما جرت به العادة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفى اليوم الخامس عشر رسينا على مدينة «مسينة»، ولم نخرج من السفينة أبدا لأنهم لا يمكنون من يجىء من البلاد الشرقية إلى بلادهم أن يدخلها إلا بعد «الكرنتينة»، وهى مكث أيام معلومة لإذهاب رائحة الوباء، ولكنهم يجيئون الإنسان بسائر ما يحتاج، ويناولهم الثمن، فيضعونه فى ماعون فيه خل ونحوه مع التحفظ التام - راجع (الفصل الأول) من (المقالة الثانية) - وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا إليه من الفواكة والخضراوات والمياه العذبة، إلى آخره، وقد أقمنا «بموردتها»[٣] خمسة أيام وشاهدنا، من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية، ورأيناها توقد قناديلها ووقدانها قبل أن يدخل وقت الغروب وتمكث بعد شروق الشمس، وقد سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا، حتى إن ضربهم النواقيس مطرب جدا، وقد صنعت فى ليلة من الليالى فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة مضمونها ثلاثة معان: الأول: المجادلة فى أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة، مع العفاف، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة، وأنشأت فيه قولى:

أصبو إلى كل ذى جمال ... ولست من صبوتى أخاف

وليس بى فى الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفاف

الثانى: سكر المحب من معانى خمر عينى محبوبه، واستغنائه عن الراح براحته، وأنشأت فى هذا المعنى قولى:

---

(١) بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر التاء والراء وكسر السين وفتح التاء. (الطهطاوى). ومن الكلمة الفرنسية (Electricite).

(٢) بفتح الراء المشديدة وكسر السين. (الطهطاوى).

(٣) أى مينائها.

قد قلت ما بدا والكأس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه

حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

الثالث: فى تأثر النفس بضرب الناقوس إذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك، وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر:

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له من علم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت للنفس أى الضرب يؤلمكى ضرب النواقيس؟ أم ضرب النوى؟ قيسى!!

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة، والبحث فى معناها، ونوع تجانيسها، وبالجواب من بعض ألغاز نحوية، إلى آخره، وليس هذا محل بسط الكلام فى ذلك.

ثم سرنا من هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا، وسرنا حتى حاذينا جبل النار، وجاوزناه، وفى الرابع والعشرين جاوزنا مدينة نابلى، وتسمى باللغة التركية بولية، وتعديناها بنحو تسعين ميلا فانعكس الريح وصار قدام السفينة هابا من المقصد إليها فصارت تميل عن المقصد لا إليه لأنه من جهة الهواء ويعجبنى، قول بعضهم:

ومهفهف عنى يميل ولم يمل يوما إلى فقلت من ألم النوى

لم لا تميل إلى غصن النقا فأجاب كيف وأنت من جهة الهوا

وقال الصلاح الصفدى:

تقول له الأغصان إذ هز عطفه أتزعم أن اللين عندك قد ثوى؟

فقم نحتكم إلى الروض عند نسيمه ليقضى على من مال منا مع الهوى

فبانعكاس الريح رجعنا إلى مدينة نابلى بعد أن جاوزناها، ورسينا عندها، ولم ندخلها لما تقدم وهى من المدن العظمى ببلاد الإفرنج، وملكها يحكم على بلاد جزيرة صقلية المتقدمة، ومدينة نابلى هى كرسى هذا الملك، وقد تسمى باللغة العربية نابل الكتان، ولعله لأن كتانها جيد للغاية، وقد كانت مملكة نابلى فى يد

الإسلام ومكثت نحو مائتى سنة، ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية هى ومملكة صقلية، ولم تزل إلى الآن فى أيدى النصارى الإيطاليانية، حتى إنها تسمى بلاد إيطاليا الجنوبية، وقد أسلفنا أن مدينة نابلى هى إحدى البنادر الأصلية بالبلاد الإفرنجية.

ثم رأينا فى اليوم التاسع والعشرين جزيرة قرسقة[1] التى هى فى حكم الفرنسيس، وتسمى الآن جزيرة قرس، وقد فتحها المسلمون ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا، وهى وطن نابليون[2] الشهير باسم بونابرته، الذى تغلب على مصر فى غزوة الفرنساوية، ثم تولى سلطنه فرانسه، مع أن أباه كان رئيسا فى الطوبجية.

وفى اليوم الثالث والثلاثين رسينا على فرضة مرسيليا، فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما، ومنها مكثنا خمسة أيام قدام مسينة[3] ونحو يوم قدام نابلى، وتأخرنا كثيرا بلعب الرياح، ولولا ذلك لوصلنا فى أقل من هذه المدة بشىء يسير.

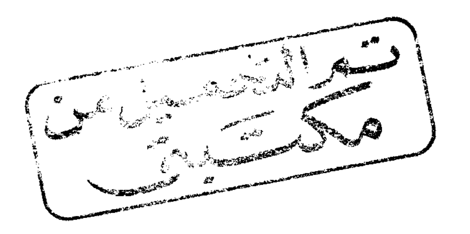
(١) بضم القاف وسكون الراء وضم السين وفتح القاف. (الطهطاوى).

(٢) بضم الباء وسكون اللام وبالياء. (الطهطاوى).

(٣) بفتح الميم وتشديد السين وفتح النون. (الطهطاوى).

المقالة الثانية

(فيما كان من دخول مرسيليا إلى دخول مدينة باريس.
وفيها فصلان).



الفصل الأول

(فى مدة إقامتنا فى مدينة مرسيليا)

قد رسينا على موردة مرسيليا التى هى إحدى فرض بلاد فرانسا، فنزلنا من سفينة السفر فى زوارق صغيرة، فوصلنا إلى بيت خارج المدينة معد «للكرنتينة» على عادتهم من أن من أتى من البلاد العربية لا بد أن يكرتن قبل أن يدخل المدينة. ولنذكر هنا ما قيل فى «الكرنتينة» بين علماء المغرب، على ما حكاه لى بعض من يوثق به من فضلاء الغرب، قال: وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى المالكى، المدرس بجامع الزيتونة، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد بيرم، المؤلف عدة كتب فى المنقول والمعقول، وله (تاريخ دولة بنى عثمان)، من مبدئها إلى السلطان محمود الحالى، محاورة فى إباحة «الكرنتينة» وحظرها، فقال الأول بتحريمها، والثانى بإباحتها، بل وبوجوبها، وألف فى ذلك رسالة، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة، وأقام الثانى الأدلة على التحريم، وألف رسالة فى ذلك جعل اعتماده فيها على الاستدلال على أن «الكرنتينة» من جملة الفرار من القضاء. ووقعت بينهما محاورة أيضا نظير هذه فى كروية الأرض وبسطها، فالبسيط للمناعى، والكروية لخصمه!

وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة، وأنها سائرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوى، بأرض أزوات بقرب بلاد تميكتو، وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك ضاهى به «متن خليل» وضاهى أيضا الفقيه ابن مالك فى النحو، وله غير ذلك من المصنفات فى العلوم الظاهرية والباطنية كأوراد والحزاب، كحزب الشاذلى، وقد ألف كتابا سماه (النزهة) جمع فيه جملة علوم، فذكر بالمناسبة علم الهيئة،

فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها، ووضح ذلك، فتخلص من كلامه: أن الأرض كرة ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها ـ مات الشيخ سنة ألف ومائتين وستة وعشرين من الهجرة[١] النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وخلفه حفيده المسمى باسمه.

ثم إن هذا البيت الذى كنا فيه للكرنتينا متسع جدا، به القصور والحدائق والبناء المحكم، فيه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها وامتلائها بالرياض والحياض، إلى آخره، ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة مفروشة من الأرض، فضلا عن الجلوس بالأرض، ثم مدوا السفرة للفطور، ثم جاءوا بطبليات[٢] عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز وسكينة وشوكة وملعقة، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر به فلفل، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى لكل واحد كرسى، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع، فيعطى لكل إنسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكينة التى قدامه ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه أبدا، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة.

ومما يشاهد عند الإفرنج أنهم لا يأكلون أبدا فى صحون النحاس بل، ولا فى أوانيه أبدا ولو مبيضا، فهى للطبخ فقط، بل دائما يستعملون الصحون المطلاة. وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها، فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة، ثم بعده باللحوم، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة، كالخضراوات والغطورات ثم بالسلطة، وربما كانت الصحون مطلاة

---

(١) وتوافق سنة ١٨١١ م.

(٢) مناضد الطعام.

بلون الطعام المقدم، فصحون السلطة مثلا خضر منقوشة بلون السلطة، ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه، ثم بالشراب المخدر، إلا أنهم يتعاطون منه القليل، ثم بالشاى والقهوة، وهذا الأمر مطرد للغنى والفقير كل على حسب حاله، ثم إن الإنسان كلما أكل طعاما فى صحنه غيَّره وأخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر، ثم أنهم احضروا الفراش، والعادة عندهم أنه لا بد أن ينام الإنسان على شىء مرتفع، نحو سرير، فأحضروا ذلك لنا. ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما لا نخرج منه أبدا، غير أنه متسع جدا، وفيه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتماشى فيها والتنزه فى رياضها. ومن هذا البيت ركبنا العربيات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع، وسرنا بها إلى بيت فى المدينة، لكنه فى حواشيها، من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وأداواتها، فمكثنا منتظرين التوجه إلى مدينة باريس، ومدة مكثنا فى هذا البيت كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد، وندخل بعض القهاوى. والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش، بل هى مجمع لأرباب الحشمة، إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق إلا بالغناء التام، وأثمان ما فيها غالية جدا، فلا يدخلها إلا أهل الثروة، وأما الفقراء فإنهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والمحاشش.

وقد أسلفت أن مدينة إسكندرية تشبه فى حالها مرسيليا، وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربيات معا فى طريق واحد، ثم إن سائر القاعات أو الأروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مراء[1] عظيمة كبيرة حتى أنه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ليظهر لها رونق عظيم، فأول مرة خرجنا إلى البلدة ومررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرايا والمشحونة بالنساء الجميلات، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة، وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجة والرأس والنحر وما تحته والقفا وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين، والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، وأما الأشغال فهى للرجال، فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها وعلى ما يعمرها، وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها

---

(١) أى مرايا، جمع مرآة.

فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة، وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمسجرات، ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش، وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات، فإذا طلب الإنسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية وهى تأمر بإحضاره له، وتكتبه فى دفاترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبى للطالب حين يريد الدفع، والعادة أن الإنسان إذا طلب القهوة أحضر له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه، ففعلنا ذلك كعادتهم، وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر، وبالجملة فهو قدح لا فنجان، وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية[١] لأجل المطالعة فيها، وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة لما أن بها كثيرا من الناس، فإذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما فيظن أن هذه القهوة طريق، وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلا بسبب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج، فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الإنسان، كما قال بعضهم فى هذا الشأن :

أبرقع منظر المرآة عنه   مخافة أن يثنيه لعينى
أقاسى ما أقاسى وهو فذ   فكيف إذا تجلى فرقدين

وعادتها عند الإفرنج بسبب تعددها على الجدران وعظم صورتها أن تعدد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان، ومن كلامى :

يغيب عنى فلا يبقى له أثر   سوى بلقبى ولم يسمع له خبر
فإن بدا وأرى المرآة طلعته   يلوح فيها بدور كلها صور

---

(١) أى الصحف القومية .

وقال شيخنا العطار : لم أر ألطف تخيلا فى هذا المعنى من قول ابن سهل[1] :

ألقى بمرآة فكرى شمس صورته فعكسها شب فى أحشائى اللهبا

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة :

رأى حُسن صورته فى المرآة فأصبح صبابها مدنفا

وصيَّر يعقوب أسماله يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس .

ومدة إقامتنا فى مرسيليا بعد الكرنتينة أشغلناها أيضا بتعلم تقطع الحروف ، يعنى تعلم تهجى اللغة الفرنساوية ثم أنه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود أحد من الإسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فإن منهم من مات ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصا المماليك الجورجية والجركسية والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها ، وممن تنصر إنسان يقال له عبد العال ، ويقال إنه كان ولاه الفرنسيس بمصر «أغاه انكشارية» فى أيامهم ، فلما سافروا تبعهم وبقى على إسلامه نحو خمسة عشر سنة ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل .

ويقال : إنه سمع منه عند موته يقول : «أجرنى يا رسول الله» ولعله ختم له بخير ، وعاد إلى الإسلام ، فقال بلسان الحال :

الحمد لله، والحنيفة ملتى والله ربى، وابن آمنة نبى

ولقد رأيت له ولدين وبنتا أتوا إلى مصر وهم على دين النصرانية ، أحدهما معلم الآن فى مدرسة أبى زعبل .

---

(١) إبراهيم الأشبيلى (المتوفى سنة ١٢٦٠ م) شاعر أندلسى ، مسلم ، من أصل يهودى ، غلب الغزل على شعره .

ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سر عسكر المسمى «منو»، والمتولى فى مصر بعد قتل الجنرال كليبر[1] كان أسلم فى مصر نفاقا، كما هو الظاهر، وتسمى عبد الله، وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد، فلما خرج الفرنسيس من مصر وأراد الرجوع أخذها معه، فلما وصل رجع إلى النصرانية، وأبدل العمامة بالبرنيطة[*]، ومكث مع زوجته وهى على دينها مدة أيام، فلما ولدت وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك، وقالت: لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل، فقال الزوج: إن كل الأديان حق وأن مآلها واحد، وهو عمل الطيب، فلم ترض بذلك أبدا، فقال لها: إن القرآن ناطق بذلك وأنت مسلمة فعليك أن تصدقى بكتاب نبيك، ثم أرسل بإحضار أعلم الإفرنج باللغة العربية البارون دساسى[2] فإنه هو الذى يعرف فى القرآن، وقال لها: سليه عن ذلك، فسألته، فأجابها بقوله: إنه يوجد فى القرآن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة: ٦٢) فحجها بذلك، فأذنت بمعمودية ولدها، ثم بعد ذلك انتهى الأمر، على ما قيل، أنها تنصرت وماتت كافرة.

كل دين إن فاتك الإسلام فمحال، لأنه أوهام

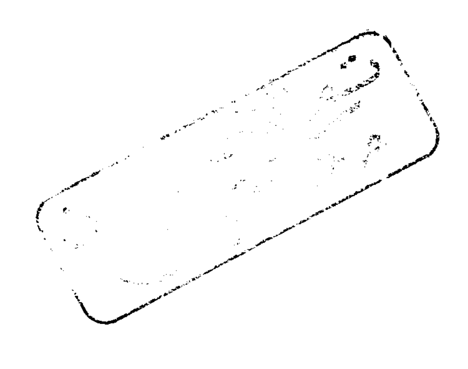
ومما رأيت من جملة المصريين فى مرسيليا إنسانا لابسا أيضا كالإفرنج، واسمه محمد، منطلق اللسان فى غير اللغة العربية، فلا يعرف من اللسان العربى إلا اليسير فسألته عن بلدته ببر مصر فأجاب بأنه من مدينة أسيوط، من أشرافها، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم، وهو من أكابر هذه البلدة، وأمة تسمى مسعودة، أو قريبا من ذلك الاسم، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره، ويقول إنه باق على إسلامه وأنه يعرف من الأمور الدينية: الله واحد، ومحمد رسوله، والله الكريم!

(١) بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء. (الطهطاوى).

(*) الصواب أن يقال: «وأبدل بالعمامة البرنيطة» لأن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

(٢) هو البارون دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨ م) من كبار أعلام المستشرقين الفرنسيين. انظر خلاصة ترجمته وآثاره فى الفكر العربى بموسوعة (المستشرقون) جـ ١ ص ١٧٩ - ١٨٢.

ومن العجائب أننى بعد كلامه توسمت فيه الخير، وكان على وجهه سمة أشراف أسيوط حقيقة، فإن صح كلامه كان من أولاد سيدى حريز بن سيدى أبى القاسم الطهطاوى، وأشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى أبى القاسم، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير، ذريته أهل جزيرة شندويل. وشهرة أبى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه وإن لم يذكره سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات، وكثير من الأشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم إلى سيدى حريز المتقدم. ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة «السبكتاكل»(١) وأمرها غريب، ولا يمكن رأيته بوصفها بل لا بد من رؤيتها بالعين، ولنذكرها فى الكلام على باريس. ومكثنا فى هذه البلدة خمسين يوما، وتوجهنا إلى باريس.



(١) من الكلمة الفرنسية: (Spectacle).

الفصل الثانى

فى الخروج من مرسيليا
إلى دخول باريس،
وفى المسافة بينهما

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا إلى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة أو موضعها فيها، فإما أن يأكلوا على كيسهم[1] أو يدفعوا قدرا معلوما للعربة والقوت مدة الطريق، ثم إن السفر يكون ليلا ونهارا إلا وقت الأكل ونحوه، وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات، فى غاية النظافة والظرافة، وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم، وبالجملة، فهى مستكملة الآلات والأدوات، فلما ركبنا عربات السفر، كل جماعة منا فى يوم، وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا مستمرا على حالة واحدة، ولا يتأثر الإنسان كسفر البحر بالرياح ونحوها، وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث.

ومدينة ليون على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا، ومن ليون إلى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا، ومن مرسيليا إلى باريس مائتان وأحد عشر فرسخا فرنساويا، وقد مكثنا فى ليون نحو اثنتى عشر ساعة للاستراحة، ولم أر داخل هذه المدينة إلا بالمرور فيها أو من شباك البيت الذى فيه.

ومن لم يستطع إعلام رضوى   لينزل بعضها نزل السفوحا

---

(١) أى على حسابهم الخاص.

ثم سرنا منها ليلا إلى باريس فدخلناها صباحية اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا .

وقد مررنا بقرى كثيرة ، وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر ، عظيمة الأبنية ، مزينة بالأشجار ، وبالجملة ، فالقرى مسلسلة متصلة ببعض غالبا ، خصوصا مع جد السير ، حتى إن الإنسان لا يظن إلا أنه بلدة واحدة ، والمسافرون غالبا فى ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق ، وندر تخلفه فى بعض المحال ، ثم إن الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة باريس ، غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء باريس كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران .

المقالة الثالثة

(فى دخول باريس، وذكر جميع
ما شاهدناه وما بلغنا خبره من
أحوال باريس. وهذه المقالة هى
الغرض الأصلى من وضعنا هذه
الرحلة، فلذلك أطنبنا فيها غاية
الإطناب، وإن كان جميع هذا لا يفى
بحق هذه المدينة، بل هو تقريبى
بالنظر لما اشتملت عليه، وإن
استغرب هذا من لم يشاهد غرائب
السياحة. قال بعضهم:

من لم ير الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا الناس

فمن باب أولى بلاد «أفرنجستان»).

الفصل الأول

(فى تخطيط باريز من جهة وضعها الجغرافى)
(وطبيعة أرضها، ومزاج إقليمها وقطرها)

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس بارى، بالباء الفارسية التى تلفظ بين الفاء والباء، ولكن يكتب هذا الاسم باريس، ولا ينطق بالسين أبدا فيه كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبدا، خصوصا حرف السين فى آخر بعض الكلمات، فإنه لا ينطق به أبدا، مثلا أتينة ـ بإمالة التاء ـ تكتب بالفرنساوية أتينس، وتقرأ أتين، ثم إن العرب والترك ونحوهم يكتبون: باريس أو: بريس أو: باريز، وربما قالوا: فايس، وأظن أن الأوفق كتابتها بالسين، وإن اشتهر على ألسنة غير أهلها قراءتها بالزاى، ولعل ذلك إنما نشأ عن أن السين فى اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا فى بعض الأحيان، ببعض شروط، وإن كانت مفقودة هنا إلا فى حال النسبة، فإن النسبة إلى باريس عند الفرنسيس بارزيانى، وهذا بعينه هو السبب لأن النسبة ترد الأشياء إلى أصولها، ولكن هذه القاعدة فى النسبة العربية، والنسبة هنا أعجمية، وقد مشيت فى بعض أشعارى التى أنشدتها فيها على كتابتها بالسين حيث قلت:

لئن طلقت باريسا ثلاثا	فما هذا سوى لوصال مصر
فكل منهما عندى عروس	ولكن مصر ليست بنت كفر

وقلت:

لقد ذكروا شموس الحسن طرا	وقالوا إن مطلعها بمصر

ولكن لو رأوها وهى تبدو ببـاريس لخصوها بذكـر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى الباريزيين، ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى، وليس هذا الاسم منقولا عن باريس، اسم رجل شهير، كما قال بعضهم.

ثم إن هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا، ومن أعظم مدائن الإفرنج الآن. وهى كرسى بلاد الفرنسيس، وقاعدة ملك فرانسا، وسيأتى تفصيل ذلك فى محله، وهى موضوعة فى التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى، يعنى أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر، وأما طولها فإنه يختلف، فإذا اعتبرنا خط نصف النهار الذى ينسب إليه الفرنساوية أطوال سائر الأماكن، وهو خط نصف النهار المرسوم فى رصدهم السلطانى، وهو يمر بباريس، فهو حينئذ مبدأ الأطوال على حساب الفرنساوية، فيكون طولها صفرا، وأما إذا حسبنا على خط نصف النهار الذى كان يأخذ بطليموس[1] الأطوال منه، ولا زال إلى الآن مبدأ أطوال بعض الأمم كأهل الفلمنك، وهو خط نصف نهار الجزائر الخالدات ببحر المغرب، كانت باريس فى عشرين درجة تقريبا من الطول الشرقى.

ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتى الطول والعرض من مكان من الأمكنة وثمرة ذلك، وإن كان يخرجنا عما نحن بصدده فنقول:

إعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض، وأنها غير صادقة التكوير، ثم صنعوا على هيئتها صورة وسموها صورة الأرض، ولإمكان تقسيم الأرض وتسهيل معرفتها توهموا فيها دوائر أنصاف نهار، ودوائر متوازية، ومحورا، وقطبين ورسموها على صورتها المصطنعة، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك، وطرفاه هما القطبان، ويسمى أحدهما القطب الشمالى

---

(١) كلوديوس بطليموس، يونانى مصرى، نشأ بالإسكندرية فى الربع الثانى من القرن الثانى الميلادى، وتوفى بعد سنة ١٦١م. وكتب فى التاريخ، ولكن شهرته الأساسية كانت ولا تزال فى الفلك والرياضة والجغرافيا والفيزيقا.

والآخر القطب الجنوبى ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين إلى الآخر، وعلة تسميتها بذلك أنه إذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بذلك المحل ومركز هذه دوائر هو مركز الأرض، وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصاف النهار، وهى التى بينها وبين مركزها تواز على محور الأرض، وأعظمها دائرة الاستواء، وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين، وهى تنصف الكرة نصفين، أحدهما النصف الشمالى والآخر النصف الجنوبى، ثم إن دوائر أنصاف النهار والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة، وكل درجة تتجزأ إلى ستين دقيقة، وكل دقيقة إلى ستين ثانية، وكل ثانية إلى ستين ثالثة وهكذا، وللإفرنج تقسيم آخر جديد، هو أن الدائرة تنقسم إلى أربعة أرباع، وكل ربع يتجزأ ماية تسمى درجات مائينية، وكل ساعة مائة دقيقة مائينية، وكل دقيقة مائة ثانية كذلك، وهكذا، وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الإعشارى والحساب المترى، والأول أشهر استعمالا، وبهذه الدوائر يتحدد الطول والعرض وذلك أن العرض هو بعد دائرة متوازية عن المتوازية العظمى التى هى دائرة الاستواء، فإن أخذته جهة الشمال كان عرضا شماليا، ونهايته تسعون درجة، وإن كان جهة الجنوب فجنوبى ونهايته كذلك، وأما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على أنه أولى وهو شرقى، وقدره مائة وثمانون درجة، وغربى، وقدره كذلك، وقد وضع أصحاب الجغرافيا فى الأكرة أو الخرطات على كل دائرة متوازية ما تبعده به الدرجات عن دائرة الاستواء، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الأولية، وقد رسم - كما أسفلناه - بطليموس الحكيم دائرة نصف النهار الأولية فى الجزائر الخالدات، فلما انكشفت بلاد أمريكة اختار الإفرنج أن يجعل أهل كل قطر من الأقطار خط نصف نهارهم الأولى ببلادهم لينسبوا إليها ما عداها كما صنع الفرنساوية، فإنهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس، وبقيت منهم أمم كالفلمنك على أخذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات.

وفى الواقع أن الأولى كما هو الظاهر اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم

ينسب إليه ما عداه، ويكون فى قطر لا عمار بعده، معلوم أو ممتاز بمزية، كمكة المشرفة، ثم إن كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن أخذها بتفاوت الأوقات وذلك أنه من المعلوم أن الشمس أو الأرض، كما يقوله الإفرنج، تقطع حركتها اليومية فى أربع وعشرين ساعة، فهى تقطع من الدائرة التى ترسمها فى سيرها خمسة عشر درجة فى كل ساعة، فتكون تقطع درجة كل أربع دقائق يعنى أنه إذا دخل وقت الظهر فى القاهرة مثلا فلا يدخل وقته إلى المكان الذى يبعد عنها جهة الغرب بخمسة عشرة درجة إلا بعد ساعة، ويدخل بعد ساعتين فيما يبعد عنها بثلاثين درجة، وهلم جرا، وبعكس ذلك فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق، فإنه إذا كان الظهر فى القاهرة يكون مضى ساعة الظهر فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق بخمسة عشر درجة، ويكون مضى ساعتان فيما يبعد عنها فى هذه الجهة بثلاثين درجة، إلى آخره.

فلنذكر هنا حينئذ أنه إذا كان الظهر فى أصول البلاد الغربية من باريس والشرقية منها كيف يكون فيها، وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد فيقال: إذا كان وقت الظهر فى مصر القاهرة لا يدخل وقته فى باريس إلا بعد مضى ساعتين إلا أربع دقائق، وإذا كان الظهر فى إسلامبول كان فى باريس بعد مضى ساعة وستة وأربعين دقيقة، وإذا كان فى بغداد كان دخوله فى باريس بعد ساعتين وثمانية وأربعين دقيقة، وفى حلب إذا دخل الظهر لا يدخل فى باريس إلا بعد ساعتين وثلث، وإذا دخل الظهر فى الجزائر لا يدخل فى باريس إلا بعد أربعة دقائق تقريبا، وإذا دخل فى تونس فيدخل فى باريس بعد مضى نصف ساعة ودقيقتين، ووقت الظهر فى أصفهان يدخل فى باريس بعد مضى ثلاث ساعات واثنين وعشرين دقيقة، وإذا كان فى مدينة بكين[1] يكون فى باريس سبع ساعات وإحدى وأربعين دقيقة، وفى مدينة الباب والأبواب تكون ساعة وثمانية وأربعين دقيقة، وفى مدينة رومة الكبرى نصف ساعة وثمانية دقائق، وهذه البلاد على الشرق من مدينة باريس، وأما البلاد التى على غربيها فإذا كان الظهر فى مدينة مدريد، كرسى ملك الأندلس، فإنه يكون

(١) بكسر الباء والكاف، كرسى ملك الصين. (الطهطاوى).

فات وقته فى باريس بأربعة دقائق، وإذا كان فى مدينة لشبونة، كرسى البرتوغال، فإنه يكون فات وقته فى باريس بخمسة دقائق ونصف، وإذا دخل وقته فى «فيلادلفيا»(١) فإنه يكون قد مضى بعده فى باريس خمس ساعات وثلاثة عشر دقيقة، وإذا كان وقته فى مدينة ريوجانيرو(٢) فإنه ثلاث ساعات تقريبا، وإذا كان نصف النهار فى جزيرة كنفوا، كرسى سلطنة أبرزيلة فى أمريكا الموسقو، يكون نصف الليل فى باريس، فإنهما متقاطران.

والمسافة بين باريس وإسكندرية سبعمائة وتسعة وستون فرسخا فرنساويا، وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسعة فراسخ وبينها وبين مكة المشرفة سبعمائة وأربعون فرسخا، وبينها وبين إسلامبول خمسمائة وستون فرسخا، وبينها وبين حلب ثمان مائة وستون فرسخا، وبينها وبين مراكش سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا، وبينها وبين تونس ثلثمائة وسبعون فرسخا، وبينها وبين مدينة لوندرة، كرسى الإنكليز، مائة فرسخ، وبينها وبين مدينة بترغ، كرسى الموسقو خمسمائة وستة وأربعون فرسخا، وبينها وبين مدينة موسقو، كرسى الموسقوبية القديم ستمائة فرسخ، وبينها وبين مدينة رومة، كرسى البابا، ثلاثمائة وخمسة وعشرون فرسخا، وبينها وبين مدينة مجة، كرسى النمسا، ثلثمائة وخمسة وعشرون، أيضا، وبينها وبين مدينة نابلى ثلثمائة وأربعة وثمانون فرسخا.

وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانية عشر قامة، ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة، فليست فى غاية الحرارة ولا فى غاية البرودة، فإن أقصى درجات الحر فيها يكون إحدى وثلاثين درجة ونصف، وهذا نادر، والحر الأوسط تسعة وعشرون درجة، وأقصى درجات البرد بها، فى الغالب، اثنا عشر درجة، وندر بلوغة ثمانية عشر، والبرد الأوسط سبع درجات. ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات فى الذوبان إلى حد فوران الماء، ودرجات البرد من

---

(١) بكسر الفاء وسكون الياء وفتح اللام وكسر الدال المهملة وسكون اللام وكسر الفاء، مدينة بأمريكة. (الطهطاوى).

(٢) بكسر الراء وضم الياء وكسر النون وسكون الياء. (الطهطاوى).

شروعه فى الجمود، والأغلب فيها عدم صحو الزمن، وكثرة الغيوم، بحيث تمكث الشمس فى الشتاء عدة أيام لا تتكشف ولا يرى جرمها غالبا، فما كأنها إلا ماتت وعاش الليل، ويحسن هنا قول بعضهم:

قلت والليل مقيم ودجاه غير سارى
أعظم الخالق أجر الـ خلق فى شمس النهار
فلقد ماتت كما ما ت غرامى واصطبارى

وفى أيام الغيوم يصلح لها ما فى ديوان الشهاب الحجازى من قول الشاعر:

تظل الشمس ترمقنا بطرف خفى مدنف من خلف ستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى كعنين يحاول فتق بكر

وقد فقد بعض الشعراء الورقة المشتملة على البيت الأول وعثر على الورقة المشتملة على البيت الثانى من هذين البيتين فكمله بقوله:

أزال الغيم ضوء الشمس عنا فما زالت وقد حجبت بستر
تحاول فتق غيم وهو يأبى كعنين يحاول فتق بكر

وقد ضمن هذا المعنى العلامة الصفتى فى قوله:

وطلعة مصر معشوقى ولكن أريد وصالها وتريد هجرى
أحاول من تحجبها اختراقا كعنين يحاول فتق بكر

وضمن ذلك أيضا فى «عكا» فقال:

وعكاء الفريدة فى جمال لها مهج الفرا عن دون مهر
وخاطبها سوى من كان فيه كعنين يحاول فتق بكر

ففض ولى النعمة ختامها، وزالت بكارتها، فكان ما ظن أنه عنين بالنسبة إليها

هو شديد قوى على فض الختام لجميع مدن الشام وغير الشام[١] وكان جديرا بقول الشاعر :

يا مليك الأرض بشرا	ك فقد نلت الإرادة
حصن عكار يقينا	هو عكا وزيادة

وقد أرخ شعراء مصر أخذ مدن الشام والروم[٢] وأجادوا .

وأما المطر فإنه لا ينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة ، وإذا نزل فى الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره إلى جعل أعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه إلى أسفل الدور ، وفى سائر البيوت والطرق مجار وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق باريس محدودة بمجار كالقناة الجارية المياه ، خصوصا وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر فلا تتشرب المياه أبدا بل تسير إلى هذه المجارى ومنها إلى البالوعات . وتغير مزاج الهواء والزمن فى باريس أمر عجيب ، فإنه قد يتغير فى اليوم الواحد أو مع ما بعده ، حال الزمن مثلا يكون فى الصباح صحو عجيب لا يظن الإنسان تغيره فلا يمضى نصف ساعة إلا ويذهب بالكلية ويخلفه المطر الشديد ، وقد يكون حر يوم من الأيام أربعة وعشرين درجة ولا يصل اليوم الآتى إلى اثنى عشر ، وهكذا ، فقل أن يأمن الإنسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج أهلها - كما سيأتى - ومعلوم أنه ينبغى أن يتحفظ الإنسان من ضرر هذا التغير ، وإن كان هواء باريس فى الجملة طيبا مناسبا للصحة ، ومع أن حرها لا يصل إلى حر القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف أبدا ، ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد إلى شدة الحر ، وأما بردها فإنه وإن كان فى طاقة الإنسان تحمله من غير عظيم

---

(١) يشير الطهطاوى إلى فتوحات الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا فى الشام ضد القوات العثمانية ، وكان من بينها فتحه لمدينة «عكا» فى سنة ١٣٨٢ م (ذى الحجة سنة ١٢٤٧ هـ) . انظر دراستنا المعنونة (وثائق الانتصار المصرى فى عكا) مجلة (الهلال) عدد يونية سنة ١٩٧٠ م ص ٨٤-٩٣) .

(٢) أى الاتراك العثمانيين ، وهذه التسمية أطلقها عليهم الكتاب العرب تمييزا لهم عن أتراك أواسط آسيا . انظر الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) - فصل : فكرة فى العروبة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

تعب فإنه لا يمكن للناس الشغل إلا بالتدفئة بالنار، فلذلك كانت لسائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وجوانيتها مداخن مبنية فى الأرض ليوقد فيها النار، وهى مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر فى الأوضة دخان الحطب، فإن هذه المداخن نافذة إلى الهواء، فيجذب الهواء الدخان ويطرده خارج البيت، وفى بعض الأوض يصنعون نوعا من الفرن له باب من حديد ويلحقون به قصبة من صفيح وينفذون هذه القصبة فى فرجة تتصل بالهواء، فيضعون الخشب فى الفرن ويغلقون باب المحمى[١] فيصعد الدخان جهة القصبة، ومنها يصعد إلى الخلاء، فتسخن الفرن وتحمى قصبتها فتسخن الأوضة أو الرواق أو نحوها. وعندهم نوع آخر عجيب يسمى المداخن المسقوبية، وعادة المدخنة أو الفرن المسماة عند الفرنساوية «بوالا»[٢] أن ظاهرها مطلى طلاء عظيما فى غاية النظافة، والمدخنة دائما مرخمة الجوانب، ولها عرصة من حديد، وهى عند الفرنساوية لحسن صناعتها من زينة المحل، فيكتنفونها فى الشتاء، ومن أعظم مظاهر إكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار، ولا عجب فى ذلك، نسأل الله إنقاذنا من حر نار جهنم، ولله در القائل:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد　　　أكل الفواكه شاتيا فليصطل

وأحسن من قال:

دخلت يوما على صديق　　　والبرد يفرى به الفريا

فأوقد النار قلت كلا　　　لأنت أولى بها صليا

وبالجملة، فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنساوية جزؤ من المؤنة، فهذا ما يستعينون به على البرد، وأما ما يستعينون به على التوقى من ضرر المطر فهو المظلات المسماة فى مصر الشمسيات، يعنى وقايات الشمس، وتسمى تلك عند الفرنساوية وقاية المطر، وفى الحر تمشى النساء بالشمسيات، ولا يمكن للرجال ذلك أبدا، وأرض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة، فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه

---

(١) جزء الفرن الذى توضع فيه مادة الحريق، وهو تعبير شائع فى ريف مصر.

(٢)من الكلمة الفرنسية: (Poeles).

بستان عظيم الأشجار والخضروات وغيرها، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة، فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم، مثلا شجر النخل لا يخرج إلا فى الأقاليم الحارة، ومع ذلك فإن الفرنساوية صنعوا كل الحيل حتى زرعوا منه شيئا، وإن كان لا يثمر، إلا أنه ينفعهم فى الرجوع إليه عند قراءتهم فى علم النباتات، وقد اشتهر عندنا أن النخل لا يوجد إلا ببلاد الإسلام، ويرد عليه أنه عند كشف بلاد أمريكة وجدوا بها نخلا غير منقول ـ كما هو الظاهر ـ من بلادنا، فانظر هذا مع قول الفاضل القزوينى[١] فى كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) ما نصه: «نخل: شجرة مباركة عجيبة، من عجائبها أنها لا تنبت إلا فى الإسلام». انتهى. ولعل النخل الموجود فى غير بلاد الإسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند أهل النباتات، والمقصور على بلاد الإسلام نخل التمر لمناسبة مزاج قطرها، فتأمل.

وبقرب أرض باريس عين ماء معدنى باردة الماء، ويشقها نهران، أحدهما، وهو الأعظم والأشهر، يقال له: نهر السين[٢] والآخر نهر غويلان. قال بعض علماء الكيمياء، من الإفرنج: إن أقل المياه خليطا بالمواد الخارجية نيل مصر، ونهر الكنك ببلاد الهند، ونهر السين بباريس، ويتفرع على ذلك اعتبار مائها فى فن الطب من الأمور المناسبة لصحة الأبدان، وأنه يحسن تطييب وطبخ الخضروات بها دون غيرها، وتحليل الصابون بها للغسل، ونحو ذلك، وفى نهر السين بداخل باريس ثلاثة جزائر، إحداها تسمى: جزيرة السيتة، وكان بها باريس القديمة، والسيتة[٣] معناها المدينة، فكأنه قيل جزيرة المدينة، وشتان بين هذا وبين النيل والروضة والمقياس، فإن نزهة الإنسان فى الروضة والمقياس لا تضاهى، لأن الخليج يعبر مصر والسين يعبر باريس إلا أن نهر السين بتمامه يشق باريز، وتجرى بها السفن

---

(١) زكريا القزوينى (١٢٠٣ ـ ١٢٨٣ م) رحالة عربى، يلقبه بعض المؤرخين بهيرودوت العصور الوسطى، وبلينى العرب، لما فى آثاره الفكرية من الاستطرادات. وهو غير القزوينى: محمد بن عبد الرحمن (١٢٦٨ ـ ١٣٣٨ م) البلاغى الفقيه المحدث.

(٢) بفتح السين. (الطهطاوى).

(٣) بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية. (الطهطاوى).

العظيمة الوسق، وبه الأرصفة الجيدة، والنظافة على حوافيه، ومع ذلك فنزهته غير سارة، وشتان أيضا بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره، فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله، كما هو العادة فى ماء نهر السين، لكان من أعظم الأدواء، وأقول أيضا: إنه فرق بعيد بين طعم ماء نهر السين وماء العيون والقطوع والسواقى ببلاد صعيد مصر، وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين وتربة مصر وتربة باريس، ومياههما، وفواكههما، إلا فى نحو الخوخ، وإقليمهما فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن تدبيرهم، واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم، لكانت مدينتهم كلا شىء، فانظر مثلا إلى نهر السين فإنه وإن كان نزهة فى أيام الحر فإنه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود والانعقاد، حتى أنه يمكن أن يداس عليه بالعربات، وانظر إلى أشجار هذه المدينة فإنها تكون مورقة فى أيام الحر وفى أيام البرد لا تجدها إلا قرعة[1] رديئة المنظر كأنها حطب مصلب، وهذا فى سائر البلاد الباردة. وقال بعضهم فى هذا المعنى:

سألت الغصن لم تعرى شتاء … وتبدو فى الربيع وأنت كاسى

فقال لى الربيع على قدوم … خلعت على البشير به لباسى

قال بعضهم، فى وصف يوم برد، وأجاد: فى يوم برد جعله الله منه فى حمى ومحال حرب كان الظفر فيه لابن السماء، كأنما ماجت الأرض فرحا لانهلال السحاب، وقويت أوتادها إذ صار له بالسماء من جبال المطر أمد الأسباب، وكأن السماء قد رأت ما بالأرض من السرور تهنيها بصوت الرباب، فلكم تفتحت أعين النور لعيون الغمام الساجمة، ولكم استمرت به مسرة واستقرت به سائمة، ولكم ضحكت الأرض لبكاء السماء بمدامعها، وظهر البشر على وجهها.

وانظر إلى زمن تلك المدينة فإنه دائما معتم فى سائر أيام الشتاء وغالب أيام الحر، فإذا تنزه الإنسان ساعة تنكد ساعة أخرى، وذهب حظه بالرعد والبرق وانهطال المطر والصواعق، إلا أن الثلوج بها ومجارى البالوعات تقى من الوحل المضر، فليست كأرض جيلان التى قال فيها الشاعر:

(١) أى عارية من الأوراق كما تعرى رأس «الأقرع» من الشعر!!

أقـمت بـأرض جـيـلان زمـانا ... ولم يك ذاك منى غـير جـهل

فلم أحـصل على خـير متـاح ... سوى سح الغيوث وخوض وحل

وأهلها لا يبالون بذلك، فقال فى سائر أيامها ما قاله بعضهم فى وصف يوم شديد البرد من أنه: «يوم يجمد خمره، ويخمد جمره، ويخف فيه الثقيل إذا هجر، ويثقل فيه الخفيف إذا هجم». إلا أن الفرنساوية يكثرون من الملاهى فى ليالى الشتاء لأنهم يبذلون جهدهم فى التوقى من مضارها. نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير! فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم: مصر أم الدنيا! وقد مدحتها مدة إقامتى بباريس بقصيدة تتضمن مدح ولى النعمة، دام عزّ دولته، آمين. وها هى هذه القصيدة:

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمة مغرم ولهان

ما خلته مذ صاح إلا أنه ... أضحى فقيد أليفه ومعانى

وكأنه يلقى إلى إشارة ... كيف اصطبارى مذ نأى خلانى

مع أننى، والله، مذ فارقتهم ... ما طاب لى عيشى وصفو زمانى

لكننى صب أصون تلهفى ... حتى كأنى لست باللهفان

وبباطن الأحشاء نار لو بدت ... جمراتها ما طاقها الثقلان

أبكى بعينى مهجتى لفراقهم ... وأود أن لا تشعر العينان

لى مذهب فى عشقهم واريته ... ومذاهب العشاق فى إعلان

ماذا علىَّ إذا كتمت صبابتى ... حتى لو أن الموت فى الكتمان

ما أحسن القتلى بأغصان النقى ... ما أطيب الأحزان بالغزلان

قالوا: أتهوى، والهوى يكسو الفتى ... أبدا ثياب مذلة وهوان

فأجبتهم: لو صح هذا أننى ... اختار ذلى فيه طول زمانى

والذل للعشاق غير معرة ... بل عين كل معزة للعانى
أصبو إلى من حاز قداً أهيفا ... يزرى ترنحه بغصن البان
وأحن نحو شقيق تم خده ... قد نم فيه شقائق النعمان
ويروقنى أبدا نزاهة مقلتى ... فى حسن طلعة فاتك فتان
أمسى وأصبح بين شعر حالك ... ومنير وجه هكذا الملوان
ولطالما قضيت معه حقبة ... ونسيم مصر معطر الأردان
زمن على به لمصر فديتها ... حق وثيق عاطل النكران
لو شابهت عيناى فائض نيلها ... لم يوف بعد شفائه أحزانى
أو لو حكى قلبى بحار علومها ... طربا لما أشكو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموس أشرقت ... وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى ... وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهمو مصر فصارت روضة ... وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا ... منها العروسى[1] بهجة الأكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم ... عطارها [2] حسن شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره ... بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره ... لأجبت بالتصديق والإذعان
هذا لعمرى أن فيها سادة ... قد زينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليك فخارها ... فاليك أن الشاهد الحسنان[3]
لو كنت أقسم أن مصر لجنة ... لأبر كل البر فى أيمانى
دار يحق لها التفاخر سيما ... بعزيزها جدوى بنى عثمان

(١) إشارة إلى الشيخ العروسى، أحد شيوخ الأزهر.
(٢) إشارة إلى أستاذ الطهطاوى: الشيخ حسن العطار.
(٣) الحسنان: الشيخ حسن العروسى، والشيخ حسن العطار.

حـاز المحامـد إذ دعى بمحـمـد | ورقى العلى فعلى على الأقـران
من كـان مثل أميـرنا فقـرينه | إسكندر أو كسـرى أنو شـروان
فى وجهه النصر القريب على العدا | لاحت بشـائره لكل مـعـانى
فى كـفـه سيـفـان سيـف عناية | والشـهم إبراهيم سـيف ثانى
سل عنه ينبيك الحجاز مشافهـا | بدمـار أهل الزيف والبـهـتـان
من قـبـل كـانت سبله مـذعـورة | والآن صـارت فى كـمـال أمـان
لا غـرو أن «نجـد» أدامت شكره | فلـقـد كـسـاهـا حلة الإيمـان
وسـعت إلى زنج طلائـع جـيـشـه | فـأطاعت العـاتى من السـودانى
وتقلب الأروام عـدل شـاهد | كم منه قـد نالوا شـديـد طعـان
حـتى لقـد باؤوا بـوافـر خـزيهم | وتقـاسـمـوا حظا من الخسـران
لم تخط قـامـة رمـحـه أغراضـهـا | وإصـابـة الأغـراض نيل أمـانى
أحـيى بدولتـه علومـا قـد غـدت | لوضـوحـهـا تجلى عـلى الأذهان
بطل مكـارمـه الجليلة قلدت | هام الزمـان مكلل التيـجـان
يهنيك يا مصر لقـد حزت البهـا | بمحـمـد باشـا عـلى الشـان
فـاحظى بفـاخر حكمـه وتمتعى | وبذلك افـتـخـرى على البلدان
مُـدِّى أكف الشكر وابتـهـلى بأن | يبـقـيـه مـولاه طويـل زمـانى

وأما مصر فإنها سليمة من مكاره برد باريس، كما أنها خالية أيضا عن الأمور المحتاج إليها فى وقت الحر، مثل الاستعانة على تطرية الزمن، فإن أهل باريس مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر فإنهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات، ويمشون العجلة بالخيل، ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع، فلا تزال ماشية والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من

ساعة، ولهم غير ذلك من الحيل، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها. (وقد صار الآن جل ذلك بمصر).

ثم من غرائب نهر السين أنه يوجد فيه مراكب عظيمة فيها أعظم حمامات باريس المشيدة البناء، وفى كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة وسيأتى ذكرها.

ومن الأمور المستحسنة أيضا أنهم يصنعون مجارى تحت الأرض توصل ماء النهر إلى حمامات أخرى وسط المدينة أو إلى صهاريج، بهندسة مكملة، فانظر أين سهولة هذا مع ملىء صهاريج مصر بحمل الجمال، فإن ذلك أهون مصرفا وأيسر فى كل زمن، وشطوط هذا النهر داخل المدينة مرصعة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين، يطل المار بجانبها على النهر، وهى محكمة البناء، وقناطر هذا النهر بباريس ست عشرة قنطرة، فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات، ولها أربعمائة قدم من الطول، وعرضها سبعة وثلاثون قدما، ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسنودة على حجارة من أحجار النحاتة، وقد بنيت هذه القنطرة فى خمس سنوات، وصرف فيها ثلاثون مليون فرنك، يعنى ثلاثين ألف ألف فرنك، وتسمى هذه القنطرة قنطرة «استرلتز»، سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النيمسا والموسقو، فيقال لهذه الواقعة واقعة «استرلتز»، ويقال لها واقعة السلاطين الثلاثة، ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون، و«استرلتر» بلدة وقعت هذه النصرة بقربها، وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور، فلذلك أبَّدوها[١] ببناء هذه القنطرة، فتسميتها بهذا الاسم للتذكار وبقاء الآثار. ونهر السين يشق باريس نحو فرسخين، وعرضه فيها مختلف، فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا. وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا[٢] فى كل ثانية، أو ألف ومائتين فى كل دقيقة. وسطح أرض باريس صنفان، فالأول: جبس، والثانى: طين ماء نهر السين بعد زيادته، وأرضها مركبة من راقات مختلفة، فالراق الأول: مزرعة طينية مرملة ذات حصى، الثانى: طَفْل مختلط بجبس وصدف، والثالث: طَفْل صوانى، الرابع:

---

(١) أبَّدوها: أى خلدوها.

(٢) البرمق: الأصبع، بالتركية.

طَفْل جيرى صدفى، والخامس: حجر الجير المخلوط بصدف، السادس: البحر الملح، السابع: طين شبيه بالإبليزى، الثامن: طباشير وجير مفحوم طباشيرى.

ثم إن هذه المدينة مشقوقة ومحتاطة بصفوف أشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية، لا يخرج بعضها عن بعض أبدا ـ وعلى منوالها بطريق شبرا وفى أبى زعبل وجهاد أباد ـ وهى مورقة فى أيام الحر يستظل المار بها من حر الشمس، وتسمى البلوار(١) فيوجد فى باريس بلوارات خارجة كالسور للمدينة، وبلوارات داخل المدينة، ومحيط البلوارات الخارجة أبلغ من خمسة فراسخ ونصف، وعدد بلوارات باريس اثنان وعشرون بلوارا.

وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع، يعنى الميادين، كفسحة الرميلة(٢) بالقاهرة، فى مجرد الاتساع، لا فى الوساخة! وعددها خمسة وسبعون ميدانا. ولهذه المدينة أبواب خارجية برانية، كباب النصر بالقاهرة، وهى ثمانية وخمسون بابا، وبهذه المدينة أربع قنايات وثلاثة دواليب لجرى المياه بالنواعير، إلا أنها عظيمة، وستة وثمانون صهريجا، ومائة وأربعة عشر حنفية على الطرق.

ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون أهلها دائما فى الزيادة البينة، وأرضها فى الاتساع، وعماراتها فى التكميل والتحسين، وهمتهم جميعا فى توسيع دائرتها بالأبنية العظيمة، لإعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن، قال الشاعر:

إن البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشان

وبذلك يكثر أهلها. فإن أهلها الآن، يعنى أهل الاستيطان بها، نحو مليون من الأنفس، ومحيطها سبع فراسخ فرنساوية، ومطايا هذه المدينة كغيرها من بلاد فرانسا: العربات، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع، ولا تزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع. وسيأتى تفصيل ذلك فى غير هذا المحل.

---

(١) بضم الباء وسكون اللام. (الطهطاوى). (Boulevard)

(٢) بعد أن كان تحت القلعة.

الفصل الثانى

فى الكلام على أهل باريس

إعلم أن الباريزيين بختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات، وليسوا مثل النصارى القبطة فى أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسراء التقليد أصلا، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى أن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة، كل إنسان على قدر حاله، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب، حتى الصنائع الدنيئة، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره، ومما يعينهم على ذلك، زيادة عن الكسب، حب الرياء والسمعة ودوام الذكر، فهم يقتدون بقول الشاعر:

لعمرى رأيت المرء بعد زواله   حديثا بما قد كان يأتى ويصنع

فحين الفتى لا بد يذكر بعده   فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد[1]

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقيل لإسكندر: لو استكثرت من النساء كثر ولدك، وطاب بهم ذكرك، فقال: دوام الذكر فى حسن السيرة والسنن، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء!

---

(١) محمد بن الحسن (٨٣٧-٩٣٣ م) لغوى وشاعر وأديب أشهر آثاره كتاب (الاشتقاق) ومعجم (الجمهرة) وهو الواضع لبذور فن «المقامة» فى الأدب العربى.

ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور، خصوصا فى أمر الملبس، فإنه لا قرار له أبدا عندهم، ولم تقف لهم إلى الآن عادة فى التزيى، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية بل معناه أنهم يتنوعون فيه، مثلا لا يغيرون لبس البرنيطة، ولا ينتقلون منها إلى العمامة، وإنما هم تارة يلبسون البرنيطة على شكل، ثم بعد زمن ينتقلون منه إلى شكل آخر، سواء فى صورتها أو لونها، وهكذا، ومن طباعهم المهارة والخفة، فإن صاحب المقام قد تجده يجرى فى السكة كالصغير، ومن طباعهم أيضا الطيشان والتلون، فينتقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن، وبالعكس، ومن الجد إلى الهزل، وبالعكس، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة. وهذا كله فى الأمور الغير المهمة، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه، ويؤيده مدة عمره، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب، حتى أنهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم، فكأنهم مصداق قول الحاجرى:

كل المنازل والبلاد عزيزة　　　عندى ولا كمواطنى وبلادى

وقال آخر:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى　　　ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى　　　وحنينه أبدا لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل إلى معاشرتهم، خصوصا إذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة، وإنما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوق إلى السؤال عن أحوال البلاد وعوائد أهلها ليظفروا بمقصدهم فى الحضر والسفر، وقد جرت عادة النفوس إلى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به، كما قال الشاعر:

إن النفوس على اختلاف طباعها　　　طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم، لا بأموالهم، إلا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته، لاهبته، إلا إذا وثقوا بالمكافأة، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم، وقد ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا مختصر السير والعوائد، وفى ذكر الضيافة. وفى الحقيقة أصل السبب: هو أن الكرم فى العرب

ومن أوصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم، وعدم إهمالهم أشغالهم أبدا، فإنهم لا يكلون من الأشغال، سواء الغنى والفقير، فكأن لسان حالهم يقول: إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيها! ومن المركوز فى طبعهم حب الرياء والسمعة، لا الكبر والحقد، فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم: أخلص قلوبا من الغنم عند ذبحها، وإن كانوا عند الغضب أشد افتراسا من النمور، فإن الإنسان منهم إذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة، فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل إنسان نفسه خصوصا، من داء الفقر والعشق! ومن طباعهم الغالية وفاء الوعد، وعدم الغدر، وقلة الخيانة، ومن كلام بعض الحكماء: المواعيد شباك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار! وقال آخر: كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة! وقال آخر: الشكر وفاء النعمة، والوفاء به صلاح العقبى! وقيل: وعد الكريم من دين الغريم! وقال بعضهم: الخيانات تؤذى الأمانات. ومن طباعهم الغالبة: الصدق، ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية. قال بعضهم فى مدحها: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها. ومن الصفات التى يقبح وصف الإنسان بها عندهم: كفر النعم، مثل غيرهم، فيرون أن شكرهم المنعم واجب، وأظن أن جميع الأمم ترى ذلك، وإن كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد، فهو خروج عن الطبع، فهى كشفقة الوالد وبر الولد فإنهما قد يختلفان فى بعض الأفراد مع أنهما صفتان جبليتان عند سائر الأمم والملل.

ومما قيل فى ذلك، وهو أحسن ما قيل، مع ما فيه من الاستطراد:

هب البعث لم تأتنا نذره ... وأن لظى النار لم يضرم

أليس بكاف لذى فكرة ... حياء المسىء من المنعم؟!

ويقال إن أبا بكر الخوارزمي، المشهور، قصد الصاحب بن عباد، فأحسن نزوله وأكرمه، وأقام في نعمته مدة، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما في مكان حيث يجلس الصاحب، وهما:

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت ... كفاه بالجود حتى أخجل الديما

فإنها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليها الصاحب قال ـ وقد بلغه موت الخوارزمي:

أقول لراكب من خراسان أقبلوا ... أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم

فقلت: اكتبوا بالجص من فوق قبره ... ألا لعن الرحمن من يكفر النعم!!

وهذا بخلاف أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني، ومن أولاد المأمون، وهو شاعر محسن، أقبل على الصاحب بن عباد، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الإذن بالرحيل، ومن وداعها قوله:

أسير عنك ولي في كل جارحة ... فم بشكرك يحوي منطقا أربا

إني لأهوى مقامي في ذراك كما ... تهوى يمينك في العافين أن تهبا

لكن لساني يهوى السير عنك لأن ... يطبق الأرض من جافيك منتخبا

أظنني فت أهلي والأنام همو ... إذا ترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضا صرف الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب، فإنهم مسرفون غاية السرف، ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء، وتحت أمرهم، سواء كن جميلات أم لا، قال بعضهم: إن النساء عند الهمل معدات للذبح! وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت! وعند الإفرنج كالصغار المدلعين! قال الشاعر:

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنة ... فلن يسود فتى يعطي النسا رسنه

يعقنه عن كثير من فضائله ... ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا، مع أن هفواتهن كثيرة معهم، فإن الإنسان منهم، ولو من أعيانهم، قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية، وينفصل عنها مدة العمر، فلا يعتبر الآخرون بذلك، مع أنه ينبغى الاحتراس منهن. كما قال الشاعر:

لا يكن ظنك إلا سيئا	**بالنسا إن كنت من أهل الفطن**
ما رمى الإنسان فى مهلكة	**قط إلا ظنه الظن الحسن**

ومن كلام العرب العرباء خطابا لزوجته:

إن امرؤ غره منكن واحدة	**بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور**

ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم، الشبيهة حقيقة بطباع العرب، عدم ميلهم إلى حب الأحداث والتشبب فيهم أصلا، فهذا أمر منسى الذكر عندهم، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم، ومن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه، فلا يحسن فى اللغة الفرنساوية قول الرجل عشقت غلاما، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ، المشكل، فلذلك إذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر، فيقول فى ترجمة تلك الجملة: عشقت غلامة، أو ذاتا، يتخلص من ذلك. فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق، والحق معهم، وذلك أن أحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه كخاصة المغناطيس فى جذب الحديد مثلا، وكخاصة الكهرباء فى جذب الأشياء، ونحو ذلك، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة، وخرج عن الحالة الطبيعية، وهذا الأمر عندهم من أشد الفواحش، حتى أنه قلما ذكروه صريحا فى كتبهم، بل يكنون عنه بما أمكن، ولا يسمع التحدث به أصلا. ويعجبنى قول الشيخ عباس اليمنى:

كلفت بسعدى والرباب وزينب	**ولم أعتبر أس العذار ولامه**
ولا اخترت تشبيبا بأمرد مذهبا	**وإن ذم طبعى من يراه ولامه**
وما حسنه عندى سوى فى عجاجة	**وحمل قناة كالشهاب ولامه**
ويغشى سعير الحرب ليس بصده	**حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه**

ومن خصالهم الرديئة: قلة عفاف كثير من نسائهم، كما تقدم، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة، ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية: لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر، ولا تستدل بذلك على عفافها، ولكن على كثرة تجربتها! انتهى. كيف، والزنا عندهم من العيوب والرذائل، لا من الذنوب الأوائل، خصوصا فى حق غير المتزوج، فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء: لا تغتر بامرأة، ولا تثق بمال وإن كثر. وقال آخر: النساء حبائل الشيطان! وقال الشاعر:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعا	**جــزوعـا إذا بانت فـســوف تبين**
فــإن هى أعطتك الـليـان فــإنهــا	**لآخـــر مـن طلابهـــا ســتـلين**
وإن حلفت لا ينقض النأى عـهدها	**فليس لمخــضـــوب البنـان يمين**

وبالجملة، فهذه المدينة كباقى مدن فرانسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيار وديار العلوم البرانية، وأثينة الفرنساوية، وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة، أى مدينة حكماء اليونان، ثم رأيت بعض أهل الأدب من الفرنساوية قال ما معناه: إن الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة، أو هم أثينيو هذا الزمان، وأن عقولهم رومانية وطباعهم يونانية. انتهى.

وقد أسلفنا أن الفرنساوية من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين، وأقول هنا: إنهم ينكرون خوارق العادات، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا، وأن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير واجتناب ضده، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الأديان، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية. ومن عقائدهم القبيحة قولهم: إن عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأزكى منها. ولهم كثير من العقائد الشنيعة، كإنكار بعض القضاء القدر، مع أن من الحكم: فالعاقل من يصدق بالقضاء، ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء، وإن كان

لا ينبغى للإنسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع، فإن من الأمثال التى سارت بها الركبان: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. ومن كلام بعضهم: إذا وقعت المجادلة فالسكوت أفضل من الكلام، وإذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير. ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ونظمهم نظاما عجيبا فرغ منه، ثم لا يزال يلاحظهم بصفة له تعالى تسمى صفة العناية والحفظ، تتعلق بالممكنات إجمالا، بمعنى أنها تمنعها عن خلل انتظام الملك. وسنذكر بعض عقائدهم فى غير هذا المحل.

ثم إن لون أهل باريس البياض المشرب بالحمرة، وقل وجود السمرة فى أهلها المتأصلين بها، وإنما ندر ذلك لأنهم لا يزوجون عادة الزنجية للأبيض، أو بالعكس، محافظة على عدم الاختلاط فى اللون، حتى لا يكون عندهم ابن أمة قال الشاعر:

فى الهند طير ناطق ... سبحان مولى ألهمه

يقول فى تغريده ... ابن الأمة ما ألأمه!

بل لا يعدون أنه قد يكون للزنج جمال أصلا، بل لون السواد عندهم من صفات القبح، فليس لهم فى المحبة مذهبان، ولا يحسن عندهم قول الشاعر فى غلام أسود:

لك وجه كأن بنانى خطته ... بلفظ تمله آمالى

فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالى

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر:

ألا إن عندى عاشق السمر غالط ... وأن الملاح البيض أبهى وأبهج

وإنى لأهوى كل بيضاء غادة ... يضىء لها وجه وثغر مفلج

وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى ... ولا شك أن الحق أبيض أبلج

على أنه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء فى الطبخ ونحوه، لما

ركز فى أذهانهم أن السودان عارون عن النظافة اللازمة. ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة، يتبرجن دائما بالزينة، ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال، سواء الأحرار وغيرهن، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ويوم بطالتهم وليلة الاثنين فى البالات والمراقص الآتى ذكرها، ويحسن قول بعضهم - [شعر] -

والراقصات وقد مالت ذوائبها　　على خصور كأوساط الزنابير

يخفى الردا سقمها عنا فيفضحها　　عقد البنود وشدات الزنابير

ومما قيل: إن باريس جنة النساء، وأعراف الرجال، وجحيم الخيل. وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربية امرأة جميلة، فإن العربجى يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلا، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة.

وحيث إن باريس من بلاد الفرنسيس، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنساوى، ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول: إعلم أن اللسان الفرنساوى من الإفرنجية المستحدثة، وهو لسان الغلوية، يعنى قدماء الفرنسيس، ثم كمل من اللغة اللاطينية وأضيف إليه شىء من اللغة اليونانية النيمساوية ويسير من لغة الصقالبة وغيرها، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها، وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية، حتى كان لسانهم مع أشيع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها، ولا بالمحسنات البديعية اللفظية، فإنه خال منها، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية، وربما عندما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس، مثلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادرا، فإن كانت فهى من هزليات

أدبائهم، وكذلك مثل الجناس التام، والناقص، فإنه لا معنى له عندهم، وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية مما يكون مزينا بذلك مثل قول صاحب البديعية:

من العقيق ومن تذكار ذى سلم ... براعة العين فى استهلالها بدم

ومن أهيل النقى ثم النقى وبدا ... تناقض الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل إلى لغاتهم ما قلته فى نظم مصطلح الحديث:

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا ... ومرسل الدمع من عينى قد اتصلا

تواترت قصتى فى الناس قاطبة ... حتى لضعفى رثا لى كل من عذلا

تعنعن السحب عن عينى روايتها ... كما يسلسل عنها القطر إذ هملا

رفعت أمرى إلى قاضى الهوى فأبى ... وقال ما لى على هذا المليح ولا

يا قلب صبرا على ما فيك من علل ... ولا تشذ وتجزع واترك المللا

ودع بقية ما أبقاه من رمق ... لديه لا تعتبر تعنيف من عذلا

فذلك لاح وبالتدليس مشتهر ... وقوله منكر زور وما قبلا

إلى آخر قولى فيها:

وقفت حبى عليه لا يجاوره ... وهكذا شأن صب فى الهوى كملا

وسيأتى تتميم الكلام على ذلك. وبالجملة، فلكل لسان اصطلاح، واصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ما أمكن، وتصريف الفعل مع آخر، مثلا إذا أراد الإنسان أن يخبر بأنه أكل فإنه يقول: لعلك مأكولا، فلا يمكن تصريف أكل فى بعض أحواله إلا مع فعل الملك والتلبس، فكأنه يقول تلبست بالأكل، وإذا أراد أن يقول: خرجت، يقول: أنا أكون مخرجا، يعنى: خرجت، وهكذا يسمى فعل الملك وفعل الكينونة فعلين مساعدين، يعنى أنهما يعينان على تصريف الأفعال ويتجردان عن معناهما الأصلى وإذا أرادوا تعدية بالفعل قالوا: فعلت له الأكل. يعنى جعلته يأكل، أو أكلته، وفعلت له الخروج، يعنى أخرجته، وهكذا، فلا

يمكنهم تصريف الأفعال كما يمكن فى اللغة العربية، فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذا الحيثية. ثم إن قواعد اللسان الفرنساوى وفن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى أغرماتيقى[1] وأغرمير[2] عند الفرنسيس، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات، فكأنه يقول: فن النحو، فيدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة، كما نقول نحن: علوم العربية، ونريد بها الاثنى عشر علما المجموعة فى قول شيخنا العطار:

نحو وصرف عروض بعده لغة ثم اشتقاق قريض الشعر إنشاء

كذا المعانى بيان الخط قافية تاريخ هذا لعلم العرب إحصاء

وبعضهم زاد البديع، وآخر استحسن زيادة التجويد. وبالجملة فإن الزيادة والنقص فيها مفتوح إذ حصرها وتقسيمها فى ذلك جعلى لا حصرى. والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط، فكيف يكون كل من الشعر والقريض علما مستقلا برأسه، وكل من النحو والصرف والاشتقاق علما برأسه وانظر ما المراد بالتاريخ، وبكونه من العلوم العربية، مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان، وأول ما ظهر فى هذا الفن كتب «أوميروس»[3] فى واقعة تروادة، ولم تؤلف فيه العرب إلا فى الأزمنة الأخيرة، وعلم الخط قديم أيضا، فالإفرنج يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام، بل ويعدون منه المنطق والوضع والمناظرة. ثم إن اللغة الفرنساوية، كغيرها من اللغات الإفرنجية، لها اصطلاح خاص بها، وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وإنشاؤها ومعانيها، وهذا ما يسمى «أغرماتيقى» فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة والكتابة فيها، أو لتحسينها، فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك. نعم، اللغة العربية أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأعلاها على السمع، فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر ما يتعلق بها، فله إدراك فى النحو فى حد ذاته، وفى

(١) بالهمزة وسكون الغين وفتح الراء وتشديد الميم وكسر التاء وفتح القاف. (الطهطاوى).

(٢) بتشديد الميم. (الطهطاوى).

(٣) أعظم شعراء اليونان على الإطلاق، وصاحب الإلياذة والأوديسا، ويرجحون أنه عاش فى آسيا الصغرى فى القرن الثامن قبل الميلاد.

غيره، كالصرف، فمن الجهل أن يقال إنه لا يعرف شيئا بدليل جهله باللغة العربية، وإذا تبحر الإنسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوة، يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الأخرى، وعبر له عنه، كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته، بل ربما كان يعرفه من قبل، ويعرف زيادة عليه، ويبحث فيه، ويبطل منه ما لا يقبله العقل، كيف والعلم هو الملكة، وحينئذ فقد لا يعرف الإنسان المطولات باللغة العربية، ويعرفها باللغة الفرنساوية لو ترجم له، على أن كل لغة مخدومة فلها مطولها وأطولها وسعدها[1]، نعم ليس كل مائع ماء، ولا كل سقف سماء، ولا كل بيت بيت الله، ولا كل محمد رسول الله! وكما قال الشاعر:

هيهات ما كل النسيم حجازيا ... ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر:

وما كل مخضوب البنان بثينة ... ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغاب وأبهج، وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج؟ ولله در من قال:

يليق الخطاب اليعربى بأهله ... فيهدى الوفا للنقص والحسن للقبح

ومن شرف الأعراب أن محمدا ... أتى عربى الأصل من عرب فصح

وأن المثانى أنزلت بلسانه ... بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع ما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب، فهذا لا أصل له، ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية، خصوصا اللغة العربية والفارسية، يسمى البارون سلوستري دساسى، وهو من أكابر باريس، وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرانسا وغيرها، وقد انتشرت تراجمه فى باريس، وشاع فضله فى اللغة العربية، حتى أنه لخص شرحا للمقامات الحريرية وسماه

(١) إشارة إلى مصنفات فى علوم العربية.

(٢) إشارة إلى شروح وتعليقات وتحقيقات لكتاب الخطيب القزوينى فى البلاغة.

(مختار الشروح) وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه، لا بواسطة معلم، إلا فى مبدأ أمره، ولم يحضر مثل الشيخ خالد فضلا عن حضور المغنى مع أنه يمكنه قراءة المغنى، كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب، فإذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها، ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى، لتعرف نفسه فى التأليف، وقلم عبارته، فإنه بليغ، وإن كان به يسير من الركاكة، وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الإفرنجية، فلذلك مالت إليها عبارته فى العربية، قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الإسلام من غير أن يغبن أحدهما :

«بسم الله المبدئ المعيد، الحمد لله العالى المتعالى، الذى له الأسماء الحسنى، ولا يخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شىء أقصى ولا أدنى، العليم الذى ليس لعلمه نهاية، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية، لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان، ولا يشوب صفاء جبروته شائبة، زيادة ولا نقصان، مسبب الأسباب، الذى لا يتحرك فى أطراف الأرض والسماء متحرك إلا بقدرته وإرادته، ولا يتكلم فى أكناف الآفاق متكلم إلا بإلهامه وإفادته. أحمده حمد من إعترف بتقصير فهمه وضعف عقله، فهداه برحمته وتوفيقه إلى تحصيل بعض العلوم والفنون، وأشكر له شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل فأخرجه برأفته وتأييده إلى فضاء الرشد ونور التمييز، حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون، ثم أتوسل إليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين، وأوليائه المقربين، الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر، وكالتاج على مفرق العصر، وأسأله عز وجل أن يجعلنى من عباده المهتدين، الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، أنه على كل شىء قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير. أما بعد، لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الأفهام، واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام، بعث فى كل أمة من الأمم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفا مشهورا، ويصير لسالك طريقة الفصاحة إماما ودستورا، فممن اشتهر بذلك بين الأنام،

وصار المشار إليه فى هذا الباب عند أهل الإسلام، مؤلف المقامات المشهور بالحريرى، وهو الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى، الذى ازدرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء، فإنى لما رأيت أن كتابه المذكور لم يزل مذ ألفه إلى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشهور، يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده، وخلاصة نقده، ويعتقدونه نور مصباحه، وضياء صباحه، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه، وأثمار جنانه، وزلال مائه، ونسيم هوائه، أحببت أن أشرحه شرحا متوسطا بين الإيجاز والتطويل، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل، وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير، ذكرهم حاجى خليفة[1] فى كتابه المسمى (كشف الظنون، عن أسامى الكتب والفنون)، وما وصلت يدى إليه من مؤلفاتهم شروح أربعة:

منها (غريب الإيضاح فى غريب المقامات الحريرية) للإمام برهان الدين أبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى، الخوارزمى، المتوفى سنة عشر وستماية[2]، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل للمقصود، والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب، وهو صاحب (كتاب المغرب)، تكلم فيه على الألفاظ التى يستعملها الفقهاء من الغريب.

ومنها كتاب (شرح ما غمض من الألفاظ اللغوية من المقامات الحريرية) تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى، البغدادى، المتوفى سنة عشرة وستمائة[3]، قال: إنى رأيت (المقامات الحريرية) مشحونة بالألفاظ اللغوية، وهى أحد الكتب التى عنى بها علماء العربية، ودعانى ذلك إلى تفسير ما غمض من ألفاظها، على الإيجاز، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شىء من ذلك، إلا أنه أسهب بما لا يحتاج إليه، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشيها.

(١) مصطفى بن عبد الله (١٦٠٨ - ١٦٥٧ م) مصنف تركى قضى فى تصنيف كتابه هذا عشرين عاما.
(٢) هجرية، وتوافق سنة١٢١٣م.
(٣) هجرية، وتوافق سنة ١٢١٣م.

ومنها (شرح المقامات) للأستاذ اللغوى النحوى أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسى الشريشى، المتوفى سنة تسعة عشر وستمائة[1]. وهو شرح طويل ذكر الشريشى أنه لم يترك فى كتاب من شروح المقامات فائدة إلا استخرجها ولا عائدة إلا استدرجها ولا نكتة إلا عقلها ولا غريبة إلا استحقها، حتى صار شرحه تأليفا فى المقامات يغنى عن كل شرح تقدم فيها، ولا يحوج إلى سواه فى لفظة من ألفاظها ولا معنى من معانيها، وقد أخذ شيئا كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة[2]، ومن شرح الفندهجى، وهو الشيخ الإمام تاج الدين أبو سعيد محمد بن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى الفندهجى، وقيل البندهجى، الصوفى، المتوفى بمدينة دمشق سنة أربعة وثمانين وخمسمائة[3].

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبى بكر محمد بن أبى بكر الرازى، صاحب (أسئلة القرآن) و(مختار الصحاح) المتوفى بعد سنة ستين وستمائة[4]، وهذا الشرح لم يذكره حاجى خليفة فى كتابه المذكور، وهو شرح لطيف يشهد لصاحبه بكمال الأدب، إلا أن النسخة التى هى فى ملكى نسخة ناقصة، سقط منها نحو نصف الكتاب. حتى لم يبق إلا شرح الخطبة، ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين، أخذا من قول الحريرى: «وإنى والله طالما تلقيت الشتاء بكافافته» إلى آخرها. وشرح ما يتلو من المقامات إلى قوله فى المقامة الخمسين:

«ولم تزل معتكفا على القبيح الشنع».

هذا ما كان لى من شروح المقامات، وقد اجتمع عندى أيضا نسخ ست من كتاب المقامات، بلا شرح، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشى ما ينتفع به القارىء، وقد اخترت من تلك الشروح والحواشى كل ما يحتاج إليه طالب العلم

(١) هجرية، وتوافق سنة ١٢٢٢م.
(٢) هجرية، وتوافق سنة ١١٦٩م.
(٣) هجرية، وتوافق سنة ١١٨٨م.
(٤) هجرية، وتوافق سنة ١٢٦١م.

فى تحـصـيل المقـصـود، ويسـتـعين به الراغب فى الأدب على إدراك المطلوب، ثم أضفت إلى ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة، ومن (مجمع الأمثال) للعلامة الميدانى[١]، و(كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان[٢]، ثم من (ديوان البـحـتـرى)[٣]، ومن (ديوان المتنبى)[٤]، و(شـرح المعلقـات) للزوزنى[٥]، وغير هذا من كتب الأدب، كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص فى بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة، وليسهل على المولع بغـرائب العلوم الأدبية المشرقـيـة أن يصل من جـواهر مـعادنهـا إلى كل فلذة ثمـينة جزيلة، وإنما المرجو ممن نظر فى هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذنى على ما ظهر عليه من العثرات، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات (والله أساله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعا مفيدا، ولجميع من أسرع إلى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا). انتهى كلامه.

وقال فى المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب:

«إن المقامات البديعية[٦] تفضل المقامات الحريرية»، وقد ترجم إلى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنين فى مجموعة كتاب (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) و(جامع الشذور من منظوم ومنثور).

وبالجملة، فمعرفته خصوصا فى اللغة العربية مشهورة، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم

---

(١) أحمد بن محمد، الميدانى (المتوفى سنة ١١٢٤ م) لغوى وأديب، ترك آثارا هامة فى النحو والصرف واللغة، وكانت نشأته فى نيسابور.

(٢) شمس الدين أحمد بن خلكان (١٢١١ - ١٢٨١ م) مؤرخ وأديب، قضى حياته ما بين سوريا ومصر، وتراجم كتابه تقف عند أواخر القرن الثالث عشر.

(٣) أبو الوليد عبيد الطائى (٨٢١ - ٨٩٨ م) من مشاهير الشعراء العرب، وله إلى جانب ديوانه مختارات (الحماسة) وكتاب (معانى الشعر).

(٤) أبو الطيب أحمد بن الحسين (٩١٥ - ٩٦٥ م) من أشهر شعراء العربية، وهو يتميز بنظر فلسفى طبع بعض شعره، ولديوانه شروح أحدها للمعرى.

(٥) ينسب إلى «زوزن» بين «هراة» و«نيسابور»، كان عالما بالنحو واللغة، وله آثار فكرية فيهما، وبعض آثاره مكتوبة بالعربية والفارسية.

(٦) نسبة إلى بديع الزمان الهمذانى، أحمد بن الحسين (٩٦٩ - ١٠٠٨م) وعدد مقاماته نحو الخمسين.

بالعربى إلا بغاية الصعوبة، وقد رأيت له فى بعض كتبه توقفات عظيمة وإيرادات جليلة، ومناقضات قوية، وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات.

العلم لا يدرك بالتمنى ... عليك بالتكرار والتأنى

كم أعجمى ألكن أخن ... أدرك بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه (التحفة السنية فى علم العربية) فإنه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا، وله مجموع سماه (المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية) فقد جمعه وترجمه من العربية إلى الفرنساوية، وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم، خصوصا فى اللغة الفارسية. فإنه بارع فيها غاية البراعة، وشهرته بالفضل فى بلاد الإفرنج لا تنكر، حتى أنه قد أتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم.

واتساع دائرة هذا الحبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابى، فيلسوف الإسلام، من أنه كان يحسن سبعين لسانا. ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير، فنقول:

هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ، التركى، الفارابى، الحكيم الفيلسوف، فيلسوف الإسلام الماهر الباهر، قدم على سيف الدولة بن حمدان، وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع العلوم، فأدخل عليه، وهو بزى الأتراك، وكان ذلك عادته، فوقف بين يديه، فقال له سيف الدولة: اجلس، فقال: حيث أنت أو حيث أنا؟ فقال: حيث أنت! فتخطى رقاب الناس، حتى انتهى إلى مجلس سيف الدولة، وزاحمه فى مسنده حتى أخرجه عنه!! وكان على رأس سيف الدولة مماليك، وله معهم لسان يسارهم به قل أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإنى مسائله عن أشياء إن لم يعرف بها فأخرجوه، فقال له أبو نصر، بذلك اللسان: أيها الأمير، فإن الأمور بعواقبها، فتعجب سيف الدولة

منه، وقال له: أتحسن هذا اللسان؟! فقال: نعم، أحسن أكثر من سبعين لسانا، فعظم عنده.

ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن، ولم يزل كلامه يعلو، وكلامهم يسفل، حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقول! فصرفهم سيف الدولة وخلا به، فقال له: هل لك فى أن تأكل؟ قال: لا، قال: فهل تشرب؟ قال: لا، قال: فهل تسمع؟ قال: نعم. فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا عابه أبو نصر، وقال له: أخطأت، فقال له سيف الدولة: فهل تحسن فى هذه الصنعة شيئا؟ قال: نعم، ثم أخرج من وسطه خريطة، ففتحها، وأخرج منها عيدانا فركبها، ثم لعب بها، فضحك كل من فى المجلس، ثم فكها وركبها ولعب بها، فبكى كل من فى المجلس، ثم فكها وركبها ولعب بها، فنام كل من فى المجلس حتى البواب، فتركهم نياما وخرج!!

وكان منفردا بنفسه، لا يجالس الناس، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع ماء، أو مشتبك أشجار ورياض، يؤلف هناك كتبه، وينتابه المشتغلون عليه، وكان يلازم غياض السفرجل، وربما صنف هناك، وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق وتنقلها من مكان إلى مكان!. قيل: وهذا هو السبب فى نقص بعض مصنفاته، فإنه كان يصنف فى الرقاع دون الكراريس.

وكان أزهد الناس فى الدنيا، متقللا منها، أجرى عليه سيف الدولة فى كل يوم أربعة دراهم.

ومن شعره:

لما رأيت الزمان نكسا ... وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال ... وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا ... به من العزة اقتناع

أشــرب مما أقــتنيت راحــا لهــا عـلى راحـتى شــعــاع
لـى مـن قــــواريـرها نـدامـى ومن قــــواريرهـا ســمـــاع
وأجـــتنـى من عـلوم قـــوم قـد أقــفـرت منهم البــقــاع

ومنـه :

أخى خـل حــيـــز ذى بـاطل وكن بـالحــقــائق فى حــيــز
فــمـــا الدار دار مــقـــام لـنا ولا المرء فـى الأرض بالمعــجــز
يـنـافس هـذا لـهـــــذا عـلـى أقـل مـن الـكـلـم المـوجـــــز
وهل نـحن إلا خـطوط وقـــعـن علـى نقطة وقـع مـــســتـــوفـــز
مـــحـــيـط العـــوالم أولى بنا فــمــاذا التــزاحـم فى المركــز؟!

توفى أبو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ من الهجرة .

ثم إن الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة أوجها ، حتى أن كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم فى ألفاظ العلم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فإنها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها ، وإن كان هذا من أنواع الهوس غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ولو الدنيئة .

وسواء فى ذلك الذكور والإناث ، فإن للنساء تآليف عظيمة ، ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة . ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها .

ثم العلوم الأدبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليههم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلا : إله الجمال ، وإله العشق ،

وإله كذا. فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة، وإن كانوا لا يعتقدون ما يقولون، وإنما هذا من باب التمثيل ونحوه. وبالجملة، فكثير من الأشعار الفرنساوية لا بأس بها، ولنذكر لك شيئا من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير:

وإذا القلوب تعلقت رأت الجميع جميلا

كسفينة تسعى إلى شعب يكون مهولا

لهفى على زمن الهنا إن صح كان بخيلا

وقوله مترجما لى:

ودع القلب فيك يا قاتلى يا خيال المسعد الزائر

إن روحى بالجراح اصطلت وعلى البئر لست بالقادر

وسرورى فى الهوى لمحة مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة (نظم العقود فى كسر العود) للخواجه يعقوب، المصرى منشأ، الفرنساوى استيطانا، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين[1]، وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، قول صاحبها، ونظمه للعبد الفقير:

زاد بى الحال إذ صفا لى حانى وغناى بالعود والألحان

باسم ربى والسادة الأعيان وترنمت شجوة بالحسان

★ وبسعدى ذات الجبين المفدى ★

فصغى سمعها إلى إنشادى ورمى النار لحظها فى فؤادى

فلهذا شعرى غدا فى اتقادى وبدا من حماسه فى انفراد

★ لذوى الفهم والمعارف يهدى ★

---

(١) هجرية، وتوافق سنة ١٨٢٧ م.

أحرق العشق قلبها كاحتراقي فأتت تطفيء اللظا بالعناق

فتضاممنا ضمة المشتاق وتلائمنا عادة العشاق

★ فتثنت لتخجل الغصن قدا★

شنف السمع من رقيق التغاني واستمع يا أخي صوت المثاني

يا خليلي بالله هلا تراني أنني قد أحييت شعر ابن هاني[1]

★ بعد أن كان قد توسد لحدا ★

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر إلى ذم العشق وتوابعه، فقال :

وأحيائي وأخجلني صار فني أنني في هوى الملاح أغني

برخيم الغنى كظبي أغن وبأوتاري ابتدى وأثني

★ما أرى هذا للفضائل أجدى ★

أفأيامي كلها لي عقيمة أوما لي عواقب مستقيمة

بل على طاعة الهوى مستديمة أفما هذه مراق ذميمة

★ أقتفي هزلها وأرفض جدا ★

أعلى اجتراع كأس نصيب خامل ليس كافل لأريب

مع أني والله غير مريب همتي همة الذكي النجيب

★ تقنص المجد والسوا تتعدى ★

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته، لا سيما وهي تتأذى من فراقه :

(١) ابن هاني الأندلسي، محمد بن هانيء الأزدي (٩٣٨ - ٩٧٣ م) يعد في المغرب العربي نظير المتنبي في المشرق، وهو شاعر الدولة الفاطمية الشيعية في عصر المعز لدين الله الفاطمي .

ويح عــز وســؤدد نشـــتــريه بنــواح الملاح إذ نشـــتــهــيــه

يا فــؤادى سل عـند أى فــقـيــه يغــفــر الذنب من قــتــال بـتـيــه

★ لنــوال الفـخــار علَّك تـهـدى ★

يا فـــؤادى قـد أسلـمـتك الأمـــور وأباحـــتك مـــتـــجـــرا لن يبـــورا

أفــتـرضى على الظبـا أن تجــورا لست ألفــيك آســفـا مـقـهــورا

★ حيث قـديـت قلبـهـا الآن قـدا ★

ومن جملة قوله فى مدح أفندينا حفظه الله مخاطبا لمصر فى هذه القصيدة :

بسـيـاسات فـيك أضـحى كـفيـلا بيـــد دانت من مـضى الـتـقـبـيـلا

جـــددت فى جـبـــينك الإكليـــلا نضـرت غـصنا فـيـك حـاز ذبولا

★ وأعـادت فـيـه الشـبـيـبـة ودا ★

وقال مخاطبا لولى النعمة حفظه الله تعالى مشيرا إلى واقعة المماليك :

فـعلك الخـيـر بـعـده حسن ذكـر مـســتـمـــر على مــدى كل دهر

فـاغتنم حـفظ مشـتـهى نيل مصـر فلقـــد شـــابه دمـــا ســيف نصـــر

★ وغـدا فـى حـمــاك ينفـق رفـدا ★

وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ، ولكن بالترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علو نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الإفرنجية من غير أن يذهب حسنها ، بل ربما صارت باردة ، وسيأتى تتميم الكلام على غالب الآداب الفرنساوية والعلوم والفنون .

الفصل الثالث

فى تدبير الدولة الفرنساوية

ولنكشف الغطاء على تدبير الفرنساوية، ونستوفى غالب أحكامهم، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر، فنقول: قد سلف لنا أن باريس هى كرسى بلاد الفرنسيس، وهى محل إقامة ملك فرانسا وأقاربه وعيلته المسماة «البربون»[١] فلا يكون ملك فرانسا إلا من هذه العيلة، ومملكة الفرنساوية متوارثة، ومسكن ملك فرانسا سراية تسمى «التولرى»[٢]، والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرانسا بقولهم «كابينة التولرى»، يعنى ديوان هذه السراية، أى ديوان الملك، ثم إن أصل القوة فى تدبير المملكة لملك فرانسا، ثم للجماعة أهل «شمبر دوبير»[٣] يعنى ديوان «البير»[٤] أى أهل المشورة الأولى، ثم لديوان رسل العمالات[٥]، ثم إن الديوان الأول، يعنى دِيوان «البير»، هو فى قصر بباريس يسمى قصر لقسمبورغ، والديوان الثانى فى قصر بوربون، ثم يلى ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء، ثم ديوان يسمى الديوان الخصوصى، وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى ديوان سر الملك، وديوان يسمى ديوان الدولة للمشورة. فحينئذ ملك فرانسا صاحب قوة تامة فى مملكته، بشرط رضاء تلك الدواوين المذكورة، وله خصوصيات أخر سيأتى ذكرها فى السياسة الفرنساوية.

---

(١) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم الباء الثانية. (الطهطاوى).

(٢) بضم التاء وكسر الراء. (الطهطاوى).

(٣) بفتح الشين وسكون الميم. (الطهطاوى).

(٤) بفتح الموحدة. (الطهطاوى).

(٥) المقاطعات.

ووظيفة أهل ديوان البير تجديد قانون مفقود أو إبقاء قانون موجود على حاله ويسمى القانون عند الفرنساوية شريعة، فلذلك يقولون: شريعة الملك الفلانى. ومن وظيفة ديوان البير أن يعضد حقوق تاج المملكة ويحامى عنه ويمانع سائر من يتعرض لها، وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة فى زمن اجتماع ديوان رسل العمالات بإذن ملك الفرنسيس، وعدد أهل ذلك الديوان غير منحصر فى عدة مخصوصة، ولا يقبل دخول الإنسان فيه إلا وهو ابن خمسة وعشرين سنة، ولا يشرك فى الشورى إلا وهو ابن ثلاثين سنة، ما لم يكن من بيت المملكة، وإلا فبمجرد ولادته يحسب من أهل هذا الديوان، ويشرك فى المشورة حين يبلغ عمره خمسة وعشرين سنة. وكانت وظيفة البيرية متوارثة للذكور، فيقدم أكبر الأولاد، ثم بعد موته يقدم من يليه، وهكذا.

ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة، ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير، والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها، والمنازعة فى ذلك، والممانعة عن الرعية فى المكوس والفرد وغيرها إبعادا للظلم والجور، وهذا الديوان مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهالى العمالات، وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولا، ولا يقبلون إلا بعد بلوغ كل واحد منهم أربعين سنة، ولا بد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة.

وأما الوزراء فإنهم متعددون، فمنهم وزير الأمور الداخلية، ثم وزير الحرب، ثم وزير الأمور الخارجية، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيس النازلين ببلاد يعمرونها فى غير بلاد الفرنسيس[1]، ثم وزير الخزينة، ثم وزير الأمور الدينية، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع، ثم وزير التجارات. ووزير الأمور الداخلية نظير الكتخدا ببر مصر، ووزير الخزينة نظير الخازندار، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس أفندى بالدولة العثمانية. ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية، وهكذا غير أنه عندنا ليس وزيرا. وعندهم يعدونه من الوزراء.

---

(١) أى شئون ما وراء البحار.

وأما الديوان الخصوصى فإنه تخصيص الملك لجماعة بمشورته إياهم على مادة مخصوصة، والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه.

وأما ديوان سر الملك فإنه يتألف من وزراء السر، ومن أربعة وزراء أخر لهم وزارة مطلقة، ثم جماعة من أرباب المشورة فى الدولة.

وأما ديوان الدولة فإنه يتألف ممن يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة، ثم من وزراء الدولة المطلقين، ومن أرباب المشورة، ومن جماعة وكلاء على التقارير، ومن جماعة يستمعون المشورة ليتعلموا تدبير الدول.

ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرانسا ليس مطلق التصرف، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد، بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التي يرضي بها أهل الدواوين، وأن ديوان البير يمانع عن الملك، وديوان رسل العمالات يحامي عن الرعية.

والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى لويز[1] الثامن عشر ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل. والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة[2]، ومعناها فى اللغة اللاطينية ورقة، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة، فلنذكره لك، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا، والعدل أساس العمران.

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء، أو فى ضده، من كلام بعضهم:

---

(١) بضم اللام وكسر الواو. (الطهطاوى).

(٢) من الكلمة الفرنسية (La charte)

ظلم اليتامى والأيامى مفتاح الفقر. والحلم حجاب الآفات. وقلوب الرعية خزائن ملكها، فما أودعه إياها وجده فيها. وقال آخر: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل. وقيل فيما يقرب من هذا المعنى: سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم! وقال بعضهم: أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل، وحفظها من الخلل. وقيل: إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع، إن المولى إذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد أقام عذره فى مخالفته. وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل:

تروم ولاة الجور نصرا على العدا … وهيهات يلقى النصر غير مصيب

وكيف يروم النصر من كان خلفه … سهام دعاء من قسى قلوب

وقال آخر

لا يفلح المغتال والظلوم … والبغى مرعى نبته وخيم

فمضجع الظالم بئس المضجع … ومصرع الباغى فبئس المصرع

إن القصاص واقع بالمثل … والدهر يجزى بيسير الفعل

وفى هذا القانون عدة مقاصد، المقصد الأول: (الحق العام للفرنساوية)، الثانى: (كيفية تدبير المملكة)، الثالث: (فى منصب ديوان البير). الرابع: (في منصب ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم)، الخامس: (في منصب الوزراء)، السادس: (في طبقات القضاة وحكمهم)، السابع: (في حقوق الرعية). قال صاحب الشرطة المذكورة:

«الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم»

«**المادة الأولى**: سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة.

المادة الثانية: يعطون من أموالهم، بغير امتياز، شيئا معينا لبيت المال، كل إنسان على حسب ثروته.

المادة الثالثة: كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت.

المادة الرابعة: ذات كل واحد منهم يستقل بها، ويضمن له حريتها، فلا يتعرض له إنسان، إلا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة، وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم.

المادة الخامسة: كل إنسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يجب، لا يشاركه أحد فى ذلك، بل يعان على ذلك، ويمنع من يتعرض له فى عبادته.

المادة السادسة: يشترط أن تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية.

المادة السابعة: تعمير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع لها شىء من بيت مال النصرانية، ولا يخرج منه شىء لتعمير معابد غير هذا الدين.

المادة الثامنة: لا يمنع إنسان فى فرانسا أن يظهر رأيه، وأن يكتبه، ويطبعه، بشرط أن لا يضر ما فى القانون، فإذا ضر أزيل.

المادة التاسعة: سائر الأملاك والأراضى حرم، فلا يتعدى أحد على ملك آخر.

المادة العاشرة: للدولة، دون غيرها أن تكره إنسانا على شراء عقاره، لسبب عام النفع، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء.

المادة الحادية عشرة: جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد.

المادة الثانية عشرة: أخذ العساكر قد يترتب وينقص عما وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر.

«كيفية تدبير المملكة الفرنساوية»

الملك

المادة الثالثة عشرة: ذات الملك محترمة، ووزراؤه هم الكفلاء فى كل ما يقع، يعنى هم الذين يطالبون ويحكم عليهم، ولا يمكن أن يمضى حكم إلا إذا أنفذه أمر الملك.

المادة الرابعة عشرة: الملك هو أعظم أهل الدولة، فهو الذى يأمر وينهى من عساكر البر والبحر، وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها، وهو الذى يولى المناصب الأصلية، ويجدد بعض قوانين وسياسات، ويأمر بما يلزم، ويمضيه إذا كان فيه منفعة للدولة.

المادة الخامسة عشرة: تدبير أمور المعاملات بفعل الملك وديوان البير وديوان رسل العمالات.

المادة السادسة عشرة: يقرر الملك وحده جزاء القوانين، ويأمر بإعلانها وإظهارها.

المادة السابعة عشرة: يبعث القانون، بأمر الملك، إلى ديوان البير أولا، ثم إلى ديوان رسل العمالات، إلا قانون الجبايات والفردة فإنه يبعث أولا إلى ديوان رسل العمالات

المادة الثامنة عشرة: تنفذ الدولة القانون إذا رضى به جمهور كل من الديوانين.

المادة التاسعة عشرة: لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك إظهار قانون فى أمر كذا، وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون.

المادة العشرون: يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى، وما صنعه أحد الديوانين واستقر رأيه عليه، يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة أيام.

المادة الحادية والعشرون: إذا رضى الديوان الآخر بالقانون فإنه يسوغ عرضه على الملك، فإذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له، أى لذلك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة.

الثانية والعشرون: الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للرعية.

الثالثة والعشرون: ماهية الملك محدودة له مدة مملكته على كيفية واحدة لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان البير، يعنى ديوان المشورة الأولى. ديوان البير.

الرابعة والعشرون: ديوان البير هو جزء ذاتى لتشريع القوانين التدبيرية.

الخامسة والعشرون: يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر، بأمر الملك، فى زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العمالات، فيفتحان معا فى يوم واحد ويغلقان لذلك.

السادسة والعشرون: لو اجتمع ديوان البير قبل انفتاح ديوان رسل العمالات أو قبل إذن ملك فرانسا كان سائر الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الإمضاء وملغيا.

السابعة والعشرون: تسمية الشخص بير فرانسا هو حق الملك، وعدد أهل ديوان البير غير محدود، وللملك أن يلقب البير بأى لقب كان، وله أن يحمل ذلك اللقب له مدة حياته، وأن يجعله متوارثا لذريته.

الثامنة والعشرون: يمكن أن يدخل البير فى الديوان وهو ابن خمسة وعشرين سنة ولا يبدى رأيةِ فى المشورة ألا بعد بلوغه فى السن ثلاثين سنة.

التاسعة والعشرون: رئيس ديوان البير هو قاضى قضاه فرانسا، «مهردار» ملكها، أى وزير لخاتم ملكها، فإن اعتذر خلفه من أهل الديوان من يعينه الملك لذلك.

الثلاثون: أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة البيرية بمجرد ولادتهم، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان، ولا يكون لهم كلمة ورأى فى المجلس إلا بعد بلوغهم فى السن خمسة وعشرين سنة.

الحادية والثلاثون: لا يمكن لأحد من أهل مجلس البير أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه إلا بإذن من الملك، بأن يبعث رسولا، فإن لم يفعلوا ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا.

الثانية والثلاثون: كل آراء ديوان البير يجب كتمها عن غيرهم.

الثالثة والثلاثون: ديوان الملك هو الذى يستقل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القوانين.

الرابعة والثلاثون: لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان البير إلا بأمر ذلك الديوان، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات.

(ديوان رسل العمالات، الذين هم وكلاء الرعية)

الخامسة والثلاثون: ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون[1] الذين يقال لهم اللكتور[2] وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة.

السادسة والثلاثون: كل العمالات تبقى على ما هى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل.

السابعة والثلاثون: من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات، لا خمسة كما كانت.

الثامنة والثلاثون: لا يصلح الإنسان للدخول فى ديوان الرسل إلا إذا بلغ أربعين سنة، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فردة.

التاسعة والثلاثون: لا بد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف نفس، موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران، ليختار الرسل منها، فإن لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها ممن لهم أملاك يدفعون عليها دون الف فرنك، ثم اختيار رسل من جملة الخمسين.

الأربعون: شرط اللكتوراى المنتخب للرسل أن لا يسمع إلا إذا كان له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سنة.

الحادية والأربعون: رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك، فيدخلون فى أهل هذا المجلس.

الثانية والأربعون: يجب أن يكون نصف رسل العمالات فصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة.

---

(١) بكسر الخاء. (الطهطاوى).

(٢) بكسر اللام المشددة وسكون الكاف. (الطهطاوى).

الثالثة والأربعون: رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان.

الرابعة والأربعون: مجالس هذا الديوان تكون جهرية إلا إذا أراد خمسة من رسل العمالات كتم شيء فإنه يجوز اخراج الناس الأجانب من الديوان.

الخامسة والأربعون: الديوان ينقسم إلى دواوين صغيرة تسمى «البورو» يعنى مكاتب، فأهل هذه «البورو» تمتحن الأشياء التى ينوبها الملك ويبعثها لها.

السادسة والأربعون: لا يقع تصليح شيء فى آداب سياسات فرانسا ولا يمضى إلا إذا رضي به الملك وبحث فيه فى تلك الدواوين الصغيرة.

الثامنة والأربعون: لا يمكن أن ينفذ أمر الملك فى الفرد إلا إذا رضي به الديوانان، وأقره الملك.

التاسعة والأربعون: فردة العقار لا تقطع إلا سنة فسنة، ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم.

الخمسون: على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة، ولكن متى أراد، وله أن يبطل ديوان رسل العمالات بشرط أن يصنع ديوان رسل جديد، وأن لا يزيد فى تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر.

الحادية والخمسون: لا يمكن أن يقبض أحد على إنسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان وشهر قبل فتحه وشهرا ونصفا بعده.

الثانية والخمسون: لا يمكن أن يتبع أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ما دام الديوان مفتوحا وما دام اجتماع الديوان، إلا إذا أخذه على فعله فى وقته وأذن الديوان بأخذه.

الثالثة والخمسون: عرض الحال الذى يعرض على أحد الديوانين لا يقبل إلا إذا كان مكتوبا، وآداب السياسة الفرنساوية لا تجوز أن يقدم الإنسان تقريرا فى المجلس.

«الـوزراء»

المادة الرابعة والخـمسون: يجوز أن يكون الوزير من أهل كـل من الديوانين، وله زيادة على ذلك حق الحضور فى أحدهما، ومتى طلب أن يتكلم فى الديوان وجب أن يصغى إلى كلامه.

الخامـسة والخمـسون: يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء، فتسمع دعواه فى ديوان البير ليحكم بينهم ذلك الديوان، فيفصل خصومتهم.

السادسة والخـمسون: لا يتهم الوزير إلا بخيانة فى التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر فى القوانين المخصوصة.

«طائفة القضاة»

المادة السابعـة والخمـسون: الحكم حق الملك، يعتبر كـأنه صادر منه، فيحكم القضـاة المنصبون من الملك، الذين لهم ماهيـة من بيت المال، ويبتـون الحكم باسم الملك.

الثامنة والخمسون: إذا ولى الملك قاضيا وجب إبقاؤه ولا يجوز عزله.

التاسـعة والخمـسون: القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر.

الستون: إقامة قضاة المعاملات لا يمكن إبطالها أبدا.

الحادية والستون: إقامة قضاة للمصالحة تبقى أيضا، ولكن قاضى المصالحة يجوز عزله، وإن كان منصبه يأتى له من الملك.

الثانية والستون: لا شىء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة.

الثـالثة والسـتون: لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم أو مجالس زائدة إلا بجمع قضاة النقباء يقال لهم «بريوتال» إذا احتاج الأمر إلى ذلك.

الرابعة والستون: إقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعى تكون على رؤس الأشهاد فى مواد العقوبات إلا إذا كان الذنب مضرا إشهاره بين العامة أو مخلا بالحياء فإن أهل المحكمة يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سرا .

الخامسة والستون: إقامة الجماعة المحكمين المسماة «جورية الجنايات» لا تبطل أبدا، وإذا لزم تغيير بعض شىء فى مواد القضاء لا يمكن إذا كان بقانون من الديوانين .

السادسة والستون: قانون معاقبة الإنسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد أبطل بالكلية، ولا يمكن تجديده أبدا .

السابعة والستون: للملك أن يعفو عن الإنسان وأن يخفف مواد العقوبات .

الثامنة والستون: كتب قوانين السياسات التى عليها العمل، الغير المناقضة لما فى هذه الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها إلا إذا تغير بقانون آخر .

« حقوق الناس التى يضمنها الديوان »

المادة التاسعة والستون: كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة وكل النساء المتوفى عنهن أزواجهن وهم فى العسكرية تبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخرجهم .

السبعون: ديون الرعية التى فى ذمة الديوان هى مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديوان .

المادة الحادية والسبعون: لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف إلا الاسم فقط، وكذلك لأرباب الشرف الجديد، ثم لملك فرانسا أن يعطى درجة الشرف الفرنساوى لأى إنسان شاء، ولكن ليس له أن يخص ما يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه، فليس للشرف مزية غير التسمية .

الثانية والسبعون: من له علامة التمييز المسماة درجة «الشوالية»، يعنى الفارس فى فنه، فإن له أن يحفظها على الصورة التى يعينها ملك فرانسا لهذه الدرجة .

الثالثة والسبعون: من له علامة التمييز المسماة درجة «الشواليه»، وللاستيطان بها تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخرى.

الرابعة والسبعون: لكل ملك من ملوك فرانسا أن يحلف عند توليه المملكة الفرنساوية أن لا يحيد عن هذه الشرطة.

«ثم إن هذه الشرطة قد جعل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف بتاريخ الميلاد فراجعها فى باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة». انتهى.

* * *

فإذا تأملت رأيت أغلب ما فى هذه الشرطة نفسيا، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول: قوله فى المادة الأولى: «سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة» معناه سائر من يوجد فى بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون، حتي أن الدعوة الشرعية تقام على الملك، وينفذ عليه الحكم كغيره، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظرا إلى إجراء الأحكام، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية، وتقدمهم فى الآداب الحاضرة، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر:

وقد ملأ العدل أقطارها ... وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة، إذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبى إضافى، لا عدل كلى حقيقى، فإنه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان، فإنه كالإيمان الكامل والحلال

الصرف وأمثال ذلك ونظائره، فلا معنى لحصر المستحيل فى الغول والعنقاء والخل الوفى، كما هو مذكور فى قوله:

لما رأيت بنى الزمــان ومــا بـهم — خل وفـى للـشــــدائد اصـطفـى

أيقـنت أن المســتـحــيل ثـلاثة — الغــول والعنـقــاء والخل الـوفى

مع أن ذلك ممنوع فى العنقاء فإنها نوع من الطيور موجود الإفراد يذكره أرباب علم الحشائش، وذكر الثعلبى فى قصص الأنبياء قصة العنقاء مع سيدنا سليمان فى تكذيبها بالقدر، نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والإفرنج من أنها من أعلاها عقاب ومن أسفلها أسد! وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود.

وأما المادة الثانية فإنها محض سياسة، ويمكن إن يقال إن الفرد ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الإسلام كما هو فى تلك البلاد لطابت النفس، خصوصا إذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال، أو كانت ممنوعة بالكلية، وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الإمام الأعظم. ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء: الخراج عمود الملك. ومدة إقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا، ولا يتأثرون بحيث إنها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطى وتنفع بيت مالهم، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة.

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا، بل من مزاياها أنها تحمل كل إنسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه. وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال، فإن شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل إنسان صنعته، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده، قيل: سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال

لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع فى غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع ، وتجعل كل إنسان راضيا صنعته ، لا يتمنى أعلى منها ، بل لا يبحث إلا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل إلى كمالها . انتهى . ويرد عليه أنه ليس فى كل إنسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة والحال أنه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله .

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فإنها نافعة لأهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء .

وأما المادة الثامنة فإنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الإنسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات ، الكازيطات . الأولى جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة ، فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى إلا أنها تتضمن أخبارا تتشوق نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأى الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فإن الدرة لا تستهان لهوان غواصها ! وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيته فإذا هو الثقلان

فوجدت كل الصيد فى جوف الفرا ولقيت كل الناس فى إنسان

ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة ، كتبه أهل الجرنال ليكن معلوما للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب وليرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الإنسان مظلوما من إنسان كتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ،

من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل، وتصل إلى محل الحكم، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر.

وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف، وهى واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف، وتعقيبها بما فى العاشرة من باب اللياقة الظاهرة.

وفى المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة وهى أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب المرتبة الأولى: الملك مع وزرائه، والثانية: مرتبة البيرية المحابية للملك، والثالثة: مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحابون عنهم، حتى لا تظلم من أحد، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها، وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها، أو هى آمنة منه بالكلية. ولا يخفى عليك حكمة باقى المواد.

* * *

خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١ وتصليح الشرطة
حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم
مضمون الشرطة بعد التغير

الفرنساوية مستوون فى الأحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغنى، فإن هذه مزايا لا نفع لها إلا فى الاجتماع الإنسانى والتحضر فقط، لا فى الشريعة، فلذلك كان جميعهم يقبل فى المناصب العسكرية والبلدية، كما أنه يعين الدولة من ماله على قدر حاله، وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على إنسان إلا فى الصور المذكورة فى كتب الأحكام ومن قبض على إنسان فى صورة غير منصوصة فى الأحكام يعاقب عقوبة شديدة، ومن الأشياء التى ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل إنسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة، ويعاقب من تعرض لعابد فى عبادته، ولا يجوز وقف شىء على الكنائس أو إهداء شىء لها إلا بإذن صريح من الدولة، وكل فرنساوى له أن يبدى رأيه فى مادة السياسات أو فى مادة الأديان، بشرط أن لا يخل بالانتظام المذكور فى كتب الأحكام.

كل الأملاك على الإطلاق حرم لا يهتك، فلا يُكْره إنسان أبدا على إعطاء ملكه إلا لمصلحة عامة، بشرط أخذ - قبل التخلية - قيمته، والمحكمة هى التى تحكم.

بذلك كل إنسان عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه، بمعنى أنه كل سنة يجمع أولاد إحدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لأخذ العساكر السنوية منهم، ومدة خدمة العسكرية ثمان سنوات، وكل فرنساوى عمره ثمانية عشر سنة وله حقوقه البلدية فإنه يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية، ويعافى من العسكرية عدة أناس: الأول من طوله دون متر وخمسة وسبعون سنتمتر، يعنى أربعة أقدام وعشرة برامق، الثانى: أصحاب العلل، الثالث: الابن أكبر الأخوات الأيتام من أبيهم وأمهم. الرابع: الابن البكرى أو المنفرد أو ابن الابن الأكبر أو المنفرد عند فقده إذا كانت الأم أو الجدة لا زوج لها أو كان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة، الخامس: البكرى أحد الأخوين اللذين وقعا فى قرعة لمة[1] واحدة، السادس: الأخ الذى أخوه فاضل[2] تحت البيرق، أو مات فى الخدمة، أو جرح بجرح فى الحرب، ولو أراد إنسان أن ينوب عنه غيره فإن المنوب يضمن النائب سنة من خوف الهرب إلا إذا كان الهارب قبض عليه فى السنة أو مات تحت بيرق الفرنساوية، وفى أحد وعشرين فى شهر ديسمبر من كل سنة كل العساكر التى تمت خدمتهم يأذن لهم بالعودة إلى محالهم.

ولما كان لا يمكن لكل إنسان أن يدخل بنفسه فى عمل الدولة وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلا تبعثها إلى باريس فى المشورة، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ويصنعوا ما فيه مصلحة لها، وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط التى منها أن يكون عمره خمسة وعشرين سنة له أن يكون ممن له مدخل فى انتخاب رسل عمالاته، وكل فرنساوى له أن يكون رسولا إذا كان عمره ثلاثين سنة، ويكون موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الأحكام. وفى كل مأمورية مجمع اختيار وانتخاب، ومجامع انتخاب للأقاليم الصغيرة، ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار وتعين

---

(١) أى دفعة واحدة من دفعات التجنيد.

(٢) أى باق ومستمر.

١٧٢ رسولا، ومجامع انتخاب الأقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب، حتى أنه يمكن لكل إنسان أن يكتب إعلاما به، وكل منتخب[١] يكتب رأيه سرا فى ورقة، ويعطيها للرئيس، مطوية، والرئيس يضعها فى إناء القرعة. وديوان رسل العمالات يتجدد أهله بالكلية كل خمس سنوات. ولا يمكن أخذ الرد إلا بخلاصة من مشورة الديوانين، مقررة من طرق الملك. ويمكن لأهل البلدان أن يراسلوا أهل الديوانين بطرق العرضحال ليشتكوا من شيء، أو يعرضوا شيئا نافعا.

القضاة لا ينعزلون ولا يحكم على إنسان إلا بقضاة محل استيطانه، والدعاوى تقام جهرا، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها إلا بحضرة جماعة يسمون الجوريين[٢]، والعقوبة على الأموال بطلت. للملك أن يعفو عن المعاقب بالموت، وأن يخفف العقاب الشديد.

على الملك وورثته أن يحلفوا، عند ارتقاء الكرسى، بأن يعملوا بما فى كتاب قوانين المملكة.

ثم أنه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونية المنصوبة عند الفرنساوية، فلنقل إن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية، إنما هى مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسية، وهى مختلفة بالكلية عن الشرائع، وليست قارة الفروع، ويقال لها: الحقوق الفرنساوية، أى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض، وذلك لأن الحقوق عند الإفرنج مختلفة.

ثم أن بباريس عدة محاكم، وفى كل محكمة قاض كبير كأنه قاضى القضاة، وحوله رؤساء وأرباب مشورة ووكلاء الخصوم ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين وموقع الوقائع.

من ادعى أن له حاجة ... تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا ... فإنه ضر بلا نفع

---

(١) بكسر الخاء. (الطهطاوى).
(٢) أى المحلفين.

الفصل الرّابع

(فى عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك)

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش. والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثر تعلقها بالفنون والمعارف، فهى أعظم أدبا وعمرانا. والبنادر أولى فى العمارات عادة من القرى ومن الضياع، والمدن العظمى أولى من سائر البنادر، وتخت المملكة أولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة، فحينئذ لا عجب أن قيل: إن باريس، التى هى قاعدة ملك الفرنسيس، من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة، وإن كانت عمارتها غير جيدة المادة، فهى جيدة الهندسة والصناعة، على أنه ربما يقال أيضا: إن مادتها جيدة، إلا أنها ناقصة لقلة كثرة حجر الرخام فيها، وبخلوها عن بعض أشياء آخر، وكيف لا، وأساس حيطانها من أحجار النحاتة، وكذلك الحيطان الخارجية، وأما الداخلية فإنها تتخذ من الخشب الجيد فى الغالب، وأما عواميدها فهى غالبا من النحاسة، فقل أن كانت من الرخام، كما أن تبليط الأرض يتخذ من حجر البلاط، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط، وذلك أن الطرق دائما مبلطة دائما بحجر البلاط المربع، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور، والقيعان بالآجر أو بالخشب أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول، وجودة الحجر أو الخشب تختلف باختلاف يسار الإنسان، ثم إن حيطان الغرفات والأرض من خشب، كما تقدم، وهم يطلونه بالطلاء: ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا نظيفا، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير، فإن الورق لا يعود منه شىء على من مس الجدار بخلاف الجير، بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا

وأسهل فعلا، خصوصا فى أوضاتهم المزينة بأنواع من الأمتعة التى لا يمكن الإفصاح عنها.

غاية ما يقال: إن الفرنساوية يحاولون إضعاف نور الأرض بوضع الستائر الملونة، خصوصا الخضراء، وأرض أوضهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميد الأحمر، ويحكّون أرض الأوضة كل يوم بالشمع الأصفر المسمى عندهم شمع الحك، وعندهم حكاكون بالأجرة معدون لذلك بالخصوص، وتحت أسرَّتهم المكسوة بالمخيشات وبالمسجرات وغيرها سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال، وفى كل أوضة مدخنة للنار، وهى على شكل صفة القلل، ومرخمة بجيد الرخام، وفوقها ساعة «بشتختة» وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض أو من البلور فيهما أزهار أو تقليد أزهار، وحول هذا من الجهتين من القناديل الإفرنجية الدولابية التى لا يدرك صورتها حقيقة إلا من رآها موقودة، وفى غالب أوضهم آلة الموسيقا المسماة البيان[1] فإذا كانت الأوضة أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس[2] أو غيرهما، وأغلب الأوض مشحون بالصور، خصوصا صور الأقارب، وفى أوضة الشغل أيضا قد توجد صور عجيبة وأشياء من غرايب ما كان عند القدماء على اختلافهم، وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها، وربما رأيت أيضا فى أوض الأكابر النجفات العظيمة التى توقد بشموع العسل، وربما رأيت أيضا فى أوضهم فى يوم تلقى الناس[3] طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره وينزه خاطره فى قراءة هذه الأشياء، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب، فهى أنسهم، ومن التوقيعات اللطيفة: الكتاب وعاء ملىء علما، وظرف حشى ظرفا، ومن لك بروضة تقلب فى حجر وبستان يحمل فى كم. وما أحسن قول بعضهم شعرا:

---

(١) بكسر الباء وضم النون. (الطهطاوى).

(٢) أخشاب نوع من الشجر بطىء النمو، يزرع فى أوربا وآسيا.

(٣) أى استقبالهم فى المناسبات.

دفترى مؤنسى وفكرى سميرى ويدى خادمى وحلمى ضجيعى

ولسانى سيفى وبطشى قريضى ودواتى عيشى ودرجى ربيعى

وقال آخر

لنا جلساء ما يمل حديثهم ألبَّاء مأمون غيبا ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا

فإن قلت أمواتا فما أنت كاذب وإن قلت أحياء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر . ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكيا أحسن تبسما من القلم .

ثم إن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت ، أى زوجة صاحبه ، التى تحى الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية . فأين هذه الأوض بما احتوت عليه من اللطائف من أوضنا التى يحيى فيها الإنسان بإعطاء شبق الدخان من يد خادم فى الغالب أسود اللون!

وأما السقوف فإنها من الخشب النفيس ، ثم إن البيت فى العادة مصنوع من أربع طبقات بعضها فوق بعض ، ما عدا البناء الأرضى فلا يحسب دورا ، وقد يصل إلى سبعة أدوار ، وغيرها تحت الأرض من المخادع التى تستعمل أيضا لربط الخيل أو المطبخ أو ذخائر البيت وخصوصا النبيذ والخشب للوقود ، ثم إن البيت عندهم ، كما فى بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة مساكن مستقلة ، ففى كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ الأوضات .

وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب : المرتبة الأولى : بيت عادى ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول يسمى بيتا ، والثانى يسمى دارا ، والثالث يسمى قصرا أو سراية . ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى إلى ثلاث مراتب أيضا ، المرتبة الأولى : البيوت التى لها حاجب ، ولها باب كبير يسع دخول العربة منه ، والثانية :

البيوت التى داخلها دهاليز، ولها بواب، ولا يمكن أن تدخل العربة من بابها، والثالثة: البيوت التى لا بواب لها، أى لا مكان للبواب فيها يسكن فيه، ووظيفة البواب فى باريس أن ينتظر الساكن إلى نصف الليل، فإذا أراد الساكن أن يسهر فى المدينة زيادة عن نصف الليل فعليه أن ينبه البواب لينتظره، ولكن لا بد أن يعطيه بعض شىء، وليس على الحارات بواب أصلا، وليس لها أبواب كما فى مصر، ثم إن العقارات بباريس غالية الثمن والكراء حتى أن الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك، يعنى نحو ثلاثة ملايين قروش مصرية، ثم إن كراء المساكن فى باريس قد يكون لمجرد المسكن، وقد يستأجرها الإنسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها. وآلات البيت عند الفرنسيين هى آلات الطباخة والمأكل بأجمعها، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها، وآلة الفراش للنوم، وهو فى الغالب عدة طراحات إحداها من الريش، وملاية فرشة تتغير كل شهر، وحرامات[1] الغطاء، ثم آلات التجمل وتلقى الزوار، وهى الكراسى المكسوة بالحرير المشغول ونحوه، والسدلات[2] المكسُوّة كذلك، والكراسى العادية والآلات العظيمة المنظر كالساعات الكبيرة المسماة عندهم بندول، وكأوانى الأزهار العظيمة وغيرها من أوانى القهوة المموهة بالذهب، وكالنجفة المعلقة التى تتقد بالشموع المكررة، وكخزانة الكتب التى لها باب من القزاز يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد، وكل إنسان له خزنة كتب، سواء الغنى والفقير، حيث إن سائر العامة يكتبون ويقرؤون. والغالب أن الرجل ينام فى أوضة غير التى تنام فيها زوجته، إذا تقادم الزواج.

ومن العوائد التى لا بأس بها أن قصر ملك فرانسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة إلى الإقامة فى الخلاء مدة أشهر، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة، ولكن لا يدخل أحد إلا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الإذن بدخول شخص أوشخصين أو أكثر، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس، فإذا طلبها الإنسان ممن

---

(١) بطاطين.

(٢) الستائر.

يعرفه أعطاها له، فترى فى البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأقاربه، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته من الأمور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها، وفيه كثير من الصور التى لا تمتاز عن الناس إلا بعدم النطق، وفيه صور كثير من ملوك فرانسا وكل أقارب السلطنة، وكل الأشياء الغريبة، وأغلب الأشياء الموجودة فى حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لا نفاستها بالمادة، مثلا سائر الفراش كالكراسى والأسرة، حتى كراسى الملكة، مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ومطلية بالذهب، إلا أنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة، فمبنى أمور الفرنساوية فى جميع أمورهم على التجمل لا على الزينة وإظهار الغنى والتفاخر.

ثم سائر الأغنياء بباريس تسكن فى الشتاء فى نفس المدينة، وقد أسلفنا فى ذكر طبيعة إقليم باريس أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران فى القيعان والأوض، وأما مدة الحر فإن من له يسار يسكن فى الخلاء لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة، ومن الناس من يسافر فى بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ليستنشق رائحة البلاد الغريبة، ويطلع على البلاد، يعرف عوائد أهلها، خصوصا من مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل أو مدة الفراغ، يعنى البطالة، حتى النساء فإنهن يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر ويتفقن عليه مدة سفره معهن، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها، أو ليس أنه قد يأتى منهن من بلاد الإفرنج إلى مصر ليرين غرائبها من الأهرام والبرابى وغيرها، فهن كالرجال فى جميع الأمور، نعم قد يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكّن من أنفسهن الأجنبى، وهن غير متزوجات، فيشعرن بالحمل ويخشين من الفضيحة بين الناس فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ليلدن ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى فى البلاد الغريبة ومع هذا الأمر فليس بشائع، وبالجملة، ما كل بارقة تجود بمائها! ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض، ومنهن من هى بضد ذلك، وهو الأغلب، لاستيلاء فن العشق فى فرانسا على قلوب غالب الناس، ذكورا وأناثا وعشقهم

معلل لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك، إلا إنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج.

ومما ينبغى أن يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ، وإن كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلاشىء، فإن أهل الفلمنك أشد جميع الأمم نظافة ظاهرية، كما أن أهل مصر فى قديم الأزمان كانوا أيضا أعظم أهل الدنيا نظافة، ولم يقلدهم زراريهم وهم القبطة فى ذلك، وكما أن باريز نظيفة فهى خلية أيضا من السميات، بل ومن الحشرات، فلا يسمع بأن انسانا فيها لدعته عقرب أبدا، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكهن الموضوعة بالهندسة وضعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات الشبابيك دائما من القزاز حتى إذا أغلقت فإن النور لا يحجب أصلا، وفوقها دائما الستائر للغنى والفقير، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس.

الفصل الخامس

(فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب)

إعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة، وهى فى الغالب صغيرة الحبوب إلا إذا كانت منقولة من البلاد الغربية، فيطحنونها فى طواحين الهواء والماء، ويخبزونها عند الفران، فيباع الخبز فى دكانه. وسائر الناس لها ترتيب يومى تشتريه من الخباز، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه، لأن سائر الناس مشغولون فى أشغال خاصة، فصناعة العيش فى البيوت تشغلهم، ثم إن «المحتسب»[1] يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفى المدينة، وفى الحقيقة لا يمكن فقد العيش أبدا بمدينة باريس، بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية.

وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضروات والألبان والبيض وغيرها، والغالب تعدد الأطعمة، ولو عند الفقراء، ثم إن المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لا داخلها، وحكمة ذلك أمران: دفع الوخم، ودفع أضرار البهائم إذا انفلتت وكيفية الذبح تختلف عندهم، فأما ذبح الضأن فإنه أهون من ذبح غيره، فإنهم ينفذون السكين وراء زوره يعنى بين زوره، ورقبته، ثم يقطعونه، بعكس ما نفعل، وأما ذبح العجول فإنه مثله، وأما الثيران فإنهم يضربونها بمقامع من حديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ثم يكررون ذلك مرات فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن. ولقد بعثت خادما لى مصريا إلى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر جاء يستجير وبحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثوراً فى بلاد الإفرنج وإلا لذاق العذاب كالثيران التى رآها! والعجول والثيران تكون من البقر، إذ لا وجود

---

(١) القائم على توفير احتياجات المواطنين المعاشية، واختصاصاته أعم وأشمل من «وزير التموين» فى عصرنا الحالى. وهى هنا مستخدمة مقابل الكلمة الفرنسية: [Le Prefet].

للجواميس بهذه البلاد إلا للفرجة، وأما ذبح الطيور فإنهم يذبحونها على أنواع مختلفة من الذبح، فمنهم من يصنع فيها كالغنم، ومنهم من يقطع لسان الطائر، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط، ومنهم من يذبحة من قفاه، إلى غير ذلك، وأما الأرانب فإنها لا تذبح أبدا، بل يخنق ليحقن فيها دمها. وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحا مخصوصا، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول.

ثم من الأمور التى بها راحة للناس بمدينة باريس محال الأكل المسماة «الراسطراطور» أى «اللوكنجة» فإنها مستوفية لما يجده الإنسان فى بيته، بل أعظم، وقد يجد الإنسان ما يطلبه حاضرا، وفى هذه «الراسطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش، وكما يوجد فى «الرسطراطور» أنواع المآكل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل، وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا فى آنية النحاس أبدا، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة. والشوكة والملعقة من الفضة، ويرون أن من النظافة أو الشلبنة[1] أن لا يمس الإنسان الشىء بيده، وكل إنسان له طبق قدامه، بل وكل طعام له طبق، وقدام الإنسان قدح، فيصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب، فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأوانى الشرب دائما من البلور والزجاج، وعلى السفرة عدة أوانى صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفى الثالث خردل إلى آخره. وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جدا، وابتداء المائدة عندهم الشوربة واختتامها الحلويات والفواكه، والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء، وفى الغالب خصوصا لأكابر الناس، يشرب من النبيذ قدرا لا يسكر به أبدا، فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل. وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من «الغرقى»[2]، ثم أنهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرا فى أشعارهم، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلا، فهم يتلذذون بالذات والصفات ولا يتخيّلون فى ذلك معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى، وهى هزليات فى

(١) النزاهة والعظمة.

(٢) نوع من الخمر.

مدح الخمرة لا تدخل فى الأدبيات الصحيحة فى شيء أصلا . ويكثر فى باريس شرب الشاى عقب الطعام لأنهم يقولون أنه هاضم للطعام، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر، وفى عوائد أغلب الناس أن يفتتوا الخبز فى القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطونها فى الصباح . وإذا أردت بعض شيء يتعلق بالمأكل والمشرب فراجع فصل المأكل والمشرب فى ترجمتنا كتاب (قلائد المفاخر) .

ثم أن الغالب أن ما يقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبه : فمن الخبز أبلغ من خمسة وثلاثين مليون فرنك، ومن اللحوم تأكل نحو واحد وثمانين ألف ثور وأربعمائة وثلاثين ثورا، ومن البقر نحو ثلاثة عشر ألف بقرة، ومن الضأن أربعمائة وسبعين ألف كبش، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة ألف خنزير، ومن السمن بنحو عشرة ملايين فرنك، ومن البيض بنحو خمسة آلاف فرنك .

ومن غرائب الأشياء أن فيها التحيل على عدم عفونه الأشياء التى من شأنها العفونة، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمسة سنين من غير تغير، وادخار اللحم طريا عشرة سنوات، وادخار الفواكه لوجودها فى غير أوانها، ومع كثرة تفننهم فى الأطعمة والفطورات ونحوها فطعامهم، على الإطلاق، عديم اللذة، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ .

وأما خماراتها فإنها لا تحصى، فما من حارة إلا وهى مشحونة بهذه الخمارات، ولا يجتمع فيها إلا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب، والشراب، ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم أضرار أصلا، وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مار فى طريق باريس أن سكرانا صاح قائلا : يا تركى، يا تركى، وقبض بثيابى، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه، فدخلت معه وأجلسته على كرسى وقلت لرب الحانوت، على سبيل المزح : هل تريد أن تعطينى بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا؟! فقال صاحب الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرف فى النوع الإنساني! فما كان جوابى له إلا أننى قلت : إن هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين! وهذا كله والرجل جالس على الكرسى ولا يشعر بشيء من ذلك، ثم تركته بهذا المحل وذهبت! .

الفصل السادس

(فى ملابس الفرنسيس)

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الإفرنج البرنيطة، وأن نعالهم فى الأكثر الصرم السود أو «التاسومات» وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الأسود. أما الفرنساوية، فإنهم فى الغالب أيضا على هذا الملبس، إلا أنهم لا يلزمون ملبسا خاصا، غير أن كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه، والغالب أن لبسهم ليس له زينة وإنما هو فى غاية النظافة، ومن العوائد العظيمة انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم، فإن الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش، فلذلك لا أثر للقمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر. وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة، بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذا تزين بأغلى ما عليهن، ولكن ليس لهن كثيرا من الحلى، فإن حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ونوع من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكمام، وعقد خفيف فى أجيادهن، وأما الخلاخل فلا يعرفونها أبدا، ولبسهن فى العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت، أو البفت الخفيف، ولهن فى البرد شريط فروة فيضعونه فى رقابهن ويرخين طرفيه كالمئزر حتى يصل طرفيه إلى قرب القدمين، ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفا، ويبرز الردف كثيفا. ومما أنشده الحاجرى فى ديوانه، وإن كان فيه خروج، قوله:

ومزنر[1] يا ليتنى أستاذه — كيما أفوز بضمة من خصره

(١) المزنر، لابسة «الزنار» هو ما يشد على الوسط.

القس يسقيه شبيهة خده | والمسلمين بأسرهم فى أسره
فوحقه لولا رشاقة قده | مارق إسلامى لشدة كفره

ومن العجائب أنه يمكن الإنسان أن يضع فى الخصر وقت الحزام فترى يديه لدقته.

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به، ولهن كثير من الحيل، ومن خصالهن التى لا يمكن للإنسان أن يستحسنها منهن عدم إرخائهن الشعور كعادة نساء العرب، فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه، ومن عوائدهن فى أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن، فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدى، حتى أنه يمكن أن يظهر ظهرهن، وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن، وبالجملة، فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد، ولكن لا يمكن لهم أبدا كشف شيء من الرجلين، بل هن دائما لا بسات للجرابات الساترة للساقين، خصوصا فى الخروج إلى الطرق، وفى الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا، فلا يصلح لهن قول الشاعر:

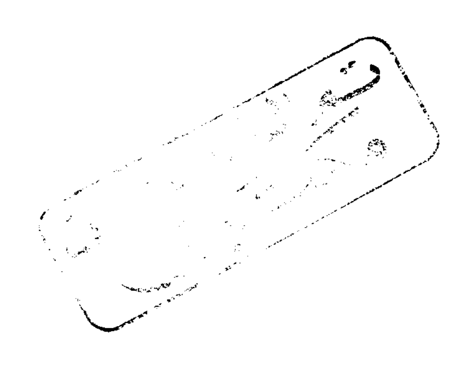
لم أنسه إذ قام يكشف عامدا | عن ساقة كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتى | إن القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس أن يلبس علامة الحزن مدة معلومة، ولها محل معلوم، فالرجل يضع علامة الحزن فى برنيطته مدة معلومة، والمرأة فى ثيابها، والولد على فقد أبيه أو أمه علامة الحزن ستة أشهر، وعلى فقد الجدة أربعة أشهر ونصف، والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين، وعلى فقد الخال والعم والعمة ثلاثة أسابيع وعلى فقد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين.

ثم إن ما يباع فى باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون فرنك تقريبا، ومن الحرير

بثلاثة ملايين فرنك، ومن الفراوى بمليون فرنك. ولعل السبب فى ذلك هو أن الفراوى تشترى من خصوص باريس لأهل باريس.

ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع ورديء الشعر، بل فقد يستعملونها فى اللحى والشارب للتقليد، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا، حيث إن هذا الملك كان يلبسها ولا يخلعها من رأسه أصلا إلا عند النوم ولا زالت إلى الآن مستعملة لكن للأقرع أو رديء الشعر، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة.



الفصل السابع

(فى منتزهات مدينة باريس)

إعلم أن هؤلاء الخلق حيث إنهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات[١]، فإنهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية واللهو واللعب، ويتفنون فى ذلك تفننا عجيبا.

فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى «التياتر»[٢] «والسبكتاكل»، وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل، فإن الإنسان يأخذ منها عبر عجيبة، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة، ومدح الأولى وذم الثانية، حتى أن الفرنساوية يقولون إنها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها، فهى وإن كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها كثير من المبكيات، ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية: «قد تنصلح العوائد باللعب» وصورة هذه «التياترات» أنها بيوت عظيمة، لها قبة عظيمة، وفيها عدة أدوار، كل دور أوض موضوعة حول القبة من داخله، وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الأرض بحيث إن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخل البيت، وهو منور بالنجفات العظيمة، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر وسائر النساء والرجال المعدة للعب، ثم أنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة، فإذا أرادوا تقليد

---

(١) أي العبادات الدينية.

(٢) بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية. (الطهطاوى). وهى الكلمة الفرنسية: (Le éatre).

سلطان مثلا فى سائر ما وقع منه وضعوا ذلك المقعد على شكل سراية، وصوروا ذاته، وأنشدوا أشعاره، وهلم جرا. ومدة تجهيز المقعد برخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر، ثم يرفعونها ويبتدون اللعب، ثم النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر، واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار، ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الأشعار وما يبدو به من التوريات فى اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب.

ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة، ويتعمقون فى ذلك وقت اللعب، حتى يظن أنهم من العلماء، حتى أن الأولاد الصغار التى تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها.

ثم أنهم يبتدون اللعب بآلات الموسيقا، ثم يلعبون ما يريدون لعبه، واللعبة التى تظهر فى ورقة وتلصق فى حيطان المدينة وتكتب فى التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام، وفى الليلة يلعبون لعبات، وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة. إذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم ألبسوا لبس ملك العجم، وأحضروه وأجلسوه على كرسى، وهكذا.

وفى هذه «السبكتاكل» يصورون سائر ما يوجد حتى أنهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا، وقد رأيت مرة فى الليل أنهم ختموا «التياتر» بتصوير شمس أن ـ تسييرها وتنوير «التياتر» بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف حتى كأن الناس فى الصباح، ولهم أشياء أغرب من هذا. وبالجملة، فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل. وأعظم «السبكتاكل» فى مدينة باريس المسماة «الأوبرا»[1] وفيها أعظم الآلاتية وأهل الرقص، وفيها الغناء على الآلات والرقص بإشارات كإشارات الأخرس تدل على أمور عجيبة. ومنها «تياتر» تسمى «أوبرة كوميك» فتغنى فيها الأشعار المفرحة، وبها «تياتر» تسمى «التياتر الطليانية»، وبها

(١) بضم الهمزة، وتشديد الباء والمكسورة، وفتح الراء. (الطهطاوى).

أعظم الآلاتية، فيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية. وهذه كلها من «السبكتاكلات» الكبيرة وفى باريس «سبكتاكلات» صغرى، وهى مثل تلك إلا أنها صغيرة، وهناك «سبكتاكلات» أخرى يُلعِّبون فيها الخيل والفيلة ونحوها.

ومنها «التياتر» المسماة «تياتر كرنكونى»(١) وفيها فيل مشهور بالألعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا، وكما أن أعظم «التياترات» «الأوبرة» تسمى «تياتر الكمت» وهى معدة لنزاهة الصغار، كالحلوى فى مصر، «والكمت» اسم معلم هذه «السبكتاكل»، وكل اللاعبين واللاعبات صغار السن، وهذه «التياتر» يوجد بها كثير من الشعيبثيات والسيم ونحوها(٢).

ولو لم تشتمل «التياتر» فى فرنسا على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة، فانظر إلى اللاعبين بها فإنهم يحترزون ما أمكن عن الأمور التى يفتتن بها، المخلة بالحياء، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر وأهل السماع ونحوها.

ولا أعرف اسما عربيا بمعنى «السبكتاكل» أو «التياتر»، غير أن لفظ «سبكتاكل» معناه: منظر أو منتزة أو نحو ذلك، ولفظ «تياتر» معناه الأصلى كذلك، ثم سمى بها اللعب ومحله، ويقرب أن يكون نظيرها: أهل اللعب المسمى خياليا، بل الخيالى نوع منها، وتشتهر عند الترك باسم «كمدبة»، وهذا الاسم قاصر إلا أن يتوسع فيه، ولا مانع أن تترجم لفظة «تياتر» أو «سبكتاكل» بلفظ خيالى، ويتوسع فى معنى هذه الكلمة.

ويقرب من تصوير «السبكتاكل» أو هو منها مواضع يصور فيها للإنسان منظر بلد أو أرض أو نحو ذلك، فمن ذلك «بانورمة(٣)» وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها، ففى صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلا، والرميلة تحتك، وباقى المدينة، ومنها «كسمورمة»(٤) وفيه صورة بلدة، ثم أخرى،

---

(١) بكسر الكاف وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية. (الطهطاوى).

(٢) أي الألغاز والحيل المرئية، واشتهر منها - على النطاق الشعبى - خيال الظل.

(٣) من الكلمة الفرنسية: (Lanorama).

(٤) من الكلمة الفرنسية: (Cosmorama).

وهكذا، ومنه «ديورمة»[1] وفيه صورة دار، ومنها «أورانورمة»[2] وفيه صورة الفلك الأعظم وسائر ما يحتوى عليه مصورا على مذهب الإفرنج، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك، ومنها «أوروبرمة»[3] وفيه صورة بلاد الإفرنج.

ومن المنتزهات محال الرقص المسماة «البال» وفيه الغناء والرقص، وقل أن دخلت ليلا فى بيت من بيوت الأكابر إلا وسمعت به الموسيقا والمغنى، ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى أصلا لعدم معرفتنا بلسانهم، ولله در من قال فى مثل هذا الأمر:

ولم أفهم معانيها ولكن ... ودت كبدى فلم أجهل شجاها

فكنت كأننى أعمى معنى ... يحب الغانيات ولا يراها

«والبال» قسمان، «بال» عام، ويدخله سائر الناس، «كالبال» فى القهاوى والبساتين، «والبال» الخاص، وهو أن يدعو الإنسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك، كالفرح فى مصر، «والبال» دائما مشتمل على الرجال النساء، وفيه وقدات عظيمة، وكراسى للجلوس، والغالب أن الجلوس للنساء، ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء، وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن كرسى خاليا قام لها رجل وأجلسها، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها، فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل، ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن، فدرجته بعد زوجته أونساء البيت.

ومن المنتزهات جمعية الناس، «كضمة» مصر، إلا أن فيها دائما آلات الموسيقا والغناء والرقص، وبين كل نوبة من الموسيقا والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة، وبالجملة، فالموسيقا بالأصالة والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس، كما الشاعر:

---

(١) من الكلمة الفرنسية: (Dismorama).

(٢) من الكلمة الفرنسية: (Uranorama).

(٣) من الكلمة الفرنسية: (L'europeorama).

هل العيش إلا ماء كرم مصفق ترقرقه فى الكاس ماء غمام

وعود بنان حين ساعد شدوه على نغم الأوتار ناي زنام[1]

وقد قلنا أن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودى فى تاريخه المسمى (مروج الذهب)، فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض، فليس كل قوى يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء. وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يعرف بالتأمل، ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة، لا من الفسق، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء، لأنه لتهييج الشهوات، وأما فى باريس فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا، وسواء كان يعرفها أو لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد، كما قال الشاعر

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع أن من الرقص رقصة مخصوصة يرقص الإنسان ويده فى خاصرة من ترقص معه، وأغلب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة، فمس المرأة أيا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى. وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب، وصاحبة البيت تحيى أهل المجلس. ومن النزة العامة التى تصنع فى الصيف، ومبناها على الرقص والآلات وتسييب البارود، ونحو ذلك. ومن المواسم العامة عندهم أيام تسمى أيام «الكرنوال»، ى

(١) الزنمة بالنسبة للأذن تقابل الوترة فى الآلة الموسيقية، وهى هنة تلى شحمه الأذن. والناي الزنام هو الناي الوتري.

وتسمى عند قبطة مصر أيام «الرفاع»، وهى عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكيلات، فيتشكل الرجال تشكل امرأة والمرأة فى صورة رجل، ويتراءى الخواجة فى صورة راع ونحو ذلك.

وبالجملة، فيباح سائر ما لا يضر براحة المملكة وانتظامها، ويقول الفرنساوية إن هذه الأيام أيام جنون، ويدور بهذه البلدة فحل هو أسمن فحول فرنسا فى موكب عظيم مدة أيام الزفر الثلاثة ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه بخشيشا فى نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم.

ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة، ففى باريس نحو أربعة بساتين كبرى يتماشى فيها الخاص والعام، فمنها حديقة «التولرى» التى بها قصر الملك، وهى من أعظم المنتزهات، يدخلها المتجملون من الناس، ويحجز الأسافل من دخولها، فكأنما مصداق قول بعض الظرفاء:

لو كنت أملك للرياض صيانة ... يوما لما وصل اللئام ترابها

فمنها حديقة تسمى «الشمزليزة»[1]، معناه بالعربية: رياض الجنة، وهى من أرق المنتزهات وأنضرها، وهى بستان عظيم يبلغ أربعين أربانا، والأربان هو قياس يقرب من الفدان، ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فإنها موضوعة بحيث أنك إذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك، وفى هذه الروضة العظيمة دائما شىء من الملاهى لا يمكن حصره، وسائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض، رتبت بحيث إنه يوجد مدخل من كل الجهات، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات، وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع، وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين، وبينها وبينه رصيف، وبجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء، وفيها كثير من القهاوى «والرسطراطورات»[2] يعنى بيوت الأكل، وفيها سائر أنواع الطعام والشراب، وهى مجمع الأحباب والأكابر، وبها كثير من المرامح للخيل، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينة، وفيها عدة آلاف من

---

(١) من الكلمة الفرنسية: (Chemps- Elyses).

(٢) من الكلمة الفرنسية: (Resturants).

الكراسى بالأجرة يجلس عليها فى زمن الربيع نهارا وفى الصيف ليلا وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد، فإنه يوم البطالة عند الفرنساوية. وبالجملة، فهذه الحديقة محل للمواسم وللأفراح العامة والزينات، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات.

ومن المنتزهات المحال المسماة «البلورا»، وهى الأشجار المتصافة المتوازية، وقد أسلفنا بيانها، وهى محل يتماشى فيه سائر الناس فى سائر الأيام، وفيه أعظم قهاوى باريس، وتدور فيه الآلاتية المتنقلون بآلاتهم، وفيه كثير من محال «التياترات»، وبه أيضا تدور النساء اللواتى يتعرفن بالرجال، سيما بالليل، فهو فى جميع الليالى وفى ليلة الاثنين يحوى كثيرا من الناس فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ذراعه فى ذراعها إلى نصف الليل، ويصلح هنا قول الشاعر:

لا تلق إلا بليل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قواد

كم عاشق وظلام الليل يستره ... لاقى الأحبة والواشون رقاد

وقال آخر:

أيها الليل طر بغير جناح ... ليس للعين راحة فى الصباح

كيف لا أبغض الصباح وفيه ... بان عنى الوجوه الملاح

ولا يمدح الليل إلا من ترقب فيه وصال محبوبه، وتفقد فيه نيل مطلوبه، بخلاف من كثر فيه حرقه، وزاد أرقه، وطال سهاده، وطار رقاده، فإنه يهوى الصباح، ليذهب همه ويرتاح. قال الشاعر:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كأن نجومه ... على صفحات الجو شدت بيذبل[1]

(١) فى رواية أخرى: ★ بكل مغار الفتل شدت بيذبل★. والأبيات من معلقة أمرىء القيس.

وقال آخر :

ليلى وليلى نفى نومى اختلافهما　　　بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطول ليلى كلما بخلت　　　بالطول ليلى وأن جادت به بخلا

وقال من لا يشكو من الليل :

يا ليل طل أو لا تطل　　　لا بد لى أن أسهرك

لو كان عندى قمرى　　　ما بت أرعى قمرك

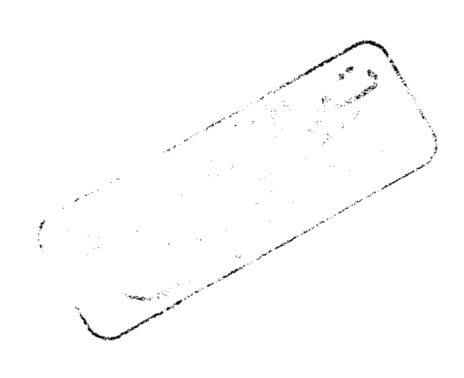
وقال آخر مثله :

يا ليل طل يا شوق دم　　　إنى على الحالين صابر

لى فيك أجر مجاهد　　　إن صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى .

ومن المنتزهات أيضا سوق تباع فيه الأزهار ، وفى هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النادرة ولو فى غير أوانها حتى إن الإنسان يمكنه أن يجدد بستانا فى يوم واحد بأن يشترى سائر ما يحتاجه ثم يزرعه فى يوم . وبالجملة ، فلا يمكن أن الإنسان يتمتع بهذه المنتزهات إلا بصحة البدن .



الفصل الثامن

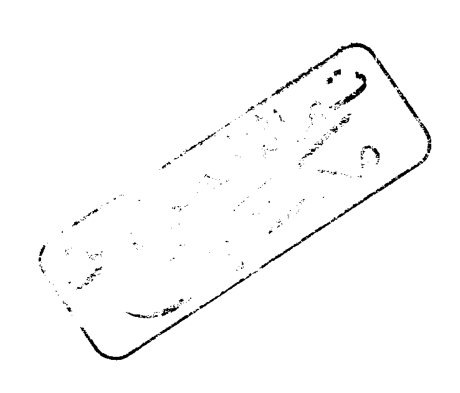
(فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس)

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان، وكان الإفرنج أحكم الأمم، كثر اعتناؤهم بهذا الفن وبتكميل آلاته ووسائطه، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات، والمحام الباردة المياه، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة، كالعوم وركوب الخيل والألعاب التى يخف بها البدن. والحمامات فى باريس متنوعة، وفى الحقيقة هى أنظف من حمامات مصر، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن فى الجملة، وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات، فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الإنسان فقط، وفى بعض الخلوات مغطسان، وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة، فإنه لا طريقة أن يطلع إنسان على عورة آخر، حتى أن الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الإنسان صاحبه، وليس فى دخول الإنسان هذا المغاطس الصغيرة لذة كالدخول فى الحمامات، ولا يعرق الإنسان بها أبدا، إذ الحرارة لا توجد إلا فى المغطس، لا فى الخلوة أبدا، وإن كان يمكن أن يوصي الإنسان على حمام بالبخار فإنهم يصنعون له ذلك، ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد.

وفى الحمام صفان من الخلاوى، صف للرجال، وصف للنساء وكما أنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة، فإذا طلب الإنسان حماما فى بيته أو كان مريضا أو نحو ذلك فإنهم يحملون إليه فى عربة كالبرميل الماء البارد فى شقة

والساخن فى أخرى، ومعها محم، فيوضع المحم فى بيت الإنسان ويملأ من الماء المسخن، فيغتسل الإنسان منه، ثم بعد فراغه يحملونه إلى بيت الحمام، ومن الحمامات حمام يضع فيه الإنسان بعض بدنه لبعض الأمراض فيسمى: نصف حمام، والحمامات بباريس كثيرة، فأشهرها ثلاثون حماما تقريبا.

ومن أمور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة، وهى ثلاثة مكاتب على نهر السين، ومنها مدارس لتخفيف البدن وجعله قابلا للأشياء العجيبة كالبهلوانية والمصارعة ونحو ذلك.



الفصل التاسع

(فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية)

إعلم أن مدينة باريس هى أعظم مدن الإفرنج التى يرحل إليها الغرباء لتعلم العلوم، خصوصا العلوم الطبية، وقد ينتقل إليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها، والعلوم الطبية التى تسمى أيضا علم الحكمة هى: علم الطب، والجراحة، والتشريح، وفن «الفيسيولوجيا»[١] من حالة وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات، وغير ذلك. والحكماء فى باريس كثيرون جدا، حتى يوجد فى كل خط عدة حكماء، بل الطرق مملوءة من الحكماء، حتى أن الانسان إذا أصيب فى الطريق بداء فإنه لا بد أن يجد الحكيم حالا، لكثرة الحكماء بهذه البلدة.

ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها إليه، ومن المرضى من يذهب إلى الطبيب فى بيته، وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا فى بيته لتلقى الناس ومن المرضى من ينتقل مدة معينة فى بيت يسمى بيت الصحة معد لمن يدفع قدرا معينا فى نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك.

وفى باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلى بخلل شىء من عظام البدن كالأحديداب. فإنه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب فيقومون بدنه بشىء من علم الحيل، كما إذا كان مقطوع أحد الأطراف فإنهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أوالخشب شيئا فى محله، وفى هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس، وفى هذه

(١) (Physiogie).

البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج إليه فى الولادة، ومن المواضع المعدة للمرضى والتى يوجد فيها الأطباء المارستانات العامة فتدخلها المرضى للعلاج ولإقامة مدة المرض بلا عوض.

ثم إن الأطباء فى باريس فرقتان، إحداهما: الأطباء عامة لمطلق الأمراض على تنويعها، والأخرى لداءات خاصة، وذلك أن علم الطب متسع جدا فقل أن يشتغل إنسان بسائر فروعه ويحققها، فاحتياج أطباء الفرنساوية إلى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغى له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ويتقوى فيه ويتبحر، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن، حتى يجلب إليه من به داء يدخله شىء من ذلك الفن، فلذلك يوجد فى باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة، وأطباء مرض العين تسمى «المكحلاتية»، وأطباء لأمراض الأذنين. وأطباء لداء الأنف وتجبيره، حتى إن أطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحا.

وفى باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الإنسانية للاستعانة على مداواة الإنسان[1]، وتفصيل ذلك أن فى باريس جماعة من الطبايعية تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الإنسان يشتمل على مادة سيالية، يعنى جاذبية المغناطيس الإنسانية، يعنى أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس، وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات كالمسح فينعس الإنسان أو تغيب حواسه حتى لا يحس بشىء، فإذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شىء أو بفتح شيء من بدنه من غير أن يشعر بشىء أبدا، وقد جرب ذلك فى قطع ثدى امرأة بعد مغناطيسيتها فمكثت عدة أيام ثم ماتت، فقال علماء المغناطيسية: إنها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع، فإنها عاشت بعده، فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الأمراض العصبية.

وفى باريس أيضا حكماء لخصوص مداواة خلل العقل. أو لألم أعضاء التناسل. أو الحصوة، ولخصوص الأمراض الجلدية المنفرة وغيرها كالجزام والجرب. وفى باريس أيضا حكماء لتوليد النساء، فإن العادة أيضا فى باريس أن

---

(١) وهو ما نسميه العلاج بالتنويم المغناطيسى.

المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة. وبها حكماء لمعالجة البياضة التى تنزل بالعين والماء الذى يعميها. وبها حكماء لأوجاع الصدر، وداء الفالج الذى هو شلل بعض الأعضاء، فيداوونه بعلاج يسمى «الأكمبكتور»[1] يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة، فيخرجون بذلك شيئا من الدم ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء. وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة الإنسان، وهذا العلاج يسمى «الأرتوبيدى»[2] يعنى فن إصلاح خلل أعضاء الأطفال، فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة.

ثم إن فروع العلوم الطبية كثيرة، فالمشهور منها: فن التشريح، وفن تمييز أمراض الإنسان من حال طبيعته، وفن الكيمياء العقاقيرية، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية، وعلم الجراحة الطبية، ووضع العصابة على الجراح، والتضميد بالمراهم، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض باطنية، وفن معالجة النفساء وتوليد الحامل، وعلم الطبيعة التى تدخل الطب، وعلم العقاقير والأدوية المفردة أو المركبة، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض.

ومدارس الحكمة بمدينة باريس ومنافعها شهيرة، فمنها مدرسة كبيرة تسمى «أكدمة الحكمة السلطانية»[3] وهى ديوان الحكماء السلطانية، وهى مجعولة لحاجة المملكة الفرنسيسية، ومباشرة الأمراض العامة الضرر كالأمراض الوبائية والأمراض التى يعتقد الفرنساوية أنها معدية، وكمرض فصل البهائم. ومن وظيفة علماء «أكدمة الحكمة» معالجة سائر الناس بما تجعله المملكة موقوفا على النفع العام كإشهار تلقيح البقرى لإخراج الجدرى، وامتحان الأدوية الجديدة والأدوية المكتومة وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة لإدخالها فى الأدوية، وبالجملة فأهل

(١) بكسر الهمزة والكاف وسكون الميم وضم الباء وسكون الكاف وضم التاء. (الطهطاوى). من الكلمة الفرنسية: (L'acuponcture).

(٢) بضم الهمزة وسكون الراء وضم التاء وكسر الباء وسكون الياء وفتح الدال. (الطهطاوى). من الكلمة الفرنسية: (L'orthopédie).

(٣) أى أكاديمية الطب الملكية.

هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنساوية. ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بمارستان باريس فى فصل فعل الخير، وقد أسلفنا بعض شىء من ذلك فى الفصل السابق.

* * *

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن حتى تتم فائدة هذه الرحلة، وهذه نبذة ترجمتها فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها، لصغر حجمها، فهى وإن كانت تخرجنا عما نحن بصدده إلا أن منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة.

«نصيحة الطبيب»

(المادة الأولى: فى وصية صحاح البدن)

لا شك أن الأطباء معتبرون بين الناس، لشدة نفعهم عندهم، ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم، لأنهم رفقاء المرضى، فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ومن الاحتياج إلى الطبية، والدواء المجرب لمنع الاحتياج إليه هو: اعتياد الكد والقناعة، ولنذكر لك بعض أمور أخر:

الأول: لا تسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة أو دارا غائرة فى الأرض يسيرا، فإن كلا هذين الموضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة، فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الأيام. ارفع أرض بيتك بعض قراريط برمل أوحصى أو طوب مسحوق أو ما أشبه ذلك، وتجنب البناء فى أرض مماسة لأرض أعلا منها. اجعل منافس الهواء إلى الجنوب الشرقى، أى اجعله بين الشرق والجنوب، فإن ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع.

الثانى: الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور، وافتحها فى غالب الأحيان، لأن البرد للصحة أوفق من الحر، فأهل

الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب، والمريض يشفى فى غرفة مفتوحة لسائر الرياح وربما هلك لو كان بجانب الحرارة.

الثالث: بركة الماء الراكد إذا اشتد قربها من البيوت فإنه يتصاعد منها أبخرة لا تناسب الصحة، بل تؤذيها، أو ربما قتلت، وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء، فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع.

الرابع: السكر يرعى البدن ويحرقه ويسرع بالمشيب، فنصيب من ينهمك على شرب الخمور وغيرها من الـمُسْكرات أن يصاب بداء الذبول وبقصر الأجل.

الخامس: من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر والبرد، ونزول المطر السريع، أو نزوله باردا فى وسط الأيام الحارة، فأولى ما يطرد هذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه الفصل، فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف، ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع، وإذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر. فإن لم يبتل إلا عضو فقط فاغسله وحده.

السادس: احذر إذا اشتد حرك أن تمكث فى موضع بارد أو تشرب ماء شديد البرودة وإلا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل فى الباطن ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج[1] المحرق وغير ذلك، فإذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها فالواجب تداركه لعله يخف، فأول ما تحس بمبادىء العلامات فضع القدمين فى ماء هين الحرارة، وطر بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق أو الصدر أو البطن، واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن، وتعاط الشوربة التى صورتها أن تأخذ قبضة من زهر الخمان وتضعها فى إناء خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء مغلى وغط الإناء ودعه يبرد، فمتى بردت هذه الشوربة فصفها بخرقة. وذوب فيها أوقيتين من العسل، فإذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه الطبيب من الدراهم! فإن ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك فى هذا الداء شيئا؟!.

---

(١) من أمراض الأمعاء.

(المادة الثانية:

فى الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض فى الظهور)

إعلم أن كثيرا من الناس باعتناء فاسد بريد أن يداوى المرضى فيهلكهم، فأول ما يبدو قليل من الحمى أو القيء فلا يجد أحسن من تعريق المريض، فيضغطه تحت أغطية ثقيلة، ويحجب عنه الهواء، ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة، وربما سقاه خمرا حارا أو حلوا! فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمريض! نعم، قد يكون العرق به الشفاء، ولكن حين تكون الأمراض قد صدرت عند انحباسه، أو بعد تقليل هذه أو إزالتها بكثرة تعاطى الشوربات. وعلى كل حال فلابد من إدخال الهواء اللين فى موضع المريض، لما أن حاجة الإنسان إلى الهواء كحاجة السمك إلى الماء. والشوربات الحارة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيبسه، والخمر هو سم حقيقى فى الحمى، فعليك بخلاف ذلك من الشوربات الرطبة الباردة، فإنها تذيب الأخلاط المنفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة وتنظف المعدة. وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى العى فيعطيه المرق فيضاعف ألمه، مع أن من الحقيقة المقررة عند أكابر الأطباء أن المريض الذى به خميرة المعدة كلما أعطوه من الأغذية زاد ضعفه، وهذه الأغذية إذا تفسدت بالأخلاط المعفونة التى تختلط معها فى الجوف تنقلب مرضا جديدا، فما يتعين فى شفاء المريض هو ما يضعف المرض، ففى كل عشرين مريضا يموتون فى الأرياف فأكثر من الثلثين يمكن أنه كان يشفى بلا شيء لو كان فى موضع مستور من مضار رياح، وكان لا يشرب إلا ماء مبردا، ولكن لا مفر من القدر، وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر وقلة النشاط وعدم شهية الأكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل عديم الراحة غير المصلح القوى، بل وثقل الصدر والميل إلى البرودة وتيسر العرق غير المعتاد وانقطاع العرق المعتاد، وعند ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرة بأربعة.

الأول: ترك سائر الأشغال الشاقة والمداومة على الأشغال الهينة.

الثانى: تقليل أكل المغذيات أو اجتنابها، لا سيما ترك اللحوم والمرق والبيض والنبيذ.

الثالث: إكثار الشرب، يعنى أن يشرب كل يوم قزازة فأكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة أو من الماء الفاتر المخلوط فى كل قزازة أما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد أو بفنجان خل أو بملاعق من العسل.

الرابع: الاحتقان بماء فاتر، أو بهذا الدواء: وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش أو من زهر الخبازي[1] وتغمرهما وترش عليهما نصف قزازة ماء مغلى وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما أوقية عسل.

(المادة الثالثة: فى الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض)

إعلم أنه ينبغى للمريض إذا تلبس بالبرودة أوالقيء أو الألم أنه يلزم الفراش، والجلوس، وأن يتغطى زيادة عن عادته، وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن الشوربة السابقة. فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم، ولكن لا بد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم إلا الغطاء المعتاد.

ثم إن بعض أهالى القرى يعتادون النوم على طرّاحة مكبوسة ريشا ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الأحيان إلا فى مدة الحر أو اشتداد الحمى، فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش، وللغطاء ملاحف أو أكيسة أقل خطرا من الريش، فهذا هو ما يريح المريض.

---

(١) نبات معروف من فصيلة البقول، ورقه مستدير، وهو لعابى ذو لزوجة، ويستعمل فى الطبخ. كما يستعمل فى التداوى.

وينبغى الحذر من تسخين هواء محل المريض، ومن كثرة الناس، واللغط، ومن الكلام معه إلا على قدر الحاجة.

ينبغى فتح طيقانه، وأقلّه ربع ساعة فى النهار وربع ساعة بالليل، ينبغى مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء، ولكن لإبعاد المريض عن جريان الأهوية فلتسحب عليه ستائر فرشه أو ليحجب عن الهواء بكيفية أخرى، وفى زمن الحر ينبغى إبقاء طاقة من الطيقان مفتوحة، ويحسن أيضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة، وينبغى، فى الهجير، والمريض متعب بالهواء الحار. أن يرش بلاط غرفته، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه تغمس فى إناء ماء لتكون مسقية.

وليتجنب المريض تناول الأطعمة المغذية، ولا يأكل إلا يسيرا من خفيف الثريد المنضج أو الأرز المطبوخ مع يسير من الملح، ولا بأس فى الصيف بالأثمار المستوية وفى الشتاء بالتفاح المنضج أو البرقوق والأجاص بعد تيبسهما وطبخهما، فهذه الأثمار إذا أكلت، بلا إكثار منها، تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة، فهى الأغذية اللائقة بالمحموم، واستعمل الشراب الرطب والمبرد الذى ذكرناه سابقا، ولا بأس أيضا أن تضع فى نحو قزازة الماء طاسة من عصير الفواكة التى ذكرناها قريبا، وينبغى للمريض أن يشرب كل يوم قزازتين من ماء فأكثر، وأن يتناول فى المرة يسيرا، ففى كل ربع ساعة يشرب فنجانا، مالم ينم، واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة، ففى اعتدال الزمن يكون فى طراوة نسيم الغرفة.

ولو امتنع المريض من حاجة الإنسان جملة أيام، أو يبل بكثرة، أو خرج بوله أحمر، أو خلط فى كلامه، أو كانت حمته قوية، أو كان وجع رأسه أو كليته شديدا، أو كانت بطنه متألمة، أو كان محتاجا كثيرا إلى النوم فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره فى «المادة الثانية» فالاحتقان شفاء المحموم، إلا إذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن.

وإذا خف المرض فينبغى الخروج من الفراش فى اليوم ساعة فأكثر كما يمكنه، ولكنه لا بد من نصف ساعة، ولا ينبغى ترك فراشه وهو متلبس بالعرق. ومن

المستحسن تصليح فراشه كل يوم، وتغيير ما على بدنه كل يومين إذا تيسر ذلك. ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك وظن أنه يخاف على المريض من خروجه من فراشه فيتركه فى ثيابه المتسخة وهذه الثياب لا تقتصر فى أضرارها على إبقاء أصل المرض فقط بل تقويه، حتى لو قيل إن المريض تعبان جدا، وهذه حجة عاطلة، ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فإنه يزيد ما بقى من قوته ويسرع تخفيف ألمه.

(المادة الرابعة: فى معالجة الناقه)

اعلم أنه ما دام بالإنسان قليل من الحمى فلا يتناول إلا الأغذية الخفيفة التى بيناها، فإذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها، كقليل من اللحم الطري. أو السمك، أو المرقة، والبيض هين النضج. فهذه الأغذية تصلح القوى، بشرط عدم الإكثار فيما يتناول منها وإلا فتبطىء الصحة، لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة إلا ليسير الهضم، فلو أعطيتها فوق ما فى قوتها فلا ينهضم سائر ما يدخل فيها، بل ينفسد، وقوام البدن إنما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل إليها فقط، فينبغى للناقه أن يكون كالمريض فى تناوله قليلا فى كل مرة، ولكن فى غالب الأوقات، وأن لا يتعاطى فى المرة إلا جنسا واحدا من الأطعمة، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة، وأن لا يستعجل فى مضغ ما يتناوله من الجوامد، وأن لا يكثر من الشراب، وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الأنبذة، وليسر على قدر ما يستطيع ماشيا أو راكبا عربة أو فرسا، ومن العبث ترك ركوب الخيل فى هذه الحالة لمن يملك الخيل، كأغلب أهل الأرياف، وإذا كان السير بعد تناول الطعام مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبله فهو ربما يضر الهضم. وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام فى المساء لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم، نعم، إذا جاوز يومين من غير خروج شيء فليحتقن ثالث يوم أو قبله إن علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة أو الانتفاخ أو ضيق الصدر أو وجع الرأس.

وينبغى لمن قام من مرضه جديدا أن لا يسرع فى العود إلى شغله ، فإن لم يصبر إلى تمام عافيته طال ضعفه ، فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فإن لم يتحفظ على نفسه أصابه مرض الذبول ، فينبغى حين إرادة الأخذ للمبادئ مراقبة العواقب .

« المادة الخامسة: « فى وصايا عامة على الصحة »

اتخذ القناعة فى الأكل فمن لم يقنع لا يشبع ، بل يهلك نفسه .

قيل من أرخى على الطعام طويل عنانه حفر مقبرته بحدة إسنانه!

لا تأكل دون مرتين فى اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، الصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات ، بل خمسة .

لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات ، أو سبعة ، وللضعيف والصغير أطول من ذلك . تضمحل القوة والعقل ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم .

النظافة نصف الصحة ، فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع .

لا تمضغ الدخان ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعف على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم ، وينتن النفس ، وتسود الأسنان وتنفسد . وقد شوهد أن كثيرا من الناس اعترته الحماقة بالإكثار من شرب الدخان أو شم النشوق .

إياك والانهماك عل تعاطى الخمور والمسكرات ، سيما أيام الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى أدنى زمن ويعقبها وهن ، وذلك كما أن النار تذكو إذا كثرت من نفخها وترعى الوقود سريعا ولا تعطى الحرارة إلا درجة .

وأما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت الصيف فعليهم تغطية رؤوسهم وأن يتداركوا أشغالهم .

الأول: الزكـام والنزلة: يقـال هـذا ليس بشىء! إن هو إلاّ زكـام أو نزلة! نـعم، نسلم أن الإنسان لا يموت بذلك، لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له. ومن كـلام بعض الحكمـاء الأقـدمين: يهلك بالنزلة والزكـام أبلغ مما يهلك بالوباء! وعلاج ذلك استعمال الشربة المذكورة فى «المادة الأولي» أو تعاطى سلاقة الخمان التى ربعها أو ثلثها لبن، وينبغى قبل النوم وضع الرجلين فى الماء الفاتر. ولو انحبست البطن تعين الاحتقان. وينبغى الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة، وتعاطى اليسير فى المأكل، ولا بأس بتعاطى بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الأحمر، وقد يوهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى المحروق أو الخمر المعطر والحلو مع أن هذا كإلقاء الحطب فى النار، إذ هذه الأشربة أقرب فى تثقيل هذا الداء من إزالته، أو ليس أن هذا الداء حرارة، وهى تزداد بهذه الأشربة؟!

الثانى: وجع الأسنان: إذا كان الوجع ناشئا عن فساد السن فخير علاجه، كما قيل، الكلبتان! فاللائق قلعه، وإلا دام الوجع، وفسد غيره من الأسنان، وربما جر ذلك إلى فساد الحنك. ولكن لو أختير بقاء السن، خوفا من قلعه فلا بأس أن تختبر بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة فى قطرات من عصير القرنفل فإن ذلك يصلحها زمنا طويلا، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها، ويمكن أيضا إصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا وتتمضمض بسليق النبات المسمى حشيشة الفضة. وأما إذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان مفسدة فأدم الغرغرة بالشعير أو بالماء واللبن، وتضميد الصدغ بالمضاد المطرى، واتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر، ولا تشرب الأنبذة المخدرة، ولا تكثر من الأكل. وأما إذا كان بالأسنان قرح فتنضيجه بأن تديم فى فمك لبنا أو تينا مطبوخا فى لبن، فإذا نضج فافتحه فإنه سهل غير مؤلم.

الثالث السكتة: إعلم أن داء السكتة يأتى الإنسان فجأة فيعطل الحواس والحركات ماعدا النبض، وبه يعسر التنفس، وهذا المرض مخوف، فتجب المسارعة إلى الطبيب. وفى مدة انتظار حضوره يجب:

أولا: كشف رأس المريض وتغطية ما عداه من البدن بشيء خفيف جدا، وجلب الهواء الطرى عنده، وفتح طوقه بالكلية.

ثانيا: يقام حسبما يمكن رأسه إلى أعلا ورجلاه إلى أسفل.

ثالثا: يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش الطرية والملح.

رابعا: إسقه كثيرا من الماء حسب الإمكان.

خامسا: إبعاده الأشربة المخدرة، كالخمر، وكذلك الماء المعطر، شربا، وضمادا، وسعوطا.

سادسا: عدم مسه وتحريكه إلا لضرورة.

سابعا: عصب الرجلين تحت الداغصة وهى العظم المدور والمتحرك فى وسط الركبة حتى ينحجب الدم عن الصعود إلى الرأس.

وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه، وكلما رجع كان أصعب مما قبله، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو فى هذه الحالة قليلا جدا، وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء، وأن يتجنب الأشياء الغزيرة المائية، وطيبات الروائح، والحوامض، والأشربة المقوية، والقهوة، وأن يأكل قليلا من اللحم وكثيرا من الخضراوات والفواكه، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا كل سنة، وأن يتريض، وأن لا يكثر من السخونة فى أوضته أوحرارة الشمس، وأن لا يتأخر فى النوم أو فى القيام منه، وأن لا يلبث فوق ثمان ساعات فى فراشه.

الرابع ضربة الشمس: هو مرض يصيب الإنسان متى اعترض فى حر الشمس زمنا طويلا عريان الرأس، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد، واحترار البشرة، واحمرار العيون، وجمود الدموع، وضعف البصر عن الامتداد إلى الضوء، وقد يحصل للمريض به سهر، وربما أحس بالنوم وقلق شديد، وفى الغالب تكون بشرة الوجة محترقة، فالمريض لا يزال شديدا حتى يأتى الطبيب سريعا. فينبغى فى مدة انتظاره: أن تضع رجلى المريض فى ماء فاتر، وتدخله نصف حمام أو حماما كاملا، واحقنه بأعشاب مطرية، واسقه كثيرا من شربة

الليمون والماء، أو اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل، وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافى[1] المخلوط بيسير الخل، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خرقة مطراة بماء بارد وخل معا.

الخامس نهش السميات: أولا: اخرج الزبان[2] إذا لصقت بالمحل الملدوغ. **ثانيا**: تعهده بالماء. **ثالثا**: الطخ عليه إما كزبرة أو كرفسا أو زهر الخمان. **رابعا**: فإن عظم الحرقان فأسرع ما ينفع هو أن تبل خرقة صوف فى سلاقة الخمان وتلطخها وهى هينة الحرارة. **خامسا**: أن تلصق على الوجع لبخة من سحيق بزر الكتان أو من لباب الخبز الممزوج باللبن أو العسل. **السادس قاعدة يجب اتباعها فى تعهد الصغار والأطفال**: حق على الأمهات اللاتى يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن عوائد البرير من لف الأطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم وتنقل أرجلهم أو أيديهم، فكيف يقلن لو أخبرهن إنسان أن اللازم لصحتهن أن يحتبسن فى أثوابهن وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن وأن لا يتحركن كالمسلسل، فلأى شيء يصنعن ذلك بأطفالهن، وهم ضعاف، فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن أطرافهم للهواء. من يتوهم، من غير مستند، أن أهل الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتهما ربطهما وتكتيفهما على ذلك الوجه! أوَليس أن حكم تربية الآدمى هى كغيره من باقى الحيوانات؟!

السابع السم بالفطر: [3] وهى جنس ردىء من الكمأة، كثير من الناس من يهلك بميله إلى الفطر، وكان الأحسن فى حقهم يقينهم أن يتجنبوه، وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها! وإعمال هذا النبات السمى لا تظهر إلا بعد مضى ست ساعات إلى اثنتى عشرة، فأول ما تحس بها اطلب الطبيب، وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من «الطرطرمقى» أى ملح طرطير المقيىء بعد تذويبه فى طاستى ماء.

---

(١) مصل اللبن هو الماء الذى يقطر من اللبن عند وضعه فى الحصير كى يتحول إلى جبن، ويسمى عادة «شرش اللبن».

(٢) مفردها ـ الفصيح ـ زبانى، وجمعها: زبانيات، وهو طرف الذنب الذى تضرب به العقرب وما يشبهها.

(٣) مفردها فطرة، بضم الفاء وسكون الطاء، نبت له استدارة الزهرة.

الثامن السم بالزنجار: إعلم أن آنية النحاس التى تستعمل فيها المطبوخات هى خطرة بسبب زنجرتها سريعا، والزنجار سم قوى، فلتبيض أوانيك وقتا بعد وقت بالقسدير، ولا تترك الأطعمة تبرد فيها، خصوصا إذا كان بها الخل أو الحماض أو الحريفات أو الدسمة، فإذا اعتراك وأنت محترز عن ذلك قولنج أو قيء فامزج نحو خمسة عشرة من بياض البيض فى قزازتى ماء واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقايأ السم، فإن لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن، فإن عدمت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ.

التاسع داء الكلب: وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين، وهو يتولد طبيعة فى الذئاب والثعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب، وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات، وعلامة الكَلْبُ الكَلبُ أنك تراه أولاً كئيبا ذابلا مدة أيام، فيختفى، ويسلك المحال المظلمة، ولا ينبح، بل يختفى ويترك المأكل والمشرب، ثم يهجر بيت أصحابه ويجرى من جهة إلى أخرى، ويقف شعره، ويبتل لسانه من اللعاب ويتدلى من فمه، وينعوج ذنبه بين رجليه، ويهرب من المائعات، ويهم أن يعض سائر الناس حتى صاحبه، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مسارعته، وتفوح من جيفته رائحة منتنة، فالواجب حينئذ دفنها فى عميق من الأرض، ومتى عض هذا الكلب الإنسان فإن الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة كأنه غير متسمم وبعد مدة قليلة أو كثيرة، وهى ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر، يحس بالجرح وجع مكتوم فينفتح أثره ويحمر وينتفخ ويقيح، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة، ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة ويعسر عليه التنفس ويمسك الوجع أمعاءه، ويضطرب فى نعاسه، ويعطش عطشا مهلكا، ويقاسى إذا شرب، ثم يعتريه ارتعاد، من الماء والمائع، ويبح صوته، ثم يجن، ويموت. وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما، بل معظم المبتلين بهذا الداء إذا أحس هجومه عليه ينصح الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر، وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة، فيتمنى ولو الموت!

ومعالجته هى أن أول ما يعضه الكلب تسرع بوضع الدواء فيه، فإن توانيت سرح

السم إلى الدم، ولا يجدى التطبب شيئا، وذلك الدواء هو أن تستخرج الدم من الجرح، بعد كشفه، وتغسله بماء مملح، وتكويه بحديدة بعد حرقها فى النار حتى تبيض بعد الاحمرار، وتغرزها فى سائر أقطار الجرح، فلو بقى جزء من الجرح غير محكم الكى كان الكى كلاشىء ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحروقة دهن الزاج فتدخله بين شفتى الجرح وتجريه فى سائره، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقة مدهونة بالقيروطى، أى المرهم، أو بالزبدة الطرية.

واعلم أنه يجب غسل الثياب المنقوبة بأسنان الكَلْب، الكَلب، لما أنها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه. وما تقدم لك هو الكيفَية المتعينة المجربة فى هذا المرض الشديد، فلا تترد أو تخف قليلا من الألم الذى يطرد غيره من الألم الشديد أو الهلاك المفزع. وأيضا لو طلبت الحكيم لأثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفة، ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء فى أى حيوان معضوض بكلب كلب. وأزل ما على الجرح من الشعر. ولو كان المعضوض أذنا أو ذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع. وينبغى أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرها.

العاشر الاستعانة على إفاقة الغريق: لا تيأس من إفاقة الغريق إلا إذا أخذ بدنه فى العفونة. فحينئذ ـ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه، أو ذهبت حركته بالكلية، أو فقد أمارات الحياة ـ فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات الأخوة، فقبل كل شىء: إطرد من اجتمع عليه من الخلق، لأنه يضيق الصدر ويحجب الهواء **ثانيا**: لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه بحيث يكون وجهه إلى أسفل، وافتح شفتيه حتى يخرج بسهولة الماء الذى قد دخل من الفم أو الأنف، **ثالثا**: أرفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف إن تيسرت، وادرج باقى بدنه فى نحو ملحفة، وانقله سريعا إلى أقرب موضع. **رابعا**: بعد وصوله إخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن، ولو بقطعها بآلات إن لزم. **خامسا**: إفرش له عند ذلك بعض طراحات ومخدات بها بعض صلابة، واجعلها قريبا من نار متقدة. وضع فوق الطراريح ملحفة من الصوف، ورقد الغريق فوقها، مرفوع الرأس ملفوف

البدن. **سادسا**: دلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقة صوف مدفئة يابسة، ثم دلك بالمائعات القوية المستقرة على ظاهر بدنه، خصوصا على السرة وما حولها، والأولى، خصوصا فى الشتاء، أن تسخن عاجلا ماء وتملأ منه مثانات على الثلثين من ماء هين الحرارة وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة. **سابعا**: مدة الدلك أو عقب وضع المثانات ينبغى أن تدخل الهواء فى صدره بأن تضع قصبة أو ريشة فى فم المريض أو فى إحدى طاقتى أنفه مع فتح الأخرى، وانفخ فى تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها، فإن كان النفخ فى الفم فاقبض الأنف، ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ليخرج منه الهواء أحيانا. **ثامنا**: أشممه القلى البخارى، يعنى الروح البخارية من ملح النشادر بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومة فى صورة فتيلة وتشربها من قزازة قلى بخارى وتعرضها تحت أنف الغريق أو تدخلها فى منخاره، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق. **تاسعا**: العقه، إن أمكن، يسيرا من روح الأنبذة المخلوط بالكافور، وربما مكث هذا المائع فى فمه يسيرا من الزمن ثم بلعه، ولكن لا تملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه. **عاشرا**: لو بلعها فاعطه أكثر منها، فلو تحركت معدته من غير وجود قيء، وذلك ما يتعبه، فاعطه ثلاث حبوب من «الطرطرمقيء» مذوبة فى ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء، فإن تقايأ بهذه الكيفية فأسقه ماء فاترا، وإن أنزل من المخرج شيئا فقوه بتناوله شيئا من الأنبذة، **حادى عشر**: لو أبطأ عن الإحساس فاحقنه حقنة حريفة، وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان قدر نصف أوقية، ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم، وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله، نحو ربع ساعة، وتحقنه به، ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل وربع رطل من الملح المعتاد. وهذه كيفية معالجة الإفاقة للغريق، وتدبيرها ممكن لكل إنسان حتى يحضر الطبيب فيعينهم أيضا، ولو كانت مفيدة ففائدتها لا تحصل إلا بعد التدبير مدة ساعات على التوالى، ففائدة ذلك بطيئة خفيفة، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا، فمن الغرقى من لا يفيق إلا بعد ست ساعات أو سبعة من مبدء خروجه من الماء.

الحادى عشر غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات والآبار والمجارى

ونحوها، **أولا**: إخرج سريعا من أصيب بهذا الداء وضعه تحت الهواء. **ثانيا**: جرده من الثياب ورش على بدنه ماء باردا أو ماء مشوبا بخل، وهو أولى، وأولى منه حامض الجير. **ثالثا**: ألعقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل. **رابعا**: إحقنه بحقنة ماء بارد ثلثها خل، ثم بعد ذلك إحقنه بملح ذائب. **خامسا**: أدخل فى أنفه طرف شعر ريشة وحركها بالرفق. **سادسا**: أدخل الهواء فى صدره بواسطة قصبة وانفخها بمنفاخ كما سلف فى الغريق عند العمل. السابع، أسلك سبيل النشاط والاستعجال فى هذه المعالجة فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من إنتاجها، ولما كان الموت لا ينكشف إلا بعد مدة تحتم إدامة المعالجة حتى يتيقن.

الثانى عشر غيبوبة الحياة بالبرودة: إعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها فى الإنسان فتجمد الأعضاء وتحبس جريان الدم، وربما مات بها الإنسان، ودواؤها مخوف العاقبة جدا، وإن كان لا ألم به أبدا، فمباديها هو الرعشة التى تكاد أن تكون مصرعة، وصلابة الجسم، وانحباس الدم، وخدر المفاصل، وذهاب الإحساس، والتذاذ البدن بالنوم وانقياده إليه ولو بالقهر، وانقطاع حركات الحياة على التدريج، وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء إلى حيز الأموات. وفى الحقيقة حركات الحياة ليست إلا متوقفة، فعليك أن تسرع فى معالجته بدواء سواء ذهبت أمارات الحياة بالكلية أو بقى منها شيء.

واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة إفاقته بالحرارة، وهذا وهم فاسد لإضرار الحرارة بكثير من الناس، ولكن معالجته هى أن تلف **أولا**: بدنه فى ملحفة من صوف وتحمله إلى أقرب ما يرتاح فيه من الأماكن، وتخلع ثيابه وتضعه فى فرش غير محمى. **ثانيا**: إذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشيء من ذلك مارا من القلب إلى المفاصل، ثم بعد لحظات دلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد، وبعده بماء فاتر، ثم بماء مسخن، ورش على وجهه شيئا من هذه المياه. **ثالثا**: لو تعذر الثلج فضعه فى حمام فيه ماء بئر بارد، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن، وهلم جرا، فافرغ عليه كل ثلاث دقائق حتى تذهب برودة الماء على التدريج ويصير فاترا معتدلا، واعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط، فإن

استشعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام حتى يصير فى درجة سخونة الحمام المعتاد، وما دام المريض فى الحمام فرش على وجهه يسيرا فى ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة. **رابعا**: المسه فى أنفه بطرف ريشة أو بفتيلة ورق مسقية من القلى البخارى. **خامسا**: أدخل الهواء فى صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ كما سبق فى الغريق. **سادسا**: أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد، وألعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة. سابعا: إذا بقى بالمريض الخدر فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل، وإن كان نومه به سبات فاحقنه بحقنة حادة، وهى ما تقدمت فى شأن الغريق. ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمور والمسكرات القوية يمكن أن يتدارك بها أبعاد هذا الداء، مع أن الأمر بعكس ذلك، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثيرا من غيره بآفات البرودة.

الثالث عشر غيبوبة الحياة بدخان الفحم: كل من يمكث فى غرفة مغلوقة موقود بها فحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة، فمبدؤها يحصل للإنسان شدة وجع الرأس، وبعد ذلك يعتريه تعسر النفس، ثم يقع فى ذبول كحالة الموتى، فإن عولج فذاك، وإلا هلك، ومعالجته هى أن تسرع إلى تعريضه فى الهواء، وتجرده من أثوابه، وتنيمه على ظهره، وتسقيه ماء ممزوجا بخل، وترش من هذا الماء على وجهه وصدره، وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها وتمسح وجهه، ثم تعيد ذلك جملة مرات وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعل أو غيره من حاد الرائحة، وتغمزه فى باطن أنفه بطرف ريشة، وتحقنه مرتين: الأولى، بماء ممزوج بخل، والثانية، بماء ملح، فإن بقى بعد ذلك على حالته فدلك فقار ظهره بممسحة من عرف حيوان، والطخ شيئا من معجون الخردل على بطن رجليه، وأدخل الهواء فى صدره بأن تدخل فى إحدى طاقتى أنفه فم منفاخ وتنفخ والحال أن الأخرى مسدودة، فاجتهد وواظب على ذلك، وليس فى الغالب يفوق المريض، فإن ساعدتك المقادير على إفاقته، وظهر شىء من أمارات الحياة فضعه فى فرش عظيم التسخين فى غرفة بها الهواء والعقه شيئا من خير الأشربة.

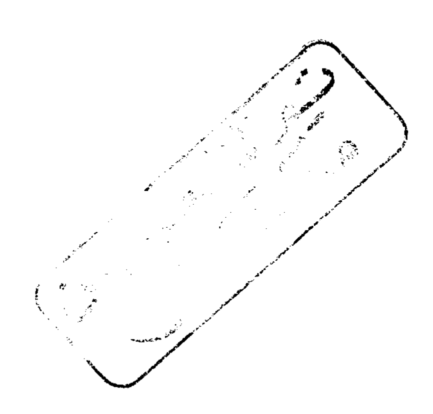
الرابع عشر فى معالجة الحرق: أول ما يحترق عضو الإنسان فليغمس العضو فى

أبرد ما يمكن من الماء، وإن تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما بإسفنجة مملوءة منه، وكلما تسخن الماء المستعمل فى ذلك الغسل فجدده، وواظب على ذلك ساعات وافتح ما ينفتح من الدمامل بطرف إبرة واحذر أن تفشخها أو تسلخ البشرة، ثم الطخ على ذلك العضو المرهم الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق. ومحل هذا كله ما لم يمض نصف ساعة قبل غسل العضو المحروق فى ماء بارد، وإلا فهذا الدواء يكون مضرا، بل فى هذه الحالة لا بد أن تكتفى باستعمال المرهم الذى تنوب عنه الزبدة الطرية. ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك.

الخامس عشر فى الجدرى، والتخلص من مجيئه بتلقيح البقرى: أمر الجدرى معلوم، وكونه إما قاتلا أو مشوها سيما بالوجه بيّنٌ عند سائر الناس، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما لا تنقضى إلا بانقضاء الأجل، وهناك طريقة لتداركه قبل أوانه، مجربة، فمن مرض بالجدرى مع وجودها فهو من سوء تفريط والديه وإهمالهم، فعلى أب الإنسان وأمه المبادرة لذلك، فإذا بلغ سن المولود ستة أسابيع إلى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدرى بالتلقيح، ولا عذر لهما إن أهملا فى ذلك، لقدرتهما على مداواة ولدهما، فلو تركاه حتى أصيب بالجدرى فقد فات أوان استعمال تلقيح البقرى، فيندمان حيث لا ينفع الندم، وفى بعض الممالك تلقيح البقرى للأطفال معين على بيت المال، فلا كلفة فيه، خصوصا على الفقراء، فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا فى الحال ولا يتأخروا إلى غد، فربما فى اليوم القابل تحرك سم الجدرى، ولا يغتر بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئا، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله، ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط كون التلقيح كان غير محكم الوضع، والحبات التى أخذت كانت غير تامة، فإذا استعملته فى المولود فاطلع الحكيم على حبات البقرى تتحقق إصابة استعماله وعدمها. واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم، فهو أخف من شكة إبرة، ولا يمرض به الإنسان، ويصح استعماله لأى عمر كان. والجدرى داء متوقع مدة أجل الانسان حتى كأنه دين مآله إلى القضاء، وقضاؤه يحصل بالمسارعة إلى استعمال تلقيح البقرى لمن يريد التخلص من إصابته.

الخاتمة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة. فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه، إذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة، فما ثمرة الأموال لعليل لا يتمتع منها بشفاء الغليل؟ يذهب المريض كنوز ذهبه، لمن يبريه من وصبه، ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه، فلا يصح له الشفاء من مرضه، تقرع الأمراض باب الخطير على نسق ما تقرع باب الحقير، ولا ترق لشكواه، ولا تسمع دعواه. حكمة بالغة للحكم العدل، ذى الاقتدار والفضل، فليس بنا قوة ولا حول، بل الكل بحول وقوة ذى الطول، فهو الممرض والشافى، والمبتلى والمعافى. هانحن الآن فى حيز الحيات والثبات، ولا ندرى هل نعد غدا فى زمرة الأموات؟ فهذا سر خفى لا نصل إلى فهمه، كيف وقد استأثر الله به غامض علمه. فلا نثق بالمخايل الظاهرة، من الصحة الزاهية الزاهرة، فربما فى أسرع من البرق اللامع تعترينا الأمراض وتلزمنا المضاجع، وقدرتنا على القبض على الأجل، وحفظ الصحة من الخلل، كاقتدارنا على عروج السماء، واتخاذ الأفلاك ملزما، فعلينا بالاستعداد للمعاد، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد، العازم على الرحيل، الجازم من الإقامة بالقليل، قد كان بالأمس نوبة الجار، وستأتى غدا نوبة صاحب الدار، ولا خوف علينا ولا حزن، حيث كان خلاص ذمتنا حسن. هذه والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه وسلم.



الفصل العاشر

(فى فعل الخير بمدينة باريس)

إعلم أن غالب الناس ببلاد الإفرنج، وسائر البلاد التى تكثر الصناعة والنجامة فيها، يعيشون من كسب أيديهم، فإذا حصل للإنسان منهم مانع كمرض أو نحوه فقد معيشته، واضطر إلى أن يعيش من غير كسب يده، كأن يتكفف الناس أو نحو ذلك، فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير، حتى أن الإنسان لا يسأل ما فى أيدى الناس. وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثر أهليها فاحتاجت إلى مارستانات أكثر من غيرها.

ومعلوم أن مدينة باريس من أعمر المدن، وأكثرها صناعة ونجامة، فلذلك كثرت مارستاناتها، ومواضعها المصنوعة لفعل الخير، فكانت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم، لما تقدم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب، فليس عندهم «حاتم طى» ولا ابنه «عدى»، ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى، الذى قال فيه الشاعر:

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد فى دياره	من المال إلا ذكره وجمايله
تراه إذا ما جئته متهللا	كأنك تعطيه الذى أنت نائله
هو البحر من كل النواحى أتيته	ولجته المعروف والبر ساحله
إذا مر بالوادى فتبكى تلاله	عليه وبالنادى فتبكى أرامله
تعود بسط الكف حتى لو أنه	أراد انقباضا لم تطعه أنامله
ولو كان ما فى كفه غير روحه	لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع فى بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء، ولو يسير، مما يحكى عن بنى العباس، والبرامكة، أصلا. فالملك المنصور المشهور بالدوانقى[1] أكرم الكرماء بالنسبة إليهم! نعم إن البلاد المتحضرة يقل كرمها، وأيضا يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئا إعانة له على عدم التكسب.

وفى مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات، وأهله خمسة عشر نفسا للمشورة العامة، وفى هذا الديوان خمسة نظارات: النظارة الأولى: لمباشرة المارستان، النظارة الثانية: لمباشرة مهمات المارستانات، والخدمة للمرضى، والعقاقير العامة، النظارة الثالثة: مباشرة الأوقات، النظارة الرابعة: مباشرة الفقراء فى بيوتهم، وإعانتهم، النظارة الخامسة: مباشرة مصاريف المارستان وتوابعها.

ولا يدخل الإنسان المارستان إلا إذا ثبت مرضه بقول الحكماء، ومن قام من مرضه فى المارستان وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته حتى يمكنه الرجوع إلى أشغاله.

وأعظم مارستان باريس المارستان المسمى «أوتيل ديو». يقرب أن يكون معناه «بيت الله»، وهو موقوف على المرضى والجرحى، ولا يدخل فيه الأطفال ولا أرباب الداء العضال ولا المجانين ولا النفساء ولا أرباب الأمراض المزمنة ولا المبتلى بالإفرنجى. فإن كل داء من هذه الأشياء له مارستان خاص.

ومن المارستانات الشهيرة فى باريس مارستان يسمى «سنلويز»، وهو معد لأرباب الأمراض المزمنة ولأرباب الدمامل والقوبة والحكة والجرب ونحو ذلك.

وفى باريس مارستان للقطاء، يعنى الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم. كأولاد الزنا ونحو ذلك.

وفى باريس مارستان أيضا للأيتام. وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى، فالذكور فيه فى شقة والأناث فى أخرى ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم: «أخوات الاحسان» ويتعلم

---

(١) نسبة إلى «الدانق»، عملة قيمتها سدس الدرهم.

صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب، ولهذا المارستان ديوان يديره، فلا يوضع الصغير فى هذا المارستان إلا بأمر هذا الديوان، وإذا بلغ الإنسان أحد عشر سنة فى السن فإنه يخرج بإذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان، ويسكن عند معلم صنعة. ومصرفه يخرج من وقف المارستان، ولمعلم الصنعة أن يتبنى الصغير، أى يأخذه وينزله منزلة ابنه، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله.

ومن جملة مارستانات باريس مارستان موقوف لتلقيح الجدرى بوضع البقرى. ومنها مارستانان يسميان مارستانى الشيخوخة والهرم، فأحدهما للذكور والآخر للنساء. ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال موقوف على أربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسائة وعشرين مريضة. ومنها مارستان العميان من أهل باريس أو غيرها من العمالات، فلهم فيه الأكل والشرب وسائر ما يحتاجون إليه فى تعليمهم ونحو ذلك. ومنها مارستان المجانين، وفيه «قشلة»[1] عظيمة تسمى السقط، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدى أو الأرجل أو نحو ذلك، وهو من أنظف وأعظم المارستانات، وفيه ستة عشر طبيبا وجرايحيا، وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية. ويوجد فى باريس زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى ديوان الإحسان، والمقصود منه تكميل الخير الذى لا يمكن فى المارستانان، كما إذا حرقت تجارة تاجر أو انكسر فإنه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة، وفى كل خط بباريس ديوان إحسان، والإحسان فيه قسمان: إحسان حالى وإحسان حولى فالأول يعطى للفقير الذى وقف حاله أو حدث له ما يعطله، والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل.

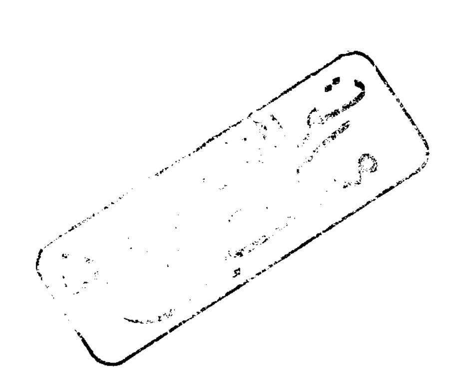
ومن فعل الخير بمدينة باريس أنه يوجد بشاطئ نهرها علب وحوائج بها روائح لتشميم الغريق لينهضوا لإسعاف من وقعت له حادثة عارضة، ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة باريس أكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة لا لكل واحد على حدته، فإنه قد يشاهد فى طرقها أن بعض الناس الذين يذهبون إلى

---

(١) مستشفى.

المارستانات الموقوفة ونحوها يقع في وسط الطريق من الجوع وربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائبا زاعمين أنه لا ينبغى السؤال أبدا، لأنه إذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة له إلى السؤال، وإن كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال، حتى أنهم يتشكلون فى صورة المجاريح ونحوهم ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم.

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد الجنرال نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من قروش.



الفصل الحادى عشر

(فى كسب مدينة باريس ومهارتها)

إعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب، والشغف به، وصرف الهمة بالكلية، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى، حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم عندهم فى الذم هى لفظة «الكسل» «والتنبلة» وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس، فكأنهم فهموا قول الشاعر:

حب السلامة يثنى عزم صاحبه — عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا — فى الأرض أوسلما فى الجو واعتزل

ودع غمار العلى للمقدمين على — ركوبها واقتنع منهن بالأمل

إلى أن قال:

فإنما رجل الدنيا وواحدها — من لا يعول من الدنيا على رجل

ثم إن أعظم التجارات وأشهرها فى باريس معاملات الصيارفة، والصيارفة قسمان: صيارفة المملكة، أو الميرى، وصيارفة باريس. ووظيفة الدولة بالنسبة للتجارة أن تودع الناس ما يريدون وضعه، ويأخذون كل سنة ربحه المعين فى قانونهم، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا إلا إذا زاد عما فى القانون ، وللإنسان أن يأخذ ما أودعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد، ومثل ذلك صيارفة باريس، فإنهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة، وهم يعطون الربح مما تعطيه صيارفة بيت المال، الذين هم صيارفة المملكة، ولكن المال المودع عند صيارفة المملكة أأمن من المودع عند صيارفة المدينة، وذلك لأن صيارفة المدينة قد يفلسون،

وأما صيارفة الدولة فإن ما يأخذونه يكون دينا على الدولة، والدولة دائما موجودة. ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل باريس جمعية تسمى «الشركاء فى الضمانة» فإنها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف فى بيته بحادثة قهرية، كما إذا انحرق بيته أو حانوته أو نحو ذلك، فإنها ترجعه له كما كان، وتدفع له قيمته.

وفى مدينة باريس معامل سلطانية، ومعامل غير سلطانية، فمنها معامل المعادن، كاشتغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما، ومنها معامل الصينى «والفرفوري»[1]، ومعامل الشمع الإسكندرانى، ومعامل الصابون، والقطن، والجلود المدبوغة، وشغل «السختيان»[2]، ونحو ذلك. وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا، حتى أنهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رؤوس الأشهاد ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه.

وفى باريس عدة خانات عظمى توجد فيها سائر المبيعات ووكائل وحوانيت وبيوت للتجارة أو الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته، وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر، ولا يمكن أن يشرع الإنسان فى التجارة إلا إذا دفع لبيت المال شيئا ولو هينا فيأخذ نشانا علامة على الإذن له فى التجارة، فيحتاج أن يكون معه النشان وعلى تجارته، وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة، وعلم تمييز صفات أنواع الأشياء المبيعة، ومعرفة الأثمان والقيم، وفى هذا المكتب خمسة عشرة مدرسة، وفيه تلامذة من أقاليم عديدة، وبمقتضى قانون ذلك المكتب أنه بدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الأمم.

ومن الأمور التى تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التى تسير بالدخان، ونصب القناطر، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة والتيلغراف، وهى الإشارة، ونصب البريد بالساعى، والبريد بالخيل، وغير ذلك.

---

(١) الفرفورى: نوع من الصينى.

(٢) السختيان: نوع من الجلد.

فانظر إلى مدينة باريس فإن حولها أربعة خلجان تأتى منها المتاجر، وفى نهر السين تسير قوارب على صورة العربات، وقوارب تمشى بالنار سريعة السير. وبمدينة باريس جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال. فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من باريس إلى البلاد البرانية، وتسمى «رولاجة»[1]، ومنها جنس معد لوسقة بالناس ليسافر فيه الناس، ويسمى «الدلجنس»، ومنها عربات صغيرة للسفر إلى المحال القريبة من باريس تسمى «كوكو»[2] ويدفع فيها على كل رأس قدرا معلوما، كالسفر فى السفن، وفى باريس عربات تستأجر إلى أجل معلوم، كيوم، أو شهر، أو سنة. والعربات العادية فى باريس هى «الفياكرة»[3]، وهى ما فيها مقعد فيه سدلتان متقابلتان تسعان ستة أنفس، ولها حصانان يسحبانها، «والكيرويولة» وهى نصف «الفياكرة»، فلها سدلة واحدة، وركوب «الفياكرة» أو«الكيرويولة» تكون أجرته بالساعة، أو يستأجره من محل آخر، وأجرة ذلك محدودة لا تزيد ولا تنقص، ووجودها فى سائر طرق باريس أكثر من وجود الحمير فى طريق القاهرة، وقد تحددت الآن عربات كبيرة تسمى «الأمنيبوسة»[4]، معناها لكل الخلق، وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق، مكتوب على بابها أنها تمشى إلى الحارة الفلانية، فكل الناس الذاهبين إلى حارة واحدة يركبونها، ويدفع كل منهم قدرا معينا، وهى موجودة فى أمهات خطوط باريس، ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت، ومنها عجلات البياعين، ويوسقونها ويدورون بها فى الطرق ليبيعوها، وهذه العجلات قد يسحبها حصان وقد يسحبها حمار وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه، وبها أجناس أخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك.

وأما البريد المسمى عند الفرنسين «البسطة» فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها، يسهل فيه إخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا،

---

(١) من الكلمة الفرنسية : (Roulage)

(٢) بضم الكافين. (الطهطاوى). من الكلمة الفرنسية : (Coucou).

(٣) من الكلمة الفرنسية : (Fiacre).

(٤) من الكلمة الفرنسية : (Omnibes).

ويأتى ردها فى أسرع ما يكون، وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن، فإن المكاتيب التى تبعت فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك، لأن سائر «نمرة» البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى «النمرة» فيها يمتاز البيت عما عداه، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة، فيأتى الساعى ويأخذه، فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى، ويأتى رده فى يومه، ثم إن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان، فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء، ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه الحالة كثرت الرسائل بين الأحباب والأصحاب، خصوصا بين العشاق، لأمن الإنسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل إليه المعنون باسمه، وإعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة، وبها أيضا يحصل الوعد بالمواصلة.

وفى باريس محل لإرسال المعاملات والحوائج مع الساعى أيضا من غير خوف أبدا. ومن الأمور النافعة فى التجارات «الجرنالات»، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا فى نظير ذلك، وسيأتى الكلام عليها إن شاء الله تعالى. وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ويرسلها مع خدم فى سائر البيوت ولسائر المارين بالطرق ويفرقها عليهم مجانا، ففى هذه الأوراق يذكر اسمه واسم دكانه وما عنده من المبيع ويعين القيمة لسلعته. وبالجملة ففى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا، سواء كان خطيرا أو حقيرا.

ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقيرية. فيها توجد سائر الأدوية مجهزة، وسائر العقاقير التى على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصية.

وسائر الخلق بباريس يحبون الكسب والتجارة، سواء الغنى والفقير، حتى أن الصغير الذى لا يمكنه التكلم إلا بالأشياء الصغيرة إذا أعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيده قائلا ما معناه بالعربية كسبت وقنيت! ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا، وإذا كسدت تجارة أحدهم، كما هو غالب فى تلك البلاد،

فسد حاله وآل أمره إلى تطلب ما فى أيدى الناس، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله، وأنه يستحق الإعانة، ويكثر وقوع مثل هذا الأمر فى هذه المدينة، وإن كثر أخذها وعطاؤها. وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الإنسان منهم الخروج إلى شغله، يقولون بلسان حالهم: اليد الفارغة تسارع إلى الشر، والقلب الفارغ يسارع إلى الإثم! وأهل باريس أغنياء جدا حتى أن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة، فلا يرضون قول الشاعر:

ولا فـــخـــر بـالنوال وبـالعـطا وليس بجـمـع المال غـر ولا فـخـر

بل يحرصون على الأموال، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد فى الأرزاق، ولا يقتدون بقول الشاعر:

وليـس يزاد فـى رزق حـــريص ولو ركـب العـــواصف كـى يزادا

وقد يوجد بها من أهالى الحرف الدنيئة من إيراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك. وذلك من كمال العدل عندهم، فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار، ولا شك أنهم يأنس فى قلوبهم قول الشاعر:

والملك الجـــبـــار والمنيع مـــا عـنده هاد ولا شـــفـــيع

رعـيـة الجـبـار مـرعى الحـرب والملك العـادل نصف الخـصب

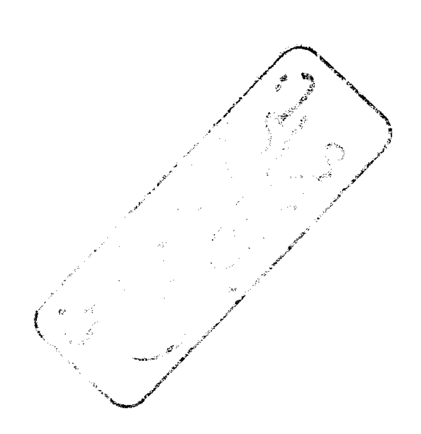
هذا لا يمنع من أنهم يدفعون الميرى عن طيب خاطر، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك إذا دفع كل إنسان منهم ما هو عليه قادر، فمال الميرى هو قوام صورة الممالك، وإحسان مصرفه فى استحقاقه خير مما هنالك، قال الشاعر:

والمال أس لقـــيـــام الـصـــورة وخـيـــر منه صـــالح المشــورة

ولما كانت رعيتهم رايعة[1] كانت الدولة عندهم لها إيراد سنوى عظيم، فإن إيراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليون فرنك. ومن جملة

(١) أى موسرة.

أسباب غناء الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف، فإن الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما، وإذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجه، وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى «الدوك درليان»، وهو الآن السلطان الذى هو من أعظم الفرنسيس مقاما وأكثرهم غَنَاء له من الأتباع وسائر من فى طرفه من العساكر ونحوها كالبستانجية والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه، فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث إن العسكرى بمصر له عدة خدم.



الفصل الثانى عشر

(فى دين أهل باريس)

قد تقدم لنا فى الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى القاثوليقية، وقد بطل هذا الشرط بعد الفتنة[1] الأخيرة، وهم يعترفون «للبابة»، الذى هو ملك رومة، بأنه عظيم النصارى وكبير ملتهم، وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية كذلك هو دين غالب الناس عندهم، وقد يوجد بباريس الملة النصرانية المسماة البرتستانتية وغيرها، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين، ولا وجود لمسلم مستوطن بها، وقد أسلفنا أن الفرنساية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم، فهم داخلون فى اسم الكتابيين، فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك، ففى أيام الصيام فى باريس لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت إلا ما ندر كبعض القسس وبيت ملك الفرنسيس القديم، وأما باقى أهل المدينة فإنهم يستهزؤن بذلك ولا يفعلونه أبدا، ويقولون: إن سائر تعبدات الأديان التى لا تعرف حكمتها من البدع والأوهام. ولا تعظم القسس فى هذه البلاد إلا فى الكنائس عند من يذهب إليهم، ولا يسأل عنهم أبدا، فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف، ويقال إن غالب ممالك الإفرنج مثل باريس فى مادة الأديان.

ثم إن مسيو دساسى لما أطلع على ذلك كتب عليه مانصه: «قولك: إن الفرنساوية ليس لهم دين ألبتة، وأنهم ليسوا نصارى إلا بالاسم، فيه نظر، نعم، إن كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط، لا يعتقدون اعتقادات دينهم، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية، بل هم فى أعمالهم لا

(١) الفتنة هنا تعنى الثورة، انظر تطور معنى هذا المصطلح فى العربية وأدبها السياسى والثورى، فى مقدمة كتابنا (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.

يتبعون إلا أهواءهم، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء، ومن العوام والخواص، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب، غير أنهم فى ورعهم وتقاهم على مراتب شتى، منهم من يشارك عامة الناس فى تصرفاتهم، ويحضر معهم فى محافل اللذات، أعنى «السبكتاكل» و«البال» ومجامع الأغانى، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس، وهؤلاء أقل عددا. وإن دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى هذا. انتهت عبارته.

والحامل له على ذلك كونه من أرباب الديانة، وعددهم نادر لا حكم له. ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو ببلاد النصارى القاثوليقية، عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم، ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى كرسى الاعتراف، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه ذهب إلى كرسى الاعتراف داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة، فيجلس ثم يعترف قدّامه بذنوبه، ويستغفره، فيغفر له، وقد عرف عندهم أن أكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب إلى الاعتراف يكون من النساء والصغار، وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب:

إن من يدخل الكنيسة يوما يلق بها جآذرا وظباء!

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة، فأولهم «الكردينال»، وهو بعد «البابة» فى الرتبة، وذلك أن «البابة» قبل توليته يشترط أن يكون كردينالا، ثم بعده «المطران»، ثم بعده «الأسقف»، ثم «الخوري»، ثم «نائب الخوري»، ثم «الشماس».

وعند الفرنساوية أعياد دينية منتقلة، يعنى لا تقع فى يوم معين كل سنة، بل هى دورية، ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد الفصح، فمن أعيادهم الغريبة عيد الرفاع، وقد تقدم، ومنها عيد ظهور السيد المسيح، ويسمى عند الفرنسيس

عيد الملوك، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة وتضع فيها حبة فول فى عجينها، ويقسمون الفطيرة على الندامى، فكل من جاءت حبة الفول فى نصيبه فهو الملك! فإن جاءت فى نصيب رجل فإنه يسمى باسم الملك، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة فتخاطب أيضا بذلك الخطاب، وإن جاءت الفولة فى نصيب امرأة فإنها أيضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها وتطلق عليه اسم الملك، فيكون سائر إكرام الليلة للملك والملكة برسوم خاصة وقوانين مألوفة، وهذه الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة باريس حتى بيت ملك الفرنسيس. ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون فى عيد القربان موكبا، ويلبسون فيه حللا مطرزة، ويدورون المدينة بشىء يسمونه «البونديو» ـ وكلمة «البونديو» مركبة من كلمتين، الأولى «بون» ومعناها طبيب أو عظيم، والثانية «ديو»، ومعناها الإله، فكأنهم يقولون إن الإله حاضر فى الجحفة[1] التى بين أيدى القسوس ـ والمراد عندهم «بالبونديو» عيسى عليه السلام. والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذى يدنس بلادهم ويذرى بعقول أهلها، غاية الأمر أن العيلة السلطانية كانت تعين القسِّيسين على هذه الأمور فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع، وللقسيسين بدع لا تحصى، وأهل باريس يعرفون بطلانها ويهزؤن بها. ولهم أعياد أخر لا يسعها هذا الكتاب. ثم إن لكل إنسان من الفرنساوية عيد وهو يوم مولد القديس الموافق له فى اسمه، فإذا كان إنسان اسمه «بولص» مثلا، فإن عيده يكون عيد مار بولص، فترى كل إنسان اسمه «بولص» يصنع وليمة ويشهر عيده، وفى عيد الإنسانَ يهادونه بأنواع الأزهار.

(١) الجحفة، بفتح الجيم وبضمها، من معانيها: بقية الماء فى جوانب الحوض.

الفصل الثالث عشر

(فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم)
(والفنون والصنائع، وذكر ترتيبهم، وإيضاح ما يتعلق بذلك)

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعية، فى هذا العصر . بمدينة باريس . أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة . وأنه لا يوجد فى حكماء الإفرنج من يضاهى حكماء باريس، بل ولا فى الحكماء المتقدمين، كما هو الظاهر أيضا، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : إن سائر الفنون العلمية التى يظهر أثرها بالتجاريب معرفة هؤلاء الحكماء بها : ثابتة، وإتقانها عندهم لا نزاع فيه، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : الأمور بتمامها . والأعمال بخواتيمها . والصنائع باستدامتها . وأما أغلب العلوم النظرية فإنها معروفة لهم غاية المعرفة، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل بالنسبة لغيرهم من الأمم، غير أنهم يموهونها ويقوونها حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها، كما فى علم الهيئة مثلا، فإنهم محققون فيه . واعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان والمخترعة له، ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات، غير أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها، وسيأتى لنا كثير من بدعهم وننبه عليها فى محالها، إن شاء الله تعالى . ولنقل هنا : إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث من الخلاف الذى ذكره صاحب (متن السلم) فى الاشتغال بعلم المنطق[١] فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة

---

(١) أى إنه لا بأس من الاشتغال بهذا المعنى لمن لا تتأثر عقيدته به من العلماء الراسخين فى الدين . أما الحكم الأول : فهو الوجوب المطلق، والثانى هو التحريم المطلق .

الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ولا يفتر عن اعتقاده، وإلا ضاع يقينه، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها:

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب!

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها، فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة فى تعلمها، فأى إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان، حيث أنه لا التباس فيها أصلا، فهى غير متشابهة، وإذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا، فإن الألفاظ مبينة بنفسها، وبالجملة، فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر. بخلاف اللغة العربية مثلا، فإن الإنسان يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة، ويدقق الألفاظ ما أمكن، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها. وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها، فليس لكتبها شراح ولا حواشى إلا نادرا، وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه. فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى إفهام مدلولها، فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن إنتاجه منها، وأما غير ذلك فهو ضياع. مثلا إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب فإنه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة التجنيس وقد خلت عنه، وأن المصنف قدم كذا ولو أخره كان أولى، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو، والعكس أحسن، ونحو ذلك. ثم إن الفرنسيس يميلون بالطبيعة إلى تحصيل المعارف، ويتشوفون إلى معرفة سائر الأشياء، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة إجمالا لسائر الأشياء، فليس غريبا عنها، حتى أنك إذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء، ولو لم يكن منهم، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون

ويتنازعون فى بعض مسائل علمية عويصة، وكذلك أطفالهم فإنهم بارعون للغاية من صغرهم، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعانى الغر وهو مراهق وافتض أبكار الفنون وليدا

فإنك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا فيجيبك - بدلا عن قوله : لا أعرف أصل هذا الشيء - ما معناه : الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ونحو ذلك، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل، ولهم تربية عظيمة، وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق، والعادة أنهم لا يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم، وهذا يكون غالبا فى عشرين إلى خمس وعشرين سنة، فقل منهم من كان فى سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس أو تعليم صنعته التى يريد تعلمها، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن، وهذا السن فى الغالب يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعته، كما قال الشاعر :

إذا ما أول الخطى أخطا فما يرجى لآخره انتصار

إذا حاز الفتى عشرين عاما وما بلغ المراد فذاك عار

فكأن هذا السن عند سائر الأمم سن انتهاء الناجب، فانظر إلى «الأخضرى» فإنه فى سن إحدى وعشرين سنة قد نظم رسالة (السلم) وشرحها، وكذلك العلامة «الأمير» فإنه فى دون العشرين بيسير صنف مجموعة فتورك[1] على قول «الأخضري» :

ولبنى إحدى وعشرين سنة معذرة مقبولة مستحسنة

بإنه وهو فى دون السن ألف فى أصعب من ذلك المقام. وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الإفرنج.

وأما علماؤهم فإنهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص، وكشفهم كثيرا من الأشياء، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها، فإن هذه عندهم هى أوصاف العالم، وليس عندهم كل مدرس عالما،

---

(١) أى اعتمد عليه.

ولا كل مؤلف علامة، بل لا بد من كونه بتلك الأوصاف، ولا بد له من الدرجات معلومة، فلا يطلق عليه ذلك الاسم إلا بعد استيفائها والارتقاء لها.

ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس، لأن القسوس إنما هم علماء فى الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا، وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة فى العلوم العقلية، ومعرفة العلماء فى فروع الشريعة النصرانية هينة جدا، فإذا قيل فى فرنسا هذا الإنسان عالم، لا يفهم منه أنه يعرف فى دينه، بل يعرف علما من العلوم الأخر، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة، وجامع بنى أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية.

والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم، فهى دائما فى الزيادة، فإنه لا تمضى سنة إلا ويكشفون شيئا جديدا، فإنهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسائط أو تكميلات، وستعرف بعض هذا، إن شاءالله تعالى.

ومما يستغرب أن فى رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العرباء فى شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل، ومزاجهم كالعرب فى الأشعار الحربية بالغزل، فقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته:

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى　　والنقع ليل والأسنة أنجم

فحسبته عرسا ونحن بروضة　　وأنا وأنت بظله نتنعم

وقول الآخر

ولقد ذكرتك والرماح نواهل　　منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها　　برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت ... برشقة من نبال الأعين النجل

ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى ... باللمح من خلل الأستار فى الكلل

ولا أخل بغزلان تغازلني ... ولو دهتنى أسود الغيل في الغيل

ولنذكر لك مجامع العلماء والمدارس المشهورة، وخزائن الكتب، ونحو ذلك، لتعرف به مزية الإفرنج على غيرهم. فمن خزائن الكتب الخزانة السلطانية، وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان، بأى لغة كانت مطبوعة أو منسوخة، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا، ثم إن المصاحف التى عند الفرنساوية فى خزائنهم غير مهانة، بل هى مصونة غاية الصون، وإن كان عدم إهانتها حاصلا غير مقصود، غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك، وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة باريس، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى اختارها للترجمة ثم ترجمها وضم إليها قواعد الإسلام وبعض شعبه، وقال فى كتابه: إنه يظهر له أن دين الإسلام هو أصفى الأديان. وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان.

ومن خزائن الكتب الخزانة المسماة خزانة «مسيو»، وتسمى خزانة «الأرسنال»[1] «والأرسنال» هى الترسخانة، وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية، وبها نحو مائتى ألف مجلد مطبوعة، وعشرة آلاف منسوخة، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار، خصوصا الإيطاليانية.

ومنها خزانة «مزارينة»[2] وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة، وأربعة آلاف منسوخة.

ومنها خزانة «الانسطيطوت»[3] وفيها خمسون ألف مجلد.

---

(١) Arsenal Biblitheque   (٢) Mazarine

(١) La Biblothque deL'Institut

ومنها خزانة المدينة وهى نحو ستة عشر ألف مجلد، وهى دائما فى الزيادة، وكتبها آداب .

ومنها خزانة بستان النباتات[1] وفيها عشرة آلاف مجلد فى العلوم الطبيعيات ومنها خزانة الرصد السلطانى، وفيها كتب علم الهيئة .

ومنها خزانة مكتب الحكمة .

ومنها خزانة «أكدمة»[2] الفرنسيس، وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد، وكل هذه خزائن موقوفة . وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدا، فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة، فأقل ما يوجد منها ثلاثة آلاف مجلد، وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد، وقد تنوف عن ذلك، ولا حاجة لتسميتها هنا، ولكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله، ويندر وجود إنسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة، وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب، وعلى آلات العلوم وأدواتها، وعلى التحف الغربية التى تتعلق بالفنون كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك .

ففى باريس كثير من الخزائن التى يقال لها خزائن المستغربات، فيوجد بها ما تتشوق إليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص فى الطبيعيات، كالمعادن، والأحجار، والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات، وسائر الأشياء التى فيها آثار القدماء، وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الإنسان يدرس ما يراه فى الكتب ويقابله، فإن رأى فى كتاب تعريف حجر كذا وحيوان كذا وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة فى الكتب، وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة باريس البستان السلطانى المسمى بستان النباتات، وفيه سائر ما تعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغريبة، يزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التى يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة

(١) La Biblotheque du Jardin des Plantes

(٢) Biblotheque de L'Academoe Francaise

والحكمة، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم. ويقابلون ما في الكتاب على ما يرونه، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه فى نحو ورقة ويكتبون اسمه وخاصيته، وفيه أيضا سائر مراتب الحيوانات الحية، غريبة أو أهلية، برية أو وحشية، فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود، والسبع، والضبع، والنمورة، والسنانير الغريبة، والإبل، والجواميس، وغنم بلاد التبت، وزرافة سنار، وفيلة الهند، وغزلان البربر، والأيل،[1] وبقر الوحش، وأنواع القردة، والثعالب، وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم. وسائر هذه الحيوانات التى تراها حية بهذا البستان تراها ميتة أيضا محشوة بالتبن يراها الإنسان على صورة الحية «كالبو» البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادى مصر، ويوجد فى هذا البستان أروقه مملوءة بالمعادن النفيسة وسائر الأحجار سواء كانت عشيمة أو طبيعية فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها، ففيها كثير من الأشياء التى لا يمكن أن تجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكة أو نباتها وأحجارها، وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة أو الأنموذج من كل شيء، ومكتوب على كل شيء اسمه باللغة الفرنساوية أواللاطينية، مثلا فى القاعة التى فيها سبع مكتوب عليها اسم السبع باللغة الفرنساوية وهو «ليون»، وهكذا، ومما فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد مرض فدخل حارسه ومعه كلب فقرب الكلب من الأسد ولحس جرحه فبريء الجرح فحصلت الألفة بين الأسد والكلب، ودخلت محبة الكلب فى قلب الأسد، فصار الكلب يتردد دائما على الأسد ويتملق إليه ويراه كأنه من أصحابه، فلما مات الكلب مرض الأسد لفرقته. فوضعوا معه كلبا آخر امتحانا لطبعه فتسلى به عن الميت، ولا زال معه.

وفى بستان النبات رواق يسمى رواق التشريح، وفيه جميع الموامى، أى الجثث المحنطة المصبرة، ونحوها من الجثث، ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبى الذى استشهد بقتله للجنرال الفرنساوى «كليبر»

---

(١) الأيل: حيوان أليف ذو ظلف، لذكوره قرون متشعبة ومجوفة، بعكس أنثاه التى لا قرون لها، والجمع منه أيائل.

وقتل الفرنساوية له فى أيام تغلبهم على مصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!

ومن مجال العلوم الفلكية الرصد السلطانى، بمدينة باريس، وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا، وذلك أنه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد أو الخشب فى مادته، وهو على شكل مسدس الأسطحة المتوازية القائمة الزوايا، موجه الضلوع الأربعة إلى الأربع جهات: الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، وفى طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتى الزوايا، وفى طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة، وهى باب الرصد وفيه رسم الفرنسيس فى رواق فى الدور الأول خط نصف نهارهم فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين، فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول، فينسبون إليه غيره من الأماكن المغايرة له فى السمت، وقد أسلفنا ذلك موضحا فى (الفصل الأول) من (المقالة الثانية) وارتفاعه وسطحه ثلاثة وثمانون قدما فوق الأرض، وهو منقسم إلى عدة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك، فمن هذه الأروقة ستة لها ممارق مفتوحة قطر كل ممرق[1] ثلاثة أقدام، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء، ويعين فيها على ما يحتاج إلى رصده، فترى منها النجوم وأنت فى المخادع التى تحت الأرض، وفى هذه الأروقة امتحنوا ثقل الأجسام الطبيعية، وميزان الهواء وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات، وعلى قلته آلة تعديل الرياح المسماة ـ «الأتيمومتر» بها تقاس قوة الرياح، وفيها طشت يسمى دن العيار يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة. ومخادع هذا الرصد هى داخلة فى الأرض التى عمقها يساوى سمك حيطان الرصد، وإلى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران والانعطاف كدرج المنارة، وعدة درجها ثلثمائة وستون، ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبايعية والكيماوية أن يصنعوا بها تجاريبهم بأن يجمدوا فيها المائعات ويبردوا بها الأجسام ليعرفوا مزاج الأهوية. وفيها رواق يسمى رواق المناجاة أو رواق الأسرار وذلك أن فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للأذن أى وصوله بالهواء إليها، وذلك أن بالرواق عمودا يقابله عمود آخر فإذا وضع الإنسان فمه على العمود وأسر بكلام فإنه يسمعه الإنسان

---

(١) الممرق هو المخرج، وهو يشبه الكوة تمرق منها الريح.

الذى بالعمود الآخر، ولا يسمعه من يقرب منه وهذه الأمور يفهمها من له إلمام بخاصية الصوت.

ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له «الكنسروتوار»[1] وفى هذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها، خصوصا الآلات الهندسية كآلات الحيل وتحريك الأثقال، ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن؛ وفى هذا المحل يرد الصدا صوت الشخص برد عجيب.

ثم إنه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة، يعنى علم الطب، ولهم فيهامدارس كثيرة.

ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول: إن العلماء فى مدينة باريس لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة، فمنها ما يسمى «أكدمة»، ومنها ما يسمى «مجمعا» أو «مجلسا»، و«الأنسطيطوت» عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع «الأكدمات» أى المجالس الخمس، وهى «أكدمية اللغة الفرنساوية» و«أكدمية العلوم الأدبية ومعرفة الأخبار والآثار» «وأكدمية العلوم الطبيعية والهندسية» «وأكدمية الصنائع الظريفة» «وأكدمية الفلسفة». وقولنا: «أكدمية» أو«أكدمة» أو«أقدمة». هو مأخوذ من اسم مكان فى مدينة أثينا كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء «الأكدميون»، وكان يقال لهذا المكان «أكدمية»، لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه: «اكدمس»، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة أثينا، وصيروه بستانا يتماشون فيه ويتفرجون فيه، فكان يدرس فيه أفلاطون، ومنه قيل لجماعة أفلاطون: «أكدميون» ويقال لهم: أفلاطيون، وهم مشهورون أيضا فى كتب العربية «بالإشراقيين[2] - بالقاف والفاء -

---

(١) بضم الكاف وسكون النون وكسر السين وسكون الراء وفتح الواو وسكون التاء، كلمة فرنساوية، معناها: المخزن، أو المحفظا، ونحو ذلك. (الطهطاوى).

(٢) هم أتباع المدرسة الفلسفية الإشراقية، التى تقيم المعرفة على «الحدس» الذى يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية.. ويسمون هذه المعرفة بالعلم الحضورى، الذى يحدث لهم بواسطة «سوانح نورية، أى لوامع نورية عقلية».. ومن أبرز فلاسفة هذه المدرسة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية شهاب الدين السهروردى المقتول. انظر هذه المادة فى (المعجم الفلسفى).

ويقال لهم أيضا «الإلاهيون»، ويطلق «أكدميون» الآن عند الفرنساوية فيفهم منه بمجرد إطلاقه أهل «أكدمة الفرنسيس»، وهم كبار علماء الفرنساوية، فإذا قيد فالمعنى ظاهر، كما إذا قيل «أكدمة مصر» فالمراد بها الجامع الازهر، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر. فأول علماء باريس، بل وعلماء فرانسا، ديوان العلوم المسمى «أكدمة الفرنسيس»، وأهلها أربعون عالما، كل واحد من الأربعين يسمى عضوا، يعنى أن هذا الديوان بأربابه كالبدن، وكل واحد كالعضو منه، وفى الغالب أن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية، وإنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ، وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية فى العلوم وصلح لأن يكون من أرباب هذه «الأكدمة» بدل واحد من أربابها مات. وكان هذا العالم كثير المجون فتوقفوا فى قبوله فى هذا الديوان، فما كانت حيلته إلا أنه كان دائما يعرض بهجوأهلها، من نوادر وقائعه أنه مرذات يوم ومعه بعض أصحابه فتذاكروا فى فضل علماء «أكدمة»، فقال: لا شك أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة، يشير بذلك إلى بعض الأمثلة الفرنساوية من قولهم فى مدح الإنسان: إن له عقلا كعقل أربعة، ومشيرا إلى أن عقل كل عشرة منهم كعقل واحد، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك، ومن نوادره إنه كتب قبل موته، كعادة الفرنساوية، على رخامة قبره المهيىء له بيت شعر باللسان الفرنساوى يقول فيه ما معناه بالعربية:

ها قبر من لم يك شيئا أيمه كلا ولا من علماء أكدمه

ومعناه هذا قبر من لم يصل إلى درجة أيا ما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة فى الحقارة درجة هؤلاء العلماء!

وهناك «أكدمة» تسمى «أكدمة تقييد الفنون الأدبية»، وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا، ووظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة، وبآثار القدماء خصوصا بالمبانى الغريبة، وبالعلوم الأدبية، وبعوائد الأمم وأخلاقها، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت عنه مما هو فى كتب علوم اللغات الغربية كاللاطينية والعربية والفارسية والهندية والصينية واليونانية والعبرانية والقبطية وغيرها.

ومن «الأكدمات» «الاكدمة» المسماة أكدمة العلوم السلطانية» وأهلها منقسمون اثنى عشر قسما، لكل قسم منهم فرع مخصوص، فتكون فروعهم اثنى عشر فرعا، فأهل القسم الأول يشتغلون بالرياضيات، كالهندسة والحساب، وأهل القسم الثانى بعلوم الحيل، كعلم جر الأثقال، ونحوه، والثالث بالعلوم الفلكية، والرابع بالعلوم الجغرافية والعلوم التجريبية، والخامس بعلم الطبيعة العامة، والسادس بالطبيعة، والسابع بعلم المعادن والأحجار، والثامن بعلم الحشائش، والتاسع بتدبير مصاريف الأرض، والعاشر بتطبيب الدواب، والحادى عشر بالتشريح، والثانى عشر بفن الطب والجراحة.

ومنها «الأكدمة السلطانية» المسماة «أكدمة مستظرفات الفنون»[١] وهى خمسة فروع: الأول فن الرسم، الثانى فن النحاتة، الثالث فن العمارات، الرابع فن النقاشة، الخامس فن تركيب حروف الموسيقا.

ومنها «مكتب الفنون الظريفة»، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه، وفيه يتعلم الرسم والنقاشة والعمارة.

ومن مجالس العلوم جمعية تسمى «أثينة الفنون»، وهى تعين على تقدم الفنون والصنائع، وهى كالحكم الذى ينفذ الأشياء ويقضى فيها برأيه. ومنها «أثينة باريس السلطانية»، وهى محل علوم وفنون، ولا يكون فيها الإنسان للتعلم إلا إذا دفع شيئا يسيرا كل سنة، والمدرسون فيها أرباب فضل. ومنها جمعية تسمى «الجمعية الفيلومانية»[٢] ومعناه محبو العلوم، والغرض من هذه الجمعية الإعانة على التقدم على علوم التوالدات، وهى مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن. ومنها جمعية تشتغل بعلوم الإنشاء والبلاغات، والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الأدبية وحفظ غريبها حتى لا تفسد لغة الفرنسيس، وإذا اخترع الإنسان معنى غريبا أو أجاب عن سؤال غريب أو قال شعرا مقبولا فإنهم يعطونه جائزة ذلك. ومنها جمعية تسمى «حسن الدروس»، ووظيفتها تعليم الآداب القاثولقية والدين

(١) (Les Beaux ARrts)

(٢) La Société Philomatheque

القاثوليقى. ومنها جمعية تسمى «أكدمة أنبا أبولون»، يعنى الأدباء، وهى مجلس أرباب الفنون الأدبية، ومنها جمعية تسمى «الجمعية الإسياتية»[1] تعنى بلغات أهل آسيا، أواللغات المشرقية، وبتحصيل كتبها الغريبة وترجمتها إلى الفرنساوية أو طبعها لتشتهر. ومنها جمعية تسمى «الجمعية الجغرافية»، وهى معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا. فهى تقوى الناس على السفر إلى البلاد المجهولة الأحوال، فإذا سافر فيها إنسان ورجع يطلبون منه سائر ما عقله عليها، فتأخذ ما علقه وتقيده وتدخله فى كتب الجغرافيا، ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ فى الكمال، وبالجملة فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا، كطبع الخرطات ونحوها. ومنها «الجمعية الغرماتيقية»، يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية. فإن علم النحو يسمى فى اللسان الفرنساوي: «الإغرمير» وباللاطينية والإيطاليانية: «إغرماتيقا»، ووظيفة هذه الجمعية الاشتغال بتصحيح اللغة، وتجديد اصطلاحات أو إبقاء الاصطلاحات القديمة، لأن اللسان الفرنساوى لسان غير قار القواعد، كتابة وقراءة. ومنها جمعية تسمى «جمعية المولعين بالكتب الخزائنية»، ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة. ومنها جمعية للخطاطين، وأهلها يشتغلون بإجادة الخط. ومنها جمعية تسمى «جمعية المغناطيسية الحيوانية»، وهى جماعة تقول بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان. ومنها «جمعية حفظة آثار القدماء»، وهى جمعية معدة لحفظ سائر ما يوجد من الآثار الباهرة عند القدماء، كبعض مبانيهم ومومياهم، والبحث عن ذلك، وملبسهم ونحو ذلك. ليتوصل به إلى دراسة عوائدهم، ففى، ذلك يوجد كثير من الأمور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من «دندرة[2]»، فإن الفرنساوية يتوصلون به إلى معرفة الفلك، على مذهب قدماء أهل مصر، فإن مثل ذلك يأخذونه بغير شيء، إلا أنهم يعرفون مقامه فيحفظونه ويستخرجون منه نتائج شتى ومنافع عامة. ومنها مكتبة تسمى «مكتبة الأطوال»، وأهلها اثنا عشر، ثلاثة مهندسون، وأربعة فلكيون، وأربعة بحرية، وواحد جغرافى، فيشتغلون بعلم

---

(١) La Société Asiatique

(٢) بلدة بصعيد مصر، تقع غربي النيل، بها الكثير من آثار الفراعنة القدماء.

الهيئة وتأليف الرزنامات السنوية، وتحرير الزيجات[1] وذكر أطوال البلاد. ومنها «الجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية»، وأهل هذه علماء أغنياء وهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا. ومنها جمعية لتحسين الأصواف، ووظيفة أهلها مباشرة ما يتعلق بالغنم. ومنها جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة فى الفنون والصنائع، وهى تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم، فإذا اقتراح إنسان شيئا نافعا أخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة.

وفى باريس مدارس سلطانية تسمى «الكوليج [2]»، وهى مدارس يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التى تكون وسائل فى الأمور المقصود منها، وهى خمسة «كوليجات» يدرس فيها صناعة الإنشاء والتأليف، والألسن القديمة الغربية، والعلوم الرياضيات، وعلم التاريخ والجغرافيا، والفلسفة وأصول الطبيعيات، يعنى كتبها الصغيرة، وعلم الرسم، وعلم الخط، وفيها مراتب للطلبة، فإن الإنسان يسلك فيها فى العادة مرتبة كل سنة، ففى كل سنة من ستة سنين يخرج الإنسان من مرتبة إلى أعلا، فهى بالترقى لا بقوة الفهم ولا بغيره، فلا يمكن للإنسان أن يتعدى أبدا، وهناك «كوليجان» آخران غير سلطانيين، وفيهما يدرس ما يوجد فى «الكوليجات» الخمسة السابقة، وفيها «كوليج» آخر يسمى «كوليج الفرنساوية السلطانى»، وهو أعظم جميعها، فيتعلم فيه الرياضيات، والطبيعة المخلوطة بالحساب، والطبيعة العملية، والهيئة، والطب والتشريح العمليين، وفيه يتعلم اللغات كالعربية والفارسية والتركية والعبرانية والسريانية، والهندسة، ولغة أهل الصين وعلومهم، ولغة التتار، والحكمة اليونانية التى هى فلسفة اليونان، وعلم الفصاحة والبلاغة فى اللسان اللاطينى، وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية، وهذا «الكوليج» يشتمل على أكابر المدرسين، وفيه ستة آلاف طالب. ومن أشهر المدارس

---

(١) مفردها «زيج»، كلمة فارسية معناها الجداول الفلكية القديمة.

(٢) بضم الكاف وفتح اللام وسكون الياء. (الطهطاوي).

مدرسة «بوليتقنيقا» [1] يعنى مدرسة كليات العلوم، وفيه يدرس الرياضيات والطبيعيات لتربية مهندسين فى علم الجغرافيا وفى العسكرية، فمهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان وكل آلات الحيل ورفع الأثقال، وأما مهندسو العلوم العسكرية فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج والتوقى من ضرر الأعداء والاتخاذ العراضى وهندسة البارود، وأرباب هذه المدرسة محققون لهم باع فى سائر العلوم، ويكفى فى فضل الإنسان أن يكون من تلاميذها. ومنها مكتب يسمى «مكتب الفروع الفقهية» فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها. ومنها مكتب موقوف على تعليم علم الرسم، فيدرس فيه الذكور والإناث علم التصوير. ومنها «مكتب الغناء السلطانى»، فيتعلم فيه أيضا الذكور والإناث علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسى. ومنها مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات لتكون وسائل للفنون، فيتعلم فيه الحساب والهندسة والقياس ونحاتة الحجر والخشب وعلم المساحة وتصوير البهيمة والآدمى والازهار وأنواع الزينة. ومنها «مكتب القناطر والجسور»، وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والأرصفة. ومنها «مكتب سلطانى لتعلم علم المعادن، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن واستخراجها. ومنها «مدرسة الفنون والحرف» يتعلم فيها علمى الكيمياء والهندسة الداخلين فى الحرف والفنون، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة إلى هذا العصر. ومنها مكتب يسمى «مكتب اللغات المشرقية المستعملة»، وفيه يتعلم الفارسى والملابارى والعربية، الأصلية والدارجة، ولغة الترك والأرمن والروم. ومنها مكتب يسمى «مكتب الأرليغولوغى» [2]، يعنى تفسير الكلمات المكتوبة من قديم الزمان فى اللغات القديمة، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة فى الأزمنة السالفة، والأحجار المنقوشة، وترجمة الهياكل القديمة المكتوبة. ومنها مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ونحو

---

(١) بضم الباء وكسر اللام وسكون الياء والقاف وكسر التاء والنون وسكون الياء. (الطهطاوى)
(L'Ecole polytechnique

(١) بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر اللام وضم الغين واللام وكسر الغين الآخرة. (الطهطاوى)
(L'cole de L' archeologie

ذلك. ومنها مكتب سلطانى للموسيقا والإنشاء والخطابة، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية من الذكور والإناث، وأهل التعلم به أربعمائة نفس. ومنها «مدرسة بستان السلطان»، التى هى بستان النباتات، وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة فروع، كعلم الحشائش والطبيعيات والكيمياء والمعادن والتشريح والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمى والبهيمة. ومنها مكتب يسمى «مكتب البستنجية» وفيه يتعلم علم زراعة الشجر وحفظه من البرد، وتطبيع النباتات الغريبة المنقولة على إقليم المحل الذى نقلت إليه. ومنها «مكتب تقليم الأشجار غير المثمرة لإخراج ثمرها». ومنها «مكتب تعليم النباتات والمعادن» لمن يريد السفر فى بلاد ليميز نباتها ومعدنها. ومنها مكتب يسمى «طب البهائم»، وفيه يتعلم تطبيب البهائم، وفيه مارستانات للحيوانات الممروضة، وفيه مدرسة كيمياء، ومدرسة لعلم الطبيعة، وفيه العقاقير، وبستان حشائش، ومكتب للفلاحة العملية، وجملة أجناس من البهائم معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها، فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف آخر كحصان عربى على حجرة[١] أندلسية ليتولد منها صنف آخر. ومنها «مكتب الصم البكم»، وهو موقوف على مائة نفس، ويدخلون فيه من إحدى عشرة إلى ستة عشر، فتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب واللسان والتاريخ والجغرافيا وصنعة من الصنائع، وفى هذا المكتب ورشة يتعلم فيها علم الطباخة والنقاشة والنجارة والخراطة والخياطة والصرماتية، ونحوها. ومنها «مكتب العميان السلطانى»، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان، فيتعلمون القراءة على شيء مكتوب لهم كتابة مخصوصة، فيمسونها باليد، ويتعلمون أيضا علم الجغرافيا على خراطات مخصوصة أيضا، ويتعلمون التاريخ والرياضيات والموسسيقا بالصوت وبالآلة، وغير ذلك من الحرف، كشغل الجرابات ونحوه. وغير ما ذكرنا يوجد أيضا عدة مدارس. ويوجد فى باريس أيضا مكاتب تسمى «البنسيونات» جمع «بنسيون»[٢] وهى مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب والهندسة وغيرها كالتاريخ والجغرافيا، وهى نحو مائة

(١) هى أنثى الخيل.

(٢) بفتح الباء وسكون النون وكسر السين وضم المثناة التحتية وسكون الواو. (الطهطاوي).

وخمسين بنسيونا وفيها أكل الإنسان ومشربه ونومه وغسل حوائجه، ونحو ذلك، فيدفع أهالى الأولاد قدرا معلوما فى السنة. وغير «البنسيونات» المذكورة يوجد بيوت يكون صاحبها عالما فيأخذ عنده أولاد ليأكلوا معه ويشربوا معه ويعلمهم بنفسه، أو يحضر لهم معلمين عنده. وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعلم فى البيت كل يوم ليعلمهم عنده.

ومن الأشياء التى يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة التذاكر اليومية المسماة «الجرنالات» جمع «جرنال»، وهو يجمع فى اللغة الفرنساوية على «جرنو» وهى ورقات تطبع كل يوم، وتذكر كل ما وصل إليها علمه فى ذلك اليوم، وتنتشر فى المدينة، وتباع لسائر الناس، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم، وكذلك سائر القهاوى، وهذه «الجرنالات» مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة فلها حرية تامة، ما لم تضر فى ذلك، فإنه يحكم عليها، وتطلب قدام القاضي. «والجرنو» عصب، فكل جماعة لها فى مذهبها مذهب كل يوم يقويه ويحاميه ويؤيده، ولا يوجد فى الدنيا أكذب من «الجرنالات» أبدا خصوصا عند الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب إلا من حيث كونه عيبا، وبالجملة، فكتاب «الجرنو» أسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم! «والجرنالات» مختلفة الأنواع والأصناف، فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها، ومنها ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط. وما هو للمعاملات، وما هو للطب، ولكل علم على حدته كعلم الطب إلى آخره. «والجرنال» الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة. وكل «جرنال» تكثر نسخه على حسب رغبة الناس فيه، وأرباب «الجونو» يعرفون الأخبار الغريبة قبل غيرهم، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد.

ومن جملة علوم باريس الدفاتر السنوية، والتقويمات الجديدة، والزيجات المصححة، ونحو ذلك، فكل سنة يظهر فيها كثير من الروزنامات المشتملة زيادة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون وعلى كثير من أمور الدولة وعلى تسمية أكابر

الدنيا وتسمية أعيان فرنسا وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم، فإذا احتاج الإنسان إلى اسم واحد أو إلى بيته راجع فى ذلك الكتاب. وفى باريس أوض القراءة، أو خلوات القراءة، فيذهب الإنسان فيها ويدفع قدرا معلوما، يقرأ سائر الجرنالات وغيرها من الكتب، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه.

ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم وتجارات الكتب، فإنها من التجارات الرائجة، مع كثرتها، وكثر المطابع، وكثرة التآليف التى تنطبع كل سنة، فإنها يعسر حصرها، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع، ولا تمر سنة بمدينة باريس إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغى أن يمدحوا به، قال الشاعر:

إذا شئت أن تحظى من الكتب كلها	**بأطيب مروي وأحسن مسموع**
فطالع مجاميع الدفاتر إنها	**تفرق من هم الفتى كل مجموع**

وقال آخر:

اجعل جليسك دفترا فى نشره	**ليريك من حكم الزمان نشورا**
ومعيد آداب ومؤنس وحشة	**وإذا انفردت فصاحبا وسميرا**

وبالجملة، فلا يمكن وصف مدينة باريس، مع تفصيل علومها وفنونها، إلا أنه يمكن التعبير عن ذلك إجمالا، كما ذكرناه.

المقالة الرابعة

(فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض ولي النعم، وفى تدبير أشغال الزمن فى القراءة والكتابة وغيرهما، وفي المصاريف الواسعة الخارجة من طرف صاحب السعادة، وفى عدة مراسلات بيني وبين بعض خواص الإفرنج تتعلق بالتعلم، وفي ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة باريس. ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلا، وإنه لا بد لطالب المعارف من اقتحام هذه الأخطار لبلوغ الأوطار فى تلك الأقطار، قال الشاعر:

دعيني أنل ما لا ينال من العلا ... فسهل العلا فى الصعب والصعب فى السهل

تريدين إدراك المعانى رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وقال آخر، وهو من الكلام الجامع:

من كان يعلم أن الشهد راحته ... فلا يخاف للذع النحل من ألم

وقال آخر، أيضا:

إن الفضائل بالأخطار مولعة ... فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا

وإن أراك الهوى منه الهوان فقل ... حكم المنية فى حب الحبيب منى)

الفصل الأول

(فيما حصل لنا فى أول الأمر)

(من الترتيب فى القراءة والكتابة وغيرهما)

من عادة أهل باريس أنهم فى التعليم يبدؤن بتعليم الإنسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف، لترسم صورها فى أذهانهم، وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها، ثم بعد عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال. فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة، ويحفظ هذه الكلمات، وينطق بها كما ينبغى، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة، فمن هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى قرأناه: (هذه فرس لها أربع أرجل، والطيور ليس لها إلا رجلان، لكن لها أجنحة تطير بها، وأما السمك فإنه يسبح فى الماء)، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب، فهو مثل قول النحاة: السماء فوقنا والأرض تحتنا، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة، على اختلاف تفسير الوضع فى قولهم: الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة، خصوصا التى تتعلق بالصغار باللعب بها، من العصافير والطيور والسنانير، ونحو ذلك، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار وطاعتهم للوالدين، ونحو ذلك، ثم نبذة فى علم الحساب، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدئون فى قراءة كتاب أهم منه، وفى كتاب النحو الفرنساوى، وغيره، وتقسيم الزمن على دروس الإنسان، فإن الإنسان يتعلم فى النهار عدة أمور مختلفة، فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم، ثم بعده درس النحو الفرنساوى. ثم بعده درس تقويم البلدان، ودرسا مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة، إلى آخره، وقد أسلفنا ذلك.

ولما كانت آمال ولى النعم متعلقة بتعلمنا عاجلا . ورجوعنا إلى أوطاننا، ابتدأنا فى مرسيليا، قبل وصولنا إلى باريس، وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى، ثم لما ذهبنا إلى باريس مكثنا جميعا فى بيت واحد، وابتدأنا فى القراءة فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب، وهو أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ، ساعتين، ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة، ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية، ثم بعد الظهر درس رسم، ثم درس نحو فرنساوى، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة

وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى الخط درسين، يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا، ثم انتهى الأمر إلى أننا تعلمنا الخط، فانقطع عنا معلم الخط، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع .

وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية وفى هذه الفنون المتقدمة، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوى، ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل، والشرب، والسكنى، والتعليم، وتعهد أمورنا من غسل، ونحوه، فكان يأخذ صاحب المكتب أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة فى نظير ذلك، ولا يلزمنا شيء من المأكل والمشرب .

ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة كان لكل واحد منا فى كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها، وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشترى لنا من طرف «الميري» أيضا القمصان والسراويل وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات، مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها، ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء والأجزاجية فى مداوة من كان يمرض منا، فإن الحكماء بباريس، مع كثرتهم غاية الكثرة، يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع، على اختلاف مراتبهم فى الشهرة وعدمها، ويتعدد القدر بتعدد الزيارة، وهذا إن لم يكن

للحكيم سنوية معلومة. وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب وتعهدهم للصحة، فأقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاث فركنات، والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات، والحكيم الجليل القدر يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا، وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد تعدد القدر، وأما بالنسبة للمعدم فقد لا يأخذون منه شيئا، ونحن نعد هناك من الموسرين، بل من الأغنياء، لتجملنا بالملبس الغريب عندهم، ولنسبتنا لولى النعم. ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر التعليم، أو الضابط علينا، يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد، وسترى بعض ذلك فى مراسلات كتبها لى بعد الامتحان العام.

الفصل الثانى

(فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا إلا يوم الأحد، الذى هو عيد الإفرنج، بورقة إذن للبواب من الضابط الذى نظَّره علينا ولى النعم، ثم بعد تفرقنا فى المكاتب المسماة «البنسيونات» كنا نخرج أيام البطالة، وهى يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس وأيام أعياد الفرنساوية، ومنها من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء إن لم يكن له درس بعده. ولنذكر لك هنا «قانون نامة» الذى صنعه الأفندية بعد دخولنا فى البنسيونات، وعبارته:

«هذه صورة ترتيب الأفندية فى البنسيونات:

المادة الأولى: أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة تسعة، ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندى النوبتجى فى هذا الشهر لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة، ثم يرجعون إلى البنسيونات فى أيام الصيف الساعة تسعة، وفى أيام الشتاء الساعة ثمانية، وهذا الترتيب لازم ولا بد، فإن رجع أحد إلى البنسيون قبل ذلك وتعشى هناك فهو أولى وأحسن. من اللوازم أن لا يدور أحد فى الأزقة ليلا. ومتى دخل فى البنسيونات يعطى الورقة المذكورة للمعلم.

المادة الثانية: أن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين.

المادة الثالثة: أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها فى

ورقة، ولا تسمع إلاّ إذا كانت من جهة التعليم ومن جهة أخرى يحصل له منها ضرر، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة، ثم يكتبها للنوبتجى فى هذا الشهر.

المادة الرابعة: أن جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر، ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات، ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح، ولأجل هذا ينبغى التفكير فى هذا الخصوص لأجل تحصيل غرض حضرة ولى النعم.

المادة الخامسة: لو احتاجوا شيئًا من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو «جومار» فإن رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى، فإن اشترى أحد شيئًا من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده.

المادة السادسة: أنه بعد الامتحان بما ذكرناه فى «المادة الرابعة» إن استحق أحد من الأفندية الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة[1].

المادة السابعة: فى محل التفرح أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته، وهذا الأمر هو أهم الجميع، وممنوع أشد المنع.

المادة الثامنة: إن كل الأفندية الذين هم فى البنسيونات لا يدخلون فى البيت المركز إلاّ كل خمسة عشر يوما مرة، وهو يوم الأحد.

المادة التاسعة: إن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل، إن لم يكن عليهم شغل، فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة.

المادة العاشرة: يتبعون قوانين البنسيون كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين.

---

(١) أى نقود.

المادة الحادية عشر : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة، وإن كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة وأطواره غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة.

المادة الثانية عشر : أن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء، وإن كان فى البنسيونات مائدتان إحداهما للمعلمين والأخرى للتلامذة فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم.

المادة الثالثة عشر : أن الافندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز وبسبب ذلك اعطينا كل واحد منهم صورة ذلك.

المادة الرابعة عشر : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه، مع التنبه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا، ولى النعم، فمن لم يمتثل أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم، حفظه الله».

الفصل الثالث

(فى ترغيب ولى النعم لنا فى الشغل والاجتهاد)

جرت عادته من مدة خروجنا من مصر بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرمانا كل عدة أشهر يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع، فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى، عند العثمانية: «إحياء القلوب»، مثل الفرمان الآتى، ومنها ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا أو غير ذلك، كفرمان آخر وصلنا قبل رجوعنا إلى مصر القاهرة، ولنذكر لك هنا فرمانا من النوع الأول، الذى هو «إحياء القلوب»، وإن كان فيه شائبة توبيخ، لتعلم كيف كان، حفظه الله، يحثنا على التعليم، وهذه صورة ترجمته:

«قدوة الأماثل الكرام، الأفندية المقيمين فى باريس، لتحصيل العلوم والفنون، زيد قدرهم.. ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية، والجداول والمكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة، وما فهمنا منها شيئا، وأنتم فى مدينة باريس، التى هى منبع العلوم والفنون فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا، فيا أفندية، ما هو مأمولنا منكم! فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من أثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره، وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة، وأن يجنى

ثمرة تعبه، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم، فإن أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم. ويكتب فى كل شهر ما تعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه، وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم. وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه، حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا منكم، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين. وافهموا مقصود هذه الإرادة. قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر، فى مجلسنا فى إسكندرية، يمنه تعالى، فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة فى ربيع الأول سنة ١٢٤٥)[١] خمسة وأربعين بعد الألف والماءتين من الهجرة». انتهت صورة المكتوب.

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قراناه وما تعلمناه فى ذلك الشهر، ويكتب تحته المعلمون أسماءهم، ونبعثه إلى ولى النعم. فلما تساهل بعض منا فى ذلك كتب مسيو «جومار» إلينا جميعا مكاتيب ليأمر من كان مواظبا على كتابة هذه الأوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته. ويوبخ من تساهل. وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أرسله إلى فى هذا المعنى، ولنذكره كما هو.

«باريس ١٥ فى شهر يونية[٢] فى شهر محرم سنة ١٢٤٦[٣] إلى محبنا العزيز الشيخ رفاعة، لا يخفى عليكم الأمر الوارد من ولى النعم. المتعلق بالأوراق الشهرية المشتملة على الدروس التى قرأتموها. فدم على ما أنت عليه من المواظبة. وابعث هذه الأوراق فى يوم الثلاثين كل شهر لمسيو المهردار أفندى. واطلب منه

(١) هجرية وتوافق ١٨٢٩ م.
(٢) سنة ١٨٣٠ م.
(٣) هجرية.

أوراقا غير مكتوبة لتكتبها بعد ذلك، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى فى كتابتها إلا نصف ساعة، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها، ومعرفة نوعها، وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك، ولا يخفى على اجتهادك. ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك. فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها. واعلم وتيقن بمحبتى لك.

جومار. أحد أرباب ديوان الأنسطيطوت».

الفصل الرابع

(فى بعض مراسلات بينى وبين بعض)
(من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو «جومار»)

فممن كاتبنى عدة مرات مسيو دساسى، ولنذكر لك بعض مكاتيبه، فمنها ما كتبه باللغة العربية، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية. صورة مكتوب منه.

«من الفقير إلى رحمة ربه، سبحانه وتعالى، إلى المحب العزيز المكرم والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى، صانه الله، عز وجل، من كل مكروه وشر، وجعله من ذوى العافية وأصحاب السعادة والخير. أما بعد، فإن القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس وحوادث إقامتك فى باريس رددتها إليك على يدغلامك، ويصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب الفعل فى لغتنا الفرنساوية، فإذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضى، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوربا كلها وفى ممالكها حتى يهتدى أهل مصر إلى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها، فإنه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ودمت سالما. كتبه المحب سلوسترى دساساى». انتهى.

صورة مكتوب آخر:

إلى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوى، حفظه الله وأبقاه، أما بعد، فإنه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك، وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد

دينهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا، يروق الناظر فيه، ويعجب من وقف عليه، ولا بأس أن تعرض خط يدنا على مسيو «جومار»، وإن شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا، وينعم عليك بما أنت أهله، ودمت على أحسن حال. محبك الداعى سلوسترى دساسى الباريزى».

وصحبة هذا المكتوب أرسل إلىَّ ورقة باللغة الفرنساوية لأطلع عليها مسيو «جومار» وهى بالتقريظ أشبه، وصورة ترجمتها:

«لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره، المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ، إلا اليسير منه، فحق لى أن أقول: إنه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية، ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية. ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم، وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد، سليم الفهم، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس والمدن الكبيرة، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن. وقد حرص فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئه للتوصل إلى المجهولات، خصوصا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب، وبهيئة الدنيا. وعبارة هذا الكتاب فى الغالب واضحة غير متكلف فيها التنميق كما يليق بمسائل هذا الكتاب، وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسديده، وإنه سيصلحه عند تبييضه. وفى التكلم على علم الشعر ذكر، استطرادا، بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب، على ما يظهر لى، لكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده. وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى، فينبغى له حذفها. وما ذكرت هذه الأشياء وبينتها هذا التبيين إلا للإعلام بأنى دققت النظر فى قراءتى هذا الكتاب.

وبالجملة، فقد بأن لى أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرانسا، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة، وتمكن منها كل التمكن، حتى تأهل لأن يكون نافعا فى بلاده، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس، وله عندى منزلة عظيمة،

ومحبة جسيمة. البارون سلوسترى دساسى. باريس فى شهر فبريه سنة ١٨٣١ = ١٩ فى شعبان سنة ١٢٤٦».

وصورة ترجمة مكتوب كتبه لى قبيل خروجى من مدينة باريس:

«بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعة. يحصل لى حظ عظيم إذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى والساعة فى ٣ إن أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحيظات لطيفة، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط إذا بعث لى أخباره بعد وصوله إلى القاهرة، فإذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة، ولا أزال أتذكر دائما آثاره واستنشق أخباره، مع انجذاب قلب وانشراح صدر. «البارون سلوسترى دساسى».

وصورة ما كتبه مسيو «كوسين دى برسوال»، مدرس اللغة العربية المتداولة فى المحاورات، المشهورة باسم «الدارجة» عند العامة، بدار كتب خانة السلطانية بباريس، وكنت كتبت له أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة فكتب هذا الجواب وصورته:

حضرة المحب العزيز الأكرم. الفصيح اللسان والقلم، جناب الشيخ رفاعة المحترم، حفظه الله، آمين. بعد إهدائكم السلام، ومزيد التحية والإكرام، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة، فبادرنا بقضاء حاجتكم، فواصل لكم طيه تحرير يحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى تفضلتم علينا بإطلاعنا عليه، وبالحقيقة قلنا مثل ما هو اعتقادنا، وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن، وأما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيئا، وحيث أنكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر فالمأمول من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة إلى بلادكم لا تخرجونا من خاطركم، وتواصلونا بالإعلام بصحتكم، ونترجاكم أيضا أنه إذا طبع كتابكم تبعثوا لنا منه نسخة، وبذلك تصيروننا ممنونين، ولأفضالكم شاكرين. والله تعالى يحفظكم، والسلام».

«محبكم كوسين دى برسوال ٢٤ شباط[١] ١٨٣١».

والمراد بطية التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب، وقال رأيه فيه

(١) أى: فبراير.

وصورة ترجمة هذه الطية التى كتبها لمسيو «جومار» باللغة الفرنساوية ليخبره برأيه فى هذه الرحلة :

«قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعة الملقب : (بتخليص الإبريز فى تلخيص باريز) فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين إلى فرانسا من طرف وزير مصر الحاج محمد علىّ باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات مؤخرة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة ، وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح ، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرانسا وعوائدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش . وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل ، وعبارة هذا الكتاب بسيطة . أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة ، وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام . فما رأيت منه إلا نبذة فى الرياضيات وعلم هيئة الدنيا ومبادئ أصول الهندسة والجغرافيا الطبيعية . فهذه النبذات ، وإن كانت موجزة ، إلا أنها مشبعة . فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقية بهذه المثابة ، وإذا اجتمعت هذه النبذات فى هذا الكتاب فإنها تكون كتاب علوم مستقل . مفتاحا لغيره من العلوم ، نافعا لأهل العربية ، وإذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فإنه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه واتساع دائرة معرفته . كوسين دى برسوال» .

فإذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن مسيور دساسى ومسيو كوسين اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بساطة عبارته . أى عدم التأنق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر . وإنما مسيو دساسى أعابه بثلاثة أشياء : **الأول** : اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الإسلام . **الثانى** : جعلنا ما ينسب لمدينة باريس وغيرها

من المدن عاما لسائر بلاد فرانسا. **الثالث**: ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره من الأشكال.

أما مسيو كوسين فإنه لم يتعرض لما جعله مسيور دساسى من باب الأوهام، ولما تحدثت معه فى شأنه أجابنى بأنه لم ير ذلك مضرا. حيث إنى كتبت على ما هو فى اعتقادى، وإلا لو تتبعت ما قاله الإفرنج ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض موالسة. وأما قوله كمسيو دساسي: إن عبارة هذا الكتاب بسيطة، فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة. يقال عند علماء الفرنساوية: عبارة بسيطة فى مقابلة العبارة البليغة.

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبة أكيدة، وصورة اجتماعى بهذا الشخص أنى دخلت مكتبة لقراءة «الكازيطات»، أى الوقائع اليومية، فتعرفت بهذا الشخص الذى هو «محاسبجي» فى وزارة الخزينة المالية، وأخوه مأمور «دبرطمانه»، يعنى إقليما من أقاليم الفرنساوية، وهو من بدنة عظيمة تسمى «السلادانية» نسبة إلى «سلادان»، يعنى صلاح الدين، يتوهمون أنهم ينتسبون إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى، قائلين إنه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الإفرنج تسرى بفرنساوية فحملت منه ثم انطلقت إلى بلادها فبقى الاسم فى أولادها، وذراريها إلى الآن! ثم أنى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه، ولا زلت معهم على الصحة الأكيدة مدة إقامتى فى باريس، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور فى إقليم الترك فى مدينة يقال لها إلبى، فأرسل إلىّ هذا المكتوب، وهذه صورة ترجمته، مع بعض حذف جائز:

«إلى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة، قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ليعطيها لك، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير. وقد وكلنى أخى بأن أخبرك بثنائه عليك على ما صنعته معه من الجميل فى إعارتك له هذه الأمانة، وأن أهنيك على بلوغك المأمول. هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز، فإن شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب. وتجده بخير، فقد بلغنى أن سفرك قد قرب جدا حتى أننى لا أظن أن أقابلك فى مدينة باريس، ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لاجتمعنا فى مرسيليا وودعتك فى آخر مدينة من مدن الفرنساوية

تعبر فيها فى سفرك، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا فى مدينة باريس التى كان بها أول اجتماعنا، ولا أدرى إن كان التلاقى مقدرا أم لا، ولكن تقلبات الدهر كثيرة خصوصا للإفرنج. فلا يمكننى أن أجزم بعدم الاجتماع. وبالجملة، فلا شك أنك تركت فى فرانسا صديقا يتذكرك ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضرر، ويسر غاية المسرة إذا بلغه أنك تحظى فى بلادك بثمرة فضلك وأوصافك، وليت شعرى ترجع إلى بلادك بأى اعتقاد فى طبيعة الفرنساوية. فقد رأيت هذه الملة فى وقت ينبغى أن يكون تاريخا من غرائب سيرها. وأظن أنك تسأل فى بلادك مرارا عديدة عن هذه الفتنة العظيمة. ونصرة الفرنساوية فى طلب الحرية، فإذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فمأمولى أن أراك فى مدينة باريس. وإلا فأرجو منك أن لا تسافر حتى تودعنى بلسان القلم بمحبتى لك غاية المحبة». انتهت صورته.

«جول سلادان»

وهذه صورة مكتوب تفهم منه أيضا رغبة الفرنساوية فى تحصيل الكتب الغربية وترغيبهم للمؤلفين أوالمترجمين فى ترجمة الكتب وتأليفها، وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب:

«إلى مسيو الشيخ رفاعة. قد حملنى مسيو «دبنغ» أن اسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم، لأن مسيو «دبنغ» مؤلف هذا الكتاب. فإذا كانت ترجمتك تنطبع فى مصر هل يتيسرلمؤلف الأصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء؟ ونعرفك أنك تخبرنا من أى محل وصلت فى الترجمة من المجلد الأول من جغرافيا ملطبرون، فإن هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخر مصححا مشتملا على زيادات لا توجد فى الأول، فلا بأس أن نحيطك به علما، فإنه يكمل طبعه فى أثناء هذا الشهر. ومنى إليك مزيد التحية».

محبك الصادق «رنو» بخزانة الكتب السلطانية، بباريز».

الفصل الخامس

(فى ذكر ما قرأته من الكتب فى مدينة باريس، وفى كيفية الامتحانات، وفيما كتبه لى مسيو « جومار»، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير فى الوقائع العملية، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب، وأن تكرر مع ما سبق»:

تعليم أصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة فى السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١[١] وبعد أيام قليلة فى مرسيليا ابتدأنا فى التهجى والقراءة، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجى، ووصلنا باريس فى شهر محرم فرجعنا ثانيا للابتداء فى أصول الهجاء، واشتغلنا بذلك نحو شهر، ثم ابتدأنا جميعا فى قراءة أجرومية «تومند»[٢] فى نحو اللغة الفرنساوية، وكان المعلم يضيف إليها من أجرومية أخرى ما يحتاج إليه الحال، فلما خرجت من بيت الأفندية قرأت مع مسيو «شواليه»[٣] أجرومية أخرى، ومع معلم آخر يسمى «لمونرى»[٤] أجروميتين. وفى كل من البيتين، يعنى بيت الأفندية وبيت المعلم، كنت أشتغل بالإعراب النحوى والإعراب المنطقى، يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق والإملاء والإنشاء والقراءة، ولا زلت على ذلك ثلاث سنوات.

---

(١) أى سنة ١٢٤١ هـ وتوافق سنة ١٨٢٦ م.

(٢) (Charles - Francois Ihomond).

(٣) (Chevalier).

(٤) (Lomonry).

(علم التاريخ)

ابتدأنا فى بيت الأفندية حين كنا معا بكتاب (سير فلاسفة اليونان) فقرأناه وتممناه، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود. وفى آخره نبذة مختصرة فى علم «الميثولوجيا»[١]، يعنى علم جاهلية اليونان وخرافاتهم. ثم قرأت عند موسيو «شواليه» كتاب يسمى «لطائف التاريخ» يتضمن قصصا وحكايات ونوادر. ثم بعده قرأت كتابا يسمى (سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم) ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها، ثم كتاب رحلة «انخرسيس»[٢] الأصغر إلى بلاد اليونان، ثم قرأت كتاب «سيغور»[٣] فى التاريخ العام. ثم سيرة نابليون، ثم كتابا فى علوم التواريخ والأنساب، ثم كتابا يسمى «بانوراما العالم»[٤] يعنى مرآة الدنيا، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية، ثم رحلة فى بلاد الجزائر.

(علم الحساب والهندسة)

قرأت فى الحساب كتاب «بزوت»[٥] وفى الهندسة الأربع مقالات الأول من كتاب «لو جندرة»[٦].

علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع مسيو «شواليه» كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية، ثم قرأت رسالة أخرى فى الجغرافية الطبيعية،

---

(١) (Methiologie)

(٢) (Anacharsis)

(٣) (Segur)

(٤) (panorama du Monde)

(٥) (Etienne)

(٦) (Le Gendre)

مقدمة لقاموس فى الجغرافية، يعنى معجم البلدان، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير مسيو «شواليه» وقرأت أيضا مع مسيو «شواليه» جملا عظيمة من جغرافية ملطبرون[1] ورسالة ألّفها لتعليم بنته فى هيئة الدنيا. وقرأت وحدى مؤلفات عديدة فى هذا الفن.

«فن الترجمة»

ترجمت مدة إقامتى فى فرانسا اثنى عشر كتابا أو شذرة يأتى ذكرها فى آخر هذا الكتاب، يعنى اثنى عشر مترجما، بعضها كتب كاملة وبعضها نبذات صغيرة الحجم.

(كتب فى فنون مختلفة)

قرأت كتابا فى علم المنطق الفرنساوى مع مسيو «شواليه» ومسيو «المونري»، وعدة مواضع من كتاب «ليبرتروايال»[2] من جملتها المقولات، وكتابا آخر فى المنطق يقال له كتاب (قندلياق)[3] غير فيه منطق ارسطو، وقرأت مع مسيو «شواليه» كتابا صغيرا فى المعادن، وترجمته، وقرأت كثيرا من كتب الأدب، فمنها (مجموع نويل)[4] ومنها عدة مواضع من ديوان «ولتير»[5] وديوان «رسين»[6] وديوان «رسو»[7] خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الإفرنج والعجم، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية، وقرأت أيضا وحدى مراسلات إنكليزية صنفها «القونت شستر فيلد»[8] لتربية ولده وتعليمه، وكثيرا من

---

(١) (Malte- Brun)

(٢) (La Porte - Royal)

(٣) (Condiliac)

(٤) (Noel)

(٥) (Voltaire)

(٦) (Racin)

(٧) (Rousseau)

(٨) (Le Conte Chesterfield

المقامات الفرنساوية. وبالجملة. فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة، وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب «برلماكي»، وترجمته، وفهمته فهما جيدا، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين، يجعله الإفرنج أساسا لأحكامهم السياسية، المسماة عندهم شرعية. وقرأت أيضا مع مسيو «شواليه» جزئين من كتاب يسمى (روح الشرائع) مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له «منتسكيو»، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجى، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق، أى منتسكيو الإسلام، وقرأت أيضا فى هذا المعنى كتابا يسمى (عقد التأنس والاجتماع الإنسانى) مؤلفه يقال له «روسو» وهو عظيم فى معناه، وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم، وقرأت عدة محال نفسية فى معجم الفلسفة للخواجة «ولتير»، وعدة محال فى كتب فلسفة «قندلياق»، وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو «شواليه» من غير تعرض للعمليات، وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى (عمليات كبار الضباط) مع مسيو «شواليه» مائة صفحة، وترجمتها، وقرأت كثيرا فى «كازيطات» العلوم اليومية والشهرية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة «البوليتيقية»، وكنت متولعا بها غاية التولع، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية.

ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية[1] من فرنساوى متطوع بالخدمة فى معسكر الموسقو من مدينة شملا القريب إلى بعض أمراء الألوية بمدينة باريس تاريخها اثنان وعشرون من يولية الإفرنجى سنة ١٨٢٨ من الميلاد:

«إعلم يا محبنا أن هذا أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف الإسلامية منذ وصولنا إلى العساكر الموسقوبية، ثم إن سائر ما رأيته، مما يذهل العقول ويحير الألباب، تقصر عنه العبارة، كيف وهو أمر غريب بالنسبة إلى مثلى، فلو كنت مثل

---

(١) رسالة فرضية، أى متخيلة.

جنابكم من العسكر المتمرن على الحروب، سافرت فى غزوة مصر، ورأيت واقعة «أبى قير»، وحصار مدينة «عكا» لما حار لبى حين رأيت شيئا جديدا لم أكن عاينته قبل ذلك مما يكل عنه الوصف، ولكن تأمل يا أخى فى أمرى، حيث أنى قد كنت فى خفر ملكنا، وخرجت من مكتب «سنسير»، ولم أحضر من الوقائع إلا وقعة الأندلس، فلم أشعر إلا أن وجدت نفسى قدام جبل بلقان، بعد أن جبت البرارى والقفار، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا، وتخلصهم منا، وإدهاشهم لجيوشنا.
وانظر فى استعجابى، وذهاب صوابى، حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحرابة الإسلامية بأعلى «شملا» وقد وصل إلى شريف علمكم من دفتر علم الموسقو تفصيل هذه الواقعة، وشرح الجم الغفير من عساكرنا، والخير بأنها صارت ضائعة، وقد شاهدت بعينى سوء ميتة الميرالاى «باردي» الموسقوبى بحالة رديئة، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية، ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة، وطول مدتها لا يعد من الغرابة، وإن كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب، فعساكر الإسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب، وهذه المصادمة هى التى تستسهل الخطر، وتخترق المانع لبلوغ الوطر، ينتج منها ثمرتان: الأولى: أنها تبقى الحيرة فى عقول الرجال، والثانية: أن عاقبتها دائما تفرغ فى قلوب الأعداء، ولو كانوا من الأبطال، ولو شاهدت عيناك ما شهدته من أن الفرسان العثمانية ترعب الإنسان بمجرد منظرها المرعب، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب، ومشيها على صوت الألحان الوحشية، وصهيل الخيول الكردية، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية، لحكمت مثلى بأن هذه الحرابة تطول، وأن اضطرام نارها قل أن يزول، أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة بترتيب عجيب، وهمة علية بنظام غريب، أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى الإقدام والإحجام، بيلغ عليها فى الحرابة المقصود والمرام، فياويح العساكر القرابة التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول، المركوبة بهؤلاء الفحول، الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية، دعامة غيرتهم الإسلامية والوطنية، وهذه مزية لا توجد يقينا فى عساكر الموسقو. ثم ازدحام الخلائق فى أوقات الحروب له تدبير صحيح، ولكن فى

هذه الواقعة لا يجهل إنسان، ولو كان من القزاق، أن الفخر لعساكر الإسلام، وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلى، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا فى عسكر الموسقو، لأشاركهم فى اقتحام الأخطار، واقتسم معهم الفخار، ولكن لما وصلت إلى هنا ظهر لى أن الظن قد خاب، وأنى قد حدت عن الصواب، ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم، ليس لهم شيء من الدناءة، بل هم أقرب إلى قبول التأديب والظرافة من الإفرنج.

واعلم يا أخى أن غيرتى على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئا، ولكن أقول: ليت شعري! هل تلزم الغارة على «إسلامبول» فى خلاصهم؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه فى أخذ مدينة «إبرائل» من العساكر كان يكفى وحده فى فك أسر الأروام، وتحرير رقابهم، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الإسلام، وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية، وكان شابا بديع الصورة، كثير الجروح، فعفى عساكرنا عن قتله، ولم يكن ذلك لغيره، ورقوا لملاحته وجراحته، فخاطبته باللغة الإيطاليانية، ففهم مقالى، وأجاب سؤالى، وأخبرنى بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة، وله أخوان فى خدمة حسين باشا، ولا يشك فى نصرة الدولة العثمانية، بل يقول إن الترك يصلون إلى موسقو!

واعلم يا أخى أن فى «شملا» نحومائتى ألف محارب، ويتجدد عليها كل يوم، وسلطانهم بطل عظيم عن يقين، وها أنا الآن أطوى لك كتابى، لأضع قدمى فى ركابى، فالآن عساكر الأعداء تحارب فى طالعة جيشنا، وأنا بين دوى ألحان الترك وعجيج أصوات الروس غريق، وهذه حرابة مهولة إن نظرت بعين التحقيق».

الفصل السادس

(فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة باريس خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى إلى مصر)

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الإنسان بالفهم أو الاجتهاد، أو بمدح المعلم فى المتعلم، بل لا بد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين فى الامتحان قوة الإنسان، والفرق بينه وبين أمثاله، وهذا يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص، بدعوة مثل دعوة الولائم عادة، وهناك امتحانات خاصة، وهى أن يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الأسبوع أو الشهر، وليكتب مفاد ذلك إلى آبائهم، فكنا فى البنسيونات بهذه المثابة، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام، بحضرة أعيان الفرنساوية.

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين فى الجواب، المتميزين عن غيرهم، ففى أول امتحان عام بعث لى مسيو «جومار» كتابا يسمى (رحلة انخرسيس فى بلاد اليونان) سبعة مجلدات، جيدة التجليد، مموهة بالذهب، يصحبها هذا المكتوب الذى صورته مترجما:

«أول يوم فى شهر أغسطس ١٨٢٧ من الميلاد.. قد استحقيت هدية اللغة الفرنساوية بالتقدم الذى حصلته فيها، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير، ولقد حق لى أن أهنئ نفسى. إرسالى لك هذه الهدية من الأفندية النظار دليل على التفاتك فى التعليم، ولا شك أن ولى النعمة يسر متى أخبر أن اجتهادك

وثمرة تعليمك يكافئان للمصاريف العظيمة التى يصرفها عليك فى تربيتك وتعليمك وعليك منى السلام مصحوبا بالمودة».

وقوله: «فى الامتحان الأخير»، المراد أنه آخر بالنسبة لما قبله، وهدية الامتحان تشبه أن تكون جائزة مثل جائزة الشعراء، وفى الامتحان العام الثانى بعث لى هدية الامتحان كتاب (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) و(جامع الشذور من منظوم ومنثور) مؤلفه مسيو دساسى وصحبته هذا المكتوب، وصورته مترجما:

«باريس ١٥ فى شهر مارس سنة ١٨٢٨ من الميلاد. قد استحقيت هدية النحو الفرنساوى بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير، ولقد سرنى أنك استحقيت أن أبعث لك علامة السرور منك، ليقوى قلبك، وها أنا باعث جدول امتحانك لسعادة ولى النعم باجتهادك وفلاحك، ولا شك أنه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة، وأنك أهل لرعايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك، وعليك منى السلام».

وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان، وأما صورة الامتحان الأخير الذى به رجعت إلى مصر، أن مسيو «جومار» جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى، رئيس الامتحان، وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا، وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية فى وقائع العلوم ما نصه، وصورة التلميذ رفاعة.

«أنه قرىء فى المجلس دفتران، الدفتر الأول يشتمل على تعديل اثنى عشر ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى العربية، ترجمها المذكور من منذ سنة، وهذه أسماؤها: **الأول**: (نبذة فى تاريخ إسكندر الأكبر) مأخوذة من تاريخ القدماء، **الثانى**: (كتاب أصول المعادن)، **والثالث**: (رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة) ألفه مسيو «جومار» لاستعمال مصر والشام متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية، **الرابع**: (كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم)، **الخامس**: (مقدمة جغرافية

طبيعية) مصححة على مسيو «دهنبلض» **السادس** : (قطعة من كتاب ملطبرون) فى الجغرافية ، **السابع** : (ثلاث مقالات من كتاب «لجندرة» فى علم الهندسة) ، **الثامن** : (نبذة فى علم هيأة الدنيا) ، **التاسع** : (قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية) ، **العاشر** : (أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الإفرنج) **الحادى عشر** : (نبذة فى الميثولوجيا) يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ، **الثانى عشر** : (نبذة فى علم سياسات الصحة) .

الدفتر الثانى يشتمل على رحلته وذكره سفره .

ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة فى «بولاق» ، فترجم منها مواضع بسرعة ، ثم قرأ بالفرنساوى مواضع ، منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير ، فى «كازيطة» مصر المطبوعة فى «بولاق» ، ثم بحث معه فى ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له ، فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنساوى والشيخ بيده الترجمة ، ثم أنه يترجم العربية بالسرعة إلى الفرنساوية قراءة لا كتابة ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل .

وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازا بدل مجاز آخر ، من غير خلل فى المعنى المراد ، مثلا فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله : علم العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر ! وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وإنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع فى الخلط ، بل هو دائما محافظ على روح المعنى الأصلى .

وقد عرف الشيخ الآن أنه إذا أراد أن يترجم كتب علوم فلا بد له أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تعبيرا مناسبا للمقصود . وقد امتحن فى كتاب آخر ، وهو (مقدمة القاموس العام) المتعلقة بالجغرافية الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو إلى العربية ، ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل إلى درجته الآن

فى اللغة الفرنساوية، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها . وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئا . بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها فى نشر العلوم، والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة .

ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى على أشكال[1] «والعطار» ـ من أهل بلاده ـ يشتغل بالطباعة على الأحجار لأجل ذلك، وقد كان حاضرا فى المجلس، فقدم لأهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية، وقد ابتدأ فى معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة وقلم الشعر لكتابة التصوير، وفى تصويراته توجد حيوانات وأمور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل، ولكنه جاء فى فرانسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليا عن جميع العيوب، ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر، علما وعملا، وينسخ عينات التصوير التى تعطى له، ويطبعها بنفسه عند الحاجة . ويمكنه أن يتأهل لفتح دار للطباعة . وطبعها بيده، وكانت نسخة منها موضوعة على «باش تختة» [2] مسيو «جومار» . انتهى كلام «كازيطة» دائرة العلوم .

وكتب لى مكتوب تهنئة برجوعى إلى مصر، بعد تحصيل المرام، غير أن هذا المكتوب قد ضاع منى، وكان لا بأس بذكره هنا، وصورة ترجمة ما كتبه لى مسيو «شواليه»، وهو أشبه بإجازة، وشهادة لى : «وزارة الحرب . يقول الواضع اسمه فيه «شواليه»، تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة «بلوتكنيقا الضابط المهندس»، المكتوب فى وزارة الحرب، الوكيل من طرف مسيو «جومار» والأفندية النظار، بالإرشاد إلى تعليم مسيو الشيخ رفاعة :

أشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ المذكور عندى لم أر منه إلا أسباب الرضاء، سواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة

---

(١) أى صور وجداول ورسومات .

والاحتراس، وحسن خلقه. ولين عريكته. وقد قرأ معى فى السنة الأولى اللغة الفرنساوية والقسمغرافيا. انتهى. وفيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك، ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة الازمين لتعلم الرسم، مع ثمرة، لم يشتغل به إلا مرة فى الأسبوع لمجرد امتثال أوامر ولى النعم، ولكن صرف جهده مع غاية الغيرة فى الترجمة، التى هى صنعته المختارة له، وأشغاله فيها مبينة فى إعلاماتى الشهرية، خصوصا فى الجرنالات الأولى التى أعطيتها لمسيو «جومار»، وحسب هذا التمليذ ما فى هذه الإعلامات والجرنالات. وما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به إلى أن أدته إلى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار، حتى احتاج إلى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل. ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه. ولما رأى أن الأحسن فى إسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له غير ما سمح به الميرى، وأن يأخذ معلما آخر غير معلم الميرى أنفق جزءا عظيما من ماهيته المعدة فى شراء كتب، وفى معلم مكث معه أكثر من سنة، وكان يعطيه الدرس فى الحصة التى لا يقرأ معى فيها، وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الإعلام الموافق لما فى الواقع ونفس الأمر، وأن أضيف إلى ذلك الإفصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته.

مسيو شواليه ٢٨ فى شهر فبريه سنة ١٨٣١.

المقالة الخامسة

(فى ذكر ما وقع من الفتنة فى فرنسا، وعزل الملك قبل رجوعنا إلى مصر. وإنما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه).

الفصل الأول

فى ذكر مقدمة يتوقف عليها إدراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم

إعلم أن هذه الطائفة فى الرأى فرقتين أصليتين. وهما: الملكية، والحرية، والمراد بالمليكة أتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشيء، والأخرى يميلون إلى الحرية، بمعنى أنهم يقولون: لا ينبغى النظر إلى القوانين فقط، والملك إنما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين، فكأنه عبارة عن آلة، ولا شك أن الرأيين متباينان، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا، لفقد الاتفاق فى الرأى.

والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم. وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية، فالفرقة الأولى تحاول إعانة الملك، والأخرى ضعفه وإعانة الرعية، ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية، ولا حاجة إلى ملك، ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا هو حكم الجمهورية، ويقال للكبار مشايخ وجمهور، وهذا مثل مصر فى زمن حكم «الهمامية»[1] فكانت إمارة الصعيد جمهورية التزامية.

فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمل بما فى القوانين، وبعضهم يريد الجمهورية.

---

(١) ثورة قام بها شيخ العرب همام، أحد كبار الملتزمين، وتعاون فيها الفلاحون مع القبائل العربية، بقيادة الهمامية، وكان ذلك فى عهد على بك الكبير، شيخ البلد (١٧٢٨ - ١٧٧٣ م).

وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل. ثم صنعوا جمهورية، وأخرجوا العيلة السلطانية المسماة «البربون» من مدينة باريس، وأشهروهم مثل الأعداء، ولا زالت الفتنة باقية الأثر إلى سنة ١٨١٠ ثم تسلطن بونابارته المسمى نابوليون، وتلقب بسلطان السلاطين، ثم لما كثرت حراباته وكثر أخذه للممالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الإفرنج ليخرجوه من المملكة فأخرجوه منها، مع محبة الفرنساوية له، وأرجعوا «البربون» إلى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية، فكان أول من تسلطن منهم لويز الثامن عشر، ولأجل ترغيب الناس فى حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية، بمشورتهم ورضائهم، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه، وهو الشرطة - وقد ذكرناها مترجمة فى باب سياسة الفرنساوية - ولا شك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم، وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية، وأنه لا يزاد ولا ينقص إلا إذا اتفق عليه الملك وديوان البير وديوان وكلاء الرعية، فلا بد من الديوانين والملك، ويقال إنه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه، وهم يحبون التصرف المطلق فى الرعية، ويقال إنهم تعصبوا عليه، وكان رئيس العصبة أخاه شرل العاشر، حتى أنه أطلع على ما أخفاه له فأبطله، ويقال إن شرل العاشر أراد فى كبر لويز الثامن عشر أن ينقض ذلك القانون ويرجع إلى طريق إطلاق التصرف، فلم يمكنه ذلك، ثم بعد موت أخيه أظهر شرل الحيلة وأبطل ما كان نواه، وأظهر أنه لا يريد شيئا من ذلك، وجوز لكل إنسان أن يبدى فى «الكازيطات» رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه وإظهاره، فصدق الناس كلامه، واعتقدوا أنه لا يخلف وعده، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ثم انتهى أمره إلى أن هتك القوانين، التى هى شرائع الفرنساوية، وخالفها، وقبل هتكه للشريعة بانت منه أمارتها بمجرد تقليده الوزارة للوزير «بولنياق»[1] وهو معلوم المذهب والتدبير، يعنى أنه يميل إلى كون الأمر لا يكون إلا للملك، ويقال إن هذا الوزير هو ابن زنا، زنت أمه بهذا الملك فولدته منه، فهو فى الحقيقة أبوه، وشهير بالظلم والجور، ومن

(١) جول أرمان، بولينياك (١٧٨٠ - ١٨٤٧ م) تولي الوزارة سنة ١٨٢٩ حتى أحداث الثورة سنة ١٨٣٠م، ولقد خفف عنه الحكم الذى أصدرته الثورة بالسجن مدى الحياة، خفف في سنة ١٨٣٦م ورحل بعدها إلى إنجلترا.

الحكم التى فى غاية الشيوع : إن ظلم الأتباع مضاف إلى المتبوع! وفى الحديث : «من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة، ولازمه الهم»، وقال الشاعر :

من أنصف الناس ولم ينتصف	بفضله منهم فذاك الأمير
ومن يرد إنصافه مثلما	أنصف أضحي ما له من نظير
ومن يرد إنصافه وهو لا	ينصفهم فهو الدنى الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا «إيلجيا» ببلاد الإنكليز من طرف الفرنساوية، يعنى رسولا للمصالح بين الدولتين، كانت الفرنساوية تنسب إليه كلما خالف مذهب الحرية، وكلما شاع عنه أنه راجع إلى فرنسا يظن جميع الناس أنه لا يأتى إلا ليتقلد منصب الوزارة ويغير القوانين، فلذلك كان يبغضه سائر أرباب الحرية وأغلب الرعية، وقد عرف الفرنساوية من قبل أن اختياره للوزارة كان مقصودا لهم، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة .

وقد قلنا فيما سبق إن ديوان رسل العمالات . الذين هم وكلاء الرعية، يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية، اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزاء الستة، فلم يصغ لكلامهم أصلا، وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه، وكان المجتمع فى هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا، منها ثلاثمائة لا يرضون بإبقاء الوزراء، ومنهم مائة وثلاثون يحبون إبقاءهم، فكان العدد الأكثر عليهم، والعدد الأقل لهم، فتيقنوا عزلهم، وكان الملك يحب إبقاءهم لاستعانته بهم على تنفيذ ما أضمره فى نفسه، فأبقاهم، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية، فكانت عاقبتها خروجهم وإخراجهم له من بلادهم معزولا، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر ما يجنى عليه القول	ولا لماذا أمره يؤول
يلقى الكلام كيف ما ألقاه	لم يحسن الفكرة فى عقباه
وهكذا التهوير فى المقال	وصحبة الأشرار والجهال
يخفضك الجاهل أنى رفعك	يرديك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثانى

(فى ذكر التغييرات التى حصلت وما ترتب عليها من الفتنة)

قد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى «المادة الثامنة» إنه لا يمنع إنسان فى فرانسا أن يظهر رأيه ويكتبه ويطبعه، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين، فإن أضر به أزيل. فما كان سنة ١٨٣٠ وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر، منها: النهى عن أن يظهر الإنسان رأيه وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة، خصوصا «الكازيطات» اليومية، فإنه لا بد قبل طبعها من أن يطلع عليها واحد من طرف الدولة، فلا يظهر منها إلا ما يريد إظهاره، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده، فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون، والقانون لا يوضع إلا باجتماع آراء ثلاثة: رأى الملك، ورأى أهل المشورة، يعنى ديوان البير، وديوان رسل العمالات، فصنع وحده ما لا ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره. وغيَّر أيضا فى هذه الأوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات، يعنى فى الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى باريس، وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع، مع أنه كان حقه أن لا يفتحه إلا بعد اجتماعهم، كما فعله فى المرة السابقة، وهذا كله على خلاف القوانين.

ثم إن الملك لما أظهر هذه الأوامر، كأنه أحس فى نفسه بحصول مخالفة، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية التى هى مقصد رعية الفرنساوية، وقد ظهرت هذه الأوامر بغتة، حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها، وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسات: إنه يحصل فى المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب، كما قال الشاعر:

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالعيدان تذكو وإن الحرب أولها الكلام

ففى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر فى «الكازيطات» أخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى «بالروايال»، يعنى السراية السلطانية، التى تسكنها عيلة أقارب الملك المسماة عيلة «أرليان»، التى الملك الآن منها، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس، وكان هذا يوم السادس والعشرين فى شهر يولية .

وفى يوم السابع والعشرين لم تظهر غالب «الكازيطات» الحرية، لعدم رضائها بالشروط، فلذلك بلغت الأوامر جميع الناس، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور «الكازيطات» التى من عادتها أنها لا تفتر عن الظهور إلا لمهم عظيم، فأغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس، فظهر بعض «كازيطات» الحرية آمرة بعصيان الملك، والخروج من طاعته، ومعددة لمساويه، وفرقت على الناس من غير مقابل .

وبهذه الديار، بل وفى غيرها، قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام، خصوصا مادة الخطابات، فإنها قوية، وخصوصا بلاغة الإنشاء فلها مدخلة عظيمة، كما قيل: إن نزل الوحى على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب! خصوصا إذا ما كان يذكر فى تلك اليوميات مقبولا عند العامة، ومقصودا عند الخاصة، فإن هذا هو عين البلاغة الصحيحة، فإنها ما فهمته العامة، ورضيت به الخاصة .

فلما سمع بذلك ولاة الحسبة حضروا فى المحال العامة، ومنعوا الناس من قراءة هذه «الكازيطات» وحاصروا مطابعها، وهموا بكسر آلات الطباعة، وكسروا بعضها، وحبسوا من اتهموه من الطباعين، وبهدلوا كثيرا ممن أظهر شيئا مخالفا لترتيب الملك من الرعية، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنساوية، فكتب أرباب هذه «الكازيطات» يعنى رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم ورقة إنكار، وأشهروها، وعددوا نسخها، ولصقوها بجدران المدينة، وأمروا فيها الرعية بالحرب، وعينوا محله، وكان الميعاد فى درب سراية «بالروايال»، فازدحم فيه

كثير من الأمم وفيما حوله من الحارات، فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحمات، فعظم دوى الرعية وكثرت أصواتهم وظهر غضبهم فى سائر الدروب والحارات، فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار والعساكر بالسيوف وآلات الحرب، فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب، وظهر صوت البارود من الجانبين فى مدينة باريس، فكأنما لسان حال الفرنساوية، الذى هو أصدق من لسان مقالهم، جعل يقول: * إن بنى عمك فيهم رماح* فعظم القتال، وكان أكثر المقتول من الرعية، فاشتد غضبهم، وعرضوا القتلى فى المحال العامة لتحريض الناس على القتال، وإظهار عيوب العساكر، وقامت أنفس الناس على ملكهم لاعتقادهم أنه أمر بالقتال، فما مررت بهذا الوقت بحارة إلا وسمعت فيها: السلاح! السلاح! أدام الله الشرطة وأهلك شدة الملك! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء، وأخذت الرعية الأسلحة من السيوفية، بشراء أو غضب، وأغلب العملة والصنائعية، خصوصا الطباعين، هجموا على «القرقولات» «وخانات» العساكر وأخذوا منها السلاح والبارود، وقتلوا من فيها من العساكر، وخلع الناس صور علامة الملك من الحوانيت والمحال العامة ـ وعلامة ملك الفرنسيين هى صور زهر الزنبق، كما أن علامة ملك الإسلام صورة هلال، وملك الموسقوبية صورة عقاب ـ وكسروا قناديل الحارات، وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه فى السكك المطروقة حتى يتعذر مشى الفرنسان عليه، ونهبوا «جبخانات» البارود السلطانية.

فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك، وهو خارج أمر بجعل المدينة محاصرة حكما، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء الفرنساوية، مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى، فإنه لو كان كذلك لأظهر إمارات العفو والسماح، فإنه أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه، ويحسن قول بعضهم:

عـليـك بالحـلم وبـالحـــيـــــاء والرفـق بالمذنـب والإغـــضــــاء

إن لم تـقل عـــثــــرة مـن يقـــال يوشك أن تـصـيـــبك الجـــهـــال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده، وبنظير ما نواه لأضداده، فلو أنعم فى إعطاء الحرية، لفرقة بهذه الصفة حرّية، لما وقع فى مثل هذه الحيرة، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة، سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها، واعتادوا عليها، وصارت عندهم من الصفات النفسية، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عـــادات وقـد ألفـــوا بهـا لهـــا سنن يـرعـــونهـــا وفـــروض

فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فــذاك ثـقــيل عـندهم وبغـــيض

وفى اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة، الذى هو محل شيخ مدينة باريس، فعند ذلك ظهر الخفر الجنسى[1] وقد يعنى «وردیان» الرعية، وهم عساكر كانت سابقا تخفر الأهالى، كما أن للملك عساكر «وردیان» تخفره، كان عزلهم الملك شرل العاشر، فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن الحرية، فأشهروا أسلحتهم للقتال، وطردوا سائر العساكر من محلهم، وحرقوا كثيرا منها، وفى هذه الأوقات ارتفعت المحاكم، وصار الحاكم هو الرعية، ولم يمكن للدولة عمل شىء، فقد بذلت ما عندها من القوة لإخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه، فكانت جميع القواصة متحركة والطبجية معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطانى، وستة آلاف من عساكر الصف، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس، غير الطبجية والقواصة، وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد، ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالأحجار أو يعين المتسلح .

وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة، ثم ذهبوا إلى محل يقال له «لوفر» وإلى قصر «التوراي»، وهو سراية الملك، ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد، وبينما هم فى الحرابة بهذا

(١) الأهلى والوطنى، وهى الميليشيا الشعبية .

المحل إذ انتشر البيرق المثلث الألوان، الذى هو علامة الحرية، على الكنائس والهياكل العامة، ودقت النواقيس الكبيرة لإعلام سائر الناس داخل وخارج باريس، ومن أهل المدينة أو غيرها، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر، فلما رأت العساكر أن النصرة للرعية، وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم، امتنع أغلبهم، وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه.

وفى اليوم التاسع والعشرين، فى الصباح، ملكت أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة، ووقع أيضا فى أيديهم قصر «التولرى» «واللوفر»، فملكوها، ونشروا عليهما بيرق الحرية، فلما سمع بذلك «صارى عسكر» المأمور بإدخال أهل باريس فى طاعة السلطان، رجع فكان هذا تمام نصرة أهل البلد، حتى أن العساكر دخلت تحت بيرق الرعية، ومن هذا الوقت نصب حكم وقتى، وديوان مؤقت لنظم البلاد، حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت «صارى عسكر» المسمى «لفييته»[(١)]، وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ويحابى عنها، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى «البوليتيقية» وليس صاحب قريحة مستخرجا للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم، خصوصا فى العلوم العسكرية، ولكن أعظم الناس مقاما، لا قريحة وفهما، وليس المراد القدح فى معرفته، بل فى انتهاء الرياسة إليه، ومما يشاهد فى سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائما على قدر المعرفة، وإن كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع، ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضا فى البلاد الحسنة التمدن، وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف الذى هو: «ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه!» كما قال الشاعر:

---

(١) لافايت (La Faytte) ماري جوزيف، ماركيز دي (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤ م) من أعلام النضال الفرنسي في سبيل الحرية، شارك متطوعا فى حرب الاستقلال الأمريكية ضد الاحتلال الإنجليزي، ومنحه الكونجرس رتبة «ماجو» ـ أرفع رتب الجيش الأمريكي يومئذ، وشارك في الثورة الفرنسية البورجوازية وعين قائدا للحرس الوطنى فى ١٥ يولية سنة ١٧٨٩ . . كما شارك في ثورة يولية سنة ١٨٣٠ م. التى يتحدث عنها الطهطاوي هنا.

إذا أبصـــرت ذا فــضل فــقــيــرا فــلا تــعــجب لفـــقـــر في يديه

فــقــد قــال النـبى مـقــال صـدق ذكــاء المرء مــحــســوب عليــه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن الســحـــاب همـى بعــقل لما أروي مـع النـخل القـــتـــادا

ولو أن الســحـــاب همـى بعــقل سـقى الهضـبات واجـتنب الوهادا

الفصل الثالث

كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح بعد فوات أوانه، وفى خلعه المملكة على ابنه

اعلم أن أوامر الملك برزت منه وهو فى بلدة «سنكلو» على القرب من باريس فالفتنة حصلت فى باريس والملك لم يكن بها، ثم إن أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه، وأن يسترد أوامره ويسترجعها، يعنى أن يكتب أمرا بأنه أرجع إليه ما كان أمر به، فلم يرض بذلك، وأرسلوا إليه فى ذلك عدة وكلاء ليستعطفوه فى ذلك ويترجوه، فلم يفده كلامهم، بل كان أضيع من دمع على طلل! وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل. فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه، فأجابوه بأنه لم يبق محلا للصلح، وأن أوان الصلح قد فات، وأنه لم يتبصر فى العواقب، ومن لم يتبصر فى العواقب لقى النوائب، وأنه لم يدقق النظر، وإلا لما حصل له ذلك.

وفى يوم الثلاثين من شهر يولية، اتفق رأى أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا يترجوا الدوق «درليان»، قريب السلطان من بدنه ثانية، بأن يكون قائم مقام المملكة، حتى تقع مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم، وكان خارج باريس، فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل إلى باريس فى الحادى والثلاثين، ونزل فى دار المدينة، وأجاب برضائه بما صنعه أهل هذا الديوان، وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك، وملخصها: أنه قد حصل لى غاية التحسر على الأمر الذى جعل باريس فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين، أو تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها، وقد امتثلت

وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل، ولا بد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمرى. ثم ختم عبارته بقوله: «والشرطة تصير من هذا الوقت حقا». يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة، وتصير متبعة، لا يحاد عنها، لكونها حقا. ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة، ثم إن شرل العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها، (شعر).

يود لو أيام الحمى رجعت   وقل أن رد شيء بعد ما ذهبا

فما كان ذات يوم فى «سنكلو» إلا وخرج ابنه «الدوفين»[1] فى ساحة، وجمع فيها العساكر وأعلمهم بأن أباه ولاه ملكا، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء، ثم إن الملك لما ولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين فى شهر يولية، وبقى «الدوفين» وحده ينتظر عاقبة توليته، فأحضر جميع من معه من العساكر وسيرها قدامه ليرى كيفيتها، فلما أعلم أنها لا ترضى بالمحاربة معه، نوى السفر، وخرج من «سنكلو»، فبعد عدة ساعات من خروجه انتشر على قصر «سنكلو» البيرق المثلث، وهذا القصر هو سراية السلطان فى هذه البلدة، فوصل السلطان وأتباعه فى «رنبوليا» أول شهر أغسطس، وفى اليوم الثانى من هذا الشهر بعث شرل العاشر وابنه «الدوفين» ورقه للدوق «درليان» قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق «دبردو»، حفيد الملك، وابن أخ «الدوفين»[2] وأنهما جعلا الدوق «درليان» وكيله ووليه حتى يبلغ رشده، وطلبا منه فى هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ليؤمنوهما فى خروجهما من فرانسا، فعرض الدوق «درليان» ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ليؤمنوه فى خروجه من فرنسا، ثم أنه جاء الخبر فى باريس أن الملك لم يرض الخروج حالا، فوجهوا إليه جملة من العساكر ليكرهوه حالا على الخروج، فبمجرد سماعة بذلك أجاب بالخروج متوجها إلى بلاد الإنكليز، (شعر):

---

(١) (لقب لولى العهد (Lr Dauphin)

(Le Cucdcrléens) (٢)

والدهر طورا بعز يقضي، وطورا بهون!

وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة بباريس، فكان الأمر والنهى له ولدواوين المشورة، فأول ما صنعه تقرير بقاء الثلاثة ألوان، التى هى علامة على حرية الملة الفرنساوية، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير، وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك ويخطب على منبر بكلام فصيح يذكر فيه ما صنعه من التحسين فى بلاده وما هو عازم على فعله فى سنته، ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاما وجيزا مضمونه أنه يتحسر على الخطر الذى حصل لمدينة باريس عقب هتك قوانين المملكة، ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى بعثها له شرل العاشر وابنه «الدوفين»، المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق «دبردو»، وأنهما يسميانه «هنرى الخامس» لأنه تقدم فى فرانسا أربعة ملوك كل منهم يسمى «هنري»، ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة، وصار ديوان المشورة يفتح كل يوم للتدبير.

الفصل الرابع

(فيما انحط عليه رأى أهل المشورة وفيما ترتب)
(على هذه الفتنة من تولية الدوق «درليان» ملك الفرنساوية)

إعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرانسا المستقبلة، وقد أسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة، حتى أنهم فى المشورة مختلفون فى الموضع، فمنهم الملكية يجلسون فى الجهة اليمنى، والحريون فى الجهة اليسرى، والتابعون لآراء الوزاء فى الجهة الوسطى، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له، لأن العبرة بكثرة الأصوات، ولا زال هذا الأمر معمولا به إلى الآن، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك، فكان أصحاب الآراء فرقتين: فرقة تريد المملكة، وفرقة تريد الجمهورية، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق«دبردو»، حفيد الملك القديم، ومنهم من كان يريد تولية ابن نابليون الذى هو «بونا بارته»، ومنهم من كان يريد تمليك الدوق «درليان» قائم مقام المملكة، وعيلة «درليان» هى العيلة الثانية الوارثة للمملكة بعد انقراض العيلة الأولى البكرية، وهى عيلة «البربون»، ثم إنه ظهرت ورقة مطبوعة ولصقت فى الحارات والمشارع العامة، مضمونها: قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد الفرنساوية، وأما الدوق «دبردو» فتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم البربون فتقع الفرنساوية فيما فرت منه، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين، وهم أعداء الحرية، فتعين الدوق «درليان». وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأى:

«**المادة الأولى**: أن الكرسى فارغ حسا ومعنى، ولا حق لأحد فيه، فلا بد من شغله بأحد.

الثانية : من أغراض الفرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الدالة على الاستعلاء من الشرطة، التى هى كتاب قوانين المملكة، لأن بقاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنساوية، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة، وتبدل بغيرها، حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة، ثم بعد تمام ذلك يطلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سعادة الدوق «درليان لويز فليب» قائمقام المملكة لأن يكون ملكا، وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور، ثم بعده لأكبر أولاده، وهكذا، يعنى أن الملك إذا مات انتقلت المملكة لأكبر أولاده، فإذا مات وحصل له عذر كانت لابنه الأكبر، وهكذا، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط وبصيغة المبايعة التى يعينها له أهل المشورة، وأن يلقب ملك الفرنساوية لا ملك فرانسا».

والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا، بخلاف ملك فرانسا فإن معناه أن أرض فرانسا ما دامت باقية فهو سيدها وملكها ولا منازع له من أهل بلاده فيها، وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرانسا، وكان إذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته: أنا فلان، بفضل الله تعالى، ملك فرانسا ونوار، على كل من يرى هذه الأوامر الحاضرة سلام، قد أمرنا ونأمر بما سيأتى لنا. وقوله ملك فرانسا ظاهر وأما قوله ملك نوار فإن هذا لقب اصطلاحى له لمجرد الشرف، وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرانسا كانوا يحكمون على مملكة نوار ثم انتقلت منهم إلى ملوك أسبانيا فصارت حصة منها، وبقى اللقب لملك فرانسا. وأما ملك الفرنساوية فإنه يقول فى كتابته: أنا فلان ملك الفرنساوية منى السلام على من حضر فى الحال والاستقبال، قد أمرنا ونأمر. ففرق بين عبارة الأول والثانى، فإن الأول جعل نفسه ملك مجموع فرانسا ونوار، بإنعام الله سبحانه وتعالى عليه، والثانى جعل نفسه ملك الفرنسيس، ولم يقل بفضل الله، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لإرضاء الفرنساوية، فإنهم يقولون إنه ملك الفرنسيس بإرادة ملته وبتمليكهم له، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عيلته من غير أن يكون لرعيته مدخلية فظهر من هذا أن قوله: بفضل الله، معناه عندهم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه، كما أن قوله: ملك فرانسا،

معناه صاحب الأرض والسلطنة عليها، وإلا فلو كان عندنا لاستوت العبارتان! فإن كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان، ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم!

ثم بعد تمام المشورة بعث إليه أهلها عدة رسل، فقرأ عليه رئيس الرسل ما اتفق عليه أهل ديوان المشورة، فأجاب حالا بقوله: «قد سمعت والقلب فى اضطراب، ما عرضتموه علىّ من خلاصة مجلس المشورة من انتخابى، للمملكة، ولقد صح عندى أن عبارتكم الصادرة عنكم هى أيضا عبارة لسان حال الرعية بتمامها، وظهر لى أن ما صنعتموه فى القوانين يناسب ما ذهبت إليه فى السياسات التى مارستها مدة حياتى، ولكن حصل لى من ذلك انفعال عظيم، لأننى لست أنسى مدة حياتى ما قاسيته سابقا من الأهوال، حتى أننى كنت عزمت على أن لا أطمع أبدا فى قضية السلطنة، ونويت على أن أعيش خاملا مرتاحا بين عيالى، ولكن حبى لعمار بلادى غلب ذلك، فهو جدير بأن أوثره عليه، حيث قد أيقنت أن الضرورة دعت إليه». ثم أنه عين اليوم الذى يتوّج فيه فى ديوان رسل العمالات، فلما جاء اليوم الموعود جاء فى الساعة المتفق عليها بموكب عظيم، من غير خفر سلطانى، ومن غير جلساء، وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب إنما هى بذلك، وكلما مشى خطوة حياه جميع الناس من الجوانب بقولهم: حفظ الله الدوق «درليان»، حفظ الله الملك، فلما دخل الديوان ركب مصطبة بقرب الكرسى، وسلم على أهل المجلس ثلاث مرات، ثم جلس على دكة أمام الكرسى ابنه الأكبر عن يمينه والثانى عن يساره، وخلفة أربع وزراء فى العسكرية يلقبون بالمارشالات، جمع مارشال، وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنساوية، وهو دائما مضاف إلى فرانسا فيقال: مارشال فرانسا، وبالفرنساوية: مارشال دفرانسا - والدال علامة على الإضافة بين المضاف والمضاف إليه، مثل اللام المقدرة فى الإضافة عندنا، فعلامة الإضافة ظاهرة عند الفرنسيس - ثم بعد جلوسه عزم على أهل ديوان البير وديوان رسل العمالات بالجلوس، ثم طلب من رئيس الديوان أن يقرأ عليه الخلاصة التى عزم عليه أهل الديوانين فيها بالمملكة فلما فرغ الرئيس من قراءتها، أجاب الدوق المذكور: «ياساداتنا»، قد سمعت، مع التأمل، خلاصة الديوانين وقد وزنت عبارتهما،

وأمعنت فيها النظر، وأقول: رضيت من غير شروط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة، وبتلقيبى ملك الفرنسيس الذى أعطيتموه لى، وها أنا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على أنى أحفظ ذلك» ثم قام الملك مكشوف الرأس ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة الآتية بترتيب وترتيل، وبصوت ثابت من غير لجلجة، وهذه الصيغة مترجمة: «أشهد الله، سبحانه وتعالى، على أنى أحفظ، مع الأمانة، الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة، مع ما اشتملت عليه من التصليح الجديد المذكور فى الخلاصة، وعلى أنى لا أحكم إلا بالقوانين المسطورة، وعلى طريقها، وأن أعطى كل ذى حق حقه بما هو ثابت فى القوانين، وأن أعمل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها». ثم صعد على كرسى المملكة وشرع يقول: «يا ساداتنا، قد حلفت فى هذا الوقت يمينا عظيما، وما جهلت بالواجبات المرتبة به علىَّ، مع عظمها واتساعها، لما أن نفسى تحدثنى أننى أوفى بها، وما قبلت المبايعة إلا عن رضى، وقد كنت عزمت على أن لا أركب أبدا الكرسى الذى أعطته لى الملة الفرنساوية، ولكن لما رأيت أن فرانسا قد جرحت حريتها، وتكدرت الراحة العامة بأرضها، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد، وجب نصب القوانين، وكان ذلك من وظيفة ديوان البير وديوان رسل العمالات، وقد وفيتهم بذلك، فما صنعناه من إصلاح الشرطة يستلزم الأمن فى المستقبل فما آمل أن فرانسا تصير مرتاحة فى داخلها ومحترمة فى خارجها، والصلح فى بلاد أوروبا يزيد ثباتا». فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات: حفظ الله الملك لويز فليب الأول. ثم سلم الملك على المجلس، وخرج مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم، وركب حصانه ومشى، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره، وربما عانق كثيرا من الناس، وكان موكبه مولعا من أهل البلد ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلى، ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه ٧ فى شهر أغسطس سنة ١٨٣٠ من الميلاد.

الفصل الخامس

(فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التى كانت السبب فى زوال مملكة الملك الذى فعل فعلته، وفى العواقب لم ينظر وطمع بما لم يظفر، كما قال الشاعر:

إن النفـوس على اختـلاف طباعـها ... طمــعت من الدنيــا بما لم تظفــر

إعلم أن الفرنساوية، بعد هذه الفتنة، اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب فى ذلك، وأيضا فإنه بمقتضى القوانين: أن الوزراء يضمنون ما يقع فى المملكة من الخلل، فهم المحاسبون، دون الملك، وليس على الملك شيء أصلا، فحملهم ثقيل، ووظيفتهم شاقة التحمل، فعليهم الوزر فى كل ما يحدث، قال الشاعر:

يتــداول النـاس الرياســة بينـهم ... وأريد حـظهــمـو فــلا أسطيع

وأكلـف العبء الثــقــيـل وإنما ... تبلى به الأتبــاع لا المتــبــوع

فـعليــهم الأثقـال يرمى حــملهـا ... وعلى الرئـيس الختـم والتوقـيع

فبرزت الأوامر فى جميع طرق البلاد أن يوقفوهم[1] إذا مروا عليهم، وقد قلنا إن رئيس الوزراء كان «بولنياق» فمسك من الوزراء أربعة، منهم هذا الأمير المذكور، وصورة القبض عليه: أنهم وجدوه خارجا من بلاد فرانسا فى صورة خادم لامرأة عظيمة، فعرفوه وأوقفوه، وخفره الخفر الموجود فى الطريق خوفا من الرعية، ثم أعلموا بذلك الديوان فى باريس، فكتب هو مكتوبا إلى ديوان مشورة

(١) أى يعتقلوهم.

البير، وقد كان من رجال المشورة، يقول فيه: إنه لا معنى للقبض عليه حيث إنه من أهل هذا الديوان، واحتج «بالمادة الرابعة والثلاثين» من الشرطة: «لا يمكن أن يحبس أحد من أهل ديوان البير إلا بأمر أهل ذلك الديوان، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات». فما كان جوابهم إلا أنهم اجتمعوا وقرءوا مكتوبه، ثم تشاوروا، فكانت خلاصة المشورة الإذن بالقبض عليه وحبسه حتى يحكموا عليه، فجيء به إلى بلدة «ونسينه» بقرب باريس، وحبس فى قلعتها، ثم قبض على الثلاثة الآخرين وحبسوا معا من غير أن يحصل لأحد منهم شيء من الترذيل أبدا مدة حبسهم، ثم أنه مدة حبسهم بنوا لهم محلا عظيما فى ديوان مشورة البير لتسمع دعواهم فيه، وجعلوه بناء متينا وثيقا على صورة عظيمة. حتى لا يمكن للرعية الهجوم عليه لأذيتهم، ولا لإحبابهم أن يخلصوهم من الحبس، وكلفوا ذلك أموالا لها وقع عظيم، ثم جاءوا بهم إلى هذا المكان، وحبسوهم فى محل منه، وصاروا يأتون بهم كل يوم، وكانت دعوتهم من أعظم ما يتعلق غرض الإنسان بسماعه، ومن أجلّ ما يدل دلالة فعلية على تمدن الفرنساوية وعدل دولتها، ولنذكر لك بعض شيء منها فنقول:

إعلم أن ملك الفرنسيس الجديد لما تولى تعلقت إرادته بعزل سبعين رجلا من أهل مشورة البير الذين كان ولاهم شرل العاشر الملك السابق، ثم سمى منهم تسمية جديدة من كان على غرضه، فلو كان هؤلاء السبعون فضلوا من أهل الديوان لكانوا يحابون عن الوزراء، فكان أغلب أهل ديوان مشورة البير أعداء لهم، إلا أن التمسك بالقوانين وطيب نفوسهم فى الجملة، وعدم ميلهم بالطبيعة إلى الظلم، كان سببا فى نجاة الوزراء المذكورين. ومما يتعجب منه أن الوزير «بولنياق» حين القبض عليه أراد أن يختار واحدا عنه من العارفين بالأحكام فلم يختر إلا «مرتنياق» أحد الوزراء المعزولين قبله، ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة! وأعجب من ذلك أن الآخر الذى هو «مرتنياق» وفّى بذلك مع غاية الأمانة التامة، وبذل ما عنده من المعارف لدفع الإيرادات[1] عن موكله، وكذلك كل واحد من الوزراء المقبوض عليهم وكل محاميا له.

---

(١) أي التهم الواردة عليه.

ثم لما فتحوا الدعوى أرسلوا لكل واحد من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه مع غاية الرفق واللين، وكيفية أول ما يسأل به: ما اسمك؟ ما وصفك؟ ما منصبك؟ ما رتبتك؟ فيجيب بأجوبة هذه الأسئلة، ولو كانوا يعرفون ما ذكر، ثم قالوا لكل واحد منهم: أتقر بأنك وضعت خط يدك تحت أوامر الملك؟ قال: نعم، ولأى شىء فعلت ذلك؟ فيجيب بأن الملك أراده، ولأى شىء أراد الملك فعل ذلك؟ وهل عزم عليه من قديم الزمان؟ أو الآن فقط؟ وقد كان كل منهم يجيب فى مثل هذه الأسئلة بقوله: لا أفشى سر ديوان حضرة الملك أصلا! مع غاية التعظيم فى المجلس لملكهم المعزول! ولم يتفوه أحد منهم بشىء من أسرار الديوان أبدا، ولم يكرههم أحد على ذلك.

ثم بعد سؤالهم وانتهائه، وكتب خلاصته، جاء المحامون عنهم ومكثوا أيضا عدة أيام ليظهروا أن الوزراء بريئون من الذنوب، وأن مقصدهم كان حسنا. وهكذا.

فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى، ثم قضت بما هذه صورته: من حيث أن الوزراء وضعوا أيديهم تحت الأوامر المخالفة لقوانين المملكة، ومن حيث أنهم هتكوا حرمة القوانين تقريبا، ومخالفتها، حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم، وتجريدهم من أوصاف الشرف وألقابه، وحكمت على «بولنياق» زيادة على ذلك بالموت الحكمى» - وهو نظير مسألة من انقطع خبره وحكم بموته القاضى باجتهاده بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا - والموت الحكمى عند الفرنساوية، ويقال له: الموت المدنى، هو أن يكون حكم الحى كحكم الميت فى كثير من الأحوال، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته، مثل ما إذا مات حقيقة، ولا يصح أن يرث غيره بعد ذلك ولا أن يورث غيره الأموال التى ملكها بعد ذلك، ولا يمكنه أن يتصرف فى أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية، ولا يجوز إهداؤه ولا الوصية له إلا بالقوت، ولا يجوز أن يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية، ولا تقبل دعواه، ولا ينعقد نكاحه بل ينفسخ نكاحه الأول بالنظر للأحكام المترتبة عليه، ولزوجته وأولاده أن يصنعوا فى أمواله أو فى

أنفسهم كما لو مات هو حقيقة. وبالجملة، فهو حى ملحق بالموتي! ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس، وكانت ذريته حسنة التربية، كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم، لكون عيلته تعتقد أن من باب التعدى المحض، وإنه ناج بينه وبين مولاه، ولا تفارقه زوجته أصلا لاعتقادها أنها فى عصمته باطنا، ولو ولدت منه بعد ذلك ولد أورثه الأخوة معهم، وإن كان هذا خلاف الأحكام المترتبة على الموت الحكمي.

ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لا بد من الحكم عليهم بالموت الحقيقى، فأخبرهم أهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والإنصاف، وأن كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء إذا حصلت منهم خيانة، وإنما حكمت المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم.

ويصلح فى حقهم قول الشاعر:

فهم من المجد فى حضيض ... وهم من الجد في الروابي

وهم إذا فتشوا وعدوا ... أعز من عودة الشباب!

ثم ليلة أن حكم عليهم، قبل أن يطلعوهم على خلاصة المشورة، أخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بنى لأجلهم، وخفروهم إلى قلعة «ونسينة» فحبسوهم بها، ومنها نقلوهم إلى قلعة أخرى. وهم محبوسون بها إلى الآن، والحكم عليهم بهذه الكيفية مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنساوية.

الفصل السادس

(فيما كان بعد الفتنة فى سخرية الفرنساوية على شرل العاشر، وفى عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك)

اعلم أنه جاء إلى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر فى أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة، وإن أظهروا الفرح والسرور به، فبمجرد ما وصل هذا الخبر إلى رئيس الوزراء «بولنياق» أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور، ولقد صدق من قال:

وكم سرور طيه أحزان لأجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه، حيث إن مراده نفذ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر، فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك، حتى أن مادة الجزائر نسيت بالكلية، وصار الناس لا يتحدثون إلا بالنصرة الأخيرة، على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط، وأخذ منها ما يملكه، وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه! وللزمان صروف تدول، وأحوال تجول. وكأن هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضى ذلك، بل لمجرد إرضاء هوى النفس، وإذا نصر الهوى بطل الرأي!

ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله، سبحانه وتعالى، على ذلك، جاء إليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة، فمن جملة كلامه ما معناه: أنه يحمد الله، سبحانه وتعالى، على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية، ولا زالت كذلك. انتهى. مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر إنما هى مجرد أمور سياسية،

ومشاحنات تجارات، ومعاملات ومشاجرات ومجادلات، منشأها التكبر والتعاظم! ومن الأمثال الحكمية لو كانت المشاجرة شجرا لم تثمر إلا ضجرا! فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران، بعد هروبه، وخربوه وأفسدوا جميع ما فيه، حتى أنه تخفى ولم يعلم له أثر، ثم ظهر واختفى ثانية، وهجم على بيته ثانيا، ولا زال مذموما مخذولا.

قال الشاعر:

لا تعجبن رويدا أنها دول ... دنيا تنقل من قوم إلى قوم

ثم إن الفرنساوية لما رأوا أن شرل العاشر أخرج باشا الجزائر من مملكته أيضا صاروا يهزءون بشرل العاشر، ويصورونه هو وباشا الجزائر فى الطرق، ويكتبون فى وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة، فمن جملة ذلك أنهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر:

«وأنت أيضا جاءت نوبتك»؟! كأن الباشا يقول للملك، استفهاما، لهزؤا به: وأنت أيضا عزلت كما عزلتني! (شعر):

فقل للشامتين بنا رويدا ... أمامكم المصائب والخطوب

وقال آخر:

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ... ممن تطيشه المناصب والرتب

كم نعمة زالت بأدنى زلة ... ولكل شىء فى تقلبه سبب

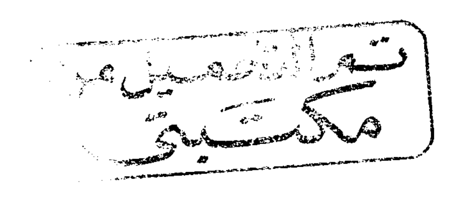
وكتبوا أيضا فى وقائع النوادر ما نصه: «الباشا المذكور يقول لشرل العاشر: «قم بنا نلعب لعب كذا، على قدر معلوم، وإن لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا على سبيل الصدقة من الناس»! يشيرون بذلك إلى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا، وشرل العاشر خرج من بلاده فقيرا.

وصوروا أيضا الملك المذكور فى صورة أعمى يتكفف الناس، ويقول فى سؤاله: أعطوا بعض شىء للفقير الأعمى! يشيرون إلى أنه لم يتبصر فى عواقب الأمور.

وصوروه أيضا هو ووزيره بولنياق خارجين من كنيسة، إشارة إلى أنهما لا

يفلحان إلا فى هذه العبادة الباطلة، وأنهما قسوس لا أمراء، وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس فى بعض الأحيان لبس القسيسين ويقدس بالناس كالقسيس فى كنيسته التى فى سرايته، وكانوا يصيحون فى البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة فيها عشق هذا الملك وفساده فى صغرسنه، وفسق المطران الكبير، وهكذا، وبأن ابن ابنه ليس هو ابن حقيقى، وإنما هو ابن مزور، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها فى ساحة بيت الملك الجديد، الذى هو من أقارب الملك، وأعجب من ذلك أنهم يكتبون فى هذه الورقة أن الملك الجديد هو الذى كتب ذلك سابقا فى جرنالات الإنكليز بعد ولادة حفيد الملك القديم، ويصيحون بذلك ولا أحد ينكر عليهم، لما أن حرية الرأى قولا وكتابة تقضى بذلك.

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من ذلك، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم وتولية حفيد الملك السابق. ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار إلى الآن، وربما تعدت آثارها إلى غيرها من البلاد، فمن ذلك الفتنة التى ترتب عليها انعزال إقليم البلجيك من مملكة الفلمنك، وقد كان جزءا منها، ومن آثارها أيضا طلب بلاد الحرية والخروج من حكم الموسقوبية، ومنها الفتن التى وقعت فى بلاد إيطاليا.



الفصل السابع

(فيما كان من دول الإفرنج بعد سماعهم بانعزال الملك الأول وتقليد المملكة للملك الثانى، وفى رضائهم بذلك)

لا يخفى أن العيلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدولة الإفرنجية على السلطان نابليون وإخراجه ونفيه إلى جزيرة سنت هلينة، وترجيع هذه العيلة إلى البلاد بعد أن كانت فى البلاد الغريبة، فتملك هذه العيلة إنما هو بمعاهدة ملوك الدول الإفرنجية، فهى فى الحقيقة مملكة على فرنسا رغما عن أنف غالب الفرنساوية، فلما وقعت الفتنة خشى الفرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش إلى بلادهم وينصبون كرسى هذه العيلة، فتخلصوا من ذلك بتملك العيلة الأخرى التى هى عيلة «أرليان»، ولكنهم لم يعلموا هل ترضى الملوك بذلك أو لا، وعزموا على أنهم إذا لم يرضوا بذلك وجاؤا لمحاربتهم حاربوهم، ولو حصل ما حصل، وجهزوا ما يدل على ذلك، ولنذكر لك هنا نسبة ملوك الإفرنج بالنظر لهذه المادة، فنقول:

إعلم أن ملك أسبانيا يوافق بسياسته وسلوكه سياسة ملك فرانسا القديم، وهو أيضا من أقاربه، لأن العيلة التى تحكم ببلاد أسبانيا من العيلة التى تحكم ببلاد فرانسا، فهى تميل إليها ظاهرا وباطنا، ومثلها فى ذلك الميل بلاد البرتوغال، فهاتان المملكتان لا يحصل منهما شيء يخاف به على العيلة القديمة. أما بلاد إيطاليا فإن دولة نابلى ودولة رومة ودولة سردينا توافق أيضا فى سياستها سياسة «البربون»، يعنى العيلة القديمة، فحينئذ ملوك هذه الدولة تأثرت باطنا بما وقع فى بلاد الفرنساوية. وأما دولة المسقو ودولة النيمسا ودولة البروسة والإنكليز فإنها متعاهدة على تولية عيلة «البربون» القديمة المملكة، فهى أيضا تأثرت بذلك نوع تأثر،

وخصوصا الدولة المسقوبية، وأما الدول الصغيرة ببلاد الإفرنج فإنها تابعة للدول الكبيرة، فلم يبق مع دولة الفرنساوية الجديدة إلا بعض أقاليم صغيرة تريد الحرية، غير أن أهل دولة الإنكليز أظهرت الرضى مما وقع، فلذلك ملكهم كان أول من اعترف بالمملكة لملك الفرنساوية الجديد، وقد جرت العادة أن الملك إذا تولى لا بد من أن يعترف له الملوك بالتملك، ويقروه على ذلك، وهو من الرسوم غالبا، يقال إن حضرة مولانا السلطان الأعظم لما سمع بذلك، وأخبره «الإيلجي» أجاب بأنه لا يصنع شيئا حتى يرى ما تصنعه ملوك الإفرنج، فإن أقروه على ذلك أقره أيضا، ومدخلية الدولة العلية في ميدان دوائر الدول الإفرنجية قليل. وممن توقف في الإقرار مدة طويلة ملك الموسقو، ثم بعد ذلك أقره بشرط أن لا يتغير شيء في ميزان بلاد الإفرنج، يعني أن بلاد الإفرنج تبقى على ما هي عليه من غير أن يحصل بها راجحية أو مرجوحية في السياسة، بمعنى أن مملكة فرنسا مثلا لا تزيد عما كانت عليه قبل الفتنة، والظاهر أن أكثر الملوك التي أقرت ملك الفرنساوية الجديد إنما أقرته على ذلك ورضيت بما وقع رضاء وقتيا، حتى إن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به كأنها لا تثق بذلك الصلح الذي تراه كأنه هدنة وتعليق، ولما خرجت من فرانسا كان جميع الناس يتوقع فيها إشهار الحرب وظهوره بين النمساوية والفرنساوية والموسقوية أو الإسبانيول أو البروسة، والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون. وللفرنساوية الآن التئام مع الإنجليز لم يسبق مثله أبدا، وأما الكلام على الرجوع فراجعه في خاتمة الرحلة.

المقالة السادسة

(فى ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة، وهى تشتمل على عدة فصول).

الفصل الأول

(فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الإفرنج)

إعلم أن الإفرنج قسموا المعارف البشرية إلى قسمين : علوم، وفنون، فالعلم : هو الإدراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين، وأما الفن : فهو معرفة صناعة الشيء على حسب قواعد مخصوصة. ثم إن العلوم تنقسم إلى رياضية وغيرها، وغير الرياضية تنقسم إلى طبيعيات وإلهيات، والعلوم الرياضية هى الحساب، والهندسة، والجبر والمقابلة.

والعلوم الطبيعية هي : تاريخ الطبيعيات، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشايش والأعشاب، وعلم المعادن والأحجار، وعلم الحيوانات، وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات، ومرتبة المعادن، ومرتبة الحيوانات.

وأما الإلهيات فتسمى أيضا علم ما وراء الطبيعيات، أو ما فوق الطبيعيات.

وأما الفنون فإنها تنقسم إلى فنون عقلية، وإلى فنون عملية، فالفنون العقلية ما يكثر قربها من العلوم، مثل علم الفصاحة والبلاغة، وعلوم النحو والمنطق، والشعر والرسم، والنحاتة، والموسيقي، فإن هذه الفنون عقلية لأنها تحتاج إلى قواعد علمية، وأما الفنون العملية فهى الحرف.

هذا هو تقسيم حكماء الإفرنج، وإلا فعندنا أن العلوم والفنون فى الغالب شيء واحد، وإنما يفرق بين كون الفن علما مستقلا بنفسه، وآلة لغيره.

ثم إن العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هى الحساب، والهندسة، والجغرافيا، والتاريخ، والرسم، ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنساوية، وما يتعلق بها، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها.

الفصل الثانى

(فى تقسيم اللغات من حيث هى، وفى ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية)

إعلم أن اللغة لما كانت ضرورية فى إفهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه، وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم، وفى المخاطبات والمحاورات، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يبتدىء بها، ويجعلها وسيلة لما عداها. واللغة من حيث هى الألفاظ المخصوصة الدالة على المعانى المخصوصة، وطريقها الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم، وهى قسمان: لغات مستعملة، ولغات مهجورة، فالأولى ما يتكلم بها الآن كلغة العرب والفرس والترك والهند والفرنسيس والطليانية والإنكليز والإسبانيول والنيمسا والموسيقو، والثانى ما انقرض أهله واندثر أربابه ولم يبق إلا فى الكتب مثل اللغة القبطية واللاطينية واليونانية القديمة المسماة بالإغريقية، ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى المخاطبات نافعة لمن أراد الاطلاع على كتب المتقدمين، وفى بلاد الإفرنج توجد مدارس مخصوصة معدة لتعلم هذه الألسن، لما يعلمون من نفعها. وكل لغة من اللغات لا بد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة، وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية «أغرماتيقا» وباللغة الفرنساوية «أغرمير»، ومعناها تركيب الكلام، يعنى علم ضبط اللغة بنحوها، فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى، وهو مرادنا هنا، فهو علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال، والكلام ما قصد به إفادة المستمع معنى يحسن عليه السكوت، وهو يتركب من الكلمة وأقسامها، عند أهل اللغة العربية: ثلاثة: الاسم، والفعل، والحرف والاسم إما مظهر نحو زيد أو مضمر نحو هو أو مبهم نحو هذا، والفعل إما ماض كضرب أو مضارع كيضرب أو

أمر كاضرب، والحرف إما مختص بواحد من قسيميه كمن وقد أو مشترك بينهما كهل وبل.

وإنما قسمنا هذا التقسيم هنا لأنه سيأتى لنا أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الإشارة قسيما للاسم، ولا يعدان منه بوجه من الوجوه، وأما الفرنسيس فإنهم جعلوا أجزاء الكلمة عشرة كل واحد منها قسم مستقل له علامة وهى الاسم، والضمير، وحرف التعريف والنعت، واسم الفاعل، واسم المفعول، والفعل، والظرف، ويسمى عندهم مكيف الفعل، وحروف الجر وحروف الربط، وحروف الندا، والتعجب، ونحوه، فيقولون فى تعريف الضمير: هو ما يقوم مقام الاسم، وحرف التعريف هو أيضا عندهم لام التعريف كما عندنا، إلا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه، فإنه للمذكر «ل» بالضم، وفى المؤنث «ل» بالفتح، ولجميعهما «لس» ولكن السين لا ينطق بها، ويقولون فى تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف كحسن وجميل، فهو نظير الصفة المشبهة، وأما اسم الفاعل واسم المفعول فإنهما نحو ضارب ومضروب، والظرف عندهم مثله فى لغة العرب، وحروف الجر مثل الظروف وحروف الجر فى اللغة العربية، فإذا قال الإنسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده فإن قبل وبعد من حروف الجر عندهم، وإذا قال جاء زيد أولا أو قبل أو نحو ذلك فإنه ظرف، وأما الحروف الروابط فإنهم يعرفونها بأنها ما تتوسط بين كلمتين أو جملتين نحو «واو» العطف فى قولك جاء زيد وعمرو ونحو «أن» فى قولك أومل أن أعيش زمنا طويلا، ومن هذا القسم إذن «حينئذ» من نحو قولك: أنت عاقل فإذن أنت قابل للتعلم أو أنت فحينئذ قابل، وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة. وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم.

ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة فى سائر اللغات، وأن الحصر عقلى لعلة استقلالها بالمفهومية وعدمه، ودلالة ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شيء.

ثم إن كل إنسان يعبر عن مقصوده إما بالكلام أو بالكتابة فكلامه يسمى عبارة ومنطقا، وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى نفسا ومسطرة وقلما، فقد يكون قلم الإنسان أفصح من عبارته، فإنه قد يكون الإنسان ألكن ويكون قلمه فصيحا، ثم أنه

إذا أفصح وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية، وإن كانت عبارته مؤدية للمقصود من غير ركاكة فهى مناسبة، وإن كان بها بعض شىء يمجه السماع فهى ركيكة أو رديئة، وعلى كل فالعبارة إما بها إطناب، أو اختصار، أو على الأصل، ثم إن الكاتب إما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر، وعلى كل فإما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة فى المحاورات المسماة الدارجة، أو باللغة الموافقة، فقواعد النثر هى الأصل فى الكلام والتأليف ولا يحتاج إلى وزن وتقفية إلا فى السجع، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما، وأما لغة الفرنسيس فلا تنظم فيها كتب العلوم أصلا، والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات وقوة الأسباب الداعية لنظمه، ويعجبنى قول بعضهم موريا:

صوغ القريض على اختلاف رجاله ... ما بين حصبا لا تعد وجوهر

وإذا أردت بأن تفوز بدره ... نظما فخذه من صحاح الجوهرى

ولبعضهم:

يا من يقول الشعر غير مهذب ... ويسومني التكليف في تهذيبه

لوكان كل الخلق فيك مساعدى ... لعجبت عن تهذيب ما تهذى به

وقال بعضهم فى فقد الأسباب:

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة ... باب الدواعى والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح يعشق

وقال آخر:

الشعر لا يخفى عليكم حاله ... قد بار واأسفاه بعد نفاق

وارحمتا لبنى القريض فإنهم ... ماتوا وهم أحيا من الإملاق

ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب، فإن كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم

شعرها، نعم، فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها فى لغة العرب وحصره فى البحور الخمسة عشر المستعملة هو لخصوص اللغة العربية، وليس فى اللغة الفرنساوية تقفية النثر[1]، ومعرفة فى النظم لا تكفى فى نظم الشعر، بل لا بد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعية، وإلا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول.

إلى العربى مل فى نظم شعر　　فذاك لسان أرباب الكمال

فشعر الفرس أسكرنا بجام　　وشعر الترك طرز بالخيال

ولنذكر هنا خلاصة صغيرة من الأشعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات، فنقول: قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب فى الغزل قول جرير:

إن العيون التى فى طرفها حور　　قتلتنا ثم لم تحيين قتلانا

يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به　　وهن أضعف خلق الله إنسانا[2]

ولنذكر هنا حكاية لطيفة، وهى أنه دخل أعرابى على ثعلب، فقال له: تزعم أنك أعلم الناس بالأدب؟! فقال: كذا يزعمون، فقال: أنشدنى أرق بيت قالته العرب وأسلسه، فقال: قول جرير: إن العيون. . إلى آخره، فقال: هذا الشعر غث رث قد لاكته السفلة بألسنتها، هات غيره! فقال ثعلب: أفدنا من عندك يا أعرابى، قال: قول مسلم بن الوليد، صريع الغوانى:

نبارز أبطال الوغى فنبيدهم　　ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب

وليست سهام الحرب تفنى نفوسنا　　ولكن سهام فوقت فى الحواجب

فقال ثعلب لأصحابه: اكتبوها على الحناجر ولو بالخناجر! فشعر مسلم بن الوليد أقوى حماسة من قول جرير، وأقول إن نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم:

خطرات النسيم تجرح خديه　　ولمس الحرير يدمى بنانه

---

(١) تقفية النثر، أى السجع.

(٢) وصدر البيت فى رواية أخرى هكذا: * يتركن ذا اللب حتى لا حراك به *

وقول ابن سهل الإسرائيلى :

إنى له عن دمى المسفوك معتذر　　أقول حملته فى سفكه تعبا

ومما يمكن نظمه فى سلك قول مسلم بن الوليد قول بعضهم :

نعد العذارى من دواهى زماننا　　وأقتلها أحداقها والمحاجر

ونشكو إليها دائرات صروفه　　وأعظمها أطواقها والأساور

ويعجبنى قول أمين أفندى الزللى فى همزيته :

واقرن صبوحك بالغبوق ولا تدع　　فرص السرور بغدوة ومساء

واعقد ببنت الحان واجعل مهرها　　عقلى وأشهد سائر الندماء

واستجلها بكرا تقلد جيدها　　بعقود در بل نجوم سماء

إلى أن قال :

واعدل عن العيدان وأرشفها على　　رقص الغصون ونغمة الورقاء

إلى أن قال :

من كف ساق فى لماه ولحظه　　وحديثه نوع من الصهباء

وبخده ورد حماه بأسهم　　عن قطفه باللحظ والإيماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازى :

لا وغصن راق للطرف ورق　　وعليه حلل الطرف ورق

وشموس لم تغب عن ناظرى　　والشعور الليل والخد الشفق

وعيون حرمت نومى وما　　حللت لي غير دمعي والأرق

ما احمرار الراح إلا خجل　　من رضاب سكرت منه الحدق

والذى قد حسبوه حببا　　فوق خد الكاس قطرات العرق

ويعجبنى قول بعضهم :

لولا شفاعة شعرها فى صبها ... ما واصلت وأزالت الأسقاما

لكن تنازل فى الشفاعة عندها ... وغدا على أقدامها يترامى

وينتظم فى سلكه قول بعضهم :

سل سيفا من لحظه ثم أرخى ... وفرة وفرت عليه الحميلة

إن شكى الخصر طولها غير بدع ... لنحيل يشكو الليالى الطويلة

ومما يفوق قول الواو الدمشقى أو يساويه :

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها ... أما غدا زعموا أولا فبعد غد

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسى بيضاء العوارض أقبلت ... بوجه كأن الشرق من حسنه غرب

وبين الإزار الملتوى حقف رملة ... وبين الوشاح الملتوى غصن رطب

وتحت لثام الخز أنفاسها لظى ... وفوق الرواء السكب أدمعها سكب

تبدت مع الأتراب تدعو على النوى ... وإن لم يكن فى الغانيات لها ترب

تسيل بعد الخد الأسيل دموعها ... وصب دموع العين يروى به الصب

وقد وكلت إحدى يديها بقلبها ... مخافة أن يرفض من صدرها القلب

فلما أجزن الجسر قمن وراءه ... كسرب من الغزلان ليس له سرب

وعضت بدر الثغر فضة معصم ... يكاد يثنيه من الذهب القلب

وكادت تحط الرحل لولا عزيمتى ... قسى جفون العين أسهمها الهدب

ومما يعد من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفر وجهى إذا تأمله ... طرفي فيحمر خده خجلا

حتى كأن الذى بوجنته ... من دم جسمى إليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

وإذا نظرت إلى محاسنها ... فكل موضع نظرة نبل

وتنال منك بحد مقلتها ... ما لا ينال بحده النصل

شغلتك وهى لكل ذى بصر ... لاقى محاسن وجهها شغل

فلقلبها حلم يباعدها ... عن ذى الهوى ولطرفها جهل

ولوجهها من وجهها قمر ... ولعينها من عينها كحل

ومن أرق ما قيل أيضا قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهم ... لا يعرفون صبابتي وولوعى

فأجبتهم وعد الخيال بزورة ... أفلا أرش طريقه بدموعى

ومما يعجب فى الرثا قول أبى الطيب فى أبى شجاع فاتك :

يا من يبدل كل يوم حلة ... أني رضيت بحلة لا تنزع

ما زلت تخلعها على من شاءها ... حتى لبست اليوم ما لا يخلع

ما زلت تدفع كل أمر قادح ... حتى أتى الأمر الذى لا يدفع

فظللت تنظر لا رماحك شرع ... بين الأنام ولا سيوفك قطع

بأبى الوحيد وجيشه متكاثر ... يبكى ومن شر السلاح الأدمع

وإذا حصلت من السلاح على البكا ... فحشاك رحت به وخدك تقرع

إلى أن قال :

من للمعاقل والجحافل والسرى ... فقدت بفقدك نيرا لا يطلع

ومن اتخذت على الضيوف خليفة ... ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقوله أيضا فى فاتك المذكور :

لا فاتك آخر فى مصر تقصده ... أضحى تشابهه الأموات فى الرمم

من لا تشابهه الأحياء فى شيم ... ولا له خلف فى الناس كلهم

عدمته وكأنى سرت أطلبه ... فما تزيدنى الدنيا على العدم

إلى أن قال :

الدهر يعجب من حملى نوائبه ... وحمل جسمى على أحداثه الحطم

وقت يضيع وعمر ليت مدته ... فى غير أمته من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه فى شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم

والجملة والتفصيل فأحسن وأظرف سائر ما قيل :

سلوت عن الأحبة والمدام ... وملت عن التهتك والهيام

وسلمت الأمور إلى إلهى ... وودعت الغواية بالسلام

وملت إلى اكتساب ثواب ربى ... وقدما طال عزمى بالغرام

وما أنا بعده معط عنانى للهـ ... ـوى لكن ترى بيدى زمامي

أبعد الشيب وهو أخو سكون ... يليق بأن أميل إلى غرام

فشرب الراح نقص بعد هذا ... ولو من راحتى بدر التمام

فكم أجريت فى ميدان لهو ... خيول هوى وكم ضربت خيامى

وكم قبلت وردا من خدود ... وكم عانقت غصنا من قوام

سأوتى الكأس تعبيسا وصدا ... وإن جاءت تقابل بابتسام

عزمت على الرجوع عن المناهى ... ومثلى من يدوم على اعتزام

الفصل الثالث

(فى فن الكتابة)

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم، وأغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات، ومبدوءة بحرف الألف، إلا عند الحبشة فإن حرف الألف هوالثالث عشر، وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم، وهى روح المعاملات، وإحضار الماضى، وترتيب المستقبل، ورسول المراد، ونصف المشاهدة.

ثم إن العرب والعبرانيين والسريانيين يكتبون من اليمين إلى الشمال، والصينيون يكتبون من أعلى إلى أسفل وتكتب الإفرنج من الشمال إلى اليمين، وهل الأوفق، طبعا، الكتابة من اليمين إلى الشمال، كما تكتب العرب وغيرهم، ممن ذكر معهم؟ أو العكس، كما تكتب الإفرنج؟؟.. مما يدل على الأول ترتيب الأعداد، فإنها مرتبة طبعا وهى تبتدىء من اليمين إلى اليسار، فالآحاد التى هى أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات، والعشرات كذلك بالنسبة للميات، وهى كذلك بالنسبة للألوف، وإذا كانت الأعداد أصولا لغيرها، يعنى أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها. دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل، وثبت نقيضه، وهو المراد. وحاول الإفرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط، فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع، فمن باب أولى يقال إن الكتابة من أعلى لأسفل مخالفة لمقتضى الطبع، ويقال إن العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن أيوب عليه السلام. وقد وقع الاختلاف فى أنها من أوضاع أى ملة، فقال بعضهم: إنها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين، واستظهر الأول، فعليه

تكون انتقلت من السريانيين إلى اليونان، بدليل أن الحروف اليونانية هى عين السريانية إلا أنها انقلبت من الشمال إلى اليمين، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم. وجودة الخط تدل على الفضل، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل، وقد تنازع الشعراء فى التفضيل بين السيف والقلم، ثم بين قلم الإنشاء والحساب، وأشار المتنبى إلى تفضيل السيف فى قوله:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

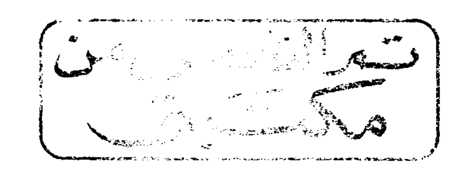
وأشار السيوطى فى (كتاب الأوائل) إلى تفضيل القلم على السيف حيث قال:

الكتب عقل شوارد الكلم ... والخط خيط فرايد الحكم

بالخط نظم كل منتشر ... منها وفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه ... فرض عليه عبادة القلم

وتمام رفع المنازعة فى (تاريخ الدول) لابن الكرديوس فى قوله: قوام المُلْك شيآن: السيف، والقلم، والثانى مقدم على الأول، وبرهن على ذلك. والظاهر أن يقال فى ذلك ما قيل فى الكتابتين من أن صناعة الإنشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع، فيقال: إن السيف أرفع من القلم والقلم أنفع منه.



الفصل الرابع

(فى علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع)

وهو علم تحسين العبارة، أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال، والمقصود منه، على العموم، توصل الإنسان إلى الإفصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه.

وهذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية، بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات، فإنه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الإفرنجية يعلم «الريثوريقى»، نعم، هذا العلم فى اللغة العربية أتم وأكمل منه فى غيرها، خصوصا علم البديع، فإنه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية لضعفه فى اللغات الإفرنجية، وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل إعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية، ثم إنه قد يكون الشىء بليغا فى لغة غير بليغ فى أخرى، أو قبيحا فيها، وقد تتفق بلاغة الشىء فى لغتين أو لغات. كما إذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد فتقول: زيد أسد، فإن هذا مقبول فى غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها، وإذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال فتقول: هو شمس، أو عن حمرة خده فتقول: خدوده تتلظى، فإن هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية غير مقبول أصلا فى اللغة الإفرنجية، وكذلك ما يقال فى الريق ونحوه، مثل قول الشاعر:

خليلى إن قالت بثينة ما له	**أتانا بلا وعد فقولا لها لها**
سها وهو مشغول بعظم الذى به	**ومن بات طول الليل يرعى السها سها**
بثينة ترزى بالغزالة فى الضحى	**إذا برزت لم تبق يوما بها بها**

لهـا مـقلة نجـلاء كـحـلاء خلقـة	كـأن أبـاها الظبى أو أمـهـا مـهـا
دهتنـى بود قـاتلـى وهو مـتـلفى	وكم قـتلـت بالود من ودهـا دها
ومـاست بأعطاف لـطاف تهـزها	فعـاينت غصن البـان من هزها زها
وقالت وقد سارعت فى السير دونها	وقـاطعت طرقـا دونها ومـهـا مهـا
سـلافـة ريقى عـتـقث روقت	فمن لم يمت بالسكر ومن صفوها وهي
وفى الشفـة اللعسـا دوا كل مدنف	فإن كنت مـشتـاقا إلى رشفـها فـها

فاغلب التشبيهات الموجودة فى هذه الابيات غير مقبولة عندهم، لأنهم يقولون أن الطبع لا يؤلف الريق، مثلا لكونه آيلا إلى البصاق، وإذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التى لم تفتح ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيس، فمبنى البلاغة عندهم على ما يقبله الطبع. ويقال: نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر، فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علم البلاغة، كما أنه قد يحسن علم البلاغة غير البليغ، وأغلب نفع البلاغة يكون فى الشعر والخطابات ونحوها من كتب الآداب والتواريخ، وأعظم نفع ذلك العلم التوصل إلى معرفة أسرار التنزيل وإعجازه، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن شعر ونظم وكهانة فأيده الله سبحانه بالقرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فظهر لأرباب العقول الصائبة أنه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين، فآمنوا به واتبعوه، إلاّ من حق عليه العذاب، فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى، وإذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعانى والبيان والبديع.

الفصل الخامس

(فى علم المنطق)

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها إلى غيرها، والمشهور أن واضعه أرسطو الحكيم المسمى أيضا أرسطاطاليس، وفى كتب الفرنساوية أن أرسطاطاطيس هو الذى قد كمل هذا الفن، وأن أفلاطون أيضا هذبه، وأن زنون[1] وضعه، ونسبة هذا العلم للقلب كنسبة النحو للسان، والعروض للنظم، ونحو ذلك، ولهذا العلم مباد ومقاصد، فمباديه: التصورات والتصديقات، ومقاصده: التعريفات والأقيسة.

والتصور إدراك غيرالحكم، وعكسه التصديق، فإذا تصورنا حقيقة الرجل، من غير أن نحكم عليه بإثبات أونفى، كان ذلك تصورا، وإذا حكم عليه بأنه عالم مثلا فإنه يكون تصديقا.

والتصور قسمان: بسيط، ومركب، فالتصور البسيط: إدراك الشيء مجردا عن صفاته، والمركب: إدراك الشيء مع بعض صفاته، مثال الأول ما إذا تصورت الإنسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك، مثال الثانى ما إذا تصورته وميزته عن الجماد بتحركه، فالتصور لا يكون إلا فى المفردات، كما أن التصديق لا يكون إلا فى القضايا.

والقضية هى حكم يحصل بإثبات تصور إلى آخر أو نفيه عنه، فالتصور المسند

---

(١) زينون الأيلى (٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق.م)، فيلسوف يونانى، اعتبره أرسطو أول من استخدم الطريقة الجدلية.

إليه الإثبات أو النفى يسمى الموضوع، والتصور المسند إلى الموضوع مما تقدم يسمى المحمول، والموضوع والمحمول يسميان جزئى القضية، وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى: رابطة، مثال ذلك ما إذا قلت: زيد فصيح، فإن زيدا هو الموضوع، وفصيح هو المحمول، والرابطة مقدرة، والتقدير: زيد هو الفصيح أو: زيد يكون فصيحا، وأما إذا قلت: زيد هو الفصيح، فإن الرابطة ظاهرة.

ثم إن القضية إما كلية، بعنى مستغرقة لسائر الأفراد، كما إذا قلت: كل إنسان صنعة الله تعالى، وإما جزئية كما فى قولك: بعض الحيوان إنسان، وكل من القضية الكلية والجزئية مسور، وإما شخصية، وإما مهملة، فالأولى كزيد قائم، والثانية كالإنسان كاتب، بقطع النظر عن الكلية والجزئية، وإما طبيعية كما فى قولك: الظلم ردىء.

والقضية أيضا إما بسيطة أو مركبة، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول، كما فى قولك: الفضيلة حميدة، والرذيلة ذميمة، وبخلافهما المركبة فهى ما تعدد فيها الموضوع فقط أو المحمول فقط أو هما معا، كما إذا قلت: الفضيلة والرذيلة ضدان، أو: الفضيلة محبوبة مطلوبة، أو: الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان، ونحو ذلك.

وإذا كانت القضية المركبة المصنوعة من عدة قضايا بسيطة فإنها يكفى فى كذبها كذب بعض أجزائها.

وأما التعريفات التى هى مقاصد التصورات ومصححات القضايا فإنها تنقسم إلى: تعريف بالحد، وتعريف بالرسم، وتعريف لفظى، فمثال التعريف بالحد قولك: الإنسان حيوان ناطق، ومثال التعريف بالرسم قولك: الإنسان حيوان كاتب، ومثال التعريف اللفظى قولك: الإنسان هو الآدمى، إذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف من لفظ الإنسان. ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان إلى آخر، مثال ذلك إذا قدرنا أن أعجميا لا يعرف معنى كلمة «الله»، فإنك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له: «الله» هو «خداى».

وكل من الحد[1] والرسم[2] ينقسم إلى تام، وإلى ناقص، على حسب كونه بالجنس[3]. أو الفصل[4] القريب أو البعيد أو بالخاصة[5] أو بالعرض[6] العام، كل منها منفردا أو مجتمعا، وهذا كله موضح فى كتب المنطق.

وأما القياس، وهو المقصود الأصلى من علم المنطق، فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر، مثال ذلك ما إذا قلنا: «إن الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتص من الظالم للمظلوم، فإنك تقول: هكذا الله سبحانه وتعالى حكم عدل، وكل من كان كذلك فإنه يقتص للمظلوم من الظالم، فتكون النتيجة هكذا: الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم. فمتى سلمنا القضيتين الأوليين فلا بد أن نسلم القضية الثالثة، والقضيتان الأوليان تسميان: مقدمتين، وإحداهما تسمى: صغرى، والأخرى: كبرى، وروح القياس هو النتيجة.

والقياس يكون صحيحا إذا كان صحيح المادة والصورة، وفاسدا إذا فسدت إحداهما، والمراد بصحة المادة أن سائر قضاياه تكون صحيحة، والمراد بصحة الصورة أن يكون منظوما على كيفية يكون إنتاجها ضروريا، والقياس الصحيح هو المسمى بالحجة أو البرهان، وأما القياس الفاسد أو البرهان الفاسد فيسمى:

---

(١) يعرفه ابن سينا بأنه: ما تنحل إليه المقدمة من جهة ما هي مقدمة.. وينقسم إلى: أصغر وأكبر وأوسط.. انظر (المعجم الفلسفي).

(٢) هو القول الذي يعرف الشيء تعريفا غير ذاتي، ولكنه خاص. أو: قول مميز للشيء عما سواه لا بالذات. وينقسم إلى: تام، وناقص، وخيالي.

(٣) كلي مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب: ما هو، من حيث هو كذلك.

(٤) جزء من الماهية يميز النوع، كالناطق بالنسبة للإنسان، وينقسم إلى: قريب، وبعيد، وأيضا إلى: عددى، ونوعي.

(٥) يعرفها ابن سينا بأنها: من الألفاظ الكلية الخمسة، فهى الكلى الدال على نوع واحد في جواب: أى شيء هو لا بالذات، بل بالعرض. ولها عند أرسطو أكثر من معنى، فهي أحيانا ليست داخلة في ماهية الشيء، ومع ذلك تميزه عن غيره.. وأحيانا تطلق على ما يلازم الشيء على الدوام.. أو على ما يلازم الشيء ولكن ليس من حيث هو بالذات من حيث نسبته إلى شيء آخر.. إلخ.. إلخ. انظر فى ذلك (المعجم الفلسفي).

(٦) العرض: ما قام بغيره، ويقابل الجوهر، وهو قار الذات، وغير قار الذات، ولازم، ومفارق، وخاص، وعام.. إلخ.. انظر (المعجم الفلسفي).

سفسطة. وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا لعدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة.

وفى كتب الفرنسيس أن القاعدة التى ينبنى عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هى إثبات أصلين: أحدهما مبنى الصحة، والآخر مبنى الفساد، وهما أن المستلزم لمستلزم الشيء مستلزم لذلك الشىء، والنافى لشيء ناف لشيء آخر هو ناف لذلك الآخر أو ناف للاثنين معا. وكيفية تطبيق هذا على القياس أنك إذا سئلت عن الغضب. هل هو مذموم؟ فأردت أن تستدل على أنه مذموم، فإنك تبحث عن طرف القضية الذى هو الموضوع فإنك ترى من جملة تعريف الغضب أنه عيب، فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب، فتركب مقدمة هكذا: الغضب عيب، ثم تقابل العيب مع الذم، الذى هو محمول القضية، فإنك تجد أن العيب يستلزم الذم فتقول: العيب ذميم، فإذا لما رأيت أن الغضب يستلزم العيب، والعيب يستلزم الذم، فإنك تنتج منه أن الغضب ذميم، فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصل فإنه يكون سفسطة، مثال ذلك: أرسطو فيلسوف، وبعض الفلاسفة صالح، فأرسطو صالح. فإن الإنتاج فاسد، وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة، لأنه لا يلزم من كون أرسطو من أحد الفلاسفة، وأن بعض الفلاسفة صالح، أن أرسطو صالح.

وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به، كما فى قولك: الفضيلة حميدة. فينبغى كسبها.

والقياس إما حملى، أو شرطى، فكل ما تقدم مثال للحمل، ومثال الشرطي: لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا، لكن الشمس ليست بطالعة، تخرج النتيجة قائلة: فالنهار ليس بموجود. ومحل ذلك كتب المنطق.

ثم إن الإفرنج كما يطلقون الكلمات على قواعد اللغة الفرنساوية، ويسمون ذلك إعرابا نحويا، يطبقونه على قواعد المنطق، ويسمون ذلك منطقيا، فإذا أراد إنسان إعراب: زيد فاضل، إعرابا نحويا، فإنه يقول مثلا: زيد: مبتدأ، وفاضل: خبره، أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم، وإذا أراد أن يعرب إعرابا منطقيا فإنه يقول: زيد: موضوع، وفاضل: محمول، وهذه القضية قضية شخصية، ويفعلون ذلك فى سائر الجمل.

الفصل السادس

(فى المقولات العشرة المنسوبة إلى أرسطو)

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشياء المتعلقة فى عشر مراتب تسمى: مقولات، فجعل المواد داخلة تحت الأولى، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة الأخرى.

المقولة الأولى: مقولة الجوهر، وهو جسمانى وروحاني.

الثانية: الكم، وهو إما منفصل، إذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد، أو متصل إذا كانت الأجزاء مجتمعة، وهو إما متتابع، مثل حركة الفلك، أو وقار، وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم من الطول والعرض والعمق، فمن الطول وحده تتعقل الخطوط، ومن الطول والعرض تتعقل السطوح، ومنهما مع العمق يحصل الجسم التعليمى.

الثالثة: الكيف وقسمه أرسطو إلى أربعة أقسام: **فالأول**: هوالاستعدادات، يعنى تهيآت العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة، مثل العلوم والفضائل والرذائل والقدرة على الكتابة والرسم والرقص، **والثانى**: القوى الطبيعية، مثل قوة النفس والبدن كالإدراك والإرادة وقوة الحفظ والحواس الخمسة والقدرة على المشى. و **الثالث**: القوى المشاهدة، مثل الصلابة والرخاوة والكثافة والبرد والحر والألوان والأصوات والروائح والأذواق، **والرابع**: الصور والأشكال التى ينتهى بها الكم، مثل الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية.

الرابعة: مقولة الإضافة، وهى النسبة بين شيئين، مثل الأب والابن، والمخدوم والخادم، والملك والرعية، وكنسبة القدرة والإرادة لمتعلقيها، والبصر للمبصر بالقوة، وكالنسبة التى تقتضى المشاركة كالشبيه والمساوى والمباين والأصغر والأكبر.

الخامسة: مقولة الفعل، سواء كان قائما بالفاعل، مثل المشى والقيام والرقص والمعرفة والعشق، أو واقعا منه على غيره، مثل الضرب والقتل، إلى آخره.

السادسة: مقولة الانفعال، مثل الانكسار والانحراف.

السابعة: مقولة الأين، يعنى جواب السؤال الذى يتعلق بالمكان، مثل قولك: فى مصر، فى الحريم، فى الفراش.

الثامنة: مقولة المتى، وهى جواب السؤال الذى يتعلق بالزمان، كما إذا قلت: متى كان موجودا فلان؟ فقيل: من منذ مائة سنة، أو متى وقع هذا؟ فقيل: البارحة.

التاسعة: مقولة الوضع، كحالة الجلوس والوقوف، وكونه قبل أو بعد أو أمام، على اليمين أو على اليسار.

العاشرة: مقولة الملك، وهو وجود شيء مع الإنسان منسوب إليه كاللباس والزينة والسلاح، فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة.

فهذه المقولات العشرة التى ذكرها أرسطو، وعدت من الأمور الخفية، والإفرنج يقولون إنه ليس فى معرفة هذه المقولات كبير فائدة، بل معرفتها مضرة لشيئين:

الأول: أن الإنسان يظن أنها مبنية على حكم عقلى، ومحصورة بحصر استدلالى، مع أنها ليست إلا اصطلاحية جعلية، حصرها بعض الناس فى هذه الأقسام ليظهر بها الرئاسة على غيره، مع أنه يوجد فى ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقولات فى سبعة، وسماها: المواد العقلية: **المادة الأولى**: العقل، أو الجوهر الدراك، **الثانية**: الجسم، أو الجوهر ذو الامتداد، **الثالثة**: القدر، أو صغر كل جزء من أجزاء الهيولات، **الرابعة**: وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها، **الخامسة**: صورة الأشياء، **السادسة**: الحركة، **السابعة**: السكون.

الشىء الثانى: أن متعلمها يكتفى بمجرد ألفاظ وهمية، ويظن أنه على شىء، مع أنه لم يعرف بها شيئا له فى الواقع معنى واضح محقق.

الفصل السابع

(فى علم الحساب المسمى باللغة الإفرنجية الارتيماطيقى)

إعلم أن «الارتيماطيقى» هو أحد العلوم الرياضية الخالصة، وذلك لأن حكماء الإفرنج قسموا الرياضيات إلى خالصة وإلى غير خالصة، أو مختلطة، فالرياضيات الخالصة: هى علم الحساب الغبارى والهوائى، وعلم الجبر والمقابلة، وعلم الهندسة، ونحو ذلك، وأما الرياضيات المختلطة فهى: علوم الحيل، وفن تحريك الأثقال، ونحوها. والرياضيات الخالصة هى ما تبحث عن الكميات والأشياء القابلة للزيادة والنقصان، والرياضيات المختلطة هى ما يدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره. والحساب أهم العلوم الرياضية، وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل بر الشام، يعنى الصوريين، وقدماء أهل مصر، يعنى أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ونظماهما فى عقد الترتيب، حتى أن فيثاغورس[1] الحكيم رحل من بلاد اليونان إلى مصر فتلقى فيها هذا العلم، ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصوريين، ويقال إنهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر، والظاهر أن الأصابع هى أول الطرق التى استعملها الإنسان فى الحساب، وأن ذلك هو السبب فى كون أول عقد فى العدد هو عقد العشرات، والثانى عقد عشرات العشرات التى هى المائة، والعقد الثالث عقد عشرات الميات أو الألوف، وهكذا لأن الأصابع عشرة، فكان الانتقال من عقد إلى آخر، من عشرة إلى عشرة، ولما كانت الأصابع لا تكفى إلا فى تمييز عشرة عشرة

(١) ولد حوالى سنة ٥٨٢ وتوفى حوالى سنة ٥٠٧ ق.م) فيلسوف يونانى، كون جماعة دينية آمنت بتناسخ الأرواح، وكان يرى أن العدد هو جوهر الأشياء، أى أن الجانب الكمى هو لب الحقيقة.

احتاج الأمر إلى طريقة أخرى وعلامات أخر، فأخذوا صغار الحصى، وحبوب الرمل، والقمح، ونحوها، واستعملوها لضبط المعدودات، كما هو الآن عن بعض همل أمريكة وبعض همل غيرها من أقسام الأرض، حتى إن بعض قدماء الأمم الماضين لا يوجد فى لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات، فإنهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلا بقولهم سبعة وعشرتان وعشرة عشرات، وذلك لأن الأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر، فيبتدون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات، وهكذا. كما قال بعضهم أنه يوجد فى كتب العبرانيين واليونانيين ما يدل على ذلك، وهو أيضا أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة، وأما الآن فقد تبحرت الأمم فى علم الحساب وتنوعوا وتفننوا فيه حتى وصلوا إلى كماله.

وحد علم الحساب أنه: علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعتريها من الأعمال، والعدد اجتماع الآحاد، وهو قسمان: صحيح، وكسر وزاد بعضهم ثالثا وهو: ما تركب منهما، وسماه عددا مشتملا على الكسور. ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هى الجمع، والطرح، والضرب، والقسمة، وهى معلومة فى كتب هذا الفن.

وأما علم الهندسة فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة، التى هى: الطول، والعرض، والعمق، كما أشرنا إليه فى منظومتنا فى علم الهندسة بقولنا:

موضوعه قياس الامتداد فسره بالثلاثة الأبعاد

والطول والعرض كذا والعمق وشرح هذى غير مستحق

وأما الجغرافيا فقد تقدم منها نبذة فى مقدمة الكتاب، وإنما ينبغى لنا هنا أن نذكر أقسامها، فنقول: إنه تارة ينظر إلى الأرض من جهة شكلها، وسكونها أو تحركها، ونسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا، وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها، مثل الجبال، فتسمى بالجغرافيا الطبيعية، أى المتعلقة بطبيعة الأرض، وتارة ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها فى الدين والملة فتسمى بالجغرافية الدينية، وتارة

ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها فى التدبير والسياسة والرسوم والقوانين فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية، وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة فى الأرض وفى أجزائها بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية. وهذه هى الأصول وإلا فالقسمة غير حاصرة، ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة (التعريبات الشافية بمريد الجغرافية) فإنه موضوع فيها غاية التوضيح، غير أنه ينبغى لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية، التى هى علم الهيئة، فنقول:

الإفرنج قسموا الكواكب الفلكية إلى: ثوابت، وإلى سيارة، وإلى سيارة السيارة، وإلى ذوات الذنب، وعدوا الشمس من الثوابت، والأرض من السيارة، والقمر من سيارة السيارة، أى التابعة فى السير للكواكب السيارة، وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب «كبرنيق»[1] النيمساوى، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون لفقد الآلات عندهم ووجودها لهؤلاء الإفرنج، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر، غير الشمس والقمر، فإن الأولى من الثوابت على رأيهم، والثانى من سيارة السيارة، ولنذكرها لك هنا على حسب قربها من الشمس، فنقول: هى عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، ووستة[2]، أى المجرة السيارة، ويونون[3]، وتسمى زوجة المشترى، ويقال لها بنت زحل، وسيريس[4] ويقال لها قريس، أى السنبلة السيارة، وبلاس[5] ومعناه أبو الفلق، والمشترى، وزحل، وأورانوس[6]، ومعناه الفلك الأعلى. وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دوراتها على نفسها إلا بصعوبة، لصغر بعضها فى رأى العين، وبعد البعض الآخر، بل لا يمكن رصد ما عدا أورانوس إلا بالنظارات الفلكية، ولهذا سميت عند الإفرنج بالسيارات النظارية، ويؤمل الإفرنج كشف غيرها من السيارات.

---

(١) ويسمى: كوبرنيكوس، نيقولا (١٤٧٣ـ١٥٤٣م) فلكى بولندي، على أساس أبحاثه بنى علم الفلك الحديث، إذ هو الذى صاغ نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس.

(٢) بكسر الواو وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة. (الطهطاوى).

(٣) بضم الياء والنون بعدها واو. (الطهطاوى)

(٤) بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة. (الطهاوى).

(٥) بفتح الباء وتشديد اللام. (الطهطاوى).

(٦) بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة. (الطهطاوى).

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للإنسان الاطلاع، لا سيما أرباب الدول، ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها بعض المؤلفين من الإفرنج فنقول:

للتاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم، وهو أيضا تجريبيات حوادث الأعصر التى تساعد الحال الراهنة، ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكر فى ظاهر الآتى، فمنه يعتبر من اعتبر من جميع الناس أيا ما كان مقامهم، لما أنه يظهر على رؤوس الأشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة، مثل الحلم والعدل. ومن التاريخ يفهم الملوك أنه فى زمن سلطنة ملك حسن التدبير ينبغى أن تكون شوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية.

قال «بسوة»: لو فرض أن التاريخ لا ينفع غير الأمراء فإنه يجب قراءته للأمراء، ولكن إنما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ليفهم منها خفياته ورموزه، فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الإنسان الباطلة، ثم ينتقل من ذلك إلى مادة أهم من ذلك، فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التى تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم، أوليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم يطلع الإنسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول، وأزمان كل؟ فانظر إلى هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود ونحوس، فكم فيه من مدائن دمرت، ومن دول انقرضت، ومن ممالك ذهبت واندثرت، ومن محال خربت، ومن مقابر عمرت، فكان كل شيء يؤول إلى القبور، وهى التى تعلو وحدها على ميدان الأرض، فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة إذا نظر الإنسان من سماء التاريخ، وكم يظهر أن الجمعية التى فى زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالى القرون والأعصار، شتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس، وملوك تلك الأزمنة التى يظهر للأعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة، وانظر ما تكون حروبنا الوقتية وحبنا للعدو والشرف المؤقتين بجانب منازعة السلف من مبدء العالم على مكان من الأمكنة أو على شبر من أرض، فمن نظر حق النظر فى عجائب التاريخ فإنه يكتسى بثياب الجد، ويتجرد عن ملابس الهزل، ويصعد على ذروات النظر،

فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانيهم من غير دقة، عرضة للرياح الشديدة، وينتهى أمرها إلى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب، ولا تجد من المراسى ما ترسى عليه غير فرضات القدم، فإذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة من الطمع حطام الدنيا الفانية، والمدح الباطل، المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلاشيء، أو ليس أن للدهر نكبات وتغيرات فى جميع ما وهبه وأعطاه؟ فأى مملكة أمنا على كرسيها من السقوط؟ وأى دولة آيسنا على تختها من الارتفاع؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد يتداول على محرابه عدة أديان متباينة؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرها إلى أن أعقبها الفقر والحقارة؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة بينها؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التى كنت عامرة ببلاد آسيا، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم، يا مدن «نينوى»، يونس، و«بابل»، السحرة، و«اصطخر»، فارس، و«تدمر»، سليمان، كيف صارت الآن محالك خرابا وقد كانت كراسى دول العلوم، فلم يبق لك من فخارك القديم وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر.

ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة مثل ما حل بمصر المباركة، المصابة بالشقاء، التى كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم والحكمة، فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة إما نعيم الأنعام أو عذاب الانتقام، مع أنه لم يكن من الأمم مثل قدماء مصر فى كونهم بذلوا جهدهم فى الجلوس على مبانى هياكلهم المشيدة، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين، فبادوا جميعا وانقرضوا، حتى أن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من أجناس الأمم، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة، ومنسوبون إلى عدة جنوس مختلفة من بلاد آسيا وإفريقية، فهم مثل خليط، من غير قياس مشترك، وتقاطيع شكل صورهم لا تتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الإنسان مصريا من سحنته، فكأنهما سائر بلاد الدنيا

اشتركت فى تأهيل بر النيل. انتهى، مترجما من مقدمة الخواجة «آكوب» فى (تاريخ مصر)، وفى آخرها يمدح ولى النعم، محيى بلاد مصر من العدم، وقد مدحه أيضا فى قصيدة فرنساوية سماها (نظم العقود فى كسر العود)، وقد ترجمتها، وذكرت بعضا منها فى (الفصل الثانى) من (المقالة الثالثة) وعلم التاريخ واسع وإن شاء الله تعالى، بأنفاس ولى النعم، يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا، وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون، حتى تعد دولته من الأزمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر مثل تجددها فى زمن خلفاء بغداد.

خَاتمَة

(فى رجوعنا من باريس إلى مصر، وفى عدة أمور مختلفة)

من المعلوم أن نفس القارئ لهذه الرحلة تتطلع إلى معرفة نتيجة هذا السفر الذى صرف عليه ولى النعمة مصاريف لم تسبق لأحد من الملوك، ولا سمع بها فى التواريخ عند سائر الأمم، وإنما تسطيرها فى تاريخ دولة الخديوى مما يدل على أن حضرته العلوية، صاحبة، صاحبة الهمة العلية، قد تبصرت فى عواقب الأمور، وأصابت المرمى فى جميع ما شرعت فيه مما يبقى به الذكر على ممر الدهور، ولا شك أن ذلك تقصر عنه همة قيصر، وتكل عن نيل ماله قوة إسكندر الأكبر، ولا يمكن لمثل نابليون أن يفوق فيه نباله، ولا لمثل أفريدريقوس أن يوجه إليه باله، أو يميل إليه آماله، فكيف وإرسال ولى النعمة للأفندية إلى باريس قد نجح غاية النجاح، وأثمر، حيث أن جلهم قد اكتسب رضاء صاحب السعادة، وسارع فى المطلوب، وعن ساعد الجد والاجتهاد شمر، فقد أرضع، حفظه الله تعالى، فى تلك الديار بارتداء العلوم أطفالا، حتى صاروا بكمال المعارف رجالا، بل منهم من وصل إلى رتبة أساطين الإفرنج، فهم ما بين مدير للأمور الملكية، حائز كمال الرتبة فى السياسيات المدنية، كحضرة صاحب البراعة واليراعة، رب الطالع السعيد، وذو النجابة والرأى السديد، عبدى أفندى، وما بين متمكن فى معرفة إدارة الأمور العسكرية، راق فيها إلى درجة علية، وما بين ربانى بسائر الأمور البحرية، أو خبير بالطب أو بالكيمياء الصحيحة المرضية وبصير بالطبيعيات، وماهر فى علم الزراعة والنباتات، ومنهم فائق الأقران فى الفنون والصنائع، وحرى بفتح فبريقات تشتهر ببراعته بغير منازع، ولولا خوف الإطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية على حسب حوزه للمراتب العلية، ولعمرى لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز، غير أننى أسلك فى ذكرهم غاية الإيجاز:

كيف لا أقول إن حضرة مصطفى مختار بيك أفندى قد بلغ درجة كبار الفرنساوية فى علم إدارة المهمات العسكرية، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم، وتمكن من

المنطوق منها والمفهوم، ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية، وجامع لمعارف الديار الإفرنجية، وسع الله به دائرة المعارف بممالك مصر والشام وجعله مقبولا لدى ولى النعم الأكبر وسرة عسكر نجله الضرغام، وليس كل من اكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف، قال الشاعر:

وعادة السيف أن يزهو بجوهره	**وليس يعمل إلا فى يدى بطل**

وأما حضرة حسن بيك أفندى، والأفندية البحريون، ففضلهم وكمال علومهم، ثابت بالبرهان، يدل عليه امتيازهم بين الأقران، وشهرة إسطفان أفندى غنية أيضا عن البيان، فقد حاز من العلوم ما حاز، وفاز من الفنون بما فاز، ولا ينكر فهم الطين أفندى فى جميع أنواع العرفان، ولا خليل أفندى محمود، وتعلم أحمد أفندى يوسف مشهود غير مجحود. وبالجملة، فالجل من الأفندية حصل المرام، ورجع لنشر هذا بديار الإسلام.

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير إلى مصر، ليتم غرض هذه الرحلة، فنقول: خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦[١]، وسرنا نقصد مرسيليا لنركب البحر ونرجع إلى سكندرية، فمررنا على مدينة «فنتنبلو» بقرب باريس، بها قصر سلطانى، وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرانسا وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من الميلاد، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة، والقصد منه أنه تبقى آثاره لتذكر رجوع «البربون» فى فرانسا، فتجد مرسوما عليه أسماؤهم وتاريخ ولادتهم وغير ذلك، وفى هذه الفتنة الأخيرة محى الخلق هذا الأساس، فلا يشاهد منها إلا الآثار، وهكذا عادة الزمان فى تلونه بجميع الألوان وغدره وفتكه بقوم، وإقباله على آخرين قبل تمام يوم، قال الشاعر:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع	**عدوا ولم أمهل على جيشه خلقا**
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم	**فشردتهم غربا وبددتهم شرقا**
فلما بلغت النجم عزا ورفعة	**وصارت رقاب القوم أجمع لى رقا**
رمانى الردا سمها فأخمد جمرتى	**فها أنا ذا فى حفرتى عاطلا ملقى**

---

(١) هجرية، وتوافق سنة ١٨٣٠.

وكتابع تلك الرسوم من عادة الإفرنج، تأسيا بالسلف من أهالى مصر وغيرهم، فانظر إلى بناء أهل مصر للبرابى وأهرام الجيزة، فإنما بنوها لتكون آثارًا ينظر بعدهم إليها من رآها. ولنذكر لك آراء الإفرنج فيها، وما ظهر لهم بعد البحث التام، حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الأوهام، فنقول:

ملخص كلام الإفرنج أن الذى بناها هم ملوك مصر، وأنه اختلف فى زمن بنائها، فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة، وأن البانى لها ملك يقال له «قوف»[1] وبعضهم قال إن البانى لها ملك يقال له «خميس»، أو «خيوبس»، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة، وقال بعضهم إن مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاثة وعشرين سنة، وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلثمائة وستين ألف نفس، ولكن بمصاريف عظيمة، حتى أن ما صرف على البصل والكراث للعملة يبلغ ـ على ما قاله بانياس ـ نحو عشرين مليونا من القروش المصرية، ثم إن هذه الأهرام تنسب إلى أحد ملوك الفراعنة، وأنه أعد الهرم الأكبر ليضم جثته، والآخرين لدفن زوجته وبنته، فلم يدفن هو فى الأول، بل بقى هذا الهرم للآن مفتوحا، وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته وسدا سدا محكما. هذا ما حكاه الإفرنج فى شأن الأهرام، ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين:

خليلى ما تحت السماء بنية ... يشابه بنياها بنا هرمي مصر

بناء يخاف الدهر منه وكل ما ... على الأرض يخشى دائما سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الأهرام، مضمنا عجز بيت فى معلقة طرفة:

لقد بت بالأهرام حول أحبة ... جفوني ببرد يابس وتجلد

يقول بها صحبى لبرد جليدها ... وهجرى لا تهلك أسى وتجلد

---

(١) أى خوفو.

قال السيوطى[1] فى (منتهى العقول): إنه يتعجب من قول العلماء إن أعجب ما فى مصر الأهرام، مع أن البرابى بالصعيد أعجب منها.

والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات، ولغرابتها نقل منها الإفرنج اثنتين إلى بلادهم إحداهما نقلت إلى رومة فى الزمن القديم، والأخرى نقلت إلى باريس فى هذا العهد. من فائض معروف ولى النعم.

وأقول: حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوروبا، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة، وسلبه عنها شيئا بعد شيء يعد عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلى به، فهو أشبه بالغصب، وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان، لما أنه واضح البيان. وقد صنع نابليون فى باريس عمودا مفرغا من المدافع القسى سلبها من الموسقو والنمسا، وقد حاول الموسقو إسقاطه حين حلولهم بباريس فما ظهر إلا عجزهم عن ذلك.

ثم بعد أن جزنا «فنتنبلو» شاهدنا مدينة «تيمور» بعد سير أربع ساعات من «فنتنبلو» وهى على عشرين ساعة أيضا من باريس، ثم بعدها مررنا على مدينة «كونة»، على شط نهر «الوارة» وهى مدينة تصنع فيها «الهلاليب» للمراكب السلطانية، ثم على مدينة «مولن» وبها كثير من أولاد العرب الذين صحبوا الفرانساوية من مصر إلى فرانسا، ثم سرنا حتى وصلنا مدينة «روانة» وهى على سبعة وتسعين فرسخا فرانساويا على جنوب باريس، قبل الوصول إلى مدينة «ليون» بثلاثة عشر فرسخا، وأهلها تسعة آلاف نفس، وبها ديوان مشورة للفبريقات، ومشورة للزراعة، وكتبخانة، ومخزن آلات طبيعية وهندسية، وبها قنطرة ظريفة على نهر «لوار»، ورصبف مشهور، وهى ساحل المركز لتجارات

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م) مؤلف مصرى، من أبرز مؤلفى الموسوعات وجامعى المواد العلمية المختلفة، وكانت من حوله مجموعة من تلاميذه ومريديه يلخصون الكتب ويجمعون المواد العلمية فى الفنون المختلفة، كى تتحول إلى كتب تنسب إلى السيوطى. . ولذلك ترك السيوطى نحوا من ستمائة مصنف، بعضها يعارض البعض الآخر؟! . . وبالجملة، فإن عمله هذا قد أفاد المكتبة العربية والإسلامية إلى حد كبير. كما أن ثقافته الموسوعية، والمدرسة التى أحاطت به، نموذج للمجامع العلمية والفكرية في عصرنا الوسيط.

«ليون» وغيرها من سائر أنواع البضائع، وبأراضيها مقاطع الرخام، ونهر «لوارة» يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة، وهذه المدينة غير مدينة «روان» البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا، والتى يمر بها نهر السين، والتى هى من إقليم «نومنديا»، ثم وصلنا إلى مدينة «ليون»، وقد تقدم الكلام عليها، ثم وصلنا إلى مدينة «أورغون»، التى على جنوب باريس بمائة وثمانية وسبعين فرسخا فرانساويا، وهى فى سفح جبل، شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى خوفا من أهلها، ولا زلنا نمر ببلاد حتى وصلنا إلى «مرسيليا»، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى، ومنها نزلنا فى سفينة تجارية، وسرنا قاصدين إسكندرية، ولا حاجة أيضا إلى ذكر ما شهدناه لأنه عين ما سبق فى (المقصد)، غاية ما نقول: إن كل من يعرفنى من الفرنساوية طلب منى أننى بمجرد دخولى إسكندرية أذكر ما يقرع فكرتى مما استغربه لبعد عهدى من مصر ولرؤيتى خلافه فى بلاد الإفرنج وتعودى على مشاهدة غيره يظهر لى غرابة ما أراه أول وهلة حين وصولى، فوعدت ووفيت.

هذا حاصل ما كان، لخصته حسب الإمكان، فلم يبق علينا حينئذ إلا ذكر خلاصة هذه المرحلة، وما دققت فيه النظر، وأمعنت فيه الفكر، فأقول:

ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس، وأقوى مظنة من العرب بأمور كالعرض، والحرية، والافتخار، ويسمون العرض شرفا، ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه، ووفوا بعهودهم، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان، كما تدل على ذلك أشعارهم، وتبرهن عليه آثارهم، قال الشاعر:

وأنى لحلو للصديق وأننى	**لمر لذى الأضغان أبدى له بغضى**
وإنى لأستغنى فما أبطر الغنى	**وأبذل ميسورا لمن يبتغى قرضى**
وأعسر أحيانا فتنفد عسرتى	**وأدرك ميسور الغنى ومعى عرضى**

وهتك العرض هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار، قال الشاعر:

تعـــيــــرنا أنـا قليـل عــــدادنا	فـــقلـت لهـــا إن الكـرام قلـيل
ومـــا ضــــرنا أنا قلـيل وجـــارنا	عــزيز وجـــار الأكــثــريـن ذليل
يقـــرب حـب الموت آجـــالنا لـنا	وتكـرهه آجــــالهـم فـــتطول
وإنا لقــوم مـا نرى القـتل سـبـة	إذ مــــا رأته عــــامــــر وسـلول
إذا ســيـــد منا خــلا قـام سـيـد	قــؤول لما قــال الكرام فـــعــول
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهمو	فليـس ســواء عــالم وجــــهــول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم فى ذلك، حيث إن العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره، لأنهم وإن فقدوا الغيرة لكنهم إن علموا عليهن شيئا كانوا أشر الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم فى نسائهم، غاية الأمر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء، وإن كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء، كما قال الشاعر:

إذا غاب عنـها البعل لم تـفش سره   وترضى إيـاب البـعـل حين يؤوب

قال الزمخشرى[1] عند قوله تعالى: حكاية عن قول العزيز: **(واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين)**[2] ما كان العزيز إلا حليما، وقيل إنه كان قليل الغيرة، قال الشيخ أثير الدين أبو حيان[3] فى تفسير هذه الآية الكريمة: وتربة مصر اقتضت هذا. يعنى قلة الغيرة! وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا، وهو أنه كان مع ندمائه الخصيصين به فى مجلس أنس، وجارية تغنى وراء الستارة، فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية، وكانت قد غنت بهما، فما لبثت أن جيء برأس الجارية مقطوعا فى طشت وقال له الملك: استعد البيتين من هذا الرأس! فسقط مغشيا عليه، ومرض مدة حياة الملك! أقول: وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصورى على محبوبته حيث قال:

---

(١) محمود بن عمر، الزمخشرى (١٠٧٥ ـ ١١٤٤ م) لغوى، ومفسر للقرآن، ومتكلم على مذهب المعتزلة.

(٢) يوسف: ٢٩.

(٣) أبو حيان الغرناطى، محمد بن يوسف (١٢٥٦ ـ ١٣٤٤ م) من علماء اللغة، عاش بين الأندلس ومصر، ومات بالقاهرة، ومن آثاره فى التفسير كتاب (البحر المحيط).

تعلقتـه سكران من خـمرة الـصبـا	**به غــفلت من لوعــتى ونحيــبى**
وشـاركنـى فى حـبـه كل مــاجـد	**يشـاركنى فى مـهــجتى بنصيب**
فـلا تلزمـونى غــيـرة مـا ألفـتـهـا	**فـإن حـبـيـبى مـن أحب حـبـيـبى**

ـ انتهى. سكردان بن حجلة صاحب ديوان الصبابة ـ وبالجملة، فسائر الأمم تتشكى من النساء، ولو العرب، قال الشاعر:

لـقـــد بـاليـت مظـعن أم أوفـى	**ولـكـن أم أوفـى لا تبــــــالـى**

وقال آخر:

فـإن تسـألونى بالـنسـاء فـإننى	**بصـيــر بأدواء النسـاء طبـيـب**
إذا شـاب رأس المرء أو قل مـاله	**فلـيس لـه في ودهـن نصــيـب**
يــردن ثــراء حــين عــلــمــنـه	**وشـرخ الشـبـاب عندهن عـجـيب**

وحيث إن كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الإفرنج كشفنا عن حالهن الغطاء، وملخص ذلك أيضا أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة، والالتئام بين الزوجين، وقد جرب فى بلاد فرانسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهن الشبهة كثيرا، ويتهمن فى الغالب، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية من نساء العيلة الملكية المسماة «البربون»، على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجة ابن ملك فرانسا المعزول، التى هى أم الدوك «دوبردو» الذى خلع عليه جده المملكة بعد عزله ولم يقبله الفرنساوية، وقالوا إن هذا الولد ابن زنا، فإن أمه ولدت ولدا آخر من الزنا وأدعت أنها تزوجت سرا فانكسر بذلك ناموسها، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرانسا لابنها الأول، وكانت آخذة فى أسباب توليته، وكان يخشى منها وقوع شيء فى المملكة، سقطت من الأعين، وبعد أن وقعت فى يد الفرنساوية، وكان يظن

هلاكها، تركوا سبيلها قائلين إنها صارت مهملة، ورجعت إلى أهلها بولدها الأخير. ومن أغرب ما وقع ببلاد الإفرنج فى هذا الأمر أن ملك الإنكليز جرجس الرابع اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار العديدة، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام، لكونها كانت تسافر ببلاد الإفرنج مع من تريد، ولها فى كل محل عشاق، فلما رفع أمرها عند شرعهم، وأقيمت الدعوى كما ينبغى، وقصد بإثبات زناها طلاقها ليتزوج بغيرها، فلم تثبت أمور كافية فى الطلاق، فحكم القاضى بإبقائها على عصمته قهرا عنه، فبقيا متفرقين، ولكن لم يتزوج غيرها، وذاع أمرهما وشاع، ولكن فى الحقيقة وإن كان يعتقد فيها ذلك إلا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة وإلا لانثلم عرضه.

فمادة العرض التى تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة، وصدق المقال، وغير ذلك من صفات الكمال، ويدخل فى العرض أيضا العفاف، فإنهم تقل فيهم دناءة النفس، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب، والمركوزة فى طباعهم الشريفة، وإن كانت الآن قد تلاشت فيهم واضمحلت فإنما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر وأحوجهم الحال إلى التذلل والسؤال، ومع ذلك فقد بقى منهم من هو على أصل الفطرة العربية، عفيف النفس عالى الهمة، كما قال الشاعر:

فدعنى ونفسى والعفاف فإننى ... أخذت عفافى فى حياتى ديدنى

وأصعب من قطع اليدين على الفتى ... صنيعة بر نالها من يدى دنى

وأما الحرية التى تتطلبها الإفرنج دائما فكانت أيضا من طباع العرب فى قديم الزمان، كما تنطق به المفاخرة التى وقعت بين النعمان بن المنذر ملك العرب وكسرى ملك الفرس، وصورتها: إنه قدم النعمان على كسرى، وكان عنده وفود الروم والهند الصين والعجم والترك وغيرهم، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، ولم يستثن فارسا ولا غيرها، فقال كسرى، وقد أخذته الغيرة: يا نعمان، لقد فكرت فى العرب وفى غيرهم من الأمم، ونظرت فى حال من يقدم عليَّ من الوفود، فوجدت الروم لها

حظ فى اجتماع الفتها، وعظيم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق دينها، ورأيت الهند شهيرة الحكماء طيبة الثرا، كثيرة الأنهار والبلاد والثمار، عجيبة الصناعة، مرونقة الحسان، معمورة بالأهل، وكذلك الصين عجيبة فى اجتماعها، وكثرة صنائع أيديها، وهمتها فى الحروب، وصنعة الحديد، وأن لها ملكا يجمعها، وكذلك الترك، مع ما هم عليه من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، فإن لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم، وتدبر أمورهم، ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير، فى أمر دين ولا دنيا، ولا حرمة ولا قوة ولا عقد، ولا حكمة، مع ما يدل على تدانيها وذلها وضعف همتها بحالهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة، قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الإبل التى تعافها كثير من الطيور والسباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن أقرى أحد ضيفا اعتدها مكرمة، وإن أطعم لقمة اعتدها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما عدا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها، وشد مملكتها، ومنعها من عدوها، ليجرى له ذلك إلى يومنا هذا، فإن لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه أموال بعض الناس، لكنى أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون، وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

فقال النعمان: أصلح الله الملك، صدقت أن هذه الأمة تسمو بفضلها وبعظم خطبها وعلو درجتها، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك، من غير رده عليه، ولا تكذيب له، فإن أمنتنى من الغضب مما أتكلم به فعلت! قال كسرى: وأنت آمن! فقال النعمان: أما أمتك فلا تنازع فى الفضل، لموضعها التى هى به من عقولها وأخلاقها، وبسطة محلها، وبحبوحة عزها، وما كرمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك، وأما الأمم التى ذكرت فما من أمة إلا فضلتها العرب بفضلها! قال كسرى: لماذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها، وحسن وجوهها، وذمتها، وبأسها ورئاستها، وسخائها، وحكمة ألسنتها، وشدة عقولها،

ووفائها، فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين فتحوا البلاد ووطئوا العباد، وأقاموا الملك وقادوا الجيوش، ولم يطمع فيهم طامع، ولم يزالوا عندهم محترمين، ولا نال أحدا منهم نائل، بل حصونهم ظهور خيولهم، ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء، وإلى جانبهم السيوف وعدتهم السقف، إذ غيرها من الأمم إنما عزها بالحجارة والطين والجزائر والقلاع والحصون.

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف بذلك فضلهم على الهند المحترقة والصين المتجمشة والترك المشوهة والروم المقترة الوجوه.

وأما أنسابها وأحسابها فليس أمة من الأمم إلا وقد جهل آباؤها وأصولها وكثير من أولها وآخرها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا ويسمى أباه أبا فأبا، أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا بذلك أنسابهم، فلا يدخل رجل فى غير قومه، ولا ينسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما شجاعتها وسخاؤها فإن أدناهم رجلا يكون عنده البكرة والناب، عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه، فيطرقه الطارق الذى يقتدى بالقادة ويجترى بالشربة، فيعقرها له، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكتسبه من حسن الأحدوثة وطيب الذكر والثناء.

وأما حكمة ألسنتها فإن الله تعالى أعطاهم أشعارا ورونقا كاملا، حسن وزنه وقوافيه، مع معرفتهم بالإشارة، وضربهم الأمثال، وبلاغتهم فى الصفات ما ليس من ألسنة الأجناس.

ثم إن خيولهم أفضل الخيول، ونساءهم أعف النساء، ولباسهم أحسن اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وأحجار جبالهم الجزع، ومطاياهم التى لا يبلغ إلا على مثلها سفر ولا يقطع إلا بمثلها بلد فقر. وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به أعظم تمسك، وإن لهم أشهرا حرما، وبلدا محرما، وبيتا محجوجا، ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيه وأخيه وهو قادر على

أخذ ثأره منه وإدراك رغمه فيه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله إياه، إحتراما لذلك البيت وتشريفا له.

وأما وفاؤهم فإن أحدهم يلحظ اللحظة فهى عقد لأهلها لا يرجع عما أضمره فى نفسه حتى يبلغه، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته خوفا من الله تعالى، وإن أحدهم يبلغه أن أحدا استجار به، وعسى أن يكون نائيا عن داره، فيمنع عنه عدوه، ويحميه منه، ولو تفنى قبيلته أو تهلك القبيلة التى استجار عليها، وذلك لما أخفر من جواره، وإن أحدهم ليلجأ إليه المحروم والمحدث عنه بغير معرفة ولا قرابة فينزلونه عندهم وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك، حفظك الله، أنهم يقتلون أولادهم من الحاجة، فإنما يفعله من فعله منهم رغم أنفه حذرا من العار، وخيفة وغيرة من الأزواج وأما قولك، أيها الملك، إن أفضل طعام ظفروا به لحوم الإبل، على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها، فكانت مراكبهم ومطاعمهم، مع أنها أكثر البهائم لحوما، وأطيبها شحوما، وأرقها ألبانا، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغة، وأنه لا شيء من اللحوم يفاخر لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما محاربتهم وأكلهم بعضهم بعضا، وتركهم الانقياد إلى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم، فإنما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفسها، وتخوفت من نهوض عدوها عليها، فإنهم يحتاجون إلى ملك يدبر أمرهم، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرا، ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم، فينقادون إليه بأزمتهم، وينقادون إلى أمره، وأما العرب، أيها الملك، فإن كثيرا فيهم لعظم كرمهم ووفائهم ودينهم وحكمة ألسنتهم وسخاء نفوسهم يقولون إنهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم، فلا ينقاد أحد إلى الآخر، فإنهم أشراف.

وأما اليمن التى وصفها الملك فإن آباءك وأجدادك أعلم بصاحبها، لما أتاه ملك الحبشة فى مائتى ألف وتغلب على ملكه، جاء إلى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يَجِرْه أحد من أجدادك ولا آبائك، فاستجار بالعرب فأجاروه، ولولا

مـا وتر به من بلية العرب لمال إلى نقص ولم يرجع إلى محله، ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار وتبدد شمل الكفار وذبح العبيد الأشرار لم يرجع إلى اليمن.

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان، ثم قال له: إنك لأهل لموضعك من الرياسة لأهلك ولأهل إقليمك، ولما هو أفضل منه. ثم كساه وأنعم عليه وأعطاه أشياء جزيلة، ثم سيرَّه إلى موضعه من الحيرة، ثم بعد ذلك سير إليه وقتله!

والتنوخية فرقة من اليمن، قال المتنبي على لسان بعضهم:

قضاعة تعلم أني الفتى الذي	أدخرت لصروف الزمان
ومجدى يدل بني خندف	على أن كل كريم يمان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء	أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي	أنا ابن السروج أنا ابن الرعان(١)
طويل النجاد طويل العماد	طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ	حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفي منايا العباد	إليهم كأنهم في رهان
يرى حده غامضات القلوب	إذا كنت في هبوة لا أراني
سأجعله حكما في النفوس	ولو ناب عنه لساني كفاني

وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: حضر رجل من أهالي مصر إلى عمر بن الخطاب، وجعل يشكو من عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا مقام العائذ! فقال عمر: لقد عذت، فما شأنك؟ قال: تسابقت بفرسي أنا وابن عمرو بن العاص، فسبقته، فحمل على بسوط في يده، وجعل يقنعني(٢) بالسوط، ويقول لي: أنا ابن الأكرمين! وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشي أن آتيك لأشتكي

(١) الرعان، مفردها رعن: أنف الجبل، وتطلق أيضا على الجبل الطويل.
(٢) أي يغشيني به.

ولده، وحبسنى، فتفلت من الحبس، وها أنا قد أتيتك! قال: فكتب كتابا: «من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، إنه إذا أتاك كتابى هذا احضر الموسم - (يعنى الحج) - أنت وابنك» ثم التفت إلى المصرى وقال له: قم حتى يأتى غريمك، فلما حضر عمرو بن العاص وابنه الحج، وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين يديه، وشكى المصرى كما شكى أول مرة، فأومى عمر بن الخطاب، وقال له: خذ الدرة وأنزل بها عليه، قال: فدنى المصرى من ابن عمرو بن العاص ونزل عليه بها!

وعن أنس، قال: والله لقد ضربه ونحن نشتهى أن نضربه، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه، وذلك من كثرة ما يضربه، وعمر رضى الله عنه يقول: اضرب ابن الأكرمين! قال عمرو بن العاص: قد شفيت يا أمير المؤمنين! قال عمر ابن الخطاب للمصرى: انزع عمامته وضع الدرة على صلعة عمرو، فخاف المصرى من ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربنى، فمالى أضرب من لم يضربني؟ فقال عمر رضى الله عنه: والله لو فعلت لما منعك أحد، ثم التفت رضى الله عنه وقال لعمرو بن العاص: متى استعبدت الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟! فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان.

هذا ولا ينبغى لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد ولى النعم فى نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة بمدينة باريس، محب البلاد المصرية وأهلها الخواجة جومار، فإنه يسعى بهمته ورغبته فى تنفيذ مقصد أفندينا ولى النعم، ويسارع فى المصلحة بلا إنكار، فكأنه من أبناء مصر البارين بها، فهو جدير بأن ينظم فى سلك المحبين للذات الخديوية، ومما يدل ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى «روزنامته» التى ألفها لاستعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة[1] فإنه ذكر فيها أنه إن صدرت له إرادة سنية وأمر خديوية ليؤلفن كل عام «روزنامة» بهذا الوضع، ليعين على حسن تمدن الإيالات المصرية، فمن جملة ما قاله فى مقدمته أنه يذكر فى هذه «الروزنامة» عدة أمور:

(١) وتوافى سنة ١٨٢٨ م.

الأمر الأول: الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها.

الثانى: تجارة أهالى أوروبا وآسيا وإفريقية، كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز، ومقابلة الأقيسة والمكاييل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة فيها.

الثالث: ذكر أمور الزراعة، فإنها كانت فى سالف الأعصر فى غناء أهل مصر، فلهذا ينبغى أن تكون أول ما تهتم به الدولة فى مملكة مصر الطيبة التربة، والزراعة كثيرة الفروع المهمة، فمن ذلك علم توفير المصاريف الخلائية، ويتشعب عند إصلاح المزارع، والمروج المستحدثة المدبرة، وتتميم زراعة القطن والتيلة والعنب والزيتون والتوت، واستخراج دقيق النيلة، واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت، ومعرفة تربية النحل ودود القز ودود الصباغة، وتعهد الحيوانات الأهلية، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل والمعز، وحيوانات الأصواف، وجلب البهائم البرانية، ومعرفة طب البهائم ومعالجة أمراضها كمرض السواف، وحفظ الحبوب من السوسة، وغرس الأشجار وترتيبها بحافات الطرق، وخدمة البساتين، وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة. وفى مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقى الأراضى وللأسفار، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر فى السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه، فهذه كلها تذكر فى الفلاحة.

الرابع: نتكلم على أمور مختلفة من علم الطبيعة، ومن علم المواليد الثلاثة، ومن العلوم الرياضية، وهناك نتكلم على المادة المغناطيسية التى تستعملها الأطباء فى معالجة الشلل ونحوه، وكذلك القوة الكهربائية، والحرارة الكروية، والحوادث السماوية، والندا والمطر الذى يحدث بين المدارين، وكذلك نتكلم على أحجار الصواعق، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان وميزان الحر وميزان الرطوبة، ووقاية الرعد، والنظارات الفلكية، والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التى لا يدركها النظر، ونتكلم أيضا على علم المعادن واستخراجها، وقطع الحجارة من مقاطعها، وعلى علم الحشائش الطبية،

والنباتات المستعملة فى الفنون والصنائع، وعلى البهائم النافعة، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة.

الأمر الخامس: يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف، وسياسة الدولة، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول، وعلى سبب ثروتها وغناء أهلها، وعلى أحوال المعاش والمعاد، وعلى ولادة الذكور والإناث فى كل بلدة من البلاد، وعلى الإدارة الملكية، وعلى الأصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الإفرنج، وهى الحقوق العقلية، والحقوق القانونية، والحقوق البشرية، أى الحقوق التى للدول بعضها على بعض.

السادس: سياسة الصحة العمومية والخصوصية، ففى ذلك نتكلم على تلقيح البقرى للجدرى، وعلى الطاعون ومعالجاته، وعلى الأمراض والعوارض العامة، وعلى بعض تشريح.

السابع: نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم، مثل علم الفصاحة، وفيه نتكلم أيضا عن المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة، ونبذات فى تواريخ البلاد، خصوصا مصر، وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الإفرنجية والمشرقية، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق، ونبين الوسائط المسهلة المعلمة بالإيجاز للقراءة والكتابة والحساب، وطرق تعليم هذه الأشياء فى أقرب زمن لسائر العامة.

الثامن: نبحث فيه عن عدة أشياء متنوعة، وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية، وإقامة العربات العامة، وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة، والإشارة المسماة تيلغراف، يعنى إشارة الأخبار، وجميع الأشغال المتجددة عند الإفرنج، ونضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة، وكذلك نرسم خرطات جغرافية، وصور النباتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغربية وتربى فى مصر، ونذكر كثيرا من الأمور التى تتجدد على تداول الأزمان. وبالجملة، فنذكر نبذات صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقاة، سهلة الفهم لسائر الناس، ولا نستعير منها شيئا من صعاب الكتب. انتهى كلامه.

ولم ينجز ما وعد به لأنه علق ذلك على الإرادة السنية، ولم يصدر له أمر إلى الآن. وبالجملة، فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا، ومن الراغبين فى خدمة ولى النعم حبا له ولدولته.

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لا ينكر معارفها إلا من لا إنصاف عنده ولا معرفة له، قال الشاعر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد — وينكر الفم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لا يخفى على أحد — إلا على أكمه عما يراه عمى

ولا ينبغى أن يمنع ذو الحق حقه، كما قال الشاعر فى هذه الأبيات المملوءة من الحكمة:

إذا كنت فى حاجة مرسلا — فارسل حكيما ولا توصه

وإن ناصح منك يوما دنى — فلا تنأ عنه ولا تقصه

وإن باب أمر عليك التوى — فشاور لبيبا ولا توصه

وذو الحق لا تنتقص حقه — فإن القطيعة فى نقصه

ولا تذكر الدهر فى مجلس — حديثا إذا كنت لم تحصه

وقص الحديث إلى أهله — فإن الوثيقة فى قصه

ولا تحرصن فرب امرء — حريص مضاع على حرصه

وكم من فتى ساقط عقله — وقد يعجب الناس من شخصه

وآخر تحسبه أنوكا — ويأتيك بالأمر من قصه

ولا أحد يخلص من قال[1] الناس، كما قال الشاعر:

ومن ذا الذى ينجو من الناس سالما — وللناس قال بالظنون وقيل

(١) أى من القيل والقال، بمعني الذم..

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية ، فلا معول على من لم يكن نير السياسة ، ساطع الكياسة ، ولا اكثرث إلا بمن رقى رتبة علية فى الرسوم والقوانين ، وتشبث بالشريعة وكان فيها ذا رياسة ، ودرى أن القصد إنما هو حث أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لإملائهم الأحكام فنحن على هؤلاء الناس ، وبالجملة كما كان فى زمن الخلفاء ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه   وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أقاربى :

يا من غدا معجبا مما اقترحت وقد   أضحى يروم مقال العاذل اللاحى

أما رأيت إذا شمس الضحى غربت   يلحى الحريص إلى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به   ولا يكون له فى الأرض آثار

وعلى كل حال ، فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفحه بجملته ، ليكون على بصيرة مما يقول ، فإن المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ، ولا أقول إلا كما قال الشاعر :

فإليك وشيا حاكه   في الطرس ذو باع قصير

واستر إذا عيب بدا   والله يعفو عن كثير

ولنختمها بالدعاء للدولة الخديوية ، حماها الله وذريتها ، وجعلها سامية القدر بين دور الممالك المشرقية والمغربية (شعر) :

فتية لم تلد سواها المعالى   والمعالى قليلة الأولاد

متع الله مصر وإيالاتها بما أفاضه عليها ولى النعم من حسن التمدن والعدل ، وأمد لها أيامه بجاه خاتم الرسل الذى على مولاه دل . وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه وأحزابه . آمين .

كتاب

المرشد الأمين للبنات والبنين

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

حمدا لمن جعل كسب الآداب دأب الألباب، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأحزابه ومن تأدب بآدابه.

أما بعد، فإن مصرنا فى ميدان المعارف سارت فى مدى طويل مديد، وفى أمد جليل بعيد، بلغت فى وسيع مضماره ما فى ضميرها من النية، ونالت بحزم خديويها وعزمه كمال الأمنية، حتى صارت جميع أرجائها مواطن منظمة، وأماكن معظمة تبسمت بأنوار العرفان ثناياها، وتنسمت بالعدل والإحسان أرواح بكرها وعشاياها، فنور أرجاءها نور بدره التمام، وبره الذى يأبى أن يساجله الغمام. (شعر):

سعادتنا بإحراز المعالى ... بها عصر الهنا أضحى ضمينا

نحوز المجد بالهمم العوالى ... وصاحب مصر إسماعيل فينا

فإنه - أبقاه الله - لما ورد على موردها الأعذب، جلب إليها العيش الأطيب، فكم له فيها من مهمة يكفيها، ووعود يوفيها، وعارفة يبديها، وصنيعة يوليها، وأرض موات يحييها، ومسعاة من مساعى تليد الشرف يبتنيها، وذخيرة من ذخائر طريف الطرف يقتنيها، وغاية من غايات الفضل يحتويها، وصفوة من المعالى يصطفيها، وحسنة من حسنات الدهر يرغب فيها وفى ذويها، حتى سرت محبة الأوطان منه فى أهاليها، فلا يألفون إلا حماها، ولا يرشفون إلا لماها[1] فكأنه المعنى بقول من قال:

(١) أى مائها.

ما مصر إلا غادة زفت على الأ — ملاك والأمراء والوزراء
أهرامها تحكى النهود ونيلها — شبه الذؤابة سال في البطحاء
لم ترض غيرك أن يفوز بحسنها — إذ أنت فى العلياء بدر سماء
بك مفخر ذوى الرياسة والحما — وأولى النهى أبنائك النجباء
يا من له القدح المعلى فى العلى — كم عندنا لك من يد بيضاء

حتى صار للأقطار المصرية زين أملاكها، ومطلع أفلاكها، وشمس ضحاها، وقطب رحاها، وبدر دجاها، وبيت رجاها، له على مصر اليد العليا، والفضل الأكبر، والمجد الأوفى، والجود الأوفر، عم إحسانه كل شريف ومشروف، ومجهول ومعروف، وقريب وبعيد، حيث هو لمجد مصر مبدئ ومعيد.

سألنا معالى مصر، هل لك عودة — وهل سابقات الدهر يدنو بعيدها؟
فقالت بإسماعيل أوحد عصره — وجدت لأيام الصبا من يعيدها

فهو مليك اقتفى ميامنه كل ناه وآمر، وروى محاسنه كل باد وحاضر، فضائله لا تعد ولا تحصى، وشمائله تجل عن أن تستقصى، فأما ذهنه الصائب فقد استوعب لمصره محاسن عصره، مما عجز عنه السابقون، ونوع من أنواع العمران مالم يتحصل عليه الباحثون والمتسابقون، اقتحم فى إيجاده عظائم الأمور، وجاهد فى إحرازه مجاهدة السهول والوعور، فقد ادخر لاقتنائه بذل المكارم، وأيقظ عزمه للاستيلاء على المعالى والزمان مع غيره نائم، فكأنه يقول بلسان حاله:

وبالجوهر الأعلى تعلق مطلبى — فأصبحت لا ألوى على القرض الأدنى

وأما مروءته فقد أصبحت مرآة يطالع فيها محاسن الأمور، وينال بهمة صفائها جوهر الصنع المحبوب المأثور، ويجتلى بها صورة الكامل الباهر، وينجلى فيها صورة النوال الذى أعجز الأوائل والأواخر، وأما أبوته فهى التى اتسق أنسها، وطهر قدسها، وشرف غرسها، وطلعت فى برج السعود شمسها:

أبوة خير أحرزت كل ماجد — حوى قصبات السبق فى كل مفخر

رجـــال تجـــاريب وأبطـال دولة **وســادة أحكام وفـرســان منبـر**

إذا أبدت الأيام يـومـا جـهـامـة **يقـابلهـا من حسنهم كل مـسـفـر**

وكأنما قال فيه من ينتقى الشعر ويصطفيه :

مليــك تريه قــبل مــا هو كــائن **بصيـرته أضعـاف مـا هو باصـره**

ملـيك إذا ما سار كالبدر فى الدجا **فـأولاده مـثل النجـوم تسـايره**

مـليـك لـه فـى كـل يـوم ولـيـلـة **بشــيـــر يهنـى بالهنـاء بشــائره**

مليــك ترى من حـوله كل عــالم **يذكــره فى الـعلم مــا هو ذاكــره**

ففى أيام دولته السعيدة كم جدد بمصر من محاسن العصر المفيدة، حتى صار أفقهـا لجياد العلماء من أشـهر الميادين، ولفـرسان النبلاء حدائق فنون وبساتين، يتسابق بأبكار الأفكار فى حومتها البنات كالبنين، فقد سوى فى اكتساب المعارف بين الفـريقين، ولـم يجعل العلم كـالإرث للذكـر مثل حظ الأنثيين، فـبهـذا سـوق المعارف المشتركـة قد قامت، وطريق العوارف للجنسين استـقامت، وليل جهل النسـاء جلاه فـجر المعـارف، وفخـر تمتعـهن بالطوائف واللطائف، فقـد أحيـا فى طباعـهن نجاح الآمال، ونشـر لهن أعلام المقال والفعال وخصـهن بمدارس كالصبيان يخـرجن بهـا من حيز العـدم إلى الوجدان، ومـن الوهـم إلى العيان، فـبهذه الوسـائل النفـائس، صدر لى الأمـر الشـفـاهى من ديوان المدارس، بعـمل كتـاب فى الآداب والتربية، يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية، فشمرت عن ساعد الاجتهاد، وعـملت هذه المجـمـوعـة التى جـاءت على وفق المراد، لـم تدع فى هذا المعنى لعين المتـمنى مطمـعـا، ولا لقـوس الاقـتـراح منزعـا، زفت إليـهـا أبكـار المعـالى، وحـفت بمبتكرات المعانى، وسـميتهـا (المرشـد الأمين للبنات والبنين). جعلتهـا برسم دولتلو عطوفـتلو أفندم حسين باشـا كـامل[1] عـسى أن يكـون نظر عنايتـه لحسن طبعـهـا

---

(1) ابن الخديو إسماعيل، وهو الذى تولى سلطنة مصر فى آخريات حياته (١٩١٤ - ١٩١٧ م) بعد عزل الخديو عبـاس حلمى عند قيام الحرب العـالمية الأولى. وكان قد تولى الإشـراف على ديوان المدارس فى سنة ١٨٧٢ م. انظر (البعـثات العلمـية) للأمير عمـر طوسون ص ٢٤١ طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤ م.

شامل، فهى واردة على أعتاب مكارم حضرته السنية، وأبواب مراحم سعادته البهية، أدام الله على الجميع حصن أنظار حضرته السامية، ولا برحت عنايته لسعادة مستشاره ورجاله شاملة وافية، تلحظ الجميع عناية ولى النعم الأكرم، ورعاية توفيقه على الوجه الأتم. آمين.

ورتبتها على مقدمة، وأبواب مشتملة على فصول، وخاتمة، وهذا أوان الشروع فى المرام، بعون الملك العلام.

مقدمة

(فى بيان تربية الأطفال من الذكور والإناث.
وفيها فصول).

الفصل الأول

فى بيان نفس التربية

عرف بعضهم التربية بأنها «تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته إلى بلوغة حد الكبر، وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية». فبهذا انقسمت التربية إلى قسمين: حسية، وهى تربية الجسد، ومعنوية، وهى تربية الروح. ومع ذلك فإن لتغذية الطفل ثلاثة أنواع من الغذاء مختلفة الموضوع، **الأولى**: تغذية المراضع للأطفال بالألبان.

الثانية: تغذيتهم بإرشاد المرشد بتأديبه الأولى للأطفال وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم التطبع بالطباع الحميدة، والآداب والأخلاق،

الثالثة: تغذية عقولهم بتعليم المعارف والكمالات، وهذه وظيفة الأستاذ المربى، كما أن ما قبلها وظيفة المرشد المتولى أمر الصبى. فالنسبة بين الرضاع والتربية الأولية والتربية الانتهائية كالنسبة بين المرضع والمربى المرشد والأستاذ، فكلما جاد المربى جادت التربية.

فالتربية بأنواعها الثلاثة، وإن كان يظهر ببادئ الرأى أنها سهلة بسيطة لا تحتاج إلا إلى عمل يسير، إلا أنها فى الحقيقة وعند التأمل تستدعى عظيم اهتمام وعناية وسلوك أصول مقررة وآداب محررة، ويضاف إلى ذلك ما يحتاج إليه المراضع والمربون والأستاذون من قوة محبة الأطفال، ومعاملتهم معاملة من طب لمن حب.

وقد أنتج هذا أن التربية فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية، وطريقة تهذيب النوع البشرى ذكرا كان أو أنثى، على طبق أصول معلومة، يستفيد منها الصبى هيئة

ثابتة يتبعها ويتخذها عادة وتصير له دأبا وشأنا وملكة، فالتربية المعنوية حينئذ هى فن تشكيل العقول البشرية وتكييفها بكيفية حسنة مألوفة، وغايتها إيجاد ملكة راسخة فى الصغير تحمله على التخلق بحسن الأخلاق حسب الإمكان، بحيث تحصل من هيئة تربيته الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا، بسهولة ويسر، كطلاقة الوجه، والحلم، والشفقة، ولين الجانب، وحسن الظن بالناس، والإغضاء عن السفهاء وعدم مجادلتهم والسكوت عنهم، قال الشاعر:

وما شىء أحب إلى لئيم ... إذا شتم الكريم من الجواب

متاركة اللئيم بلا جواب ... أشد على اللئيم من السباب

وكمال التربية حمل المكلف على رعاية الحق للحق والخلق لينال خير الدارين.

ثم إن التربية لا تفيد الصبى الذكاء ولا الألمعية، فإن هذه الصفات هى فى الأطفال غريزية طبيعية، وإنما بالتربية تنمو العقول وتحسن الإدراكات، فإذا ربى المربى عدة أطفال مختلفين فى الذكاء متحدين فى التربية لا يقدر المربى أن يتوصل إلى تسويتهم فى الذكاء، بل يختلف ذكاؤهم باختلاف استعدادهم الغريزى، فمجرد التربية وحدها لا يترتب عليها ذكاء الصبى، حيث هو غريزى، لا يزيد بالتربية المتزايدة ومع ذلك فالتربية الحسنة الفاضلة فى حد ذاتها خير من الذكاء المتوسط، والذكاء الكامل إذا صحبته التربية الفاضلة كان عظيما كثير النجاح، فإذا صحبته التربية المتوسطة كان يسير النتيجة، لا يبلغ صاحبة الرتبة المطلوبة، وبالجملة فالغرض من التربية تنمية الصغير جسدا وروحا وأخلاقا فى آن واحد يعنى تنمية حسياته ومعنوياته بقدر قابليته واستعداده.

كل الأنام بنو أب لكنما ... فى الفضل تعرف قيمة الإنسان

والتربية الأولية فائدتها أن يعتاد الصبى على أن ينقاد بطبعة إلى ما يريده منه مؤدبه، ويختاره له مرشده، فغايته المطاوعة، وهذا النوع كما يكون فى الإنسان، يكون أيضا فى الحيوان، بترويضه وتمرينه على الإطاعة، وأما تنمية العقل، التى هى غذاؤه بالمعارف كغذاء الجسم بالطعام، فهى خاصة بالإنسان، فكما أن غذاء جسمه

بالطعام الطيب ينميه وينعشه ويقوى أعضاءه كذلك غذاء الروح بالمعارف ينميها ويقويها، بشرط أن تكون هذه المعارف معقولة مقبولة، فالتربية المعنوية تزيد فى تنمية عقول الأطفال بالمعارف وحسن الأخلاق على التناسب من حسن إدارة المرشد والمعلم، فبهذا يقال لمن اكتسب المعارف الجيدة والأخلاق الحسنة، أنه حسن التربية.

وحسن تربية الآحاد، ذكورا وإناثا، وانتشار ذلك فيهم، يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعة، يعنى الأمة بتمامها، فالأمة التى حسنت تربية أبنائها، واستعدوا لنفع أوطانهم هى التى تعد أمة سعيدة وملة حميدة، فبحسن تربية أولادها، والوصول إلى طريقة إسعادها، لا تخشى أن تأتمن أبناءها على أسرار الوطن، ولا على ما يكسبها الوصف الحسن، بخلاف سوء التربية المنتشر فى أمة من الأمم فإن فساد أخلاق بنيها يفضى بها إلى العدم، حيث يغشو فيهم الانهماك على اللذات والشهوات والانتهاك للحرمات، والتعود على المحرمات.

«من علامة إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج». انتهى. قال الجمهور: إن الله تعالى خلق فى كل أحد استعدادا تظهر عليه علامته فى أول أمره، كما قال الشاعر:

فى المهد ينطق عن سعادة جده ... أثر النجابة ساطع البرهان

وقال بعضهم: إنه ينبغى للعاقل أن يتجشم فى نيل مطلوبة الشدائد، ويجهد نفسه فى طلب المعالى، ليظفر بالحظ الأوفر، كما قيل:

سأطلب كل منزلة ... تعرض دونها العطب

فإن أسلم رجعت وقد ... ظفرت وأنجح الطلب

وإن أعطب فلا عجب ... لكل منية سبب

وبالجملة فمن شمر عن ساعد الجد وجد مفتاح المجد، فالأمة التى تتقدم فيها التربية، بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن على وجه

تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها، فإن التربية العمومية هى الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية، ومعرفة آدابها، علما وعملا، والتأدب بآداب البلاد، فالتربية هى أساس الانتفاع بأبناء الوطن، لا سيما تربية أبناء الأمراء والأكابر والأغنياء بتحسين أحوالهم، وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم من الصغر على ترك الكبر والإعجاب ومحبة النفس، وتكليفهم باستعمال الرفق واللين والتلطف مع غيرهم، حتى لا يتجارى أحد من عوام الناس أو خواصهم على لومهم على أفعالهم وأطوارهم وحركاتهم، ومن أهم ما ينبغى تجريدهم عنه من المثالب: محبة النفس التى أفسدت أخلاق الناس، فاجتناب محبة النفس للتربية من أعظم أساس.

الفصل الثانى

فى محو محبة النفس
من الأطفال فى حال صغرهم
وإزالتها عن الكبار فى حال كبرهم

محبة الإنسان لنفسه هو إحساس فيه يبعثه على أن يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها وشفاء غليلها وقضاء شهوتها، فالمتصف بهذه الصفة يجعل نفسه محبوبته وبغيته من الدنيا، ومركز دائرة مرغوبه، فلا تنبعث أشعة فكره إلا إليها، وكل ما يتمناه أو تشتهيه نفسه من الغنى والزينة والفخار يجعله عائدا عليها، وكذلك يقصر بحثه على إزالة الشر عنها، فلا رغبة له فى نفع الإخوان ولا الأوطان، فجميع ما يجلبه من خير أو يدفعه من شر ولد من هذه المحبة، فهى بالنسبة إليه سبب اللذات والآلام، ومجلبة الشهوات الجسمية والعقلية، فالإنسان مطبوع على أن يحسن له حب النفس ما فيه صلاحه الخاص به، بما يوافق ميله وضعفه وتولعه بالفخار ويزين له الوصول إلى هواه، فأحب ما على الإنسان التعبير عن نفسه «بأنا» أو «نحن»، ليشرف نفسه ويزينها بما يستطيعه، وأعظم فخر للإنسان المحب لنفسه إذا اجتمع بأقرانه وأمثاله أن يظهر عليهم بمظهر الهيبة والإجلال، وأن يحب منهم أن يدركوا منه قوة عقله وفضائله ومزاياه الخصوصية، ليحترمه جميع الناس، وهذا ما يرضيه غاية الرضى، ويساعد على بلوغه مناه، ويعود على حوائجه بسهولة القضاء، وما هذا كله إلا لأنه يحب نفسه حبا جما، وربما تجاوز فى حبها الحد مما أعمى وأصمى، فلا يحب سواها، ويبلغها من جميع ما تشتهيه مناها، فهى لمأموله مركز الآمال، ومحط الرحال، ومن ذلك أنه يحب العلو على الجميع، فكأن عباد الله مخلوقون لجنابه الرفيع، ودائما يريد منهم المدحة واستحسان الأفعال، فهذه الخصلة فى

الحقيقة خارجة عن حد الإنصاف والاعتدال، لا يعد صاحبها إلا ظالما لنفسه طائعا لهواه، جائرا جبارا متملقا حسودا لمن سواه، فحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشري، دالة على دناءة النفس، حيث إن صاحبها مقصور الهمة على منفعة نفسه، لا يعود نفعه فى شيء على إخوانه وأبناء جنسه، وهى منبع الحرص والطمع.

إذا شئت أن تحيا حياة سهلة فلا تحفل بحب النفس أو تغتر بالدنيا

وقد كتب «الإسكندر» إلى «أرسطاطاليس»: أن عظنى، فكتب إليه: «إذا صفت لك السلامة فجدد ذكر العطب، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها فى الآثام نصيبا».

وعلامة حب النفس أن يكثر الإنسان من مدحها، ويحكى عنها أفعالا عظيمة يطنب فى متنها وشرحها، فهو حب مذموم، وصاحبه ملوم، يدل على قلة العقل والأدب، ودناءة الأصل والحسب، وعلى الخفة والطيش، ولا يتمتع صاحبه بأهنأ عيش.

قال بعضهم: إنه ينبغى فى تربية الأولاد، من ذكور وإناث، أن يعتنى مربيهم بأن يطفىء من قلوبهم نار حبهم لأنفسهم، وحرارة حرصهم على جلب كل شيء لخاصيتهم، فإن حبهم للنفس بهذه الدرجة إنما هو عين البغضة لها، لأنه يجلب لهم بغض من عداهم من الإخوان. وكيف ينال السعادة من خص نفسه بالمحبة ولم يجعل لأخيه قدر حبه؟ وفى الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وهذا الحديث من أعظم آداب الدين وأسسه.

ومما يترتب على حب هذا الاختصاص الحزن عند فقده أو عدم الحصول عليه، حيث إن الحزن ألم نفسانى يعرض لفقد محبوب أو لفوت مطلوب ممن يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لا بد أن يصير فى ملكه، فإذا علم الحريص أن جميع ما فى عالم المحسوسات غير ثابت ولا باق، وأن الثابت الباقى هو ما يكون فى عالم العقل، لم

يطمع فى المحال، فإذا لم يطمع فيه لم يحزن، بل لا يطلب إلا بمقدار الحاجة، وترك الادخار، والاستكثار والمباهاة والافتخار، فمن طلب بقدر الحاحة أمن فلم يجزع، وفرح فلم يحزن، وسعد فلم يشق، وإلا لم يزل فى جزع دائم وحزن مستمر، فإن من طمع فى المحال لم يزل خائبا، والخائب محزون أبدا، والمحزون شقى دائما. فما أحسن فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها، وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها، فليتصفح العاقل ذلك طبقة طبقة من طبقات هؤلاء، فلا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته، والجندى بشجاعته، والزارع بزراعته، والشاطر بشطارته، فإذا لزم صاحب الفضيلة مذهبه وطالت عادته فيه كان أولى بالسرور من هذه الطبقات، ولا يعتريه الحزن الذى يجتلبه لنفسه، إذ ليس هو من الأشياء الطبيعية، بل أسبابه أسباب غير ضرورية، وإن من جلب لنفسه الحزن فهو غير عاقل، ولذلك قال بعض الحكماء: إن من أحب أن ينال الشر أعداءه فهو محب للشر، ومحب الشر شرير، وشر من هذا من أحب الشر لمن ليس له بعدو، وأسوأ من هذا حالا من أحب أن لا ينال أصدقاءه خير، ومن أحب أن يحرم صديقه الخير فقد أحب له الشر، وهذا لا يتصور إلا من الحريص الذى يحب اختصاص نفسه بالخير. فعلى الإنسان أن يرغب إليه تعالى فى التوفيق المقرون بالاجتهاد، إذ لا يتم آحدهما إلا بالآخر.

وأما إن كان حب النفس عبارة عن اعتبارها محبة للخير لها وللإخوان. واتصافها بالفضائل، وتجردها عن النقائص والرذائل، مثل أهل العدل والإحسان، والميل إلى أن تكون فى ميزان الخير راجحة، جامعة لأنواع الأعمال الناجحة، فليس بهذه الصفة من الأفعال الذميمة، حيث أضيف إليه حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان، فإن هذا يكون من باب علامة الإيمان.

الفصل الثالث

فى تعويد الأطفال، من أول شبوبيتهم، على العقائد الدينية، والتغذى بألبان الأحكام الشرعية.

قد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات، وسطرت الإرادة الصمدانية خطوط المصنوعات، وجعلت ذلك وقفا على تلاوة البصائر والألباب، ومشاهدة الأبصار والعيون عنوان هذا الكتاب، فكأنما أمرت العقول بالأنتقال من السفليات إلى العلويات، وبالنظر فى جميع الأزمنة والأمكنة وما أودع فيها من خير أو شر، أو نفع أو ضر، أو سعد أو نحس، أو حياة أو موت، أو صحة أو سقم، مما يجرى من مشيئته تعالى فى سائر الكائنات، فكل هذا يرشد إلى معرفته تعالى وحكمته، وحوله وقوته، كما نبه عليه تعالى بقوله ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ (الروم : ٨) ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته، وتدبير ملكه وحكمته.

(مقام العقل)

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل العقل النورانى فى القلب الإنسانى مرآة للعارف الفاضل، يميز به الحق من الباطل، كما أرسل رسلا ظاهرة ليبينوا العلم الظاهر الذى تجهله النفس الأمارة بالسوء، حتى لا تقيسه بقياسها الفاسد، بناء على ما يفهمه عقلها الكاسف الكاسد، فالعقل النير رسول قبل واسطة النبى المرسل والملك المقرب، وأما الرسول الحقيقى المشرع فقد أرسل من عند الله تعالى مبشرا ومنذرا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فهو مبين ومعين لما لا تستقل به عقول

البشر، وإن كانت العقول أفادت قبل الشرائع نوعا من التدبير، فالعقل الراجح الصحيح النظر، الخالي عن الموانع، قد يميز الحق من الباطل، وهو مؤيد لرسالة المرسلين، وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين العالمين فى العقول، ومنحهم منها ما شاء من كثير وقليل، وكما فضل بعضهم على بعض فى بعض الرزق وكثرة المال فضل بعضهم على بعض فى العقل، فعقول الأنبياء أرجح من عقول العلماء، وعقول العلماء أرجح من عقول العوام، وبقدر تفاوت العقول والبصائر، الشبيهة بالأبصار قوة وضعفا، يكون التفاوت فى إدراك قواعد الدين والدنيا، وبهذا يقع الإنكار والاعتزال لكثير من الناس فى أمور الدين، لنقصان العقول، كأهل الضلال والمشركين وعبدة الأصنام والوثنيين:

إن من أشرك بالله جهول بالمعاني

أحول العقل لهذا ظن للواحد ثاني

وكمنكرى البعث من الحكماء والفلاسفة:

قال المنجم والطبيب كلاهما لن تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

قال أعرابى لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين[1] رضى الله عنه، هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال: لم أكن لأعبد من لم أره، فقال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجور فى القضيات، ذلك الله الذى لا إله إلا هو! فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل، فيعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرته تعالى قليل، فالعاقل إذا سمع معقولا غريبا استحسنه، والجاهل إذا

---

(١) هو الملقب بالباقر (٦٧٦ - ٧٣٥ م) وهو الإمام الخامس من أئمة الشيعة الاثنى عشرية، وسمى بالباقر لكثرة عمله، وإليه تنسب مسائل كثيرة فى أصول التشيع.

سمعه قطع بتكذيب قائله وزيف ناقله، لقلة بضاعة عقله، وضيق نطاق فضله، ولهذا وصف تعالى الجهال بقوله ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الفرقان: ٤٤).

وقد أودع الله سبحانه وتعالى من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات كما قال ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ (يوسف: ١٠٥). وقد ندب إلى النظر فى عجائب الدنيا بقوله ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا** ﴾. (النمل: ٦٩)، (العنكبوت: ٢٠)، (الروم: ٤٢).

ومن سوء التربية أن الأم تكل تربية أولادها إلى غيرها، بدون أن تلاحظ تربية أولادها بنفسها، فإن الأم بما أودع فيها من الشفقة والرأفة على أولادها هى أولى وأرفق بالتربية ولتعديل مزاج أبنائها وبناتها، فإذا ربت المرأة أولادها إلى سن التمييز تربية حسية أو معنوية انتقش فى أذهان الأبناء اعتدال المزاج والاتصاف بمكارم الأخلاق وتهذيبها، وسلوك سبيل الرفق واللين، التى هى من صفات التمدن. .

رأيت صـــلاح المرء يصلح أهـله ... ويعـديهـم منه الفسـاد إذا فـسـد

يعظم فى الـدنيـا بفـضل صـلاحـه ... ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد

ففى أوائل حداثة الأولاد، ذكورا وإناثا، ينبغى إناطة تربيتهم بالنساء، مع ملاحظة الأمهات، وبعد ذلك تكون تربية الأولاد بحسب موافقة أحوال الأمة وطريقة إدارتها وأحكامها لينتقش فى أفئدة الصبيان الأساسيات والأصول الحسنة الجارية فى أوطانهم مثلا إذا كانت طبيعة البلد المولود فيها الإنسان عسكرية مائلة للحرب والضرب تكون تربية الأولاد الذكور أيضا تابعة لها، أصولا وفروعا، وتكون تربية البنات أيضا مائلة لمحبة الشجعان والأبطال وفحول الرجال ليشجعن الأبناء ويعتبرون النفع للوطن، وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك كان مدار التربية الصحيحة للأولاد مبنيا على ذلك، وفى هذه الخصوصيات جميعها الاستعدادية تلاحظ المعارف العمومية التى يشترك فيها جميع الأمم والملل، وكل هذا إجراء للناموس الطبيعى التى اقتضته الحكمة الإلهية مجراه، فقد فرق الله سبحانه وتعالى همم الناس للصناعات المتفاوتة والمعلومات المتباينة، جعل آلاتهم

الفكرية وأدواتهم البدنية مستعدة لها، فجعل لمن قيضهم لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبا صافية، وعقولا بالمعارف وافية، وأمزجة لطيفة وأبدانا لينة:

إن التشاغل بالدفاتر والمحا ... بر والكتابة والدراسة

أصل التعبد والتزهـ ... ـد والرياسة والسياسة

وجعل لمن قيضه لمعاناة المهن الدنيوية والحرف المعاشية، كالزراعة والبناء، قلوبا قوية، وعقولا كنزة، وأمزجة غليظة، لأن أكثر عمله منوط ببدنه، لا بعقله، وكما أن من المحال أن تصلح حاسة السمع للرؤية وحاسة البصر للسمع، فمن المحال أيضا أن يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة، ومع ذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى كل جنس من الفريقين نوعين: رفيعا ووضيعا، فالرفيع من يتحرى الحذق فى صناعته ويقبل على عمله طلبا لمرضاة ربه بقدر وسعه وطاقته، ويؤدى الأمانة فيما خلق له بقدر جهده واستطاعته فقال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٢٠).

قال ابن عطاء الله(١) مشيرا إلى هذا المعنى:

فى الأرض آيات فلا تك منكرا ... فعجائب الأشياء من آياته

وقال آخر

كم آية للإله شاهدة ... بأنه لا إله إلا هو

وقال آخر

أيا عجبا كيف يعصى الإلـ ... ـه كيف يجحده الجاحد

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

---

(١) ابن عطاء السكندرى، أبو الفضل تاج الدين ابن عطاء الله الجذامى السكندري (١٢٥٩ - ١٣٠٩ م) صوفى مصرى، يعد من أقطاب الشاذلية، ومن أشهر مؤلفاته (الحكم العطائية) أو (حكم ابن عطاء الله) وأيضا (التنوير فى إسقاط التدبير) و(لطائف المنن) و(القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد) و(تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس) و(مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح).. وكان مولده بالإسكندرية، وقبره فى سفح جبل المقطم بالقاهرة.

قال صاحب (الجوهرة):

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي

تجد به صنعا بديع الحكم لكن به قام دليل العدم

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وحجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص، ويثقب الفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص، يعلم أن الذى أودع هذا السر قادر على كل شيء، فلا تكون مكذبا بما لا تعلم وجه حكمته، فقد قال تعالى ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ (يونس: ٣٩). فالعاقل هو الذى إذا سمع شيئا أو رآه أو دعى إليه أو أمر به أو نهى عنه، وكان ذلك الشيء واردا شرعا، مخالفا لطبع نفسه أو موافقا له، ولم يدر أن الصواب فى الإقبال عليه أوالنفور عنه، دبره أولا بنظر العقل الذى أودعه الله تعالى فيه، وتفكر فى عاقبته وما يؤول إليه من الصواب والهدى أو الخطأ والضلال، فيحكم به العقل النورانى المودع فى القلب الإنسانى، ولا ينظر إلى ما تأمر به النفس الأمارة بالسوء، أو العقل الضعيف، لأن كلا منهما فى حرب مع العقل النوراني، وهذا ما يسمى جهاد النفوس، فتقع فيه الموازنة والمغالبة والمحاربة، وإلى ذلك أشار الصادق المصدوق حين رجع من بعض الغزوات بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فحينئذ ينبغي أن يبرز إلى النفس الأمارة ضرغام العقل على جواد ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ (العنكبوت: ٦٩) فيضربها بسيف الحق القاطع لدروع حجج الجهل المانع، فيقول لهذه النفس اللوامة: لم لا تطيعين من خلقك وخلق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وهو الله الذى لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له.

فإن قالت النفس: ما الدليل على ذلك؟ قيل لها: إنه لابد لكل مخلوق من خالق، لأنه لا يخلق نفسه ألبتة، فإن سلمت هذا وإلا قيل لها: فأنت خالقة أم مخلوقة؟ فإن قالت: خالقة، عرضت لها ذرة من خلق الله تعالى، وقيل لها: إخلقى مثل هذه الذرة، فضلا عن فيل أو جمل أو جبل أو سماء أو أرض، فإن عجزت عن خلق ذرة، ثبت أنها مخلوقة عاجزة مثل تلك الذرة، وقامت الحجة عليها وعلى جميع المخلوقات، لضعفهم وعجزهم، وثبت أن هناك شيئا هو

خالقهم ومالكهم ومدبرهم، وهو الإله الواحد الموجود القديم الباقي، وهو المريد القادر، المتصف بصفات الكمال، وعلمه القديم فى كل كلى وجزئى حاضر، كما قال الشاعر:

يا من تعرف لى به فعرفته … وبه المحبة حين أن أحببته

أنت الذى فى كل شيء حاضر … أشهدتنى علمى فمنك شهدته

وفى الحديث القدسى قال الله تعالي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة». انتهي.

وقد وقع السؤال عن حكمة الترقي، فأجاب التقى السبكى[1] بديهة: بأن صنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة، والأمر بمعنى التعجيز، فناسب الترقى من الأعلى إلى الادنى. واستحسن ذلك الحافظ ابن حجر[2] والمراد بالأعلى: الأعلى فى صعوبة العمل أو فى الخساسة قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ (الحج: ٧٣).

فقد اقتضت حكمته الإلهية، من غير وجوب عليه، أن يخلق المخلوقات ليدلهم على معرفته، بإظهار صنعته، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات: ٥٦). أى يعرفونى ويوحدونى، وحيث أن الإنسان مخلوق لتوحيد الخالق فينبغى تعليم الصغير ذكرا أو أنثى من مبادئ أمره إقامة الدليل على وجود الله، ووحدانيته، وباقى صفاته الواجب معرفتها، تفصيلا فى التفصيلى وإجمالا فى الإجمالى.

---

(١) هو أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، صاحب كتاب (طبقات الشافعية الكبرى).

(٢) هو أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني (١٣٧٣ ـ ١٤٤٩ م) محدث وفقيه ومؤرخ، وصل بمصر إلى منصب قاضي القضاة، ومن أشهر آثاره في الحديث (فتح الباري على شرح البخاري) وفي التاريخ (الإصابة في تمييز الصحابة).

الفصل الرابع

فى أنه ينبغى تعليم الأطفال، حين تربيتهم، أحوال المعاد كالمعاش[1]، ليجمعوا بين معرفتهما

من المعلوم أن قدرة الله سبحانه وتعالى كباقى صفات المعانى، وهى الإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، ثابتة القدم، وهى التى أوجد بها المخلوقات بعد العدم، وبها تكون الحياة بعد الممات، كما أشار بذلك سبحانه وتعالى بقوله، ردا على من أنكر الحياة بعد الفناء ﴿ **فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ (ق: ٢: ٣). وبقول تعالى ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾ (ق ٦: ١١) أى كما أحيينا الأرض من بعد موتها بذلك الماء كذلك نحييكم بعد موتكم، وكما أخرجنا جواهر المعادن والنبات والحيوان من الأرض وأوجدناها بعد عدمها وفنائها كذلك الخروج الذى أنكرتموه يكون بقدرة من يقول للشيء كن فيكون ومن هو على كل شيء قدير، وقال بعضهم فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (النحل: ٤٠). هو كناية عن سرعة الإيجاد عند تعلق الإرادة، وليس هناك أمر حقيقة، ولا كاف ولا نون، وإلا لو كان هناك أمر لتوجه أن يقال:

---

(١) المعاد: الآخرة. والمعاش: الدنيا.

إن كان الخطاب للشيء حال عدمه فلا يعقل، وإن كان بعد وجوده ففيه تحصيل الحاصل.

وقد بالغ بعض الملحدين فى الإنكار فقال: لو أن آدميا أكله آدمى آخر، فاستحال فيه أيضا لحما ودما، وهكذا إلى ألف أو أكثر، ثم مات الأخير منهم فأكلته الأرض حتى فنى وانعدم ولم يوجد له أثر، فكيف يكون رجوع كل شيء من ذلك؟ وكيف يكون وجوده بعد عدمه، وحياته بعد موته، وكيف يخرج ما استحال فى جميع ذلك حتى يتميز كل واحد منهم على حدته بذاته؟ فاستبعد كل ذلك بجهله، وتمادى على إنكاره البعث لضعف عقله. وجوابه: أنه لو استحال جميع المخلوقات بعضها إلى بعض، واختلطوا كلهم، وصاروا دما ولحما واحدا، أو ماء، أو هواء، أو نارا، أو ألطف شيء يكون، ثم فنى ذلك كله ولم يوجد له أثر، فليس عزيز عليه تعالى أن يوجده بالقدرة بعد عدمه، ويرده كما كان أولا، فلا يعجز عن تمييز كل واحد على حدته بذاته حتى يعيد إليه دمه ولحمه الذى كان عليه فى حياته الأولى، فيثيبه إن كان من أهل الثواب ويعاقبه إن كان يستحق العقاب، ولهذا خلق للسعداء دار النعيم وللأشقياء نار الجحيم.

والدليل على ذلك أن الله تعالى أوجد الناس أولا بعد أن لم يكونوا شيئا، بدون كلفة ولا مشقة ولا استعانة بآلة ولا شيء غير صفاته، كالقدرة والإرادة والعلم، فما أسهل عليه الإعادة وأهونها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ (الإنسان: ١) وقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ (الروم: ٢٧) وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ** ﴾ (العنكبوت: ٢٠) أى كما أوجدهم من العدم أول مرة كذلك يوجدهم بعد الفناء ثانية، إن الله على كل شيء قدير.

وقد صور الله الإنسان فى أحسن صورة، وجعله باقى النوع بالتوالد والتناسل إلى آخر الدهر، وركب فيه العقل النورانى المضاف إلى الروح المتصرفة فى الحواس، وألهمها بالحركة الاختيارية الصادرة عن إرادة الله بما قضاه من خير أو شر

أو طاعة أو معصية، حتى ينفذ ما سبق فى علمه وما أبرمه بمشيئته وحكمه، ليخرج بذلك من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس ٨). فيكون ما أراده تعالى قديما فى سابق علمه محكما فى ديوان حكمته وتدبير ملكه محدثا بقدرته دالا على وجوده ووحدانيته، شاهدا باتصافه بسائر الصفات التى تتجلى بمحاسنها على جميع الموجدات بالفعل والصنعة، فانطبعت فى جميع الموجودات آثار وجود البارى تبارك وتعالى، أى مظاهر صفاته التى ظهرت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فارتسمت فى مرآة قلب الإنسان كما يرتسم الشيء المنظور فى المرآة، فلهذا كان الإنسان أفضل المخلوقات وأكرمها على الله، وأحسنها خلقا بما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من بديع الحكمة ورفيع الصنعة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤). وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وعند ظهور الإنسان، الذى هو عبد مولاه، إلى عالم الشهادة، اقتضى المقام أن يكون الرب آمرا للعبد ناهيا له، وأن ما أمر به الرب يكون واجبا أو مندوبا، وما نهى عنه يكون حراما أو مكروها، وما فوض السيد أمره إليه، ولم يرتب فيه عليه ثوابا ولا عقابا ولا مدحا ولا ذما، كان مباحا فالتكليف بهذه الأحكام الخمسة شرعى، وحيث أن العقل النوارنى بالقلب الإنسانى صدق بوجود الخالق، فلا بد أن يصدق أيضا بملائكته وكتبه ورسله، الذين بينوا الحلال والحرام، وعليهم نزلت الشرائع والأحكام، وخاتمهم خير البرية الذى أيد بالمعجزات القوية لا سيما معجزة القرآن الباقية إلى آخر الزمان، والناسخ شرعه جميع الشرائع والأديان، والمنزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢) أى نصرك فى سائر أيامك، فإن أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته إلى وقت وفاته كان أمرا إلهيا، وتدبيرا عليا، وما كان

لكسب الخلق فيه مدخل، وكان تأييده صلى الله عليه وسلم المؤمنين والأنصار والمهاجرين، ومن بعدهم بالخلفاء الراشدين، ولا زال شرعه مؤيدا منصورا إلى يوم الدين، يقوم بتأييده صالحوا المؤمنين والملوك والسلاطين، فما أحسن الأمة التى تهذب أخلاق أبنائها على ما وردت به الشريعة الغراء، فهذه الأمة هى السعيدة دنيا وأخرى، قال بعض الصالحين: من لم يدخل فى قمقم الشريعة، ويختم عليه بختام الحقيقة فليس من أحبابنا، ولو مشى فى ركابنا. ولقد أحسن من قال:

أيها المدعى سليما سفاها ... لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت من سليم كواو ... ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو

وقال آخر:

وكل يدعى وصلا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

(ضرورة تعميم التربية)

وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة، ذكورا وأناثا، من أوجب الواجبات، كيف لا، والتربية مطلوبة حتى فى غير الآدمى، فإن كل أمة تعتنى بتربية ما ينفع الإنسان من الحيوانات المنزلية، كالخيول النافعة فى الجهاد، والنحل، ودود القز، وذوات الأصوات كالببغاوات المفقودة فى مملكة الموجودة فى أخرى، يصير جلبها لتربيتها وتطبيعها وتوليدها فى المملكة المجلوبة إليها. وكانت أمة اليونان المشهورة بالحكمة فى قديم الزمان تحسن تربية أبناء ملوكها غاية الإحسان، فلما ظهر أفلاطون[1] وأعجبته هذه التربية الحسنة وتهذيب الأخلاق بالطريقة المستحسنة التمس من اليونان أن يتخذوا تربية أبناء الملوك نموذجا ينسج على منواله تربية أبناء كل مالك ومملوك.

قال بعضهم: إن السبب الأعظم فى كثرة فحول الرجال وكبراء الأبطال فى بلاد

(١) عاش (حوالى ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م).

اليونان، فى أيام جاهليتهم[1] إنما هو كان بعد إحسانهم تربية الأطفال، فكانت صغارهم تربى على طرف المملكة، وكانوا يعودونهم وهم أطفال على الشجاعة والقوة، وكانت المرضعات لا يجعلن لهم قماطا، وكانوا يعودونهم أيضًا على عدم الخوف من ظلام الليل، وعلى عدم البكاء والتشكى إلا لحاجة لازمة، وكانوا إذا بلغ الطفل سبع سنين أمروا المعلم أن يعلمه التعود على الأشغال والتجلد على المشاق، والمبادرة فى الطاعة، وكان المعلمون يسوون بين سائر الأولاد فى التعليم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لأحد منهم بتعليم شىء وتقديمه على آخر، بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة، لأنهم مستوون فى القيام بالواجبات المتحدة فى المملكة، وكانوا يجعلون كل من ظهرت نجابته فى التعليم رئيسا على من عداه ممن لم تظهر له نجابة، فيحكم الأنجب فيمن عداه منهم، لكن بملاحظة الشيوخ، ليرد الشيوخ من الخطأ فى حكمه منهم إلى الصواب، ويجب تأديبه على ذلك بما يليق بخطأه من العقاب.

وطريق تعليم الأولاد التفاهم والتخاطب عند اليونان أن الآباء إذا اجتمعوا على مائدة عمومية يحضرون معهم أولادهم ليغتنموا فائدة محاورة تلك المجالس، وكانوا يسألونهم عن بعض أشياء مهمة فيقولون للواحد منهم ما رأيك فى هذا الشىء؟ أو فى هذا الرجل؟ ، ويحملونهم على رد الجواب بسرعة مع الاختصار وأدب الكلام، والقصد من ذلك أن ينشأوا على عادة حسنة، فيعتادوا العبارات الوجيزة، وتزيد فطنتهم وذكاؤهم ويسلكوا فى كلامهم مسلك البلاغة الدالة على علو همتهم.

وكان يونان «إسبرطة» بجزيرة مورة ممنوعين من العلوم الدنيوية، ومن الصنائع التى هى على الزينة والزخرفة مبنية، وإنما كانوا يميلون إلى الشعر لكونه يهيج نفوسهم ويزيدها شجاعة وحماسا، فمن ذلك ما حكى عنهم أنه اجتمع شيوخهم وشبانهم وصبيانهم للغناء، وشرع كل يغنى بشرح حاله، فقال الشيوخ، ما معناه:

(١) أي في عصر الوثنية، وهو العصر الذي خلفوا فيه الحضارة التي كونت جزءا هاما في التراث العام للإنسانية.

ونحن كنا سابقا منتظمين فى سلك الشبان، أرباب الشجاعة والرهان، فأجابتهم الشبان: كذلك بهذا الوصف الآن، ومن أراد البرهان فهاهى الشقراء[1] والميدان، فرد عليهم صبيانهم بقولهم: ونحن سنصير يوما من الأيام مثلكم فى حومة الفرسان، وفضلنا سيفوق فضلكم فى جوزة الشجعان، وبهذا هابهم الأجانب فى المشارق والمغارب. [شعر].

وسعودهم تثنى الأعادى عنهم إن السعود كتائب لا تهزم

فسعد حسن التربية بنيل المقصود، يبعد العدو عن عدوه خشية صولة الأشبال والأسود، فإن أشبال اليونان كانوا يدربونهم من أول صباهم، كما قيل.

بلغت لعشر مضت من سنيك لما يبلغ الرجل الأشيب

فهمك فيها جسام الأمو ر وهم لداتك أن يلعبوا

ـ واللدات الأمثال فى السن ـ.

وقد انتظم النساء عند اليونان فى سلك التربية، فاكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحة الأبدان، فبهذا كان لهن السلطنة العليا على قلوب الرجال بحسن التربية والتعليم، فكان يجب عليهن معاناه الرياضات الشاقة واستمرار اللعب والمصارعة، فبذلك حصل فى تلك البلاد من النساء، مدة طويلة، من العجائب والغرائب ما يساوى شجاعة الرجال، ولهذا أيضا احترمهن الأبطال احتراما بليغا، حتى أن سلطنتهن على قلوب الرجال نشأ عنها ميلهم لأعمال الشجعان لحبنهم، فمن ذلك أن بعض الأمهات قالت لابنها، لتسليه وقد جرح جرحا صار به أعرج: يا بنى لا بأس عليك بذلك، فإنك الآن ما سرت خطوة إلا وذكرت شجاعتك!

وكذلك كانوا فى مدينة «أثينة»، التى هى مدينة الحكماء، يعتنون بتعليم الأولاد، لعلمهم أن بقاء عز المملكة إنما يكون بذلك، ويحثون على الاشتغال بالحرف والصنائع، وكل من ثبت عليه من أهالى المدينة أنه لم يتعاط حرفة ولا

---

(١) الشقراء، أى الفرس.

صنعة، واتهم بذلك ثلاث مرات، فإنه يفضح على رءوس الأشهاد، وكذلك كل ولد يسرف فى أمواله أو يحرم أبويه من القوت فإنه يفضح على رءوس الأشهاد أيضا، إلا إذا كانا لم يعلماه صنعة فلا عقاب عليه بذلك، وأما الوالد إذا بخل بالإنفاق على ولده فلا يعاقب بهذه العقوبة.

ومن أحكام هذه المدينة أنه لا يجب على المرأة أن تتجهز لزوجها عند الابتناء بها بأكثر من ثلاثة أثواب وأمتعة قليلة الثمن خوفا على أهلها من الفقر، وإن من اجتمع بغير زوجته وعاشرها، أو خالط النساء المتبرجات، لا يكون من أرباب مشورة المدينة، لأنه لا يؤتمن على مصلحة الأهالى، وأن من سكر من أرباب مشورة المدينة فعقابه القتل، فبهذا تربية عموم اليونان كاملة فاضلة فى أغلب الأزمان، وناهيك بتربية أرسطاطاليس لإسكندر الأكبر، حيث ترشح بتهذيب أستاذه له إلى أن ملك الدنيا، وهزم فى كل الممالك الملوك والعسكر.

وقد اجتهد الأروباويون، الذين بلادهم الآن هى أقوى البلاد، فى أن يربوا بناتهم كتربية الأولاد، وكانت عادة الفرنساوية قديما أن يربوا بناتهم فى أديار الراهبات، ويمكثن فيها إلى حد تأهلن للزواج، وكثيرا من هؤلاء البنات كن يلبسن زى راهبات الكنائس إلى أن يخرجن من هذه المكاتب بوصف كونهن عرائس.

وكل ما كان عند اليونان وعند أهالى أوربا الآن من التمرين على الشجاعة لا يساوى قطرة من بحر بالنسبة لتمرين العرب على اقتحام الخطوب، وتحريض الأمهات للأبناء على الجولان فى ميادين الحروب، فقد حكى أن «الخنساء بنت عمرو» السلمية حضرت حرب «القادسية»[1] ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم، من أول الليل: «يا بنى، والله الذى لا إله غيره، أنكم لبنو رجل واحد، وإنكم بنو امرأة واحدة ماخنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وأنتم تعلمون قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا**

(١) قرية قرب الكوفة، حدثت عندها الموقعة الشهيرة التي فتحت بعدها فارس للجيش العربي، وبينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا، وهي على بعد أربعة أميال من العذيب. انظر (مراصد الاطلاع) لصفى الدين البغدادى. جـ٣. طبعة القاهرة.

وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) . فإذا أصبحتم ، إن شاء الله ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائكم مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وأضرمت لظى على سياقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند اخترام خميسها ، تظفروا بالغنى والكرامة فى دار الخلود والمقامة» . فلما أضاء لهم الصباح باكروا مراكزهم ، وشنوا الإغارة ، وقاتلوا حتى استشهدوا جميعا ، فبلغها الخبر ، فقالت : «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» . فكان عمر بن الخطاب يعطى للخنساء أرزاق أولادها الأربعة ، لكل واحد منهم مائتا درهم حتى قبض رضى الله عنه .

(دور المنزل فى التربية)

ثم إن تربية الولد ينبغى أن تكون فى بيت أبيه وأمه ، وهى التربية اللائقة للبيت ، وكل امرأة لم تربها أمها فى صغرها لم ترغب فى تربية أولادها فى كبرها ، وتربية الأمهات لأولادهن قليلة فى أوربا ، بل يكون أمر التربية موكولا للمرضعة ، والعادة أن تكون هذه المرضعة عاقلة مستقيمة ، متقدمة فى السن ، صاحبة معارف كافية ، كثيرة اللبن ، والعادة أنها دائما ماسكة بيدها عصا صغيرة تعلم بها الصبى ، وترضعه ، وتكلمه بكلمات تناسب سنه ، وتكتب له فوق التختة حروف الهجاء وجملا قصيرة تناسب حداثة سنه .

ثم يدخل كل من الغلمان والبنات المدارس المعدة لهن ، وفى بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانونا ، حتى عد أن فى بروسيا سدس الأهالى يتعلمون فى المكاتب ، ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة ومملكة بلجيقا والفلمنك وممالك أمريقة المتحدة ، فلهذا كان أبناء أوربا وأمريكا ذكورا وإناثا يحسنون فى الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافى ، ويعرفون مبادئ المعارف التى يتزين بها عقل الإنسان ، وهذا يشترك فيه عموم الأهالى ، وأما التربية الوسطى والعالية فهى مخصوصة بأربابها ، وسيأتى بيان ذلك فى مساق الأبواب الآتية :

الباب الأول

(فى حقيقة الإنسان، ونسبته إلى غيره من المخلوقات، وبيان فضائل الذكور والإناث، وما يتبع ذلك.

وفيه فصول).

الفصل الأول

فى الإنسان، من حيث ناطقيته

الإنسان هو الحيوان الناطق، ذكرا كان أو أنثى، وهو ذو حواس ظاهرة. كغيره من باقى الحيوانات، ويتميز عنها بحواس باطنة، كما يتميز عنها أيضا بشرف هيكله وناسوته، وبتناسب أعضائه الظاهرة والباطنة، وبشعر رأسه الذى هو زينة له، وبحدة بصره، وببيانه عما فى ضميره، وبإدراكه وفكره، وبصفاته الروحانية والجسمانية، كالفم الذى هو مظهر الضحك والكلام وبلطف سمعه الذى يدرك الأصوات المسموعة أيا ما كانت وكيف تشكلت، وبما ميزه الله به من الأعضاء، كاليدين اللتين يحسن بهما الصناعة، إلى غير ذلك. فالإنسان يشترك مع غيره من الحيوانات بالأشياء المحسوسة التى بها يحافظ على حياته، بصيانة نفسه من البرد أو الحر ووقايتها من الآفات الجوية، ومن تعاطى الغذاء الذى يسد به الرمق كل يوم، وقد وهبت الحكمة الإلهية للإنسان، كغيره من الحيوان آلات عضوية ذات وظائف تعينه على حفظ حياته، وقد اقتضت الحكمة إنه متى أصيب فى هذه الأعضاء وتعطلت مات حالا، فهذا ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان.

أما ما وهبه الله تعالى للإنسان خاصة، فهى حياته المعنوية وصفاته العقلية التى يعبر عنها فى تعريفه بالناطقية، ويتميز بها عما سواه، وهى أيضا توجب حفظه وصونه، فقد وهبه الله تعالى الدماغ الذى هو مجلس الحواس الباطنة والقوى العقلية التى هى آلة الفكر وأداة النظر، وإن شئت قلت الناطقية، أى الجزء الناطق من الإنسان، وهو الروح البشرية التى هى عبارة عن الفكر والإرادة. فبالإدراك يقتدر أن يرتب المقدمات لاستخراج النتائج، وأن ينسب الماضى للحال، ويتبصر فى عواقب المستقبل، ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية، ويميز

الحسن من القبيح والضار من النافع، وبالإدراك والفهم يصلح الإنسان الأشياء ويشكلها على الوجه المطلوب، وعن الإدراك يتولد الرضى والغضب واللذة والألم والفرح والصفا والكدر، فهذه الصفات من صفات الروح البشرية بواسطة الإدراكات العقلية، فتحس بها الروح إحساسا سبقيا، فإدراكها ضرورى خارج عن تعلق الإرادة، فلا يتوقف الإدراك عن الإرادة فى شيء من الأشياء. والقوة الثانية للروح هى قوة الإرادة، وهى الميل النفسى للفعل والترك، وهذه القوة فى الإنسان قاصرة محصورة فى حدود نظام بنيته، فليس الإنسان فعالا لما تريد، بل له نوع من الاختيار بميله الخاص به، فهو دون غيره، لناطقيته، يفصح عما فى ضميره بما يختاره من الكلمات والألفاظ الاصطلاحية والتفنن فى العبارات ذوات الروابط القوية.

فقد أودع الله فى الإنسان حفظ المعلومات ووجودها فى مذكرته، وبهذا حصل التفاهم بين الناس بعضهم مع بعض، وتربت الملكات، وقويت القوى العقلية والإدراكات، وبهذا أيضا بلغ الإنسان مرامه، وجعل جميع ما عداه من الكائنات ينقاد له ويطيع أحكامه.

الفصل الثانى

فى سلطنة الإنسان بسبب ما فيه من الناطقية على جميع المخلوقات وانقياد ما عداه من الكائنات.

لا شك أن الإنسان بما أودع فيه من القوى العقلية اهتدى إلى المعارف والعلوم والفنون والصنائع، فبأفكاره الجليلة عرف أن ينتفع بما حوله من المخلوقات ويجلبها إليه ويجعلها طوع يمينه، ولما وهبه الله سبحانه وتعالى الشهامة والشجاعة والحماس، وكلها من سمات الناطقية، كان تارة بصوته الجهورى المطرب ينشد شجاعة الشجعان، ويصف فروسية الفرسان فى حومة الميدان، وتارة يرسم بيده رسوم الوقائع والنوازل، وخرطات المسالك والمدائن، وطورا يشتغل بتطريق المعادن، وطورا يبنى قصرا مشيدا، وتارة يشتغل برصد النجوم ويقوم الأجرام السماوية بالنظارات الفلكية، ويمسح دوائر أفلاكها بالمساحة الهندسية، ويمسح الأرض ويعرف أطوالها وعروضها ومسافة ما بينها وبين الشمس، وأخرى يمعن النظر ويجيل الفكر إلى ما وراء الطبيعة، فيتكلم على الإلهيات، ويدخل بعقله فى البحث عن العلويات، وقد يتنازل فى البحث إلى مواد ليست علوية إلا إنها فى ميزان الاعتبار لها فضل الراجحية، يرقى الباحث عنها إلى أوج الفخار، ويبلغ فى معاناتها شأو الاعتبار، كالفنون والصنائع التى يحتاج إليها لتدبير أمره وراحة سره، فيميل عقله مثلا إلى استحسان الفلاحة، التى تفيد النوع البشرى صلاحه، ففى كل يوم بعناية الزارع الفلاح، وسلوكه بالغرس وخدمة الأرض طريق الفلاح، يبدو فى الأراضى مغارس جديدة، ونفائس مفيدة فيتحصل لثروة الأوطان محصول التيل والكتان، وبتنظيفهما وتبييضهما بالصناعة ينشأ عنهما ثياب بيضاء ذات بريق ولمعان، وبتربية الغنم فى المراعى النضرة المروج الخضرة تكثر فى الوطن الأصواف

الجيدة، كما بتربية دود القز يكتسب القطر من الحرير أجوده، ولأيدى ابن آدم يلين الحديد، وتتطرق المعادن وتنتج عنها المصنوعات النافعة لفتح الممالك والمدائن كآلات الحرب وأدوات الطعن والضرب، مما يحصل به النصر والتأييد، وكل يوم آخذ فى الترقى والتجديد . .

لولا بنو آدم بين العالم ما بان للعقول فضل العالم

أو ليس الإنسان هو الذى يغرس الأشجار الجافية كالنخيل وغير النخيل وإذا أراد توقيع نخلة سقطت بين يديه ونفعها له ليس بقليل، فيتخذ منها مصنوعات جليلة ومشغولات جميلة؟ ومن فضائل فطنة الإنسان الوقادة، أن الحيوانات بأسرها إليه منقادة، ومستعدة لتوفى له مراده، فمنها ما يتخذه للغذاء والحرث أو الحمل أو إزالة الغذا، ومنها ما يستعمله للصيد أو للحرب مع عمرو وزيد، ومنها ما يتخذه مطية أو يعده للسباق والفروسية، ومن أعجب ما يصطنعه الإنسان لمنفعة نفسه، مما يعود فى الحقيقة على أبناء جنسه، أن يفتح طرقا واسعة فى لجج البحور لإسفار السفن واقتحام الأخطار لكل جسور، فبهذه الطرق العليا تجرى الجوارى المنشآت فى بحبوحة بحار الدنيا، وتستكشف المسالك والممالك، وتقتحم مفاوز البحار والمهالك، فيطلع أرباب السياحة والتجارة على محصولات بلاد البداوة والحضارة، وما هذا إلا من بحث الإنسان بفطنته الزكية وقواه العقلية، فكلما نظرنا إليه من حيثية اتصافه بهذه الفضائل حكمنا له بأنه الإنسان الكامل، وأنه بقوة ذكائه النافع هو الذى ظهرت على يده هذه المنافع، وأما إذا نظرنا إليه من حيث جواهره المادية وأجزاؤه الحسية الطبيعية، وتأملنا إلى كونه لحما ودما وعصبا وعظما، وجعلنا مطمح نظرنا صورته الجسمانية، وصرفنا النظر عن إدراكات روحه النورانية، وقابلناه بما عداه من الحيوانات، وقسناه بما سواه من هذه المخلوقات، علمنا أنه من أضعفها لا محالة، وإنه لولا العقل والفكر لم ينل من الانتفاع منها ما ناله .

الفصل الثالث

(فى قياس الإنسان بما عداه من الحيوانات، وأنها أقوى منه من بعض الحيثيات)

قد منحت الحكمة الإلهية الحيوانات الإنسية والوحشية سلاحا تدفع به عن نفسها، وتسطو به على أبناء جنسها وغير جنسها، وأما الإنسان فهو مجرد عن ذلك، ومعرض بجميع أعضائه للمهالك، فجلده عرضة لحر الشمس وزمهرير البرد ومضار الرياح العواصف، والتلاقيح القواصف، وقد حمى المولى سبحانه وتعالى جميع المواليد فى سائر الهضبات والبطاح، حتى جعل للأشجار قشرا عليها، وغلافا يقوم عندها مقام السلاح، ولم يكن للإنسان مثل ذلك، ويظهر قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) فى كون الإنسان من حال طفولته على غاية من الضعف، وعرضة لما لا يعد ولا يحصى من الأمراض والأوجاع، وملازمته للآلام مدة حياته بدون انقطاع، ومما يفيد أن الإنسان أسوأ حالا من جميع خلق الله أنه من حال ولادته لا يستطيع أن يقوم بنفسه، وأنه ضعيف المعدة، مضطرب العقل الفطري، مجرد عن التمييز، خرج من بطن أمه لا يعرف شيئا، عرضة لأن يقاسى ما يقاسى فى مدة عمره من الشقاء، لا يتمتع بالراحة والسعادة إلا ببذل نفيس عمره من مبدئه إلى آخر أمره، ومع ذلك فهو دائما غير آمن مما يكدره من صروف الزمان وتغير الحدثان. فهل تستطيع أن تقول أنه ذو قوة متين، أشم العرنين، إذا قابلناه بأسد العرين؟ وهل يسوغ لنا أن نحكم بأنه سريع العدو فى الفلوات والقفار، إذا قابلناه بالفرس والإبل وكل حيوان عدَّاء؟ وهو أيضا مجرد عما وهبه الله تعالى للطيور من الطيران فى الهواء، وليس عنده ما عند السمك من سهولة السبح فى الماء وليس له من حاسة الشم ما أودع منها الكلاب، ولا من حدة

البصر بقدر ما فى الصقور، ولا من السمع ما فى الأرانب، وليس له من ضخامة الجسم ما للفيل، وليس فيه من اللين والانعطاف ومطاوعة الأعضاء ما فى القردة، وليس فيه من الخفة ما فى الظباء والغزلان.

وقد منحت الحكمة الإلهية والقدرة الربانية كل حيوان من تلك الحيوانات بمناسباته، وخصته بما يهتدى به لجميع احتياجاته وضرورياته، فخصت الطيور الجوارح بأظفارها، ووهبت لذوات الأربع مخالبها وقرونها، لتدفع عن نفسها، حتى السلحفاة التى هى أضعف الحيوان فقد جعلت لها درعا يدفع عنها الأذى، ويمنع عنها القذي، بخلاف الإنسان، فقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شيء إلا بالتربية والتعليم، فوجب تربيته وتعليمه وإرشاده للمعيشة والتكلم، وتعويده على أن يتفكر ويتأمل، فبهذا كان محتاجا إلى ما لا يعد ولا يحصى من أدوات المعاناة والتمرين والتجربة والممارسة على مدى الزمن، حتى يمكنه أن يصل إلى أداء ما يحتاج إليه فى تعييش نفسه، فلا يصل الإنسان إلى درجة المعرفة الكاملة إلا بالمرور والعبور فى طرق المشاق والمصاعب. أو ليس أن أول صوت ظهر من الإنسان عند الولادة صياحة بالبكاء والأنين؟ وقد خرج من بطن أمه عاريا مقبوض الكفين؟ ومما ينسب للإمام الشافعى، رضى الله عنه:

وفى قبض كف الطفل عند ولاده ... دليل على الحرص المركب في الحي

وفى بسطها عند الممات إشارة ... ألا فاشهدوا أنى خرجت بلا شى

وقال آخر:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من رداها يهدد

ومع ذلك فيتراءى فيه من صغر سنه الميل إلى الإعجاب، وإنه مخلوق لأن يأمر وينهى ويدعو فيجاب، ويتصرف فيما عداه من المخلوقات، فإذا بكا فى مهده لف

باللفائف وحرك مهده وضم كتأمين الخائف، فكأن ابتداؤه فى مهده مبدأ عقابه، وإذاقته طعم عذابه، وليس له ذنب سوى أنه طفل ممدود، وفلذة كبود، بخلاف صغار الحيوانات فلا يعتريها شيء عقب ولادتها من هذا الداء، ولا تحتاج لعلاج الأمهات ولا الأطباء، فليس منها ما فيه مخافة بنى آدم ولا رقة بنيته ونحافتها، وليس فيها من كبر الآدمى وعجبه فى حال الطفولية، وليس فيها ما فيه حين عرعره[1] من الوساوس والأوهام، والمطامع والحمق والجنون، وما أشبه ذلك من العيوب والمثالب التى هو بها مفتون، فهى حظه ونصيبه من الدنيا الدنية، فيلزم تلطيفها ومحوها من عقله، لأن الإنسان لا يصل إلى درجة الكمال، ولا يقدر أن يدير أمور دنياه وأخراه ليخلص من الهلاك والوبال إلا إذا عانى ما لا بد منه من المصاعب، وقاسى ما لا مزيد عليه من المتاعب، فكأنه افتدى صلاح حاله ومآله، وكمال سعادته وإقباله، بأعلى الأثمان، واشترى بأنفس ما عنده ما يخلصه من مكاره الزمان، فإذا كان هذا حاله، وليس مخلوقا إلا كالآلة لانتظام العالم وحفظ النوع البشرى من الضياع، فلا يعد فى الحقيقة بالنسبة لجثمانه إلا من سقط المتاع.
فلا يقال: إن جميع ما خلقه الله إنما هو لأجل هذا الإنسان، من حيث جثمانيته، بل من حيثية أخرى امتاز بها وهى عقله وعلمه، كما لا يسوغ أن يقال: إن جميع الرعايا فى الدنيا مخلوقة لأجل أن تحكمها الملوك، وتسترعى للغنى منها والصعلوك، أو ليس أن رب الأرباب هو الذى خلق الذباب وسلطه على البشر، وجعل الدود يأكل أحشاء بنى آدم، وكذلك سلط الحشرات الحقيرة على أن تتمكن فيه من اللحم والدم؟ فهل تنقاد لابن آدم الكواكب والفصول والرياح، وهل يتصرف فيها بالتصرف المباح، ومع ذلك فهو بعقله ملك ما فى الأرض، وله سلطنة على من عداه من الكائنات فى طول البسيطة والعرض [شعر]:

قل للذى يبتغى دليلا	**من غير طول على المهيمن**
ما ذرة فى الوجود إلا	**فيها دليل عليه بين**

---

(١) عرعره: العرعر: الخلق السيء.

الفصل الرابع

فى أن بنى آدم، بالنسبة لجثمانهم، يستوون مع غيرهم فى هذه الدنيا من جماد العالم ونباته وحيوانه، ولا تأثير لهم فيما عداه، بل التأثير لخالق العالم ومولاه.

من المعلوم أن سعادة الإنسان موقوفة على وجود المخلوقات التى لا يتم له راحة إلا بها، ولكن من حيث أن آفات الدهر كالوباء والقحط والمرض والحرب والحقد والحسد والشقاء والألم كلها تدل على أن الإنسان من حيث مادته الجسمية ليس أسعد من غيره من الموجدات، كان يظهر أن المالك العادل سبحانه وتعالى سوى بينه وبين ما عداه، حتى يشاركهم فى كونه لم يتم سعده، وإنه لا فضل له عليها بالنسبة لمادته الجسمية، ولو أن ابن آدم فى الحقيقة هو الطبقة الأولى من الكائنات، فلم يقه مولاه من المقدورات العرضية، بل جعل أفراد الإنسان تحت أرجوحة القدر، لا يدفعون عن أنفسهم ما حكم الله به عليهم من الحياة والموت، حتى جعل الملوك والرعاة كالأزهار تنعشهم الحياة ويطفئهم الذبول حتى يؤل أمرهم للانعدام، ليشاركوا الحيوانات والنباتات فى الفناء. قال أبو العتاهية[1] فى وعظية له:

هل أنت معتبر بمن خربت ... منه غداة مضى دساكره

وبمن أذل الدهر مصرعه ... وتبرأت منه عساكره

(١) إسماعيل بن القاسم (٧٤٨-٨٢٦م) شاعر مشهور أكثر من الغزل فى صدر حياته الشعرية، ثم مال إلى الزهد وشعر الحكم، وكان صاحب نظرة فلسفية وفكر جبري وموقف متشائم، ولقد عكس شعره هذه القسمات الفكرية.

وبمن خلت منه أسرته	وبمن خلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم	صاروا مصيرا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته	والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الدنيا	فإن الموت آخره

(المعنويات سر سيادة الإنسان)

فليس الإنسان من حيثية جسمه، بالنسبة لما عداه إلا مادة مؤلفة من أجزاء منتظمة، قابلة للتحويل والاستحالة من حالة إلى أخرى، كما يشاؤه الملك القادر، فليست سلطنة الإنسان على الكائنات ولا تدبيره لها فى الحقيقة ونفس الأمر إلا لما خصه الله من الصفات المعنوية التى هى أسرار الناطقية، فهو واسطة من وسائط التدبير، بما أودعه فيه من السر اللطيف الخبير، وهو ترجمان لسان القدرة الإلهية. ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾، الذى خلق الموت والحياة فى سائر الأمكنة والأوقات، وقدرهما على الحيوان والنبات، وجعل الإنسان داخلا فى العموم، وكونه أول عبد لمولاه معلوم، فهو العالم بما يدبر به العالم فيه فيعبده كما بدا، وله صفات الكمال أزلا وأبدا.

(التأثير الفعال للخالق)

فلا تأثير للإنسان فيما كان ولا يكون من حركة أو سكون، فلا يقدر على تحريك كوكب من الكواكب، ولا على تسكين شىء من الأرض التى يسكنها، ولا على تسيير ماش ولا راكب، ولا فعل له أصلا فى شىء من المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولا فى تنويع أنواعها، ولا فى وضع أعضائها التركيبية، بل جميع هذه الأشياء توجد وتتعاقب وتتجدد وتسكن وتتحرك بقدرة إلهية لا تستطيع أن تعارضها فى ذلك القوة البشرية، فلا يقتدر الإنسان أن يسعى فى تخليد نفسه، ولا

أن يمنع عنه ذات يوم الحلول فى رمسه، فبهذا كان النوع البشرى بملازمته للجسمية والمادة مشاركا للمخلوقات فى الحكم الإلهى الذى خصها به من التوالد والنمو والانعدام . قال بعضهم:

إذا شوركت فى أمر بدون — فلا يلحقك عار أو نفور

ففى الحيوان يشترك اضطرارا — أرسطاليس والكلب العقور

ولما كانت بنية الإنسان، بأجزائها المادية، أكمل من سائر المخلوقات، وإنه مخلوق من تراب الأرض وراجع إليه، وكانت أفراده وأنواعه على حد سواء فى الخلقة والبنية وإن اختلفت الألوان والطباع والسمات، كان بهذا المعنى لا يخرج عن الوحدة الخلقية وإن اختلف إقليم وجوده وقطره، وأحوال أنواعه وطريقة معيشته وفطانته، فهو إنسان، يعنى حيوانا ناطقا، تستوى أفراده وأنواعه فى الحيوانية والناطقية كما يشترك الفرس فى أنواعه بالنسبة للحيوانية والصاهلية، وكذا سائر الحيوانات، وإنما يختلف باختلاف المكيفات، حسنا وقبحا، شرفا وضعة، نباهة وسفاهة، مع تقارب أرباب النباهة فى جميع البلاد بعضهم من بعض فى الصفات الحميدة، ومحاكاة الغوغاء والسفهاء بعضهم لبعض فى المثالب والمعايب. فإن حكايات ملوك الدنيا وأمرائها وأشرافهاوعظمائها وحكمائها تتقارب فى الوسائل والمقاصد، وكذلك حكايات السفهاء والرعاع من جميع البلاد يشبه فيها بعضهم بعضا، وربما كان نفعهم فى الممالك عظيما، ولذلك ورد فى الحديث المرفوع «إن الله ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم». وكان الأحنف بن قيس[1] يقول: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار. أو ليس أنهم هم الذين يطفئون الحريق، ويستنقذون الغريق، ويسدون الجسور ويبنون الثغور؟ وقال الشافعي، رضى الله عنه: لا بد للفقيه من سفيه يناضل عنه ويحامى عليه وقال الشاعر:

(١) هو الأحنف بن قيس السعدى التميمى، واسمه الضحاك بن قيس، أو صخر بن قيس، كان أحد الدهاة والحكماء، وعمل واليا لعلى بن أبى طالب على البصرة، وتوفى سنة ٦٧ هـ سنة ٦٨٦ م.

وإني لا ستبقى أمرأ السوء عدة لعدوة عريض[1] من القوم جانب

أخاف كلاب الأبعدين وهرشها إذا لم تجنبها كلاب الأقارب

يعني أن غوغاء كل مملكة تدفع غوغاء الأخرى، لأنه يستعان على الحديد بالحديد، وقد ذكر عامة البلد أن واصل بن عطاء[2] قال: ما اجتمعوا قط إلا ضروا، وما تفرقوا إلا نفعوا. فقيل له: قد عرفنا مضرة الاجتماع، فما منفعة الافتراق؟ فقال: يرجع الحائك إلى حياكته، والطيان إلى تطيينه، والفلاح إلى فلاحته، وهكذا كل صانع إلى صنعته، وكل ذلك من مرافق المسلمين ومعاونة المحتاجين. وقال الجاحظ[3]: كأنهم أعداد عام، يعني أناسا مستوين واحدهم فى بواطنهم أشد تشابها من التوأمين فى ظواهرهم، وكذلك هم فى مقادير العقول وفى الاعتزام والسرعة وفى الأسنان والبلدان، فقد تشابهت قلوبهم، إلا على ترى أنك لا تجد أبدا فى كل بلد وكل عصر الحاكمة إلا على مقدار وجهة واحدة من السخف والخمول والغباوة، وكذلك النخاسون على طبقاتهم من أصناف ما يبيعون ويبتاعون، وكذلك كل حجام على الأرض فهو شديد الحرص، وإن اختلفوا فى البلدان والأجناس والأسنان، وكذلك طبقات الشرف يشتركون فى علو الهمة والميل إلى حفظ ناموس الأمة، والتباين بين الخواص والعوام لا يوجب التباين بين حقيقة الناطقية الجامعة للجميع فى وصف الإنسانية، فهى أحوال وأكوان كالصفات والألوان لا تمنع العامى والنبيه والأبيض والأسود من كونه كالآخرين: إنسان.

---

(١) العريض: الذى يتعرض للناس بالشر.

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء، الغزال (٦٩٩ - ٧٤٩ م) إمام مدرسة المعتزلة، وأول من تبلورت على يديه هذه الفرقة كتيار متميز فى الفكر الإسلامى، وهو يعد أول من جعل العقل مصدرا للمعرفة الدينية إلى جانب القرآن والسنة والإجماع، وكان موقفه الفكري المتميز ردا على غلو «الخوارج» وتقصير «المرجئة» حيال الموقف من حكام بنى أمية الذين أجمعت التيارات الفكرية على أنهم مذنبون وآثمون ومرتكبون للذنوب الكبائر.

(٣) أبو عثمان بن عمرو بن بحر (٧٧٥ - ٨٦٨ م) من أكثر أئمة المعتزلة ومفكريهم وأدبائهم شهرة، وإلى كتبه التى بقى لنا منها الشيء الكثير، يرجع الفضل فى وضوح موقف المعتزلة فى عديد من القضايا الفكرية، لأن الرجل كان صاحب نظرة شاملة ومتكاملة للكون والمجتمع وما يعتمل فيه من فكر وثقافة وعقائد.. ولقد بلغ تعداد كتبه ورسائله أكثر من ثلثمائه وخمسين كتابا ورسالة..



الفصل الخامس

فى استواء الإنسان فى أفراده وأنواعه، وعدم اعتبار ألوانه وطباعه فى ميله للتمدن بالطبع

لا شك أن الإنسان، سواء كان ملكا أوسوقة، شريفا أو مشروفا، حضريا أو بدويا، فلاحا أو صيادا، حرا أو عبدا، متمدنا أو متخشنا، يتناسل مع سائر أنواعه المنتشرة فى الدنيا، فيخرج النسل بين الأبيض والأسود، والعربى والأعجمى، والمتمدن والمتبربر، وتتناسل أمم الأقطار الحارة مع أمم الأقطار الباردة، فالأفراد المتولدة من هذا الاختلاف تتحسن أخلاقهم وطباعهم وألوانهم وأبدانهم، وتنتقل صفاتهم الأصلية عن أصلها حيث تخلفها صفات التوالد بعضهم مع بعض، فيحدث من ذلك أسماء أجناس الأمم، وهذه الأسماء إنما تدل على تكييف الجنس المنقاد لأحكام طباع الأراضى المولود بها ذلك النوع المخصوص بأحوالها وصفاتها، وتسمى هذه التكيفات والتشكلات بالألوان والأجناس تسمية عرفية لأصحاب الجغرافية، فبهذا قسم بعض العلماء ألوان الأمم وأجناسهم إلى ثلاثة أقسام، بعضها متميز عن الآخر: **الأول**: الجنس الأبيض المسمى بالقوقاسى، أى الجركسى، **والثانى**: الجنس الأصفر، والمسمى بالمنغولى، أى التتارى، **والثالث**: الجنس الأسمر، المسمى بالسودانى، وبعضهم قسمها إلى خمسة أقسام فزاد على الأقسام الثلاثة السابقة الجنس الملبارى، أى الهندى، والجنس الأمريكانى، وبعضهم زاد على ذلك فأكثر الأنواع، وذكر منها الجنس العربى، والجنس الحبشى، وهما داخلان عند من لم يزدهما فى الجنس القوقاسى حيث إن المعتبر إنما هو أصل البياض المقول بالتشكيك، أى المختلف الحقيقة، مع اعتبار تناسب الأعضاء فى الحسن والوضاءة، ولا شك أن العرب والحبش موصوفون بذلك

وإذا أمعنا النظر وأنعمنا الفكر فى تنظيم بنية الإنسان وتركيبه القويم، وخلقه فى حسن تقويم، وتأملنا أوصافه الجسمية وفضائله العقلية، تبين لنا أنه مخلوق من أصل فطرته بعقله وحسه لأن يعيش بالتأنس والاجتماع مع أبناء جنسه، وأن قوته البشرية تميل إلى الاحتياج إلى غيره، وإنه إذا لم يجتمع بالتأنس والعمران مع أمثاله كان أضعف من الحيوان الذى عند انفراد الإنسان يوشك هو أن يهم باغتياله، ويذيقه كأس وباله، فلولا ما فى الإنسان من صفة الإدراك العقلية لما تسلطن على المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولكن شرط تسلطنه على هذه الكائنات صقل إدراكه بتأنسه مع أبناء جنسه، وإلا لما أمن من اغتيال ما عداه فى غده وأمسه، ولو لم يكن الإنسان مخلوقا للتأنس مع إخوانه والاجتماع مع أقرانه ليصنع معهم هيئة اجتماعية، وحالة عمران تمدنية، لم يكن لتخصيص الحكمة الإلهية له بصفة الناطقية كبير مزية، فقد منحه الله سبحانه وتعالى قوة الكلام، وخصه بقوة الفكر والفهم والإفهام، ليدرك ما الأشياء التى حوله من المشابهة والمباينة ويعرف النسب بين الأشياء الخفية والمعاينة وقد خصه الله سبحانه وتعالى بالنفس المطمئنة، التى تسمى بالذمة، ليميز بها ما يستحق المدح والمذمة، وليتحقق بها ما له وعليه من الواجبات والحقوق لكل إنسان مثله، بل لكل مخلوق، وكذلك ميزه بالقريحة التى هى مفتاح معالى الأمور ليأمر وينهى وهو آمر ومأمور.

(ميول الإنسان الطبيعية للعمران)

فالحالة التأنسية للإنسان، والاجتماعات البشرية للتحضر والعمران، هى حالة فطرية للآدمى من أصل ولادته وخلقته، وهى فيه جبلة وغريزة طبيعية، فبالناطقية الموجودة فيه من أصل الفطرة يمكنه إعمال قواه العقلية بإمعان الفكرة فيسعى لما فيه التمدن والحضارة ويبذل جهده بحوز ما ينتج عن التمدن بالبراعة والمهارة، لأنه لو انفرد وحده ولم يتأنس بغيره، ولا اكتسب لوطنه درجة العمران. كان دائما ضعيفا خائفا، وعن جادة الأمن حائفا، فباجتماعه ببنى جنسه، واتحاد تجاريبهم وحدسهم بتجريبه وحدسه، تتسع القوى العقلية المنضمة إلى البحث عن العلوم العقلية

والنقلية، فبهذا تتسلطن الأمة المتمدنة على من سواها، وتجلب لنفسها من المنافع جميع ما عند من عداها، وما دامت الجمعية التأنسية مائلة إلى الحصول على السعادة، وراغبة فى تحصيل الشرف والسيادة، فلا محيص لها من أن تتعاطى الأسباب، وتتشبث بالاغتنام والاكتساب، فإن أهملت التمسك بحبال التمدن والفضيلة، واستغنت عنه ورضيت بالخشونة والدعة، عاشت مدة عمرها ذليلة، فيجب على الإنسان أن يدع الدعة التى هى فى لوح فؤاده منطبعة وفى زوايا الكسل مودعة.

الفصل السادس

(فى الكسل المعبر عنه بالدعة والسكون)

هذا ولو أن الإنسان ناطق متفكر، وقادر على إعمال فكره فى الحقائق والدقائق، إلا أن الدعة فى كل إنسان طبيعية، حيث إعمال الفكر لا يخلو من التعب والنصب، وقد قيل:

فكم دعة أتعبت أهلها   وكم راحة نتجت من تعب

وقال آخر

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أي مفسدة

فتجد الإنسان دائما ينجذب للراحة، ويميل إليها كل الميل، آناء الليل وأطراف النهار، كانجذاب الأجرام بما فيها من الثقل إلى المركز، حيث عادة الأجرام سقوطها فى المراكز وسكونها فيها بدون تحرك مالم يكن هناك فى كل وقت من أوقات السقوط قوة دافعة تبعدها عنه وتحركها لتدوم على الحركة، فقوة الجذب وقوة الدفع اللتان فى الأجرام الجوية موجودتان فى الحالة الإنسانية، حيث إن الدعة تجذب الإنسان للسكون والارتياح، وقوة العمل تدفعه عن مركز الدعة إلى حركة النشاط والفلاح، وهاتان القوتان متعادلتان، لا ترجح إحداهما على الأخرى، ولا تكون إحداهما بالخفة والثقل أحرى، فهما فى الإنسان على حد سواء، حيث تحدث فيه هاتان القوتان، إحداهما وهى محبة الدعة، مسببة عن شهواته الشديدة، والثانية وهى الانهماك على العمل، ناشئة عن نفوره من البطالة وإيثاره للأعمال الرشيدة، والقوة الأولى تسمى قوة الملاذ والشهوات، فهى قوة فى الحقيقة جسمانية، خدمة للجسم، قال الشاعر:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته   وتطلب الربح مما ربحه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

والثانية تسمى قوة الأمل والعمل . قال بعضهم: إن طلبت المورد العذب فاسلك الصعب، وسر سير المجد الجازم، ولا تتكاسل فى العزائم، واطلب مطالب الرجال، وإياك أن تدعى بالبطال، لعلك تجد على النار هدى. والناس فى النشاط العام: هذا يسير وهذا يطير، فهيهات متى يلحق السائر بالطائر؟ وقال ابن الفارض(١):

وكن صارما كالوقت فالمقت فى «عسى»   وإياك «على» فهى أكبر علة

وسير زمنا وانهض كسيرا فحظك   البطالة ما أخرت عزما لصحة

وقال آخر:

لقتله مشخن فى صف عز   ولا نوم الذليل على الفراش

فمن رضى الحياة بحال ضيم   فذلك نفسه نفس الفراش

وقال بعضهم: صعود الآكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان.

ومن كلام لقمان الحكيم: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما. فهاتان القوتان متباينتان ومستويتان فى الإنسان، بدون راجحية ولا مرجوحية، فحب الدعة يبعث الإنسان على أن يجر لنفسه جميع ملاذ الحواس، وأما الآمال فتبعثه على الحصول على راحة الروح وكمال التمدن والائتناس، فالأولى تجمع فى الإنسان جميع الملاذ البدنية، وتسقطه فى حضيض الإنسانية، وتوصله إلى درجة الحيوانية . .

تزوجت البطالة بالتوانى   فأولدها غلاما أو غلامة

فأما الابن لقَّبه بفقر   وأما البنت سماها ندامة

وقال آخر:

كان التوانى زوج العجز بنته   فساق إليها حين زوجها مهرا

---

(١) عمر بن أبى الحسن (١١٨١ ـ ١٢٣٤ م) متصوف مصرى، اشتهر بشعره الصوفى الذى لقب بسببه «بسلطان العاشقين» و«شاعر الحب الإلهي».

فـراشـا وطيـئـا ثـم قـال لهـا اتكى   فلا شك بعد الحمل أن تلدى الفقرا

وآمال الروح النورانية تجمع فيه جميع أنواع السلطنة العقلية، وترقيه وتقربه من الدرجة الملكية الكاملة . .

انهـض وســـر طالب المعـــالى   بكـل واد وكل مـــــهـــــمـــــة

وإن لحـــا عـــاذل جـــهـــول   فـقـل لـه يا عـــذول: مــه، مــه

وهاتان اللذتان المتباينتان يظهر أثرهما فى جميع البشر، فترى هذا الأثر فيهم على اختلاف درجاتهم، قد انبسط وانتشر، فيوجدان على حد سواء فى أفراد الملوك والرعايا، إلا أن لذة العمل منحة إلهية، ولذة الدعة محنة شهوانية .

وقد علمنا سبحانه وتعالى وجوه المكاسب والمنافع، وألهمنا دقائق الفنون والصنائع، حيث مدح السعى وذم البطالة بقوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾ (النجم: ٣٩) وقال تعالى ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ (الجمعة: ١٠) أى اطلبوا المعاش الذى فيه قوامكم . . وفضل الله هو رزقه الذى تفضل به على عبادة وأباحه بالبيع والتجارات المشروعة . قال سعيد بن جبير رضى الله عنه: «إذا انصرفت من الجمعة، فخرجت من المسجد، فساوم بالشيء، وإن لم تشتر» . انتهى . فلا خلاف فى أن طلب الرزق مشروع، قال صلى الله عليه وسلم: «اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض» .

وإنما الكلام فى أن التكسب، بعد الطلب، هل يدخل فى حد الفرض؟ وجوابه ما قاله الإمام الراغب[١]: من أن التكسب فى الدنيا، وإن كان معدودا من المباحات من وجه، فإنه من الواجبات من وجه آخر وذلك أنه إذا لم يكن للإنسان استقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته فإزالتها واجبة، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كوجوبه . وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ تعب من

---

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (المتوفي سنة ١١٠٨ م) أديب ولغوي وفقيه، ومما اشتهر به تفسيره للقرآن، وتأليفه في مفردات غريبه، ولقد امتازت آثاره هذه بحملها وجهة نظر المعتزلة الذين كان على مذهبهم الكلامى .

الناس فلا بد أن يعوضهم تعبا له وإلا كان ظالما، فمن توسع فى تناول عمل غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلابد أن يعمل لهم عملا بقدر ما يتناوله منهم وإلا كان ظالما لهم، قصدوا إفادته أو لم يقصدوها، ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعا فإنه لم يأت بأمر الله تعالى فى قوله، عز وجل: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة ٣). ولم يدخل فى عموم قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١).

(خطأ التعطيل الصوفى)

ولهذا ذم من يدعى التصوف فيتعطل عن المكاسب، ولا يكون له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح فى الدين يقتدى به، بل يجعل همه فى قضاء شهواته ولذاته. فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ولا يرد إليهم نفعا، فلا طائل فى أمثالهم إلا أن يكدروا الماء ويغلوا الأسعار». أ هـ.

وقال الجنيد(١) رحمه الله تعالى: إذا رأيت الفقير يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة والله لا يحب الرجل البطال. فإن من تعطل وتبطل فقد انسلخ عن الإنسانية وصار من جنس الموتى، وذلك أن الله خص الإنسان بالقوى فالقوة الفكرية تطالبه بالعلوم التى تهديه، وبالصنائع التى يترتب عليها من المكاسب والمنافع ما يرضيه ويصونه ويحميه، فحق الإنسان أن يتأمل بقوة فكره، ويسير بقدر ما يطيقه، فيسعى لما يفيده السعادة، ويتحقق أن سعيه سبب انتقاله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة، كان النبى صلى الله عليه وسلم، يتعوذ بالله تعالى من الكسل. وقال بعض الحكماء: من تخلق بالكسل فلينسل عن سعادة الدارين، وكان أبو مسلم الخراسانى فى مبادئ خروجه للدعوة لبنى العباس ينشد هذا البيت:

فلا أوخر شغل اليوم عن كسل ... إلى غد، إن يوم العاجزين غد

---

(١) أبو القاسم بن محمد (المتوفى سنة ٩١٠ م) من أئمة التصوف فى بغداد. وإليه تنسب طائفة من المتصوفة وطريقة من طرقهم.

ومن كلام أردشير بن بابك، كسرى الفرس «شهد الجهد أحلى من عسل الكسل». يعنى أن الشهد الحاصل بالجهد أحلى من الكسل الشبيه بالعسل فى ميل النفس إليه، والتذاذها به، وقال بعض العقلاء: «راحتى فى جراحة راحتى». أى بالشغل، ومن شأن البطالة أنها تبطل الهيآت الإنسانية، فإن كل هيئة، بل كل عضو، ترك استعماله يبطل، كالعين إذا غمضت، واليد إذا عطلت، فإن الأعضاء خلقت لحكم فى كل شىء، فإن الله سبحانه وتعالى لما جعل للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا إلا بسعى ما منه لئلا تتعطل فائدة ما جعله له من قوة التحرك، ولما جعل للإنسان الفكرة ترك له من كل نعمة أنعمها عليه من الأعضاء ما يصلحه حينئذ بفكرته، لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثا.

أهمية الأسباب

وتأمل حال السيدة مريم، عليها السلام، وقد جعل لها من الرطب ما كفاها مؤونة الطلب، ولم يحن لها النخلة، وفيه أعظم معجزة، فإنه تعالى أمرها بهزها فقال: ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** ﴾ (مريم: ٢٥) وقد أخذ بعضهم منه إشارة إلى أن الرزق من الله تعالى ولكنه مسبب تسببا عاديا عن الطلب من العبد ومباشرة أسبابه، فقال:

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع تساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غيره هزه ... إليها ولكن كل شىء له سبب

وعن أبى الأسود الدؤلى[(١)]

وما طلب المعيشة بالتمنى ... ولكن ألق دلوك فى الدلاء

(١) ظالم بن عمرو (٦٠٥ ـ ٦٨٨ م) لغوى، اشتهر أنه أول من وضع قواعد الضبط لألفاظ القرآن مخافة اللحن فيه، وذلك بأمر من على بن أبى طالب، وكان أبو الأسود علويا، ناصر حزب على بن أبى طالب، وحارب معه فى صفين، وقاد جيشا لمحاربة الخوارج، وناب عن ابن عباس في الولاية على البصرة، والمعتزلة يعدونه من الطبقة الثانية من طبقاتهم. انظر (المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل) لابن المرتضى. تحقيق أرنولد. طبعة الهند.

تجيء بملئهـا طورا وطورا تجيء بحمـأة وقليل مـاء

وقد ورد فى الخبر عن خير البشر أنه قال: «إن الله تعالى يقول: يا عبدى حرك يدك أنزل عليك الرزق». وكون حركة العبد من الله تعالى لا ينافى طلبها من العبد، كيف وهو مأموربها، وحقيقة الأمر الطلب، وحركة العبد أيضا من ا لله تعالى، ولا ينبغى أن يتوهم أن الأمر الوارد فى قوله، صلى الله عليه وسلم: «توكلوا على الله»، بالتوكل، الذى مرجعه إلى أن يوكل الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته يستلزم النهى عن التوسل بالكسب وأسبابه، لأن التوكل إسقاط الأسباب عن حيز الاعتداد بها والاعتماد عليها، والاستظهار بادخار الذخائر لا إسقاطها عن حيز الامداد على الوجه المعتاد، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن التوكل ليس التعطيل، بل لابد فيه من التوسل بنوع من السبب، حيث قال «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا». فإن الطير ترزق بالطلب والسعى. نعم إنه لا ينبغى الإفراط فى الكد وصرف النظر عن الاستراحة بعض الأحيان، يشهد لذلك حديث: «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى». وإلى هذا أشار بعض الشعراء بقوله:

لعمرك ما كل التعطل ضائر ولا كل شغل فيه للقلب منفعة

[الشهوة والنسل]

ومن جملة حسن السعى طلب تكثير التناسل والتوالد، وقضاء اللذة المباحة بالزواج والتوالد، وهذ المزية هى خلاصة اللذة الشهوانية، فهى مزية ممدوحة وليس عنها فى بقاء النوع البشرى مندوحة، ومن حكمة هذه اللذة حب الذكر والأنثى بعضهما لبعض للائتلاف والنسل، والتمتع بما أحله الله تعالى، فلا شك أن بين الذكر والأنثى روابط التلذذ المباح، ويشتد الشوق بينهما ولو على بعد النواح، كما قال الشاعر:

يا نسيما هب مشكورا الربا أهدت الأشواق مسراه إلى

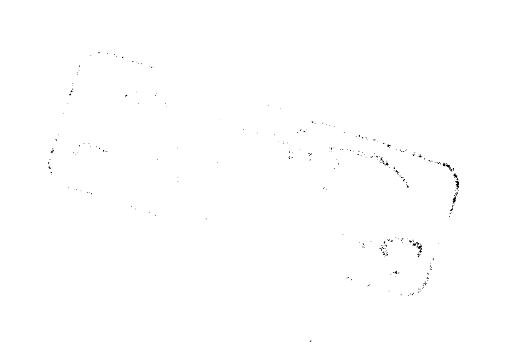
وبـريقـــا لاح مـن نحـــوهـم   حـاكـيـا ذاك السـنا من ثغـر مي

آه وأشـواقـى إلى من قــد غــدا   بصـــرى يـلقـــاهم فى كـل شيء

وإذا لم يـجـــتـليـــهم نـاظرى   أي نــفـع لــي إذا فــى نـاظـرى

لو قطعـت الدهر وصـلا كـان لى   قـــدر مـــا يـشـــبت لـلطائـى فى

فأصل الحب يولد فى قلب المتحابين الانبساط والانشراح. وفى ميل أحد الزوجين للآخر كمال الارتياح، وفيما أودع الله فى الأنثى والذكر من الذوق والشوق والتوق ما لا ينكر، وإن اختلفت الرجال والنساء فى الفضائل والسمات والصفات والشمائل.



الباب الثانى

(فى الصفات المشتركة بين الذكور والإناث، والمخصوصة بأحد الفريقين.

وفيه فصول).

الفصل الأول

فى اشتراك المرأة والرجل فى بعض الصفات وافتراقهما فى بعض آخر

من المعلوم أن فضائل الناس، من حيث هم ناس، إنما هى العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، وهى فضائل الإنسان الحقيقية الأصولية، وغيرها، كالوفاء داخل فيها، فما هو داخل فى جملة العقل: ثقابة المعرفة، والحياء، والبيان، والصداع بالحجة، والسياسة، والعلم، والحلم، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى. ومما هو داخل فى العفة: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وما أشبه ذلك من أقسام العفة. ومن أقسام الشجاعة: الحماية، والأخذ بالثأر، والدفاع، والنكاية، والمهابة، والنصرة على الأقران، والسير فى المهامة والقفار، وما أشبه ذلك. ومن أقسام العدل: السخاء، والسماحة، والصبر على التغابن والانظلام، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وما أشبه ذلك. وأما تركيب هذه الأقسام بعضها مع بعض فيحدث منها ستة أقسام، فإذا تركب العقل مع الشجاعة حدث عنه الصبر على الملمات ونوازل الخطوب، والوفاء بالوعد، وإذا تركب العقل مع السخاء، الذى هو من صفات العدل، نشأ عنه إنجاز الوعد، وما أشبه ذلك. وإذا تركب العقل مع العفة نشأ عنه التنزه والرغبة عن المسألة والاقتصار على ما يتيسر من المعيشة. وإذا تركبت الشجاعة مع السخاء، الذى هو قسم من أقسام العدل حدث عنه الإخلاف والإتلاف، وما أشبه ذلك. وإذا تركبت الشجاعة مع العفة نشأ عنهما إنكار الفواحش، والغيرة على الحرم. وإذا تركب السخاء مع العفة حدث عنه الإسعاف بالقوت، والإيثار

على النفس، ومـا أشبـه ذلك. وكل واحـد من تلك الفـضـائل الأربعـة وسط بين طرفين مذمومين، كالشجاعة مثلا فإنها وسط بين المجازفة والجبن، وهذه الفضائل من حيث هى فضائل إنسانية توجد فى الرجال والنساء، لكن على وجه مختلف فى طباعهن.

وحيث إن هذه الصفات عامة فى جميع أمم الدنيا وقبائلها وأحيائها، وذكورها وإناثها، وأن الفضـائل الممدوحة منها فى بعض الأمم أكمل من غيرها، إلا أن أمة العرب، جاهلية وإسلاما، مشهورة بها، فلا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواص العرب، وأعظم الإيثار مثلا فى قبيلة الأنصار الذين أنزل الله سبحانه وتعالى فى حقهم: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (الحشر: ٩) فما ينقل فى هذا الشأن ما وجد عبد الله بن العباس فى سفره من إيثار بعض نساء الأنصار له عن نفسها وعن أولادها بشىء زهيد من القوت لم يكن عندها غيره، وذلك أن تميم بن عدى اليربوعى(١) قال كنت مع عبد الله بن العباس عند منصرفه من دمشق، فسألته فى بعض الأيام، وقلت له: بماذا يتم الرجل؟ فقال: إذا صنع المعروف مبتدئا به، وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزلة، وجازى على المكرمة، وتجنب مواطن الاعتذار، فقد تم عقله. فحفظت ذلك منه وألصقته بقلبى، ثم بعد أيام نزلنا منزلا فطلبنا طعاما فلم نجده، ولا قدرنا عليه، فإن زيادا كان قد نزل بذلك المنزل قبلنا بأيام قليلة فى جمع كثير فأتوا على ما كان فيه من الطعام، فقال عبد الله لوكيله: أخرج إلى هذه البرية فلعل تجد بها راعيا معه طعام، فمضى الوكيل، ومعه غلمان فأطالوا التوقف، فلما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأموه، فوجدوا فيه عجوزا، فقالوا لها: هل عندك طعام نبتاعه منك؟ فقالت: أما طعام بيع فلا، ولكن عندى أكلة لى، وبأولادى إليها أمس حاجة، قالوا: وأين أولادك؟ قالت: فى رعيهم، وهذا وقت عودهم، فقالوا: فما أعددت لهم؟

---

(١) ويقال له تميم بن ربيعة، وهو تميم بن ربيعة بن عوف بن جراد بن يربوع بن طحيل بن المربعة ابن رشدان بن قيس بن جهينة بن زيد الجهنى، ممن شهد الحديبية مع الرسول عليه السلام، وممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة انظر (أسد الغابة) ابن الأثير، طبعة دار الشعب بالقاهرة.

قالت خبزة هى تحت ملتها[1] انتظر بها أن يجيئوا، قالوا لها: فجودى لنا بنصفها، قالت: لا، ولكن بكلها: قالوا: ولم منعت النصف وجدت بالكل، ولا خبز عندك غيرها؟ قالت: إن إعطاء الشطر من خبزة نقيصة، وإعطاء الكل فضيلة، فأنا أمنع ما ينقصنى وأجود بما يرفعنى، فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم إليها، فلما أتوا عبد الله أخبروه خبر العجوز، قال: إرجعوا إليها فأحملوها فى دعة وأحضروها، فرجعوا إليها وقالوا لها: إن صاحبنا أحب أن يراك، قالت: ومن هو صاحبكم؟ قالوا: عبد الله بن العباس، قالت: ما أعرف هذا الاسم، قالوا: العباس بن عبد المطلب، وهو عم النبى، صلى الله عليه وسلم، قالت: والله هذا الشرف العالى، قومى أنصاره! قالوا: نعم قالت: فما يريد منى؟ قالوا: يريد أن يكافئك على ما كان منك، قالت: لقد أفسد الهاشمى ما أثل له ابن عمه، عليه السلام، والله لو كان ما فعلت معروفا لما أخذت عليه ثوابا، وإنما هو شيء على كل إنسان أن يفعله، قالوا: فإنه يحب أن يراك ويسمع كلامك، قالت: أصير إليه لأنى أحب أن أرى رجلا من جناح النبى، صلى الله عليه وسلم، وعضو من أعضائه، فلما سارت إليه رحب بها، وأدنى مجلسها، وقال: ممن أنت؟ قالت: من كلب بن وبرة، قال: كيف حالك؟ قالت: لم يبق من الدنيا ما يفرح إلا وقد بلغته، وإنى الآن أعيش بالقناعة، وأصون القرابة، وأنا أتوقع مفارقة الدنيا صباحا ومساء، قال: أخبرينى ما الذى أعددت لأولادك عند انصرافهم، بعد أخذنا الخبزة؟ قالت: أعددت لهم قول العربي:

ولقـد أبيت علـى الطوى وأظله حـتـى أنال بـه كـريم المأكل

فأعجبه قولها، فقال لبعض غلمانه: انطلق إلى خبائها، فإذا أقبل بنوها فجىء بهم، فقالت للغلام: انطلق، فكن بفناء البيت، فإنهم ثلاثة، فإذا رأيتهم تجد أحدهم دائم النظر نحو الأرض، عليه شعار الوقار، فإذا تكلم أفصح، وإذا طلب أنجح، والآخر حديد النظر، كثير الحذر، إذا وعد فعل، وإن ظلم قتل، والآخر كأنه شعلة نار، وكأنه يطلب بثار، فذاك الموت المائت، والداء الكابت، فإذا رأيت

(١) الملة هى الرماد الحار الذى يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج، وقيل هى اسم للحفرة التى يكون بها هذا الرماد الحار. (لسان العرب) مادة «ملل».

هذه الصفة فيهم فقل لهم، عني: لا تجلسوا حتى تأتوني، فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر، فما بعد أمده حتى جاؤا، فأدناهم عبد الله، وقال إني لم أبعث إليكم وإلى والداتكم إلا لأصلح من أمركم وأصنع ما يجب لكم فقالوا: إن هذا لا يكون إلا عن مسألة أو مكافأة فعل جميل تقدم، ولم يصدر منا واحدة منها، فإن كنت أردت التكرم مبتدئا فمعروفك مشكور وبرك مقبول مبرور، فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشرة من النوق، فقالت لهم العجوز: ليقل كل واحد منكم بيتا من قوله، فقال الأكبر:

شهدت عليك بحسن المقال وصدق الفعال وطيب الخبر

فقال الأوسط

تبرعت بالبذل قبل السؤال فعال كريم عظيم الخطر

فقال الأصغر

وحق لمن كان ذا فعله بأن يسترق رقاب البشر

فقالت العجوز

فعمرك الله من ماجد ووقيت ما عشت شر القدر

ثم ودعوه وانصرفوا، قال تميم اليربوعي: فالتفت إلى وقال لي: يا تميم، وددت لو وجدت مزيدا في ابتداء المعروف إلى هذه وبنيها، وجعل يتأوه من تقصيره عن مراده في ذلك فقلت له: لقد أحسنت وأرجحت، وقد شهد فعلك بما سبق من قولك، فأنت أتم الناس عقلا وأكملهم مروءة.

وقد خلق الله المرأة للرجل ليبلغ كل منهما من الآخر أمله، ويقتسم معه علمه، وجعل المرأة تلطف لزوجها أتراحه، وتضاعف أفراحه، وتحسن أمر معاشه، وتنشط حركة انتعاشه، فهي من أجمل صنع الله القدير، وقرينة الرجل في الخلقة، والمعينة له على أول حركات التدبير، والحافظة لأطفاله، والقائمة بأمر عياله، والمسلية له في أيام حياته، في إقباله وغير إقباله، فالمرأة، وإن كانت مخلوقة لملاذ الرجل،

ففيما عدا هذه الملاذ مثله سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته، حتى كادت أن تنتظم الأنثى فى سلك الرجال. أو ليس أن ناسوت الرجل والمرأة فى الخلقة على حد سواء، وهيكلهما مستوفى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء، ومشابهتها فى الشكل معلومة، وفى الهيئة مفهومة، فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة، فى أى وجه كان من الوجوه، وفى أى نسبة من النسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هما موضع التباين والتضاد.

وإنما يشق عمل المقايسة بين الذكر والأنثى على من لم يعلم تركيب أعضاء كل منهما، وتمييز ما يخص جنسيهما، ولا ما يشتركان فيه من الصفات التى لا تعلق لها بالجنسية، فإن جميع متعلقات الذكورة والأنوثة متباينة، وأما الاشتراك فهو وجه المشاكلة، ولكل من المباينة والاشتراك تأثير لزومى على صفاتهما المعنوية، ومنها تنتج الأفضلية بالنظر للمشاركة أو المباينة.

(مميزات المرأة)

ثم إن للمرأة، بقطع النظر عن تباين الجنس، صفات أخرى تتميز بها عن الرجل، وإن كانت أغلبية، فإن قامتها فى الغالب دون قامة الرجل، وخاصرتها أنحف من خاصرته وأرشق منها، ورأسها بالنسبة لبدنها أقل حجما من رأسه بالنسبة لبدنه، وسعة صدرها دون سعة صدره، وبدنها أشد بريقا من بدنه وأنعم وأنور، وفيها من اللين واللطف والرخاوة ما ليس فيه، وكتفاها وثدياها وجميع أعضائها على العموم تلين وتنعطف وفيها استدارة جميلة، وبالجملة فالمرأة ألطف شكلا من الرجل.

فهذه الصفات مميزات جنس الأنثى عند غالب الأمم، لا سيما عند أمم الأقاليم المعتدلة التى ليست شديدة الحرارة والبرودة، فالرجل يدرك من أول وهلة من المرأة

التى تشاركه فى ملاذ وتدبير معايشه، تلطفها وانعطاف حركاتها وميسها وميلها واعتدالها ونظرها إليه بألحاظ لطيفة وإشارات خفيفة نظرا مخصوصا، وإذا تكلمت أدرك من صوتها نغما أرق من صوت الرجال رخيما، مع ما فى المرأة عند الخطاب من الخفر، والتيه والدلال، ورقة الحاشية، قال بعضهم:

ترى الدر منظوما إذا ما تكلمت ... وكالدر منظوما إذا لم تكلم

تعبد أحرار القلوب بدلّها ... وتملأ عين الناظر المتوسم

وقال آخر:

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وكل هذا مصحوب منها بنوع من الضعف والتذلل والانكسار يؤذن بوجوب الرفق بها والحنان والعطف عليها، فياحبذا هذه المزايا، كما قال الشاعر:

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت ... تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وقد استبان من العادة أن المرأة تصل إلى درجة استكمال الأنوثة والبلوغ فيها قبل الرجل، وتستكمل درجة النمو فى زمن أقل مما ينمو فيه الرجل، ففى سن العشرين تحوز المرأة جميع ما يكون بهاء جمالها ورشاقة قدها واعتدالها، وفى هذا السن تبلغ المرأة جميع مناها مما يختص به جنسها، ولما كانت الأنثى تحفظ مدة طويلة استدارة أعضائها واندماجها من حال صغرها، كانت فى غالب الأحيان تبقى مدة طويلة على جمالها ولطافة شكلها ولين عروقها وأعصابها، حافظة لكل ما يعطى لبشرتها اللين واللون والبريق من كل ما يميزها عن الرجل، ولكن مجموع عضلاتها قليل الانبساط والتمدد، فبهذا لم تكن مستعدة لأن تشترك مع الرجل فى الأشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والخب، وأما من حيث قوة أعصابها فهى دقيقة الحواس، سريعة الإحساس، وبدقة حواسها القوية التأثير السريعة الانفعال لا تطول مدة الإحساس عندها ولا تمكث كإحساس الرجل، لأن تواتر المحسوسات على الحواس القوية التأثير يمحو بعضه بعضا.

وأما وجود الدم فى المرأة فليس قويا كما فى الرجال، فلهذا قل أن يوجد فى

النساء البنية الصفراوية، ولما كان النساء مقصورات على الشفقة والرحمة والحنان والرفق واللين كن غالبا مستعدات للتنزه عن العوائد الخشنة والأخلاق الغليظة والصفات المذمومة المجتمعة فى أمزجة الرجال، كالغضب والحقد والبغضاء والشقاق، وإنما أعظم ما فيهن الغيرة التى لا تكاد تخلو منها واحدة، وقد يشترك معهن فى الغيرة الرجال، والغيرة على العرض ممدوحة، ففى الحديث: «الغيرة من الإيمان». أورده أبو سعيد الخدري[1] مرفوعا، ولذا قيل: من لا غيرة له لا دين له ولا مروءة ولا يتأهل بشيء من أنواع الكمال بوجه من الوجوه، لكن الإفراط فيها بغلبة القوة الغضبية، والتفريط فيها بانعدامها أو ضعفها، مذموم جدا. قال بعضهم، ممن لا يغار على محبوبه:

يطالبنى فى حبه كل ماجد ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب

فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها ... فإن حبيبى من أحب حبيبى

والظاهر أن مثله ليس من ذوى المحبة الصادقة، لأن المحب غيور، وأين هذا المحب من مجنون ليلى حيث يقول:

أغار على ليلى لأنى أحبها ... أغار على شيء يعز على قلبي

(ومن غيرة يزيد بن الأصفر حيث يقول):

أغار على أعطافها من ثيابها ... إذا لبستها فوق جسم منعم

وقول الآخر:

أغار إذا آنست فى الحى أنة ... حذارا وخوفا أن تكون لحبه

وقال الآخر:

أغار عليك من نظرى ومنى ... ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أنى خبأتك فى جفونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى

---

(١) أبو سعيد سعد بن مالك، من حفاظ الحديث، المكثرين لروايته، توفى سنة ٧٤ هـ سنة ٦٩٣ م.

وفى الحديث : «إن الله كتب الغيرة على النساء» . أى جعلها طبيعية فى قلوبهن ، فالغيرة غريزة مركوزة فى نفوسهن ، ويقابلها من المحاسن قوة حبهن للوالدين والأولاد والأزواج ، وفى الغالب أن قوة الغيرة كقوة ذلك الحب : تبلغ منهن إلى أقصى الدرجات ، حتى يستحيل كل من هاتين القوتين فيهن مع ما جبلن عليه من الجبن إلى شجاعة الرجال وحماسة الأبطال . وبالجملة فبنية النساء على هذا النظام توجب كونهن ألطف من الرجال طبعا ، وأرق حاشية ، وإنما يعتريهن التغيير والتبديل من أمور أجنبية تطرأ عليهن من مزاج القطر ومن التربية ومن أحوال المعيشة ومن التروضات والاعتيادات ، ومع هذا كله فطباعهن فى القوة والعنفوان دون طباع الرجال . .

١ ـ وفى مبدأ شبوبية الذكور والإناث يتراءى أنهما يشتركان فى الصفات الخارجة كالحسن والجمال واللطافة والظرافة من كل ما يجذب الإنسان للمحبة والميل إلى الطرفين ، ولكن هذه المشاكلة الظاهرية تكون وقتية تنمحى عندما يبلغ كل منهما سنا يبدو منه ما أعده المولى سبحانه وتعالى لكل من الذكر والأنثى من الاستعداد الحقيقى ، والمعنى الصحيح الذى خلق كل منهما لأجله ، فينقطع عرق التشابه والتشاكل بين الذكر والأنثى بالكبر ، ويرجع كل منهما لأن يتميز بصفاته الشخصية ويتباين بالكلية فى السمات والأوصاف ويصير حال كل منهما على طرفى نقيض من كمال الاختلاف ، فيختلف ذوقهما ويميل كل إلى ما خلق لأجله ، فينتهى أمر الذكر عما قريب بفقد الشكل الأول الذى كان يتراءى اشتراكه فيه مع الأنثى من نحو الوسامة والوضاءة ، ولذلك قال بعضهم فيمن ذهبت وضاءته بالسن :

كان بدرا وكان قلبى أفقا ومليكا ولا أخالف أمره
فاعتراه الكسوف والملك ولى عظم الله فى المحاسن أجره

وقال آخر ، ممن كان عنده من الملاحة نصيب فغيره الزمان يخاطب محبوبه المنظوم فى سلك الحسان :

تتيه علينا مذ رزقت ملاحة ... رويدك يكفى بعض صدك يا بدر

فيا طالما كنا ملاحا وطالما ... صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

وأما الأنثى فإنها تستمر على نمو بدنها ونضارته، وانضمام بعض أعضائها إلى بعض، مع التحسين المتزايد على وجه يبهر العقول ويسحر الألباب، فلا تزال أشكال أعضائها آخذة فى النضارة والجمال، والحسن والاعتدال، بما تقتضيه طبيعة الأنوثة من استكمال الصفات الذاتية التى خصتها بها الحكمة الإلهية، حيث أودعت فيها من أصل الفطرة صفة جاذبية.

ومما يوجد فى الأنثى قوة الصفات العقلية، وحدة الاحساس والإدراك على وجه قوى قويم، وذلك ناشىء عن نسيج بنيتها الضعيفة، فترى قوة إحساس المرأة وزيادة إدراكها تظهر فى الأشياء التى يظهر ببادئ الرأى أنها أجنبية عنها، وأنها فوق طاقة فهمها، فنجدها على أكمل درجات الإدراك من كل ما يوافق ذوقها وملاذها، وما يليق بها وتميل إليه طباعها، فلا يفوتها إدراك ذلك ولا يعذب عن علمها وفهمها منه مثقال ذرة.

وأما الرجل فلا يكاد أن يدرك ما تميل إليه طباع المرأة ويوافق ذوقياتها إلا بممارسة جسيمة وتجاريب عديدة، فهو جدير بأن يتلقى ذوق الملاذ والتنعمات عنها، فهن أساتيذ الرجال فى هذا المعنى، ففن المؤانسة والمجانسة المعتاد فى مجامع الأنس والسرور والتأنس البشرى واللياقات الدقيقة هو طوع أذنها، تفهم جزئياته بأدنى إشارة وأخصر عبارة مما لا يكاد يدركه الرجل إلا بصريح العبارة، ويصعب عليه أن يفهمه غالبا على حقيقته، وسبب ذلك أن ميل النساء بالطبع إلى ما يوافق ذوقهن وقوة مزاجهن يسهل عليهن الفهم، ويجعلهن فى ذلك أرقى من الرجال أرباب العقول، فلهذا كانت التربية الأولية للأبناء مخصوصة بهن، حتى أن ما يشتهر به فحول الرجال والأبطال من العز والفخار وشرف النفس والاعتبار هو فى الأصل مكتسب من تربية ربات الحجال، لا سيما جلب رقة المجالس الأنسية ومسامرة الجمعيات التأنسية.

فعقل النساء الغريزى وسهولة إدراكهن مما يلطف الجمعيات الائتناسية، وعقولهن القوية الإدراك تسد بعض الأحيان مسد المعارف التى تجهلها النساء، فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزى ذات معارف كافية وظرائف شافية زادها عقلها كمالا على ما تعرفه، وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات ودقائق الكنايات ورقائق التوجيهات والتلميحات، وتؤول المعنى الذى تسمعه ـ بأحسن التأويلات والتوريات، وتقتدر على التلميح والتعريض والتورية فى الخطابات والمحاورات.

وليس ذكاؤهن مقصورا على أمور المحبة والوداد، بل تمتد على إدراك أقصى مراد، وقصة مهلهل أقوى دليل، وذلك أن مهلهلا، أخا كليب، لما قتل أخوه كليب، شمر فى أخذ ثأره، وقامت حرب «البسوس» أربعين سنة، ثم أنه نزل على «بنى مذجج» فأجاروه من «بكر بن وائل» وكان الذى أجاره «معاوية الخير»، فلما أن قام فيهم اشترى عبدين يغزوان معه، فلما طال عليهما أمره أحبّا الراحة منه فأجمعا على قتله، فقال لهما: إن كنتما فاعلين فأبلغا عنى هذه الرسالة إلى أهلى، فقالا: هات رسالتك، فقال:

من مبلغ عنى بأن مهلهلا للـه دركمـا ودر أبيكمـا

فلما قتلاه وانصرفا، قالوا لهما: ما فعل سيدكما؟ قالا: مات بأرض كذا، فدفناه بها ـ الأرض سمياها ـ فقيل لهما: هل أوصى بشىء حين مات؟ قالا: أوصانا بكيت وكيت، وأنشدا البيت، فلم يدر أحد ما أراد، قالوا: ما هذا بشعر مهلهل، فقالت ابنته: ما كان أبى ردئ الشعر ولا سفاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم بأن العبدين قتلاه، فقيل لها من أين لك هذا؟ قالت: قال:

من مبلغ عنى بأن مهلهلا أضحى قتيلا بالفلاة مجندلا

للـه دركمـا ودر أبيكمـا لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فقرر العبدان، فأقرا فقتلا به، فبتكميلها البيتين بالشطرين صح أنها سر أبيها، ولو كانت ذكرا نبيها ربما كان يقصر جهده عن ذلك تنبيها.

ونظير ذلك ما يحكى أن امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين «الرصافة»

«والجسر»، فمرت برجل فقال لها : رحم الله على بن الجهم[1] فأجابته : رحم الله المعرى![2] ثم تركته وانصرفت، ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك، فكانت إشارته إلى قول على بن الجهم :

عيون المها بين «الرصافة» و«الجسر» جلبن الهوى من حيث أدرى ولا تدرى

وكانت إشارتها فى الرد عليه إلى قول أبى العلاء المعرى :

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

وقد يخطر للبنات المعانى الرقيقة الموافقة لمقتضى الأحوال موافقة غريبة كما يحكى أن بنتا من بنات اليمن كان لها أخ يسمى «ضياء» فقاتل فى هذه الأزمان القريبة العهد فى معركة بمحل يقال له« العيون» . فقتل هناك، فنعته أخته ببيتين فى غاية الحماس والرقة، حيث قالت :

طاح فى معرك العيون ضياها فبكت فقده بدمع هتون

لم يكن عاشقا ولكن تقيا فلماذا غدا قتيل العيون

فهذا هو السحر الحلال الصادر عن ربة الحجال، ومن ذلك ما يحكى عن «المتلمس» الشاعر أنه غاب خائفا من بنى النعمان بن المنذر غيبة طويلة، لأنه كان هجاهم، فأشيع موته، وكانت زوجته أميمة جميلة، فأشار عليها أهلها بالزواج فأبت، فألحوا عليها حتى زوجوها رجلا من قومها، وكانت تحب «المتلمس»، فلما كانت ليلة زفافها قدم «المتلمس» ليلا، فسمع فى الحى صوت طبل وهمرجة، فراح فسأل عن ذلك فقيل له إن فلانة زوجة «المتلمس» زوجت من غيره، وها هو داخل عليها، فتحيل «المتلمس» حتى دخل فى جملة النساء، وهى على منصتها، فلما رقى العريس إليها ليستلمها تنفست الصعداء وقالت :

(١) على بن الجهم القرشى (٨٠٤ ـ ٨٦٣ م) شاعر، عاصر الخليفة المتوكل، وتعرض للسجن، فقال فيه أجود شعره.

(٢) أبو العلاء أحمد (٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) الشاعر المشهور، صاحب (اللزوميات) و(سقط الزند) و(رسالة الغفران).. إلخ.. إلخ..

ألا ليت شعرى والحوادث جمة بأى بلاد أنت يا متلمس

فأجابها :

بأقرب دار يا أميمة فاعلمى وما زلت مشتاقا إذا الركب عرسوا

ففطن العريس فنهض خارجا وقال :

فكونا بخير ثم بيتا بمثله خلا لكما بيت كريم ومجلس

ومن ذلك ما يحكى من تحاكم أبى الأسود الدؤلى وزوجته إلى القاضى «شريح» حيث قال فى مجلس المحاكمة : أيها القاضى أنى حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، ودنا فصاله ، أراد أن يأخذه كرها ، ويتركنى بعده ورها . فقال أبو الأسود : إنى حملته قبل أن تحمليه ، ووضعته قبل أن تضعيه . فقالت : حملته خفا ، وحملته ثقلا ، ووضعته شهوة ، ووضعته كرها ، أن بطنى كانت له حواء ، وثديى سقاء ، ويدى وقاء ، ورجلى حذاء . فقال : أيها القاضى ، إنما أعطيتها مهرا كاملا ، ولم أصب منها طائلا إلا وليدا خاملا ، فافعل ما رأيت فاعلا . فقضى لها القاضى عليه .

وقد اجتمع فى كل من «حمران الجعدي»وزوجته «صدوف» حسن الإدراك وكمال الأدب فى الدقائق المعنوية ، وذلك أن حمران كان رجلا لسنا ماردا ، وأنه خطب صدوف ، وهى امرأة كانت تؤيد الكلام وتسجع فى المنطق ، وكانت ذات مال كثير ، وقد أتاها قوم كثير يخطبونها فردتهم ، وكانت تعنت خطابها فى المسألة وتقول : لا أتزوج إلا من يعلم ما أسأله عنه ويجيبنى بكلام على حده لا يعدوه ، فلما انتهى إليها حمران قام قائما لا يجلس ، وكان لا يأتيها خاطب إلا جلس قبل إذنها ، فقالت : ما يمنعك من الجلوس؟ قال : حتى يؤذن لى ، قالت : وهل عليك أمير؟ قال : رب المنزل أحق بفنائه ، ورب الماء أحق بسقائه ، وكل له ما فى وعائه ، فقالت : إجلس ، فجلس ، فقالت له : ما أردت؟ قال : حاجة ، ولم آتك لحاجة ، قالت : تسرها أم تعلنها؟ قال : تسر وتعلن ، قالت : فما حاجتك؟ قال : قضاؤها هين ، وأمرها بين ، وأنت بها أخبر ، وبنجحها أبصر ، قالت : فاخبرنى بها ، قال :

قد عرضت، وإن شئت بينت، قالت: من أنت؟ قال: أنا بشر، ولدت صغيرا، ونشأت كبيرا، ورأيت كثيرا، قالت: فما اسمك؟قال: من شاء أحدث اسما، وقال ظلما، ولم يكن الاسم عليه حتما، قالت: فمن أبوك؟ قال: والدى الذى ولدنى، ووالده جدى فلم يعش بعدى، قالت: فما مالك؟ قال بعضه ورثته، وأكثره اكتسبته، قالت: من أنت: قال: من بشر كثير عدده، معروف ولده، قليل صعده، يفنيه أبده، قالت: ما ورثك أبوك عن أوليه؟ قال: حسن الهمم، قالت: فأين تنزل؟ قال: على بساط واسع، فى بلد شاسع، قريبه بعيد، وبعيده قريب، قالت: فمن قومك: قال: الذين انتمى إليهم، وأجنى عليهم، وولدت لديهم، قالت: فهل لك امرأة؟ قال: لو كانت لى لم أطلب غيرها، ولم أضيع خيرها، قالت: كأنك ليست لك حاجة! قال: لو لم تكن لى حاجة لم أنخ ببابك. ولم أتعرض لجوابك، وأتعلق بأسبابك، قالت: إنك لحمران بن الأقرع الجعدى. قال: إن ذلك ليقال. فزوجته نفسها، وفوضت إليه أمرها، ثم أنها ولدت له غلاما فسماه عمرا، فنشأ ماردا مفوها.

ومن ذلك حكاية «العجفاء بنت علقمة السعدى»، وذلك أنها وثلاث نسوة من قومها خرجن يطلبن روضة يتحدثن فيها. فوافين بها ليلا فى قمر زاهر، وليلة طلقة ساكنة، وروضة معشبة خصبة، فلما جلسن قلن: ما رأينا كالليلة ليلة، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحا ولا أنضر، ثم أفضن فى الحديث فقلن: أى النساء أفضل؟ قالت إحداهن: الخرود[1] الودود الولود، قالت الأخرى: خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدة الحياء، قالت الثالثة: خيرهن السموع الجموع النفوع غير المنوع، قالت الرابعة: خيرهن التى لأهلها جامعة، الوادعة الرافعة لا الواضعة، قلن: فأى الرجال أفضل؟ قالت إحداهن: خيرهم الحظى الرضى غير الحظال - (الحظال المقتر الذى يحاسب أهله بما ينفق عليهم) - ولا النبال. قالت الثانية: خيرهم السيد الكريم ذو الحسب الصميم والمجد القديم، قالت الثالثة: خيرهم السخى الوفى الرضى الذى لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة، قالت الرابعة: وأبيكن،

(١) البكر، والحيية.

إن فى أبى لنعتكن كرم الأخلاق والصدق عند التلاق والفلج عند السباق ـ (الفلْج بسكون اللام الظفر) ـ ويحمده أهل الرفاق، قالت العجفاء عند ذلك: كل فتاة بأبيها معجبة.

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت: إن أبى يكرم الجار ويعظم النار ـ (أى نار القرى) ـ وينحر العشار بعد الحوار ويحمل الأمور الكبار، فقالت **الثانية**: إن أبى عظيم الخطر، منيع الوزر[1] عزيز النفر، يحمد منه الورد والصدر، فقالت الثالثة: إن أبى صدوق اللسان، كثير الأعوان، يروى السنان عند الطعان، قالت الرابعة: إن أبى كريم النزال، منيف المقال، كثير النوال، قليل السؤال، كريم الفعال. ثم تنافرن إلى كاهنة معهن فى الحى فقلن لها: اسمعى ما قلنا، واحكمى بيننا واعدلى، ثم أعدن عليها قولهن، فقالت لهن: كل واحدة منكن ماردة، على الإحسان جاهدة، لصواحباتها حاسدة، ولكن اسمعن قولى: خير النساء المبقية على بعلها، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع مطلقة إلى أهلها، فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها، فتلك الكريمة الكاملة، وخير الرجال الجواد البطل، القليل الفشل، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل، كثير النفل ـ (أى العطاء والهبة) ـ ثم قالت: كل واحدة منهن بأبيها معجبة. فأرسلته مثلا.

وأحسن وصف فى الزوجات وفى أحوالهن ما ذكره الترمذى[2] فى الشمائل فى باب السمر من حديث أم زرع الآتى، وهو عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: جلس إحدى عشرة امرأة تعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ١ـ قالت الأولى: زوجى لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل[3] ٢ـ قالت الثانية: زوجى لا أبث خبره، أنى أخاف أن

---

(١) الملجأ.

(٢) أبو عيسى محمد بن عيسى (٨١٥ ـ ٨٩٢ م) أحد أصحاب السنن، وهو من تلاميذ أحمد بن حنبل والبخارى.

(٣) فأما قول الأولى: لحم جمل غث، بفتح المعجمة وتشديد المثلثة، أى هزيل، والمقصود المبالغة فى قلة نفعه، على رأس جبل وعر: أى يصعب وصولها إليه، لا ينفعها فى عشرة، لأنه سيء الخلق =

لا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره[١] ٣ ـ قالت الثالثة: زوجى العشنق. إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق[٢] ٤ ـ قالت الرابعة: زوجى كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخالفة ولا سآمة[٣] ٥ ـ قالت الخامسة: زوجى إن دخل فهد، وإن خرج فسد، ولا يسأل عما عهد[٤] ٦ ـ قالت السادسة: زوجى إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث[٥] ٧ ـ قالت السابعة: زوجى عياياء أو غياياء طباقاء، كل داء له دواء، شجك أو فلك أو جمع كلا لك[٦] ٨ ـ قالت الثامنة: زوجى: المس مس أرنب، والريح ريح زرنب[٧] ٩ ـ قالت

= مكروه متكبر، وبينت وجه الشبه بقولها: لا سهل فيرتقى، أى يصعد إليه، ولا سمين فينتقل، أى يرغب الناس عن نقله لهزاله، مع صعوبة الوصول إليه، فلا مصلحة فى عشرته لها. (الطهطاوى).

(١) وقول الثانية: إنى أخاف أن لا أذره. أضمير أما للخبر، ومعناه أنه طويل، وأذره حينئذ بمعنى: أتمة، وأما للزوج، وتكون «لا» زائدة على حد (ما منعك أن لا تسجد) وأذر بمعنى: أترك، أرادت الطلاق، وعجره وبجره، بوزن هبل، أرادت عيوبه. (الطهطاوى).

(٢) وقول الثالثة: زوجى العشنق، بمفتوحتين ثم نون مشددة وقاف، هو الطويل النحيف، أو السيىء الخلق، وأعلق أى يصيرنى معلقة لا بعمل لى يراعى حالى ولا أتوقع أن أتزوج. (الطهطاوى).

(٣) وقول الرابعة: كليل تهامة، إلى آخره، تريد أنه حسن الأخلاق، سهل الأمر، كامل معتدل، والقر، بفتح القاف، البرد، ولا مخافة ولا سآمة، أي: ليس فيه شر يخاف ولا خلق يوجب الملل من صحبته. (الطهطاوى).

(٤) وقول الخامسة: فهد، تريد أنه يتغافل كرما وحلما، وهو فعل من باب فرح، أى أشبه الفهد فى كثرة نومه، وأسد من باب طرب، صار كالأسد، ولا يسأل عما عهد، تريد أنه كريم الطبع، بعيد الهمة، حسن العشرة، لين الجانب فى بيته، لا يتفقد شيئا من أحوال منزله. (الطهطاوى).

(٥) وقول السادسة: لف، أى خلط فى أنواع الطعام، فالمعنى يمنع حق العيال، ويؤثر أكل الطعام بالاستقلال، وكذلك قولها اشتف، معناه، على الذم، يشرب الشرية وحده ولا يترك منها لعياله إلا الشفافة، بضم الشين المعجمة، بقية الماء فى قرار الإناء، يقال لمن شربها اشتفها، والتف أي: فى ثيابه، تريد: نام فى عزلة منها، ولا يولج الكف ليعلم البث، أى الحزن، تريد: أنه لا شفقة له، فإذا وجدها عليلة لم تمس يده جسمها ليعلم ما بها. (الطهطاوى).

(٦) وقول السابعة: عياياء، بمهملة مفتوحة وتحتيتين، العاجز عن إحكام أمره، وقوله أوغياياء، «أو» للشك، بالغين المعجمة بمعنى ما قبله، وطباقاء، بفتح أوله ممدودا، الأحمق، وكل داء له دواء، تريد: أن أدواء الناس المتشمة فيهم مجموعة فيه، وشجك أو فلك. الشج الجرح والفل الكسر، تريد أنه ما ضرب إلا جرح أو كسر، والخطاب فى الفعلين لنفسها، أو جمع كلا لك أى كلا من الشج والفل، تعنى أنه تارة يجرح فقط، أو يكسر فقط، أو يجمع بين الأمرين معا. (الطهطاوى).

(٧) وقول الثامنة: المس مس أرنب: أى ناعم الجسد، والريح ريح زرنب: تريد أنه طيب الرائحة كهذا النبات حسا أو معنى. (الطهطاوى).

التاسعة: زوجى رفيع العماد، عظيم الرماد، طويل النجاد، قريب البيت من الناد[1] ١٠ ـ قالت العاشرة: زوجى مالك، وما مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك[2] ١١ـ قالت الحادية عشرة: زوجى أبو زرع، فما أبو زرع؟ أناس من حلى أذنى. وملأ من شحم عضدى، بجحنى فبجحت إلى نفسى وجدتى فى أهل غنيمة بشق فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق فعنده أقول ولا أقبح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقمح، أم أبى زرع فما أم أبى زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح، ابن أبى زرع، فما ابن أبى زرع، مضجعه كمسال شطبة، وتشبعه ذراع الجفرة، بنت أبى زرع، فما بنت أبى زرع؟ طول أبيها وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها، جارية أبى زرع، فما جارية أبى زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثا، ولا تنفث ميرتنا تنفيثا، ولا تملأ بيتنا تعشيشا، قالت خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقنى ونكحها، فنكحت بعده رجلا سريا، ركب شربا وأخذ خطيا، وأراح على نعما ثريا، وأعطانى من كل رئاحة زوجا، وقال: كلى أم زرع وميرى أهلك، فلو جمعت كل شىء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع[3] قالت عائشة، رضى الله عنها: فقال لى رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبى زرع لأم زرع».

---

(١) وقول التاسعة: زوجى رفيع العماد: أى عالى الحسب، شريف النسب، عظيم الرماد: أى كريم جواد، طويل النجاد: أرادت طول القامة الذى يستلزم طول النجاد، تريد وصفه بالشجاعة كما وصفته بالكرم، وقولها: قريب البيت من الناد: تريد وصفه بالرئاسة على غيره، لأن الحاكم لا يكون المجمع والنادى للقوم إلا قريبا منه، ويحتمل غير ذلك. (الطهطاوى).

(٢) قول العاشرة: ما لك وما مالك؛ هو اسم زوجها، والاستفهام للتعظيم، وقولها مالك خير من ذلك، أى كل زوج سبق ذكره، أو زوج التاسعة، أو هو ما ستذكره هى بعد، أى خير من ذلك الذى أقول فى حقه، وقولها: كثيرات المبارك: أى لا تسرح إلا قليلا لاحتياج الضيفان لها، والمزهر: عود الغناء الذى يضرب به فى بيت زوجها تحية للضيفان. (الطهطاوى).

(٣) وقول الحادية عشرة، وهى أم زرع، المسمى بكنيتها هذا الحديث: أناس بوزن أقام: أى حرك، والحلى، بضم فكسر ثم ياء مشددة، تريد أنه أناس أذنيها بما حلاها به، وقولها وملأ من شحم عضدي: أى جعلنى بالتربية فى التنعم غير هزيلة، وقولها: وبجحنى، إلى آخره، أى فرحنى وعظمنى، وقولها: غنيمة، بضم أوله مصغرا، تريد أن أهلها كانوا أصحاب غنم لا أصحاب خيل =

قال بعضهم: تعلموا الأدب. فإن كنتم ملوكا تربيتم به، وإن كنتم وسطا فقتم أقرانكم وإن أعوزتكم المعيشة عشتم بأدبكم. فتعلم الأدب حسن فى الرجال والنساء جميعا، ويحسن الأدب فى النساء زيادة لما فيهن من الرقة الطبيعية

= ولا أبل كأبى زرع، وقولها: بشق، بكسر الشين، ضيق العيش والجهد، وقولها: فى أهل صهيل وأطيط، بفتح فكسر فيهما، أى أهل خيل، كنت عنها بالصهيل، وإبل كنت عنها بالأطيط، وهو صوت الإبل، وقولها: ودائس، اسم فاعل من الدوس، وهو البقر، وقولها ومنق، بضم الميم وفتح النون وتشديد القاف، هو الذى ينقى الحب ويصلحه وينظفه من التبن، وقولها: فلا أقبح، بتشديد الموحدة، أى لا أنسب للقبح فى الكلام حتى أكون مبغوضة عنده، وأرقد فأتصبح، أى أنام إلى الصبح، تريد أنها متنعمة وفى بيتها من الخدم من يكفيها مؤنة مباشرة خدمة بيتها صباحا، وأشرب فأتقمح، أى فأروى وأدع الماء لكثرته عنده فى البيت، وقولها: عكومها، أى أعدالها وأوعية طعامها، وقولها: رداح، بفتح أوله وروى بكسره، أى عظيمة ثقيلة، وقولها: فساح، أى واسع، وقولها: مضجعة كمسل شطبة، بفتح الميم والسين المهملة وتشديد اللام، والشطبة، بشين معجمة مفتوحة فمهملة ساكنة، هى السعفة المشطوبة من جريد النخل، وذلك أنه يشق منه قضبان دقاق، وينسج منه الحصير، فقد كنت عن خفة اللحم ودقة الخصر بابنها الذى ينام فيه كمسل شطبة واحدة إذا سلت من الحصير فبقى مكانها فارغا بين أخواتها، وهو ما يتمدح به رجال العرب كتمدحهم بتشبيه الرجل بالسيف، إما لرونقه أو لاستوائه واعتداله أو لدقته، وقولها: وتشبعه ذراع الجفرة، هى الشاة، وقولها فى حق بنتها: وملء كسائها، كناية عن ضخامتها وامتلاء جسمها، وقولها: وغيظ جارتها، أى ضرتها، وكنوا عن الضرة بالجارة تطيرا من الضرر، أرادت أنها تغيظ ضرتها لجمالها، وقولها، فى حق جاريتها: لا تبث، إلى آخره، أرادت أنها أمينة على أسرارهم، وقولها: ولا تنقب، من باب طلب، أى تنقل، والميرة الطعام، والمعنى: لا تخون فيه ولا تفسده، وقولها: ولا تملا بيتنا تعشيشا، بعين مهملة أى لا تترك القمامة، والكناسة متفرقة فى البيت، ويروى بيننا، بالنون بدل بيتنا، وتغشيشا، بالغين المعجمة، أى لا تسعى بيننا بالغش والفساد، وقولها: والأوطاب تمخض الأوطاب، جمع وطب بفتحتين، أى أسقيه اللبن، وتمخض أى تحرك لاستخراج الزبد، تريد أنه خرج فى وقت كثرة الألبان والخصب، وهو وقت سفر العرب للتجارة، وقولها كالفهدين، أى يشبهان الفهدين فى الوثوب واللعب وسرعة الحركة، وقولها: برمانتين، أى بثديين، وإنما احتاجت لذكر ولديها لتنبه على أن ذلك كان أحد أسباب تزوج أبى زرع لها، لرغبة العرب فى الأولاد وحرصهم على النسل وكثرة العدد، وقولها: رجلا سريا، أى شريفا سخيا، وقولها: ركب شريا، بمعجمة، أى فرسا يستشرى فى سيره أى يلج ويمضى بلا فتور، وأخذ خطيا، بفتح الخاء المعجمة أو كسرها، الرمح، وأراح، أى رد بعد الزوال أو أدخل فى المراح، ونعما، بفتح النون، وهى الإبل والبقر والغنم، وثريا، أى كثيرة من الثروة، وقولها: من كل رائحة زوجا لرائحة، ما يرجع من الغنم والعبيد وأصناف الأموال بالعشى، ويروى: ذابحة، بمعنى مذبوحة، أى ما يحل ذبحه، ويروى سائمة، والزوج: الاثنان أو الصنف، وقوله: وميرى، بكسر الميم، أى إحملى الطعام إلى أهلك. انتهى (الطهطاوى).

والمحاسن المعنوية، فنسبة ذكاء المرأة الطبيعى إلى أخلاقها وعوائدها كنسبة لطافتها وظرافتها إلى أعضائها الظاهرة، فهى بالأدب جميلة حسا ومعنى. فهذه محسناتها البديعية الطبيعية والعقلية وكل منهما قابل للإصلاح والاستكمال، ويجب الاحتراس والاحتياط فى هذه المحاسن وفى تدبيرها بدون تبذير ولا تقتير، فالذكاء فى النساء يكون إبرازه بالقيراط، بدون تفريط ولا إفراط، يعنى مراعى فيه سلوك سبيل الحياء والأدب، كما اقتضته فى حقهن حكمة المولى عز وجل، فبالحياء والأدب يتسلطن على قلوب الرجال، ويستعبدن ألباب الشجعان والأبطال.

الفصل الثانى

فى سلطنة النساء على قلوب الرجال

من خواص النساء وصفاتهن التى لا يشاركهن فيها الرجال منقبة الحياء، وكلما فاقت صفاتها الحسية والمعنوية أكثر مما هو فى صاحباتها من النساء كان الحياء فيها أقوى مدحا، ولذلك قيل :

ويكرمنها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذر

وليس لها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر

فالحياء صفة ممدوحة فيهن، فاللائق بمن يربى البنات ويتعهد بشئونهن أن يتركهن على حيائهن الذى هو زينتهن، فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف، وأن لا يجتهد أحد فى إلهام الشجاعة لهن، وكذلك ما اشتملن عليه عادة من الخوف والوجل، مما ينبغى محوه فى الذكور، فلا بأس بإبقائه فى النساء، فإنهن غير مخلوقات لأن يحزن شجاعة الرجال، وإنما وصفهن أن يحملن الرجال على الشجاعة، ويلهمنهم الحماس والإقدام، ويجب على الرجال أن يصرفوا قوتهم وهمتهم فى حماية النساء، حيث إن من المركوز فى جبلة الرجال وطبيعتهم الميل إلى نصرة النساء، والأخذ بأيديهن، لما فيهن من الضعف، وهذه صفة شريفة وهمة علية مركوزة فى نفس كل رجل أودع الله فى قلبه هيبة المرأة واحترامها، ويمدح أيضا زيادة على ذلك من الشجاع أن يجبن عند حرب النساء. قال الشاعر :

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبى رعدة أهتز منها وأسكن

ليهنك أنى أشجع الناس كلهم لدى الحرب، إلا أننى عنك أجبن

وقال آخر :

ترى الدر منثورا إذا ما تكلمت وكالدر منظوما إذا لم تكلم

تعبد أحرار القلوب بدلها وتملأ عين الناظر المتوسم

ومن خواص النساء المتزوجات أنهن متى رزقن أولادا يجتهدن فى تتويجهم بتاج العز والكرامة، ويبذلن الهمة الكاملة فى تربيتهم بما يناسب الذكر أو الأنثى من التربية، فيحفظن للبنات الصفة الملائمة للطافتهن، التى هى الحياء، المصاحبة للتواضع والانكسار واعتدال المزاج، فالحياء صفة ضعف خاصة بالنساء، وبها فى الحقيقة تقوية قلوبهن، فهى عبارة عن سلاح ماض يستعبدن به فحول الرجال، فبهذا المعنى كانت شوكة مطلب النساء قوية بالحياء، فهو يمحو ما فيهن من الضعف، وبه يغلبن الأخصام، فلا سلاح لحمايتهن إلا التدرع بدرع الحياء وإشهار سيف الخجل واعتقال رماح الذل والانكسار، فمن ذا الذى يرى الدموع تذرف من عين المرأة ولا يرق لحالها، ولو كان من أجلاف البوادى أرباب الجفوة؟ وكيف لا يسمع شكوى المرأة من قلبه أدنى رأفة ورحمة، ولا يأخذ لها حقها ممن ظلمها، وكيف لا يغيث المرأة الملهوفة من تسأله الإغاثة، ويكون فيه شهامة الرجال ومرءاتهم؟ أم كيف يغضب الرجل على المرأة فتعتذر إليه شاكية باكية، ولا يرثى لحالها ولا يصفح عنها الصفح الجميل؟ وبالجملة، فيبعد أن الرجل ذا المروءة يفهم من المرأة ربة الحياء أنها مظلومة ولا يمحو ظلامتها، وينتصر لها ممن ظلمها، بل كل إنسان فى قلبه رحمة لابد من أن يتقى الله فى المرأة، ويكفيها ما يهمها، ويخفف عنها ما يؤلمها، ففى حياء النساء سلطنة على قلوب الرجال تبعثهم على أن يسلكوا دائما طريق الفخار، ليمدحوا عند النساء بحسن الأفعال، فجميع ما يصدر من الرجال مما يستحسنه النساء يقوى سلطنتهن على قلوبهم، فإن الرجل يتمنى دائما نجاح أفعاله، وصلاح أشغاله، وثمرة مشروعة، ليعجب زوجته أو غيرها، لتشهد له بالفتوة والشجاعة والبراعة، فمطمح أنظار الرجل فى نجاحه وفلاحه وكسبه واغتنامه إرضاء زوجته المحبوبة وذوات قرابته من النساء، فهل من ميدان يسلكه الفتى من ميادين الفخار، وحلبة يسابق فيها الشهم أقرانه من حلبات الاعتبار إلا

ويلاحظ فيها المدح ممن يهواها، فنجاحه دائما مقرون باستحسان النساء، وربما كن معضدات لحماسته، ومهيجات لتنشيط جوده وسماحته، فإن الشهم يفرح كل الفرح، ويسر كل السرور، وتقر عينه متى بلغه استحسان ربات الحجال لما صدر عنه من منتجات الأعمال، فهو يحب دائما أن تكون له منزلة فى قلب من يهواها من النساء فيتشبث دائما بتجشم الأخطار لبلوغ الأوطار، فتجده إذا تحرى الصدق والأمانة، أو حصل على كمال المعرفة لما فيه من ملكة الذكاءوالفطانة، أو نظم القصائد الطنانة الرنانة، أو اكتسب النصرة فى الحروب، أو اخترع شيئا فى الصنائع والفنون طبق المرغوب، أو برع فى الأحكام الشرعية، والصناعة القضائية، أو أحسن الفتيا فى الدرجة العليا، أو أتقن علم السلوك والأخلاق، أو سار حسن سيرته بممدوح صيته فى الآفاق، فلا تصدق لهجته ولا تلوح بهجته إلا كان بذلك عند النساء بمكانة علية وعقيدة قوية، فشهادتهن له شهادة عادلة، واعتقادهن فيه بحسن العمل تزكية فاضلة، وهذا ما يحمله على كمال الاجتهاد، وأن يزاول تحصيل المناقب الحميدة ليدرك مرامه، ويسكن من قلوب النساء فى صميم الفؤاد.

ومما يحكى عن أميرة تنقبت بنقاب الحياء، واشتهرت بصيت العفاف فى العشائر والأحياء، وكانت من بيت الملك والسلطنة، وحظيت بالأبهة والطنطنة، ثم عاند بيتها الزمان الخوان، وتعدت عليها صروف الحدثان، وزالت عن ذويها النعمة، ووقعت فى شرك الهم والوصمة، وهى «الحرقة» - (بضم ففتح كهمزة) - بنت النعمان بن المنذر، فبعقلها وذكائها وما فيها من الحياء رق لها قلب خصمها فما كان فى حقها بمتكبر ولا متجبر.

وبيان ذلك أنه لما فتح سعد بن أبى وقاص القادسية قيل له إن «الحرقة» بنت النعمان بن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها فى مثل زيها، فلما وقفن بين يديه قال: أيتكن «الحرقة» بنت النعمان؟ قالت: أنا، قال: أنت! قالت: نعم، كأن الدنيا لا تدوم على حال، فإنها سريعة الانتقال، تنتقل بأهلها، وتعقبهم بعد حال حالا، إنا كنا ملوك هذا المصر، يجبى إلينا خراجه، حتى تشتت الأمر وصاح بنا الدهر،

فشق عصانا وشتت ملآنا، وكذلك الدهر يعثر بالأحرار، ويكب على ذوى الأخطار. فقال لها سعد: أخبرينى عن حالكم، كيف كان؟ قالت: أطيل أم أقصر؟ فقال: بل أقصرى، فقالت: أمسينا وليس أحد من العرب إلا وهو يرغب إلينا، أو يرهب منا، وأصبحنا وليس أحد من العرب إلا ونحن نرغب إليه أو نرهب منه، ثم أنشأت تقول شعرا:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

فاستحسن سعد كلامها، وأكثر إكرامها، فلما أرادت الانصراف قال لها: سلى حاجتك؟ قالت: خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها، فقال لعماله: أطلبوا فى الولاية قرية خرابا، فطلبوا فلم توجد، فقال لها سعد: إنا لم نجد فى الولاية خرابة، فاختارى معمورة، فقالت: الحمد لله على أياديه حيث وفق آبائى للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم وسلموها إلى غيرهم معمورة، فاجهتد أيها الأمير فى تسليمها إلى غيرك أن تكون عامرة كما أخذتها، وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق، وإياك أن تسعى فى خرابها، وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورا ولا تمتد عينى إلى زهرة الدنيا، ثم دعت له فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدا، وشكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا نالتك يد استغنت بعد فقر، ولا أزال الله عن قوم كرام نعمة إلا وجعلك سببا لردها.

وكان قريبا من سعد بن أبى وقاص أبو ثور، فقال له: يا أبا ثور، احفظ هذه الكلمات حتى تخبر بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فلما قدم أبو ثور المدينة أخبر عمر بشأنها، فقال صدقت، ما من قوم إلا والدهر يملى لهم بيوم.

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

فقلب الرجل الرءوف بالشفقة على النساء الضعيفات مألوف ومعروف.

ومما ينتظم فى سلك من يحب أن تشهد له النساء وترغب فيه «قطرى بن

الفجاءة[1] التميمى، الخارجى، الذى تشبب فى «أم حكيم» وكان فارسا شجاعا وشاعرا مجيدا، ورئيس الخوارج، وسلموا عليه بإمارة المؤمنين عشرين سنة فى أيام هشام بن عبد الملك[2]، فمن جديد شعره فى وقعة «دولاب»[3] الذى يذكر فيه أم حكيم:

لعمرك أنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق «أم حكيم»

من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى لب دواء حكيم

ولو شهدتنى يوم «دولاب» أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم

غداة طغت علياء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم

فلم أر يوما كان أكثر مقطعا ... يمج دما من فائظ وكليم

وضاربة خدا كريما على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم

أصاب «بدولاب» ولم تك موطنا ... له أرض «دولاب» ودير حميم

فلو شهدتنى يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حميم

رأت فتية باع الإله نفوسهم ... بجنة عدن عنده ونعيم

«وأم حكيم» التى تشبب فيها كانت معه فى عسكر «الأباضية»[4] وكانت من أشجع الناس، وأجملهم وجها، وأحسنهم تمسكا بدينها، وكان قطرى يجلها ويحبها، وأخبر من شاهدها فى تلك الحروب أنها كانت ترتجز وتقول:

---

(١) توفي حوالي سنة ٦٩٧ م. شاعر مجيد، ومقاتل شجاع، وتولي قيادة الخوارج الأزارقة حتى هزم وقتل بواسطة الجيش الأموى الذى قاده المهلب بن أبى صفرة، بعد أن انقسمت صفوف الأزارقة بفعل حيل الأمويين.

(٢) الخليفة الأموي (٦٩٠ ـ ٧٤٣).

(٣) اسم لعدة أماكن، والمراد هنا: القرية التي بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ. انظر (مراصد الاطلاع) جـ ١ ص ٥٤١.

(٤) فرقة من الخوارج، تنسب إلى زعيمها عبد الله بن أباض، ولا زالت لهم بقايا حتى الآن فى بعض بلاد الشمال الإفريقى.

أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

★ ألا فتى يحمل عنى ثقله ★

والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشرافهم فردتهم، وقالت:

ألا إن وجها حسن الله خلقه لأجدر أن يلفى لذا الحسن جامعا

وأكرم هذا الوجه عن أن يناله تورك فحل همه أن يضاجعا

ولو أن هذه البديعة الجمال سلكت فى الشجاعة مسلك الرجال، فلم تخرج عن الحياة والعصمة، واشتدت بها العفة، حتى رأت أن زواج مثلها فى سنها مذمة ووصمة، فانظر إلى أى درجة يكون احترامها عند الجميع بما حازته من حسن الوجه وإحسان الصنيع.

وكما أن النساء من عادتهن التلطف والدلال، وسلامة الذوق وميلهن إلى إعجاب الرجال، وأن هذا يجذب لهن القلوب، ويوصلهن إلى الحصول على المرغوب، ففيهن زيادة على ذلك فضائل أخرى عظيمة لو أفنى الرجال العمر فى شكر الله على جمع هذه الفضائل فيهن لم يوفوا حق شكره، فإن الله سبحانه وتعالى لم يجعل زمن النساء مصروفا على الاشتغال بالحظوظ واللذات، ولا جعلهن لمجرد قضاء الأوطار والترفهات، بل منحهن شمائل جميلة، وجعلهن وسائل للمنافع الجليلة، حيث إن سعادة الرجال لا تتم إلا بوجود النساء، فلم يكسهن حلل الجمال، ولا منحهن صفات الدلال، إلا لأمر معنوى لطيف، لا يخفى إلا على كل ذى عقل ضعيف، فقد أودع الله تعالى فى الأنثى ما لا يوجد فى الذكور إلا نادرا، وهو حاسية التأثر بالفرح والسرور، والتأثر والتألم والتأسف على ما يحصل للرجال من الهموم والغموم وصروف الأزمان، فأقل النساء تتأثر بما يحصل للرجال من المبرات والمسرات، كما تتأثر من النكبات والمصائب، فيقسمن مع الرجال السعادة والشقاء، واليسر والعسر، وهذه الإحساسية الممدوحة فيهن غريزية، وليس لهن عنها مندوحة، فيقع عند الرجال عطف النساء عليهن فى

المواطن الضيقة أعظم موقع، وهذه الإحساسية الدقيقة كملت ما فى النساء من الضعف، حيث إن الرجال يرون من النساء فى الصداقة والاعتناء زيادة عما يؤملون منهن، فما كأنهن بهذه الأخلاق الحميدة التلطيفية إلا نفوس ملكية ملهمة بالألطاف الخفية.

وأيضا فقد خصهن الله سبحانه وتعالى دون الرجال بتدبير المعائش الأولية، والقيام بالأشغال الضرورية، والمتاعب المعاشية، ومباشرة فراش المرضى من الأزواج والأولاد وغيرهم، وتخفيف الآلام والأسقام وما أشبه ذلك مما لا يكاد يدخل تحت حصر، وجعل لهن صبرا على تسكين الحركات الوجدانية، وإخفاء التأثرات النفسانية، فبهذا كانت درجة الفضيلة فى النساء كالعفة والعصمة أشد منها فى الرجال، بحيث يبلغن فى درجة الحياء أوج الكمال، فإن المرأة العفيفة الكريمة النفس تتحمل أثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها مما يعجز صناديد الرجال الصبر عليه.

(نصيب المرأة من اللذات)

فمن تأمل فى نوع البشر ظهر له أن الأنثى لم تقتسم مع الرجل نصيبها مناصفة من اللذات والآلام، فهى دونه فى ملاذ الدنيا، وأكثر منه فى التعرض للأعراض الخاصة بها، لاسيما ما لا تعترى الرجال، حتى إن المرأة لا تتمتع بمطلوبها إلا إذا ذاقت فى مقابلتها شديد الأوجاع، فلذتها المباحة لا تنالها إلا ببذل للقوة والصحة، وربما فقدت الحياة بقضاء وطرها، كأن تنطلق «بالطلق» إلى دار الحق، وإن كان هذا ليس بكثير فى العادة، كما قاله بعضهم فى مقصورة مشيرا إلى ذلك المعنى:

أبكى إناء شبيبة ... من قبل ما امتلأ انكفي

أبكيه من غصن نضير ... ما زهى حتى ذوى

فقد أعدتها الحكمة الإلهية لهذه الملاذ الدنيوية، وحفظ المصالح المنزلية.

فلو أرادت المرأة أن تسلك مسلك الرجال، وتتروض على تكلف ثقيل الأحمال، وتتشبث بمعاناة الفنون والعلوم، والدخول فى العلوم الأدبية من منثور ومنظوم واجتهدت فى ذلك حتى وصلت قريحتها فى القوة إلى قرائح فحول الرجال، وتوغلت فى ميدان المعارف العالية وبلغت منه أقصى مجال، وساوت الرجل فى جميع أحواله، وضاهته فى أقواله وأفعاله، فهل تكتسب من ذلك إلا المنافسة والمعاداة، لا سيما من صويحباتها المحرومات اللاتى يبغضن من يفوق عليهن من أمثالهن فى التعليمات، ويتهمنهن بالخروج عن الحياء، وإن كان حكماء الرجال يمدحن ربات الفضائل وينظمونهن فى سلك الأصفياء، إلا أنهم لا يسوغون لهن الدخول فى ميدان فحول الرجال، ولا التخلق بأخلاق الأبطال، ولا ممارسة السياسات الملكية، ولا الرياسات العمومية، فإنها ربما أداها إلى الشرج[1] والمخالطة، فلا يبرئها أحد مما يقال فيها، فهذا كان السبب فى حرمان النساء فى جميع البلاد من الظهور بمظهر الفضائل العلمية، فتعودن على أن يعشن عيشة الخمول، ويتباعدن عن الظهور، ما لم يرضين بالشهرة التى لا تليق بهن، فالمرأة دائما أسيرة مستعبدة استعبادا معنويا، لا يصح لها عرفا أن تبدى رأيها، حتى إن أخلاقها وعوائدها الظاهرة لا تخلو عن بعض تخبئة، وأن لا تكون جلية فلا تظهر كالرجل فى المحافل العامة، ولا تتماشى فى الشوارع والأسواق والمنتزهات والعادة أن المخدرة لا تخرج من بيتها لشىء من ذلك إلا مع من يعتمد عليه من الرجال، فلا يسوغ لها أن تدخل محال المنازه والفرجة، ولا أن تسافر إلا ومعها محرم أو زوج أو من يوثق به ، فالغالب عليهن ملازمه البيوت لحفظ المسكن، ونظافة المجلس، وطيب المأكل، والأنس مع الزوج، وتربية الولد، وحفظ العين عن المحارم، وتعهد من فى البيت عند حصول المرض، وهذا غير شغل الرجل. قال بعضهم:

إذا اشتغل الإنسان بالبيع والشرا	**وفي مكسب يأتى بطول نهاره**
وليس له فى داره من يسوسها	**إذا غاب في أشغاله عن دياره**

---

(١) المشابهة والمماثلة.

فـذلك عندى مـهـمل أمـر نفـسـه | ومـا عـاقل يرضى به بـاختـيـاره
ولا بد لـلإنسـان من زوجـة إذا | تأخـر تبـقى عـينهـا فـي انتظاره
وتصلـح مـا يخـتـاره فى أمـوره | وتخـدمـه فـي فـرشـه ودثاره
إذا لم يـكن فى منـزل المرء حـرة | تدبـره ضـاعت مـصـالح داره

ومع أن المرأة لها السلطنة على قلوب الرجال بالاستحقاق، لما فيها من المنافع الجمة، فسلطنتها على قلب الرجل عبارة عن أن يكون أسيرها، لما فيها من المعانى المحبوبة، وكمال الفضائل المرغوبة، فإذا تخلقت بأخلاق تغاير رضاه، كالغضب وسوء الخلق، فإنها إن لم تسقط من عينه بذلك تهافت حبه وتناقص وداده، واضمحل تأثير سلطنتها على قلبه، فبهذا تكون كحاكم ظالم تنفر منه السوقة، وتتغير عليه قلوب الرعية، فالحلم من النساء وحسن معاشرتهن مع الرجال أول مزية. قال الشاعر:

إذا نـزل الأذى والحب يـومـا | فـإن الحـب يرحـل لا يقـيم

وقال بعض الحكماء: إن المرأة السيئة الخلق تهرم الرجل قبل هرمه، وتذهب بكرمه. فلا يتم أمر الرجل إلا بحرة شفيقه عفيفة رفيقة، حسنة الأخلاق، عذبة المذاق. وكان بعض الفضلاء يقول: أعوذ بالله من غضب من لا يكاد يغضب، ومن غضب امرأة قادرة، ومن غضب ذى قوة قاهرة.

الفصل الثالث

فى أن المرأة ينبغى أن يكون من أعظم صفاتها حسن المعاملة والمعاشرة والحلم

حيث إن المرأة مخلوقة للرجل، وهو فى الغالب مثلها غير منزه عن المثالب والعيوب التى لا يخلو منها جنس البشر، وجب فى حقها أن تتمرن من شبوبيتها على تحمل أعبائه وأثقاله، وأن تكون مستعدة للصفح عن خلله، فتسلك معه مسلك الحلم واللين والرفق وحسن الخلق، فإن هذا يعود عليها بالمنفعة أكثر مما يعود عليه، فإن سوء خلق النساء وعنادهن لا يفيدهن إلا زيادة النصب والتعب، بل ينتج عن ذلك إساءة عشرة الرجال لهن، حيث إن الرجل يعلم أن المرأة وإن تمادت على إساءة الخلق فهو الغالب لها، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق النساء لمغالبة الرجال، ولا للآراء والسياسات، فالرجال قوامون عليهن، ولا عكس، ولو شاء لأعطاهن الشجاعة والبسالة والفتوة والشهامة، والأمر بخلاف ذلك، فإنه سبحانه وتعالى جعل صوت النساء مفتنا مطربا، غير جهوري، فكأنه لم يجعل فيهن جارحة السب والشتم، ولا آلة الصياح الشديد، وأيضا حيث منحهن الحسن والجمال وتناسب الأعضاء ورقة الحاشية واللطافة والظرافة فكأنه لم يجعل فيهن لياقة للغضب، ولا مناسبة للحدة والحنق، ولا تقطيب الوجوه ولا العبوس، فلا تليق منهن ثورة الغضب، بل يجب عليهن أن لا ينسين الحلم عند شدة غضبهن. نعم، إن الغالب أن يكون لهن حق يجب فى الأسباب التى تغضبهن، ومع ذلك فلا ينبغى منهن كثرة المشاحنة، والهذر فى الكلام، بل يلتزمن البشاشة وطلاقة الوجه وكمال الاحتشام، حيث إن كل إنسان من بنى آدم لا ينبغى له أن ينطق إلا بما يليق

بجنسه، من ذكورة وأنوثة، فليس للمرأة أن تتخلق بأخلاق الرجل فى ارتفاع الصوت.

وأيضا لما كان فى النساء مثلبتان من أصل الخلقة، وهما: الضعف، والجبن كان يجب فى تربيتهن حال الصغر تمكين هاتين المثلبتين، وتثبيت هاتين النقيصتين اللتين هما فى الحقيقة فضيلتان، فإن النساء إنما فقدن كمال الحرية وكدن أن يكن تحت الحجر، وتربين على ذلك من الصغر إلا ليدوم فيهن الحلم والانكسار والخضوع، ومع ذلك تجدهن دائما يبحثن عن سد خلل هذين العيبين باتقان فن الحيلة والتلطف، فيكتسبن بذلك ما ينوب عن القوة والشجاعة المفقودتين منهن، ولما كن محرومات من المناصب والمراتب والوظائف، من كل ما يكسب النفوذ، وكان حرمانهن من ذلك فيه كسر لانفسهن، أحببن أن يوجدن لانفسهن شمسا على الرجال أصحاب المناصب، عوضا عما فات منها، فاستعملن فى ذلك وسائل مختلفة موصلة لاغراضهن، بقدر ما يستطعنه، ولو أن أصل فن الحيلة وطرق الاحتياط والاحتراس ليس من طباعهن، وسلوكها صعب عليهن، إلا أنهن متى تشبثن به وحاولنه، لموافقة أغرضهن، برعن فيه، وغلبن الرجال، فإن المرأة متى كانلها مأرب من المآرب يشغلها فإنها تكتم من أول الأمر هذا المرام، ثم تتزين بأحسن ما عليها، وتحسن الخطاب مع الرجل وتستعمل الالفاظ الساحرة للبة، الجالبة لقلبه، ولا تزال تبذل المجهود فى التلطف والتدلل والذلل حتى تتمكن من السلطنة على قلبه، وتنال منه ما تشتهيه وتتمناه.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى فى النساء استعدادا مخصوصا، وهو ميل أنفسهن دائما إلى إظهار اللطافة والمحبوبية للرجال، فجميعهن على الإطلاق يرغبن فى التحبب للرجال، وأن يكون معلوما عند الرجال ما حزنه من الجمال والكمال والعفة وجميع الفضائل، فالأنثى، من حيث هى أنثى، ولو بلغت ما بلغت فى درجة العفة ترغب أن تكون مألوفة محبوبة، بعيدة الصيت فى المعانى الحسان، ولا تأنف أن يكون لها فى القلوب موقع استحسان، ولوأنها مجردة عن الشجاعة الحسية فإن حيثياتها ومعنوياتها التى هى عبارة عن اللطف والظرف ولين الكلام

والإشارة سلاح لها يسهل عليها تجريده لتسبى به الرجل وتنتصر عليه، فنبال عيونهن رسل المنون، والبيض والسمر منهن مفاتيح الحصون، قال الشريف الرضى[1] يذكر عفته وصون محبوبته فى قوله:

ومالى بالمياء فى الشعر طائل ... سوى أن أشعارى عليك نسيب

عفافى من دون التقية زاجرى ... وصونك من دون الرقيب رقيب

فكل امرأة مستعدة لأن تبرز بهذه الصفات لحرب الرجال، بحيث لا تخلص للرجال من أسر جمالها المكنون وقهر سلطان حسنها المصون

تلطف لمن تهوى من الناس دائما ... لتحمد يوما غب ما تتلطف

ولا تكثر الإعراض عمن تحبه ... فتنكر منه بعض ما كنت تعرف

وقد خلق الله سبحانه وتعالى لبنى آدم، ذكورا وإناثا، احتياجات ضرورية، ووجدانيات لزومية لقوامه، وزوائد تحسينية لنظامه.

---

(١) محمد بن الحسين (٩٧٠ ـ ١٠١٦ م) شاعر مجيد، وأديب، كان على مذهب الشيعة الإمامية، وتولى نقابة الطالبيين فى بغداد، وإلى جانب شعره وتأليفه جمع كلام على بن أبى طالب فى الكتاب الشهير الذى أسماه (نهج البلاغة). وكان الشريف الرضى على وفاق مع مذهب المعتزلة فى أصول العدل والتوحيد، مثله فى ذلك مثل كثير من مفكري الشعية الإمامية.

الفصل الرابع

(فى الاحتياجات الضرورية البشرية)

لا يجهل أحد أن قوام الإنسان وانتظام أحواله يستدعى أنه خلق لحكمة عجيبة، ولم يخلق عبثا، قال سلطان العارفين ابن الفارض:

فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

فوجب بهذا السعى لإصلاح بنيته المادية، وتنمية أجزائه العضوية، بسد خلة ما فيه من الوجدانيات النفسانية القوية، كالجوع الذى يحسه الإنسان من الاحتياج إلى الغذاء، وهو ألزم الوجدانيات وأقواها، وكالاحتياج إلى السكنى، واللباس، والنساء، وليست هذه الوجدانيات فيه، ولا الحصول عليها لمجرد راحة النفس، بل لحفظ هذه النفس النفيسة وبقائها للحصول على ما أراده الله منها، فالاحتياج إلى السكنى مثلا إنما هو للصون من أذى حيوانات الخلاء وهوامها، والاحتياج إلى الملبس للوقاية من شدة الحر والبرد، فهذه وجدانيات طبيعية أولية، واحتياجات مقدمة الحصول عليها قبل غيرها، ومع أن كلا من المسكن والملبس ليس من الوجدانيات الطبيعية الصرفة إلا أن العادة حكمت بعدم الاستغناء عنهما وينتظم فى سلكهما أيضا احتياجات راحة النفس إلى توفية حظوظها ولذاتها المباحة، فإن النفس البشرية لم تخلق لأن تكون منعزلة وحدها، منفصلة عن أبناء جنسها، مجردة عن الاجتماع والائتناس، مع ميلها إلى ذلك طبعا، واضطرارها إليه وضعا، فهذا دليل على أن الإنسان يحتاج إلى التأنس العام والاجتماع التام، لإن الإنسان، بالانفراد، لا يكفى للقيام بأود نفسه، فلهذا اقتضت الحكمة الإلهية والإرادة الربانية أن تبيح له أن يختار ذاتا يرتبط معها ارتباطا أكيدا بعقد وثيق

للازدواج والارتفاق وحفظ النسل، فإذا لم يحصل على ذلك اعتراه هيجان البدن، وأصيب بالسوداء، وتغير فيه الخلق الحسن، فمثل هذا الداء لا يحدث إلا من فقد الحاجة التى يستشعر بها الإنسان ويحس بأنها من ضرورياته.

ولا ينبغى للعاقل أن يخترع لنفسه احتياجات تصورية خيالية يظن أنها بالنسبة إليه ضرورية ولا يقدر عليها، فيعود نفسه على ما لا يستطيع دائما أن يستحصل عليه مما لا يقدر أن يستعوضه بغيره إذا فقد، فإن المرء لا يعتريه النصب ولا يلم به التعب إلا بتكليف نفسه ما لا يطيق، وتمنى نفسه الأمانى التى لا يمكنه بلوغها، ولو سلك أصعب طريق، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تمعددوا واخشوشنوا». فأمر بالتمعدد، وهو أن يكون الرجل على سنة معد ابن عدنان، أحد أجداده، صلى الله عليه وسلم فكانت سنة معد الكد فى العيش والتعب فيه، كان يزرع بيده، ويحصد، ويتعاطى مصالح الزرع، وقوله اخشوشنوا أى لا تسترسلوا فى التنعم بالمأكل والمشرب وتدوموا عليه خوفا من أن تحتاجوا إليه فلا تقدروا عليه، فإن من ألف الترفه والتنعم يصعب عليه ضده، والمنهى عنه الاسترسال والمداومة، وهذا لا يمنع من التمتع بالطيبات من الرزق لمن لا يتكلف ذلك. قال بعضهم:

وجدت القناعة كنز الغنى ... فسرت بأذيالها متمسك
وأورثنى عزها خلعة ... يمر الزمان ولا تنتهك
وصرت غنيا بلا درهم ... أمر على الناس مثل الملك

وقال الشاعر:

أقسمت بالبيت العتيق وركنه ... والطائفين ومنزل القرآن
ما العيش فى المال الكثير وجمعه ... بل فى الكفاف وصحة الأبدان

وقال آخر:

فمن مخبر حاسدى أننى ... وهبت الأمانى لطلابها

تذل الرجال لأطماعها فبئس عصارة أعنابها
فلا نقطة من ثمار المنى كذل العبيد لأربابها

وقال آخر :

وقائل ما الملك قلت الغنى فقال: لا، بل راحة القلب
وصون ماء الوجه عن بذله فى نيل ما ينفد عن قرب

ومع ذلك كله فالحاجات تختلف باختلاف الناس وأحوالهم، قال بعضهم :

العيش دار رحبة وحليلة حسناء قانعة ومهر فاره
فاظفر بهن ولا تبالى فالورى إما محب مخلص أو كاره

وقال بعضهم : إن حقيقة السعادة الأبدية، دنيوية وأخروية، بعد أداءالفرائض الشرعية، والتأدب بالآداب النبوية السنية، أن يكون للمرء مسكن يأويه، وضيعة قريبة غلتها تكفيه، ولا تزيد على كفايته فتطغيه، وزوجة أمينة تواسيه، وولد بار يسليه، وجار صالح لا يؤذيه، وخادم عن مهنة نفسه يحميه، وما وراء ذلك لا حاجة له فيه . كما قيل :

ما أعجب الشيء أرجوه فأحرمه قد كنت أحسب منه قد ملأت يدي

(تهذيب الخلق)

وكما أن للإنسان احتياجات محسوسة لابد منها، فكذلك له احتياجات عقلية معنوية لا محيص عنها، كالاحتياج إلى التربية التهذيبية، والتعليمات الأدبية، فإنه من حيث أنه مجبول على التأنس والعيشة مع أمثاله يجب أن يحسن خلقه ويروض طبعه، فإن الخلق عادة النفس التى تصدر من الإنسان بلا روية، فهو نوعان : إساءة، وإحسان جبل عليهما الإنسان، فإذا ارتسم فى النفس أيهما كان نقله صعبا، لأنه تطبع، فإذا كانت الأخلاق المحمودة غريزية فى بعض فلا يهمل الباقى منهم أن يصيروا إليها بالرياضة والألفة، ويرتقوا إليها بالتدرب والاعتناء والكلفة، فمن لم

يكن منهم على الخير مطبوعا يصير متطبعا، والفرق بين الطبع والتطبع أن الطبع جاذب مفتعل والتطبع مجذوب مفتعل، وقد يكون فى الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة ولا الأخلاق الجميلة، ونفسه مع ذلك تتشوق إلى المنقبة، وتأنف من المثلبة، لكن سلطان طبعه يأباه عليه:

السيف ما لم يلف فيه صيقل   من نفسه لم ينتفع بصقال

وسبب ذلك فى الأخلاق أن الطبع المطبوع ملكة للنفس التى هى محله، لاستيطانه إياها، وكثرة إعانته لها، والأدب طارىء على المحل غريب، فالإنسان بأنسه وبائتناسه يعلو الرتب، وبشيمه الطاهرة ينال أعظم القرب، فلا بد من الرياضة لكسب الخلق الحسن واستكماله، قال صلى الله عليه وسلم: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وهى ما أوصاه به ربه عز وجل بقوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٩٩) فلما امتثل أمر ربه أثنى عليه بقوله تنويها بفضله الجسيم ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤) فلا أعظم من أدبه صلى لله عليه وسلم الذى قال فى شأنه: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى». وأكمل الآداب أدب العلم والعمل، وكل ما يخرج الإنسان من الزيغ والزلل، فالإنسان من حيث إنه محاط بأشياء كثيرة تخصه، ومكلف بمعرفتها حق المعرفة، للزومها له، يعهد من نفسه أنه لا بد له من معرفتها والوقوف على حقيقتها، وليس لها طريق موصلة إلا التعلم والتعليم، وهذا موضوع الباب الآتى:

الباب الثالث

[فى التعلم والتعليم.
وفيه فصول.]

الفصل الأول

فى التعليم وأقسامه

التعلم هو الوسيلة العظمى التى يكتسب بها الإنسان معرفة ما يجهله بالكلية . أو ما بقى له من تكميل علمه ببعض أشياء جزئية ، فالتعلم جزء من التربية المعنوية التى هى تهذيب العقل وترويض الذهن ، وهذه التربية المعنوية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : **القسم الأول** : تربية النوع البشرى ، يعنى تربية الإنسان من حيث هو إنسان ، يعنى تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية . **القسم الثانى** : تربية أفراد الإنسان ، يعنى تربية الأمم والملل . **القسم الثالث** : التربية العمومية لكل إنسان فى خاصة نفسه ، وهى تربية الإنسان الخصوصية . فالقسم الأول طبيعى ، ويكون غالبا فى أيام الصبا وزمن الشبيبة ، التى بفواتها يفوت المرام وتضيع الأيام . فينبغى أن لا تخلو أيام الصبى والصبية من إفادة واستفادة ، ليتحصل للذكور والإناث من صغر السن أسباب السعادة والسيادة ، ولا يزال كل منهما بتوفيقه تعالى محصلا للزيادة ، حتى لا يتأسف أحد منهم عند الكبر على ما مضى من الأيام وانقضى من الأعوام بدون الحصول على المراد ، من أحوال المعاش والمعاد ، وكان الشافعى ، رضى الله تعالى عنه ، ينشد ، ليقتدى به من يسترشد :

أليس من الخســـران أن لياليـــــا تمر بلا علم وتحسب من عمرى؟!

وقد تأسَّف على زمن الشبيبة أقوام كثيرون من الأفاضل ، ورجال أفضلون من الأماثل ، وسعوا فى كبر سنهم أن يجبروا خلل ما فات ، فتعلموا بقدر ما استطاعوا ، ولذلك قيل :

إذا ما أول الخطـــى أخطـــــا فـلا يرجـــى لآخـــره انتصـــار

إذا بلغ الفتى عشـــرين عــامـــا   ومــا بلـغ المرام فـذاك عــار

والجملة فالتعلم يكون فى سن الشبوبية لكل فرد من أفراد المعارف البشرية، ويقوى العلم بالممارسة إلى ما شاء الله. قال الشاعر:

فإن من أدبته فــــى الصبـــا   كالعــود يسقى الماء فى غرســه

حتى تـــراه مورقـــا ناضـــرا   بعــد الـذى أبصـرت مـن يبسـه

(العقل والشرع)

والقسم الثانى لايحصل إلاّ بتعليم أحكام الدين، الواجب معرفتها على كل إنسان، وحقوق القرابة ولا يكون ذلك إلا فى الجمعيات التى ابتدأت فى المدن، والعمران، كتربية العشائر والعائلات، وهذا القسم إنما يكون بالهدى الذى أنعم الله به على الخلق كافة، بعضه بالعقل، وأسباب الهدى بهذا المعنى الكتاب والسنة وبصائر العقول، وكلها مبذولة لا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والتعلق بالأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار، ومن جملتها استصحاب المألوف والعادة والعرف المعروف، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾(الزخرف: ٢٣). كما أن العبارة عن الكبر والحسد بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). وبقوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾(القمر: ٢٤). يعبر عن الهدى يشرح الصدر، كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(الزمر: ٢٢). وله نتائج شريفة أجلّها معرفة الله تعالى التى بها سعادة الدارين، وسائر الخصال التى تتفاضل بها الرجال، والمتصف بالهدى متصف بالعقل المحمود، والذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، وصدق متابعة الرسول فى سائر ما جاء به من الأحكام والآداب التى نصبها الشارع، وجعل مرجعها الكتاب العزيز، الذى هو الآية الكبرى والنعمة العظيمة فى بيان ما لا تهتدى إليه العقول، وفى الاعتصام من الفتن، ومصداق ذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: «إنه

ستكون فتن كقطع الليل المظلم». قيل: فما النجاة منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل». فهو الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها، فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى، فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود، فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.

(مراتب التعليم العام)

وأما التربية العمومية، المسماة أيضا بالتعليمات العمومية، فهى ما يتعلمه الذكور والإناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر مجامع المعارف التى يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين، وهذا القسم الثالث ينقسم إلى ثلاثة أقسام: تعليم أولى ابتدائى، وتعليم ثانوى تجهيزى، وتعليم كامل انتهائى.

فالتعليم الأولى ما يكون فيه أهل المملكة على حد سواء، فهو عام لجميع الناس، يشترك بالاشتغال فيه والانتفاع به أبناء الأغنياء والفقراء، ذكورهم وإناثهم، وهو عبارة عن تعلم القراءة والكتابة، فى ضمن تعليم القرآن الشريف، وأصول الحساب والنحو، فالكتابة مندوب إليها فى حديث: «استعن بيمينك. أى بالكتابة بيدك اليمنى، بأن تكتب ما تخشى نسيانه، إعانة لحفظك. ومن لطفه تعالى، بعباده أن ألهمهم الكتابة حيث منحهم ما يعينهم على أداء ما ائتمنوا عليه مما يزيل عنهم الريب، ومنافع الكتابة لا يحيط بها إلا الله تعالى، فما دونت العلوم ولا قيدت

الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم إلا بها، ولولاها ما استقام أمر الدين، والظاهر أن الكتابة قديمة جدا، وإن قال بعضهم إن أول من اتخذ القراطيس وكتب فيها يوسف عليه السلام، وكان يكتب للعزيز صاحب الرؤيا، ويقال هو أول من بيع من الأحرار . .

وأما النحو، الذى هو من العلوم الأولية، فهو لإصلاح اللسان، كما قال بعضهم:

كلام بلا نحو طعام بلا ملح ونحو بلا شعر ظلام بلا صبح

وقال آخر:

يا طالب العلم لا تجهلن ولذ «بالمبرد» أو «ثعلب»

تجد عند هذين علم الورى فلاتك كالجمل الأجرب

علوم الخلائق مقرونة بهذين فى المشرق والمغرب

وأما مبادئ الحساب والهندسة فنفعهما فى المعاملات معلوم .

وهذا التعليم الأولى متى تعلمه الآحاد حسن حال الهيئة الاجتماعية، وجمل كامل الرعية، وأرباب «الكارات» [1] والحرف الصناعية، فإن الصانع مثلا إذا تعلم ذلك سهل عليه، بقراءة كتب صنعته، أن يشتغل أشغالا جيدة بالمراجعة، وأن يخرج من ورطة مجرد السماع من فم أستاذه، وسهل عليه أيضا أن يكمل صنعته التى تعلمها من أستاذه، ويدخل فيها تحسينات جديدة وتكميلات مفيدة، وأن يقيد جميع ما رآه وسمعه، ولا يكون أسيرا لما نقله عن أستاذه الناقل أيضا عن آخر إلى ما لا نهاية، فبقراءة الصانع كتب الصناعة المتنوعة تتكامل فيها براعته، وتحسن وتجود صناعته، ويكون أيضا أهلا للتعليم، وتسلك تلامذته هذا المنوال القويم فترقى الفنون والصنائع على تعاقب الأجيال إلى درجة التحسين والكمال .

---

(١) أى الحرف، ومفردها «كار».

فالتعليم الأولى الذى هو عبارة عن المبادئ التى تقدم ذكرها ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء، فينبغى للأستاذ المعلم أن يتخذ فى تعليم الصبيان أقرب الطرق وأسهلها للتعلم، وكذلك ينبغى للأستاذ الماهر فى الفنون والصنائع أن يسلك سبيل السهولة، وينهج أقصر المناهج فى تعليم غلمانه، لأن العادة جارية بأن من يتعلم الصنائع «والكارات» وحرف المهنة إنما هو أولاد الفقراء والمتوسطين، وأن زمنهم محسوب على آبائهم الذين هم فى الغالب مساكين، فلا ينبغى تطويل الزمن فى تعليم الصنائع والمهن.

وأما التعليم الثانوى، الذى درجته أعلى من درجة ما قبله، فهو فى الغالب لا يلتفت إلى البراعة فيه غالب الأهالى لصعوبته، فينبغى للحكومة المنتظمة ترغيب الأهالى وتشويقهم فيما يخص هذا النوع، فهو ما يكون به تمدين جمهور الأمة، وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران، وأنواع هذا القسم التعليمى كثيرة، فمما ينبغى أن يشتغل به أبناء الأهالى منها المهم فالأهم، كالعلوم الرياضية بأنواعها، والجغرافية، والتاريخ، والمنطق، وعلم المواليد الثلاثة،[٢] والطبيعة، والكيمياء، والإدارة الملكية، وفنون الزراعة، الإنشاء، والمحاضرات، وبعض الألسنة الأجنبية التى يعود نفعها على الوطن.

وأما درجة العلوم العالية، فهى اشتغال الإنسان بعلم مخصوص يتبحر فيه، بعد تحصيله علوم المبادئ والتجهيزات، كعلم الفقيه والطبيب والفلكى والجغرافى والمؤرخ، من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية، ويريد صاحبه أن يجول فى أصوله وفروعه غاية الجولان، حتى يكون كالمجتهد فيه، فهو عبارة عن بعض أفراد فى مملكة من الممالك يكون لهم استعداد وقابلية لبلوغ أقصى نهاية المعارف التى بها نظام المملكة ليكونوا كالمجتهدين المجددين فيها.

وكما أن التعليمات الأولية والمعارف العمومية يجب أن تعم جميع أولاد الأهالى، فقيرهم وغنيهم، يجب أيضا أن يكون التعليم الثانوى كثيرا منتشرا فى

---

(٢) أى االحيوان والنبات والمعادن.

أبناء الأهالى، القابلين له الراغبين فيه، فيباح لهم التعليم ليكونوا من الدرجة الوسطى، بخلاف درجة العلوم العالية المعدة لأرباب السياسات والرئاسات، وأهل الحل والعقد فى الممالك والحكومات، فإنه ينبغى أن يقتصد فى تعليمها، والتضييق فى نطاقها، بحيث يكون عدد تلامذتها محصورا وعلى إناس قلائل مقصورا، بمعنى أن كل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لابد من أن يكون صاحب ثروة ويسار، ويكون مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والاعتبار، بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة، فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لا تصلح أن تكون له بضاعة، فلا ينبغى أن يرخص للتلامذة المتعلمين العلوم الأولية والثانوية أن ينتظموا فى سلك أرباب المعارف القصوى إذا كانت فى حقهم قليلة الجدوى.

(مراعاة ميول المتعلمين)

فمتى انتهى تعليم الشبان العلوم الابتدائية والتجهيزية، وظهر ميلهم إلى خصوصيات تناسب أحوالهم من الصنائع والفنون، وجب على أهلهم أن يضعوهم فيها، فإذا كان ميلهم إلى أشياء تضاد أحوالهم الحقيقية، ولا منفعة لهم فيما تميل إليه أطماعهم الشهوانية، منعهم أهلهم منها، ووضعوهم فى لياقتهم من كل ما ينتج لهم المنافع فى الفنون والصنائع، لينالوا بذلك الوظائف اللائقة بحالهم، وينبغى لأهل الخير أن يساعدوا من يخرج من مجال التعليم ببضاعة رابحة على نيل الوظائف الأهلية العمومية الكافية لقوام معاشهم وانتعاشهم، لأن رب المعارف الراغب للاستخدام فى وظيفة عمومية إذا لم يكن له مساعد ومعين، وكان له حق واستعداد فى التقلد بها ولم يتقلد، وسقط اعتباره، وضعف افتخاره، وظهر بمظهر الفقر والمسكنة، وربما أهلكه اليأس والقنوط بخيبة آماله وعيشته الخشنة، ورأى أنه ضيع فى طلب ماله وزمنه.

الفصل الثانى

فى أنه ينبغى لطالب العلم المشتغل به
أن يصفى ذهنه بأكل طيبات الرزق

قال القاضى عياض[1]: كان لمالك بن أنس،[2] رضى الله عنه، فى كل يوم فى لحمه درهمان. قال مطرف: لو لم يجد مالك فى كل يوم درهمين يشترى بهما لحما إلا أن يبيع فى ذلك بعض متاعه لفعل. وقال مالك: لو قيل لى إن دق الجوهر يعينك على هذا الأمر، أى طلب العلم، لدققته. ويقال إن يحيى بن زيد كتب إلى الإمام مالك بن أنس، رضى الله عنه: بلغنى أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطئ، وتجعل على بابك حاجبا، وقد جلست مجلس العلم، واتخذك الناس إماما، ورضوا قولك، فاتق الله يا مالك، وعليك بالتواضع، كتبته إليك كتابا بالنصيحة ما اطلع عليه إلا الله تعالى، والسلام. فكتب إليه مالك: وصل إلىّ كتابك، فوقع منى موقع النصيحة فى الإشفاق والأدب، متعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيرا، وأما ما ذكرت من أنى آكل الرقاق، وألبس الرقيق، واحتجب، وأجلس على الوطئ. فنحن نفعل ـ علم الله ـ ذلك. ونستغفر الله، وقد قال عز وجل: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ (الأعراف: ٣٢). وإنى لأعلم أن ترك ذلك أفضل من الدخول فيه. ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا. والسلام.

قال بعضهم ومما يحسن جوابا عن أكل مالك للأشياء الرقيقة: أن أكلها يولد الخلط الجيد، ويصفى الذهن، فيحسن الفهم بأكل الطيبات، لا سيما اللحم.

---

(١) (١٠٨٣ ـ ١١٤٩) مؤرخ وفقيه وشاعر، مغربى، اشتغل بالتعليم والتأليف والقضاء ببلاد الأندلس.
(٢) صاحب المذهب الفقهى الشهير، توفى سنة ٧٩٥ م.

انتهى. والمطلوب لطالب العلم البُلغة التى يتبلّغ بها، وهى إحدى وسائل طلب العلم المحصورة فى قول الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه:

أخى لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن أسمائها ببيان

ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة، وصحبة أستاذ، وطول زمان.

وقال آخر:

شروط العلم أربعة فأولها التفرغ له

وثانى شرطها شيخ يمهد للفتى سبله

وثالثها وجود فتى يبلغ ربه أمله

ورابعها مجالسة السراة السادة الكمله

ومع أنه ينبغى لطالب العلم أن يبحث عما به صفاء ذهنه وعقله، فلا ينبغى له أن يدقق النظر فى الطيبات لينتخب أطيبها، قال الإمام الغزالى[1]: قرب عابد إلى بعض إخوانه رغفانا ليختار أجودها، فقال له العابد: مه! أى شىء تصنع؟ أما علمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة، وعمل فيه كذا وكذا صانع، حتى استدار، فمن ذلك السحاب الذى يحمل الماء، والماء الذى يسقى الأرض، والرياح، وبنو آدم، والبهائم، حتى صار إليك، وبعد ذلك تقبله ولا ترضى به؟ وفى الآثار: لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعا، ما بين روحانى وآدمى وعنصر، وآخر ذلك الخباز، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها. فعلى طالب العلم أن يرضى بما يسره الله له، فكل شىء يسره ويفرحه. قال بعضهم: لا سرور يوازى سرور العلم، ولا لذة تساوى لذته، فإن أنواع السرور كثيرة، سرور الأبد الجنة، وسرور الدهر العلم، وسرور السنة العمارة الجديدة، وسرور نصف السنة الثوب الجديد، وسرور الشهر الزواج،

---

(١) أبو حامد محمد (١٠٥٩ـ١١١١ م) الملقب بحجة الإسلام، وكان فى عصره وفى عصور تلت عصره بمثابة ظاهرة فكرية شديدة التأثير فى أغلب الأوساط الفكرية بالعالم الإسلامى.

وسرور الأسبوع غسل الثياب، وسرور اليوم الحمام، وسرور الساعة الاجتماع للأنس المنزلى ومسامرة الأحباب، وما أشبه ذلك.

وحيث إن من لذات الدنيا لذة أنس الزوجية كان لا بد فى حسن هذه المسرات من المناسبة والملايمة بين الزوجين، حتى فى درجة المعرفة والفطنة وكمال الامتزاج، وهذا لا يكون إلا بالمشاكلة بين الزوجين، والمجانسة بين القرينين، لا سيما فى الممالك المتمدنة التى يعد فيها تعليم النساء من الشيم المستحسنة. فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لإرشادها فى أمور الزوجية والعشرة وفى تربية الأولاد إلى الطريق القويم.

الفصل الثالث

فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا، لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا، ويجعلهن بالمعارف أهلا، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن، لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة المرأة مثلها، وليمكن للمرأة، عند اقتضاء الحال، أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها، وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون، وفيما عندهم وعندها، وهكذا.

وأما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة، وأنها مكروهة فى حقهن، ارتكانا على النهى عن بعض الآثار، فينبغى أن لا يكون ذلك على عمومه، ولا نظر إلى قول من علل ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة، ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية، ككتابة رسالة إلى زيد ورقعة إلى عمرو وبيت شعر إلى خالد، ونحو

ذلك، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل لفعل، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت، ووعاد لصون مادة النسل. فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة. ولا تنطبق على جميع النساء، وكم من نهى وردت به الآثار كحب الدنيا ومقاربة السلاطين والملوك والتحذير عن الغنى، فقد حمل على ما يعقبه شر وضرر محقق، وتعليم البنات لا يتحقق ضرره، فكيف ذلك وقد كان فى أزواجه، صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبى بكر، رضى الله عنهم، وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان، ولم يعهد أن عددا كثيرا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن، على أن كثيرا من الرجال أضلهم التوغل فى المعارف، وترتب على علومهم ما لا يحصى من شبه الخروج[1] والاعتزال[2].

وليس مرجع التشديد فى حرمان البنات من الكتابة إلا التغالى فى الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أيا ما كانت فى ميدان الرجال، تبعا للعوائد المحلية المشوبة بجمعية جاهلية، ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة، فإننا لو فرضنا أن إنسانا أخذ بنتا صغيرة السن، مميزة، وعلمها القراءة والكتابة والحساب، وبعض ما يليق بالبنات أن يتعلمنه من الصنائع، كالخياطة والتطريز، إلى أن تبلغ خمس عشرة سنة، ثم زوجها لإنسان حسن الأخلاق كامل التربية مثلها، فلا يصح أنها لا تحسن العشرة معه، أو لا تكون له أمينة، ومثل ذلك سائر البنات، فإن تعليمهن فى نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن، فلاشك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة، وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة والاطلاع على المعارف المفيدة، هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال. فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال، لكن الجمال لا يغنى عن الأدب، لأنه عرض زائل، وأيضا آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا فى أخلاق أولادها، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والاشتغال بتربية

(١) أى الانضمام إلى فرقة من فرق الخوارج.

(٢) أى اعتناق مذهب «المعتزلة». والطهطاوى يبرهن بتقييمه هذا لهذه الحركات الفكرية عن نظرة محافظة للتراث الإسلامى وتياراته الفكرية.

أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها، بخلاف ما إذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير اللازمة، حيث تتصور البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك، فتألف ذلك من صغرها. فشتان ما بين هذه وبين من تعتمد على معارفها وآدابها، وتفعل ما فيه إرضاء وتربية أولادها، لأنها شبت على ذلك. كما قال البوصيرى، رحمه الله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقد قضت التجربة فى كثير من البلاد أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل إنه لا ضررفيه أصلا، فقد روى فى كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة، وقد كان فى زمان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء، «كالشفاء»[1] أم سليمان. فقد ورد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لها: «علمى حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب». أى الخط والهجاء، وخرج أبو الدرداء، رضى الله عنه. عن «الشفاء» بنت عبد الله قالت: دخل على النبى، صلى الله عليه وسلم، وأنا عند حفصة، فقال: «ألاتعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتاب». انتهت. والنملة بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيتسع. وتسميه الأطباء الذباب. وهذا الحديث دليل على أن تعلم النساء الكتابة جائز، وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به. حيث اشتركن معهم فى أصل الطبائع والغرائز، وورود النهى عن تعليمهن ينبغى أن يكون ليس على «إطلاقه». بدليل ما يعارضه بإباحة التعليم، فليتمسك كل من الفريقين، الذكور والإناث، بالأحاديث الواردة فى فضل التعلم والتعليم. ويتشبثوا جميعا بأذيال المدارسة والمطالعة ليقتطفا من أثمار العلم منافعه.

---

(١) هى زوجة أبو خثمة بن حذيفة، وأبوها عبد الله بن عبد شمس، أسلمت قبل الهجرة وهاجرت إلى المدينة. انظر (الطبقات الكبرى) لابن سعد جـ٨ ص ١٩٦، طبعة القاهرة.

الفصل الرابع
(فى المدارسة والمطالعة)

الدراسة هى تمرين العقل على مطالعة عدة علوم، أو علم واحد منها، ولما كانت فضيلة التعلم والتعليم والقابلية لذلك مشتركة بين جميع الناس، لا يستغنى عنها إنسان، وكان الاحتياج إليها ناشئا من كراهة النفس للجهل الذى لا يمحوه إلا المواظبة على الاطلاع، وكثرة الدراسة المستمرة التى يحصل بها التمكن من المعارف البشرية، وجب على الإنسان أن يتشبث بالعلوم الضرورية له، كما قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعا أحد ... لا ولو مارسه ألف سنه
إنما العلم عميق بحره ... فخذوا من كل شىء أحسنه

والأولى لطالب العلم أن يتشبث بما يلائم الفن الذى يتخذه له فنا يختص به، فدراسة العلم فى حد ذاتها أفضل ما يشتغل به الإنسان، وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته، وأفضل لذات الدنيا، فلا سرور يوازى سرور العلم، والاشتغال به يحسن فى جميع الأوقات وسنى الأعمار وفى جميع الأمكنة والبلدان، لأن مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الإنسان فى مدة عمره، وفى مبادئ وأواخر أمره، لأنها تصلح حال الشبان، وتنفع فى حال الكهولة، وتخفف الآلام، وتفيد الصبر على نوائب الأيام، حتى إن الإنسان المنهمك على القراءة لا يذوق طعم الفاقة وإن كان فقيرا، وإن كان غنيا أغلت قيمة غناه وسعادته، فما كأنها إلا غذاء الأشباح والأرواح فى الإمساء والإصباح، وهى لأهل المدن فكاهة ورفاهة، ولأهل الريف مشغلة ونباهة، وفى الأسفار تخفف وعثاء السفر، كما تلطف أحوال أهل الحضر، وهى وقاية تحفظ من القلق والوساوس، وينتصر بها الإنسان على القلق والأرق،

فهى خير واق وحارس، لأن القلق داء وخيم وصاحبه سقيم، فهو كالنار يرعى بدن الإنسان، ولو كان رفيع القدر على الشأن، فعلاجه النظر فى كتاب يزيل الأوصاب عن الألباب.

(مزايا العلوم والمعارف)

ومن فوائد الدراسة أنها تزين العقول بالمعارف الصحيحة والعوارف الرجيحة، وتفيد النفس الزكية شرفا ومجادة، وترقى الإنسان إلى أقصى درجات الفخر والسعادة، فيها يفقه الإنسان أحوال الناس على حقائقها، وما هم عليه أو ما كانوا عليه، أو ما ينبغى أن يكونوا عليه، بالوقوف على حسن طرائقها، وبذلك يكتسب التعود على الأشغال، وتلطيف النفس وصفاء البال، وبقوى عقله ويزول ما فيه من الخفة والطيش، لرفاهة الحال ولذاذة العيش، ويغلب الإنسان نفسه وهواه باجتناب البطالة والكسل والفتور، ولا يضيع زمنه سدى فى سفاسف الأمور، ومن فوائد المطالع للكتب الجيدة المفيدة أن يصير ناقدا بصيرا، وجميع أحواله حميدة، ولو لم يكن من فضائل الدراسة إلا الألفة بين الفضلاء النبلاء، والتعارف من بعضهم لبعض، لكان هذا كافيا لأهل العلى.

قال بعضهم: كان الناس فيما مضى إذا لقى العالم منهم من هو فوقه فى العلم قال: هذه غنيمة. أى لكونه ينتهز فرصة التلقى عنه، وإذا لقى من هو مثله ذاكره، وإذا لقى من هو دونه لم يزدر عليه، واليوم يعيب الرجل من فوقه، ويظهر أنه ليس له به حاجة، ولا يذاكر مثله، ويزهو على من هو دونه، وهذا مما يخل بالعالم، حيث إنه يفضى به إلى جحد الحقوق، لحب الرآسة والتعظيم، ويجعله يتعرض إلى ستر الحسنات ويتتبع السقطات، لهدم ما شيدته الفضائل بفضوله لا بفضله.

(الكتاب خير صديق)

ومما يحكى أن الشعبى[1] دخل على عبد الملك بن مروان[2] وبين يديه كتاب ينظر فيه، فقال : يا أمير المؤمنين، إن الكتاب خير مقارن، وأنبل جليس، وآنس أنيس، وأصدق صديق، وأحفظ رفيق، وأكرم مصاحب، وأفصح مخاطب، وأبلغ ناطق، وأكتم وامق [3]، يورد إليك ولا يصدر عنك، ويحكى لك ولا يحكى عنك، إن أودعته سرا كتمه، وإن استحفظته علما حفظه، و إن فاتحته فاتحك . وإن فاوضته فاوضك، وإن جاريته جاراك، وإن صمت عنه صمت عنك، ينشط بنشاطك، ويغتبط باغتباطك، ولا يرغب عنك رغبتك فيه، ولا يتخلف عنك حاجتك إليه، ولا يخفى عنك ذكرا، ولا يفشى لك سرا، إن نشرته شهد، وإن طويته رقد، وإن سألته نطق، وإن انغلقت عنه انغلق، صامت متكلم، مستعرب مستعجم، يذاكرك بالفلسفة، ويبصرك بتقديم المعرفة، ويبدى لك أخبار الأول، ويشرح لك سير الدول، خفيف المؤونة، كثير المعونة، حاضر كمعدوم، وغائب كمعلوم، لا تتصنع له عند حضوره فى خلوتك، ولا تحتشم له فى حال وحدتك، فى الليل نعم السمير، وفى النهار نعم المشير، إن طويته انطوى، وإن نشرته احتبى، فقال له عبد الملك : لقد حببت إلى الكتاب، وعظمته فى نفسى، وحسنته فى عينى . انتهى . قال بعضهم :

نعم المحدث والنديم كتاب ... تلهو به إن فاتك الأحباب

لا مفشيا سرا إذا استودعته ... ويفاد منه حكمة وصواب

لا سيما كتب التواريخ والسير، فقد قال بعضهم فيها لما فيها من العبر :

---

(١) أبو عامر بن شراحيل (٦٤٠ـ٧٢٨) من شيوخ التابعين، محدث ومؤرخ، وهو من أساتذة أبى حنيفة، اشترك فى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ضد بنى أمية ثم عاد إلى مهادنتهم وعمل بالسفارة لهم لدى إمبراطور الرومان بالقسطنطينية .

(٢) الخليفة الأموى (٦٤٦ـ٧٠٥) .

(٣) الوامق : المحب .

طالع تواريخ من فى الدهر قـد وجدوا   تجـد خـطوبا تسـلى عنك مـا تجـد

تجـد أكـابرهم قـد جـرعـوا غـصـصـا   من الرزايـا بهـا كـم فـتـتت كـبـد

عـزل ونصب وضرب بالسـياط وجـر   س ثم قـتل وتـوريث لمـن ولدوا.

وبمزوالة المطالعة تتسع دوائر المعارف، ونطاق الطرائف واللطائف.



الفصل الخامس

(فى سعة دائرة المعارف، والاطلاع على التليد منها والطارف)

سعة دائرة المعارف عبارة عن كسب جميع حقائق حوادث المعارف البشرية، لاتساع عقول ذوى الألباب الزكية، وهى ثمرة الإكثار من بذل المجهود فى قراءة كتب العلوم والفنون، مما تقادم عهده أو تجدد، وهى عبارة عن الجولان فى معرفة التاريخ ومعرفة الألسن ومعرفة الكتب المؤلفة فى أى فن من الفنون بأنواعها .

فمن المعلوم أن الغرض الأصلى من العلوم والمعارف إنما هو الانقياد لأمر الله تعالى بما اقتضته الحكمة الربانية فى بعثه للرسل، عليهم الصلاة والسلام، حيث إن الحكمة فى بعثهم إنما هى لانتظام أحوال العباد فى المعاش والمعاد، مما لا يحصل إلا بعبادة أو معاملة أو مناكحة أو جناية، فكل بالغ عاقل مكلف بعلم الحلال والحرام والعمل به ، لينال سعادة الدارين لكونه علم وعمل بما فيه السعادة لمعاشه ومعاده، ولهذا كان الناس على أربعة أقسام، مجموعة فى هذه الأبيات، وهى :

أربعة فى الناس ميزتهم ... أحوالهم مكشوفة ظاهره
فواحد دنياه مقبوضة ... تتبعها آخرة فآخره
وواحد دنياه ممدودة ... ليست له من بعدها آخره
وواحد دنياه معمورة ... كذاك أخراه غدت عامره
وواحد بينهم ضائع ... ليست له دنيا ولا آخره

فالقسم الأول والثالث حسن وأحسن، والقسم الثانى والرابع قبيح وأقبح، ونظم بعضهم الأحسن والأقبح فى قوله:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

(علوم الشريعة)

ولا يتيسر معرفة امتثال أمر الشارع إلا بعلم ما جاء به، ولا يتحصل العلم إلا بالاشتغال به، والجد فى طلبه، واستجماع أصوله وفروعه ومكملاته ومتمماته، فالاشتغال به أولى ما انفقت فيه نفائس الأوقات، وهو ينحصر فى جنسين: دنيوى، وأخروى، يعنى علوم المعاش، وعلوم المعاد، وقد أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وخلق له ما فى الكون من سائر المنافع، وزينه بالعقل الذى يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب، وجعل سبحانه وتعالى الإنسان، المتصف بالقريحة الذكية والملكة القوية، موفقا لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وإفادته، وأولى العلوم بذلك العلوم الشرعية التى عليها مدار أحكام البلاد وراحة العباد، وهى معرفة الله تعالى، والتفسير، والفقه، والحديث، إذ هى المقصودة بالذات، وما سواها من العلوم والفنون فهى لها كالآلات والإعانات. فالعلوم الشرعية هى أهم مما عداها، والاشتغال بها أوجب للحاجة إليها، والاضطرار إلى معرفة الحلال والحرام، وإقامة الحدود والأحكام، ولهذا كان أهلها أفضل من غيرهم. فأما علم الكلام ففضله معلوم كما قيل:

أيها المبتدى ليطلب علما كل علم عبد لعلم الكلام

تطلب الفقه كى تصحح حكما ثم أغفلت منزل الأحكام

وقيل للقاضى ابن الطبيب[1] إن قوما يذمون علم الكلام، فأنشد يقول:

(١) ابن الطبيب السرخسى، أحمد بن محمد (المتوفى سنة٨٩٩ م) مصنف، تولى مناصب الحسبة والمواريث وسوق الرقيق للخليفة المعتضد العباسى، وهو من تلاميذ الكندى فيلسوف الرعب.

عــاب الـكلام أناس لا خــلاق لـهم ومـا عـليـه إذا عـابوه من ضـرر
ما ضر شـمس الضحى فى الأفق طالعة أن لا يرى ضـوأها من ليس ذا بصـر

فكيف والقرآن مملوء بعقائد التوحيد، وتقرير حججها على أكمل وجه، فلهذا كانت عقائد التوحيد لا تقبل من الخلاف بين أهل الحق ما تقبله الفروع الفقهية، ولما لم تكن فى أزمنة الصدر الأول بدع يحتاج إلى ردها لم يتكلم على علم الكلام أهل الصدر الأول ما تكلموا فى الفروع، اكتفاء منهم بأدلة القرآن الواضحة لكل موفق، إلى أن ظهر أبو إسحاق الإسفراييني،[1] وهاجت المبتدعة، وكان قد صعد إلى جبل لبنان كثير من الأولياء الأتقياء يختلون فيه عن الناس، حيث كان متعبدا لهم، فذهب إليهم أبو إسحاق الإسفراييني فوجدهم يتعبدون، فقال لهم: هربتم إلى هذا الموضع تتعبدون فيه وتركتم أمة النبى، عليه الصلاة والسلام، فى أيدى المبتدعة؟ فقالوا له: أيها الأستاذ، لا قدرة لنا على مخالطة الخلق، وأنت الذى قد أقدرك الله على ذلك، فأنت أهله. فرجع، رضى الله عنه، واشتغل بالرد على المبتدعة، وألف كتابه (الجامع بين الجلى والخفى). فالاشتغال بعلم التوحيد مقدم على كل الواجبات، فالسعيد من وفق لتحقيق عقائد إيمانه، لما يراه من النعيم والسرور بواضح برهانه، ولكن لا ينبغى التغالى فى الدين، كما لا ينبغى التساهل فيه، لا سيما من أصحاب الحل والعقد والأمر والنهى، وقيل: من عرى عن إيمانه تلاعب بدينه. قال الشاعر:

نرقـع دنيـانا بـتـمـزيق ديـننا فـلا ديننا يبـقـى ولا مـا نـرقع
فطـوبى لـعـبـد آثـر الله ربه وجـاد بـدنيـاه لما يتـوقع

والاشتغال بالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها، وأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى وفهم معانيه، وأحكام آياته ومبانيه، وتبيين مطلقه من مقيده،

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (المتوفى سنة ٤١٨ هـ) مجتهد، عالم بالفقه والأصول، أقام بالعراق، ودرس فى نيسابور، وبها توفى، ودفن فى إسفرايين. انظر (طبقات الشافعية) للحسينى. ص ١٣٥ تحقيق عادل نويهض. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

ومبينه من مجمله، ومحكمه ومتشابهه، وقصصه ومواعظه، ومنسوخه وناسخه، فهم أساس الدين. وأما الفقهاء فإنهم خصوا بالاستنباط فى فقه الكتاب والحديث، والتعمق بدقيق النظر فى ترتيب الأحكام وحدود الدين، والترتيب بين الناسخ والمنسوخ، وغيرهما، فهم حكام الدين. وأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾(الحشر: ٧). وقد اشتغلوا بسماعه، ونقله، وتدقيقه، وتمييز صحيحه من سقيمه، فهم حراس الدين.

وقد جرت عادة الله تعالى فى خلقه، على ممر الأعوام والدهور، أنه لا يخلو زمن من الأزمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الأعلام، أعدهم لإقامة شرائع الإسلام، وتقرير الحدود والأحكام، وأنه إذا انقرضت طائفة خلفتها أخرى، كما فى الحديث الشريف: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك». قال البخارى: أراد طائفة أهل العلم. ولا يزال الكتاب والسنة موجودين بين المسلمين إن شاء الله تعالى إلى يوم الدين.

(علوم الفنون والصنائع)

ولما كانت عمارية المسالك والممالك لا تستغنى عن الفنون والصنائع، وآلاتها وأدواتها، يسر الله تعالى لكل زمن من الأزمان اناسا أرباب براعة كاملة لإحياء ما به يكون العمران ويتسع التمدن فى البلدان، فمن هؤلاء علماء التواريخ، والعارفون بالألسن واللغات، والمولعون بمطالعة الكتب ومعرفة مؤلفيها من مشاهير الرجال، فهم أيضا مجددون للصناعة والبراعة، فكل صاحب علم أو صاحب فن لا يتصف بسعة دائرة معرفته إلا إذا اطلع على المؤلفات الجليلة من فنه، فصاحب التاريخ لابد أن يعرف جميع السير مما ورد فى الكتاب والأثر وأخبار الماضى والحال، ليقيس على ذلك ما عساه أن يكون فى الاستقبال، لا سيما تاريخ الملل

والدول والنحل، وما كان عندهم من التدبير والحيل، ولكن لابد أن يكون صاحب بصيرة نقادة وفكرة وقادة، حتى يميز صحيح الوقائع من الأباطيل، ولا يلتفت إلى كل ما قيل من الأقاويل، ولا يهمل معرفة تاريخ بلاده ووقائع مسقط رأسه وميلاده، كما لا يهمل تاريخ العلوم والفنون.

وأما صاحب الجغرافيا فلابد أن يعرف كتب المسالك والممالك، برية، وبحرية، وجميع الأراضى والبلدان والجزائر، قديمة أوحديثة، ورسومها على خريطاتها وأطالسها، وعلى الأكبر الأرضية والسماوية، والمسافات بينها، وتجاراتها، وآحكامها، وشرائعها، وعوائدها، وطبائعها، إلى غير ذلك، ولابد أن يقف على آثار الأقدمين ويبحث عن تاريخ أزمانها.

وينبغى لصاحب اللغات أن يعرف اللغات التى تدونت بها علوم المتقدمين والمتأخرين، مشرقية أو مغربية، مهجورة أو مستعملة، بحسب الإمكان، ليمكنه أن يراجع ما يحتاج إليه عند الإبان، فإن لم يتيسر له ذلك اطلع على الكتب المترجمة من تلك اللغات، وأعظم ما ينفع فى سعة الاطلاع والتضلع من العلوم والفنون إتقان صناعة الفصاحة والبلاغة، التى هى شىء آخر غير معرفة النحو والعربية، لأن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفى الفصاحة والبلاغة، فالنظر لحسن الكلام إنما هو من هذين الوصفين، وأما النحو فشىء آخر، فلا ينبغى أن يستفتى فى حسن الكلام إلا الكتاب البلغاء أو الشعراء المفلقون، لا علماء العربية، فإن أهل كل علم أعلم به، وكما لا يسأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لا يسأل الحاسب عن مسألة فقهية، وكذلك كما لا يسأل النحوى عن مسألة طبية كذلك لا يسأل الطبيب عن مسألة نحوية، ولا يعلم العلم المخصوص إلا صاحبه المتضلع فيه، فالذى يوثق به فى معرفة الفصاحة والبلاغة علم البديع، الذى هو فن عزيز فى ذاته جميل فى معانيه وصفاته. (شعر):

شىء به فتن الورى غير الذى   يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

وكانت العرب العرباء يقولون البديع بطباعهم المفطورة على الفصاحة، فكل

عربى كان ملك القول وأميره، كامرئ القيس[1] وأنظاره، ، ومن لطافته تراه يجرى على ألسنة العوام ويرد فى ألفاظهم من غير قصد، ورب رمية من غير عناية، وهو محبوب إلى الناس قاطبة، وما من أحد إلا ويحب أن يتكلم فيه، حتى العامة يدعونه، وكلهم يخوضون فى فن الكتابة والشعر، وهم يظنون أنهم عالمون به، وربما فاضلوا بين الكتاب والشعراء ففضل الفصاحة والبلاغة لا ينكر، وهما من أشرف الفضائل وأعلاها درجة، ولولا ذلك لما فخر بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى قوله: «أوتيت جوامع الكلم». وهى لا تكون إلا فصيحة بليغة، وما سمع أنه صلى الله عليه وسلم افتخر بشىء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أوتى جوامع الحساب والطب، ولا غير ذلك، فلو لم تكن هذه الفضيلة أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها، فإن كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل بمعجز من مسائل العلوم الأخر.

ولما كانت هذه الفضيلة بهذة المكانة صارت فى الدرجة العالية، والمنثور منها أشرف من المنظوم، لأن الإعجاز إنما اتصل بالمنثور دون المنظوم، وأرباب النظم أكثر من كتاب المنثور، لأننا لو شئنا أن نحصى أرباب الكتابة والإنشاء من أول الدولة الإسلامية وإلى الآن لما وجدنا منهم من يستحق اسم الكاتب إلا أفرادا قلائل، ولهذا قال بعض من انفرد فى عصره بهذه الصناعة، يحث من أجرى فى بحر شريعتها شراعه.

يا طالب الإنشاء خذ علمه — عنى فعلمى غير منكور
ولا تقف فى باب غيرى — فما تدخله إلا بدستور

بخلاف الشعراء فإن عددهم كثير، حتى لقد يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرون كل منهم شاعر مفلق، وهذا لا نجده فى كتاب الإنشاء، وربما ندر

(١) امرؤ القيس الكندى، حندج بن حجر (٤٩٧ ـ ٥٤٥ م) من أشهر شعراء الجاهلية، وصاحب المعلقة التى تذكر فى مقدمة المعلقات السبع، كان ميلاده باليمن حيث كان أبوه ملكا على بنى أسد وغطفان، ومات بأنقرة بعد أن لجأ إلى قيصر الروم يوستيفيان الأول كى يساعده على استرداد ملك أبيه الذى قتله بنو أسد وانهوا ملكه.

منهم الفرد الواحد فى الزمن الطويل، وليس ذلك إلا لوعورة مسلك النثر وبعد مناله، والكاتب المنشىء هو أحد دعامتى الدولة، فإن كل دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم، قال الشاعر :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت والموت لا شىء يعادله ما زال يتبع ما يجرى به القلم

كذا قضى الله للأقلام مذ برئت أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

ـ والقلم فى البيت الأول مفعول مقدم، والسيف فاعل مؤخر، وجواب الشرط محذوف تقديره : فلا عجب فى ذلك، يدل عليه البيت الثانى ـ وقال آخر :

إذا افتخر الأجواد يوما بسيفهم وعدوه مما يجلب الجود والكرم

كفى قلم الكتاب عزا ورفعة مدا الدهر أن الله أقسم بالقلم

ومن نظر إلى سرعة فصل الخصام بالسيف قدمه على القلم فى الفضيلة كقول الشاعر :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الخطب والريب

ولا شك أن الممالك المتمدنة ترى صناعة الكتابة أنفع، وإن كانت وظيفة السيف أرفع، وقال بعضهم فى مدح القلم :

السيف والرمح خدام له أبدا لا يبلغان به جدا ولا لعبا

تجرى دماء الأعادى بين أسطره فلا يحس له صوت إذا ضربا

وربما لا يفتقر الملك فى ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين، وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام، وكثيرا ما يستغنى به عن السيف، قال الشاعر :

قــوم إذا خــافــوا عــداوة بيـنهم	**ســفـكوا الدمــا بأسنة الأقـــلام**
ولضـــربة مــن كـــاتب بـلســـانه	**أمـضى وأنفـذ مـن رقـيق حـسـام**

وقال آخر :

قوم إذا أخـذوا الأقلام عن غـضب	**ثم اسـتـمـدوا بهـا مـاء المنيـات**
نالوا بهـا من أعـاديهم وإن قـعـدوا	**مــا لا ينال بحــد المشــرفـيــات**

وإذا سئل عن الملوك التى غبرت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه إلا من حظى بكاتب خطب عنه، وفخم أمر دولته، وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس رغبة فى فصل خطابه واستحسانا لبديع كلامه، فيكون ذكرها فى خفارة ما دونه قلمه ورقة أساطيره، وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدو الدولة أن يروى أخبار مناقبها فى حفلة، ويصبح ولسانه حامد لمساعيها وقلبه ما به غلة، وهذا الذى ذكرناه صدق لا ينكره إلا متعسف.

وبالجملة فإنه يجب على صاحب الصناعة الكتابة والإنشاء أن يتعلق بكل علم وكل صناعة، ويخوض فى كل فن من الفنون، لأنه مكلف أن يخوض فى كل معنى من المعانى، لأن كلامه يمر على أسماع شتى، من خاصة وعامة، وذوى أفهام ذكية، وينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة، لأنها إن لم تكن كذلك فلا تكون فصيحة، وأن تكون مركباته مما تفهمه الخاصة والعامة، ما لم يكن مقصودا للخاصة، فإنه يتفاوت بدرجات من خوطب به. ويكفى فى ذلك النظر فى كتاب الله تعالى، فإنه أفصح الكلام، وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام، ومع ذلك فمنه ما يسارع الفهم إلى معانيه ومنه ما يغمض فيعز فهمه إلا للخواص، وأيضا لابد للكاتب الناثر من كونه إن لم يحسن الشعر لابد أن يكون له فى دواوينه سعة اطلاع، سواء كان من شعر العرباء أو من شعر المولدين أو المخضرمين.

وأول من شرع فى تقصيد القصائد، واستن الشعر للعرب فاتبعوه، وفتح لهم بابه فولجوه، امرؤ القيس، حيث استحسنت الأعراب تشبيهاته، وسلكوا مذهبه،

فمن ذلك الوقت صارت معالم الشعر قائمة لا تلوى، وأعلامه منشورة لا تطوى، ينفع ويضر، ويسوء ويسر، ويعزل ويولى، قال الشاعر:

فـــمن ذا رأى الورى خـــصلة ... تقـــرب نـأيا وتنئى قـــريبـــا
تميت وتحيى بـأقـــــوالهــــا ... وتفـقـر خـصـمـا وتغنى حـبـيـبـا

ومع أن امرأ القيس هو أول من حسن الشعر فى الجاهلية، وجعله باللغة المألوفة فى تلك الأزمان الجاهلية القديمة، إلا أن أشعار الإسلاميين المتقدمين صارت أرق من أشعار أهل الجاهلية، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين، وأشعار المولدين أبدع من أشعر المحدثين، ثم كانت أشعار العصريين - باعتبار التأخر - أجمع لنوادر المحاسن واللطائف البدائع من سائر المذكورين، ولانتهائها إلى أبعد غايات الحسن، وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حد الشعر إلى السحر، فكأن الزمان يدخر لنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم وأبكار أفكارهم ما نخوض به بحرهم العميق، وما يكون لنا رفيقا إذا سلكنا تلك الطريق.

وأما منفعة الشعر عند العرب فإنه كان ديوانهم الوحيد، ومجمع سياستهم الفريد، لأنهم كانوا يرجعون إليه عند اختلافهم فى الأنساب والحروب، فكان مستودع علومهم، وحافظ آدابهم، ومعدن أخيارهم، ولم يزل له عند المتأخرين هذه المزية. وقد قيل:

الشـعـر يحفظ مـا أودى الزمـان به ... والشـعـر أفـخـر مـا ينـبى عن الكرم
لولا مــقـال زهيـــر فى قـصـــائده ... ما كنت تعـرف جودا كان فى هرم(1)

وقد تعاطى نظم الشعر من لا يحصى عددا من الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء

(1) الإشارة إلى الشاعر الجاهلى: زهير بن أبى سلمى (المتوفى سنة ٦٠٩ م)، وهرم بن سنان. وقصتهما شهيرة فى تاريخ الأدب العربى عند حديث مؤرخيه عن زهير بن أبى سلمى ومعلقته التى مطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم.

والقضاة والزهاد والعلماء، حتى إن جماعة من ملوك بنى بويه[1] أرشوا جماعة من الشعراء حتى نظموا لهم أشعارا فنسبوها لأنفسهم لما زاد فى ذلك من المنزلة الرفيعة، وقد روى عن جماعة من الصحابة أشعار كثيرة حتى دونوا لأمير المؤمنين على، رضى الله عنه، ديوانا ذكروا فيه أشعارا حسانا نسبوها إليه، وقد وجد منها ما هو لعلى بن أبى طالب المغربى كالأبيات المتعلقة بمدح العلم:

الناس من جهة الأنساب أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فالشعر ديوان الأدب، وفخر العرب، شرفه مخلد، وسؤدده مجدد، تفنى العصور وذكره باق، وتهوى الجبال وفخره إلى السماء راق، ليس لما أثبته ماح، ولا لمن أعذره لاح، مات سحيم عبد بنى الحسحاس، وله ذكر أضوع من المسك وأنضر من الآس، ولولا الشعر لما عرف، ولا بالإجادة وصف، وكم فى بنى حام من مجهول طغام لا يذكر ولا يشكر. وقيل إن إبراهيم ابن المهدى[2] لما اعتذر إلى المأمون، وكلامه معروف، قال للمأمون فى جواب قوله: أنت الخليفة الأسود: أما كونى أسود فقد قال عبد بنى الحسحاس:

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له ... يوم الفخار مقام الأصل والورق

إن كنت عبدا فنفسى حرة كرما ... أو أسود اللون إنى أبيض الخلق

فقال المأمون: والله لوددت أنهما لى بجميع ملكى. يعنى البيتين. هذا جرير بن الخطفى[3]، مع ضعة بيته، وقلة أهليه، وعدم نباهة جده وأبيه، قد رفعه شعره، وعمره قوله، وشهر اسمه، وخلد رسمه، وضاهى الفرزدق[4] وناواه، وجاهره

---

(١) دولة كونها أحمد بن بويه، وفرضت سلطانها على الخليفة العباسى ببغداد سنة ٩٤٥م، واستمرت حتى ورثها السلاجقة سنة ١٠٥٥م، وكان فكرها شيعيا يميل إلى الاعتزال.

(٢) (٧٧٩-٨٣٩) أشهر من اشتغل بالغناء والموسيقى من أبناء الخلفاء، كان معاصرا لإسحق الموصلى، وبينهما مجادلات فى فن الغناء.

(٣) هو جرير بن عطية اليربوعى (٦٤٠-٧٢٨م) شاعر أموى، اتصل بعبد الملك بن مروان، وكان مع الأخطل والفرزدق أشهر شعراء عصرهم.

(٤) همام بن غالب(٦٤١-٧٢٣) شاعر أموى، صار شاعر بلاط بنى أمية فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك.

بالأهاجى وعاداه، مع شرف الفرزدق وكرم أصله، ولولا الشعر لكان بمعزل عن مجاراة مثله، ولقد ذهب امرؤ القيس وأبوه، وملكه وأهلوه، وبقى شعره وكلامه، وحفظ قوله ونظامه، ولكم من ملك فى «كنده» ذهبت منه العدد العدة مما تحسن ثباته، ولا يعرف اسمه ولا سماته، وبقى امرؤ القيس، ولقد ذهب ملك التبابعة والأكاسرة، وزال سلطان المقاول[1] والأساوره، ولم يبق لهم سوى بيت سائر من مديح شاعر، وبلغ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن كعب بن زهير[2] هجاه فهدر دمه، فجاء متنكرا حتى دخل المسجد واستأذنه فى إيراد مدحته فأذن له فقام بين يديه وأنشد قوله: بانت سعاد، فلما بلغ إلى قوله:

نبئت أن رسول الله أوعدنى   والعفو عند رسول الله مأمول

قال: «عفا الله عنك». وخلع عليه بردته، وطيب نفسه وأمَّنه، ولولا شعره لطاح دمه. وحدث أبو غزية الأنصارى قال لما أنشد حسان بن ثابت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كلمته حتى وصل إلى قوله:

هجوت محمدا فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء

تبسم صلى الله عليه وسلم، وقال له: جزاك الله الجنة على ذلك، ثم أنشده:

فإن أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

فقال صلى الله عليه وسلم: وقاك الله حر النار.

ولما قتل صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث أنشأت ابنته قتيلة تقول:

أمحمد ولأنت نجل نجيبة   فى قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المحنق

«فالنضر» أقرب من تركت وسيلة   وأحقهم إن كان عتق يعتق

---

(١) الأقيال، من ملوك اليمن القديمة.

(٢) كعب بن زهير المزنى (غير معروف تاريخ الميلاد أو الوفاة) شاعر مخضرم، أبوه زهير بن أبى سلمى، أحد شعراء المعلقات السبع، وهو صاحب قصيدة (بانت سعاد) الشهيرة، التى مدح بها الرسول عليه السلام.

فلما سمع شعرها قال ـ وما ينطق عن الهوى ـ: «لو سمعته قبل قتله ما قتلته».

ومن تأثير الشعر فى النفوس أن سديفا دخل على السفاح وعنده بنو أمية على مراتبهم فأنشده:

لا يغـــرنك مـــا ترى من أناس ... إن تحـت الـضـلـوع داء دويـا

فضع السيف وأرفع الصوت حتى ... لا ترى فــوق ظهــرهـا أمـــويا

(وأنشد أيضا):

أصـــبح الملك ثابت الأســـاس ... بالبــهــاليل من بنى العــبــاس

حتى انتهى إلى قوله:

واذكروا مصرع الحسين وزيد [1] ... وشـهـيـد بجـانـب المهـراس

ـ يريد حمزة الذى استشهد بأحد بجانب المهراس، والمهراس: اسم ماء هناك ـ فتأثر السفاح بذلك تأثرا بان فى صفحات وجهه، وكان سببا لقتل بنى أمية، مع ما كان فى النفس منهم، والقول يفعل ما لا تفعل الإبر، وأمر بضرب رقابهم عن آخرهم.

وقال يحيى بن خالد[2]: سألنى رجل من بنى أمية أن أوصله إلى الرشيد، فقلت له: إن أمير المؤمنين منحرف عن كل منتسب إلى أمية، فإن كانت لك حاجة فأنا أقضيها لك، فأبى إلا الإيصال إليه، فعرفت الرشيد بذلك، فأمر بإحضاره، فلم أرتب أنه يمسى مقتولا، فلما مثل بين يديه أنشد:

يـا أمـــين الله إنـى قـــائـل ... قـــول ذى عـــقـل ودين وأدب

لـكـم الـفـــضـل علـينـا ولنـا ... بكم الـفـضـل عـلى كل العـــرب

---

(١) المراد «الحسين بن على بن أبى طالب» (٦٢٥ ـ ٦٨٠) شهيد كربلاء. وزيد بن على بن الحسين (٦٩٩ / ٧٠٠ ـ ٧٤٠ م) إمام الشيعة الزيدية، وهو الذى ثار على الأمويين زمن هشام بن عبد الملك واستشهد وصلب فى نفس العام الذى ثار فيه.

(٢) يحيى بن خالد البرمكى (المتوفى سنة ٨٠٥ م) كان وزيرا مفوضا للخليفة العباسى هرون الرشيد قبل قضائه على نفوذ الأسرة البرمكية.

عبد شمس كان يتلو هاشما　　وهما بعد لام ولاب

فصلوا الأرحام منا إنما　　عبد شمس عم عبد المطلب

فقال له الرشيد: صدقت، متأثرا بقوله، وقد عمل الشعر فى نفسه، وأمر له بأربعين درهم. ولما أخذ المعز [1] العلوى مصر، وجلس للهناء، دخل عليه ابن هانئ الأندلسى، واستأذنه فى الإيراد، فأذن له، فأنشد قصيدة منها:

ألا إنما الأيام أيامك التى　　لك الشطر من نعمائها ولى الشطر

التفت المعز إلى وزيره وقال له: اكتبوا له بالإسكندرية، وسلموها إليه بمن فيها، فهى شطر قد خصصناه به. وهكذا كانت جوائز الشعراء. ودخل بعض الشعراء على حسان بن جراح الطائى، صاحب الشأم، وأنشده قوله:

هل الوجد إلا أن تلوح خيامها　　فيقضى بإهداء السلام زمانها؟

فلما بلغ إلى قوله:

ألا إن طيا للمكارم كعبة　　وحسان منها ركنها ومقامها

تقل لك الأرضون ملكا وأهلها　　عبيدا فهل مستكثر لك شامها

وهبه «حماة» وأعمالها.

ولما مدح أبو تمام [2] أحمد ولد المعتصم بقصيدته التى أولها:

ما فى وقوفك ساعة من باس　　تقضى زمام الأربع الأدراس

حتى وصل إلى قوله:

أقدام عمرو فى سماحة حاتم　　فى حلم أحنف فى ذكاء أياس

---

(١) المعز لدين الله بن عبيد الله (٩٣١ - ٩٧٥ م) أول من دخل مصر من خلفاء الفاطميين، ويرتبط باسمه بناء عاصمتها القاهرة، بعد فتح مصر سنة ٩٦٩ م.

(٢) أبو تمام الطائى، حبيب بن أوس (٧٨٨ - ٨٤٦ م) من الشعراء المجيدين والمشهورين فى العصور الوسطى، وله إلى جانب شعره المجموع فى ديوانه مختاراته من شعر القدامى مثل ديوان (الحماسة).

قال له بعض الحاضرين، وهو يعقوب الكندى [1]: كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب الأجلاف، وهو أشرف منزلة وأعظم مجلة؟ فانقطع، وأطرق، ثم رفع رأسه، وأنشد مرتجلا:

لا تنكروا ضـــربى له مـن دونه   مثـلا شـرودا فى الندى والبـاس

فـالله قـد ضـرب الأقـل لنوره   مـثـلا من المشكـاة والنبـراس

فاهتز الأمير لذلك طربا ووقع له «بالموصل» إجازة. فهذا تأثير الشعر فى النفوس.

فإذا تأملت فى الواقع ونفس الأمر رأيت أن الذى نفع أبا تمام فى استدراكه معرفته بالكتاب الشريف، وهذا من سعة الاطلاع، التى هى أنفع ما يكون للعلماء والأدباء

ومن أركان سعة الإطلاع معرفة الكتب المدونة فى العلوم والفنون، وما اشتملت عليه من المواد المهمة إجمالا، ومعرفة حال معلميها، واختلاف معلوماتهم. ودرجات الوثوق بهم تفصيلا، فلابد من معرفة تمييز الكتب الجيدة التأليف، المعتمدة النقل والتصنيف من غيرها، ليعتمد الإنسان على الصحيح منها ويترك غيره، حتى يعد صاحب سعة اطلاع، وينعقد على كماله فى العلوم والمعارف الإجماع.

ولا شك أن الكتب هى ثمرات العقول، وتأليفها نظما ونثرا موضوعه حفظ المعارف البشرية، وتوسيع دائرتها، وإبراز أصول العلوم والفنون والأخلاق والعوائد وكل علم نافع، وإخراجه إلى حيز الوجود، فالكتب هى حاملة الشرائع والتواريخ والحوادث والاختراعات والاستكشافات وما جريات الدنيا، وهى عبارة عن معلمين ووعاظ ومستشارين يرجع إليهم فى جميع الأمور، تفيد من يرجع إليها

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إسحق (٨٠١-٨٦٥ م) أول من اشتغل بالفلسفة فى الحضارة العربية الإسلامية، ويلقب بفيلسوف العرب، وكان على مذهب المشائين أتباع أرسطو، مع بعض التأثر بالأفلاطونية المحدثة.

جميع ما يجهله، وإذا فقدت الأساتذة وجدت الكتب فهى ترفع أرباب الحفظ إلى درجة عالية، وتسلى الإنسان وتزيل همومه، لاسيما إذا اتخذ مطالعة الكتب الأدبية ديدنا، كما قيل:

وإذا الهموم نزلن منك ولم تجد إنسا وملَّ فؤادك الأحبابا

فاعمد إلى الكتب التى قد ضمنت أوراقها الأشعار والآدابا

فهى التى تنفى الهموم ولن ترى أحدا له أدب يمل كتابا

فانظر تجد فرقا عظيما بين مسامرة المجالس المعتادة، ومطالعة كتب الآداب والفنون التى ألفها أولو الأذهان الوقادة، فإن الذكى يبحث عن الكتب الجيدة المقبولة، التى تستنير بها العقول وترتاح إليها النفوس، فأرباب الفطن تميل إليها أكثر من السماع من أفواه المتكبرين المعجبين بأنفسهم، فمعرفة الكتب، والتمييز بين الغث والسمين منها، فن مخصوص لا يتصف به إلا صاحب المعارف المتينة، والمتفنن فى العلوم جميعها، حيث لا يخفى عليه جميع الكتب المنسوخة والمطبوعة. ويعرف أهمية كل كتاب منها، ودرجة منفعته، وهل هو نادر أو كثير، وهل هو غريب فى بابه، وما درجة قيمته، وهلم جرا.

ومن المعلوم أن أصل التعلم إنما يكون بالتلقى والأخذ من أفواه الأساتيذ حتى يتحصل الإنسان على الملكة الصادقة التى يعد بالحصول عليها المتعلم منتهيا، فمن قصر عن ذلك واستبد بأخذ العلم من الكتب دون مراجعة الأساتيذ فهو المقصود من قول الشاعر:

كل من يطلب العلوم وحيدا دون شيخ فإنه فى ضلال

ليس فى الكتب والقراطيس علم إنما العلم فى صدور الرجال

وكذلك ينبغى أن يكون للعالم الواسع الاطلاع حافظة يستحضر بها القوانين العلمية، بدون أن يكتفى بجمع الكتب للرجوع إليها عند الحاجة، قال الشاعر:

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع

أتجلس بالعى فى مجلس وعلمك فى البيت مستودع

ومـن يك فـى عـلمـــــه هكـذا   يكـن دهره القـــهـــقـــرا يـرجع

فما أحسن العلماء والحكماء والأدباء وأرباب الفنون والصنائع إذا كان لهم سعة اطلاع وحفظ، فمثل هؤلاء يحق لهم أن يتنافسوا فى كسب المعارف، ليتجدد عندهم ثمراتها بمناسبة هذه الأزمان الجديدة، واتساع الاطلاع يفيد الكاتب أكثر مما يفيد الأمى الحافظ. قال أبو هريرة: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منى إلا عبد الله بن عمر، فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب، استأذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى الكتابة فأذن له، فقال: يا رسول الله، أكتب كل ما أسمع منك فى الرضى والغضب؟ قال: «نعم، فإنى لا أقول إلا حقا».



الفصل السادس

فى المنافسة فى كسب المعارف بين الأقران

التنافس صفة نفسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الاجتهاد ليفوق الأقران أو يساويهم، وأن يستقرئ ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب والملائم ليشارك الأقران فيه، ويبرع فيه بجودة ودقة نظره، فالتنافس غيرة محمودة، وغبطة معهودة مركوزة فى جميع النفوس الزكية، تستحسن فضل الأقران وتذعن به كمال الإذعان، فيتحرى صاحبها استسهال المصاعب، وركوب متون الأخطار والمتاعب، وأن تنتقل همته من الثرى إلى الثريا، ليصعد بالمعارف مكانا قصيا. كما قيل:

أنى ينال محلة الجوزاء من ... لا يستطيع من الصعود صعودا؟!

فيصرف شد عزمه فى علويات المعالى، فيبنى بها المبانى العوالى. كما قيل:

شددت من اللوا ما لم يشدوا ... وشدت من العلا ما لم يشيدوا

بناؤك كله أجر وشكر ... وما يبنون آجر وشيد

وينبغى لطالب المعالى أن لا يفوته شىء من فضل إخوانه، وأن يزاول كل المزاولة أن يتفوق على أقرانه، فالمنافس يجتهد بغاية الحماسة والشدة، ويحتد فى اجتهاده غاية الحدة، ويسلك فى بلوغ أمله المناهج الشريفة، والمباهة المنيفة، فسيره ممدوح، وصدره مشروح، ويغذى بالفضائل الروح، وكما حصل له الفتح الممنوح يحصل على يديه لمريديه منح الفتوح، فلا يصبر إلى ذهاب الشباب ولا اختلاق الإهاب. كما قيل:

سأنفق ريعان الشبيبة آنفا ... على طلب العلياء أو طلب الأجر

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمرى؟

ولا بأس على من تنافس فى عرائس المعارف وحلاها بأحسن لباس، وجملها وجلاها على الناس . .

من علم الناس كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو الجسد

(وقال آخر):

كن لأستاذك بالشكر مذيعا وتجمل
لمربى الجسم فضل ومربى الروح أفضل

وقال بعضهم: الأبوة على قسمين: صلبية، وقلبية، وكذلك البنوة، وما كان قلبيا أعظم شرفا مما كان صلبيا بدنيا . .

(مشروعية التنافس)

فالتنافس من حسن شمائل أعضاء الجمعية، ومن أكمل فضائلها النفعية، فهو صفة قلبية، وخلة شديدة قوية، ناشئة من حب الخير للوطنية، تقوى الحواس الباطنية الممنوحة للإنسان من فيض القدرة الإلهية، فالتنافس يعود على الممالك المتمدنة بمزيد المنافع، وعلى سائر أعضاء المملكة بإنارة مملكتهم بأنوار عقولهم السواطع، وقد يرفع التنافس عقل صاحبه فى أعلى عليين، ويجعله فى جميع درجات سنه على غاية من النشاط، يشار له بأطراف البنان، ويورث مجده للبنين، ويتوجه بتاج القبول بين أقرانه، ويجعله كالملك على إخوانه لإظهار حجة سلطانه، وقيام حجة برهانه، وربما ظهر ببادئ الرأى أن التنافس رفيق الطمع وشقيق الحسد، وأن المتمسك به غير سالك فى السبيل الأسد، مع أنه ليس فيه شيء من هاتين المثلبتين، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين، إذ ليس الغرض من التنافس حصر الفضل فى صاحبه، ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه، بل مجرد التقدم فى المعارف، والدخول مع الأقران فى ميدان السباق، ليبادر كل منهم بالسعى واللحاق، فبهذا يحسن حال المعارف البشرية، وتبلغ درجة الكمال، فالمنافس

كـالفـارس الذى يدعـو قـرنه للدخـول فى حـومـة النزال، فـلا يعلـم أمنضـول هو أم ناضل، ومفضول أم فاضل، ولا بأس بالسباق العمومى الفخار، ولا بالتشبث فى كسب الاعتبـار، فمن لم يساعده مـجال فطنته على كـمال الفـوقان، فـلا تخلو فـروسيتـه عن كـسب ثمـرة تكافئ جريه فى هذا الميدان، فـقل أن يخيب تنافس المتنافسين، فمن لم يكن من المصلين كان من المجلين.

ومما يعد مثلبة خسيسة لا منقبة نفيسة: المنافسة فى الأمور الدنيـوية الدنية، وزوائد الرفاهية المدنية، فإنه لا تحسن بها المباهاة ولا المفاخرة، حيث لا نفع لها دنيا ولا آخـرة، فليست مما يعود بالنفع العـام على أهل الوطـن من خاص وعـام، كـما قيل:

لعــمـرك مـا التنعـم فى رياش	**ولا ظبـى يلاعـب فى الـفـراش**
ولا فى الـكأس والأوتار قـامت	**لهـا جـرد رقـيـقـات الحـواشى**
ولا فى مـرحـة وركـوب خـيل	**ولا صـيـد تراوغ عن خـداش**
ولكـن التـنعـم فى انبـسـاط	**بلا قـبض يغـم ولا انكـمـاش**
وفى عـلم الأمـور لـذى اطلاع	**بصـيـر فى مـدى التـفكيـر مـاشى**
يسـوس الحـال يفـشى فيـه نفـعـا	**ويدفـع بالـتلطـف ظلـم غـاشى**
فـفى فـتـرات أحـداث الليـالى	**يريش وفـى تصـادمـهـا يراشى**
ويغضى عن عـيوب أخيه صفـحا	**كـأن لم يبـد وهـو إليـه غـاشى**

وأما بعض المتفلسفين المتقشفين الذين يرون زينة الدنيا وطيباتها بعين الازدراء والاحتقار، حيث إن الدنيا ليست بدار قرار، فهم يذمون المنافسة ويرون أنها محض طمع، كما قال أبو نصر[1] محمد بن محمد التركى الحكيم فيلسوف الإسلام الذى تخرج بكتبه الرئيس أبو على بن سينا[2] وانتفع بكلامه هذه الأبيات:

(١) الفارابى (٨٧٠ـ ٩٥٠ م) فيلسوف مسلم، من أصل تركى، اشتغل بالترجمة، وكان من ألمع نجوم بلاط الدولة الحمدانية، على عهد سيف الدولة الحمدانى، ويلقب بالمعلم الثانى، كما لقب أرسطو بالمعلم الأول.

(٢) أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا (٩٨٠ـ ١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب، لقب بالشيخ الرئيس، له أكثر من مائتى مؤلف، أشهرها (الشفاء) الذى يعد موسوعة غنية فى فكره. . ولابن سينا آثار فكرية تضعه فى عداد الفلاسفة الإشراقيين.

أخى خل حـــيـــز ذى باطـل — وكل الحـــقـــائق فى حـــيـــز

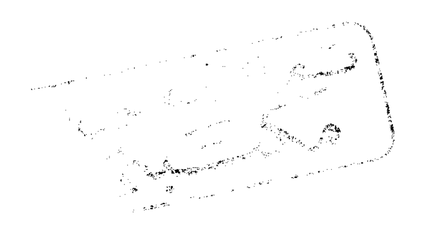
فـــمـــا الدار دار مـــقـــام لـنا — ولا المرء فـى الأرض بالمعـــجـــز

يـنـافـس هـذا لهـــــذا عـلـى — أقـل مـن الـكـلـم المـوجـــــز

وهل نـحن إلاخـطـوط وقـــعـن — على نقطة وقـع مـــســـتـــوفـــز

مـــحـــيـط الســمـــوات أولـى بنا — فـــمـــاذا التنـفس فى المـركـــز

فالمنافس بقصد نفع وطنه الفاضل هو ما يوصف بالإنسان الكامل، فكيف وهو المؤثر المعرفة على النزاهة، والمروءة على الفكاهة، والفضيلة على الإعجاب، وبهذا ينتظم فى سلك ذوى الألباب، وأن جميع نتائج درسه نافعة، وثمار غرسه يانعة، وإذا اتسع عقله بالأغارسة والتجربة صار من أرباب القرائح المخترعة المكتسبة.



الفصل السابع
فى الروح، والعقل، والقريحة

الروح : هى الحياة والحركة ، وأصل الإحساسات والإدراكات والشهوات ، تهدى الإنسان فى حركاته وسكناته ، وأفعاله وأقواله ، وبها يمتاز عما سواه من باقى الحيوانات ، وهى من أصل الفطرة ، فى حد ذاتها طاهرة زكية ، وإنما تولدت عنه الشهوات واللذات لما اتصلت بالأجسام الطبيعية . ثم إن للروح استعدادات تتميز بها ، إلا أن كنهها مغيب عن البشر لا يعرفون حقيقته ، وإنما غاية ما يقال فيها : إنها جوهر متميز عن الجسم ومباين له ، حيث إن لها استعدادات على تنجيز عمليات ليس من خواص المادة تنجيزها ، فهى التى تدرك الأشياء بما فيها من المشابهة والمشاكلة والمباينة والمضادة ، وتجيل فيها الفكر ، وتقيم عليها الدليل . وتنتج النتائج الصحيحة ، وتتبصر فى عواقب الأمور ، وتقضى وتحكم بما يلزم وهذا لا يوجد فى المواد الجسمية .

فهى مشتملة على أصل فعال يحملها على العمل أو الترك تبعا لما تدركه من الملاءمة ، وهذا الأصل الفعال هو الإرادة التى تحمل على الاختيار ، فتختار ما يليق لها من أسباب السعادة ، مما تظنه كذلك . ومن متعلقات الروح العقل والقريحة ، فالعقل قوة روحانية بها إدراك حقيقة الأشياء وقياس بعضها ببعض بما فيها من الجامع ، والحكم عليها بما يقتضى ، فالعقل فى الإنسان هو الجزء الناطق المتفكر ، وهو عبارة عن قوة روحانية نورانية تدرك ماله وجود فى خارج العيان أو فى الأذهان على حقيقته ، وتدرك جميع العلاقات والمعاينات فى المخاطبات والمحاورات ، فإذا أعرب المتكلم عما فى ضميره ، تصور عقل السامع ، إذا كان سليما قويا ، صحة

الكلام أو فساده من أول وهلة، وبقدر إدراك الإنسان النسب والعلائق بين الكائنات التى حوله تكون جودة عقله على حسب قوة هذا الإدراك.

فالعقل هو الوسيلة الوحيدة فى التصور والتصديق، وتمييز الحقائق على وجه دقيق نميق، [1] وإذا كان حادا ذكيا متوقدا يخترع ويبتدع كان قريحة، فالعقل الواسع يدرك العلاقات المتولدة بين الأشياء، ومن أول وهلة يحفظ فروعها ومتشعباتها، وينسبها إلى أصل واحد ومركز عمومى يجمعها، حتى تصير بالنسبة للعقل معلوما واحدا، ومستحضرة فيه بصورة واحدة، فتنتقش فى مرآة العقل المعلومات تأصيلا وتفريعا فى صورة جلية، فالمدرك لهذه الصورة هو القريحة، فلا يتصف بالقريحة إلا من اتصف بسعة العقل، ولكن قد يتصف الإنسان بسعة العقل ولا يكون متصفا بالقريحة، إذ كل منهما ممتاز عن الآخر، لأن القريحة، دائما نشطة شغالة فعالة ولادة متصورة، بخلاف العقل - ولو متسعا - فإنه، فى الغالب، مثله كمثل التاجر يعطى ويأخذ مع الفتور والكسل وقلة الحماس والسرعة، ولا مانع أن يقال: إن القريحة هى أعلى درجات أفكار العقل البشرى بقدر ما يستطيع أن يتفكر، فهى بهذا المعنى أجل نعم البارى سبحانه وتعالى، إذ بها يكون للإنسان ملكة الوقوف على الحقائق والدقائق والرقائق، وبها ربط التصورات المتجددة العجيبة التى تدركها النفس والاختراعات والابتداعات التى لا على مثال سابق، فالقريحة تجمع أطراف التصورات والتصديقات المتفرقة بما تدرك فيها من العلاقات، وتتصرف التصرف التام فى هذا الجمع.

(الإبداع ثمرة للإرادة والاختيار)

وأكثر الناس ممن لا يمعن النظر فى القريحة يعتقد أنها حدة قوية فى النفس تهديها بالصدفة والاتفاق إلى صوب أى شىء من الأشياء، فتخبط بها خبط عشواء، كالدولاب الذى يتحرك بنفسه حركة قسرية حتى يصل بالصدفة والاتفاق إلى عمل يعمله بدون إرادة ولا اختيار، أو كمنبع ينصب ماؤه فى أى محل كان

(١) النميق: المنقوش.

ويتركه فلا يعيده إليه . وليس الأمر كما يعتقدون ، بل هو كما أسلفناه : قوة فعالة تبرز عملها على الأشياء بفن مخصوص وإرادة مخصوصة ، تتحرى التصرف فى مفعولها بجميع التصرفات المطلوبة ، وتشكله بأشكال حقيقية مرغوبة ، فهى كالخبيرة بفن التشريح تميز أجزاء الأعضاء التى تبحث عنها وتنظر فيها وتقيس نسب أجزائها المؤتلفة ولو تباعدت ، فهى كالمرآة الصقلية التى تنطبع فيها صور الأشياء ، أو كآلة عمومية نباشة ثاقبة فى بحثها عن الأشياء . ومن أفضل وظائفها أنها لا تزاول البحث عن المستحيل الذى لا يتصور وجوده ، ولكن عن استخراج الجائز الممكن الوجود ، ولو متعاصيا ، فكل من اتصف بالقريحة المتصرفة هذا التصرف حكم له بقوة روحه واتساع عقله وسرعة حكمه وإنتاجه ، وإنه جوهرى العقل .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية إيداع القريحة العقلية فى دماغ الإنسان لتكون كإيداع المعادن النفيسة فى باطن الأرض ، فإن المعادن فى باطن الأرض غير مصقولة ولا متشكلة بأشكال منتظمة ، بل مشوبة بأخلاط وأجزاء أجنبية ، فلا تنظف وتظرف إلا بالفن والصناعة ، وكذلك القريحة ، فإن العلوم والفنون تعمل فيها ما تعمله تصفية المعادن النفيسة ، بإزالة ما خالطها من المواد الأجنبية ، ولا يزيد فى جوهرها بل يبرزها على ما أرادته الحكمة الإلهية ، وإذا قويت القريحة فى العلوم والفنون والصنائع وبلغت فيها درجة الكمال كانت آلة للاختراع والابتداع ، حتى لا يكون لتصرفها نهاية ، ولا لحسن تدبيرها غاية ، وقد سلف لنا أنها هى العقل الكامل الذى يدرك العلاقات بين الأشياء ، ومن هذه العلاقات ما يكون بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية .

الفصل الثامن

فى العلاقة بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية

الفنون الأدبية، المسماة بعلوم العربية، وهى النحو، والصرف، والبيان، والمعانى، والبديع، والخط، والعروض والقوافى، وقرض الشعر، والإنشاء، والمحاضرات، ولا سيما اللغة، وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية، كلها آلة للعلوم الحقيقية، عقلية أو نقلية، فبالتمكن من الفنون الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما فى الضمير بأحسن عبارة واوضح إشارة، ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط، فمن هذا يفهم أن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضها ببعض، لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، وأن كلا منهما متوقف على الآخر. وإذا نظرنا إلى ما سبق من التقدمات العلمية فى البلاد المتمدنة، كبلاد اليونان وبلاد الرومانيين وبلاد الإسلام، وجدنا أن دراسة الآداب فى مدن آسيا ورومة وبغداد ومصر وغيرها حسنت دراسة العلوم الحقيقية، وأن دراسة العلوم الحقيقية كست المعارف الأدبية حلل البهجة والرونق وزادتها تحسينا وتكميلا.

(علاقة العلوم الحقيقية بالأدبية)

فكل من النوعين العلميين اقتبس من الآخر ما زاده بهجة وكمالا، ولما كانت بهجة اليونان لم تكمل إلا بالجمع بين النوعين سعدت بذلك وتمتعت بفضل الحكمة والآداب، واشتهرت بذلك أكثر من غيرها، وصارت العلوم الأدبية والعلوم الحكمية متقارنة فى التمكن والتقدم، خصوصا فى مدينة «أثينة»، وهى مدينة

حكماء اليونان، وكذلك الرومانيون، فكانت فى زمن القيصر أغسطوس[1] أدبياتهم وحكمياتهم على حد سواء فى التقدم والتكامل، لا سيما فى مدينة«رومة»، وكانت إذ ذاك «رومة» حاكمة على «أثينة» بقوة سلاحها وشوكة حكامها، وإن تساوت المدينتان فى العلوم والآداب وسعة الاطلاع، وأما الأزمان الحديثة، كأيام الخلفاء فى البلاد المشرقية والمغربية، فقد تقدمت الفنون الأدبية والعلوم الشرعية النقلية والعلوم الحكمية والعقلية، وتولع هؤلاء الخلفاء بالبحث عن ترجمة كتب اليونان فى دواوينهم بلغة العرب الفصحى، فسارت الآداب والعلوم فى الخلافة الإسلامية سيرا واحدا متحد الخطوة، وصارت علوم الأقدمين وآدابهم وتواريخهم معلومة للمتأخرين، مع ما أضيف إلى ذلك من تآليف علماء الإسلام وتصانيفهم، وما تجدد من نتائج قرائحهم الذكية وثمرات عقولهم المنيرة، مع ما توارثوه فى الأدبيات من أسلافهم، وهم العرب العرباء. قال عتبة بن أبى سفيان: إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فسرت بغيرها عطلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت. فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت، بلغتهم نزل القرآن، وبها يدرك البيان، وكل نوع من معناه مباين لما سواه، والناس إلى قولهم يصيرون، وبهديهم يأتمون. أكثر الناس أحلاما، وأكبرهم أخلاقا وإباء، لنا كانوا كراما، وهم على العموم أعز الناس أنفسا، لم ينقادوا إلى أجنبى من الملوك، بل سلكوا فى حفظ حريتهم أحسن السلوك، ومن أعزهم نفسا وأشرفهم هما الأنصار، وهم الأوس والخزرج، أبناء قيلة،[2] لم يؤدوا إتاوة قط فى الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم «تبع» أبو كرب يدعوهم إلى طاعته ويتوعدهم إن لم ينقادوا له فكتبوا إليه:

العبد تبع كم يؤم قتالنا ... ومكانه بالمنزل المتذلل

إنا أناس لا ينام بأرضنا ... عض الرسول هنا لأم المرسل

فلما دنا لقتالهم كانوا يقاتلونه نهارا، ويخرجون إليه القرى ليلا، فندم من

---

(١) أغسطوس، ابن بنت أخت يوليوس قيصر (٦٣ق.م-١٤م) أول إمبراطور رومانى، وهو الذى ضم مصر إلى إمبراطوريته بعد هزيمة كليوباترة وأنطونيوس فى «إكتيوم» سنة ٣١ق.م.

(٢) قيلة: اسم أمهم. انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الأوس».

قتالهم، ورحل عنهم، فكل عزيز نفس من العرب يرى فى نفسه الملوكية وأنه سيد حيه وقبيلته وأكرمها:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

وبالجملة فالعلوم الأدبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة جلية، فإنه لو صار فى التآليف والتصانيف سرد مسائل أى علم كان بعبارة بسيطة مجردة عن التحلى بحلية الإنشاء والأدب، ولم يصر تلطيفها بما يسيغها فى ذوق القارئ، لكانت مسائلها ركيكة غير رائقة، فلابد لمسائل العلوم من حسن التوقيع وفصاحة العبارة وتحسينها بما يزيل عن ذهن القارئ وعثاء السآمة، فحسن العبارة فى تقرير المسألة العقلية والنقلية هو ذكرها على وجه لطيف مقبول للعقل، ليستفيدها السامع وتلتذ بها المسامع، فنهاية الآداب تحسين العبارات وتزيينها بالتلطيف والانسجام، لتكون بهذا المعنى مفتاحا لأبواب العلوم الحقيقية، كما أن العلوم الحقيقية تعين بالكلية والجزئية على كمال توسيع دائرة الآداب فى كل لسان، لا سيما لسان العرب، ولذلك نجد الفنون الأدبية عند الأمة القليلة الحضارة والعمارية، التى دائرة علومها ومعارفها الحقيقية ضيقة النطاق، لم تزل فى حالة الطفولية، وأدباؤها يشبهون الصغير فى المهد، لا يعرف إلا المناغاة، فلا يستطيع الأديب منهم أن يميز الغث من السمين، ولا أن يأتى المعارف العالية من أبوابها، فلأجل اجتناء ثمرات المعارف فى تلك البلاد يجب غرس الآداب فيها، وتعويد عقول أهلها على التدقيق والترقيق فى الكلام، والنظر فى العلاقات التى بين الفنون الأدبية والعلوم الحقيقية، فبهذا تتقدم الآداب والعلوم، وبامتزاجهما يحصل التناسق، كما هو معلوم، قال الشاعر:

إذا ما الفكر ولد حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيان

ووشاه فنمنمه مجيد فصيح فى المقال وفى اللسان

ترى حلل البيان منشرات تجلى بينها صور المعانى

ففنون الآداب آلات قوية لسائر العلوم الحقيقية، والتضلع منها يحتاج إلى تسهيل الأسباب والوسائل، لتنتشر فى الأوطان، وتجلب معها أعظم الفضائل، وكمال العرفان.

الفصل التاسع

فى ذكر الطرق المسهلة لتقدم العلوم والآداب وطريق الحصول عليها والاكتساب

أعظم الوسائل والوسائط التى تعين على تقدم العلوم والفنون فى مملكة من الممالك هو تشويق صاحب المملكة للأدباء والعلماء بالمكافأة اللائقة والتحف الملائمة، لأنه ينتج من التشويق المنافسة والمقارنة، وينشأ عن ذلك سعادة المملكة، بوجود الرجال فى محط الرحال، كما ينشأ عن ذلك أيضا إصلاح أحوال الأهالى، فالملك العاقل والأمير الفاضل والسلطان العادل هو من يسعى دائما فى إسعاد دولته وإرشاد سلطنته بإسعاد أفراد الأهلين المساعدين على نفع وطنهم، فالحاكم الذى يعشق علو الشأن، ويقيم على محبة وطنه الحجة والبرهان، يتخذ قواعد حكمه وضوابط ملكه تشريف أهل الفضل، ومكافأة أهل النبل، سواء كانوا من أرباب التأليف والتصنيف، أو من أهل التعليم والتفهيم، أو من أصحاب الاختراع والابتداع، حتى يشهرهم بالشهرة الممدوحة، ليبقى ذكرهم وآثار مجدهم معلومة التاريخ لمن يأتى من بعدهم، فلا تزال فى أوطانه أشجار المعارف مثمرة، وأغصان اللطائف مزهرة، وتكثر المسابقة والمنافسة، وتستمر الدراسة والممارسة، وتفيض على المملكة بحار المعارف والعوارف، ويبدو صلاح اللطائف، وتقوى ينابيع العلوم والفنون، وتتسع مقالات الشروح والحواشى والمتون [1].

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الكائنات الفطرية قابلة للتغيير والتبديل، لا سيما

(١) الشروح معروفة، والحواشى هى التعليقات التى تكتب على الشروح، أما المتون فهى المختصرات الموجزة التى تأتى الشروح لبسطها وشرحها.

العقول البشرية، فإنها كالجنود المجندة، تجرد دائما لاتساع مملكتها سيوف الذكاء المهندة، فكما أن النور مدى الأزمان فى حرب مع الظلمة، والعلم يحارب الجهل والوصمة، فكذلك مصابيح المعارف، بهذا المعنى، تستنير تارة وتنطفئ أخرى، وينتقل نورها إلى مملكة يرى وجوده فيها أجدر وأحرى.

فبهذا صح عند الاقتضاء الانتقال عن الأوطان لاكتساب فضائل العرفان، فمن لم يجد معلما يعلمه فى بلده أو وطنه ما يحتاج إليه من أمر دينه أو معاشه فليرحل، وجوبا فى الواجب وندبا فى المندوب، اقتداء بالسلف الصالح والخلف الناجح، فقد رحل موسى إلى الخضر، عليهما السلام، للاستفادة منه، ورحل جابر بن عبدالله الأنصارى، رضى الله عنه، مسيرة شهر إلى أنيس بن عبد الله فى طلب حديث واحد، ورحل عقبة بن الحارث من مكة إلى المدينة فى مسألة واحدة. قال القاضى الفاضل[1] فى بعض رسائله: «ما أعلم أن لملك من الملوك رحلة فى طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه «الأمين» «والمأمون» لسماع (الموطأ) على الإمام مالك، وكان أصل (الموطأ) بسماع الرشيد فى خزانة المصريين. قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب[2] بولديه «الأفضل» و«العزيز» إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثا». فالسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس، لأن السياح يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة، وقد يبلغ مبلغ الأكابر من الناس فيستحقر نفسه فى مقابلتهم، وقد يصل إلى المدارس الكبيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتتقوى معرفته.

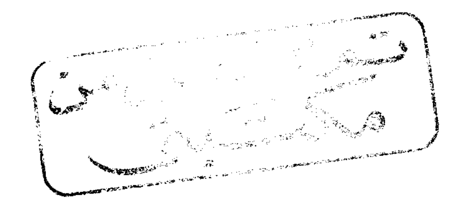
وبالجملة فالسياحة لها أمر قوى فى أمر الدين والدنيا، بهذا تستنير الممالك

---

(١) عبد الرحمن بن على (١١٣٥ ـ ١٢٠٠ م) من أشهر كتاب الرسائل وأصحاب صناعة الإنشاء فى الحضارة العربية، تولى هذا العمل بمصر فى ظل الدولة الفاطمية، وفى ظل الدولة الأيوبية بلغ مرتبة الوزارة.

(٢) (١١٣٧ ـ ١١٩٣ م) القائد والحاكم السياسى الشهير، مؤسس الدولة الأيوبية، وصاحب الفتوحات التحريرية الشهيرة ضد الصليبيين.

بالتناوب، فمصابيح العلوم أشبه بالكواكب ذوات الأذناب، تنتشر فى الأفق انتشارا مؤقتا، وهى سريعة الزوال، ولا تعود إلى محلها إلا بعد قرون وأجيال، فلا بأس إذا ضعف نور التمدن فى مملكة من أن تعود إلى رتبتها الأولى، لا سيما إذا سخر الله لها ملكا مجددا صاحب قريحة عظمى ويد طولى (وللآخرة خير لك من الأولى).



الباب الرابع

(فى ذكر الوطن وتمدينه، وبيان أن أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم واستكمال المعارف والتعميم. وفيه فصول)

الفصل الأول

فى الكلام على الوطن

الوطن هو عش الإنسان الذى فيه درج، ومنه خرج، ومجمع أسرته، ومقطع سرته، وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه، ورباه نسيمه، وحلت عنه التمائم فيه. قال أبو عمرو بن العلاء[1]: مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى مقدم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه. والكريم يحن إلى أحبابه كما يحن الأسد إلى غابه، ويشتاق اللبيب إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عطنه، فلا يؤثر الحر على بلده بلدا، ولا يصبر عنه أبدا. قال الشاعر:

بلاد بها نيطت على تمائمى ... وأول أرض مس جلدى ترابها

وقال آخر:

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أثواب الشباب تميد

وكان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة فى ذلك، حتى أوضحها على بن العباس الرومى [2] فى قصيدة لسليمان بن عبدالله بن طاهر يستعديه على

(١) زبان بن عمار (٦٨٩ - ٧٧٠ م) أستاذ الأصمعى، عد إماما للغة والنحو وقراءة القرآن فى عصره، وإليه تنسب إحدى القراءات السبع، كما كان راوية للغة والشعر عن الأعراب، ويقال إنه كان يضمر مذهب الخوارج ويعتنق آراءهم.

(٢) ابن الرومى (٨٣٦ - ٨٩٦) شاعر مشهور، تميز بالتفلسف والتشاؤم والتطير، وشعره جيد فى رقته وعذوبته ورقى صوره، ويقال إن ميوله العقائدية كانت مع ديانة الفرس قبل الإسلام.

رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل، أجبره على بيع داره واغتصبه على بعض جدرها، فقال:

ولى وطن آليت أن لا أبيعه	وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب ونعمة	بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفته النفس حتى كأنه	لها جسد إن بان غردر هالكا

ولا يبعد العاقل عن الوطن إلا طلب العلى إذا لم يمكن فيه، قال صاحب (لامية العجم[1]):

إن العلى حدثتنى وهى صادقة	فيما تحدث أن العز فى النقل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى	لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال من تحير فى الحل والارتحال:

وبقيت بين عزيمتين كلاهما	أمضى وأنفذ من شباة سنان
هم يشوقنى إلى طلب العلى	وهوى يشوقنى إلى الأوطان

وقد جرت العادة أن البعيد عن الوطن. الذى قضى فيه جزءا من شبابه، يتشوق إليه، سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر، فأهل البدو يتأسفون على فراق نجد، ويحنون إليها حنين المتأسفين على «غوطة دمشق»، وقصور مدينة السلام، وتحف الجزيرة، ومستشرف «الخورنق»، «وجوسق» و«سر من رأى»، من كل من بعد منهم عن بلده، وطال مقامهم بغيره، فإذا أبدينا بعض محاسن أم الدنيا والنعمة، التى هى كنانة الله فى أرضه، ظهر لنا أنها تعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه، وأنه أحق أن تحن إليه نفوس مفارقيه من ذويه.

(١) هو الشاعر: الطغرائى، الحسين بن على (١٠٦٠ - ١١٢١ م)، وإلى جانب الشعر كان عالما بالكيمياء، ولقد مات مقتولا بتهمة الإلحاد.

(تعلق المصريين بوطنهم)

ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف، إن لم نقل إنها أشرف الأمكنة، فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وآثار وحديث، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد منقوشة فى عرض الأرض بيد الحكمة الإلهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها، حتى تكاد أن تكون حصرتها فى أرجائها ونواحيها. بلدة معشوقة السكنى، رحبة المثوى. حصباؤها جوهر، وترابها مسك أذفر، يومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وثراها مرىء، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد ودرتها، ووجهها وغرتها. بلد كم خرج منه من كبار ملوك وسلاطين، وحكماء وأساطين، وكم نبعت منه عيون علوم، وانجلى به من البلاد سحائب غيوم، فمن ذا يضاهى مصر فى كمال الافتخار، أو يباريها فى الجمال والاعتبار، أمتها أول أمة فى المجد وعلو الهمة:

بهاليل فى الإسلام سادوا ولم يكن	**كأولهم فى الجاهلية أول**
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا	**أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا**

موصوفة عند الجميع بالشجاعة والحماسة والكياسة والرئاسة، فضلا عن الذكاء والفطنة ولطافة العوائد والأخلاق، مما سارت به الركبان بسيرتهم الحميدة فى سائر الآفاق، فلها الحق فى أن يحترمها جميع الأمم والملل، وملوك الدنيا والدول، فكم اقتبسوا منها فى الأزمان الخالية أنوار العلوم والمعارف التى طوقت أجياد الدنيا وصارت بها فى الدرجة العالية.

ولم تزل إلى الآن فخار كل زمان، كما لم تزل محاسنها زينة لكل مكان، حظها من التمدن عظيم، وورنق تاجها در نظيم، فهى الكنانة ذات المنعة والمكانة، التى قيل فيها:

وكنانة الله التى كم فوقت	**منها وإن بعد العدو سهام**
وقديمة، شاب الزمان، وحسنها	**باق، ولم تهرم لها أهرام**

وإذا سطا حر الهجير فماؤها … وهواؤها برد به وسلام
وغنية بالنيل عن نيل الحيا … وله أياد فى الوقود جسام
وعن المطى المثقلات وحملها … بالمنشئات كأنها أعلام
من كل باسطة الجناح كأنها … لما تسير بالرياح غمام
تسرى بمن فيها وهم فى غفلة … وكذا ليالى الدهر والأيام
وعزيز مصر على السرير تهابه … الدنيا ولم يبعد عليه مرام

يقال: إن من خصائص مصر كثرة الدنانير بها، وأن من دخل بها ولم يستغن فلا أغناه الله، ولا عبرة بما قاله بعضهم فى تفضيل بغداد عليها:

يقولون: مصر أخصب الأرض كلها … فقلت لهم: بغداد أخصب من مصر
وما مصر إلا بلدة مثل غيرها … تعاقبها الأيام بالعسر واليسر
ولكنكم تطرونها بهواكم … ولم تخل أرض من محب ومن مطرى
وإلا فأين الخصب عن معشر بها … يقاسون أنواع العذاب من الفقر
وما خير قوم تجدب الأرض عندهم … بما فيه خصب العالمين من القطر
إذا بشروا بالغيث ريعت قلوبهم … كما ريع فى الظلماء سرب القطا الكدرى

وقال بعضهم: من خصائص مصر أن المصرى لا يرى مستوطنا فى غيرها إلا فى الذل، وكانت تحية ملوكها وعظمائها: أيها العزيز، كما نطق به القرآن الشريف وبالجملة فالبلاد تمدح وتذم، فقد كان يقال: الدنيا«بصرة» ولا مثلك يا بغداد. وكان الحجاج يقول: «الكوفة» جارية جميلة لا مال لها، فهى تخطب لجمالها . ونحن نقول: مصر جارية عروس محلاة بالمال والجمال، فهى تخطب لمالها وجمالها. فهى الآن مجمع التالد والطارف، ومعدن المحاسن واللطائف، وبها منافع أرباب النهايات فى كل فن بادية، هى حاضرة إفريقة وما عداها بادية.

قال بعض من سكن سواها، وهو يهوى سكناها: فآها على الديار المصرية

وأوقاتها، وسقيا لمعاهد أنسها لنفسها، ولداتها لذاتها، ورعيا لتلك المنازل التى لا تخرج الأقمار عن هالاتها، وحفظا لتلك الوجوه التى للشمس أضواء على جبهاتها. وشكرا للنفوس التى المجد يغليها على شواتها.

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة　　أنت البديع الفرد من أبياتها

(شعر):

قضيت أطيب ليلتى منعما　　فيما يلذ به فؤاد العاشق

فى ليلة قمر السماء مغازلى　　وبليلة قمر الزمان معانقى

فكيف وهى على ممر الليالى والأيام منبع السعادة، ووارثة دار السلام، وزينة بلاد الإسلام، ملكها عزيز، وأهلها أهل كرامة وتعزيز، محبوبة من أبناء الأوطان، متمسكة بحديث: «حب الوطن من الإيمان». وهى إن شاء الله تعالى فى أمان واطمئنان من حوادث الزمان، حيث إن عزيزها:

أقام منار الحق حتى اهتدت به　　وأبصرها من لم يكن قط أبصرا

وعادت على الدنيا عوائد فضله　　فأقبل منها كل ما كان مدبرا



الفصل الثانى
(فى أبناء الوطن وما يجب عليهم)

قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائما متحدون فى اللسان، وفى الدخول تحت استرعاء ملك واحد، والانقياد إلى شريعة سياسة واحدة، فهذا مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى إنما أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم، وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم، ومحل مرباهم، فليكن أيضا محلا للسعادة المشتركة بينهم، فلا ينبغى أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة بآراء مختلفة، لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض وعدم أمنية الوطن، فلا يتمنى بعضهم سعادة نفسه وشقاوة غيره، لا سيما وأن الشريعة والسياسة سوت بينهم، وأوجبت عليهم أن يكونوا على قلب رجل واحد، وأن لا يعتقدوا لهم عدوا إلا من يوقع بينهم الفشل بخداعه، ليختل نظام ملكهم، وينحل انتظام سلكهم، فهذا هو العدو المبين، الذى لا يحب أن يكون أهل الوطن على وطنهم آمنين ولا بحريتهم متمتعين.

(حقوق المواطن)

ثم إن ابن الوطن المتأصل به، أو المنتجع إليه، الذى توطن به واتخذه وطنا، ينسب إليه، تارة إلى اسمه فيقال: مصرى مثلا، أو إلى الأهل فيقال: أهلى، أو إلى الوطن فيقال: وطنى، ومعنى ذاك أنه يتمتع بحقوق بلده، وأعظم هذه الحقوق الحرية التامة فى الجمعية التأنسية، ولا يتصف الوطنى بوصف الحرية إلا إذا كان منقادا لقانون الوطن ومعينا على

إجرائه، فانقـياده لأصول بلده يستلزم ضمنـا ضمان وطنه له التمتع بالحـقوق المدنية، والتمـزى بالمزايا البلدية، فبهـذا المعنى هو وطنى وبلدى، يعنى أنه معدود عـضوا من أعـضـاء المدينة، فـهو لهـا بمنزلة أحـد أعـضـاء البدن، وهـذه أعظم المزايا عند الأمم المتمـدنة. وقد كان أهالى غـالب الأمم محرومـين من تلك المزية، التى هى من أعظم المناقب، وكان ذلك فى الأزمان الـتى كانت فيها أوامـر ولاة الأمور جارية على هوى أنفـسهم، يفـعلون ما شـاؤه، وقد كانت الأهـالى إذ ذاك لا مدخل لهـا فى معـارضة حكامهم، ولا محاماة لهم عن أحكام الشـريعة، فكان لا يمكنهم أن يخبروا ملوكهم بما يرونه غـير موافق، أو يكتـبوا شـيئـا فيمـا يختص السـياسـات والتدابيـر،ولايبدوا آراءهم فى شيء، فكـانوا كـالأجـانب فى أمـور الحكومـة، وكـانـوا لا يتـقلدون من الوظائف والمناصب إلا بما هو دون استـحقاقهم، والآن تغـيرت الأفكار، وزالت عن أبناء الوطن هذه الأخطار، فالآن ساغ للوطنى الحقـيقى أن يملأ قلبه بحب وطنه لأنه صار عضوا من أعضائه.

(واجبات المواطن)

فالوطنى المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منـافع نفسه، ويخدمه ببذل جميع ما يملك، ويفديه بروحه، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر، فـينبغى أن تكون نيـة أبناء الوطن دائما مـتوجهـة فى حق وطنهم إلى الفضـيلة والشرف، ولا يرتكبون شـيئا مما يخل بـحقوق أوطانهم وإخـوانهم، فيكون ميـلهم إلى ما فـيه النفع والصـلاح، كمـا أن الوطن نفسـه يحمى عن ابنـه جميـع ما يضره، لما فيـه من هذه الصفات، فحب الأوطان وجلب المصالح العـامة للإخوان من الصفات الجميلة التى تتمكن من كل واحد منهم فى جـميع أوقاته مدة حياته، وتجعل كل إنسان منهم محبـوبا للآخرين، فما أسعد الإنسان الذى يميل بطبـعه لإبعاد الشر عن وطنه ولو بإضرار نفسه.

فصفة الوطنية لا تستدعى فـقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه أيضـا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه، فـإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التى يستحقها على وطنه.

وقد كان الرومانيون فى قديم الزمان يجبرون الوطنى الذى بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يمينا أنه يحامى عن وطنه وحكومته، فيأخذون عليه عهدا بذلك، وصيغة اليمين: «أشهد الله على أنى أحمل سلاح الشرف لأمانع به عن وطنى وأهله كلما لاحت فرصة أتمكن فيها من مساعدته، وأشهد الله على أنى لحماية الوطن والدين أحارب منفردا أو مع الجيش، وأشهد الله على أنى لا أكدر صفو وطنى ولا أخونه ولا أغدر به، وأنى أركب البحار أيا مالزم ذلك فى جميع الغزوات التى تأمر بها الحكومة، وعلى أنى أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة فى بلادى، الموجودة فى الحال وما يتجدد منها، وأشهد الله أن لا أتحمل أحدا يجسر أن يخل بها وينقص انتظامها». انتهى.

فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها، ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة، وفسد حالها، وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدد حكامها، فبعد أن كانت محكومة بقيصرة واحدة انقسمت فى المشرق والمغرب بين قيصرين، قيصر رومة، وقيصر القسطنطينية، وكانت الشوكة لباع طويل فصار أمرها إلى باعين قصيرين، فآل أمرها فى جميع الحروب إلى الانهزام، ورجعت بعد كمال الوجود إلى الانعدام و هكذا شأن الملة المختلة الحكومة، والدولة الغير المنظومة.



الفصل الثالث
فى الملة والدولة فى العرف، وما يتعلق بذلك

الملة فى عرف السياسة، كالجنس: جماعة الناس الساكنة فى بلدة واحدة، تتكلم بلسان واحد، أخلاقها واحدة، وعوائدها متحدة، ومنقادة غالبا لأحكام واحدة، ودولة واحدة.

وتسمى بالأهالى، والرعية، والجنس، وأبناء الوطن. وينبغى أن تكون الأمة المستحقة لأن تتصف بهذه الصفات وتتلقب بهذه الأسماء ذات شهامة وشجاعة وذكاء وميل إلى حب المجد والفخار وشرف العرض، تحب حريتها، وتتولع بقوة رئيس دولتها، وتنقاد لقوانين مملكتها وسياستها.

ولا جائز أن تستغنى الأمة عن رئيس يحسن سياستها وتدبير مصالحها، فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية، ولا تحفظ نفسها ولا مالها ولا عرضها، فالرئيس، المعنون له بأى عنوان كان من ألقاب رياسة الدولة، هو المحافظ على إجراء الأحكام والقوانين، وعلى حفظ الشريعة والدين، فيلزم لنظام الدولة نوعان من التربية، لتكون مهذبة مرتبة، **إحداهما**: تربية أبناء الملوك، أو رؤساء الدولة، **والثانية**: تربية أبناء الوطن، فأما تربية أبناء الملوك فإنها تحتاج إلى كثرة الاحتفال بتعليمهم جميع ما يتعلمه أبناء الوطن من العلوم الأولية، لا سيما علم اللسان. قال أبو عثمان[1]: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله، فقلت له: يا أمير المؤمنين، فى اللسان عشر خصال: أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به

(١) أبو عثمان بن بحر، الجاحظ، وتقدم التعريف به.

الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومغرد تدرأ به الأحزان، وخاصة تزهى بالصنيعة، وملهى يونق الأسماع. وقال الحسن البصرى[1]: إن الله تعالى يرفع درجة اللسان، فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره.

رأيت العـــز فى أدب وعلم ... وفى الجـــهل المذلة والهـــوان

كـــفى بالمرء نقـــصـــا أن تراه ... لـه وجـــه وليس له لســـان

وقال آخر:

فـإن كنت ذا عـزم ورأى وهمة ... فـلا تحتقر علما ولا ترض بالدون

فـإن رداء الجـهل أقبح ملبس ... وفيه عزيز القوم قد خص بالهون

وقال خالد بن صوان: ما الإنسان، لولا اللسان، إلا ضالة مهملة، أو بهيمة مرسلة، أو صورة ممثلة. وقال بعضهم فيما يعارض ذلك وضمن فى البيت الحديث الشريف:

الصـــمت أزين مـــا يكون وإنما ... يأتى البـلاء من الكثيـر المنطق

لا تلفظن بما يعـــيـــبك نطقـــه ... فتـقـول: ويلى، ليتنى لم أنطق

وإذا أردت ســلامـــة من منطق ... فاحبس لسانك فى اللهاة وأطرق

واحـذر لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البـــلاء مـــوكل بالمنطق

وذكر الصمت عند «الأحنف» فقال رجل: الصمت أفضل وأحمد، فقال الأحنف: صاحب الصمت لا يتعداه نفعه، صاحب المنطق ينتفع به غيره، والمنطق الصواب أفضل. يعنى من الصمت، كما أن الصمت أفضل من المنطق الغير الصواب.

---

(١) الحسن بن أبى الحسن البصرى (٦٤٢-٧٢٨ م) إمام عصره فى العلم بأمور الدين والتاريخ وعلم الكلام، يتفق مع المعتزلة فى القول بالعدل والتوحيد، ويختلف معهم فى الموقف من مرتكبى الذنوب الكبائر-(حكام بنى أمية) حيث-رآهم منافقين، ووضعهم المعتزلة فى منزلة وسطى بين الكفر والإيمان.

وبالجملة فخير الأمور أوساطها، والجمع بين الطرفتين ممكن لكامل العقل، فعلى العاقل الحازم أن لا يكون مهذارا مكثارا، كما أنه لا يكون صمته من طبع البهائم مستعارا، وحسبك من اللسان فضلا أنه لا يكون آلة لشكر الخلق والخالق، وواسطة فى حفظ الروابط والعلائق، فقد قال بعض السلف: لصانع المعروف إجلال القلوب، وثناء الألسن، وحسن الأحدوثة، وذكر العاقبة، وفخر الأعقاب. وقال بعضهم:

أحسن من كل حسن فى كل وقت وزمن
صنيعة مشكورة خالية من المنن

وروى عن النبى، عليه الصلاة والسلام، أنه قال: «رحم الله أمرأ أصلح من لسانه». وسمع عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم، فأبلغ فى حاجته، فقال: هذا والله السحر الحلال. وقال مسلمة بن عبد الملك: إن الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها. وقال بعض الحكماء لأولاده: يا بنى، أصلحوا من ألسنتكم فإن الرجل لتنوبه النائبة فيستعير الدابة والثياب ولا يقدر أن يستعير اللسان. وكان شبيب بن شبيبة إذا رأى رجلا يتكلم، فأساء القول، قال: يا ابن أخى، الأدب الصالح خير من المال المضاعف. وقال الشاعر:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى الكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده لم يبق إلاّ صورة اللحم والدم

وقال أبو عثمان للمعتصم: حض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب، فإنك إن أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوا، فدعا المعتصم مؤدب ولده فأمر أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم. انتهى.

إذا المرء لم يرو العلوم فيعتلى فإبصاره بالعين مثل حجابه
وما ذو الحجا فى درسه العلم ذو حجا ولكنه إن زاد زاد حجابه

وكذلك يجب على المربى لأبناء الملوك والسلاطين أن يهتم بتعليمهم بما يلزم فى تمكينهم من العلوم الإدارية وأصول السياسة والرئاسة، ليحسنوا التدبير على وجه الذكاء والكياسة، فما أسعد الملة التى تمكن رئيسها فى زمن شبابه من المعارف والحكمة، وتلقن الإدارة الملكية من أرباب الفضائل المجربين المتصفين بالأخلاق الحميدة والآراء السديدة، والحائزين لأصول وفروع العلوم السياسية، ولا يليق أن تفوض تربية أبناء الملوك لأرباب الدناءة ولا لأرباب البدع والأوهام ولا لأصحاب الأطماع، لأن العدوى تسرى فتفسد الطباع، ولا ينبغى أن يقتصر فى تعليم أبناء الملوك على خصوص الأحكام بتفويض أمر تربيتهم إلى من لا يعرف آداب الملوك ولا علم تهذيب الأخلاق والسلوك، بل ينبغى أن يفوض أمرهم لأساتيذ متفننين ليكون الوطن فى اعتقاد فضلهم على يقين، وقد ذكر العلماء، رحمهم الله تعالى، أن الولى ينبغى له تأمل حال الصبى، وما هو مستعد له من الأعمال متهيئ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، ولا يحمله على غير ما كان مأذونا له فيه شرعا، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو متهيئ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعيا، فهذا من علامات قبوله للعلم وتهيئه له، فلينقشه فى لوح قلبه ما دام خاليا، فإنه يتمكن منه ويستقر، ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها، من الركوب والرمى واللعب بالرمح، لاحظ له فى العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعدا لها مقبلا عليها، وهى صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج إليه فى دينه، فإن ذلك واجب على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما أن له عليهم النعمة السابغة.

قال صاحب (أقوم المسالك فى معرفة الممالك) أمير الأمراء، وفخر الكبراء، السيد خير الدين باشا التونسى،[1] فى كتابه عند ذكر المواد المسهلة للمعارف فى

(١) خير الدين بن باشا التونسى (١٨١٠ - ١٨٧٩ م) سياسى تونسى، نشأ نشأة الرقيق فى قصر الباى أحمد، حاكم تونس، فلقد كان من أسرة أباظة الشركسية، ولكنه خطف وهو طفل، وبيع رقيقا =

أوروبا مـا نصـه : «من عـادتهم أن من يبلغ من أبناء العـائلة سـن التربيـة ، ينتـخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد منه ، من كل ما يهذب أخلاقه ، ويوسع فى المعارف نطاقه ، فإذا بلغ من التعلم أشده يوجه إلى الممالك الأجنبية لمشاهدة أحوالها ، ومطالعة سياستها وأحكامها ، ومالها من التقدم فى العمران ، وغيره ، ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت ، ليعتبر أسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة ، فيتجنب ما تأخرت به بلاده ، إن رأى غيرها خيرا منها ، ويعتنى بما تقدمت به ، إن رآها دونها ، فإذا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة ،[٢] وفائدة ذلك التدرب على الأمور السياسية ومثافنتها ـ (أى ممارستها وملازمتها) ـ حتى يستكمل الملكة فيها ، مع ما حصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة المتأكد معرفتها على من يترشح للرئاسة ، التى هى أعظم الخطط البشرية وأصعبها ، فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الأحوال المختلفة ما لا يجب على غيره ، لا سيما معرفة أهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة ، لينتخبهم للخطط المعتبرة ، مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين ، فإن المطلوب من الملوك ليس هو مجرد الفصل فى النوازل الشخصية ، كما هو مشاهد فى بعض الممالك الإسلامية ، ولا مباشرة جزئيات الإدارة التى يمكن إجراؤها بغيرهم من المتوظفين ، وإنما المطلوب منهم النظر فى كليات الأمور ، من معرفة الرجال اللائقين بالخطط ، وامتحانهم وتعقبهم بالمراقبة ، لإرشاد جاهلهم

= فى سوق رقيق الآستانة إلى تحسين بك الذى باعه لأحد وكلاء باى تونس ، ولقد وصل الرجل بعقله ونضاله إلى أن أصبح من أكثر ساسة عصره استنارة وتقدما وإيمانا بضرورة أن يسلك الشرق طريق العلم والنهضة ، وأن تسلك شعوبه طريق التقدم عن طريق المؤسسات الشورية وهدم نظم الحكم الفردى والاستبداد . انظر ترجمته فى (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) لأحمد أمين . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ ص ١٤٦ ـ ١٨٣ .

(٢) (قوله : «ولا يكون له كلام فيه إلا إذا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة» . الظاهر أن هذه المدة كانت محددة لأبناء أعضاء المجلس العالى بفرانسا ، حين كان منصب الأعضاء متوارثا ، وأما أبناء العائلة الملوكية الذين هم أعضاء بالنسب لذلك المجلس فكان رأيهم مقبولا متى بلغوا من العمر ثمان عشرة سنة ، لإيناس الرشد منهم فى هذا السن ، لأنه يلاحظ فيهم أنهم يكتسبون عادة معلومات ليست فى غيرهم من صغر سنهم ، فإذا بلغوا الثمانية عشرة سنة ؛ كانت لهم هذه المزية فى المجلس الأعلى دون أبناء أربابه) ـ (الطهطاوى) .

وزجر متجاهلهم، وتفقد أحوال الرعايا، والإعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة إلى تهذيب الأخلاق ونمو الأرزاق، والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية، وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، لحفظ الدين والوطن، وإصلاح أحوال الخلطة السياسية والمتجرية مع الدول الأجنبية، بما ينمو به عز المملكة وثروتها، إلى غير ذلك من الكليات، فإن سعادة الممالك وشقاوتها فى أمورها الدنيوية إنما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك، وبقدر مالها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل، ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها.

نقل عن المؤرخ بوليبيوس[1] اليونانى، الذى تكلم على سياسة الأمة الرومانية وما وقع بينها وبين أهل قرطاجنة من الحروب، أنه قال، فى معرض الاستدلال على أن المباشر للأمر يلزمه أن يكون عارفا بأصوله ما معناه: إذا كان المريض لا يرتجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له، فكذلك المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها إذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها، وقوانين شرائعها، وعاداتها، ولا يخفى أن حصول خير المملكة إذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه إذا انضم لذلك عدم وجود تلك الأصول بالكلية أحرى وأولى، لأن السبب فى الحالة الأولى دائر بين الجهل والتجاهل، وكلاهما أمر عارض تمكن إزالته بتبديل المباشرين وإرشاد جاهلهم وإلزام متجاهلهم بالجريان على الأصول المحفوظة، أما إذا لم يوجد من تلك الأصول شىء يرجع إليه، وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه، فإن هاته الحالة يتسع فيها مجال الأغراض والشهوات من الآمر والمأمور، وربما يؤول أمر الدولة إلى الاضمحلال والدثور، ولله عاقبة الأمور». انتهى.

---

(١) بوليبيوس (٢٠٣ـ١٢٠ ق.م) مؤرخ إغريقى، كتب كتابه (تاريخ عالم البحر المتوسط من ٢٢٠/ ٢١٩ حتى ١٤٥/ ١٤٤ ق.م) فى أربعين مجلدا، بقى منها خمسة كاملة وبعض أوراق من بقية الأجزاء، وتاريخه هذا ـ مع بعض التحفظات ـ معدود من أعظم المؤلفات التاريخية التى تؤرخ لهذا العالم فى تلك العصور.

وأما تربية الأهالى فهى تربية بما يليق بجميعهم على العموم، وبالنسبة للياقة كل منهم على الخصوص، وقد سبق طرف من ذلك فى الأبواب السابقة فى كيفية انقسام العلوم لجميع أبناء الوطن من ذكور وإناث، وسيأتى لذلك بعض بقايا متفرقة.

ومما ينسب للقاضى عياض، من رسالة له: «لابد لكل حين من بنين يحلون عاطله، ويجلون فضائله، ولكل رجال يقومون بأعبائه، ويهيمون فى كل واد بأنبائه، ولئن كانت جمرة الأدب خامدة وجذوته هامدة فلن يخليه الله من هلال يشرق بسمائه بدرا، ولا زال ينبع فيقذف بفضائله بحرا، وشبل يشد فيزأر من غابه ليثا، وطل يبدو من ربابه غيثا». انتهى.

ويقاس على الأدب بقية العلوم التى منها السياسة، فلكل زمان من ذلك دولة ورجال، قال الشاعر:

إنما الإنسان صفو وقذا ربما كانت من الشأن شؤون

لا تكن محتقرا شأن امرئ ربما كانت من الشأن شؤون

(وقال آخر):

إذا ليلة هرمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتى

وكما قيض الله، سبحانه وتعالى، لكل عصر من ينظم محاسن أبنائه فى سطور الطروس، وينوه بشرف فضلائه، الجالب لأحاديثهم مسرة النفوس، وإبقاء فضيلة نوع الإنسان تذكيرا بمنح القادر الديان، وفاء بحق من تقدم على من تأخر، وأن ينشر من محاسنه ما يؤثر ـ ويسطر، قيض الله لهذا العصر «العزيز» المنفرد فى وقتنا هذا بالحزم والعزم بالقدح المعلى خديو مصر إسماعيل، [1] الذى هو لمملكة مصر نعم المولى، حيث أعاد إليها معالمها الشريفة، وأوجد فيها من المتجددات كل تليدة

(١) الخديو إسماعيل (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥ م) الابن الأكبر لإبراهيم باشا، فهو حفيد محمد على باشا الكبير، تولى خديوية مصر فى سنة ١٨٦٣ م حتى عزله عنها النفوذ «الإنجليزى ـ الفرنسى» فى يولية سنة ١٨٧٩ م.



وطريفة، واقتحم فى ذلك الأخطار لنيل هذه الأوطار، إذ لولا ذلك لجهل قدر المتقدمين، وضاع ما تعب فيه سعيهم فلم يلحق المتأخرين، فجزاه الله عن هذا السعى المشكور خير جزاء يرفل به فى حلل السرور، حتى جعل مصر دائما تنشده:

كسوتنى حلة تبقى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى نداء السهل والجبلا

قيل: علوم الملوك النسب والخبر والشعر، وعلوم السلاطين المغازى والسير، ولهذا قيل:

شرف الملوك بعلمهم وبرأيهم وكذلك أوج الشمس فى الجوزاء

وعلم التجار الحساب، وعلم الكتاب الخط واللغات، ومدار العلوم على أربعة: النحو لتقويم اللسان، والطب لتقويم الأبدان، والحكايات لتقويم المروءات وحسن التدبير لتقويم المعاشات، وهذا كله بعد تقويم الأديان، وتمكن أهل الدين الحق من معرفة ما جاءت به الأحاديث الشريفة ونطق به القرآن.

والوسيلة فى استجماع هذه الأربعة فن الخط، فقد قيل: للخط فضل وشرف ومنفعة لا تجهل، بل تعرف، به تقيد العلوم وتثبت، وتزرع فى الصدور فتنبت، ألم تسمع ربك الأكرم حيث يقول فى الكتاب المحكم: ﴿**الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ٤). وقال عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتابة». وخرج ابن شاهين عن أبى هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله، إنى لا أحفظ شيئا، فقال: «استعن بيمينك على حفظك». يعنى الكتابة، ولما عدمت العرب الكتابة فى الجاهلية، وكانت أمة أمية، جعل لها الشعر العوض، فأدركت به الغرض، أقامته مقامها، فدونت به كلامها، وعرفت به أيامها، كما يروى: الشعر ديوان العرب. وفضل الكتابة شهير، والكلام فيها وفى مدحها كثير، ومن أمدح ما قيل فى كاتب:

إن هز أقلامه يوما ليعلمها أنساك كل كمى هز عامله

وإن أمر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

والبيت الأخير من الشعر النفيس، وفيه ضرب من التجنس، ويكفى صاحب الخط مدحا ما قال عمر بن الخطاب: من خط وخاط وفرس فذاكم الغلام.

وعلى ذكر القرآن الشريف فقد قال العلماء: ينبغى لقارئ القرآن أن يراعى عشرة أشياء: **الأول**: أن يفهم أصل القرآن، بأن يعلم أن الله تفضل على العباد بإنزاله، **الثانى**: أن يعظم القرآن ولا يمسه إلا بطهارة، قال تعالى: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٧٩). وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن ثم رأى أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله تعالى». **الثالث**: أن يحضر قلبه، ويترك حديث نفسه، **الرابع**: أن يتفهم كل آية، وفيم أنزلت، **الخامس**: أن يتدبره ويستنبط معانيه، **السادس**: أن يتبين الأوضح من اختلاف معانيه، **السابع**: أن يقدر بأن المخصوص بأحكامه نفسه لا غيره، **الثامن**: أن تكون أفعاله على وفقه، **التاسع**: أن يقدر بأنه يسمع من إله، **العاشر**: أن يعلم أن توفيقه لقراءته والعمل به من الله تعالى. روى عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله يريد العذاب بأهل الأرض، فإذا سمع تعليم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم». قال«مروان»: يعنى بالحكمة القرآن. وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من تلاوة القرآن فى بيوتكم فإن البيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره ويكثر شره ويضيق على أهله.». (أى يضيق رزقه عليه لأن البركة تابعة لكتاب الله حيثما كان كانت). وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط».

والملوك أحق الناس بتدبر معانى القرآن، الذى هو حجة الله على عباده، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم.

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ ﴾ (محمد : ٧) . ـ أى دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ ـ أى على عدوكم ، فإنه الناصر لا غيره من عدد أو عدد ـ ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ـ أى فى القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار ـ .

قال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فاقرؤا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين ـ (أى الأصول) ـ وقال عثمان بن عفان ، رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا ماشبعت من كلام الله . وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهوغاية مطلوبه .

قال بعض المحققين : إن كلام الله رسالة من الله لعباده ، ومخاطبة لهم ، وهو البحر المشتمل على جواهر العلم ، المتضمن لظاهره وباطنه ، ولهذا قاموا بآداب سماعه ، ورعوه حق رعايته ، وقد تجلى لخلقه فى كلامه لو كانوا يعقلون ، وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم مما يتعين حسن الاستماع إليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى انتهى .

وقال الشيخ عبد العزيز الديرينى : إن الله عز وجل أنزل مائة وأربعة كتب ، فأودع علومها فى أربعة كتب : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وأودع علم التوراة والإنجيل والزبور فى القرآن ، وأودع علم القرآن فى المفصل ، وهو من الحجرات إلى آخر القرآن ، وأودع ذلك فى الفاتحة ، ففيها علم كل كتاب أنزله الله عز وجل ، ومن قرأها فكأنما قرأ جميع الكتب المنزلة . وبيان ذلك أن جميع أسماء الله تعالى فى ضمن «بسم الله» ، هذا هو الاسم الجامع ، وفيه معنى الجلال ، وفى «الرحمن الرحيم» معنى الجمال ، وكل ما ورد من الثناء الحسن على الله تعالى فى ضمن قوله (الحمد لله) فإن الحمد جامع لكل ثناء حسن ، وكل ما ورد فى ذكر المخلوقات فى ضمن قوله (رب العالمين) ، فإن العالم لفظة تدل على كل موجود سوى الله عز وجل ، وكل ما ورد من الإنعام والإحسان إلى سائر الخلق فى ضمن قوله (الرحمن الرحيم) ، وكل ما ورد فى ذكر القيامة ، والثواب والحساب والعقاب فى ضمن قوله (مالك يوم الدين) ، وكل ما ورد فى الأحكام من الأمر والنهى وجميع الفقه فى ضمن قوله (إياك نعبد) ، وكل ما ورد فى التوحيد ورؤية الأفعال

من الله عز وجل فى ضمن قوله (وإياك نستعين)، وكل ما ورد فى سلوك الطريق إلى الله تعالى وذكر المقامات من التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والزهد والورع فى ضمن قوله (اهدنا الصراط المستقيم)، وكل ما ورد فى ذكر الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء والصالحين فى ضمن قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) وقد بين الله عز وجل ذلك فى قوله ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ (النساء٦٩) . وكل ما ورد فى القرآن مفصلا ورد فى الفاتحة مجملا، ولذلك سميت أم القرآن، وأم الكتاب . وفاتحة الكتاب، وتسمى الكافية، لأنها تكفى فى الصلاة، وسماها الله تعالى صلاة بقوله : «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين»، وهى ركن من أركان الدين، وهذه السورة من أجل النعماء وأكرم الحسنى . انتهى . وأول دار فتحت فى المدينة المشرفة للعلوم سميت «دار القراء»، فقد قال الواقدى[٢] : إن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة فنزل دار القراء . انتهى .

قال بعضهم : فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه وتشوقه فى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفى سماع الألحان دون سماع القرآن فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وإنه مغرور يعتقد أنه على شىء .

فالقرآن الشريف أساس الدين الذى هو أساس المملكة، فلا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود . وامتثال أمر الشارع والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بما يرضى الله سرا وعلانية، فإنه لا دوام للملك ولا بقاء للسلطنة بدون هذه الأشياء، فمعرفتها على الملوك أوجب من غيرهم، وتعليم هذه الأشياء على الوجه الأكمل لا يكون غالبا إلا من خصائص الرجال، فلهذا تعين أن تكون السلطنة فيهم دون النساء، اللاتى فى الغالب لا يستطعن أن يتعلمن هذه المعارف الحكمية المهمة

---

(١) محمد بن عمر (٧٤٧ ـ ٨٢٢ م) مؤرخ ومحدث وفقيه، تولى القضاء بشرق بغداد، ومن أهم آثاره (التاريخ الكبير والتاريخ والمغازى والبعث) .

فى المملكة والسلطنة والخلافة، حيث إن الخلافة التى هى الإمامة العظمى، خلافة النبى صلى الله عليه وسلم، كانت من خصائص الرجال، وكذا نياباتها فى الخطط الجسيمة، وليس عدم استخلاف النساء لعدم وجود من يصلح لذلك، فقد قال عروة بن الزبير لذكوان لو كانت إمرة لامرأة بعد النبوة لا ستحقت عائشة الخلافة، كما سيأتى توضيح ذلك فى الفصل الآتى، وكذلك لما لم تكن النبوة إلا فى الذكور دون النساء لم تكن السلطنة فيهم إلا نادرا، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أنه لم يكن فيهن فى قديم الأحقاب حكيمة اشتهرت بحكمتها، ولا من تفلسفت بإفراط معرفتها، وإنما من تولى منهن السلطنة فإنما كان أكثر ذلك عن وراثة، والحكمة ليست كذلك.

الفصل الرابع
(فى قصر رتبة السلطنة والأعمال السلطانية على الرجال دون النساء)

قد قضت الشريعة المحمدية، وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة على الرجال دون النساء، وآن النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية، ولا يلبسن التاج الملوكى، بل تكون المملكة متوارثة فى سلسلة الذكور، إلا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك، وأما القضاء فليس لهن فيه حظ ولا نصيب. قال الشاعر:

لنا حاكم حكمه ما مضى ... وأحكام زوجته ماضيه
فيا ليته لم يكن قاضيا ... ويا ليتها كانت القاضيه

يشير بذلك إلى أن النساء لهن النفوذ على أزواجهن. وسبب هذا أن النساء فى الغالب وصفهن النقص عن الرجال فى مهمات الأمور الحسية والمعنوية، فلا يستطعن، لما فيهن من الضعف، أن يتحملن أعباء المملكة الثقيلة، كما قال الشاعر:

كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

يقال إنه فى حرب «الحرة»[1] أتى عتاب بن ورقاء بامرأة من الخوارج فقال لها ما الذى حملك على الخروج علينا، أما سمعت قول الله تعالى:

كتب القتل.والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

---

(١) مكان شرقى المدينة، دارت فيه معركة بين الجيش الأموى بقيادة مسلم بن عقبة وبين الثائر على الحكم الأموى فى ٢٦ من أغسطس سنة ٦٨٣ م. ويقال إن هذا الجيش ـ وكان به عدد كبير من نصارى الشام ـ قد استباح المدينة ثلاثة أيام وانتهك حرمتها بعد هزيمة أهلها.

فقالت: جهلك بكتاب الله هو الذى أخرجنا عليك! وقبل هذا البيت بيتان هما:

إن من أكبر الكبائر عندى ... قتل بيضاء خودة[1] عطبول[2]

قتلت هذه على غير جرم ... إن لله درها من قتيل

وهذه الأبيات لعمر بن أبى ربيعة[3] رثى بها عمرة زوجة المختار الثقفى[4] لما قتلها مصعب بن الزبير عقب قتل المختار، حيث سألها عنه، فقالت: كان رجلا صالحا. ولا شك أن حلية النساء الحناء، أى الزينة، وحلية الرجال الدم، أى الشجاعة، كما قلت:

ما صفات الفتى كمثل فتاة ... لا ولا فى حلاهما بالسواء

فخضاب الحنا لكف الغوانى ... ولكف الرجال خضب الدماء

وقال آخر:

خلقنا رجالا للتجلد والأسى ... وتلك الغوانى للبكى والمآتم

فعلى مقتضى هذا كن يملن بالطبع للأفراح والأتراح، ولنفوسهن إلى كلا النوعين ارتياح، يحكى أن معاوية قال لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، يعنى بلقيس. فقال: أجهل من قومى قومك، الذين قالوا حين دعاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه. وهذا من الأجوبة المسكتة.

---

(١): المرأة الشابة.

(٢): المرأة الجميلة الفتية الطويلة العنق.

(٣): شاعر الغزل الشهير، وهو قرشى، مكى، توفى سنة ٧١٩ م.

(٤): زعيم الشيعة «الكيسانية» التى قالت بإمامة محمد بن الحنفية، وهى من أولى الفرق الشيعية التى تكونت بعد مقتل الحسين، ولقد ثار المختار بالعراق ضد بنى أمية وحارب «ابن زياد» سنة ٦٦ هـ ثم حارب مصعب بن الزبير الذى ولى العراق من قبل أخيه الثائر بمكة ضد الأمويين. انظر كتابنا (فجر اليقظة القومية) ص ٧٧، ٧٨.

ولعل وجه عدم توليه النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة كونهن عورة لا يقدرن على مخالطة الرجال فى الوفاء بفروض المناصب العمومية، ولهذا لما كانت «الخيزران» أم الهادى والرشيد حاكمة فى خلافة ابنها الهادى مستبدة بالأمور الكبار، وكانت المواكب تغدو إلى بابها، زجرهم الهادى عن ذلك، وكلمها بكلام صعب، وقال: إن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو سبحة؟ فقامت من عنده وهى لا تعقل شيئا من الغضب، وقيل إن ذلك كان سبب موته.

(تولى النساء للملك)

قال بعض أهل السياسة: إن التعليل بالضعف عن القيام بأعباء الملك أمر أغلبى، فقد عهد فى النساء بعض ملكات أحسن السياسة والرئاسة على ممالكهن، واكتسبن قصب السبق فى ميادين الفخار، وذكر أسماء من تملك من النساء وقام بأعباء المملكة، فمنهن «بلقيس» ملكة سبأ باليمن، «وسمرة» ملكة نينوى وبابل، «والزبا» المشهورة بالملكة القاهرة فى العرب، والملكة«أمنسه»، والملكة «طماهوموت»، والملكة« طوسير»، «وقلوبطرة» ملكة مصر، «وزنوبية» ملكة تدمر بالشام، التى اتسع ملكها بالشام وغيره، «وشجرة الدر» أم خليل قرينة الملك الصالح ملكة مصر، «وبلنشة» ملكة فرانسا، التى تملكت بعد زوجها لويز الثامن بالنيابة عن ابنها سنت لويز، والملكة«إيليزابيثة»، والملكة «ستورت» ملكتا الإنجليز، والملكة «كترينة» الثانية ملكة الموسقو، والملكة «مارية تريزه» ملكة المجار، والملكة «خرستيانه» ملكة اسوج، فكلهن أحرزن حسن التدبير والإدارة، وأقمن البراهين على لياقة النساء لمنصب السلطنة.

(بلقيس فى اليمن)

فأما بلقيس، فهى بنت هدهاد، من ولد يعرب بن قحطان، كان أبوها ملك اليمن كلها، ومات ولم يخلف من الولد غيرها، فجلست بعده على سرير ملك

اليمن، وأطاعها الملوك، وكانت كاتبة قارئة، عربية، عادلة فى أحكامها، تجلس من كل أسبوع يوما للحكومة، وتتحجب عن الناس، ترخى ستورا رقيقة بحيث تراهم ولا يرونها، وجميع الناس وقوف فى حضرتها، مطرقين رؤوسهم من هيبتها، وإذا كان لأحد عندها حاجة يسجد لها أولا ثم يعرض حاجته. ولما فرغ سليمان بن داود، عليهما السلام، من بناء بيت المقدس سار إلى الحج بمكة ومعه جنود فأقام بها ما شاء الله أن يقيم، ثم خرج من مكة بعد أن قضى نسكه وسار نحو اليمن، فرأى أرضا حسنة، فأخبر بأمر بلقيس وعرشها ومالها من القوة والبأس، فأرسل إليها كتابا، كما قال تعالى عنها: ﴿**إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾. فجمعت الملأ من قومها واستشارتهم، ففوضوا إليها الأمر بعد أن رأوها أنها ذات قوة وبطش شديد، كما حكى عنها هذا القول المولى فى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾. فلما لمحت من كلامهم أنهم يميلون إلى حرب سليمان، استحسنت أن ترسل إليه هدية، وتدفعه عن ملكها، وقالت لقومها، كما حكاه الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ فكتبت إلى سليمان كتابا وأرسلته مع رجال من أشراف قومها، فرد سليمان، عليه السلام، الهدية، وقال للرسول: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا**﴾ فلما رجع رسول بلقيس إليها وأخبرها بما رآه بعثت إلى سليمان، عليه السلام، تقول: إنى قادمة عليك حتى أنظرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أقبلت عليه، فدعاها إلى الإسلام، فأجابت بقولها: ﴿**إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (النمل: ٣٠: ٤٤). وحسن إسلامها، وتزوجها، وأحبها حبا شديدا، ثم ردها إلى ملكها، على الصحيح. وقيل إنه ولد لسليمان منها ولد سماه داود، ومات فى حياته، وكانت مدة ملكها على اليمن عشرين سنة، وتولى ملكها من بعدها عمها ناشر النعم ابن شرحبيل. وبملك بلقيس تضرب الأمثال.

(سمرة فى نينوى)

وأما سمرة،[1] ملكة نينوى وبابل، فإنها كانت قبل أن تتزوج ملك آثور[2] تحت أمير من أمراء جيوشه يسمى ممنو، وكانت على غاية من الشجاعة العسكرية، مسترجلة كأكابر الرجال، وكان الملك نينوس دائما يطمع فى توسيع نطاق سلطنته، فسار إلى ممالك آسيا واستولى عليها، ولم يعجز إلا عن أخذ مملكة «بلخ» ببلاد التتار لشجاعة جنودها، فرجع منها مهزوما، وفتح أيضا من إفريقة مصر وبرقة والسودان، ثم أراد أن يفتخر بالعمارات الملكية فبنى مدينة نينوى وجعلها من عجائب الدنيا، ثم عاد لفتح مملكة «بلخ» وحاصر مدينتها بلا طائل، وكاد أن يرجع بالخيبة والعار لانهزامه وفتور همة جيشه، وكانت فى المعسكر «سمرة» فحرضت العساكر على الإقدام، وانعشت حماسهم، وهمت بهم على المدينة حتى فتحتها عنوة، فشكر له نينوس هذا الصنيع، واتفق موت زوجها فى هذه الحرب، فتزوجت نينوس، وعاد بها إلى مملكته، فولدت له نيناس، ولما مرض مرض الموت سلمها زمام المملكة، وجعلها وصية على ابنها نيناس، فبموت زوجها استولت على بلاد نينوى وبابل.

فلما صعدت على سرير الملك، قبل الميلاد بألف وتسعمائة وست عشرة سنة، قصدت أن تفوق فى المجد زوجها نينوس بانى نينوى مدينة يونس، عليه السلام، فبنت مدينة بابل، وجعلت محيطها أربعة وعشرين فرسخا، وعرض السور اثنى عشر ذراعا كبيرة، وارتفاعه أربعين ذراعا، وشيدت مائتين وخمسين برجا حول أسوار المدينة متباعدة عن بعضها، وجعلت لهذه المدينة مائة باب من الحديد الصب، وجعلت بيوتها متباعدا بعضها عن بعض بمسافة، ولكل بيت بستان، وجعلت نهر الفرات يخترق المدينة بين أرصفة عريضة متينة، وجعلت فوق هذا النهر قنطرة طولها ستمائة وأربعة وعشرون قدما لتوصل بين جزئى المدينة، وجعلت على طرف من طرفى القنطرة قصرا شاهقا متواصلا بالآخر بقبوة تحت أرض النهر، وصورت

---

(١) ويسميها المسعودى - فى (مروج الذهب) - سميرم. انظر الجزء الأول. ص ١٦١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

(٢) أشور.

فى إحدى القصرين صورة منحوتة فيها تمثال هذه الملكة راكبة على فرس وفى يدها رمح كأنها ترمى به على ذئب، وتمثال زوجها نينوس كأنه يطعن أسدا، وبنت أيضا هيكلا يسمى هيكل بعل فيه ثلاثة تماثيل من الذهب الإبريز، طول اثنين منها أربعون قدما وطول الثالث ثلاثون، وفى هذا الهيكل برج ارتفاعه ستمائة قدم بقصد رصد النجوم، وحفرت أيضا بركة محيطها إحدى وعشرون فرسخا وعمقها ثلاثون قدما بقرب بابل، وعملت مسلة عمودية ارتفاعها مائة وخمسة وعشرون قدما ونحتتها من جبال أرمنية وأحضرتها إلى قرب بابل، وعملت بساتين معلقة تسمى حديقة سمرة، وجعلت فوق رأس القصرين قلعة لبابل.

وكما امتازت بالمبانى والعمائر افتخرت بالفتوحات العظيمة، فإنها عملت سياحة فى جميع ممالكها، وصنعت فى مدنها آثارا، ثم سارت إلى مصر، وكان فتحها زوجها نينوس، فمرت بأقاليم مصر، وأضافت إلى أملاكها بجهة مصر جزءا عظيما من بلاد إفريقة، وذهبت إلى واحات سيوة لتطلب جواب الكهانة من هيكل المشترى المسمى «جوبتير آمون»، فأفهمها الكاهن أنه يأتى إليها من أم آسيا شرف مخلد إذا تحزب عليها ابنها نيناس، ثم إنها حاربت بلاد السودان، ونظمتها، ورجعت لترتاح فى بلاد التركمان، وشرعت فى أن تتغلب على الهند، وجهزت لذلك جنودا لا تحصى ولا تعد، وبعد أن انتصرت بعض نصرات اضطرت إلى أن ترجع إلى نهر السند ثانيا حيث غلبها ملك الهند وجرحها فى ميدان الحرب، فاصطلحت معه على افتداء الأسرى، ورجعت إلى بلاد التركمان، وقد بقى لها من عساكرها نحو الثلث، ثم إن ابنها نيناس أراد قتلها وسلب ملكها، فتذكرت كهانة هيكل المشترى، فصفحت عن ابنها وسلمته سلطنة بلاد أبيه، واختفت عن أعين الناس ولم يظهر لها أثر.

(الزباء فى الجزيرة)

وأما الزباء، فهى مشهورة بالملكة القاهرة فى العرب، وهى بنت عمرو بن الظرب بن حسان العمليقى، ملك الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام، وهى لم تتزوج أصلا، بل استمرت بكرا، واسمها «نائلة»، وكان أبوها من قبلها ملكا على تلك الممالك، وكان فى زمنه جذيمة الأبرش بن عامر التنوخى، وقيل الأردى، ملك الحيرة، وأول من ساس العرب، وأول من اتخذت له الشموع وأوقدت بين يديه، وأول من عمل له المنجنيق من ملوك العرب، وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق، فغزا جذيمة عمرا أبا الزباء فقتله سنة ثلاثين من ميلاد عيسى، عليه السلام، فطردها، فلحقت بالروم، وجمعت الجيوش واستخلصت من جذيمة ملك أبيها، وبنت مدينتين متقابلتين على شاطئ الفرات من الجانب الشرقى والغربى، وهما اليوم خراب، وقد قنطرت الفرات وجعلته طريقا بين مدينتيها، فحدثت جذيمة نفسه ليتزوجها، وكانت أجمل أهل عصرها، فطمع فيها وفى ملكها، فأرسل لها يخطبها، فأظهرت له غاية الفرح، فشرع فى السير إليها، فلما دخل عليها قتلته وأخذت بثأر أبيها، وكان له ابن أخت يسمى عمرو بن عدى، ملك البلاد بعد خاله جذيمة، فأخذ فى الحيلة على قتل الزباء فاتفق عمرو مع قصير صاحب جذيمة، وجدع قصير أنفه، وهرب قصير على تلك الحالة، على أنه مغاضب لعمرو، فلما رأته على تلك الحالة أنعمت عليه وقربته وصار من أخصائها، وكان قصير يتجر للزباء، ويأخذ المال من مولاه ويعطيه إلى الزباء على أنه كسب متجرها، مرة بعد أخرى، حتى أتى بثقل ألف جمل من الصناديق وفى داخلها رجال مستعدون للحرب، فلما شاهدت الزباء ثقل تلك الأحمال ارتابت منها وقالت:

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندلا يحملن أم حديدا

أم صرفانا[1] باردا شديدا ... أم الرجال جثما قعودا؟!

(١) اختلف فى معنى «الصرفان» فقيل: الموت، وقيل: النحاس، وقيل: الرصاص القلعى، وقيل نوع من التمر صلب المضاغ علك. ورجح البعض هذا المعنى الأخير. انظر القصة فى (نهاية الأرب) للنويرى جـ ١٥ ص ١٧٣ وما بعدها، وانظر كذلك مادة «صرف» فى (لسان العرب) لابن منظور.

فلما دخلت الإبل إلى حصن الزباء خرجت الرجال من الصناديق، وأخذوا المدينة عنوة، فخرجت الزباء هاربة من قصرها إلى سرب كانت اتخذته تحت الفرات إلى حصن أختها فى الجانب الآخر، وكان «قصير» على طريق السرب، فأبصرت قصيرا ومعه عمرو، وبيده السيف، فلما تمكن منها وعرفت أنه قاتلها لا محالة مصّت خاتما فى يدها كان مسموما، وقالت: «بيدى لا بيد عمرو»! فسارت مثلا، كما ضرب المثل أيضا «بجدع قصير أنفه» فى قول العرب: «لأمر ما جدع قصير أنفه»! وقد ذكرها ابن دريد فى مقصورته بقوله:

وقد سما عمرو إلى إرشاده	فاحتط منها كل عالى المسمى
فاستنزل الزباء قسرا وهى من	عقاب لوح الجو أعلى منتمى

(زرقاء اليمامة)

وهى غير «زرقاء اليمامة»، ووهم بعضهم أنها هى، فإن زرقاء اليمامة كانت تسكن فى حى جديس، باليمامة، فى ممالك اليمن، ويقال إنها كانت حادة البصر تبصر من مسيرة ثلاثة أيام، ويحكى أنها كانت لها قطاة ثم مر بها سرب من القطا بين جبلين فقالت:

ليت الحمام ليه	إلى حمامتيه
ونصفه فديه	ثم الحمام ميه

فنظر فإذا القط قد وقع فى شبكة صياد فعده فإذا هو ست وستون قطاة، ونصفها ثلاث وثلاثون، فإذا ضم ذلك إلى قطائها كانت مائة، فصار يضرب بها المثل فى حدة البصر والحكم فى الشىء بالدقة. قال النابغة يخاطب النعمان بن المنذر:

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت	إلى حمام شراع وارد الثمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا	إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما ذكرت	ستا وستين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها	وأسرعت حسبةفى ذلك العدد

ويحكى أنه كان على «طسم» ملك فعل فعلة شديدة تخل بالعرض والناموس، أغضبت جديس، فاتفقت جديس على أنه إذا جاء الملك وصحبته طسم فى وليمتهم يقتلون طسم عن آخرهم، فجاءت إلى حى جديس، وقعدوا يأكلون، وكانت جديس قد خبؤا أسلحتهم فى الرمل، فوثبت جديس على طسم فأبادوهم جميعا إلا شخصا يدعى رباح بن مرة فإنه فر إلى حسان بن أسعد ملك اليمن يستنجده، وأخبره بما فعلت جديس بطسم، فوعده النصرة، ونادى مناديه فى حمْير بالمسير إلى اليمامة، فلما كانوا منها على ثلاثة أيام قال رباح: أيها الملك، إن لى أختا متزوجة فى جديس تبصر الراكب من ثلاث ليال، وأنا أخاف أن تنذر جديسا بك، فمر كل واحد أن يقتلع شجرة ويضعها أمامه، فأمرهم ففعلوا، فنظرت زرقاءاليمامة من مكان مشرف، وقالت: يا جديس، لقد سارت إليكم الشجر! فقالوا لها: كيف؟ فقالت: إنى أرى شجرا من ورائه بشر! فكذبوها، وغفلوا عن أهبة الحرب، فأنشدت تقول:

إن تأخذوا حذركم يا قوم ينفعكم ... وليس ما قد أرى بالأمر يحتقر
إنى أرى شجرا من خلفها بشر ... فكيف تجتمع الأشجار والبشر
صفوا الطوائف منكم قبل داهية ... من الأمور التى تخشى وتنتظر
ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم ... فإن ذلك منكم، فاعلموا، ظفر
وغوروا كل ماء دون منزلهم ... فليس من دونهم ورد ولا صدر
أو عجلوا القوم عند الليل إذ رقدوا ... ولا تخافوا لهم حربا وإن كثروا

فصبّحهم حسان ملك اليمن بعسكره، بعد ثلاثة، فقتلهم قتلا ذريعا عن آخرهم، وأمر بزرقاء اليمامة فنزع عينيها فإذا فى داخلهما عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: إنى كنت أكتحل بالإثمد فثبت لى بصرى، فاستعمل الإثمد من وقته، وصلب زرقاء اليمامة بعد قتلها على باب «جو»، وهى بلدة باليمامة، وقد أولع الشعراء فى ذكرها فقال النمر بن تولب، وسماها عنزا:

وفتاتهم عنز عداة تبينت ... من بعد مرأى فى الفضاء ومسمع

ورأت مقدمة الخميس وحولها ركض الجياد إلى الصباح بتبع

وفيها يقول بعضهم، وسماها عفراء:

لقد نظرت عفرا إلى الجذع نظرة إلى مثل موج المفعم المتلاطم

إلى حمير إذ وجهوا من بلادهم تضيق بهم لأيا فروج المخارم

ـ واللأى: البطء ـ وفي هذه الواقعة يقول الملك حسان، بعد فراغه منهم:

أخلق الدهر «لجو» طللا مثل ما أخلق سيف خللا

كان طسم وجديس إخوة صالحا أمرهما فاقتتلا

فبغى ذاك على هذا فلم أرض من أمرهما ما فعلا

فمن هذا يعلم أن بلد الزباء «الموصل»، وبلد زرقاء اليمامة باليمن، فهما متباينان، وبلد الزباء هو حصن «الحضر» بشاطئ الفرات، صار مملكة ساطرون الذى غزاه كسرى سابور ذو الأكتاف، والظاهر أن بلاد ساطرون التى استولى عليها سابور هى التى صارت فيما بعد من جملة ممالك زنوبية ملكة تدمر، التى غلبت فارس واستولت على بلادها فى هذه الجهات، سيأتى ذكر تملكها لهذه البلاد قريبا، وإنها أغارت على مملكة مصر واستولت على الإسكندرية مرتين.

ويحكى أن كسرى حاصر ساطرون فى هذا الحصن سنتين ولم يقدر على أخذه، فأشرقت بنت ساطرون يوما فنظرت إلى سابور، وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ، وكان جميلا، فأسرت إليه: أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحصن؟ قال: نعم. فلما أمسى ساطرون، وشرب حتى سكر، وكان لا يبيت إلا سكرانا، أخذت مفاتيح باب الحصن من تحت رأسه فبعثتها مع مولى لها إلى سابور، ففتح الباب، فدخل سابور وقتل ساطرون وأشياخ الحصن وخربه، فسار بها معه فتزوجها، فبينما هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تتململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس، فقال لها سابور: هذا الذى أسهرك؟ قالت نعم، قال: فما كان أبوك يصنع لك؟ قالت: كان

يفرش لى الديباج، ويلبسنى الحرير، ويطعمنى المخ. قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنت إلى بذلك أسرع! ثم أمر بها فأربطت قرون رأسها بذنب فرس، ثم ركض الفرس حتى قتلها.

(فى مصر: آمنسة.. وطماهوموت)

وقد حكم مصر من النساء عدة ملكات فمنهن الملكة «آمنسة»، ويقال لها «هاتاز»، وكان ملكها قبل الهجرة بألفين وثلاثمائة وتسع وسبعين سنة، وكانت مدتها مشتملة على الفخار حيث شيدت المبانى بمصر، وغزت بلاد العرب. ومنهن الملكة «طماهوموت»، بنت الملك هوروس، وأخت رمسيس الأول، كان ملكها قبل الهجرة بنحو ألفى ومائتى سنة وخمسين، ومنهن الملكة «طوسير»، والظاهر أنها التى يقال لها «دلوكة» العجوز، [1]حكمت قبل الهجرة بنحو ألفى سنة.

(كلوبترة)

ومنهن الملكة قلوبطرة»، [2] آخر ملوك البطالسة، وهى أشهر ملكات مصر فى كتب التواريخ، فهى بنت بطليموس الحادى عشر الملقب أوليطيس، ومعناه الزامر، وكان قد أوصى بطليموس الحادى عشر بممالك مصر لأكبر أولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهما، وأن يشتركا معا فى سلطنة مصر شيوعا، وأن يكون الوصى عليهما الأمة الرومانية، فلما مات تولى على مصر ابنه بطليموس الثانى عشر، الملقب دنيس، أى الخمار، عملا بوصية أبيه، ولم يكن عمره إلا ثلاث عشرة سنة، فكانت أهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها دون أخيها، لعدم رشده، فاشتغلت بتدبير المملكة، وأمدت الرومانيين بالإعانات البرية والبحرية، ثم لما استرشد أخوها تواطأ مع أعدائها، وحصلت فتنة عظيمة فخافت على نفسها وفرت إلى الشام، فشرع أخوها أن يقتفى أثرها ليحاربها، وجهز عساكره بقرب «فرما»

---

(١) ذكر المؤرخ المسعودى قصتها فى كتابه (مروج الذهب) جـ ١ ص ٢٦٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

(٢) وهى التى حكمت من سنة ٥١ حتى سنة ٣١ ق.م.

يريد السفر إلى الشام، فاتفق حضور قيصر أمام إسكندرية يريد خصمه بومبيوس، الذى جاء إلى مصر مستصرخا من قيصر، فلما حضر قيصرعلى ساحل الإسكندرية أرسل إليه بطليموس برأس بومبيوس على يد وزيره طيودوس، ووضعها بين يديه، فعامل هذا الرأس بمكارم الأخلاق فى الاحتفال لدفنه، ثم بعد مدة غزا قيصر بطليموس الثانى عشر، وانتصر عليه، وأغرقه هو وجنده فى النيل، وتعلق قلب قيصر بقلوبطرة، لأنها كانت بديعة الجمال، وكان قد أحضرها معه من الشام إلى مصر وأعادها ملكة على مصر وسماها كل الحماية، وبعد موت أخيها بطليموس الثانى عشر، الذى هو زوجها، تزوجت ببطليموس الثالث عشر، وكان قاصرا، ليشترك معها فى المملكة، ومن هذا الوقت قبضت على زمام مملكة مصر وصار لها، دون غيرها، فى المملكة الحل العقد، وكان زوجها الذى هو أخوهاملكا صورة فقط، وقد مات بعد ثلاث سنوات من توليته، ثم قتل يولس قيصر محبوب قلوبطرة، وكان حاميها، فخافت على نفسها، فأشركت بعد موت أخيها أصغر أولادها، وزعمت أنها ولدته من قيصر، ولقبته بطليموس قيصرون، يعنى القيصر الصغير، ويسميه بعض المؤرخين بطليموس الرابع عشر، وكان أنطنيوس، أحد الشركاءفى القيصرة الرومانية، قد أحب قلوبطرة بعد موت قيصر، وحماها حماية كاملة وشد أزره بها واعتمد على أن تعينه على أخصامه، وانعقد بينهما عقد الزوجية، ثم صار قيصرا على البلاد الرومانية بالشركة مع أغسطوس، وبلغ الأمنية، فالتمست قلوبطرة منه أن يضيف إلى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد وجزيرة قبرص وجزء من أناطول[1] وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم فى تلك الأزمان، وأن يعطى لها بلاد العرب والحجاز الموصلة إلى الهند، لتكون هذه البلاد مضافة لدولة مصر، ليتم للإسكندرية صفة المركزية العمومية، فأجاب إلى التماسها، وجرد روما من بلادها الظريفة المتحلية بها، وصارت قلوبطرة من ذلك الوقت بزواج هذا القيصر كأنها ملكة الدنيا، وعظم مظهرها.

---

(١) أى الأناضول، وهو الجزء الأسيوى من تركيا، ويؤلف ٩٧ ٪ من مساحة هذه الدولة، ويسمى أحيانا باسم «آسيا الصغرى».

ثم حصل حرب أنطنيوس مع أغسطوس فخرجت قلوبطرة بنفسها للغزو مع أنطنيوس، وكان محل الحرب فى سواحل روم إيلى، وأمدت قلوبطرة أنطنيوس وحزبه بمائتى سفينة بحرية، فانتصر أنطنيوس على شريكه، ثم انتصر شريكه عليه، ثم سارت ستون سفينة من سفن قلوبطرة بقوة المجاذيف من بين سفن أنطنيوس وهربت صوب جزيرة «مورة» وفيها الملكة قلوبطرة هاربة من القتال، فاقتفى أثرها أنطنيوس لعدم القدرة على فراقها، فاقتفى أثرهما خصمهما أغسطوس قيصر، فسلمت إليه قلوبطرة مدينة فرما، التى هى مفتاح الديار المصرية، وقصدهابذلك الغدر بأنطنيوس، الذى يعتمد على أمانتها، والتحبب إلى أغسطوس، وكان أنطنيوس دخل الإسكندرية، وقد جردت قلوبطرة أنطنيوس من الجنود الذى كان يمكنه أن ينجو بها من خصمه، و كل ذلك لم يستشعر أنطنيوس بالخيانة والغدر منها، ثم أحست بسوء فعلتها، وحاك إثم الفعلة فى صدرها، وخافت من انتقام أنطنيوس إذا علم الحقيقة، فاختفت مع أموالها فى مدفن حصين كانت شيدته لتدفن فيه، وأشاعت أنها تريد قتل نفسها، وتواتر الخبر حتى بلغ أنطنيوس، فعزم أيضا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها، فطعن نفسه بخنجره، ولم يمت فى الحال، وقد علم قبل خروج ورحه أن قلوبطرة لم تزل على قيد الحياة، فطلب من أتباعه أن ينقلوه إليها ليجتمع بها قبل موته، فمات عندها. وكان قد بلغ أغسطوس أن قلوبطرة تريد أن تقتل نفسها، فأرسل إليها من يمنعها من ذلك، فدخل عليها الجند فمنعوها من ذلك، ثم لما علمت أن أغسطوس لا يحبها، بل يريد أن يوقعها فى أسره، ويذهب بها إلى رومة فى السلاسل والأغلال، قتلت نفسها شر قتلة حتى لا تكون عند أعدائها مثلة، وبقتلها نفسها انتهى حكم البطالسة بمصر، وصارت مصر إيالة رومانية، وكان موتها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة، ففى تاريخها قرب شبه مما فعلته الزبا، إلا أن الزبا سلكت مسلك الأبطال، ولم تطمع فيها أحدا من الرجال، فشتان بين العصمة العربية والعوائد اليونانية.

(زنوبية فى الشام)

وأما سبب تقليد زنوبية ملكة الشام ومشارف العراق لملكتها الواسعة، واتساع ملكها وإمتداد سطوتها، أنه كان فى أيام الملك غليانوس قيصر الرومانيين قبل الهجرة بثلاثمائة وإحدى وستين سنة حصل للسلطنة الرومانيين ضعضعة بقيام حكام الأقاليم على رومة، وكان إذ ذاك فى الملكة الشامية على مدينة تدمر ملك يسمى أودنياطوس، كان محالفا للرومانيين وهو الذى هزم سابور ذا الأكتاف ملك الفرس المغيرين على إقليم الرومانيين وطردهم إلى أن أوصلهم إلى تخت بلادهم، حتى قيل إنه لم يبق للرومانيين من حلفائهم مصادق إلا ملك تدمر، فقد كان حافظا لبلاد الرومانيين من هجوم العجم، وقد كافأه غليانوس قيصر الرومانيين على صداقته له بتلقيبه «أغسطس»، أى قيصر، فعظم شأنه بهذا العنوان، وانتقل هذا العنوان من هذا الملك بالوراثة إلى زوجته زنوبية وأولاده بعد موت أودنياطوس، وظهرت زنوبية بعد زوجها بمظهر عجيب فى البلاد المشرقية فى أيام أورليانوس قيصر الرومانيين، وقويت شوكتها بالمشرق، واستفحل أمرها، وانتظم ملكها، وصارت تدمر كرسى سلطنتها عامرة آهلة زاهرة بهية حتى كأنها جنة من جنات الدنيا، واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصور والشام إلى نهر الفرات والعراق، برا وبحرا، وأعانت التجارات ووسعت دائرة الأخذ والعطاء، فابتهجت مدينتها حتى صارت كأنها بلقيس زمانها بمدينة تدمر أيام سليمان عليه السلام، وقد فاقت زوجها فى الشجاعة والحماس والشوكة والبأس، وظهرت بعنوان القيصرة، وتمكنت فى مملكتها، حيث إنها كانت تدعى أنها عريقة المجد، وأن نسبتها تنتهى إلى سلاطين مصر وملوكهم، وأنها تستحق أن تنتظم فى عقد ملوكهم، فكانت فى جنس النساء نادرة الزمان، تخطب العساكر بأبلغ خطبة، وتحرضهم على الحرب، وتضمن لهم النصرة بالطعن والضرب، وتلبس فى رأسها خوذة الحرب كالأبطال، حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال، وكانت تترقب دائما أن تحكم الممالك الرومانية، وتؤمل أن تصير على ممالك الدنيا قيصرة عمومية، وكانت إذ ذاك الديار المصرية تحاول الخروج من قبضة الرومانيين، وتزاول الاستقلال بنفسها كما فى زمن الفراعنة الأولين، فشرعت زنوبية أن تستولى على مصر ببذل ما عندها من

الأموال، بدون حرب ولا سجال، فلم تنفعها هذه الوسيلة، فاستعملت القوة الجبرية، وغلبت الجنود المصرية واستولت على سرير الإسكندرية، ولكن بعد قليل طردت منها وزحزحت عنها، ثم عادت إليها لما أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة، وكان ذلك فى زمن القيصر أوريانوس، وكان التغلب على مصر فى عهده دون حرب البسوس، فخرج هذا القيصر من رومة الكبرى وحضر إلى الشام، فانتصر على زنوبية نصرة عظيمة بقرب حمص، ففرت هاربة دون حصون تدمر عقيب الانهزام، فضيق القيصر عليها الحصار، ومنع عنها الميرة والذخيرة، فحاولت الخروج والفرار، وتسليم هذه الدار، فقبض الجند على هذه الملكة فى أثناء الطريق، ووقعت فى قبضة فرسان الروم، وخانها الرفيق والصديق، فلما تمثلت بين يدى القيصر قالت له : قد ساعدتك علينا الأقدار بالنصر، فها أنا معترفة لك بالولاء والسيادة علينا. فوقعت أسيرة فى قبضة هذا القيصر، فأذلها وأدخلها رومة من ضمن الموكب المعقود فى اليوم المشهود، لتكون غنيمة، وعلامة على النصرة العظيمة، وعوضها عن مملكتها قصرا متنزها فى رومة، وقد بقيت ذريتها بهذه المدينة محرومة إلى قرب فتوح الشام بالإسلام، فانتقلت ذراريها من البلاد الرومانية، وكان زوال ملكها من البلاد الشامية وغير الشامية بثلاثمائة وخمسين سنة قبل الهجرة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وربما توهم أنها الزبا، وليس كذلك، فإن تلك الملكة التى هى ملكةالجزيرة متقدمة عليها.

(شجرة الدر)

وأما شجرة الدر،[1] زوجة الملك الصالح وأم ولده خليل، المتوفى فى حياته، وبه كانت تلقب، فإنه لما توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب[2] قامت أم ولده شجرة الدر بالأمر، وجمعت الأمراء، وكتمت إشاعة موته، وأرسلت إلى الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح بحصن كيفا تستدعيه الحضور إلى مصر، وبلغ الإفرنج موته فشرعوا فى قتال المسلمين، فقاتلهم المسلمون، وكان أميرهم فخر

(١) توفيت سنة ١٢٥٧ م.

(٢) السلطان الأيوبى الذى حكم من سنة ١٢٤٠ حتى سنة ١٢٤٩ م.

الدين، فانهزم المسلمون وقتل الأتابك فخر الدين، ثم أتاح الله النصر بقرب المنصورة ودمياط للمسلمين، وانهزم الإفرنج ووصل المعظم تورانشاه إلى مصر وكانت شجرة الدر عقدت مجلسا وولته السلطنة، وتم هزم الإفرنج وأسر ملكهم[١].

وبعد هزيمة الإفرنج أنف جند الصالح من استعلاء بطانة المعظم تور انشاه عليهم، وتحكمهم فيهم، فقتلوه، ثم اجتمع الأمراء المتولون قبل تورانشاه ونصبوا أم خليل شجرة الدر ملكة على ممالك الصالح يوم الخميس ثامن عشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة،[٢] وألبسوها خلعة السلطنة، وباس لها الأمراء الأرض من وراء حجاب، فلما تم أمرها فى السلطنة أنعمت بالوظائف السنية على الأمراء، وأقطعت المماليك البحرية الأقاطيع العظيمة، وأغدقت على الجند بالأموال والخيول حتى أرضت الكبير والصغير منهم ما يمكن، وساست الرعية أحسن سياسة، وأرسل الخليفة العباسى[٣] يعاتب أهل مصر فى توليتها، وقال: «إن كان ما بقى عنكم رجل تولونه نرسل إليكم رجلا»! وما أحسن ما قيل:

ولو أن النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

وقد يتصف الجنس بأوصاف الجنس الآخر، كما قال الشاعر:

هززتكم لو أن فيكم مهزة ... وذكرت ذا التأنيث فاستنوق الجمل

وخطب لها على المنابر بعد الخليفة، فكان يقال: «اللهم احفظ الجهة الصالحية، ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين، أم خليل.» وضربت السكة باسمها، ووضعت علامتها على المراسم، وكان نص علامتها: «أم خليل.» وكانت مشهورة بالخاتون أيضا، وإليها تنسب نوبة خاتون التى كانت تدور بالقلعة بعد العشاء بالطبل، وناب على العساكر بعنوان «أتابك» عز الدين الجاشنكير أيبك[٣]،

(١) انظر تفصيلات أحداث هذه المعارك فى كتابنا (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٨٣ - ١١٥ طبعة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٧٢م.

(٢) هجرية، وتوافق سنة ١٢٥٠م.

(٣) وهو الذى حكم، كأول سلطان فى دولة المماليك البحرية، من سنة ١٢٥٠ حتى سنة ١٢٥٧م.

التركماني، وخلعت برضاها، وكانت آخر دولة الأيوبية، وبعد خلعها تزوجها أيبك التركماني الذي تولى سلطنة مصر بعدها.

(بلنشة في فرنسا)

وأما «بلنشة» ملكة فرانسا، زوجها لويز الثامن، التي ولدت له «سنت لويز»، فإنها تولت المملكة بالوصاية عن ابنها من سنة ألف ومائتين وستة وعشرين إلى ألف ومائتين وستة وثلاثين ميلادية، مدة قصوره، فلما صار رشيدا تولى المملكة بنفسه، ثم تولت نيابة المملكة مدة غيابه لحرب المقدس وحرب مصر أيام حرب أهل الصليب مع الإسلام ببلاد المشرق، وقد انتصرت هذه الملكة على حزب الفرنساوية الذي شن إغارة العداوة لها وللحكومة ومدة حكومتها كانت على غاية من التبصر والعقل، وماتت وعمرها خمس وستون سنة، وكما كانت مشهورة بالعقل والتدبير كانت مشهورة أيضا بالملاحة والجمال حتى تغزل فيها بعض أمراء بلادها.

(إليزابيث في إنجلترا)

وأما «إيليزابيثة»[1] ملكة الإنجليز، بنت هنري الثامن ملك الإنجليز، فقد كان أبوها في أول الأمر أخرجها من ولاية العهد من بعده لعدم أهليتها، ثم نقض الوصية في مرض موته وعهد إليها بعد أختها مارية، فتقلدت منصب مملكة الإنجليز سنة الف وخمسمائة وثمانية وخمسين ميلادية، وكانت أختها مارية منعت الإنجليز من التمسك بالمذهب البروتستاني، فأعادت إيليزابيثة هذا المذهب، وجعلت نفسها خليفة هذا الدين، وشوقت فن الزراعة ورغبت فيه كل الترغيب، وأعانت على تقديم التجارة، والملاحة، وحسن إدارة الخزينة الملكية وتكثير مالها، وكانت عدوة للمذهب «القاثوليقي»، وما فعلته مع «مارية ستورد» ملكة أقوسيا كان مما يلام به عليها، وذلك لأنها غضبت على ملكة أقوسيا حيث إنها تعنونت بعنوان ملكة الإنجليز اغتصابا بالمملكة، وليس هذا السبب الأصلي في الغضب، وإنما لكون

(١) ينطق الطهطاوي ويترجم اسمها «إيليزابيثة»، بالتاء المثناة لا بالثاء المثلثة.

«مارية ستورد» قاثوليقية المذهب، وأجمل منها، ومع ذلك فالحق على مارية حيث إنها أوقعت الفتنة والخلل فى بلاد الإنجليز، فسجنتها ملكة الإنجليز، وتهمتها بأنها تعصبت على قتلها، ثم ضربت عنقها، فأراد أن ينتقم لمارية فيليب الثانى ملك إسبانيا، فأرسل عمارة سفن عظيمة إلى بلاد الإنجليز، فهلكت هذه العمارة بالرياح العاصفة وبسفن الإنجليز، ثم ضبطت[1]هذه الملكة أمة «أرلندة» التى قومتها أهل إسبانيا. وأعانت مملكة الفلمنك عدة مرات ونصرتها على الإسبانيول، وأعانت ملك فرانسا أيضا فى حربه مع أهل بلده، وقد رغب فى خطبة هذه الملكة عدة من ملوك أوربا، وحثتها مشورة الإنجليز على أن تختار ملكا منهم للزواج ولكن لم ترض أبدا أن تتزوج، ولازالت على هذه الحالة حتى توفيت، وعهدت بمملكة الإنجليز بعدها إلى جاكس ملك أقوسيا ابن مارية ستورد، وكانت حكومة إيليزابيثة تكاد أن تكون مطلقة التصرف، لأنها كانت لا تستشير مجالس المملكة إلا نادرا، ومع أنها كان فيها خصال حميدة من خصال الملوك والسلاطين، فكانت لا تخلو من ضعف النساء، فإنها كانت تتزين وتتبرج وتعجب بنفسها، وتغار من حسان النساء، وكانت لا تخلو أيضا من التحيلات.

(مارية فى أقوسيا)

وأما مارية ستورد ملكة أقوسيا، بنت جاكس الخامس، فكان لها أخ من السفاح يسمى موراى، فتحزب الأوقسيون معه على الملكة أخته، وقبضوا عليها. وأرادوا أن تخلع المملكة على أخيها، وأن تخرج من دين القاثوليقية، فهربت من أقوسيا إلى إنكلتيرة ظنا منها أن تحتمى عند إيليزابيثة بنت عمها، ولكن لما كان بينهما منافسة وخصومة قبضت عليها الملكة ووضعتها فى السجن ثمانى عشرة سنة، ثم اتهمتها بأنها مفتنة،[2] وأنها تحزبت مع أعدائها بقتلها، وحكمت عليها بالقتل، كما سبق آنفا، والحال أنها بريئة.

---

(١) أى أخمدت ثورة مملكة أيرلندة، التى «عومتها» أى أثارتها إسبانيا!.

(٢) من الفتنة، بمعنى الثورة، أى ثائرة متمردة. انظر مادة «فتنة» فى (لسان العرب) وانظر كذلك مقدمة كتابنا (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.

ومارية هذه معدودة بأنها أجمل نساء وقتها، وينضم إلى ذلك أنها كانت صاحبة قريحة جيدة، مزينة المعارف والآداب، ولم يزل موجودا إلى الآن من شعرها الرقيق المنسجم قصائد غراميات ووداديات، وهى أيضا مشهورة عند العيسوية بأنها ماتت فى حماية دينها القاثوليقى، فلم يزل العيسوية يتذكرونها ويمدحونها على ذلك، ومع ذلك فأغلب الناس يرون أنها ماتت قتيلة حميتها وتشديدها فى الدين القاثوليقى، وإنها أكثرت من خصام أعدائها.

(كاترينة فى الروسيا)

وأما كاترينة الثانية، قيصرة الموسقو، زوجة بطرس الثالث، فإنها حببت نفسها لجميع أهل الروسيا، ثم خلعت زوجها سنة ألف وسبعمائة واثنين وستين، وبعد موت زوجها لبست تاج القيصرية فى مدينة مسقو بموكب عظيم، ثم أخذت من الدولة العلية بلاد القرم وقلعة آزوق وإسماعيل غيرهما، ثم عقدت مع البروسية وأستريا معاهدة لمقاسمة بلاد اللاهستان المسماة بولونيا، ثم وسعت دائرة سلطنتها، وأحيت فى بلادها الزراعة والصناعة، وقدمت الآداب والفنون والصنائع، وشوقت أهلها، وكانت دائما تراسل الحكيم وولتير الفرنساوى،[1] فكانت ملكة عظيمة. ولا يلام عليها فى شىء مما يخص المملكة، وإنما ذمها بعض الناس ببعض شذوذ فى أخلاقها الخاصة بها، وخلفها ابنها بولص على الإمبراطورية سنة ألف وسبعمائة وستة وتسعين ميلادية بعد وفاتها بالفالج.

(مارية تريزة فى النمسا)

وأما مارية تريزة، بنت كارلوس الرابع ملك النيمسا، فلم يكن لأبيها أولاد من الذكور، فعهد إليها بالإمبراطوية، فلما مات فى سنة ألف وسبعمائة وأربعين ميلادية ظهر للسلطنة متطلبون، وحارب جميع الملوك المتطلبين هذه الأميرة، وأخذ

(١) فولتير، فرنسوا (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) فيلسوف ومفكر وكاتب ساخر، مهدت كتاباته فى فرنسا لثورتها البورجوازية سنة ١٧٨٩ م.

منها فريديريق الثانى وغيره من الملوك بعض أقاليم، واستعان ملك باويره بفرانسا، وتعنون بعنوان إمبراطور أستريا، وسمى نفسه كارلوس السابع، فلا زالت مارية تريزة تقاوم جميع أعدائها وتحاربهم فى مدينة ويانة إلى أن اضطرت أن تترك هذه المدينة، فالتجأت إلى مملكة المجار، [1] فدخلت فيها، وجمعت أعيان المملكة، وقدمت لهم ولدها الذى كان فى المهد، وجذبت الأهالى جميعا إلى حزبها حتى صاروا جميعا معها على قلب رجل واحد وملكوها عليهم، وبذلت جهدها فى طرد الإمبراطور، وولت الإمبراطورية لزوجها فرنسيس الأول، واشتغلت بعد صلح العموم بجبر خلل السلطنة، فشوقت الصنائع والتجارة، وأسست مدارس عمومية، وبقيت مملكتها فى الهدوء والسلم إلى أن وقع بينها وبين البروسية الحرب المسمى حرب السبع سنوات، فاتحدت فرانسا معها على البروسيا، وحصل الصلح بينهما، وعقدت مارية مع إمبراطورة الروسيا مشارطة مقاسمة بلاد اللاهستان، وماتت سنة ألف وسبعمائة وثمانين ميلادية، وخلفها ولدها المسمى يوسف الثانى على ممالكها، وتقلد الإمبراطورية.

(خرستيانة فى أسوج)

وأما خرستيانة ملكة أسوج فإنها خلفت أباها الملك «غوسطا وأدولف» الذى مات قتيلا فى حرب الموسقو سنة ألف وستمائة واثنين وثلاثين ميلادية، فتقلدت بالمصالح سنة ستمائة وأربعة وأربعين إلى سنة ستمائة وتسعة وأربعين، وأحسنت التدبير والسياسة مع البهجة والرونق إلى تلك السنة، ومن هذا التاريخ أبعدت الوزراء العقلاء، واحتاط بها بطانة السوء من المفسدين، فحصل فى الإدارة الخلل، فتعبت من هذه الحالة القاسية، وخلعت نفسها فى سنة ألف وستمائة وأربعة وخمسين ميلادية وقلدتها لابن عمها كارلوس وستاو، لم يكن عمرها إذ ذاك إلا ثمانية وعشرين سنة، فساحت فى بلاد أوربا، ودخلت فى فرانسا، وقتلت ناظر اصطبلها الذى كان معها فى السفر لضمير، ثم أقامت فى رومة، وماتت فى سنة

(١) أى المجر.

ألف وستمائة وتسعة وثمانين ميلادية. وهذه الملكة كانت حسنة التربية، ومدة حياتها كانت تشتغل بالعلوم والآداب والديانة، ومدة تملكها على أسوج انجذب إليها مشاهير الرجال من جميع البلاد، فكانت تكرمهم وترحب بهم.

ومع أن هؤلاء النساء تقلدن السلطنة وسلكن مسالك الشجعان نوعا، إلا أنهن كن سيآت العواقب، وقل أن خلت إحداهن فى بعض الأفعال من نقصان، قال الشاعر:

النساء ناقصات عقل ودين ... ما رأينا لهن رأيا سنيا

ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

وهو منقوض بالسيدة مريم، على القول بنبوتها، فإذا كان حالهن كذلك فكيف يجوز وراثتهن للخلافة والسلطنة، ومن تقلد منهن السلطنة وأفلح فيها فلم يكمل له الفلاح، وإذا كمل فهو من النادر الذى لا حكم له، فحديث: «لن يفلح قوم ولوا عليهم امرأة». صادق بالمضمون، مؤيد بالتجاريب، وتولية شجرة الدر، التى لم يسبق فى الإسلام سلطنة لغيرها، كانت لمحض الضرورة التى تبيح المحظور.

وقال بعض الحكماء، أرباب التحسين والتقبيح العقليين: «إن النساء كن فى قديم الزمان وأزلى الحدثان فى مصر رئيسات منازلهن، يسسن عموم الأمور المنزلية بدون مشاركة الرجال، ولهن فى تدبير المنزل وتأديب الأولاد الولاية العامة. مع أن العقل والطبع لا يستحسنان ولايتهن على منازلهن ولا إناطتهن بتربية وتهذيب أبنائهن، لما يكتسبه الأولاد منهن من قلة الشهامة وعدم التعود على شجاعة الشجعان، ولكن العقل والطبع لا يأبيان أن يكون للنساء رئاسة المملكة، لأن ما فيهن من الضعف - مما لا يسوغ لهن كمال العناية بالإدارة المنزلية - هو الذى بعينه يكسبهن الرفق والحلم والتلطف وكل مايليق برتبة السلطنة من المحسنات التى مبناها الرأفة والشفقة، وهما ساكنان فى قلب المرأة، لأن دأب الرجال الشدة والعنفوان والجبروت، وما أشبه ذلك من الأخلاق الجافية التى قل أن يخلو عنها الرجال، ولا تليق بالملوك فى تأليف قلوب الرعية، فلا موجب لحرمانهن من المناصب الملوكية، لاسيما وأن كثيرا من الممالك حسنت فيها ملوكية النساء ونجحت، وظهر لكثير

منهن المآثر». وقد فهمت رده، وأيضا منعهن من الإمارة والقضاء، اللذين هما دون السلطنة، لأن الإمارة والقضاء قد يكون فيهما الاجتهاد، وهو مرتبة عليا، وقل أن توجد امرأة فيها الأهلية. على أن أبواب الشريعة والسياسة التى تخص الملوك واسعة لا تطيقها عقول النساء، على ما فيهن من كون جميعهن عورات، يتعذر مخالطتهن للموظفين من الأمراء الملكية والجهادية ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيف والقلم.

وأما وجود اللياقة فيهن فليست محل المنع، فإن السيدة عائشة استجمعت من الأمور الشرعية والسياسية كفاءة الخلافة، فقد سئل عروة بن الزبير[1]عن علم عائشة فقال: والله ما رأيت امرأة أعلم بالفرائض والسنن والتنزيل والتأويل من عائشة، رضى الله عنها، حتى بأشعار العرب وأيامهم وأنسابهم، والطب والأدوية، فقلت لها: من أين لك علم الطب والأبدان؟ فقالت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان إذا مرض يتداوى، وإذا مرضت يصف لى، فأبرأ، وإذا سئل يصف للمرضى، فتعلمت منه. فقلت: ومن أين لك معرفة بأنساب العرب وأيامها وأشعارها؟ فقالت: فوالله يا ابن أختى ما سمعت أذنى شيئا فيه نفع للناس إلا حفظته، ولا أنساه. وقال عروة: والله ما ندمت على شىء قط أشد منى ندما على ما فاتنى من علم عائشة، رضى الله تعالى عنها. وما الذى يمنعها وقد رباها

---

(١) وعروة هذا شقيق عبدالله بن الزبير، ونسبهما معروف، ولما قطعت رجله بسبب الأكلة وهو فى الصلاة، وكان الوليد بن عبد الملك عنده، ولم يشعر بقطعها حتى كويت فوجد رائحة الكى، على ما ذكره ابن قتيبة، ولم يترك ورده تلك الليلة، وعاش بعد قطع رجله ثمانين سنة، ولما قتل أخوه عبد الله قال لعبد الملك أريد أن تعطينى سيف أخى، فقال: هو بين السيوف، ولاأعرفه، فقال: إذا أحضرت السيوف أنا أعرفه، فأمر عبد الملك بإحضارها بين يدى عروة، فأخذ منها سيفا مفل الحد، وقال: هذا سيف أخى، فقال له عبد الملك: أو كنت تعرفه قبل الآن، فقال: لا، فقال: كيف عرفته؟ فقال: يقول النابغة الذبيانى:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وعروة هو الذي احتفر البئر المسماة بئر عروة بالمدينة الشريفة، وليس فيها بئر أعذب ماء منها، وولادته سنة اثنين وقيل ست وعشرين، وقال ابن خلكان: وتوفي في قرية له دون المدينة يقال لها فرع، بضم الفاء وسكون الراء، من ناحية الزبذة، بينها وبين المدينة أربعة أميال وهي ذات نخل ومياه. (الطهطاوى).

أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأفصح الفصحاء، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبوها علامة قريش، المفتى فى حضرة النبى، صلى الله عليه وسلم، والولد سر أبيه.

وأما فصاحة عائشة فمما رواه على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، أنه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها بعض الأيام فرأيتها جالسة وعليها قميص مرقع، فحمدت الله تعالى بما هو أهله، وثنت بالصلاة على نبيه وذكر ما وهبه الله تعالى من فضله، وأثنت على أبى بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والإحسان، ثم حضت بالاقتداء بهم واتباع أمرهم، فوالله ما سمعت أذنى من سامر النساء أفصح منها، وأنظم من كلامها، ولا أرشد من رأيها، فقلت لها: أنت والله أم المؤمنين حقا، والعالمة بالله ورسوله، الناصحة، المشفقة، الواعظة، المبلغة، دللت الناس على الحق، وأمرتهم باتباعه، ونهيتهم عن حظ أنفسهم، وأنت أهل أن يسمع قولك، ويطاع أمرك، ويقبل نصحك، ثم قمت وخرجت، واضعا يدى على كتف ذكوان، وقلت: والله يا ذكوان ما سمعت أذنى خطيبا من أكثر الصحابة أفصح من عائشة ولا أبلغ من موعظتها، فلو كانت إمرة لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة. وقال عليه السلام: «عائشة عالمة هذه الأمة»، ولذلك كان أكابر الصحابة يأتون إليها ويسألونها عما أشكل عليهم من الفرائض، كما روى عن أبى موسى الأشعرى قال: ما أشكل علينا، أصحاب رسول الله، حديث قط وسألنا عنه عائشة إلا ووجدنا عندها منه علما. وروى الأحنف بن قيس أنه قال: سمعت كلام أبى بكر، رضى الله عنه، حتى مضى، وكلام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان، رضى الله عنه، حتى مضى، وكلام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، حتى مضى، ولا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة، رضى الله عنها.

(السلطنة المعنوية للنساء)

وقد ذكرنا فى (الفصل الثانى) من (الباب الثانى) سلطنة النساء على قلوب الرجال، وهذه السلطنة نفوذها يكفيهم فى تحسين أحوال الرجال وترقيق طباعهم، فإن الحب سلطان قادر، وملك قاهر، تذل لهيبته الأملاك، وتذعن لسطوة سيوفه الفتاك، وتنقاد لطاعته الزهاد والنساك. يحكى أن عربية جارية المأمون، الذى أظهر فى ممالك الدنيا مكنون غرائب العلوم والفنون، قالت له يوما:

وأنتم أُناس فيكم الغدر شيمة ... لكم ألسن شتى وألسنة عشر

عجبت لقلبى كيف يصبو إليكم ... على عظم ما يلقى وليس له صبر

فقال يخاطبها:

أنا المأمون والملك الهمام ... خلا أنى بحبك مستهام

أترضى أن أموت عليك وجدا ... ويبقى الناس ليس لهم إمام؟!

فقالت يا أمير المؤمنين أبوك الرشيد أعشق منك حيث يقول:

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانى

فقدم ذكرهن على نفسه وأنت قدمت نفسك على من تزعم إنك تهواها! قال لها المأمون: إنى منفرد بك، والرشيد مقسم بين ثلاث! قالت: أعرفهن، الواحدة مقصودة، وهى فلانة، والثنتان محبوبتان لها، فأحبهما لحبها إذ ذاك مما يسرها، كما قال خالد بن يزيد بن معاوية فى رملة:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

أحب بنى العوام حبا لحبها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فأين المخرج لأمير المؤمنين؟ فسكت، وعظم حبه. وقال بعضهم فى الخلخال أيضا:

استكتمت خلخالها ومشت ... تحت الظلام به فما نطقا

حتى إذا ريح الصبا نسمت ... ملأ العبير بسيرها الطرقا

وقال المستعين بالله، الحاكم الأموى، أحد خلفاء الغرب[1]:

عجبا يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

وأقارع الأبطال لا متهيبا ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطان

فأبحن من قتلى الحمى وتركتنى ... فى عز ملكى كالأسير العانى

لا تعزلوا ملكا تذلل فى الهوى ... ذل الهوى عز وملك ثانى

ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى

ولعبد الله بن طاهر:

نحن قوم تذيبنا الحدق النجل ... على أننا نذيب الحديدا

وترانا عند الكريهة أحرا ... را وفى السلم للغوانى عبيدا

- والغوانى جمع غانية وهى الجارية التى غنيت بزوجها، وقد تكون التى غنيت بحسنها وجمالها عن الحلى والزينة - كما قيل:

ذات حسن لو استزادت من الحسن ... قليلا لما أصابت مزيدا

فهى كالشمس بهجة والقضيب اللدن ... قدا والريم طرفا وجيدا

---

(١) أى الأندلس.

فهذه السلطنة المعنوية قوية، ولهذا يدعى لشوكة سلطنتها بما يدعى به لدولة الملوك، ويخاطب خطابهم كما قال شمس الدين بن العنيف التلمساني:

أعز الله أنصار العيون — وخلد ملك هاتيك الجفون

وضاعف بالفتور لها اقتدارا — وإن تك أضعفت عقلي وديني

وأبقى دولة الأعطاف فينا — وإن جارت على القلب الطعين

وأسبل ظل ذاك الشعر يوما — على قد به هيف الغصون

وصان حجاب هاتيك الثنايا — وإن ثنت الفؤاد إلى الشجون

(الاتباع والابتداع)

وأما السلطنة الرسمية على الرعية فهي لا تكون إلا في البلاد التي قوانينها محض سياسة وضيعة بشرية، لأن قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء، بناء على قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد، وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسينا وتقبيحا في ذلك، حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع.

ولا يسوغ لمتولي الأحكام أن يحكم في التحريم والتحليل بما يلائم مزاجه، مما يخالف الأوضاع الشرعية المنقولة عن الأئمة المجتهدين، ولا عبرة بالاستكراه النفساني والاستحسان الطبيعي والأخذ بالرأي من غير دليل شرعي، بل يعتمد متولي الأحكام على فتاوى العلماء وأقوال المجتهدين في الدين، فإن الإمامة إنما تخلف النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فتقف عند حدود الله تعالى المعضدة بقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة: ٣). وكان أبو حنيفة النعمان[1] يقول: «إياكم والأخذ في دين الله بالرأي، وعليكم باتباع السنة، فمن خرج عنها ضل وغوى». انتهى. وإنما يجوز للحاكم إذا رأى مصلحة ظاهرة

---

(١) النعمان بن ثابت (٦٩٩ - ٧٦٧ م) صاحب المذهب الفقهي المشهور.

للرعية، شرعية مرعية، كمخافة ضرر يلحق الرعية فى دينها ودنياها، أن ينهى عن بعض المباحات التى يترتب عليها الضرر، كما إذا خاف من أهل الحل والعقد أن يتفقوا على فتنة، فمنعهم الاجتماع، الذى هو فى الأصل مباح، ولكن إذا نهى عنه صار محظورا، وكذلك إذا أمر من عنده قوت من قمح أو نحوه زائد عن حاجته أن يبيعه للناس، وجب على صاحب القمح أن يبيعه، حيث إن الضرورة العامة تزول به، فهو من باب جلب المصالح ودرء المفاسد، فبهذا صار واجبا، وكما إذا أمر بصدقة أو عتق مما يترتب عليه أمر من الأمور المهمة، فإنه يصير واجبا، لأن أوامر الحكام منوطة بمصالح الرعايا، دنيا ودينا، وإنما الممنوع من الحكام إنما هو اتباعهم هوى أنفسهم، قال تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (ص: ٢٦). فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمنا فغير مباح، ولا يعد تمدنا، بخلاف المباحات إذا تصرف فيها العقل بالتصرفات التحسينية، وحوّلها من حالة إلى حالة أحسن منها، فهذا عين التمدن الذى نبينه فى الفصل الآتى.



الفصل الخامس
فى تمدن الوطن

تمدن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لأهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين أحوالهم حسا ومعنى، وهو فوقانهم فى تحسين الأخلاق والعوائد، وكمال التربية، وحملهم على الميل إلى الصفات الحميدة، واستجماع الكمالات المدنية، والترقى فى الرفاهية. وهذا التمدن بالنسبة للأمة المقيمة فى الوطن، وتختلف أفراد هذه الأمة المتمدنة بالنسبة للترقية والتحسين، فالتمدن بالنسبة للأمم وللأفراد مقول بالتشكيك، ولهذا تجد المملكة أعظم تقدما فى التمدن من الأخرى، وكذلك زيد من الناس أرقى تمدنا من عمرو، بالنسبة لتحسين حاله ومنزله.

وضد التمدن التخشن، وهو الخلو عن الترفه فى درجة المعيشة. ولاشك أن رسالة الرسل بالشرائع هى أصل التمدن الحقيقى الذى يعتد به ويلتفت إليه، وأن الذى جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذى مدن بلاد الدنيا على الإطلاق، وانبعثت أنوار الهدى فى سائر الآفاق، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أتيتكم بشريعة حنيفية بيضاء، لم يأت بها نبى قبلى، ولو كان أخى موسى وسائر الأنبياء فى زمنى لم يسعهم إلا اتباع شريعتى». ، ومن زاول علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهى عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى

عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته، مما يفضلون به عن سائر الأمم فى القوة والمنعة، يسمونه محبة الوطن. على أنه عندنا معشر الإسلام حب الوطن شعبة من شعب الإيمان، وحماية الدين مجمع الأركان. فكل مملكة إسلامية وطن لجميع من فيها من الإسلام، فهى جامعة للدين والوطنية، فحمايتها واجبة على بنيها من هاتين الحيثيتين، وإنما جرت العادة بالاقتصار، على الدين لقوة أهميته، مع إرادة الوطن، وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصى محضة لمجرد الجنسية والمنزلية كالقيسى واليمانى والمصرى والشامى، مع أن الوطن يستوى فيه النوع الإنسانى، فتجد الحزبين ولو اختلف البعض مع الآخر يتحدان بالنسبة للأجنبى لحماية الوطن أو الدين أو النوع.

وفوائد التمدين كثيرة، وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية، ولذلك قال بعضهم: كلما اتسع نطاق تمدن ممالك الدنيا خفت الحروب، وقلت العداوة، وتلطفت الفتوحات، وندرت التقلبات والتغلبات، حتى تنقطع بالكلية، وينمحى الاستعباد والاسترقاق بغير حق، ويزول الفقر والمسكنة.

من أسباب التمدن

ثم إن من أسباب التمدن فى الدنيا: التمسك بالشرع، وممارسة العلوم والمعارف، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التى تعين على ذلك، واختراع الآلات والأدوات من كل ما يسهل أو يقرب الطرق التمدنية بإيجاد الوسائط والوسائل. فمما أعان على التعليم والتعلم، الذى هو ركن من أركان التمدن، المطابع الأهلية. يقال إن أول من اخترع طبع الكتب فى أوروبا أمة الألمان [1] وانتقلت منهم فى بلاد الصين، وكان أهل فرنسا إذ ذاك من عماية الجهل فى بحر عميق، ومن غواية التخشن فى مكان سحيق، فاعتقدوا أن الطباعين سحرة وهمّوا بقتلهم، فأنقذهم منهم لويز الحادى عشر ملك فرنسا، وجعل المطابع تحت حمايته ثم انتقلت إلى باقى بلاد أوروبا ومنها إلى بلاد المشرق ومصر.

(١) ومخترع أدوات الطباعة هذه هو الألمانى يوهان جوتنبرج (١٣٩٧ ـ ١٤٦٨م)، فلقد اخترع آلته سنة ١٤٣٦ أو سنة ١٤٣٧م، وكان أول كتاب طبعه بها هو «إنجيل مازارين».

ومما أعان على سعة دائرة التمدن فى بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف فى تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية والسياسية، ثم توسع فى حرية ذلك بنشره طبعا وتمثيلا، وخصوصا جرائد الوقائع لاسيما فى بلاد أوروبا بقانون حرية إبداء الآراء بشرط، عدم ما يوجب الاختلال فى الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغير تفريط ولا شطط.

ومن أعظم معين على التمدن حرية الملاحة والسياحة فى البر والبحر، فإنها عادت على جميع ممالك الدنيا بالثروة والغنى، والاطلاع على عجائب الدنيا. وكانت السياحة فى الأحقاب السالفة لعرب الإسلام لاستكشاف البلدان وإدخال أهلها فى دين خير الأنام، فاستكشفوا من البرور والبحور ما لا يحصى، ومدنوا من أهل جزائر البحر المحيط وسواحله مالا يستقصى، ثم حذا حذوهم الحذاق والألباء من أهالى أوروبا، فظفروا باستكشاف دنيا جديدة لم تكن معلومة للأقدمين، وأعظم ما أعان على الملاحة، وهى السفر فى البحر، اختراع «البوصلة» التى هى «بيت الإبرة» قيل إن أول مخترع لها عرب الإسلام الذين سافروا فى جميع أقطار البحر المحيط لنشر الإسلام عند الأمم المتبربرة فى جميع الأقطار، وقيل إن المخترع لبيت الإبرة إنما هم الأوروباويون، والجمع بين القولين أن يقال: إن الاختراع لهذه الآلة إنما كان للعرب، وأن الأوروباويين إنما اجتهدوا فى تكميلها وتحسينها وتكثيرها. وهى عبارة عن علبة، مثبت فيها إبرة حديد مسقية بالمغناطيس، تتحرك دائما صوب القطب الشمالى، ولا تنحرف عنه إلاّ انحرافا يسيرا، ويرسم فيها الجهات الأربع، وهى الشمال والجنوب والشرق والغرب، لمعرفة مهاب الرياح الأربع الأصلية والريح النكباء، فبهذا يهتدى بها الربانون فى البحر إلى صوب مقصودهم، ثم إن أغلب ممالك أوروبا أرباب قوة بحرية، إلاّ أن أعظم الممالك قوة بحرية مملكة الإنجليز، ثم مملكة فرنسا وللدولة العلية فى القوة البحرية مسيرة قوية، ومينات لا نظير لموقعها فى الحصانة والأمنية وللحكومة المصرية بوغازات ذات أهمية يصح أن تكون أولية وذات أولوية، فكل من البحرين الأبيض والأحمر لها مساعد، وسائر ثغورها مراكز تجارة لكل صادر ووارد.

وقال أرباب السياسات : إنه ينبغى لأى مملكة من الممالك أن تكون قوتها البحرية على النسبة من قوتها البرية، وعلى حسب عظم ملكها، وإن أنفع شىء فى تقديم القوة البحرية فى مملكة من الممالك أن يكون بيرقها [1] مرخص السير فى البحار محترما فى جميع أجزاء بحار الدنيا، ومن فضائل القوة البحرية أنها تعين على تقدم الزراعة والتجارة والصناعة، لاسيما فى المستعمرات الخارجة عن المملكة، ولأجل كثير السفن والعمارات البحرية يجب على الأمة المتشبثة بذلك أن تكثر من غرس الغابات والأورمانات[2] ليكثر عندها الخشب اللائق لابتناء السفن، بحيث تتمكن المملكة البحرية من أن تنشىء ترسانات للسفن فى بلادها، فإن تعذر عليها ذلك وجب أن تتحصل على السفن اللائقة بها بالشراء من البلاد الأجنبية بقدر ما يفى بحاجتها، لأن القوة البحرية هى منبع غزير لتوسيع دائرة التمدن الذى مبناه على العدل والحرية العمومية.

(١) البيرق: العلم والراية التى تحمل شعار الدولة.

(٢) من معانى «الأرم» بفتح الهمزة: أصل الشجر - انظر هذه المادة فى (لسان العرب) - فلعلها مأخوذة منها، وفى مصر «حدائق الأورمان» فى محافظة الجيزة.

الفصل السادس

فى الحرية العمومية والتسوية بين أهالى الجمعية

الحرية من حيث هى: رخصة[1] العمل المباح، من دون مانع غير مباح، ولا معارض محظور. فحقوق جميع أهالى المملكة المتمدنة ترجع إلى الحرية، فتتصف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متحصلة على حريتها، ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر، يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة، بدون مضايقة مضايق ولا إكراه مكره، ،وأن يتصرف كما يشاء فى نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة. ومن حقوق الحرية الأهلية أن لا يجبر الإنسان على أن ينفى من بلده، أو يعاقب فيها، إلا بحكم شرعى أو سياسى مطابق لأصول مملكته، وأن لايضيق عليه فى التصرف فى ماله كما يشاء، ولا يحجر عليه، إلا بأحكام بلده، وأن لا يكتم رأيه فى شىء، بشرط أن لا يخل ما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده.

(أقسام الحرية)

وتنقسم الحرية إلى خمسة أقسام: حرية طبعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية.

---

(١) مصطلح «رخصة» مستعمل هنا بمعنى حرية، وهو بهذا المعنى فى كل آثار الطهطاوى الفكرية. والرخصة فى الأصل: الإذن فى الشىء بعد النهى عنه، أى الإباحة وإعطاء الحرية، وتأتى بمعنى التخفيف ضد التشديد، وفى هذا المعنى «والله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعزائمه».
ولقد جاءت بمعنى الإباحة فى قول الشاعر:

نغالى اللحم للأضياف نيئًا ونرخصه إذا نضج القدور.

انظر هذه المادة فى (لسان العرب). و(أساس البلاغة) للزمخشرى.

فالحرية الطبعية : هى التى خلقت مع الإنسان، وانطبع عليها، فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها بدون أن يعد دافعها ظالما، كالأكل والشرب والمشى مما يشترك فيه جميع الأفراد ولا يستغنون عنه، مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه فلا يجوز مثلا التخمة، ولا أكل السموم، ولا أكل طعام الغير بدون إذنه.

والحرية السلوكية : التى هى حسن السلوك ومكارم الأخلاق، هى الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية، المستنتج من حكم العقل، بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليها نفسه فى سلوكه فى نفسه وحسن أخلاقه فى معاملة غيره.

والحرية الدينية : هى حرية العقيدة والرأى والمذهب، بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين، كآراء الأشاعرة[1] والماتريدية[2] فى العقائد، وآراء أرباب المذاهب المجتهدين فى الفروع، فإن الإنسان يأمن على أن يتبع مذهبا من هذه المذاهب يتمسك به فى العبادة، ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية، وآراء أرباب الإدارات الملكية فى إجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم، فإن ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون فى طرق الإجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع إلى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل. والحرية المدنية : هى حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدينة بعضهم على بعض، فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء حقوق بعضهم لبعض، وأن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين أن يساعدهم على فعلهم كل شىء لا يخالف شريعة البلاد، وأن لا يعارضوه، ، وأن ينكروا جميعا على من يعارضه فى إجراء حريته، بشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام.

والحرية السياسية : أى ا لدولية، هى تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية، وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شىء منها،

(١) نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى (٨٧٣ - ٩٤١ م) ، كان معتزليا ثم خرج على مذهب المعتزلة ليقيم مذهبا وسطا بين الجبرية والمعتزلة على أساس نظرية الكسب، ولذلك يعد مذهبه مذهب الجبرية المتوسطين بالقياس إلى مذهب الجبرية الخلص أتباع الجهم بن صفوان. انظر تقديمنا (لرسائل العدل والتوحيد).

(٢) نسبة إلى أبى منصور الماتريدى (المتوفى سنة ٩٤٤ .) وهو صاحب مذهب كلامى بين الأشعرية والمعتزلة.

فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية، فكأن الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها ما دام مجتنبا لإضرار إخوانه.

(علاقة الحرية بالسعادة)

فالحرية، بهذه المعانى، هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم. وبالجملة فحرية أهالى كل مملكة منحصرة فى كونهم لهم الحق فى أن يفعلوا المأذون شرعا، وأن لا يكرهوا على فعل المحظور فى مملكتهم، فكل عضو من أعضاء جمعية المملكة يرخص له أن يتمتع بجميع مباحات المملكة، فالتضييق عليه فيما يجوز له فعله، بدون وجه مرعى، يعد حرمانا له من حقه، فمن منعه من ذلك، بدون وجه، سلب منه حق تمتعه المباح، وبهذا كان متعديا على حقوقه، ومخالفا لأحكام وطنه. ومتى كانت حرية الأهالى مصحوبة بعدل الملوك، الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة، فلا يخشى منها على الدولة، بل يكون التعادل فى الحقين، ويسعد الرئيس والمرؤوس.

(التزام الحر نحو وطنه)

وحيث إن الحرية منطبعة فى قلب الإنسان من أصل الفطرة، واقتضت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذله، وكرمته على جميع من عداه، فينبغى أن يصرف حريته فى إكرام وطنه وإخوانه ورئيس دولته، فإذا كان الإنسان يكلف بنفع وطنه فلا يعد تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء أو إعانة الحكومة على مصارفها من التعدى على حقوقه، فإن هذا من واجباته لوطنه، حيث إن العدو الذى يتعدى بالإغارة على بلد من البلاد يجب على أهلها قتاله وصده عنها، وما ذاك فى الحقيقة إلا لحماية الحرية، فمن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضا بحرية غيرها من الأمم، وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لا حرية عندهم.

وأعظم حرية فى المملكة المتمدنة حرية الفلاحة والتجارة والصناعة، فالترخيص

فيها من أصول فن الإدارة الملكية، فقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التى تقدم فيها التمدن إلى هذا العصر، وأن أصعب ما على العاقل الذى يفهم منافع هذه الفنون أن يرى تضييق دائرتها، ولكن قد يكون سبب التضييق فى ذلك أن ملوك المملكة الموجود فيها ذلك يرون رعاياهم ليسوا أهلا لهذه الرخصة، لعدم استكمال التربية الأهلية فيها، وأنهم ينتظرون تقدم التربية وصلاح حال الأهالى ليبيحوا لهم رخصة اتساع الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية، لأن تهذيب الأهالى وتحسين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف فى العمليات المتسعة.

قال بعض الحكماء: إن سمحتم لى بتحسين التربية ألزمت نفسى لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره، فإن العقول البشرية متى بلغت مبلغا عظيما فى فهم المعارف المعاشية إتسعت فى المعاملات، وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع العمومية من الأدوات والآلات، واهتم أهل العصر بتمامهم فى مزاولة الأعمال والأشغال، وصار للماهرين فى الفلاحة والصناعة والتجارة اقتدار على تدوين كتبها وتقييدهم فيها جميع التجديدات، فبهذا تتجدد بالمعارف المكاسب الوافرة، والمغانم المتكاثرة يوما فيوما، فالمملكة التى تقدم فيها علم الإدارة والاقتصاد فى المصارف، وحصلوا فى ذلك على القواعد المكينة والأصول المتينة، فليس عجيبا إن فازوا بمنافعها العمومية، وثمراتها الحالية والمالية، ولا يبعد أن من نافسهم، ممن بجوارهم، فى هذه العلوم، وعرف أصولها وفروعها، تجدد عنده هذه المنافع بعينها، وبالممارسة والمزاولة لا تزال تأخذ فى الاتساع، حسب الإمكان، ويقارن الحرية: التسوية، وكلاهما ملازم للعدل والإحسان.

(المساواة)

وأما التسوية بين أهالى الجمعية، فهى صفة طبيعية فى الإنسان، تجعله فى جميع الحقوق البلدية كإخوانه، وهى جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية، وذلك لأن جميع الناس مشتركون فى ذواتهم وصفاتهم، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين

وشم وذوق ولمس، وكل منهم محتاج إلى المعاش، فبهذا كانوا جميعا فى مادة الحياة الدنيا على حد سواء، ولهم حق واحد فى استعمال المواد التى تصون حياتهم، فهم مستوون فى ذلك، لا رجحان لبعضهم على بعض فى ميزان المعيشة.

ولكن هذا التساوى بينهم، إن أمعنا النظر فيه، وجدناه أمرا نسبيا لا حقيقيا، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلا، حيث منحت البعض أوصافا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر، فبهذا تباينوا فى الصفات المعنوية، بل وفى الصفات الطبيعية، كقوة البدن وضعفه، ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق فقد جعلهم فى الأحكام مستوين، لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والمرؤوس، كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم فى الأحكام بأن يكونوا فيها على حد سواء، فحيث اشتركوا واستووا فى الصفات الطبعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية فى الأحكام الوضعية، فمن حيث ثبت أنهم مستوون فى الحقوق أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعا فى خطر عام وجب على سائرهم أن يتعاونوا فى إزالة هذا الخطر، لما فى إزالته من منفعتهم العمومية، فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية، كأنهم مجردون عنها بالكلية، ويرجعوا إلى صفة التسوية، وينسوا كل مزية، فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه، وينضم إلى ذلك صفة ثالثة: وهى محافظتهم على بقاء الهدوء والراحة العامة فى وطنهم، ومنع الاختلال الداخلى، وحسم عرق الفتن، فكل ملة تتخذ أصل قانونها التسوية من أصل الفطرة فى الحقوق، ويدومون على مراعاة هذه التسوية، فإن حريتهم توضع على أساس متين، وتكون مملكتهم راسخة القواعد، لا يعتريها الخلل من بين يديها ولا من خلفها، فبهذا تقوى على المدافعة عن بلادها، وتحمى عن حقيقة وطنها، وتدفع جور من جاوره من الممالك. فهذه هى الأمة القوية الشوكة فى الداخل والخارج، مهابة عند الجميع.

فالتسوية فى الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا، فكل إنسان يتصرف فى أملاكه وحقوقه تصرفا كتصرف الآخرين أيا ما كانت فى المملكة

صفته، شرفا أو ضعة، فهو مساو للجميع فى تصرفاتهم. ومن البديهى أن استواء الإنسان فى حقوقه مع غيره يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات التى تجب للناس بعضهم على بعض، لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات، فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفى ما هو له فعليه أن يؤدى ما عليه، فالتسوية عبارة عن تكليف جميع أهالى المملكة، بدون فرق بينهم، بأن يفوا بما يجب لبعضهم على بعض، فالطالب هو ذو الحق، والمطلوب هو ذو الواجب، فالواجبات دائما ملازمة للحقوق لا تنفك عنها. وعلى كل حال فالتكاليف الشرعية والسياسية التى عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى، وإنما ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أوتقبيحه.

(العدل)

فمن أدى واجباته واستوفى حقه من غيره، وكان دأبه ذلك، اتصف بصفة العدل، والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة فى أقواله وأفعاله، وأن ينتصف لنفسه ولغيره، حتى جعله بعض الحكماء فضيلة قاعدة لجميع الفضائل، وإنه أساس الجمعية التأنسية والعمران والتمدن، فهو أصل عمارة الممالك التى لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع منه، وكالصفة من صفاته، وإنما يسمى باسم خاص كالشفقة، والمروءة، والتقوى، ومحبة الوطن، وخلوص القلب، وصفاء الباطن، والكرم، وتهذيب الأخلاق، والتواضع، وما ماثل ذلك، فهذه كلها نتائج العدل. ثم إن الحديث الشريف، وهو قوله، صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». يتضمن الدرجة العليا فى العدل، وهو موافق لما نطقت به حكم الحكماء وشرائع الأنبياء قبل الإسلام، فقد حسنه الشرع والطبع، وإن كان تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع.

الفصل السابع

(فى الأحكام الطبيعية المستندة، قبل التشريع، إلى العقل)

الحكم الطبيعى، المستند إلى العقل، هو فى أصله، قبل تشريع الشرائع عليه، مدار العالم، ومجرى قوامه، وهو النظام الذى وضعته الحكمة الإلهية فى القوى البشرية، وجعلته مشتركا بينهم، مستويا فيهم، ليميزوا فيه المباحات، بدون نظر لبلد دون أخرى، ولا لقوانين مملكة دون ما عداها.

ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات، وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع، منقادة لنواميس طبيعية عمومية، خصته بها الحكمة الإلهية، كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص، وهذه النواميس الطبيعية التى خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره، فمنها كون الشمس تضىء على سطح الأرض، ويسطع نورها على التدريج فى سيرها، وأن وجودها على البسيطة يستلزم النور والحرارة، وأن الحرارة يلزمها سخونة الماء. ويتكون عنها الأبخرة التى تتصاعد فى الجو، ويتكون عنها السحاب الذى يستحيل إلى الأمطار والثلج والبرد، ويتسبب عن ذلك مياه العيون والأنهار والجداول، وليس لهذه الأشياء تأثير فى بعضها، وإنما هى أسباب عادية، والتأثير إنما هو للحكيم القادر، وتسميتها طبيعية عند الحكماء إنما هو نظر للظاهر:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة ... فذاك كفر عند أهل الملة

(الفاعل الحقيقى هوالله)

فمن هذه الأسباب العادية حقيقة، الطبيعية ظاهرا، أن الماء يجرى من أعلى إلى أسفل، ويحاول أن يمتد ويستوى فى إنائه تسوية واحدة، لا يعلو بعض أجزائه على بعض، ويكون أثقل من الهواء. ومن ذلك أن جميع الأجسام التى فى الجو تميل للسقوط على الأرض، ما عدا النار فإنها تميل للصعود نحو السماء، وأنها تضر بالمعادن والحيوانات والنبات، تخنق فى بعض الأحوال بعض الحيوانات وتقتلها، وأن بعض عصارات النباتات وبعض المعادن تضر بالحيوان وتقتله، وبالجملة فالأسباب العادية المسماة عند الحكماء بالنواميس الطبيعية كثيرة كثرة بالغة.

(دور الأسباب)

فينبغى للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب ويتعدى حدودها، حيث إن المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة، ولا نظر إلى خرق العادة التى لا تكون إلا لنحو كرامة لولى، لأن كل ما كانت معجزة لنبى كانت كرامة لولى،[1] لا فرق بينهما إلا التحدى بالنبوة.

فعلى الإنسان أن يطبق أعماله على هذه الأسباب التى تقدم ذكرها، ويتمسك

---

(١) والولى من استولى على طلعة مولاه كاستواء السفينة إذا طاب لها الريح، فيجب إحترام الأولياء وعدم إهانتهم. روى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال «يقول الله تعالى: من أهان لى وليا فقد آذننى بالمحاربة». وقد نطق القرآن بكرامات الأولياء، ففيه قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿ **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ** ﴾ الآيات وقصة مريم، قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ قال المفسرون كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف، وقد أثنى عليهم المولى تبارك وتعالى بقوله ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ وقال العلامة اللقانى، فى الجوهرة:

وأثبتن للأوليا الكرامة ... ومن نفاها انبذن كلامه

فمنهم من يكون ستره بالأسباب، ومنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه، فيقول الناس حاشا أن يكون هذا وليا لله تعالى وهو فى هذه النفس، وذلك لأن الحق تعالى إذا تجلى فى قلب العبد بصفة القهر كان قاهرا، أو بصفة الانتقام كان منتقما، أو بصفة الرحمة والشفقة كان رحيما مشفقا، وهكذا، ولم يزل فى كل عصر وأوان أولياء وعلماء. (الطهطاوى).

بها، وإلا عوقب عقابا إلهيا لمخالفة خالق هذه الأسباب. مثلا إذا أراد الإنسان أن يبصر المبصرات فى ظلمة الليل الحالك، وحاول ذلك كل المحاولة، أو خالف ما تقتضيه الفصول الزمانية، واستسهل ما يتسبب عنها، أو ناقض خواص العناصر، كأن أراد أن يعيش فى قرار الماء أو يمس النار بدون أن يحترق أو أن يشرب السم بدون أن يموت، فإنه يجازى على أفعاله فى الحياة الدنيابقدر مخالفته للأسباب العادية، بأن يغرق أو يحترق أو يشرق أو يموت، بخلاف ما إذا راعى هذه الأسباب العالم بخواصها على قدر الإمكان فإنه يصون نفسه على قدر الإمكان، حيث هى موضوعة بالحكمة الإلهية للحفظ والصون والإسعاف والإسعاد، إلى غير ذلك.

وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الأحكام الشرعية، فهى فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمة له فى الوجود، فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله، وكأنما هى سطرت فى لوح فؤاده بإلهام إلهى بدون واسطة، ثم جاءت بعدها شرائع الأنبياء بالواسطة وبالكتب التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فهى سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها فى أزمان الفترة تأسست قوانين الحكماء الأول وقدماء الدول، وحصل منها الإرشاد إلى طريق المعاش فى الأزمنة الخالية، كما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشرى حيث هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يقننون القوانين المدنية، لاسيما، الضرورية، كحفظ المال والنفس والنسل، وهذا الأخير هو حكمة عظيمة فى الفطرة التى فطر الناس عليها، من تأييده بازدواج النساء والرجال، الذى حكم الطبع والشرع بحله، وحث عليه شرع كل ملة من الملل.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خلق النساء والرجال من نفس واحدة، ليسكن بعضهم إلى بعض، ومع ذلك فجعل النساء رأس الشهوات، التى هى النساء والبنون والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فى قوله تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ**

وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (آل عمران: ١٤). وذلك لتقدم النساء فى قلوب الرجال على جميعها، وكانت عائشة، رضى الله تعالى عنها، تقول: من شقوتنا أن الله سبحانه وتعالى قدمنا حين ذكر الشهوات. وقال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١). وروى أن رجلا أتى النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، الرجل يتزوج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه، فلا يكون إلا ليلة حتى لا يكون شىء أحب إليه منها وإليها منه! فقال صلى الله عليه وسلم: «تلك ألفة الله»، وتلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾، وروى البخارى، عن أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء. وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فإن فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء.

ومع أن النساء رأس الشهوات، كما تقدم، فهن فى الحقيقة، جعلهن الله، سبحانه وتعالى، لسعادة الرجال، حيث أودع فى قلوب الرجال حب النساء وفى النساء حب الرجال، للائتلاف بينهما، والتمتع بما أحله الله سبحانه وتعالى من الزواج أو التسرى، ومما يتولد عن التمتع من الذرية والنسل الذى عليه مدار العمران وبقاء الإنسان والنظام العمومى، كما سيأتى بيانه فى الباب الآتى.

الباب الخامس

[فى الزواج والتسرى ومايتعلق بذلك. وفيه فصول.)

الفصل الأول

(فى الزواج)

عقد الزواج إنما يقصد منه ارتباط أحد الزوجين بالآخر، وإيجاد علاقة الاتحاد بينهما، للعفاف والنسل، بحيث يكون ذلك على وجه شرعى. وكل منهما معان ومجازى عليه بالثواب، قال الشاعر:

حق على الله عون جمع وهو لهم فى غد يجازى

مكاتب، ناكح عفافا ومن يزر بيته، وغازى

وخير الزوجين من كانا متحابين، كما قيل:

ما العيش إلا أن تحب وأن يحبك من تحبه

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الحث على الزواج والتناسل، الذى عليه مدار نظام العالم، ولا يتم هذا المقصود إلا إذا صحبه صدق المحبة، وصفاء المودة، وأمانة أحد الزوجين للآخر، وصيانة العرض، الذى هو محل للمدح والذم منهما، ولو أن هذا المعنى ليس صريحا فى العقد إلا أنه ضمنى سكوتى، ولو أنه أيضا عام فى الرجال والنساء بدون استثناء، إلا إنهأوكد فى حقوق الزوجية بين الزوجين، وتظهر ثمرة الصداقة منهما فى سياستهما المنزلية، كما يظهر الإخلال بهذه الفضيلة فى تلك السياسة المنزلية بين العائلة والأولاد الذين هم القصد الأعظم بقوله صلى الله عليه وسلم: «تزوجوا الودود الولود، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط». وقال صلى الله عليه وسلم: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم». ولا يسن لمن فى دار الحرب التزوج مطلقا خوفا على ولده من التدين بدينهم

والاسترقاق، ويتعين حمله على من لم يغلب على ظنه الزنا ولو لم يتزوج، إذ المصلحة المحققةالناجزة مقدمة على المفسدة المستقبلة المتوهمة.

ولم تزل العرب تكره من لا تلد، قال صلى الله عليه وسلم: «بيت لا صبيان فيه لا بركةفيه». انتهى. فإن الولد كله خير فى جميع أحواله، إن شاء الله تعالى، لأنه إن عاش فله رزق على الله تعالى، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٣١). ولعل والده يسعد به، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لرجل شكا إليه أخاه: «لعلك به ترزق»! وشكا رجل إلى بعض العلماء كثرة عياله فقال: من كان من عيالك رزقه على غير الله فوله إلىّ! وقال صلى الله عليه وسلم: «من كان له مال فليستكثر من العبيد، فرب عبد قسم له من الرزق ما لم يقسم لمولاه». وفى حديث: «التمسوا الرزق بالنكاح». فمن هذا يعلم أن البركة فى العائلة، لا سيما الأولاد، فإن الولد من خيرى الدنيا والآخرة، لأنه إن عاش كان له رزق على الله، وإن مات فى صغره كان فرطا [1] لأبويه يثقل به ميزانهما، وإلى الجنة يقودهما، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن الطفل يجر أبويه بسرور إلى الجنة». وروى عن الحسن البصرى، رحمه الله تعالى أن جاءه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنه كان لى ابن صغير فمات، وإذا رأيت شيئا مما كان يلعب به جزعت من ذلك جزعا شديدا، فقد خفت أن يحبط الله تعالى أجرى. فقال له: إذا رأيت شيئا من ذلك فقل: اللهم إجعل لى أجرا، اللهم إجعله لى فرطا. ومن ذلك ما صح من حديث أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، قالت: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله به، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى، وأخلفنى خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها»، فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنى قلتها فأخلفنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقيل إذا مات ولد العبد يقول الله تبارك وتعالى للملائكة: ما قال عبدى عند قبض روح ولده وثمرة فؤاده؟ فيقولون: إلهنا، حمدك واسترجع،

(١) الفرط: الولد يموت صغيرا.

فيقول الله تعالى: فإنى أشهدكم يا ملائكتى أنى بنيت له بيتا فى الجنة، وسميته بيت الحمد. (شعر):

لا يدوم البقاء للخلق لكن دوام البقاء للخلاق

(وقال بعضهم):

بأول من أخنى عليه حمام البقاء

(وقيل):

فإنها تسقى بماء الزوال

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أول شىء كتبه الله فى اللوح المحفوظ:

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا، ومحمد رسولى، من لم يستسلم لقضائى ويصبر على بلائى ويشكر نعمائى فليتخذ ربا سواى» (شعر):

سخط العبد أم رضى

كل هم سينقضى

(وقيل):

ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وقال بعض أهل الإشارة: البلاء على ثلاثة أوجه، بلاء التعذيب، وبلاء التأديب، وبلاء التقريب، فبلاء التعذيب للعاصين، وبلاء التأديب للمطيعين، وبلاء التقريب للمخلصين. وقال بعضهم: كل بلاء يقربك إلى الله تعالى فهو نعمة، وكل نعمة تبعدك عن الله فهى نقمة. قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يتعاهد العبد المؤمن من بلائه كما يتعاهد الوالد ولده بالخير». وعن عطاء بن أبى رباح قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: « من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته فى فإنها من أعظم المصايب. وقال السرى السقطى، رحمه الله: الصبر على أربعة أقسام: صبر على طاعة الله، يقوم بها العبد فلا يقطعها أو لا يهملها،

ولا يخلطها بالرياء ولا يتبعها بما يحبطها، وصبر على معصية الله، لا يقربها، وصبر على الشدائد، لا تحمله على مخالفة ربه، وصبر على النعمة لا تبطره. (شعر).

إن لله فى الأنام مرادا ... وسرى ما أراده مستحيل

نحن مستعملون فيما خلقنا ... مالنا فى نفوسنا ما نقول

(وقيل):

من عارض الله فى مشيئته ... فما من الدين عنده خبر

لا يقدر الناس باجتهادهم ... إلا على ما جرى به القدر

ويروى: أن الأطفال يجتمعون فى موقف القيامة، عند عرض الخلائق للحساب، فيقولون: أين آباؤنا وأمهاتنا، فيقال لهم: ليسو مثلكم، بل لهم ذنوب يحاسبون عليها، فيتصارخون ويصيحون على باب الجنة صيحة واحدة، يقولون: لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا! فيقول الله تعالى: تخللوا الجمع فخذوا بيد آبائكم فأدخولهم معكم الجنة. وروى الإمام مالك فى (الموطأ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فيحتسبهم، إلا كانوا له جنة من النار» فقالت امرأة عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أو اثنان؟ قال «واثنان».

وقيل: عزى أعرابى عمر بن عبد العزيز على ابن له، فقال:

تعز أمير المؤمنين فإنه ... لما قد ترى يعزى الصغير ويولد

هل ابنك إلا من سلالة آدم ... لكل على حوض المنية مورد

والإسلام عند أهل الحقيقة تسليم الأمور كلها لله، والرضى بقضاء الله. والصبر على بلاء الله، وترك التعرض فى جميع ما جاء الله وسوله، وأتباعه، وأن تعتقد وتتيقن أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله وحده، لا شريك له، ولا دافع لما قضاه، ولا راد لما أمضاه، ولا مانع لما أعطى، ولا ضال لما هدى، ولا مهدى لمن

أضل، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ (الإسراء : ٧٩) وقال صلى الله عليه وسلم : «من بركة المرأة سرعة تزويجها، وسرعة رحمها» ـ يعني ولادتها ـ «ويسير مهرها». قال أحمد بن عبدالله بن سيف أبو بكر السجستاني[١] : سمعت المزني، وقد سئل عن رجل تزوج امرأة على بيت شعر، فقال: يجوز، على معنى قول الشافعي إذا كان مثل قول القائل :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول العبد فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

فالمهر اليسير للزوجة أولى. ويروى: اليُمْن في المرأة: قلة مهرها، وحسن خلقها، وكثرة ولدها، وفي الفرس: رخصها، وقلة علفها، وكثرة نسلها، وفي الدار: رخصها، وسعتها، وصلاح جيرانها. وقال بعضهم في الجار:

يلومونني إن بعت بالرخص منزلي ولم يعرفوا جارا هناك ينغض

فقلت لهم: كفوا الملام فإنها بجيرانها تغلو الديار وترخص

وقد ورد في الجار السوء قوله عليه الصلاة والسلام : «لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه». ـ ، اى غوائله وشره، والبائقة الداهية، يقال: أعوذ بالله من بوائق الدهر ومصيبات الليالي والأيام ـ وقال صلى الله عليه وسلم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». وقال صلى الله عليه وسلم : «إنما النساء لعب فإذا أخذ أحدكم لعبته فليستحسنها». وقال صلى الله عليه وسلم : «من تزوج من بلدة فهو من أهلها». وقال النووي[٢] : والقرابة غير القريبة أولى من الأجنبية، وذات الدين أولى، ومع الدين ذات الجمال والعقل

(١) فلكي ومهندس، نشأ في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، وتوفي سنة ١٠٢٤ م. انظر: قدري حافظ طوقان (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) ص ٢٧٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

(٢) محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) فقيه ومحدث، وشرحه لصحيح مسلم معدود في مقدمة آثاره الفكرية.

أولى. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوذ». وحكى عن المأمون أنه ذكر الحديث المذكور وفتح سين «سداد»، فأعاد النضر الحديث وكسر السين، فاستوى المأمون قائما وقال: تلحننى يا نضر؟ فقال: إنما عن «هشيم»، وكان لحانا، فتبع أمير المؤمنين لفظه قال: فما الفرق بينهما؟ قال: السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل، والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيئا فهو سداد بكسر السين وأنشد:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ـ والنضر من أصحاب الخليل بن أحمد[1] والبيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، المعروف بالعرجى، نسبة إلى العرج عقبة بين مكة والمدينة ـ.

(تعدد الزوجات)

وندب أن لا يزيد على امرأة من غير حاجة ظاهرة، وأن لا يتزوج من معها ولد من غيره من غير مصلحة، وأن لا يتزوج المرأة إلا بعد بلوغها، وبعد النظر إليها ليكون أحرى أن يدوم الحب بينهما، وتزويج البكر أولى من الثيب، لقوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها، وأنتق[2] أرحاما، وأرضى باليسير».

وينبغى لمن أراد الزواج أن يقصد عراقة المولد، وطهارة المنشأ، وأن يتخير من يأنس إليها، ولا يرى غيرها. وذكروا أن المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان، وهى فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفى، قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطبا! قالت: إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا لكمال، ولكنك أردت أن تتشرف فى محافل العرب فتقول: تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأى خير فى اجتماع عمياء وأعور؟!.

(١) (٧١٨ـ٧٩١) لغوى، وعالم بالموسيقى، وهو واضع أول معجم عربى سماه (كتاب العين)، كما أنه هو الذى قَعّد بحور الشعر العربى.

(٢) يقال: نتقت المرأة، أى كثر ولدها.

وينبغى أن يتزوج الرجل قرينته فى السن، ويحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنه قال، ما معناه: لا ينكحن أحدكم من النساء إلا قرينته، يعنى من كانت فى سنه، كأنه رضى الله تعالى عنه كره للشاب أن يتزوج المسنة وللمسن أن يتزوج الشابة.

وما تقدم من قصد عراقة المولد فدليله قوله صلى الله على وسلم: «إياكم وخضراء الدمن» قيل: يا رسول الله، وماذا؟ قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء». والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم كره نكاح الفاسدة، وقال: «إن أعراق السوء تنزع أولادها». وتفسير حقيقته أن الريح تجمع الدمن، وهو البعر، فى البقعة من الأرض، ثم يركبه السافى، فإذا أصابه المطر نبت نبتا غضا ناعما يهتز، وتحته الأصل الخبيث، فيكون ظاهره حسنا وباطنه قبيحا فاسدا، ـ والدمن جمع دمنة وهى البعرة ـ قال زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن ا لثرى　　　وتبقى خزازات النفوس كما هيا

ـ يعنى أن الرجلين قد يظهران الصلح والمودة وينطويان على البغضاء والعداوة كما ينبت المرعى على الدمن ـ ومن الآثار الواردة عن العرب أيضا: إياك وعقيلة الملح، يكنون بذلك عن المرأة الحسناء فى منبت السوء، فإن عقيلة الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر، فهى حسنة وموضعها ملح. قال عبد الملك بن عمير: المرأة السوداء بنت السيد أحب إلىّ من الحسناء بنت الرجل الدنىء. وقيل: عليك بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فشرفها الغنى وأدبها الفقر. وفى حديث مسلم أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها الزوجة الصالحة». وفى الحديث أيضا: «انظر فى أى نصاب تضع ولدك، فإن العرق دساس». وقال الشاعر:

وكل إلى طبعه راجع　　　وإن صده الضد عن قصده

ترى الماء من بعد إسخانه　　　يعود سريعا إلى برده

وقال الراجز :

إن الأصـــول تجلب الـفـروعـــا والعــرق دســاس إذا أضـيـعــا

وقال آخر :

مــا طاب فـــرع أصله خـبـيـث ولازكـــا من مــجــده حــديث

وقال آخر :

وكـل من تمـايـلـت أطرافـــــه في فـيـئـهـا وكـرمت أسـلافـه

كــان خلـيــقــا بالعــلاء والكرم حـيث يرى في أصله حسن الشيم

وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ، كما قيل :

إذا طاب أصل المرء طابت فـروعـه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد

وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ليظهـر سـر الله فـى العكس والطرد

وقال بعضهم :

وإذا جــهلت من امـرئ أعـراقـه وقـديـمـه فـانظـر إلى مـايـصنع

وقال آخر

وكـل إنســـــان لـه جـــــوهـر ينبـــيك عن جـــوهره فـــعـله

لا تطلـب المشـــمـــوم من حنـظل فـــــإنـه يـغـلـبـــــه أصـلـه

وقال آخر

الخلـق مـــخــــتـلف جـــوهره ولقـل من تـزكـــو عنـاصـــره

ولقـل من تصـــفـــو ســـرائره ويـصـــح بـاطـنـه وظـــاهــره

وقال بعضهم فيمن ينبغى تخيرها للزواج شرعا :

صفات من يستحب الشرع خطبتها جلوتهـا لأولى الأبصـار مـختـصـرا

حــسـيـبـــة ذات دين زانه أدب هذى الصـفـات التى تحـلو لمن نظرا

بهـا الأحـاديث جـاءت وهي ثابتـة أحـاط علمـا بهـا من في العلوم قـرا

وفي حكمة داود عليه السلام: المرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل على الرجل الكبير، والمرأة الصالحة له كالتاج على رأس الأمير.

وقال بعضهم: إن المرأة السوء مثل شرك الصياد، لا ينجو منها إلا من رضى الله عنه. وعن الأصمعي[1] عن أبي عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: النساء ثلاثة: هينة لينة عفيفة، وأخرى وعاء للولد، وثالثة غل يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده. وقال بعضهم في زوجته:

لقد كنت محتـاجا إلى موت زوجتي ولكن قـرين السـوء بـاق معـمـر

فيـا ليتـها صارت إلى القبر عـاجلا وعـذبهـا فـيـه نكيـر ومنكر

وقال آخر:

خليلى لا والله مـا لدهر منصف وليس له يومـا على جـمـيل

يقـرب مني كل شـخص كـرهتـه ويبـعـد عني من اليـه أمـيل

ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك عند قربه منها تكون مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه.

وفي حكمة سليمان، عليه السلام: المرأة العاقلة تبني بيت زوجها، والسفيهة تهدمه. وقالت الحكماء: لم تنه امرأة عن شيء إلا فعلته، كما قال بعضهم:

إن النسـاء متى ينهـين عن خلق فـإنه واقـع لا بد مـفـعـول

وقال عمر رضى الله عنه: أكثروا لهن من قول «لا». فإن «نعم» يغريهن على المسألة. وقال حكيم: اعص النساء، وهواك، واصنع ما شئت.

قال بعضهم: العيش كله مقصور على الخريدة الصالحة، والزوجة الموافقة،

(١) عبد الملك الباهلي (٧٤٠ـ ٨٣١ م) لغوي، وراوية للشعر واللغة والنوادر، والأخبار، ومن آثاره الباقية: (خلق الإنسان) و (فحولة الشعراء) و (الأصمعيات).

والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لا تسكن النفس إلى عشرتها ولا تقر العيون برؤيتها .

وفى الحديث : «ثلاثة لا تمسهم النار ، المرأة المطيعة لزوجها ، والولد البار بوالديه ، والعبد القاضى حق الله وحق مولاه» .

وروى أيضا عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» .

وقال حكيم : الأنس فى ثلاثة : الزوجة الصالحة ، الصديق المصافى ، والولد البار . وقال بزرجمهر : ستة خصال تعدل نعيم الدنيا : الزوجة الموافقة ، والولد الصالح ، والطعام المرئ ، والكلام المحكم ، وكمال العقل ، وصحة البدن . وقال المأمون لجلسائه : من أطيب الناس عيشا؟ فقال بعضهم : من كانت له زوجة ترضيه ، وبيت يأويه ، ومال يكفيه ، وإخوان تواسيه . فقال المأمون : ويحتاج ـ مع ذلك ـ أن لا يعرفنا فنؤذيه ! ! (شعر) :

سعادة المرء أن يكون له ... بيت ثوى وكسوة حسنه
وعنده زوجة موافقة ... موصوفة بالجمال مؤتمنه
وجاءه قوته ببلدته ... ولم يفارق لقوته وطنه
وعاش تسعين فى رفاهية ... كان كمن عاش ألف ألف سنه

(الجمال الحسى والمعنوى)

ولما كان الجمال محبوبا ومعظما فى القلوب ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الجمال الباطن بجمال الظاهر ، كما قال لجرير بن عبد الله البجلى ـ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسميه «يوسف هذه الأمة» ـ قال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «أنت امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك» .

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم فى المرآة فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة والفعال. وقد نظم بعضهم هذا فقال:

يا حسن الوجه توق الخنا — لا تبدلن الزين باشين

ويا قبيح الوجه كن محسنا — لا تجمعن بين قبيحين

ومن أعظم أوصاف النساء الفصاحة ليتمكن بها من السؤال عن الدين. فمن فصاحة النساء ما روى عن أسماء بنت[1] يزيد الأنصارى، رضى الله عنها، أنها أتت للنبى، صلى الله عليه وسلم، وهو بين أصحابه، فقالت: يا رسول الله، انى وافدة إليك، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء، فآمنا بك، واتبعناك، وإنا معاشر النساء محصورات قواعد فى بيوتكم، مقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وأنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة، والجماعة، وعيادة المرضى، وشهادة الجنائز، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم، وغسلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشاركم فى الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبى، صلى الله عليه وسلم، إلى أصحابه بوجهه الكريم، ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذه عن أمر دينها»؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة يهدى إلى مثل هذا؟ فالتفت النبى، صلى الله عليه وسلم، إليها ثم قال: «انصرفى أيتها المرأة، واعلمى من خلفك أن كل شىء حسن تفعله إحداكن لزوجها، طلبا لمرضاته، وإبتغاءها موافقته، يعدل ذلك كله». فأدبرت المرأة وهى تهلل وتكبر استبشارا. أخرجه البيهقى.

قال الإمام أبو حنيفة النعمان، رحمه الله: «خدعتنى امرأة، وفقهتنى امرأة، وزهدتنى امرأة، أما الأولى فكنت مجتازا فأشارت إلى امرأة إلى شىء مطروح فى الطريق، فتوهمت أنها خرساء، ، وأن الشىء لها، فلما رفعته دفعته إليها، فقالت

---

(١) (توفيت سنة ٦٥٠ م) من أخطب نساء العرب، أسلمت، ووفدت على الرسول عليه السلام فى السنة الأولى من الهجرة، وحضرت موقعة اليرموك وشاركت فيها بالتمريض والقتال.

لى : احفظه حتى تسلمه لصاحبه ، أما الثانية فإن امرأة سألتنى عن مسألة فى الحيض فلم أعرفها ، فقالت قولا تعلمت الفقه من أجله ، وأما الثالثة فإنى مررت ببعض الطرقات فقالت امرأة : هذا الذى يصلى الفجر بوضوء العشاء ، فتعمدت ذلك حتى صار دأبى» . انتهى .

ويروى أن امرأة دخلت على مسجد أبى حنيفة ، فأخرجت تفاحة ، أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر ، فوضعتها بين يديه ، ولم تتكلم ، فأخذها وشقها نصفين ، فقامت المرأة وخرجت ، فلم يعلم أصحابه مرادها ، فسألوه عن ذلك ، فقال : إنها أرادت أنها ترى فى أيام حمرة ، وتارة ترى صفرة ، كحمرة التفاحة وصفرتها ، فشققتها وأريتها باطنها ، وأردت أن لا تطهرين حتى ترى البياض الخالص ، ففهمت ، وخرجت . انتهى .

وقال الشيخ الأكبر[1] فى حديث : «استفت قلبك وإن فتاك المفتون» . إن فى هذا الحديث لمقام المتورعين ، فإنهم إذا بحثوا عنه عرفوا به كما اشتهرت أخت بشر الحافى لما سألت الإمام أحمد عن الغزل على ضوء مشاعل الولاة إذا مرت فى الليل ، وقال لها الإمام أحمد : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فيها ، ولو علمت معنى حديث : « استفت قلبك» ما سألت عن ذلك ، فكأنها ما سألت عن ذلك حتى زاد بها ، فكانت تدع ذلك الغزل من غير سؤال ، وتستر مقامها ، ولا يثنى عليها بذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما أعطانا ذلك الميزان فى قلوبنا ليكون مقامنا مستورا على الناس ، خالصا مخلصا ، لا يعلمه إلا الله ، اللهم إلا أن يكون أحدنا مقتدى به فله أن يظهر ورعه ليتبع . انتهى . يعنى أن هذه المرأة الصالحة تعلم أن البر ما يطمئن له القلب ، وأن الأثم ما حاك فى الصدر ، وأن الغزل على ضوء مشاعل الولاة فيه الشبهة ، وإنما سألت عن ذلك ليشتهر عنها ذلك ، ويقتدى بها

---

(١) محى الدين بن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠ م) من أشهر الفلاسفة المتصوفين ، والعلم على نظرية وحدة الوجود فى الفكر الفلسفى الصوفى عند المسلمين ، وهو أندلسى الأصل ، رحل إلى المشرق ، وتوفى بدمشق ، ويعد كتابه (فصوص الحكم) الأثر الذى صاغ فيه نظرية وحدة الوجود ، كما تعد موسوعته (الفتوحات المكية) البحر الزاخر بفكر الصوفية وإشاراتهم ومصطلحاتهم .

غيرها من أهل الصلاح، من رجال ونساء. وهذا أيضا يفهم منه شيآن: الأول: أنها كانت تشتغل بالغزل وتحترف به. الثاني: أنها كانت تجتهد أن يكون كسبها حلالا طيبا. انتهى.

ومن الفصاحة والفطنة أيضا ما ذكر عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فيما حكى عنها، أنه لما فتح سعد بن أبى وقاص القادسية قيل له: إن الحرقة بنت النعمان ابن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها فى مثل زيها، فلما وقفن بين يديه قال: أيتكن الحرقة بنت النعمان؟ قالت أنا، قال: أنت؟ قالت نعم، كأن الدنيا لا تدوم على حال، فإنها سريعة الانتقال، تنتقل بأهلها انتقالا، وتعقبهم بعد حال حالا، إنا كنا ملوك هذا المصر، يجبى إلينا خراجه، حتى تشتت الأمر، وصاح بنا الدهر، فشق عصانا، وشتت ملأنا، وكذلك الدهر يعثر بالأحرار، ويكب على ذوى الأخطار. فقال لها سعد: خبرينى عن حالكم، كيف كان؟ قالت: أطيل، أم أقصر؟ فقال: بل أقصرى، فقالت: أمسينا وليس أحد من العرب إلا وهو يرغب إلينا أو يرهب منا، ثم أنشأت تقول شعرا:

فبينا نسوس المال والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

فاستحسن سعد كلامها، وأكثر إكرامها، فلما أرادت الانصراف قال لها: سلى حاجتك، قالت: خرابة أعمرها، وأعيش بانتفاعها، فقال لعماله: اطلبوا فى الولاية قرية خرابا، فطلبوا فلم توجد، فقال سعد: إنا لم نجد فى الولاية خرابة، فاختارى معمورة، فقالت الحمدلله على أياديه، حيث وفق آبائى للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم، وسلموها إلى غيرهم معمورة، فاجتهد أيها الأمير فى تسليمها إلى غيرك أن تكون عامرة كما أخذتها، وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق، وإياك أن تسعى فى خرابها، وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورا، ولا تمتد عينى إلى زهرة الدنيا، ثم دعت له فقالت: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدا، وشكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا نالتك يد استغنت بعد فقر، ولا أزال الله عن أقوام كرام نعمة إلا وجعلك سببا لردها. قال

الراوى لهذه الحكاية: فالتفت إلى سعد وقال: يا أبا ثور، إحفظ هذه الكلمات حتى تخبر بهن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: فلما قدمت المدينة أخبرت عمر بشأنها، فقال: صدقت، ما من قوم إلا والدهر يملى لهم بيوم يسرهم وقال:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وكان «شن» من دهاة العرب، وكان ألزم نفسه أن لا يتزوج إلا بامرأة تلائمه، فكان يجوب البلاد فى ارتياد طلبته، فصاحبه رجل فى بعض أسفاره، فلما أخذ منهما السير قال له شن: أتحملنى أم أحملك؟ فقال له: هل يحمل الراكب الراكب؟ فأمسك، وسار حتى أتيا زرعا، فقال له شن: أترى هذا الزرع، آكل أم لا؟ فقال: أما تراه فى سنبله؟ فأمسك، إلى أن استقبلتهما جنازة، فقال له: أترى صاحبها حيا أم لا؟ فقال له صاحبه: أتراهم حملوا إلى القبور حيا؟ ثم أنهما وصلا إلى قرية الرجل، فسار به إلى منزله، وكان له بنت تسمى طبقة، فأخذ يطرفها بحديث رفيقه، فقالت له: ما نطق إلا بالصواب، أما قوله: أتحملنى أم أحملك؟ فإنه أراد: تحدثنى أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث وأما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فإنه أراد: هل استسلف ربه ثمنه، وأما استفهامه عن حياة صاحب الجنازة، فإنه أراد به: أخلف عقبا يحيا به ذكره أم لا، فلما خرج إلى شن حدثه بتأويل ابنته كلامه، فخطبها إليه، فزوجه إياها، وسار بها إلى قومه، فلما خبروا ما فيها من الدهاء والفطنة قالوا: «وافق شن طبقه». فصارت مثلا. وهذا أحد الأقوال فى تفسير هذا المثل، وقد قيل فى تفسيره ما هو أشهر من هذا، و هو مردود فى كتاب (مجمع الأمثال) للميدانى[1]. انتهى.

وحكى بعضهم: أن عدة فوارس وجدوا رجلا فى بلاد الحرب، معه جارية لم ير مثلها شبابا وجمالا، فصاحوا: خل عنها، ومعه قوس له، فرمى بعضهم فجرحه،

(١) أحمد بن محمد (المتوفى سنة ١١٢٤ م) أديب ولغوى، خلف عددا من المؤلفات الأدبية واللغوية والشروح على القصائد العربية الشهيرة. منها (الأنموذج) و (والنحو الميدانى) و (المصادر) و (نزهة الطرف فى علم الصرف) و (شرح المفضليات).. الخ.. الخ..

فهابوا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمى فانقطع وتره، فأسلم الجارية، واستعصم بجبل كان قريبا منه، فابتدروا الجارية، وفى أذنها قرط فيه درة، فانتزعه بعضهم من أذنها، فقالت: وما قدر هذه؟ فكيف لو رأيتم درتين فى قلنسوته؟ فأتبعوه، فقال: ما لكم، ألم أدع لكم بغيتكم؟ قالوا: الق ما فى قلنسوتك، فرفع قلنسوته فإذا فيها وتر القوس، قد كان أعده وأنسيه من الدهش، فلما رآه عقد فى قوسه، فولى القوم ليس لهم إلا النجاة بأنفسهم، وخلوا عن الجارية. كما قيل: فى قوسه:

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ... ولكن بأنواع الخديعة والمكر

وقال حسن بن على بن الحسين لامرأته عائشة بنت طلحة: أمرك بيدك، يعنى طلاقك بيدك، فقالت له: قد كان بيدك عشرين سنة فأحسنت حفظه، فلن أضيعه إذ صار فى يدى ساعة واحدة، وقد صرفته إليك، فأعجبه ذلك منها، وأمسكها، وطلق رجل امرأته، فلما أرادت الارتحال، قال: اسمعى، وليسمع من حضر، إنى والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يدخلنى عنك ملة،[1] ولكن القضاء كان غالبا، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيرا، فما استقليت خيرك، ولا شكوت ضيرك، ولا تمنيت غيرك. قيل: أراد حاتم الطائى سفرا، فدخل على أمه يودعها، فقالت له: يا بنى، اعتصم بالتقوى تكن فوق الذى أنت دونه، وكن ممن إذا نزلت به النوائب قام إليها ثم قام بها، واجعل مالك وقاية لعرضك، وقولك دون فعلك، امض مصاحبا فإلى الله أرغب فى حياطتك، وإياه أسأل أن يحيى بك الشرف ويظهر بك المروءة ويجعل لك من كل حسن شاهد ومن كل جميل رائد. انتهى.

وقال على، كرم الله وجهه: من سعادة المرء خمسة أشياء: أن تكون زوجته موافقة، وأولاده أبرارا، وإخوانه أتقياء، وجيرانه صالحين، ورزقه فى بلده. وقد نظم بعضهم هذا:

سعادة المرء فى خمس قد اجتمعت ... فلاح جيرانه والبر فى ولده

وزوجة حسنت أخلاقها وكذا ... خل أمين ورزق المرء فى بلده

---

(١) أى ملل وفتور حب.

قال بعضهم : فى التزويج تسعة فوائد : حفظ المسكن، ونظافة المجلس، وطيب المأكل، والأنس بمذاكرة النساء، والمباشرة، والولد، وحفظ العين عن المحارم، والتعهد عند الأمراض، وزيادة القرابة بوصلتهن .

وليس نفع المرأة مقصورا فى راحة زوجها، بل هى نافعة لأرحامها وغيرهم فيما يخص مكارم الأخلاق، كما يحكى عن عمرو بن العاص أنه دخل على معاوية، رضى الله عنهما، وعنده ابنته عائشة، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال : هذه تفاحة القلب، قال : انبذها عنك، فإنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن، قال : لاتقل يا عمرو، فوالله ما لازم المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان إلا هن . وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى» . قال بعضهم :

أحب البنات فحب البنا	**ت فرض على كل نفس كريمه**
لأن شعيبا لأجل البنا	**ت أخدمه الله موسى كليمه**

وقال الشاعر :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم	**وفيهن، لا تكذب، نساء صوالح**
وفيهن والأيام تعثر بالفتى	**خوادم لا يمللنه ونوائح**

وقال بعضهم فى صديق رزق بنتا فسخطها :

قالوا له ماذا رزقنا	**فأصاخ ثمت قال: بنتا**
وأجل من ولد النسا	**أبو البنات فلم جزعتا**
إن الذين تود من	**بين الخلائق ما أستطعتا**
قالوا بفضل البنت ما	**كبتوا به الأعداء كبتا**

وهنأ بعضهم صديقا له ببنت فقال : أهلا وسهلا بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والأولاد الأطهار، المبشرة بإخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون . قال الشاعر :

فلو كان النساء كمثل هذى　　لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب　　ولا التذكير فخر للهلال

والله يعرفك يا مولاى البركة فى مطلعها، والسعادة بموقعها، فاذرع اغتباطا، واستأنف نشاطا، فإن الدنيا مؤنثة، والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة، وفيها البرية، ومنها كثرة الذرية، والسماء مؤنثة، وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة، وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة، ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الكلام، والجنة مؤنثة، وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون، فهنيئا هنيئا لك، وأوزعك الله شكر ما أسداه إليك.

فقد استبان مما سبق كله أنه سبحانه وتعالى خلق الزوجين، الذكر والأنثى، وخلق النطفة فى الصلب وهيأ لها عروقا ومجارى، وجعل له الرحم قرارا ومستودعا، وسلط الشهوة على الزوجين لتعريف ما أعدت له وهو التوصل إلى الولد، تحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة، وفى التوصل إلى الولد قربه من وجوه **الأول**: حب الله تعالى فى السعى لتحصيل الولد لبقاء جنس الأولاد، ا **لثانى**: طلب محبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى تكثير من يباهى به الأنبياء، **الثالث**: طلب التبرك بدعاءالولد الصالح بعده، **الرابع**: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير قبله.

أما الوجه الأول وهو تحصيل الولد لبقاء جنس الإنسان فهو أدق الوجوه وأقواها عند ذوى البصائر فى عجائب صنع الله تعالى.

وبيان ذلك أن السيد إذا أسلم إلى عبده البذر وآلة الحرث، وهيأ له الأرض للحراثة، وكان العبد قادرا عليها، فوكل به من يتقاضاه، فتكاسل، وعطل آلة الحرث، وترك البذر ضائعا حتى فسد، ودفع الموكل به عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاللعقوبة من سيده، فهذه الأفعال والآلات التى اقتضت الحكمة الإلهية فيها ترتيب المسببات على الأسباب تشهد بلسان حال فصيح، وتنادى أولى الألباب

بالتلميح والتصريح، لتعرفهم ما أعدت له، فكل ممتنع من النكاح، وسالك سلوك الرهبانية، فهو معرض عن الحراثة، مضيع للبذر لما خلق الله تعالى من الآلات المعدة لذلك، وأما المتزوج فهو ساع فى إتمام ما أحب الله إتمامه، بخلاف غيره المترهبن فهو معطل.

ومن الغريب أن مدينة من مدن «مورة» ببلاد اليونان تسمى «أسبرطة» كانوا يحتقرون الرجل الأعزب، ويستخفون به، حتى إنه اتفق أن شابا من جند اليونان استحقر أمير جنده لكونه أعزب، ولم يرض أن يقف أمامه ولا يعظمه، فسأله أمير الجند عن سبب ذلك فقال له: أنه ليس لك أولاد تكافئنى فى مقابلة تعظيمى لك بوقوفهم أمامى إذا تقلدت برياسة الجند!، وقال أعرابى يمدح قبيلة منجبة:

كم قد ولدتم من رئيس قسور[1] ... دامى الأظافر فى الخميس الممطر

سدلت أنامله بقائم مرهف ... وبنشر فائدة وذروة منبر

ما أن يريد إذا الرماح تشاجرت ... درعا سوى سربال طيب العنصر

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ... ويقيم هامته مقام المغفر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا ... فعقرت ركن المجد إن لم تعقر

وإذا تأمل شخص ضيف مقبل ... متسربل سربال محل أغبر

أو ما إلى الكوماء[2] هذا طارق ... نحرتنى الأعداء إن لم ينحر

(اشتراط العدل عند تعدد الزوجات)

ولمحبة الله تعالى فى بقاء النفوس أمر بالزواج، وحث عليه، وأباح التعدد، لطفا منه تبارك وتعالى على خلقه خشية أن تتجاوز بهم الرغبة، لكن بشرط العدل بين الزوجات، فقال: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ (النساء: ٣)، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه

(١) قسورة: من أسماء الأسد.

(٢) الكوماء: الناقة الضخمة السنام. ومذكرها: أكوم، وجمعها: كوم وأكوام.

مائل». وفى رواية: «ساقط». وقال الحكماء: من الحزم أن لا يغتر الرجل بما تظهر له المرأة من عدم غيرتها، والرضى بأن يتزوج عليها، وكان الشيخ عبد العزيز الدرينى - أحد الصوفية - يقول: إياك أن تتزوج على امرأتك، أو تتسرى عليها،[1] إلا إن وطنت نفسك على نكد الدهر. ولما وقع هذا الشيخ فيما كان يحذر الناس منه، وتزوج على امرأته أنشد:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى	وقد حاز البلا زوج اثنتين
فقلت أعيش بينهما خروفا	ينعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما	عذابا دائما ببليتين
رضى هذى يحرك سخط هذى	فلا أخلو من إحدى السخطتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى	نقار دائم فى الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا	من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا فإن لم تستطعه	فواحدة تلاقى عسكرين

قال بعضهم: صحبت الحسن البصرى ثلاثين سنة ما سمعته خاض فى شىء مما تخوض فيه الناس من أمر الدنيا، حتى أتته امرأة يوما، ناهيك بها من امرأة شبابا وجمالا، فجلست بين يديه، وقالت: يا شيخ، أيحل للرجل أن يتزوج على امرأته وهى شابة جميلة ولود؟ قال: نعم، أحل الله له أربعا، فكشفت عن وجهها لم ير مثله حسنا، وقالت: وعلى مثلى؟ قال: نعم، قالت: سبحان الله بعيشك يا أبا سعيد، لا تفت الرجال بهذا، ثم قامت منصرفة، وأتبعها الحسن بصره، ثم قال: ما قال: ما ضر امرأ كانت عنده هذه ما فاته من دنياه. انتهى.

وقال الحسن، رضى الله تعالى عنه: لا تدعو نساءكم يزاحمن العلوج فى الأسواق، قبح الله تعالى من لا يغار. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «الغيرة من الإيمان» - (بفتح الغين المعجمة) - وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنى

---

(١) التسرى هو اتخاذ السرارى، أى الجوارى.

لغيور، وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب». والطريق المغنية عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال، وهى لا تخرج إلى السوق، والغيرة فى الريبة محمودة، يحبها الله تعالى، وفى غيرها مذمومة ويبغضها الله تعالى، وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يسدون الكوات التى فى الجدران لئلا يطلع منها النساء على الرجال.

وكان شريح بن الحارث الكندى القاضى، ولى الكوفة لعمر فمن بعده، وعاش مائة سنة، وولى القضاء خمسا وسبعين سنة منها، واستعفى من القضاء قبل موته بعام فأعفاه الحجاج، وكان أعلم الناس بالقضاء، وهو أحد السادات الطلس - أى الذين لا شعر فى وجوههم - وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد، والأحنف بن قيس، وكان للقاضى شريح مزاح، فمنه أنه دخل عليه عدى بن أرطاه، فقال: أين أنت أصلحك الله؟ فقال له: أنا بينك وبين الحائط! قال: أسمع منى ما أقول، قال: قل أسمع، قال: إنى رجل من الشام ، قال: مكان سحيق، قال: وتزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط لها، أو قال: المؤمنون عند شروطهم، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال على ابن أمك! قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن اخت خالك! انتهى.

وتزوج شريح امرأة يقال لها زينب فنقم عليها، فضربها، ثم ندم، وأنشد:

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يمينى يوم أضرب زينبا

أأضربها من غير ذنب أتت به ... فما العدل فى ضرب لمن ليس مذنبا

وزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم تبصر العين كوكبا

ومع إباحة تعدد الزوجات، وجواز التسرى شرعا، فإنه منهى عن كثرة المباشرة، إلا أن منافع مباشرة الرجل زوجته كثيرة، منها: إنه إذا كان للزوج هم زال همه عنه بذلك، وإذا كان قلبه متعلقا بالحرام وأتى زوجته ذهب عنه التعلق، وبذلك أيضا يزول الوسواس عن القلب، وقد يؤدى ترك المباشرة إلى الصرع والماليخوليا

واختلاط الذهن وكثرة التخيلات، وقد يحدث عن ترك الوقاع، مع شدة الاحتياج إليه، ما يعمى عين القلب، ويسد باب الفكر، ويسيء التدبير، فاستعماله يبرئ من هذه الأمراض، وكثرته فى الصيف والخريف أعظم ضررا. وفى الشتاء والربيع أقل ضررا.

وقيل خمسة تقتل البدن: دخول الحمام على الشبع، وأكل المالح، والمواقعة على امتلاء، ومواقعة العجوز، والمريضة المهوكة. وقيل: إن مواقعة العجوز تأخذ القوة، وتسقم البدن، وتعجل الشيب، وتجلب الهرم، وتورث الموت فجأة، وقالوا: إن آخر عمر الرجل خير من أوله، يكثر حلمه، ويعظم علمه، وتحمد سريرته، وآخر عمر المرأة شر من أوله: يذهب جمالها، ويشأم لسانها، ويعقم رحمها، ويسوء خلقها. قال بعض الحكماء: أطيب المواصلة يحتاج إلى خمس: أن تكون المرأة صغيرة السن، مليحة الخد، جميلة القد، بارزة النهد، كريمة الجد، فهذه هى التى تزيد القوة فى البدن، وتذهب الهم والغم والحزن.

ومن مضاره أنه يضعف البدن والبصر، ويحدث وجع الظهر والرأس لمن طبيعته البرودة أو اليبوسة، وكثرته تضعف الكلى، وتوبس الدماغ، وتضر بالروح، وقد قيل فى ذلك:

ثلاث هن مهلكة الأنام ... وداعية الصحيح إلى السقام

دوام مدامة ودوام وطء ... وإدخال الطعام على الطعام

وسئل مالك عنه فقال: هو نور عينيك، ومخ ساقيك، فأقلل منه أو أكثر. وقالوا: من قل وقاعه فهو أصح بدنا، وأنقى جلدا، و أطول عمرا. وتعتبرون ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعمارا من البغال، ولا أقصر أعمارا من العصافير وهى أكثر سفادا، والوقاع حال خلو المعدة أقل ضررا وحال امتلائها أكثر ضررا، ويظهر ذلك فى الولد.

وقد أمر صلى الله عليه وسلم المباشر عند مباشرته أن يحضر فى قلبه إرادة

صلاح المولود، ويدعو الله بذلك، قال الغزالى فى كتاب(الأربعين) عرف بالتجربة أن المباشر حال مباشرته لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود إلى ذلك اللون الذى غلب عليه، قال: وإن الجنين وقت ما يتحرك فى البطن تميل صورته إلى الحسن إن كانت الأم مشاهدة تلك الحالة بصورة حسنة، بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها. قال الغزالى، أيضا: وإن الرجل إذا غشيها وهى مذعورة فأكرهها أذكرت فجاءت به لا يطاق، ثم إن الولد ربما أشبه أخواله، والأكثر أن يشبه أباه أو أمه. (شعر)

فانظر إلى الولدين من أدناهما شبها بوالده فذاك الماجد

وروى أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ (الانفطار: ٨)، أى فى أى شبه من أب وأم أو خال أو عم أو غيرهم. انتهى. قال بعض العرب يتمدح بأصالة الخال:

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

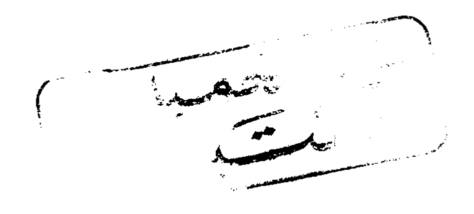
وأما قول بعض العرب:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فإنما المراد به أنهم ينسبون إلى قبائل آبائهم عند شن الغارات والحروب، وإلاّ فالقرابة موجودة فيهم، ولا تنقطع أنسابهم إلى آباء أمهاتهم، أو يقال إن قائل هذا البيت يرى، كغيره من العرب، أن الأنساب إنما تعتبر من جهة الأب، فبها يتعارفون، وبها يتفاخرون ولا يرون للبطون نسبا. على أنهم ليسوا وحدهم مختصين بهذا المذهب، بل اختلفت بعد ظهور الإسلام المذاهب الأربعة فى ذلك، فبعضهم لا يرى إثبات الشرف من جهة الأم، وبعضهم يرى خلافه، وألف فى كلا المذهبين كتب، ولو نظرنا إلى أن نسبة الولد لأمه هى أنفى له من الريبة، بخلاف الأب، كما يروى: أن الإنسان يدعى يوم القيامة بفلان ابن فلانة، لما قدرنا أن نقول إن نسبته إلى أبيه أرجح، فضلا عن التساوى بين النسبتين، وإنما القصد من ترجيح

نسبته إلى أبيه إنما هو ثبوت عمود النسب، والتعارف بالآباء أعلى من التعارف بالأمهات.

ويقال إن أبناء السرارى، ولو أفلحوا، لا يكونون مثل أبناء الحرائر، ولنذكر هنا ما يتعلق بالسرارى وأبنائهن.





الفصل الثانى

(فى التسرى)

الأصل فى التسرى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(النساء : ٣) . ونقل بعضهم عن شيخ الإسلام شمس الأئمة الكردى من علماء الحنفية فى كتابه (الفتاوى البزازية) أنه يستحب التسرى ، عملا بالسنة ، ومخالفة لأهل الكتاب ، فإنهم لا يرون ذلك . ويقال : كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم السادة الغر ، وهم على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، المعروف بزين العابدين ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا ، وما منهم إلا ابن سرية ، فرغب الناس حينئذ فى السرارى ، وكان اتخاذهم على قلة ، فإن أم زين العابدين «سلافة» بنت يزدجرد ، آخر ملوك الفرس ، وأم سالم بن عبدالله بن عمر وأم القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهم ، أختان «لسلافة» ، فالثلاثة أبناء خالة ، وسبب ذلك أن الصحابة لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر كان فيهم ثلاث بنات لملك الفرس ، وأمر عمر ببيعهن ، فقال له على : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن ، فقال : كيف الطريق إلى بيعهن : يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن ، فقومن ، وأخذهن علىّ ، رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولدوهن النجباء .

وينقل عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أنه قال : ليس قوم أكيس من أبناء

السرارى، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم. وقيل: الجارية الوسيمة من النعم الجسيمة. وقيل: لا تتخذ السرية إلا سرية، أى ماجدة، قال الشاعر:

سـقـيـا لـدهر سـرورى والـعـيـش بين الســرارى
إذ طير سـعـدى جـوار مع امـتـلاك الجـوارى
أيام عـيـشى كـعـودى وقـد ملكت اختـيـارى
أجـرى بغـيـر عـذار أجنى بغـيـر اعـتـذار

وكل الخلفاء من بنى العباس أبناء سرارى، وليس فيهم من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح، والمخلوع،[1] والمنصور، وأكثرهم من النجابة بمكانة، ولا شك أن السرارى البيض فى الجمال بموقع، إلا أن نساء العرب ربات وفاء أكثر منهن، قال الشاعر:

لم تترك الترك فى شمس ولا قمر حسنا لغيرهم يعزى وينتسب
لكنهم لم يفوا إن عاهدوك على ود وما هكذا فى فعلها العرب

وقال بعض الحكماء: من أراد النساء والذرية فعليه بالأصيلات من الحرائر، ومن أراد الفراش وطيب المعاش فلا يعدل عن الحبشيات. انتهى.

ولعل هذا بالنسبة لأمزجة أشراف مكة والمدينة وغيرهما من البلاد الحجازية، وقال بعضهم فى حبشية ذات شروط[2] طوال عراض:

سـمـراء تسـبى الورى بشـرط كـخـنجـر هـم بالرقـيـب
أقـامـهـا عـشـقـهـا طريقـا تسـيـر فـيـه إلى القلوب

وقال آخر:

لـى من الحـبـش غـادة وصـفـهـا لـيس يـدرك

---

(١) أى الأمين بن الرشيد.

(٢) أى علامات أحدثها الكى بها فى الصغر، للتجمل، على عادة بعض قبائل السودان والحبشة.

ملك القلب حبها وكذا الشرط أملك

وقيل :

وفتاة رنت بحسن قوام وعيون مفترات مراض

أسرتنى وأطلقت دمع عينى بشهود قد أثبتت عند قاضى

بعد دعوى على أنى عبد ورقيق بحكم عقد التراضى

فتوقفت كى يطول التداعى بيننا والكلام عند القاضى

ثم عند الثبوت والحكم بالمو جب قالت يا قاضى حكمى ماضى

وشروطى فى أصل عقد مبيعى فاسألوه إذ ذاك هل كان راضى

قلت هات الشروط انظر فيها فأرتنى بسرعة وانتهاض

فلثمت الشروط ألفا فقالت سجل الحكم واقض ما أنت قاضى

ولا يخفى ما فى الشروط من التورية. ومن قبيل التورية بالشرط قول الصلاح :

بروحى خده المحمر أضحت عليه شامة شرط المحبة

كأن الحسن يعشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

وذكر النساء عند معاوية، رضى الله عنه، فقال: من أراد النجابة فعليه بالمشرق، ومن أراد الخدمة فعليه بالمغرب، ومن أراد اللذاذة فعليه بالبربر، وقيل له: والمولدات؟ قال إذا شبعت إحداهن فليس همتها إلا الشوق.

وعلى كل حال ينبغى أن يجتنب الزنجيات، وعليهن يحمل ذم السود وأبنائهن، كما قال الشاعر :

فى الهند طير ناطق سبحان من قد ألهمه

يقول فى تسبيحه ابن الأمة ما ألأمه

قال بعضهم: إن نساء الزنج دون غيرهن فى جودة الذهن، ورقة الطبع،

والبشرة، وإذا وجدت منهن الحسناء الناعمة البدن فلا بأس بها، وعلى مثلها يحمل قول الشاعر :

رب سوداء وهي بيضاء معنى　　　نافس المسك عندها الكافور

مثل حب العيون يحسبه الناس　　　سوادا وإنما هو نور

وقال آخر في سوداء :

علقتها حمساء[1] مصقولة　　　سواد قلبي صفة فيها

ما انكسف البدر على تمه　　　ونوره إلا ليحكيها

لأجلها الأزمان أوقاتها　　　مؤرخات بلياليها

وإنما كان التاريخ بالليالي دون الأيام لأن الهلال إنما يبدو ليلا، وهذا التخيل في مدح السواد كالتخيل في مدح الخال في قول الشاعر :

لك خال كأن خطته　　　بنقط تمله آمالي

فيه معنى من البدور ولكن　　　نفضت صبغها عليه الليالي

قال هشام بن عبد الملك لزيد بن علي، رضي الله تعالى عنه، في كلام خاطبه به : بلغني أنك تريد الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة، فقال زيد : إن الأمهات لا تضعن من الأبناء شيئا، وليس أحد أولى بالله ولا أرفع منزلة عنده من نبي بعثه، وقد كان إسماعيل بن إبراهيم من سرية، وأخوه إسحاق من سارة. فاختاره الله وأخرج من صلبه سيد البشر، وما على أحد جده رسول الله، عليه الصلاة والسلام، أن تكون أمه من كانت. فقال هشام : لقد أعطيت جدالا على رغمي، أي أوقعت نفسي في جدال من انتصر علي.

وفي قصة أبي العباس السفاح وخالد بن صفوان ما يفيد بيان أنواع السراري، وصفات الحسن، وذلك أنه كان عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي، وكان قد أحبها حبا شديدا، ووقعت في قلبه موقعا لطيفا،

---

(١) الحمساء : الشديدة.

فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة، فوفى لها بذلك، فخلا به خالد بن صفوان يوما فقال: يا أمير المؤمنين، فكرت فى أمرك، وسعة ملكك، إنك قد ملكت نفسك امرأة، واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وحرمت نفسك التلذذ بالسرارى، واستظراف الجوارى، ومعرفة اختلاف حالاتهن، وأجناس التمتع بما يشتهى منهن، فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، والبضة البيضاء، والعقيقة الأدماء، والذهبية السمراء، والبربرية العجزاء،(١) والمولدات المدنيات اللاتى يفتن بمحاورتهن، ويجذبن بحلاوتهن، ولو رأيت، يا أمير المؤمنين، السراء واللعساء(٢) من مولدات البصرة والكوفة، وذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والأوساط المختصرة، والثدى والنهود المحققة (٣) وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنا، ومنظرا حسنا، وأين أنت، يا أمير المؤمنين، من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن من الحياء والخفر والدلال والتعطر. وأقبل خالد يحتد فى الوصف ويكثر فى الإطناب، بحلاوة لفظه، وجودة كلامه، فلما فرغ قال له العباس: ويحك يا خالد! والله ما سلك شىء سمعى قط أحسن مما سمعته منك، فأعده علىَّ، فأعاده عليه، وزاد فيه، ثم انصرف خالد، وبقى أبو العباس مفكرا مغموما، فدخلت عليه أم سلمة، وكانت تبره كثيرا، وتمعن مسرته وموافقته فى جميع ما أراد، فقالت له: مالى أراك مغموما يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له؟ قال: لم يكن شىء من ذلك، قالت: فما قصتك؟ فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، قالت: فما قلت له؟ قال سبحان الله! ماذا أقول لمن ينصحنى؟ فخرجت من عنده، وأرسلت إلى خالد عبيدا لها وأمرتهم بالتنكيل به. قال خالد: ولما انصرفت إلى منزلى مسرورا بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين لكلامى، وإعجابه بما ألقيت له، وأنا لا أشك فى الصلة، لم ألبث أن جاء أولئك العبيد، فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة، فوقفوا علىَّ، وسألوا عنى، فعرفتهم بنفسى، فأهوى إلى أحدهم بعمود كان فى يده، فبادرت إلى الدار، وأغلقت الباب، ومكثت لا أخرج من منزلى، وطلبنى أمير المؤمنين طلبا شديدا،

---

(١) عظيمة العجز، بفتح العين وضم الجيم.

(٢) هى التى فى شفاهها سواد مستحسن.

(٣) أى التى تشبه «الحق»، بضم الحاء: العلبة المستديرة.

فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا على فقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فقلت فى نفسى لم أر دم شيخ أضيع من دمى ، وركبت ، فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل ، فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسا ، فأومأ إلىَّ بالجلوس ، فثاب إلىّ عقلى ، فجلست ، وفى المجلس باب عليه ستور قد أرخيت ، وخلفه حركة ، قال لى : يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين ، قال : إنك وصفت لى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق سمعى قط كلام أحسن منه ، فأعده علىّ ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة من الضرر ، وإن أحدا عنده امرأتان إلا كان فى ضرر وتنغيص! قال : ويحك! لم يكن هذا من حديثك ، قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك : أن الثلاث من النساء كأثافى القدر يغلى عليها أبدا ، إن الأربع شر مجموع لصاحبه ، يهرمنه ويسقمنه ويضعفنه ، فقال : برئت من قرابتى من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن كنت سمعت منك شيئا من هذا قط! قال خالد : بلى ، يا أمير المؤمنين ، وعرفتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأن عندك ريحانة الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى الإماء والسرارى ، قال : ويحك ، أتكذبنى وتكذبنى! قلت : أفتقتلنى يا أمير المؤمنين؟ قال : فسمعت ضحكا من وراء الستر ، وقائلا يقول : صدقت والله يا عماه ، بهذا حدثته ولكنه بدل وغير ، ونطق عن لسانك بما لم تنطق به ، قال خالد : فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان فى أمرهما ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ومعهم المال ونحو ثياب ، فقالوا لى : تقول لك أم سلمة ، إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا . انتهى .

وعن عبد الرحمن بن محمد ، ابن أخ الأصمعى ، قال : قال عمى للرشيد فى بعض حديثه : يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن رجلا من العرب طلق فى يوم خمس نسوة ، قال : كيف ذلك؟ وإنما يجوز للرجل الملك على أربعة ، قال : يا أمير المؤمنين ، كان متزوجا بأربعة ، فدخل عليهن يوما فوجدهن متنازعات ، فقال : إلى متى هذا التنازع؟ فقال : لامرأة منهن : إذهبى فأنت طالق ، فقالت له ، صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح ، قال لها : وأنت طالق أيضا ، فقالت له الثالثة : قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين ، فقال : وأنت

أيها المعددة أياديهما طالق أيضا، قالت الرابعة، وكانت هلالية: ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق؟ فقال لها: وأنت طالق أيضا، فسمعت جارة له، وأشرفت عليه، وقالت: والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة؟ قال: وأنت أيتها المتكلمة لما لا يعنيك طالق إن أجازني بعلك، فأجابه بعلها هيه، فقد أجزتك! وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا خير في النساء، ولاصبر عنهن، يغلبن كريما، ويغلبهن لئيم». فأحب أن أكون كريما مغلوبا ولا أحب أن أكون لئيما غالبا.

(الغناء.. والزوجة.. والحب)

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: حدثني أبو السمراء الشاعر. قال: حججت فبدأت بالمدينة، فبينما أنا منصرف من قبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ أنا بامرأة بفناء المسجد ممن يبيع طرائف المدينة، فإذا هي في ناحية وحدها، وقد قام عنها من كان قعد إليها، فإذا هي ترجع[1] بصوت، فالتفت فرأيتها، فوقفت، فقالت: هل من حاجة؟ قلت تزيدين في السماع، قالت وأنت قائم فلو قعدت، فقعدت كالخجل، فقالت: فكيف علمك بالغناء؟ قلت: علم لا أحمده، قالت: فعلام أنفخ في غير نار! ما منعك من معرفته؟ فوالله إنه لسحوري وفطوري، فقلت: وكيف وضعته بهذا الموضع العالي؟ قالت: وهل له موضع يوضع فيه من رفعته وعلوه دون السماء الشاهقة؟ قلت: فهؤلاء النسوة اللاتي أرى في مثل حالك؟ قالت: فيهن وفيهن، ولي قصة قلت: وما هي؟ قالت: كنت وأنا شابة في مثل هذه الخلقةالتي ترى، من الأدمة وعدم الحسن، وكان زوجي شابا وضيئا، وكان لا يقبل عليَّ حتى أطيبه وأتحفه، فأضر ذلك بي، وكانت امرأة قصار[2] قد علقت به فزاد ذلك في حسرتي، فشكوت ذلك إلى جارتي، وأعلمتها ما أنا فيه من

---

(١) أي تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) القصار هو محور الثياب ـ بواو مشددة مكسورة ـ ومبيضها ـ بياء مشددة مكسورة كذلك ـ.

غلبة امرأة القصار على زوجي، قالت: أدلك على ما ينهضه إليك، ويرد قلبه عليك بلا غرامة؟ قلت: إذا تكونين أعظم الخلق عليّ منة، قالت: اختلفي إلى مجمع مولى آل الزبير، فتعلمي من ألحانه عشرة أصوات، ثم غني بها زوجك، فإنه يقبل عليك بجوارحه كلها، وقالت فرجوت في مشورتها البركة، فتلطفت لمجمع المغني فلم أفارقه حتى رضيني حذاقة ومعرفة، فكنت إذا انصرف زوجي من مهنته وحضر رفعت صوتي فغنيت، فحظيت بذلك بما لا مزيد عليه من الإقبال عليّ، فكنا كما قال الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

قلت وما ظننت أن الله خلق مثلك، وما كان أحد أعظم منة من صاحبة المشورة، قالت: حسبك بها منعمة، وحسبك بي شاكرة. فلما أن نهضت لأقوم قالت: على رسلك، لا تنصرف خائبا، ثم ترنمت بصوت خفي فغنت:

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبدا ليست بذات قروح

أباها على الناس أن يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح

ثم قالت: انطلق صحبتك العافية والبقاء. قال أبو السمراء: فوالله لو جاز لي أن لا أفارقها ما كنت في الدنيا ما اخترت بها مؤنسا، وما ذكرتها وأنا في حزن إلا سيرى عني.

قال بعض الحكماء: فضل الغناء كفضل النطق على الخرس. والدينار المنقوش على القطعة من الذهب. وفي كلام بعضهم: إن الغناء يحرك الهوى الساكن، ويسكن ألم الهوى المتحرك. وفي كلام بعضهم: الصوت الشجي يوصل إلى نعيم الدنيا والآخرة. لأنه يؤنس الوحيد. ويروح التعبان. ويسلي الكئيب. ويحض على الشجاعة واصطناع المعروف. قال أفلاطون: هذا العلم. يعني علم الموسيقى. لم يضعه الحكماء للهو واللعب. بل للمنافع الذاتية. ولذة الروح الروحانية. وبسط النفس. وترطيب اليبوسات. وتعديل السوداء. وترويق الدم. وقال بعضهم: سميت الأنغام والألحان بالغناء لأن النفس تستغني به عن الملاذ البدنية في حال سماعه.

ـ (رجع إلى ذكر محاسن النساء) ـ ولأهل كل عصر ألفاظا جاذبة فى محاسن النساء، كألفاظ خالد بن صفوان التى ألقاها على أبى العباس السفاح فى الحكاية المتقدمة، وقال بعض الظرفاء يصف محاسن امرأة: هى روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض، هى من وجهها فى صباح شامس، ومن شعرها فى ليل دامس، وكأنها فلقة قمر على برج فضة، بدر التم يضىء تحت نقابها، فهى غير داخلة فى قول القائل:

ليت النقاب على النساء محرم ... كى لا تغر قبيحة إنسانا

وغصن البان يهتز تحت ثيابها، ثغرها يجمع الضريب والضرب كأنه نثر الدر. كما قال البحترى:

إذا نضون شفوف الربط أونة ... قشرن عن لؤلؤ البحرين أصدافا

قد أثبت صدرها ثمر الشباب، وخطت لها يد الشباب حقين من عاج، كما قال بعضهم:

طلبوا حفاظ عهود أرباب الهوى ... فاستودعوها فى حقاق نهود

كأنها البدر قرط بالثريا، ونيط بها عقد من الجوزاء، أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص[1] منهال، لها عنق كإبريق اللجين، نطاقها محرب، وإزارها مخصب، مطلع الشمس من وجهها، ونبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادى الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها. وهذه الأوصاف تصلح لكل حسناء من الحرائر والسرارى، وإن اختلفت الألوان التى تختلف فى الحسن باختلاف مذاهب العشاق.

---

(١) الدعص: كثيب الرمل.

الفصل الثالث
(فى السمرة والبياض)

قد توسع الناس فيما يخص السمرة البياض، وأطنبوا فى هذا المبحث، وبسطوا القول فى التفضيل بين السمر والبيض، وخاضوا بسبب ذلك فى كلام عريض، فخرجوا منه إلى التفضيل وعدم التفضيل، وبيان ذلك أن منهم من ذهب إلى تفضيل السمر مطلقا، وآخرون قدموا البيض عليهم، لأن الحق أبيض أبلج وآخرون فصلوا، فقالوا: إن كلا يميل إلى عكس لونه، وهذا تحكم وحكم على الطبائع والأمزجة بلا دليل، والصحيح أن الميل إما بداعية التلذذ، أو النفع، ولا ضبط للأول، لاختلافه، كالأشخاص، أما الثانى فالقول فيه بحسب معتدل المزاج، فالروميات حينئذ فى نحو الحجاز أنفع، كما أن الحبشيات فى نحو الروم أجود، لأن حرارة الأبدان تختبئ فى الأغوار زمن البرد وبالعكس فى الأنجاد، ، وأما بحسب المرضى، فالسود للمبرودين أجود، والبيض للمحرورين أنفع، وما الميل إلى نفس اللون فمذهب. .

ومن يك مغرما ببنات كسرى ... فإنى مغرم ببنات حام

قال بعضهم: إن المصريين إلى السمرة أميل، وليس هذا على عمومه، بل هم أميل إلى البياض المشرب بسمرة، ومما قيل فى البيض:

بيضاء تجلو الهم عن ناظرى ... بعين حق لا بعين انتقاص

فقل لمن يرغب فى سمرة ... ما الفضة البيضاء مثل الرصاص

قالت عائشة، رضى الله عنها: البياض نصف الحسن. وقال المؤمل أبى اميل:

شـــهــد المؤمل يـوم يلقـى ربه … أن البـيــاض طراز كل جــمــيل

وقال آخر :

فـــضـل الســـود جـــاهـل … قـــــوله لـيس يـنـهـض

كـيف تخـفى فـضـائل البـيض … والحـــــق أبـــيـــــض

وقال آخر :

بيـضـاء فى حـمر الـثيـاب كـوردة … بيـضــاء مـثل شـقـائق النـعـمـان

تهـتز فى غصـن الشباب إذا مـشت … مـثل اهتــزاز نواعم الأغــصــان

وقال أبو القاسم الزاهى :

وبيض بـألحــاظ العــيــون كــأنما … هززن سـيـوفـا واسـتللن خناجـرا

تصـديـن لى يومـا بمنعـرج اللوى … فـغــادرن قلبى بالـتـعـتـب غـادرا

ســفــرن بدورا وانتــقبن أهـلة … ومـسن غـصـونـا والـتـفتن جـآذرا

ولا يخفى ما فيه من التقسيم البديع .

وعن أنس ، رضى الله تعـالى عنه : كـان رسـول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، أبيض كأنما صيغ من فضة . خرجه الترمذى فى «الشمائل» ، ووصف على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، النبى ، صلى الله عليـه وسلم ، فـقـال : كـان أبيض اللون مشربا بحمرة . ولا معارضة بين حديث أنس ووصف على له بالحمرة ، لأن الحمرة كانت فى وجهه وبياض الفضة كان فى جسده ، وتطلق الحمر على حسان النساء ، قيل لأعرابى تمن ، فقال : حمراء مكسال من بنات الأقيال! قيل : وأصل الحمرة فى البياض بالوجه ظهور الدم فيه ، فإنه يزيد البياض حسنا ، هذا معنى قولهم فى المثل : الحسن أحمر ، قال الشاعر :

هجـان عليهـا حـمرة فى بيـاضهـا … تروق بهـا العينين والحـسن أحمـر

وقد تعترى البيض الصفرة لاستتارهن وملازمتهن الكن والنعمة ، والخفض

والدعة، بل ولملازمتهن التضمخ بالطيب، كما تعترى الصفرة الدرة الزهراء والعاج الأبيض بكثرة مماسةالطيب، ولهذا قال الشاعر:

وما تعشقت من بيضاء حالية كالعاج صفرها الأكنان والطيب

ويقال: إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية ضاربا للحمرة، ومن العشية إلى آخر النهار ضاربا للصفرة، ومعنى هذا أن المرأة الرقيقة البشرة الصافية اللون تتلون بتلون الهواء، والهواء عند الطفل يصفر باصفرار الشمس ويتوضح بالغداة لبياضها، وهذا كله مبالغة فى وصف المرأة بالصفاء والشفافية، قال ذو الرمة [1]:

بيضاء فى دعج فى نعج كأنها فضة قد مسها ذهب

وقال آخر:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وقال آخر:

هيفاء مثل الشمس عند طلوعها فى الحسن أو كدنوها لغروب

وكان على، رضى الله عنه، يبالغ فى محبة البياض، حتى روى عنه أنه قال: من تزوج امرأة سمراء ثم طلقها فعلى مهرها! فكان يكره السمر.

وقال بعضهم: إن الحبشيات ألطف ممن عداهن مزاجا، وأرق بشرة، وأعدل حرارة، فهن أوفق لسائر الجهات مطلقا. قيل: من أراد حسن السكن والعشرة فعليه بالعراقيات، ومن أراد نجابة الولد فعليه بالفارسيات، وأما المصريات فمنجبات، وهن أحسن منظرا، وأعذب محادثة، وألطف ذاتا، وأكمل ملثما، وأجمل زينة، وأظرف شمائل. وألوان شمائل الحبش كلها مقبولة ظريفة لأنهافى مرتبة الاعتدال

---

(١) غيلان بن عقبة العدوى (٦٩٦ ـ ٧٣٥ م) شاعر، بدأ بالرجز، ثم وصل إلى الشعر، كان اسم محبوبته التى تغزل فيها «مية»، وهى التى أعرضت عنه لدمامته وقصره! . ولقد جعله حبه للبادية من أحسن الشعراء الذين جسدوا صورها وحياتها فى شعرهم.

بين السواد والبياض، وخير الأمور أوساطها وذلك لأنها إما صفرة أو خضرة أو سمرة، وكلها من موجبات الفرح والمسرة، أما شرف السمرة فإنها لون العرب، ولونهم أشرف الألوان وأحسنها، كما قال مسكين الدارمى:

أنا مسكين لمن يعرفنى ... لونى السمرة ألوان العرب

وأما شرف الخضر فلأنها لون سندس الجنة، وعلامات الإيراق فى الثمار والأشجار، وعلامات الأشراف على الرؤوس والتيجان على الملوك، ومن موجبات الفرح والسرور، كما فى الخبر المأثور والمنظوم من المنثور:

ثلاثة يذهبن بالقلب الحزن ... الماء والخضرة والوجه الحسن

وفى (الجامع الصغير) أحب الألوان إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الخضرة، وأما شرف الصفرة فلأنها من أسباب الفرح والسرور، كما صرح بذلك بعض المفسرين لقوله تعالى: ﴿**صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ (البقرة: ٦٩). وقال الحكماء النظر إلى الأصفر الخالص يورث الفرح والسرور بالخاصية. فهذه ألوان السرارى الحبشيات التى يفضلهن بعض أهل الذوق على الروميات، وقد تغزلت الشعراء فى ذلك عموما، فقال بعضهم فى الأسمر:

عشقته أسمر حلو اللمى ... لسلوانه الصب لم يستطع

يقطع قلبى ومارق لى ... ودمعى يرق وما ينقطع

وقال آخر:

دعنى وحالى فى هوى أبيض ... كالبدر أو أحسن من ذلك

وعش مُعنَّى فى هوى أسمر ... أو مت إذا ما شئت فى حالك

ولا تخفى التورية هنا، وفى الأخضر الزيتى اللون قال بعضهم:

ومخضرة اللون زيتية ... تحير فيها جميع الأنام

وقد كتب الشرط فى خدها ... كلاما أتى فائقا فى انسجام

أيا ناظرا لمحياى قل　　بهذا المليك يتم النظام

وفى الأصفر الذهبى اللون يقول بعضهم :

وبى ذهبى اللون صيغ لحيرتى　　يطيل امتحانا لى كأنى زائف

يذيب فؤادى وهو لا غش عنده　　فيا ذهبى اللون إنك خائف

وقال فى الألوان من أنصف ولم يتعسف، هو البهاء زهير :

إسمع مقالة صب　　وكن بحقك عونى

إن المليح مليح　　يحب فى كل لون

وقال ابن مطروح نحو ذلك فزاد وأفصح عن المراد :

أعشق البيض ولكن　　خاطرى بالسمر أعلق

إن فى البيض لمعنى　　غير أن السمر أرشق

وظلال الأيك عندى　　من هجير الشمس أوفق

وشذا العنبر والمسك م　　ن الكافور أعبق

وإذا أنصفت فالإنصاف　　بالإنسان أليق

فبديع الحسن يهوى　　كيفما كان ويعشق

وبالجملة، فكم فى سائر الألوان من درة، وجوهرة ثمينة كريمة، والبالغة منهن الغاية فى الجمال والدين أعز من الكبريت الأحمر، وأطيب من المسك الأذفر، فعلى من ظفر بها أن يتمسك بحبل عصمتها، فما كل وقت وآن يسمح الزمان بحور الجنان، وكما اختلف أهل الأذواق فى حب الألوان وتفضيل بعضها على بعض اختلفوا فى الأبكار والثيبات والفضل بينهما، وفصل هذه القضية يحكم فيها قوله تعالى فى وصف نساء أهل الجنة ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا**﴾ (الواقعة : ٣٧).

الفصل الرابع
فى البكارة والثيوبة

امتنانه سبحانه وتعالى على أهل طاعته بالأبكار فى قوله تعالى، فى وصف نساء أهل الجنة: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة: ٣٧). يفيد فضل البكر على الثيب. حيث انشأهن لهم أبكارا لم يعرفن غيرهم، كما قال تعالى فى آيه أخرى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٥٦). والطمث: الافتضاض، ولا يكون إلا مع دم، فلا يقال فى الثيب: طمثت. وروى البخارى عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنكحت يا جابر»؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال «أبكرا أم ثيبا»؟ قال: بل ثيبا، قال: «فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك»؟. وروى هشام بن عروة عن أبيه: قيل لعائشة، رضى الله عنها: ما كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصنع إذا خلا فى بيته؟ قالت: والله ما كان إلابشرا، ولكن الله أكرمه وأكرم به، والله إنه كان ليخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحدث آحاد الناس، ولقد قلت له يوما: يا رسول الله، لو أنك وجدت روضتين فى إحداهما شجر ونبات قد رعى وأكل وفى الأخرى شجر ونبات أنف لم يرع، فى أيهما كنت مرسلا بعيرك؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: فى الأنف التى لم ترع، فقلت: يا رسول الله، ذلك مثلى ومثل نسائك، كلهن ليس منهن واحدة إلا كانت عند غيرك قبلك. اختصره البخارى فأخرج بعضه، وقال: تعنى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يتزوج بكرا غيرها.

قال الغزالى فى (الإحياء): فى البكر خواص لا توجد فى الثيب، منها أنها لا تحن أبدا إلا إلى الزوج الأول، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، وآكد الحب ما يقع مع المحب الأول غالبا، كما قيل:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

وقال آخر:

لا يترك الحق القديم لحادث ... هذا مقال أجلة الجمهور

ومنها: إقبال الرجل عليها وعدم نفوره عنها، فإن طبع الإنسان ينفر عن التى مسها غيره، ويثقل ذلك عليه متى تذكره، وبعض الطباع فى هذا أشد نفورا من بعض، ومنها: أنها ترضى فى الغالب بجميع أحوال الزوج، لأنها أنست به ولم تر غيره، وأما التى اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التى تخالف ما ألفته، فتقلى الزوج بسبب ذلك. قال أبو الفرج فى «كتاب النساء» عن على، رضى الله عنه، قال: لا تنسى المرأة أبا عذرها، ولا قاتل بكرها. وأبو عذرها هو الذى افتضها أول مرة فأزال عذرتها ـ والعذر والعذرة بمعنى، وهو البكارة ـ وبكرها أول ولد يولد لها.

وقال صاحب (كتاب عقلاء المجانين): أراد رجل النكاح فقال: لأستشيرن أول من يطلع، ثم لأعملن برأيه، فكان أول من طلع عليه «هبنقة القيسى». وهو راكب على قصبة، فقال: إنى أردت النكاح فما تشير على؟ قال: البكر لك، والثيب عليك، وذات الولد لا تقربها، واحذر جوادى أن يرمحك! وممن يعد من عقلاء المجانين «بقرة» المجنون، كان بحلب وله شعر حسن، قال سفيان بن الحسين: اجتزت فى أسواق حلب فإذا «ببقرة» المجنون قد استقبلنى خارجا من خربة، فقال: مرحبا يا أبا عبد الله، قلت: وبك يا ثور، قال: بالله عليك يا سفيان أنشدنى شيئا من شعر عبد الرحمن بن الحكم بن العاص، فقلت: وأيه تريد؟ فقال: إن كنت تحفظ قوله * هيفاء فيها إذا استقبلتها عجب * فقلت نعم وأنشدته:

هيفاء فيها، إذا استقبلتها، عجب غراء غامضة الكشحين معطار
من الأوانس مثل الشمس لم يرها بساحة الدار لا بعل ولا جار

فقال: والله إن هذه لمنية المتمنى، ثم لفت بوجهه، وفرك أصابعه، ثم قال: يا أخى أنا والله يعجبنى قول من قال فأحسن، قلت: ما الذى قال فأعجبك؟قال:

أحسن من منية التمنى ونيل وصل بلا تعنى
قول فتاة لمستهام يلثم فاها: تنح عنى
لا خير فى عاشق عجول ما أحسن الصبر والتأنى

فقلت: يابقرة، أنشدنى شيئا لنفسك، قال: نعم، وأنشد:

حرام عليكم لو مننتم بزورة فأوجبتمو فيها على التطولا
فإن لم تكونوا مثلنا فى اشتياقنا لكونوا اناسا يحسنون التجملا

ثم أخذه ما كان يأخذه، فسقط لوجهه، فانصرفت عنه.

وللحريرى[1] فى مقاماته وهى المقامة الثالثة والأربعون فى تفضيل البكر على الثيب قال «أما البكر فالدرة المخزونة، والبيضة المكنونة، والباكورة الجنية، والسلافة الهنية، والروضة الأنف، والطوق الذى ثمن وشرف، لم يدنسها لامس، ولا استغشاها لابس، ولا مارسها عابث، ولا أوكسها طامث. ولها الوجه الحى، والطرف الخفى، واللسان العيى، والقلب النقى، ثم هى الدمية الملاعبة، واللعبة المداعبة، والغزالة المغازلة، والملحة الكاملة، والوشاح الطاهر القشيب، والضجيع الذى يشب ولايشيب». (وله فى ضد ذلك): «وهى المهرة الأبية العنان، والمطية البطية الإذعان، والزندة المتعسرة الاقتداح، والقلعة المستصعبة الافتتاح، ثم إن مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة، وعشرتها صلفة، ودالتها مكلفة، ويدها خرقاء، وفتنتها صماء، وعريكتها خشناء، وليلتها ليلاء، و فى رياضتها عناء، وعلى خبرتها

(١) القاسم بن على (١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م) صاحب المقامات الشهيرة، وهو أديب بصرى، غلب على شعره ونثره الجناس والمحسنات البديعية والسجع، فالتزم ذلك فى كل آثاره وكتاباته.

غشاءوطالما أخزت المنازل، وفركت المغازل، وأحنقت الهازل، وأضرعت الفتيق البازل، ثم إنها التى تقول: أنا أجلس وألبس، فأطلب من يطلق أو يحبس».

(وله فى تفضيل الثيب قوله): «أما الثيب فالمطية المذللة، واللهنة[1] المعجلة، والبغية المسهلة، والطبة المعللة، والقرينة المتحببة، والخليلة المتقربة، والصناع المدبرة، والفطنة المختبرة، ثم إنها عجالة الراكب، وأنشوطة الخاطب، وقعدة العاجز، ونهزة المبارز،[2] عريكتها لينة، وعقلتها هينة، ودخلتها متبينة، وخدمتها مزينة». (وله فى ضد ذلك): «هى فضالة المآكل، وثمالة المناهل، واللباس المستبذل، والوعاء المستعمل، والذواقة المتطرفة، والخراجة المتصرفة، والوقاح المتسلطة، والمحتكرة المتسخطة، ثم كلمتها: كنت وصرت، وطالما بغى على فنصرت، وشتان بين اليوم وأمس، وأين القمر من الشمس، وإن كانت الحنانة البروك، والطماحة الهلوك، فهى الغل القمل[3]، والجرح الذى لا يندمل»[4].
وقوله فى البكر: ثم إن مؤنتها كبيرة، ومعونتها يسيرة. وفى الثيب: هى عجالة الراكب، وأنشوطة الخاطب، إشارة إلى قول عمر، رضى الله عنه: البكر كالبرة، تطحن ثم تعجن ثم تخبز ثم تؤكل، والثيب عجالة الراكب تمر وسويق، يشير بذلك إلى سهولة أمر الثيب، وأن البكر تحتاج فى تزويجها والبناء بها إلى كلف شديدة، وكانت العرب يمر بها الراكب المستعجل فيعرض عليه النزول للقرا، فيمتنع لعجلته، فتخرج ما استيسر، فيأكله وهو راكب، فذلك هو عجالة الراكب.

وعلى ذكر الثيوبة يحسن من لطائف كنايتهن عنها ما وقع لبثينة، وقد جازت على بعضهم فقال لها: أبكر أنت؟ قالت: نعوذ بالله من الكساد! فانظر كيف دلت على الثيوبة بأحسن عبارة، وما أحسن قول جميل فيها متغزلا، وزاد عليه بعضهم أبياتا ولم يلتزم فيها ما التزمه.

(١) اللهفة ما يقدم من الطعام قبل الغذاء لفتح الشهية للطعام.
(٢) أى غنيمة المحارب، كناية عن سهولة مجامعتها.
(٣) مثل يضرب لكل مصدر للشدة.
(٤) انظر «المقامة البكرية» فى (مقامات الحريرى) ص ٤٨٤ - ٤٨٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ.

خليلى إن قالت بثينة: ماله أتانا بلا وعد؟ فقولا لها: لها

سها وهو معذور لعظم الذى به ومن بات طول الليل يرعى السها سها

بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى إذا برزت لم يبق يوما بها بها

دهتنى بود قاتلى وهو متلفى وكم قد دهت بالود من ودها دها

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة كأن أباها الظبى أو أمها مها

وماست بأعطاف لطاف تهزها فعاينت غصن البان من هزها زها

وأبصرت طرفا بالصبابة أمرا وطرفا عن السلوان أهل النهى نهى

وقالت وقد أسرعت فى السير نحوها وجبت قفارا دونها ومها مها

مدامة ريقى عتقت ثم روّقت فمن لم يمت بالسر من صفوها وها

وفى شفتى اللعسا شفا كل مدنف فإن كنت مشتاقا إلى رشفها فها

لها طلعة من شعرها وجبينها تعانق فيها ليلها ونهارها

لها من مهاة الرمل جيد ومقلة وليس لها استيحاشها ونفارها

ولا سكنت وادى العقيق ولا الغضى ولكن بقلبى وبعينى دارها

إذا ما الثريا والهلال تقارنا أشكك هل ذا قرطها وسوارها

وما كنت أدرى قبل لؤلؤ ثغرها بأن نفيسات اللآلى صغارها

وكما اختلفت أذواق الناس فى البياض والسواد اختلفت أيضا فى السمن والضمور وهو مفاد الفصل الخامس..

الفصل الخامس
فى السمن، والضمور، والسن

اختلفت أذواق الناس فى السمن والضمور، وما هو الأفضل منهما وأكثر البصراء بجواهر النساء، الذين هم جهابذة النقد، يقدمون المجدولة التى تكون بين السمينة والممشوقة، فقالوا : إنها غصن بان، وقضيب خيزران، لا يميل فى مشى المرأة التثنى إلا إذا كانت مجدولة. ولاشك أن التثنى فى مشى المرأة، الذى هو أحسن ما فيها، لا يكون مع السمن، قال الشاعر فى حسن المشى :

ظباء أعارتها المها حسن مشيها ... كما قدا أعارتها العيون الجآذر

فمن حسن ذاك المشى قامت فقبات ... مواطن من أقدامهن الغدائر

وقال آخر :

طرقت والليل مسبول الجناح ... مرحبا بالشمس من قبل الصباح

غادة تحمل فى أجفانها ... مرضا فيه منيات الصحاح

كالقضيب اهتز والبدر بدا ... والكثيب ارتج والعنبر فاح

وقال بعضهم :

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا ... فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى

وقال بعضهم :

رنا ظبيا وغنى عندليبا ... ولاح شقائقا ومشى قضيبا

والأشعار فى هذا المعنى الدقيق الرشيق كثيرة . .

وقال مصعب بن الزبير : والنساء فرش فأطيبها أوثرها ، يعنى أسمنها . وكان يقول : استأثروا فى فرشكم الشرمة ، أى السمينة ، فإنى ما رأيت لباسا على رجل أزين من فصاحة ، ولا رأيت لباسا على امرأة أزين من شحم . وقال الشاعر :

وما حب الهزيلة من مرادى ... ولست أروم إلا ذات شحم

أبا التنعيم أعدل ذات عرق ... وهل تحكى قمامة بيت لحم

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : أرادت أمى أن تسمننى لدخول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلم أقبل على شىء مما تريده حتى أطعمتنى القثاء بالرطب فسمنت عليه كأحسن السمن . وروى أبو مسلمة عن عبد الرحمن عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : تسابقت مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأنا جويرية ، فسبقته ، فلما حملت اللحم قال لى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «تعالى أسابقك» فقالت : وكيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ قال : «لا بد» ، فسابقته ، فسبقنى ، فقال : «هذه بتلك» .

ويحكى عن الحسن البصرى أنه قال : لا تسمنوا نساءكم ، فإن كنتم ولا بد فاعلين فاحفظوهن ، أى من إفراط السمن والانتهاء فى الضخامة ، وكان للفرزدق زوجتان إحداهما تسمى «خدراء» والثانية تسمى «النوار» وكانت خدراء عربية هيفاء مجدولة ، وكانت النوار حضرية ضخمة ، فكان يفضل خدراء عليها ، فقال فى ذلك :

لعمرى لأعرابية فى مظلة ... يظل بروقى بيتها الريح يخفق

كأم غزال أو كدرة غائص ... تكاد إذا مرت بها الأرض تشرق

أحب إلينا من ضناك وضفنة ... إذا وضعت عنها المراوح تعرق

ـ والضناك ، بكسر الضاد ، المرأة المفرطةالسمن ، وكذلك الضفنة : المرأة الضخمة المتناهية فى الضخامة ـ وذلك كعبدة بنت عبد الله بن زيد ، زوجة هشام بن عبد

الله، فإنها كانت مفرطة فى السمن لا تستغنى فى القيام عن الاستعانة بثلاث وأربع من الجوارى، فيحكى أنه أهديت إلى هشام يوما الدرة اليتيمة المتوارثة، وكان وزنها فيما يقال ثلاثة مثاقيل، وكانت قد حازت جميع الصفات المستحسنة، من الصفاء والنقاء والعذارة، فقال لعبدة: إن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فهى لك، فحاولت القيام بشدة ومشقة، وما تم نهوضها حتى خرجت على وجهها، وسال الدم من أنفها، وقام هشام يغسل ما أصابها من الدم، وأعطاها الدرة فبقيت عندها إلى أن أخذها منها عبد الله بن على بعد انقضاء دولة بنى أمية. وكان عبد الله بن على غير راغب فى النساء، ولكنه لما رأى عبدة رأى جمالا رائعا وحسنا بارعا، فطلب منها التزويج، فأبت، فكان ذلك من أكبر الدواعى على قتلها، وقيل قتلها خوفا من أن تنم للسفاح بالدرة. وفى عبدة يقول عمر بن أبى ربيعة:

أعبدة ما ينسى تذكرك القلب ولا عنه يسليه رخاء ولا كرب

ومثل عبدة فى الضخامة والسمن هند بنت إسماعيل بن خارجة، زوجة الحجاج بن يوسف الثقفى، فقد روى أبو الفرج[1] فى (الأغانى) عن أبى موسى، قال: وجهنى الحجاج لأخطب له هند بنت إسماعيل بن خارجة، فلما خطبتها من أبيها وزوجتها منه، وكانت حاضرة، قامت مبادرة، وعليها مطرف خز أسود، فوالله لقد رأيته بين ظهرها وكفلها، ولم تستقل قائمة حتى انثنت ومالت لأحد شقيها من شحمها، فعرفت الحجاج بذلك فوجه لها ثلاثين غلاما، مع كل غلام عشرة آلاف درهم، وثلاثين جارية، مع كل جارية تخت ثياب، وقال لها: إنى أكره أن أبيت خلوا ولى زوجة، فقالت وما احتباس امرأة عن زوجها وقد ملكها وأتاها صداقها وكرامتها؟ فأتت من ليلتها. قال المدائنى بلغنى عن المرأة التى تولت زفافها إليه أنها قالت: دخلنا على الحجاج، وهو فى بيت عظيم فى أقصاه ستارة، وهو دون الستاة، على فرشه، فلما دخلت عليه سلمت، فأومأ إلى بقضيب كان فى يده، فجلست عند رجليه، ومكث ساعة لا يتكلم، ونحن وقوف، فضربت هند

(١) أبو الفرج الأصبهانى، على بن الحسين (٨٩٧-٩٦٧) م أديب وشاعر غلب على شعره الغزل والمجون، وله عدة تآليف أشهرها موسوعته الكبرى (الأغانى).

بيدها على فخذه وقالت ليس هذا وقت سوء الخلق! فتبسم، وأقبل عليها، واستوى جالسا، فدعونا له، وأرخينا الستور عليهما.

وقد علمت مماسبق أن أفضل النساء المجدولة التى ليست بالسمينة ولا الضامرة، فخيار الأمور أوساطها، إلا أن المرأة إذا فاتت حد الشبوبية ربما ضمرت، قال أبو الفرج فى «كتاب النساء»: بنت عشر سنين تشمس وتلين، وبنت عشرين تسر الناظرين، وبنت ثلاثين لذة للمعانقين، وبنت أربعين ذات رخاوة ولين، وبنت خمسين ذات بنات وبنين، وبنت ستين عجوز فى الغابرين. وقال بعضهم فى أعمار النساء من الشعر ما حسن به وصفهن مما لم يسبق إليه:

متى تلق بنت العشر قد بض ثديها	**كالؤلؤة الغواص يهتز جيدها**
تجد لذة منها لخفة روحها	**وعزتها والحسن بعد يزيدها**
وصاحبة العشرين لا شىء مثلها	**فتلك التى يلهو بها مستفيدها**
وبنت الثلاثين الشفاء حديثها	**هى العيش ما دقت ولا رق عودها**
وإن تلق بنت الأربعين فغبطة	**وخير النساء ودها وولودها**
وصاحبة الخمسين فيها بقية	**من الحسن نوع الحسن طب عمودها**
وصاحبة الستين لا خير عندها	**وفيها متاع والحريص يريدها**

وقال بعضهم: قالت امرأة لأخرى: ما تقولين فى ابن عشرين؟ قالت ريحانة تشمين، قالت فابن ثلاثين؟ قالت: شديد متين، قالت: فابن أربعين؟ قالت أبو بنات و بنين، قالت: فابن خمسين؟ قالت: يجوز فى الخاطبين، قالت: فابن ستين؟ قالت: صاحب سعال وأنين.

ومن هذا ومما تقدم يفهم أن بلوغ الستين من الرجال والنساء هو حد فقدان الأرب غالبا، وأن الخير فى كل من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الأعمار. وذكر بعضهم الأعمار وصفاتها فى النساء فقال: إن منهن الكاعب، وهى التى كعب ثدياها، أى برزا وظهرا، ومن طباعها الصدق فى كل ما تسأل عنه، وقلة

الكتمان لما علمته، وقلة التستر والحياء، والتساهل، ومنهن الناهد، أى التى نهد ثدياها واستدارا، ولم يتكامل شبابها، فتستتر بعض الاستتار، وتظهر بعض محاسنها، وتحب أن يتأمل ذلك منها، ومنهن الممتلئة شبابا، التى قد استكمل خلقها، وعظم ثدياها، فيحدث عندها دلال وأدب، وتحلو ألفاظها، ويعذب كلامها، ويتخلق فيها الميل لجنسها، ومنهن العانس وهى المتوسطة الشباب، التى تهيأ ثدياها للانكسار، فتحمش مشيتها ومنطقها، وتبدى محاسنها بخفر ودلال ولعب، وأحب الأشياء إليها مفاكهة الرجال، وهى فى هذه الحالة قوية الميل لما تقتضيه أنوثتها، مستحكمة العشق، ومنهن المتناهية الشباب، ولا شىء أشهى إليها من الاتصال بالرجال، ومنهن النصف، وهى التى يأخذ ماء وجهها فى النقص، ولحمها فى الاسترخاء، وذلك بعد مجاوزة الأربعين، وهى التى قيل فيها.

وإن آتوك فقالوا: إنها نصف   فإن أحسن نصفيها الذى ذهبا!

فتكون ملاطفة للرجال، مدارية لهم، شديدة الحرص عليهم، وما فوق ذلك فالعجوز ـ (أى المسنة) ـ التى يجب على العاقل أن يرغب عن زواجها.

قيل: خاصم رجل امرأته إلى زياد، وكانت قد أسنت، فاشتد زياد على الرجل، فقال الرجل: أصلح الله الأمير، إن خير نصفى عمر الرجل آخرهما، يذهب جهله، ويثوب حلمه، ويجتمع رأيه، وإن شر نصفى عمر المرأة آخرهما يسوء عقلها، ويمتد لسانها. فحكم له عليها.

والمسنة تحاول أن ترى لزوجها ما يرى من الشباب. يحكى أن أرملة بنت عبد الله بن خلف لما أسنت، وكانت ضرة لعائشة بنت طلحة عند عمر بن عبد العزيز، جعلت تتجنب فى مثل أيام أقرائها، تريد أنها فى سن من يحيض، وقد تحمل المرأة العربية لخمسين سنة، ويقال إنها إن كانت قرشية حملت لستين.

فقد ولدت هند بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زمعة موسى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ولها ستون سنة، ولا يعلم امرأة ولدت وهى بنت ستين إلا قرشية، قال الأطباء: مواقعة المسنة سم من السموم ينضى[1] البدن، ويورث الهم والحزن، قال الشاعر:

---

(١) أى يصيب البدن بالهزال.

لا تقربن عجوزا إن دعوك لها وانفض ثيابك عنها ممعنا هربا
وإن أتوك فقالوا: إنها نصف فإن أحسن نصفيها الذى ذهبا

وقد تغزل أبو الأسود الدؤلى فى عجوز، فقال، كما أنشده أبو تمام فى الحماسة:

أبى القلب إلا أم عوف وحبها عجوزا ومن يحبب عجوزا يفند
كسحق[1] يمان قد تقادم عهده ورونقه ما شئت فى العين واليد

وقال آخر فى مليحة أسنت:

قالوا أسلها قد ذوى عناب راحتها وأنت رهن سبابات وتضليل
فقلت لست بسال حبها أبدا وكلما كرنش العناب يحلو لى

وهذا من باب قولهم: «يبلى القميص وفيه عرف المندل»، فإن الإنسان الصادق فى حب من يهواه يستصحب الأصل، ويرى إبقاء ما كان على ما كان، فكل ما انمحى من خارج العيان فهو موجود فى الأذهان، فالمحب يتصور دائما حسن الحسان، ويديم معاملتهن بالبر والإحسان.

فقد حكى أن خرقاء، صاحبة ذى الرمة، أرسلت إلى بعض الشعراء ليشبب بها، فقال: لا أشبب بعجوز، فبرزت له، وقد أماطت قناعها، فأخذت بمجامع قلبه، ورأى منها، حسن النساء، فقال:

لقد أرسلت خرقاء نحوى رسولها لتجعلنى خرقاء ممن أضلت
وخرقاء لا تزداد إلا ملاحة ولو عمرت تعمير نوح وجلت

فالجميلة المعمرة كالثوب اليمانى، ذهبت جدته، ومع ذلك فهو يروق العين مرأى واليد ملمسا، حتى بالغ بعضهم حيث قال:

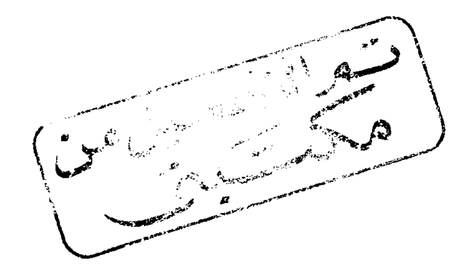
ويزيدها مر الليالى جدة وتقادم الأزمان حسن شباب

قال بعض العرب: لا تتزوج من النساء ستا: لا أنانة، ولا منانة، ولا حنانة،

---

(١) السحق ـ بفتح السين وسكون الحاء ـ الثوب البالى.

ولا حداقة، ولا براقة، ولا شداقة. أما الأنانة فهى كثيرة الأنين، فنكاح المريضة لا خير فيه، وأما المنانة فهى التى تمن على زوجها، وأما الحنانة فهى التى تحن إلى زوج آخر، وأما الحداقة فهى التى ترنو بحدقتها إلى كل شىء تشتهيه، وتكلف الرجل شراءه، وأما البراقة فهى التى تمكث طول النهار تشتغل فى وجهها حتى يصير له بريق. انتهى. وليس هذا البريق فى شىء من الحسن، فإن الحسن ما زين الزينة واستحسن دونها، وهذا هو الحسن العام.



الفصل السادس

(فى الحسن والجمال)

مما أنعم الله به على العبد تحسين خَلْقه وخُلقه، فلا ينبغى للعبد إذا حسَّن الله وجهه أن يضيف إليه قبيح المعاصى، أو قبّح وجهه أن يجمع بين قبيحين، كما قيل:

إذا فات الفتى أمرين أضحى — بعيدا عن ممازجة القلوب

جمال الوجه أو خلق جميل — يزينك فى الحضور وفى المغيب

فحسن الوجه يشفع فى المساوى — وحسن الخلق يشفع فى الذنوب

وقيل:

فلا تحسبن الدر فى البحر وحده — فقد تخرج الأفواه من لفظها درا

روى عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن الرجل المؤمن ليدرك درجة الصائم القائم بالخلق». وقال أمير المؤمنين على، كرم الله وجهه: أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل. وقال بعض العلماء: من نفاسة الحلم وارتفاع قدره أن الله، سبحانه وتعالى، لم يسم به فى كتابه أحدا إلا إبراهيم خليله، وإسحاق نبيه، حيث قال ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ (التوبة: ١١٤). وفى قوله ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾ (الصافات: ١٠١) وكان يقال: جمع الله مكارم الأخلاق فى آية واحدة: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقال بعضهم:

خذ العفو وامر بعرف — وأعرض عن الجاهلينا

وإن كنت من أهل جاه — فضم إلى الجاه لينا

ودخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده، وعلى رأسه جارية تضحك، فقال لها المأمون: لم تضحكين؟ فقال محمد بن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنها تعجبت من قبحى وإكرامك لى! فقال لها المأمون: لا تتعجبى من قبحه، إن تحت عمامته كرما ومجدا لا يوجد فى غيره، ثم أنشد يقول:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم إذا كانت الأعراض غير حسان

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانى

وعن وصية لبعض العلماء، قال: حق على العاقل أن يخالق من لقيه، وأن يتزيا بزى من ساكنه، قال بعض الشعراء:

إن جئت أرضا كلهم عور فغمض عينك الواحدة

قيل: لا يسود الرجل حتى لا يبالى فى أى ثوب ظهر. ودخل بعضهم على معاوية، وعليه عباءة، فازدراه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها. ودخل بعضهم أيضا على الرشيد فأنشده:

وقيل:

لو كانت النار للياقوت محرقة لكان يشتبه الياقوت بالحجر

فلا تغرنك أطمارى وقيمتها فإنما هى أصداف على درر

ولا تظن خفاء النجم من صغر فالذنب فى ذاك محمول على النظر

والبيت الأخير ينظر إلى قوله:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». قال بعض الأمراء لحاجبه: ادخل على عاقلا، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ قال: رأيته يلبس الكتان فى الصيف والقطن فى الشتاء، والملبوس العتيق فى الحر والجديد فى البرد!.

وكان صلى الله عليه وسلم يختار لحاجته، صبيح الوجه حسن الاسم، طلبا

لاجتلاب القلوب، وفى حديث قتادة عن أنس: ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها، وأحسنهم صوتا. وقد حاز يوسف عليه السلام شطر الحسن، وحاز نبينا، عليه الصلاة والسلام، كل الحسن. قال أبو هريرة، وإذا ضحك يتلألأ فى الجد والنور. وقالت أم معبد، فى بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب. وفى حديث أبى هالة: يتلألئ القمر ليلة البدر. انتهى. فهو كما قيل:

لبست رداء الفخر فى صلب آدم فلا تنتهى إلا إليك المفاخر

ولله بدر فى السماء منور وأنت لنا بدر على الأرض ظاهر

وفى الحديث، كما رواه البخارى فى تاريخه، وابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه». وقيل فى معناه:

لقد قال الرسول، وقال حقا وخير القول ما قال الرسول

إذ الحاجات عزت فاطلبوها إلى من وجهه حسن جميل

وقيل لفيلسوف: أى الرسل أنجح؟ قال: الذى له جمال وعقل وفكر. وقيل: إذا أرسلتم رسولا فابعثوه حسن الوجه، حسن الاسم. قال لقمان لابنه: لا تبعث رسولا جاهلا، فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك. (شعر):

إذا ابطأ الرسول فقل نجاح ولا تفرح إذا عجل الرسول

وقال آخر

إذا أرسلت فارسل ذا وقار كريم الطبع حلو الاعتذار

يوفق بين نيران وماء ويصلح بين سنور وفار

ويروى عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال «إن الله جميل يحب الجمال». وقيل فى هذا المعنى:

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا: يا عبادى اتقون

وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

فالحسن صفة تميل إليها الطباع السليمة، والأذواق المستقيمة، وتنجذب إلى عشقه أرباب العقول. وفى المثل: «شفيع الحسن مقبول». ولقد أحسن من أنشد يقول:

وإذا المليح أتى بذنب واحد … جاءت محاسنه بألف شفيع

ومثله قول الآخر:

إذا جاء المليح بألف ذنب … محاها من محاسنه شفيع

وقال فى أبو فراس:[1]

أساء فزادته الإساءة حظوة … حبيب على ما كان منه حبيب

تعد على الواشيات ذنوبه … ومن أين للوجه المليح ذنوب

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن النظر إلى المرأة الجميلةالحسنة الخلق تفرح النفس وتنشطها، وتزيل عنها الأفكار والوساوس السوداوية، وتقوى القلب قوة لا مزيد عليها، بسبب إزالة الأفكار الرديئة، لاسيما إذا انضم مع حسن الصورة حسن المحادثة، لأن لحاسة السمع مدخلا عظيما فى تطبيب كلام القلوب بكلام المحبوب، وما أحلى قول بعضهم فى هذا المعنى:

وحديثه كالغيث يسمعه … راعى سنين تتابعت جدبا

فيصيح من طرب مسامعه … ويقول من فرح هيا ربا

وهذا هو المعنى المقصود من قول أبى نواس: «وقل لى هى الخمر» فى قوله:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر … ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

وإذا كان المحبوب يتلذذ بتكرار اسم محبوبته على لسانه، فكيف لا يكون ذلك والوجهان متقابلان، والفمان متحادثان، وكما أن الحكماء أجمعوا على ذلك فقد أجمعوا أيضا على أن النظر إلى المرأة القبيحة السيئة الخلق كمجالسة الثقيل، تثير

---

(١) أبو فراس الحمدانى، الحارث بن سعيد (٩٣٢ ـ ٩٦٨ م) شاعر مجيد، وفارس مقاتل، وأمير من أمراء الحمدانيين.

الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتميت النفس، وتذهب النشاط، وتطوى الانشراح، كما قيل:

وجليس حديثه للمسرات طارد

مثل ليل الشتاء فهو طويل وبارد

وكانت لبابة، بنت عبد الله بن عباس، من أجمل الناس وجها، وكانت تحت الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فكانت تقول: ما نظرت إلى وجهى فى المرآة مع أحد إلا رحمته من حسن وجهى، إلا للوليد، فإنى كنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت نفسى من حسن وجهه ونضارته. قال بعضهم:

نظرت إليه نظرة فتحيرت ... دقائق فكرى فى جليل صفاته

فأوحى إليه الوهم إنى أحبه ... فأثر ذاك الوهم فى وجناته

وعلى ذكر المرآه يحسن قول بعضهم:

رأى حسن صورته فى المرآه ... فأصبح صبا بها مدنفا

وصير يعقوب اسما له ... يشير بأن قد رأى يوسفا

وقال بعضهم: إن المرأة إذا كانت حسنة الصفات، حسنة الأخلاق، نجلاء العين، سوداء الحدقة، متحببة لزوجها، قاصرة الطرف عليه، فهى على صفة الحور العين. كما قيل:

حور حرائر ما همن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواحشا ... ويصدهن عن الخنا الإسلام

وقال آخر، وهو ممن كاثر بمحبوبته وفاخر:

لم يبق لى أمل سواك فإن يفت ... ودعت أيام الحياة وداعا

لا استلذ لغير وجهك منظرا ... وسوى حديثك لا أريد سماعا

وقال آخر:

يا حسنه إذ قال ما أحسنى ... ويا لذاك اللفظ ما أعذبه

ثم إن الحسن العام هو ما يزين الزينة ويستحسن بدونها، أما الحسن الخاص فهو ما يختص به كل عضو من الصفات، ولهذا قالوا: الحلاوة فى العين والملاحة فى الفم والجمال فى الأنف والظرف فى اللسان. وقالوا: إذا حسنت العين فتمامها الدعج والفم تمامة الفلج وطلاوة الجبين تمامها البلج وأحسن ما تكون المرأة إذا طال منها الأطراف والعنق والشعر والقامة وقصر منها العين واللسان واليد والرجل. والمراد بالقصر المعنوى، كعدم الطموح بالعين والفم، وأخذ شيء فوق الحاجة، والخروج من بيتها، وابيض منها اللون والفرق والثغر أى الأسنان نفسها، أما اللثة فقد مدحت العرب سوادها، واسود منها العين والهدب والشعر، وأحمر منها اللسان والشفة مع اللعس، يعنى يسير السواد، ودق منها الحاجب والأنف والبنان والخصر، وغلظ منها المعصم وما يقعدها عند النهوض والساق، واتسع منها الجبين والجبهة والعين والصدر، وضاق منها الأنف والأذن والفم، وما عدا ذلك راجع إلى ما ذكر، وتفنن فى الأوصاف، و أهل الفراسة يجعلون الجمال الظاهر دليلا على اعتدال المزاج.

فمعتدل المزاج لا يتهافت على التهتك والابتذال، فإنه بهذا يذهب ما فى جماله من البهاء والجلال. فقد حكى أن سيدة بنت أحمد بن جعفر بن أحمد الصالحة كانت بعيدة الصيت بالجمال والكمال والأدب، وكانت تسمى بلقيس الإسلام، وكان زوجها المكرم الصليحى لما مات عنها تركها بدار العز التى بناها بمدينته من بلاد اليمن، فلما استولى ابن أحمد بن المظفر الصليحى على الملك، أراد أن يتزوجها، ليكمل له ملكه، فامتنعت منه، فعزم على قتالها، ثم أشير عليه بأن يكاتب فى أمرها المستنصر العبيدى[1] صاحب مصر، إذ كان أهل اليمن قائمين بدعوته، فامتثل ذلك، وأرسل إليه رسولين من قبله فى هذه القضية، فرجعا إليه بقضاء حاجته ومعهما خصى برسم الكلام معها، فدخل الخصى إليها، وقد حضر وجوه أهل الدولة قائمين لقيامه، فقال: «أمير المؤمنين يسلم على الجهة المالكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خلاصة الأنام، ذخيرة الدين، ولية أمير المؤمنين، ويقول لها: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا**

(١) هو الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) واسمه معد أبى تميم.

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦). وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد، على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار ذهبا عينا وخمسون ألفا أصنافا تحفا وألطافا. فقالت: أما كتاب مولانا أمير المومنين فإنى أقول فيه: (إنى ألقى إلى كتاب كريم) وأما أنتما فوالله ما جئتما إلى مولانا (من سبأ بنبأ يقين)، بل حرفتما (القول عن مواضعه) ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ (يوسف: ١٨). وتم عقد النكاح بينهما، واستأذنها زوجها الأمير فى الدخول بها بدار العز فأذنت له، فدخل ومد يده إليها أول مرة فلم تمتنع عليه أول مرة، مما يكون بين الرجل وزوجته، ثم أراد المعاودة فمنعته وغضبت وخرجت من البيت الذى كانت معه فيه، ولم يجتمع بها إلا تلك الليلة خاصة، وبعض أهل اليمن يقولون إنه لم يرها، وإنما أجلست له تلك الليلة جارية من جواريها، فعلم بذلك وكتم الأمر ولم يفشه. فهذه هى المرأة العفيفة، والجهة الشريفة. وبالجملة فلباس ثوب العفاف من أجمل الأوصاف، وقلت فى هذا المعنى:

أصبو إلى كل ذى جمال ... ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفاف

ومن النساء المشهورات «أم حكيم» التى تشبب بها «قطرى»، رئيس الخوارج الذين خرجوا على الخلافة فى أيام هشام بن عبد الملك، وقد سبق ذكرها فى (الفصل الثانى) من (الباب الثانى). وقيل إن عبد الله ومصعب وعروة، أولاد الزبير بن العوام، طافوا بالكعبة، وتعلقوا بأذيالها، فقال عبد الله: اللهم إنى أسألك الخلافة، وقال عروة: اللهم إنى أسألك الجنة، وقال مصعب: اللهم إنى «أسألك أن تكون سكينة بنت الحسين بن على وعائشة بنت طلحة بن عبد الله من أزواجى، فأعطى الله كلا منهم مراده، فكان عبدالله ابن الزبير خليفة على الحرمين والحجاز واليمن والعراق ومصر وغير ذلك، ما عدا الشام، وتزوج مصعب عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وأصدق عائشة بنت طلحة كصداق سكينة بنت

الحسين، وكانا يتغايران، وكان الشرف لسكينة والجمال لعائشة. قيل: طلع البدر ليلة، فلما توسط السماء، بعثت عائشة وصيفة لها إلى سكينة تقول: من أشبه بهذا البدر، وجهى؟ أم وجهك؟ فلم تجبها سكينة، وأذن المؤذن، فلما قال: أشهد أن محمدا رسول الله، بعثت سكينة وصيفة لها إليها تقول: هذا جدى؟ أو جدك؟ فلم تعد عائشة تفاخرها بعد بشيء. وكانت عائشة أبدع امرأة بالمدينة، وأجمل وأكمل نسائها، وهى أول من خضب من نساء العرب أطراف الأصابع، وأول من لبس العصائب الديباج المنسوجة بالذهب والجوهر، وأول من اتخذت لشعرها طرة ومشطته بماء الورد والمسك، وأول امرأة رآها الناس فى الموقف[1] فى هودج، وأول امرأة أقام معها زوجها سبعة أيام لا يظهر، و أول امرأة رأى الناس الصرر المختومة تخرج إلى المستورات من جيرانها فيها الدراهم يوم أسبوعها، وأول امرأة سهرت على زوجها من الغيرة حتى طلع الفجر.

ومما يناسب تشبيهها وجهها فى الحسن بالبدر ما يحكى عن على بن الجهم أنه قال لجاريته: أتجعلين الليلة مجلسنا فى القمر؟ قالت له: ما أولعك فى الجمع بين الضرائر! فاستدعى بحلة ليفرغها عليها، ويستجلى قمر وجهها فيها، فقالت: إليك عنى إنها تغطى المحاسن كما تستر القبائح، فغاب عنهما القمر فاهتم، فقالت لا تهتم لفقده، فقد احتشم من محاسنى، واستخلفنى من بعده! ويحسن هنا قول بعضهم:

إذا مـا غـاب وجـه البـدر عنا	فـوجـهك عندنـا البـدر المقـيم
وإن أفلت نجـوم السـعـد يومـا	فـوجـهك نجم سـعـد مـسـتديم

وقول الشاعر:

أرخت ثلاث ذوائب من شـعـرها	فى لـيلة فـأرت ليـالى أربعـا
واستـقبلت قـمر السمـاء بوجـهها	فـأرتنى القـمـرين فى وقت مـعـا

ولبعض النساء فضل، لاسيما فى الشعر، قال الشهاب الحجازى: أنشدنى شيخ

---

(١) أى فى موقف عرفة بموسم الحج.

الإسلام حافظ مصر والشام شهاب الدين أحمد ابن الإمام العلامة نور الدين على بن حجر قال: أنشدتنى إجازة من نظمها المحجبة المخدرة المسندة فاطمة بنت محمد بن المنجا، الدمشقية الأصل، وقد فارقت بعلها:

لما غدا لوثيق عهدى ناقضا … وأراد حبل الود أن يتمزقا

فارقته وخلعت من يده يدى … وتلوت لى وله وإن يتفرقا

ومن ذلك ما أنشدتنيه من لفظها لنفسها المحجبة المصونة، والدرة المكنونة، العريقة الحسب، الأصيلة النسب، العالية المقام، الكثيرة التهجد والقيام، حافظة أهل زمانها، فائقة أقرانها، صاحبة السند العالى، واللفظ الفصيح الغالى، الست زينب ابنة الإمام العالم العامل، والبحر الوافر الكامل، برهان الدين أبى إسحاق إبراهيم العثمانى الشافعى، وقد اعتدى عليها بعض الناس فى وقفها، وتجوه عليها بشيخ الإسلام وقاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى، فكتبت إليه بهذين البيتين وهما:

قسما بحقك لاتضام ضعيفة … وتكون عز الدين حيا باقيا

فقها وقيت أذى عدو أحمق … لك ربها لا زال كهفا واقيا

ومن النساء اشتهر بالصيانة والديانة، ودخل فى زمرة العلماء بحيازة الفضل والأمانة، فمن حاز هذه الرتبة خديجة بنت أحمد بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد الرحمن، أم الفضل بن شهاب الدين النويرى، القرشية العقيلية المكية أمها وأم أخويها: قاضى القضاة كمال الدين أبى الفضل محمد، ونور الدين على كمالية ابنة قاضى القضاة نجم الدين محمد بن محمد الطبرى المكى، كانت من ثروات النساء دينا وعفة وكرما وعبادة، وكانت تخلو عدة ليال للعبادة، وتلازم الأوراد دائما، ولا ترغب فيما تميل إليه النساء، وكانت تكتب وتقرأ، ولها فضائل، وتنظم الشعر الجيد، وبينها وبين علماء عصرها وصلحائه مكاتبات، ولها قصيدة نبوية أولها:

حمل الغرام على ما لا أحمل … نرثى لحالى من يلوم ويعدل

وكتبت إلى الشيخ بهاء الدين أحمد بن السبكى، و قد أهدت له عقيدا، وهى وهو سائران فى رفقة من مكة إلى المدينة النبوية للزيارة:

بعـثت لكـم بشىء من عـقـيـد	هديتـه لقلتـه فـضـيـحـة
ولـكنـا لنخــبــركـم بأنـا	عـقـيـدة ودنا فـيكم صـحـيـحـة

فأجابها بأبيات منها :

بركـات أم المؤمنيـن خـديجـة	عـمـت قـوافلـنا وفـاض نـداها
ولهـا قـصـائد فى النبى مـحـمـد	سـتـنال فى الجنـات طيب جنـاها
فـالله يقـبلهـا ويشكر سـعـيـهـا	ويدوم فـى طيب الـهنا أخـواها
ويعـز للإسـلام هذا البـيـت إذ	عـمت مكـارمـه وطاب حـلاها

توفيت بمكة سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، [١] وكانت صالحة عالمة . انتهى . .

ومن اشتهر بالأدب والتصوف والغزل والتعفف من النساء ، بالأندلس . حمدة بنت زيد بن تقى العوفى ، يحكى أنها خرجت متنزهة بالرملة ، من وادى آش ، فرأت ذات وجه وسيم أعجبها ، فقالت :

أبـاح الـدمع أسـرارى بـواد	لـه لـلحـسـن آثـار بـوادى
فـمن نهـر يطوف بـكل روض	ومـن روض يـطـوف بـكـل وادى
ومن بـين الظبـاء مـهـاة رمل	سـبت لبى وقـد مـلكت قـيـادى
لـهـا لحـظ تـردده لأمـر	وذاك اللـحظ يـمنـعنى رقـادى
إذا سـدلت ذوائـبـهـا عـليـه	رأيت الـبـدر فى جنـح السـواد
كـأن الصـبح مـات له شـقـيق	فـمن حـزن تسـربل بـالحـداد

ومن كلامها أيضا :

ولما أبـى الواشـون إلا فـراقـنا	ومـا لهـمـو عنـدى وعندك من ثار
وشنوا علـى أسـمـاعنا كل غـارة	وقلت حُـماتى عند ذاك وأنصـارى
غـزوتهـمو من مـقلتـيك وأدمـعى	ومن نفسى بالسـيف والسيل والنار

(١) هجرية ، وتوافق سنة ١٣٧٥ م .

وكانت «علية» العباسية، بنت المهدى، أخت هارون الرشيد، فائقة فى الجمال والعلم، تزوجها موسى بن عيسى العباسى، وكان الرشيد يبالغ بإكرامها واحترامها، ولها ديوان شعر، عاشت خمسين سنة، وتوفيت سنة عشر ومائتين،[1] وكان سبب موتها أن المأمون سلم عليها وضمها إلى صدره، وجعل يقبل رأسها، ووجهها مغطى، فشرقت من ذلك وحمت وماتت لأيام يسيرة.

ولما خرج الرشيد إلى «الرى» أخذها معه، فلما وصل إلى «المرج» نظمت قولها:

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشق يستشفى برائحة الركب

وكانت حاذقة فى الغناء، وضرب العود، فغنت بهما، فلما سمع الرشيد الصوت علم أنها قد اشتاقت إلى العراق وإلى أهلها فأعادها، ومن شعرها:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ... ورددت الصبابة فى فؤادى

فوا شوقى إلى ناد خلى ... لعلى باسم من أهوى أنادى

ومن كلامها أيضا:

تجنب فإن الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصر فإن حدثت أن أخا الهوى ... نجا سالما فارج النجاة من الحب

وأطيب أيام الفتى يومه الذى ... يروع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

وكانت «علية» تساجل الأدباء، وتناظر العلماء، فكانت بالمشرق «كولادة» بنت المستكفى بالله بالمغرب، وكانت صيانتها بقدر شرفها، بخلاف «ولادة» المذكورة فإنها قد برعت فى الحسن والجمال والبهاء والكمال، واللطف والدلال، وكانت

---

(١) هجرية، وتوافق سنة ٨٢٥ م.

(٢) وإليها ينسب الرازى المفسر، والرازى الطبيب، وغيرهما. انظر (مراصد الاطلاع) جـ ص ٦١٥.

عالمة كاتبة شاعرة لها مجلس فيه الموائد، ويجتمع بها فيه العلماء والفضلاء والشعراء والأدباء، وكانت بدون تكليف لكنها عفيفة، وكانت كثيرا ما تقول:

إنى وإن نظر الأنام لبهجتى ... كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواحشا ... ويصدهن عن الخنا الإسلام

وكانت «بقرطبة» جالسة لاستجلاء محاسن النظم والنثر. وقد ولع بها «ابن زيدون» وصدرت بينهما المراسلات، وانشأ فيها رسالته الزيدونية، فتكلم الناس فيها، وما أحسن كلام ابن زيدون فى خطابه لها قوله:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما حللت عن اللبات اطواقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنه رق لى فاعتل إشفاقا

لا سكن الله قلبا عند ذكركم ... إن لم يطر بجناح الشوق خفاقا

لو شاء حملى نسيم الريح نحوكم ... وفاكم بفتى أضناه ما لاقى

الآن أحمد ما كنا لعهدكم ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا[1]

وقد ساعده الدهر أن زارته وذهبت بعد أن ودعته فقال:

ودع الصبر محبا ودعك ... ذائعا من بسره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطا إذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا ... حفظ الله زمانا اطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

قال صاحب (الخريدة): وكانت ولادة هذه غريبة الدهر، فريدة العصر، قل أن يسمح الزمان بمثالها، أو يجود الحسن بعدها بجمالها. قال صاحب (قلائد

---

(١) تروى هذه الأبيات روايات أخرى، تختلف مع هذه الرواية بعض الاختلاف. انظر مقدمة كتاب (مسرح العيون شرح رسالة ابن زيدون) ص ٦ . طبعة القاهرة.

العقيان): إن شعر ولادة استحى أن أقول إنه شعر امرأة، فإنه تعجز عنه فحول الرجال. وهو:

ولما أبى الواشـــون إلا فـــراقنا ... وما لهـمو عنـدى وعندك من ثار

وشنوا على أسمـاعنا كل غـارة ... وقل حُـماتى عند ذاك وأنصـارى

غـزوتهـمو من مـقلتيك وأدمـعى ... ومن مهجتى بالسيف والسيل والنار

وقد تقدم نسبة هذه الأبيات لحمدة الأندلسية. ومن شعرها خطابا لابن زيدون، وكانت تميل إليه أيضا:

ترقب إذ جن الظلام زيارتى ... فـإنى رأيت الليل كـاتم للسـر

فبى منك ما لو كان بالشمس لم تنر ... وبالبـدر لم يطلع وبالنجم لم يسـر

قيل: ومن شعرها:

ألحـاظكم تجـرحنا فى الحشـا ... ولحظنا يجـرحكم فى الخـدود

جـرح بجـرح فـاجعلوا ذا بذا ... فـما الذى أوجب جـرح الصـدود

قال بعضهم: مثل هذا لشعر كثير على امرأة، وقال العماد فى (الخريدة) إن بعض الكتبيين من أهل مصر يقول: إن هذين البيتين لمحمد بن على بن أبى الغمر، المنعوت، أنجب الدين، الهاشمى الإسنائى، الذى قال فى الخمر:

عـذراء تفـتر عن در على ذهب ... إذا صـببت بهـا ماء عـلى لهب

ولفى إليـهـا سنان الماء يطعنهـا ... فـاستلأمت زردا من فـضة الحبب

انتهى. وفى بعض الدواوين عزوا البيتين للقاضى عبد الوهاب المالكى. وتشبه أبيات ولادة أيضا أبيات سلمى بنت القراطيسى، من أهل بغداد، وكانت مشهورة بالجمال والأدب:

عيـون مهـا الصـريم فـداء عـينى ... وأجـيـاد الظبـاء فـداء جيـدى

أزين بـالعـقـود وإن نحـرى ... لأزين للعـقـود من العـقـود

ولا أشكو من الأوصـاب ثقـلا ... وتشكو قـامـتى ثقل النهـود

ولما بلغت هذه الأبيات المكتفى[1] قال اسألوا عنها، هل تصدق صفتها أقوالها؟ فقالوا: ما يكون أجمل منها، فقال: اسألوا عن عفافها، قالوا: هى أعف الناس، فأرسل إليها مالا جزيلا، فقال: تستعين به على صيانة جمالها ورونق أدبها. فإنعام المكتفى عليها من غير أن ينظرها، مكتفيا بسماع أوصافها، هو من قبيل قول الشاعر:

عشقتكم من قبل رؤياكم ... لحسن وصف منكم قد جرى
كذلك الجنة معشوقة ... لوصفها من قبل أن تبصرا

وقول الآخر:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وأما عائشة البيعونية، الفاضلة العالمة، فكانت من أكابر النساء المتصوفات، مشغولة بالعبادة والزهد والورع، تقول الشعر الغريب على لسان الصوفية أو فى مدح الرسول الحبيب، وتذكر ذلك فى معرض الغزل الرقيق، وكلامها مقبول وبحسن القبول حقيق، فمن ذلك بديعيتها التى عدت من البدائع، وفاقت بمطلعها على أكثر المطالع، حيق قالت فى الاستهلال، وأجادت فى المقال، لاسيما وأنها فى مدحه صلى الله عليه وسلم:

فى حسن مطلع أقمار بذى سلم ... أصبحت فى زمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جار جارح مقلى ... والجار جار بعذل فيه متهم
فى الهوى روح سمحت بها ... ولم أجد روح يسرى منهم بهم
وفى بكائى لحال حال من عدم ... لفقت صبرا فلم يجد لمنع دمى
يا سعد إن أبصرت عيناك كاظمة ... وجئت «سلعا»[2] فسل عن أهلها القدم
فثم أقمار تم نازلين على ... طويلع حيهم وأنزل بحيهم

(١) المكتفى بأمر الله أبو محمد (المتوفى سنة ٩٠٨ م) خليفة عباسى، خلف أباه المعتضد بالله سنة ٩٠٢ م.
(٢) اسم مكان، قيل هو الجبل الواقع بسوق المدينة، والمشهور أنه الجبل الذى على بابها. كما يسمى بهذا الاسم كذلك حصن بقرب القدس، وجبل ببلاد هذيل. انظر (مراصد الاطلاع) جـ ٢ ص ٧٢٧، ٧٢٨.

إلى آخرها، وكلها ملح، وقالت فى الغزل:

كأنما الخال تحت القرط فى عنق ... بدا لنا من محيا جل من خلقا

نجم بدا فى عمود الصبح مستترا ... تحت الثريا بقرب الشمس فاحترقا

فانظر إلى اختراع هذا المعنى فى الخال، تجده كالمعجز من ربات الحجال.

وما أحسن قولها من قصيدة تقفو فيها قصيدة ابن زريق البغدادى فى البحر والقافية، التى مطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

إلى أن قال فيها:

ودعته وبودى لو يودعنى ... صفو الحياة وإنى لا أودعه

فقالت:

ودعته وجميل الصبر ودعنى ... إذ ذاك والقلب منى سار يتبعه

وصرت لا صبر لى حتى ألوذ به ... ولا فؤادى أرجى العذل ينفعه

أذرى الدموع فتذكى فى الحشا لهبا ... النأى أسعره والشوق لوعه

وما يئست ولكنى على طمع ... بأن شملى بهم مولاى يجمعه

نذر علىّ لئن وافى البشير بهم ... لأبذلن له مالى وأخلعه

وأجعل الروح منى من منائحه ... إن نلت ما أرتجى، صاحى توقعه

وقالت من بحر وقافية عينية ابن الفارض فى مدحه صلى الله عليه وسلم:

سحائب جفنى بالدموع هوامع ... إذا لاح من تلقاء يثرب لامع

وصبرى مغلوب وشوقى غالب ... وحبى مطبوع ووجدى طابع

ودمعى مطلوق وقلبى مقيد ... ولبى منزوع وفكرى ينازع

واصل حديثى فى الغرام مصحح ... وفى الناس مشهور وفى الخلق شائع

ولى سيرة فى الحب سار بسيرها حليف ولوع بالمحبة والع

وأصبحت فيها فى المحبين قدوة وكل لأثرى مقتف ومتابع

وشوقى سمير والهيام مصاحب ووجدى قرين والغرام مضاجع

إلى أن قالت فى التخلص :

وهذا غرام ليس فيه تصنع عليه دليل ليس فيه تنازع

بأعظم محبوب وأشرف مرسل وأفضل مبعوث له الله رافع

وهى قصيدة طنانة . وقالت محاكية لتائية ابن الفارض قصيدة مطلعها :

سقانى حميا الحب من قبل نشأتى ومن قبل وجدانى طربت بنشوتى

وأشهدنى لطف الجمال كما يشا بما شاء لما شاء أخذ شهادتى

وأودع سرى سرا يجل عن إحاطته بالفهم أو بالبصيرة

فجل علوا عن إحاطة حادث وعز جلالا عن فهوم الخليقة

وأسمعنى منه خطابا يجل عن تألف أنواع الحروف بنغمة

خطابا إليه ما برحت مشوقة أعلل قلبى بالسماع ومهجتى

وصيرنى فى جامع الحب والهوى أحيعل[1] للعشاق أهل المحبة

ومن «عرفات» الحب قمت بموقف تأخر عنه كل صاحب علة

ووادى «منى» منه بلغت المنى به بجمع بلا فرق بمنية منيتى

نحرت له نفسى خلافا لأمرها فسلمها من كل سوء وفتنة

ولما تبدى للبصيرة ما سوى حبيبى فإن باطل فى الحقيقة

وأن ليس إلا ذاته وصفاته وأفعاله، والغير آثار قدرة

وأن فعال الخلق من بعض خلقه ولم يملكوا من أمرهم بعض ذرة

---

(١) حيعل : قال : حى على . . . الصلاة أو الفلاح . . أو . . أو . . الخ . . الخ . .

تلاشى سواه فى عيان بصيرتى ولم أر إلا هو بعين الحقيقة
ولى فيه قلب مع ذنوبى واثق بعفو ليجليها وإن هى جلت

وهى قصيدة طويلة جدا. ولها مقطعات رائقة، منها:

من لى برايات سعد فى ورودى من عين الحياة بوصل فيه رآآت
روح وراح وراووق ورونحة ورؤية ورياحين وراحات

ومنها:

متى يقال إلى الحانات لى هيا وأنظر الوصل للكاسات لى هيا
ومنية القلب بالملآن لى حيا وأصبح الميت منى بالروا حيا

ومنها:

لقد بلغت الأملا ممن له كل ملا
أجلسنى فى حانة لما سقانى وملا
مدامة أقداحها خزائن الله الملا

ومنها:

أجد التذلل فى هواك لذاذة والبعد قربا والشقاء نعيما
والبؤس نعمى والتقاطع وصلة والموت محيا والبلا تكريما

ومنها:

ألا حبذا من خمرة معنوية بها فى قلوب الشاربين لها نهب
وإن نبغ أيضا جا فخذها بقوة هى الشمس إلا أن مطلعها القلب

ومنها:

عذولى لو علمت بما يعانى فؤادى فى الهوى أوضحت عذره

ولو ذقت الوصـــال وذقت هجـــرا لصـــرت بـحــالة للنـاس عــبــرة

ولهـا ديوان شـعـر فـيـه مـسلك أهل التـصـوف، وأكـثـرت فـيـه بمدح شـيـخـهـا الجيلانى،[١] ويستفاد منه أنها كانت متزوجة، وأن لها أولادا.

وبالجـملة، فكم لهـا من فـتـوحـات إلهـيـة، ومنحـات صـمـدانيـة، ذكـرت أهل عصرهـا، الذى هو بها فريد، التنوح على رابعة العدوية، التى فيض بحرها بسيط مديد، بعد أن كانت مثقلة بالذنوب، مكبلة بقيود العيوب.

ولنذكـرهنا قـصـة رابعـة العدوية، وسبب توبتهـا، لما فيـهـا من الموعظة لذوات الألباب من النسـاء، ولكل من تمادى قلبه على الذنوب وقسا. فنقـول: حكى عن ذى النون المصرى،[٢] رحمه الله تعالى، أنه قال: بينا أسيرفى بعض السياحة فى الجبال والأودية والقفار، إذ رمتنى المقادير إلى واد يقال له وادى المستضعفين، بأرض مصر، فتمشيت فيه حتى انتهيت إلى ساحل البحر، وكان زمن النيل، فاشتقت إلى الركوب فى المراكب، فجلست إلى الأرض ساعة، وإذا بسفينة سائرة، فقمت وناديت: يا أهل السفينة، عسى أن تحملونى معكم؟ فلم يلتفت إلىَّ أحد منهم، فجلست، وإذا بسفينة ثانية مقلعة، فقمت إليهم وناديتهم، فقالوا: يا شيخ، إن كان معك دراهم حملناك، وإلا فاجلس مكانك. قال: فجلست، وإذا بسفينة ثالثة مقلعة أيضا، وإذا فيها حس أوتار ونغمة مزمار، قال: وكانت معهم رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، وهى تشرب الخمر، قبل توبتها، قال: فقمت إليهم، وقلت: عسى أن تحملونى معكم؟ فعرفنى رجل منهم، وقال لى: يا شيخ، ما أنت ذو النون؟ فقلت: نعم، فقال: أنت رجل صالح، ونحن قوم عصاة، نشرب الخمر، فكيف ركوبك معنا؟ فقالت رابعة: يا قوم، احملوه معكم، وأنا أفتنه بحسنى وجمالى! قال: فحملونى معهم، وساروا حتى توسطنا البحر، فقام شاب منهم، فملأ كأسا من الخمر، ووقف به على رأسى، وأنشأ يقول:

---

(١) عبد القادر (١٠٧٧-١١٦٦م) أحد الأقطاب الأربعة عند أهل التصوف، وإليه تنسب الطريقة القادرية.

(٢) ذو النون المصرى، أبو الغيض ثوبان (٧٧١-٨٥٩م) صوفى مصرى، من أصل نوبى، كان عالما بعلوم الشريعة، وعلوم الحقيقة -التصوف-، وأيضا عالما بعلوم الصنعة والكيمياء وله معرفة باللغة السريانية.

وخمار دخلت إليه ليلا ... وجنح الليل مسود الجناح
فقال: من الفتى؟ فأجبت: ضيف ... تسربل بالمكارم والسماح
فقام إلى دنان مترعات ... مفدمة[1] بكافور رباحى
وفض ختامها عجلا فلاحت ... على الظلماء أنوار الصباح

قال: ثم شرب الكأس، وجلس، وقام من بعده شاب آخر، فملأ الكأس، ووقف مثله، وأنشأ يقول:

وصحنا بباب الدير ياسعد يا فتى ... وقد جاءنا بالراح تجلو نفائسا
طرقنا عليه الدير فى غسق الدجا ... سكارى بكاسات الهوى وتناعسا

فشرب ذلك الكأس، ثم جلس، فقامت رابعة وقالت: ما تقدرون على ذى النون، أنا أفتنه بحسنى وجمالى، ثم قالت: يا ساقى املأ الكأس، فملأه، فأخذته من يده، ووقفت على جانب السفينة، ونظرت إلى ذى النون، وجعلت تقول:

يا ليلة بات نديمى بها ... مليحة الردف كعوب رداح[2]
شبهتها والكأس فى كفها ... بدر الدجى يحمل شمس الصباح

ثم قالت: يا ذا النون، اشرب بكأسنا، فقال: ويحك! لقد شربت بكأس إذا شربه العليل لم يحتج إلى طبيب، وإذا شربه الصادق لم يفتر عن الخالق، فنادت: يا ذا النون، إن لم تشرب من شرابنا وإلا فاسقنا أنت من شرابك، فقلت: يا جارية، أو تشربين من شرابنا؟ قالت: أى والله! قلت: فإذا ابطلوا الأوتار، واتركوا المزمار، واسمعوا ما أقول: ثم قمت، ونفضت مرقعتى، وأنشأت أقول:

أحسن من قينة ومزمار ... فى غسق الليل نغمة القارى
ياحسنه والجليل يسمعه ... بطيب صوت ودمعه جارى

(١) مفدمة، أى موضوع عليها الفدام - بفتح الفاء والدال المشددة - مصفاة صغيرة أو خرقة لتصفية محتوى الدنان.

(٢) الرداح: الضخمة الألية، والكلمة فى الأصل وصف للكباش.

وخـــده فى التـــراب منعـــفـــر   وقلبـــه فى مـــحـــبـــة البـــارى

يقـــول: ياســـيـــدى ويا سندى   أشــــغـلنى عنك ثقـل أوزارى

قال: فزعقت رابعة، ووقعت مغشيا عليها، فلما أفاقت نادته: يا ذا النون، والله لقد وقع دواؤك على دائى، فاسقنى من شرابك، وزدنا من أشعارك، فوقفت على جانب السفينة وقلت:

أفـق مـن رقـــــــدة السـكـر   وداو القـلـب بـالـذكـــــــر

فـــهـــذا الليل قـــد ولـى   ولاحـت أنجم الفـــجـــر

ترفـق أيهـــا الســـاقـى   قـــتـلت القـــوم بالسـكـر

شـــربـنـا ليـلـة الجـــمـع   وكـــانـت لـيلـة القـــدر

فعند ذلك قامت رابعة، وقطعت ما كان عليها من الحلى والحلل، وعمدت إلى قلع السفينة فقطعت منه قطعة وتسترت بها، ورمت بنفسها فى البحر فى ظلام الليل، فقال ذو النون: واأسفى عليها، وظننا أنها غرقت فإذا بها تنادى على البر: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ (الحديد: ٤)، قال ذو النون: وسارت السفينة إلى أن أتينا إلى مسجد موسى عليه السلام، فأقمت فيه عامين، ثم اشتقت إلى الحج، فبينا أنا أطوف إذ رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة، وهى نحيلة الجسم، دقيقة العظم، عليها أطمار من الصوف، وهى تنادى وتقول: بحبك لى ألا ما غفرت لى؟ قال ذو النون: فقلت لها: كيف تقولين: بحبك لى! كيف تعرفين أنه يحبك؟ فنادت: يا ذا النون، لولا أن مولاى يحبنى ما منّ على بتوبته وأوصلنى إلى بيته الحرام، فقلت: من أعلمك باسمى؟ فقالت: لا إله إلا الله! وقع التناكر بعد المعرفة؟ أنا الجارية التى تبت على يديك فى السفينة، قال: فسلمت عليها، وقلت لها: وأين ذلك الحسن والجمال؟ فقالت:

ذهبت لذة الـصـبـا فى المعـاصى   وبقى بعـد ذاك أخـذ القـصـاص

ومـضى الحسن والجـمـال ومـالى   عـمـل أرتجـيـه يـوم الخـلاص

غـيـر ظنى بالـلـه وهو جـمـيـل   فـيـه أخلصـت غـاية الإخـلاص

ثم قالت: يا ذا النون، أنت اليوم ضيفى، فهل تشتهى شيئا من الفاكهة؟ فقلت لها: من أين لك هذا فى غير أوانه؟ فقالت: إجلس ولا تعترض حتى آتيك بما طلبت، فجلست ثم مضت الجارية إلى شعاب مكة، فما كان بأسرع أن جاءت وعلى يديها مائدة عليها عنب وتين ورمان فوضعته بين يدى، وقالت: كل بسم الله، فمددت يدى لآكل، فاختلج فى قلبى، وقلت: لى فى عبادة الله اثنتان وسبعون سنة ما نلت هذه المنزلة، ولهذه الجارية عامان فنالت! فبكت الجارية، فقلت: لم تبكين؟ قالت: كيف لا أبكى وقد اختلج فى صدرك كذا وكذا؟ فقلت: سبحان الله! ومن أعلمك بهذا؟ قالت: يا ذا النون، والله ما نلت هذه المنزلة إلا ببركتك، لأنى أتيت مقام أبينا الخليل عليه السلام، وصليت ركعتين. وقلت: إلهى بحرمة ذى النون لا تخجلنى بين يديك، فلم أشعر إلا وهذا الطبق عن يمينى، وإذا النداء: يا رابعة، خذى هذا الطبق وانطلقى إلى وَلِيِّنا!.

وهذه الحكاية على كل حال لا تخلو عن التعريف بقدر ذى النون ورابعة، وأنهما من أكابر الزهاد الذين لهم قدم فى العلوم اللدنية فارعة، ومما ينسب إلى رابعة العدوية قولها:

فليتك تحلو والحياة مريرة	**وليتك ترضى والأنام غضاب**
وليت الذى بينى وبينك عامر	**وبينى وبين العالمين خراب**
إذا صح منك الود فالكل هين	**وكل الذى فوق التراب تراب**

ومما ينسب إليها أيضا:

أحبك حبين حب الهوى	**وحبا لأنك أهل لذاك**
فأما الذى هو حب الهوى	**فكشفك للحجب حتى أراك**
وأما الذى أنت أهل له	**فتجريد قلبى عمن سواك**

وقد اجتمع عندها علماء وزهاد، وتفاوضوا فى ذم الدنيا، وهى ساكنة، فلاموها، فقالت: من أحب شيئا أكثر من ذكره، إما بحمد أو ذم، فإن كانت الدنيا فى قلوبكم لا شىء فلم تذكرون لا شىء؟! أى الدنيا.

وقد تسمى «برابعة» عدة نساء، غير أن الأعيان منهن ثلاث: الأولى: رابعة العدوية بنت إسماعيل البصرى، وهى صاحبة الترجمة، والثانية: رابعة بنت إسماعيل الدمشقية القدسية، وقد شاركت الأولى فى اسمها واسم أبيها، والثالثة: رابعة بنت إبراهيم بن عبد البر البغدادية، وتسمى رابعة بغداد. وقبر رابعة العدوية، رضى الله عنها، بالبصرة، وهو معروف ومشهور هناك، ورابعة الدمشقية بالقدس، دفنت على رأس جبل هناك معروف بالطور، وإنما عرفت بالقدسية لدفنها هناك، ورابعة البغدادية دفنت ببغداد، وكانت وفاة رابعة العدوية البصرية سنة خمس وثلاثين ومائة، [1] فى خلافة السفاح، وقيل سنة خمس وثمانين ومائة [2].

فجميع هؤلاء النساء مجموع فيهن معنى الحسن والجمال، باطنا وظاهرا، من كل ما يتكفل لهن بوصف الكمال، فليست المعارف والآداب فى النساء إلا محامد كالرجال، فلا يعاب قول الشعر بجميع أنواعه من ربات الحجال، فكيف لا وأنه دون الرجال، وهذا مما أطلع عليه من الدواوين القديمة، فما بالك بغير ذلك من يروى عن أبى تمام أنه قال: لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء دون الرجال، وهذا مما اطلع عليه من الدواوين القديمة، فما بالك بغير ذلك من المقطعات والقصائد، فالأدب فى النساء جمال ثان معنوى، وهو مكمل لجمالهن. لأن الأصل فى المحاسن، والمطلوب عند العقلاء فى جميع المواطن، إنما هو إصلاح السرائر، لا مجرد الجمال الظاهر، وإنما ضم إصلاح الظاهر إلى إصلاح الباطن لتحصيل الكمال، ولما فيه فى الأغلب من الدلالة على الاعتدال، وتتمته تحسين المقاصد، وإصلاح العقائد، والانقياد إلى الأوامر الإلهية، وتلقى ما فى الصحف السماوية، كما أشار إليه صاحب المراتب الباطنة والظاهرة، وقطب دائرة الكائنات فى الدنيا والآخرة: «ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهى القلب». وصلاحه بملازمة الشريعة المطهرة، والتخلق بأخلاق صاحبها المضيئة النيرة. وأما المحاسن الظاهرة، التى فيها غالب النظم

---

(١) هجرية، وتوافق سنة ٧٥٢ م.

(٢) هجرية، وتوافق سنة ٨٠١ م.

والنثر، فهى الحسن الصريح، وهو ما استنطق بالتسبيح، والصحيح أنه معنى لا يدرك، اختلفت فيه العبارات، وكثرت فيه الاستعارات، والخلاف إنما هو فى الألفاظ، والمعنى المطلوب واحد، فى سائر الموارد، كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

ولذلك قال بعضهم:

فكم بين حذاق الجدال تنازع ... وما بين عشاق الجمال منازع

ومما يستحسنه الطبع والشرع فى الجمال الظاهر التزين والطيب..

الفصل السابع
فى استحباب الزينة والطيب للنساء

من المعلوم أنه مما يليق بالمرأة استعمال الزينة فى المجلس، ويكون ذلك بأحسن الألوان المألوفة، فى كل عصر بحسبه. وأما عند العرب فأحسن ألوان الزينة للباس المصبغات بالحمرة والصفرة، وكانت العرب تستعمل ذلك للعروس عند هدائها، وعنهم أخذها الناس، ولملازمتهم استعمال ذلك صارت ثياب العروس عندهم علما على الثياب المصبوغة. روى عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص، قالت: أدركت نساء من أزواج النبى، صلى الله عليه وسلم، وما جل لباسهن إلا العصب والمعصفر - والعصب نوع من الوشى - قال الشاعر:

فخذى ملابس زينة ... ومصبغات هن أفخر
وإذا خرجت تقنعى ... بالحمر إن الحسن أحمر

ومن الزينة للنساء التحلى بالذهب والفضة وأنواع الجواهر، وإن كان بعضهم يفضل العاطلة على المتحلية، قال الشاعر:

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا
وتزيدين لطيب الطيب طيبا ... أن تمسيه أين مثلك أينا

وقال آخر:

وأنق من عقد العقيلة جيدها ... وأحسن من سربالها المتجرد!

وقال آخر:

لعمـرك مـا شـوها بحلـى تزينت كحسنا وإن كانت عن الحلى عاطلة
إذا مـا ادعت حسنا وتـزوير حليهـا شهود فدعوى صاحب الزور باطلة

ومن أبيات الحماسة:

لعـب النسـيم بهـن فى إظـلاله حتى لبـسن ثيـاب عـيش غـافل
يأخـذن زينتـهن أحسـن مـا ترى فـإذا عـطلن فـهن غـير عـواطل
وإذا خبـأن خـدودهن أرينـنى حق المهـا وأخـذن نبل القـاتل
يرمـيننا لا يسـتترن بجنة إلا الصبـا وعمن أين مقـاتلى
يلبسن أردية الشبـاب لأهلهـا ويجـر باطـلهن ذيـل البـاطل

وقال آخر:

أتى عـاطل الجـيد يوم النوى وقـد حـان موعـدنا للفـراق
فـقلـدته بلآلـئ الدمـوع ووشـحتـه بنطاق العناق

ومما يستحب للمرأة، بل وللرجل، استعمال الطيب، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «حبب إلىَّ النسـاء والطيب». وفى رواية: «حبب إلىَّ من دنيـاكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة». ونظم ذلك بعضهم فى قوله:

إلى مـن دنيـاكـم أضحت ثلاث مشتهاه
الطيب والنسـاء مع قـرة عـينى فـى الصـلاه

وأشار بقوله: «حبب إلىَّ»، إنه ما أحبها بنفسه، بل حببها إليه الله، سبحانه وتعالى، ولم يذكر الفاعل تعظيما له، أو لتطهيره عن اللسان غيرة عليه كما قيل:

وإياك واسم العـامـرية إننى أغـار عليـهـا مـن فم المتكـلم

أو لكونه معلوما لكل أحد، وإنما قال «من دنياكم»، فأضافها لغيره. إشارة إلى

أنه فيها كالغريب المسافر، ولها أهل سواه، وهو من أهل الله لا من أهلها، وإنما حبب له هذه من أمور الدنيا ليستقر بها ويتقيد بقيودها مدة سكناه فيها، لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة، دعوة للعالمين وتكميلا لهم، فقد قيدت نفسه بالنساء، وقيد قلبه بالطيب، ووجهه بالصلاة، وخصت هذه الأشياء بالذكر، وإن كانت دنيوية لأنها معينة على الأمور الأخروية، لأن النكاح سنة أكيدة، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «النكاح سنتى، فمن رغب عن سنتى فليس منى». وأما الطيب فلأنه يقوى القلب والروح، فيلطف البشر ويعين على إدراك المغيبات والإلهام، وأما الصلاة فعماد الدين ومعراج المؤمنين. وهذه الثلاثة من نعيم الجنان، فهى دنيوية ظاهرا، أخروية باطنا، وكان النبى، صلى الله عليه وسلم، يتطيب لقدوم الملائكة، والملائكة تحب الطيب، وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل الثوم والبصل، فيقول إنى أناجى ما لا تناجون، وقال صلى الله عليه وسلم: «من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا» أو: «فليعتزل مسجدنا»، وأكلهما يبيح ترك الجمعة والجماعة، وفى معناهما «الكراث» «والفجل». ولما كان عليه الصلاة والسلام ظاهره فى الدنيا وباطنه فى الآخرة، كان محبوبه كذلك مناسبا له، وقدمت النساء لأنها أمهات، وأصول، فمرتبتهن التقديم، ولأن بهن يتخلى العارف عن الشواغل النفسانية، والطيب تحلية، والتخلية مقدمة عليها، والنساء والطيب مقدمتان، والصلاة نتيجة، فأخرت، وإن كانت أشرف.

ويقال: إنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر هذا الحديث قال أبو بكر، رضى الله عنه: يا رسول الله، أنا حبب إلى من الدنيا ثلاث: النظر إليك، وإنفاق مالى عليك، والجهاد بين يديك. وقال عمر، رضى الله عنه: وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث: إكرام الضيف، والصوم فى الصيف، والضرب بالسيف. فنزل جبريل فقال: وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث: إغاثة المضطرين، وإرشاد المضلين، والمؤانسة بكلام رب العالمين. ونزل ميكائيل فقال: وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث: شاب تائب، وقلب خاشع، وعين باكية. وقد حسده اليهود على حب النساء، فقالوا: ما همه إلا ذلك، فنزل فقوله تعالى ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (النساء: ٥٤).

فلما بلغ ذلك إلى الإمام أبى حنيفة، قال: وأنا حبب إلى ثلاث: **تحصيل العلم** فى طول الليالى، وترك التعاظم والتعالى، وقلب من أمور الدنيا خالى. فلما بلغ الإمام مالكا قال: وأنا حبب إلى ثلاث: مجاورة الرسول فى روضته، وملازمة تربته وحجرته، وتعظيم أهل بيته وعترته. فلما بلغ الإمام الشافعى، رضى الله عنه، قال: وأنا حبب إلى ثلاث: عشرةالناس بالتلطف، وترك ما يؤدى إلى التكلف، والاقتداء بطريق التصوف. فلما بلغ الإمام أحمد بن حنبل، رضى الله عنه، قال: وأنا حبب إلى ثلاث: متابعة النبى صلى الله عليه وسلم فى أخباره، والتبرك بعظيم أنواره، وسلوك الأدب فى سننه وآثاره.

* * *

(عود لبدء): ثم إن الطيب مندوب إليه فى الشرع لمن قصد المقاصد الشرعية، من تعظيم أيام الجمع والأعياد، مثلا، وأن يدفع عن نفسه ما يكره من الروائح الخبيثة، وأن يدخل على الناس بشم ذلك راحة، وأن يظهر نظافته ومروءته بين إخوانه وأهله، وأن يقوى دماغه وقلبه، لتأثير الطيب فى تقوية هذه الأعضاء. فالطيب كله من أعظم لذات البشر، وأقواها لدواعى قضاء الوطر، وقولهم فى المثل: «لا عطر بعد عروس»، يضرب لتأخير الشىء عن وقت الحاجة إليه، قيل: إن أصل المثل أن رجلا تزوج امرأة، فوجدها شعثة، فقال لها: أين عطرك؟ فقالت: خبأته لوقت غير هذا! وقيل فى تفسيره غير هذا. وقال يزيد بن معاوية فى أم كلثوم بنت عبدالله بن جعفر:

إنهـــا بنت عـــامـــر بـن لؤى ... حـين تدعى وبـنت عـبـد مناف

ولهـــا فى المطيـبـين جـدود ... ثـم نالـت ذوائـب الأخـــلاف

لا تراهـا على التـعطـر والبـذلة ... إلا كـــدرة الأصـــداف

وسئلت عائشة رضى الله تعالى عنها، عن الزينة الظاهرة، فقالت: هى الكحل والخضاب، وورد الحرص على التكحل بالإثمد فى غير ما حديث، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه خير أكحالكم، يجلو البصر، وينبت الشعر». وما أحسن قول بعضهم:

وأحــور يصـطاد القلـوب ومــاله من الريـش إلا زعـفـــران وإثمـــد
وما كنت أخشى الفتك ممن سلاحه ســوار وخلخـــال وطوق منضـــد

وخضاب البنان عند العرب ممدوح، بل وخضاب اليد كلها أيضا، قال بعضهم: رأيت قينة خضبت يدها بالحمرة ونقشت فيها بالسواد، وهى تنشد، هذا البيت:

ليس حسن الخــضــاب زين كـفى حــسـن كـفى مــزين للخـضــاب

وما أحسن قول بعضهم فى وصف مليحة جامعة لأوصاف الحسن:

تبـدت فـهـذا البـدر من كلف بهـا وحـقك مثلى فى دجى الليل حـائر
ومـاست فشق الغـصن غيظا ثيـابه ألـست تـرى أوراقـــــه تـتـنـاثـر
وعاجت فألقى العود فى النار نفسه كـذا نقـلـت عنه الحـريق المجــامـر
وقـالت فـغـار الـدر وأصـفـر لونه كـذلك مــا زالت تغـار الـضـرائر

وقال آخر:

بذلك لهـا مع أدمع العـين جـوهرا وقدمـا حكاها فى الصـيانة والسـتر
فـقـالت وأبدت مـثله إذ تبـسـمت غنـيت بهـــذا الدر عن ذلـك الدر

ومن السنن المطلوبة والآداب المرغـوبة، لكل من الرجل والمرأة، اسـتـعـمـال السواك، لأنه يجلو الأسنان ويقويها، ويطيب النكهة، ويجلو البصر، ولم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم أكثر استعمالا للسواك من نسائه، صلى الله عليه وسلم، وسواك الأراك من أحسن ما يستاك به، ومن أحسن ما قيل فيه:

هنيئـا على رغـمى لعـود أراكـه تسوك بها الزلـفاء مبسمـها العذب
لئن شبـعت منه لقـد زار ثـغـرها أراكـا يبـيـسـا فـانثنى مندلا رطبـا

وقال آخر:

سقتنى بكأس الحب صرفا مروقا رقاق الثنايا عذبة المترنق
وخمصانة تفتر عن متنسق كنور الأقاح طيب المتذوق
إذا امتضعت بعد امتناع من الضحى أنابيب من عود الأراك المخلق
سقت شعب المسواك ماء غمامة فضيضا بخرطوم الرحيق المروق

وقال آخر:

وتجلو بفرع من أراك كأنه من العنبر الهندى والمسك يصبح
ذرى أقحوان واجه الليل وارتقى إليه الندى من رامة المتروح
هجان الثنايا معرب لو تبسمت لأخرس عنه كاد بالقول يفصح

ومما يحسن هنا على ذكر السواك قوله:

بالله إن جزت بوادى الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضها فإننى والله مالى سواك

ولبعضهم:

عجبت من المسواك يرشف ريقها مدى الدهر لم يمنعه من ذاك مانع
ويبقى جمادا كيف لم يحى بالحيا وتفنى الليالى وهو أخضر يانع
رضاب يقوم الميت إن شم عرفه ولو قطعت أوصاله والأضالع
بنفسى ثغر قلت إذ لاح نوره أبرق بدا من جانب الغور لامع
وبرد رضاب قلت عند وداعه زمان اللقا بالخيف هل أنت راجع
فقال: خشيت الهجر منها فعاقنى فحسبك عذر فى جوابى قاطع

وقال الصلاح الصفدى[1]:

---

(١) خليل الدين أيبك (١٢٩٦ - ١٢٦٣ م) أديب ومؤرخ، يقال إنه صنف نحوا من خمسمائة كتاب، أشهرها كتاب التراجم الذى ألفه باسم (الوافى بالوفيات).

يـا ثغـــــره ليس الـثنايـا التـى تضـيء غـــيــر الأنجـم الغــــر
فلـينـقل المســـواك مـــا عـنده يروى عـن الضـــحـــاك والـزهر

وقال آخر :

نقـل الأراك بأن ريـقـــة ثغـــره من قـــهـــوة مـــزجت بماء الـكوثر
قـــد صح مـــا نقـل الأراك لأنه يرويه حـقـا عن صـحـاح الجـوهر

ومما يحكى من النوادر : أن بعض الظرفاء حج سنة ، فلما رجع تاه يوما عن الطريق ، فمر بخباء على بابه امرأة لم ير أحسن منها وجها ، فأعرض بوجهه عنها ، فنادته : لا تعرض عنى فأنا التى لا يتم حجك إلا بى ! فقال لها : ومن أنت؟ فقالت : أنا التى قال فى الشاعر :

تمـــام الحـج أن تـقـف المـطـايـا على لميـــاء واضـــعـــة النقـــاب
تصـــدق حيـن تبـصـــرها بحـــور وعــــدت بهن فـى أم الكتـــاب
تقـول لوجـهـهـا سبـحـان مـولى يصـــــور مـــثـل هذا مـن تراب

قال : فقلت لها : حمى الله هذا الوجه من العار ، ولا عذبه فى الآخرة بالنار ، وأخرجتُ سواكا فناولتها إياه ، وقلت : هذا السواك هدية الحجاج ، فقالت : لا تقل : سواك ، بل قل : أراك ، ورفعت وجهها إلى السماء وقالت :

لا أقـــول الســواك من أجـل أنى إن ذكـرت السـواك قـلت سـواكـا
بل أقـــــول الأراك مـن أجل أنـى إن ذكـــرت الأراك قلـت أراكـــا

قال : فصرخت ، وأغمى على ، ووضعت رأسى على مقدم الكور ، فما رفعت رأسى إلا وناقتى على الطريق المسلوك ، فذهبت ، وكنت أدعو الله كثيرا أن يرزقنى مثلها فى الدنيا والآخرة . انتهى .

وقد أكثر الشعراء من التشبيهات الغريبة فيما يخص النساء وزينتهن ، وما يتحلين به مما هو معلوم فى كتب الأدب .

وكما أن الزينة من المرأة ممدوحة، فكذلك هي ممدوحة من الرجل بما يلائمه، فقد روى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها: كان نفر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينتظرونه، فخرج يريدهم، فجعل يسوى شعر رأسه ولحيته، قالت: فقلت: يا رسول الله، رأيتك تفعل هذا؟ قال: «نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال». انتهى. والنساء يحببن من رجالهن التزين لهن كما يحبون أن يتزين لهم. قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، أى يتزين الرجل للمرأة كما يحب أن تتزين له. والمرأة تحب وجاهة زوجها. وذكر بعض شراح (المقامات) أن معن بن زائدة بينما هو جالس ذات يوم إذ أتته امرأة من بنى سهم، أحسن الناس وجها، فقالت: أصلح الله الأمير، إن عمى زوجنى من ليس لى بكفء، فقال معن: على بزوجها، فأدخل عليه رجل من أقبح الناس، فقال: من هذه منك؟ فقال امرأتى، فقال: خل سبيلها، ففعل الرجل ذلك، وأطرق معن ساعة ثم قال:

أتيت بها مثل المهاة تسوقها	فيا حسن مجلوب ويا شر جالب
لعمرى لقد أصبحت غير محبب	لديها ففارقها فراق الأجانب
ألا رُب حوراء المحاجر طفلة	تساق إلى وغد من القوم تنبال
يقولون جرتها إليه قرابة	فويح العذارى من بنى العم والخال

- والوغد الرجل الدنيء، والتنبال: القصير - ومما يحكى فى مثل هذاك ان عمران بن قحطان دخل على امرأته حمدة، وقد تزينت له، وكانت جميلة، وكان عمران قصيرا قبيحا، فلما نظر إليها ازدادت فى عينه حسنا، فلم يستطع أن يصرف بصره عنها، فقالت: مالك؟ قال: أصبحت والله جميلة! فقالت له: أبشر، فإنى وإياك فى الجنة، قال: من أين علمت هذا؟ قالت: أعطيت مثلى فشكرت، وأعطيت مثلك فصبرت، والشاكر والصابر فى الجنة! فخجل، ونهاها أن تعود لمثل ما قالت. وبالجملة فما أحسن قول من قال:

ليت الملاح وليت الراح قد قرنا	فى جبهة الليث أو فى قبة الفلك

كى لا يرشف من خمر سوى أسد ولا يقبل معشوقا سوى ملك

فمشاكلة الطبع للطبع توجب محبة الزوجين بدون أن يكون أحدهما فى الباطن متحملا ثقلا من الآخر، لاسيما النساء، فإنهن أشد ميلا للتزين والتبرج والتنافس فى الملاحة، يملن طبعا لمن يمدحهن بالجمال، فهذه الصفات عندهن موانع قوية من بلوغ درجة الكمال فى التربية، بدليل محاورة حمدة مع زوجها عمران بن قحطان، وإخجاله، فلو كانت مؤدبة صادقة لم يسمع منها مثل هذا الكلام، لأن المحبة تأباه، والصداقة تستره.

الفصل الثامن

(فى الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين)

تطلق المحبة على ما يرادف العشق والمودة والصداقة، فتعرف على الأول بأنها: الانجذاب الطبيعى الحاصل من تصور أوصاف المحبوب، من الحسن ونحوه، فيتولد العشق فجأة بدون فكر ولا نظر، على حسب مزاج العاشق قوة وضعفا. فقد يعشق الإنسان المرأة لوسامتها أو لتبسمها أو لسماع صوتها أو لرشاقة قدها، قال الشاعر:

أتاح لك الهوى بيض حسان ... سبينك بالعيون وبالشعور
نظرت إلى النحور فكدت تقضى ... وأولى لو نظرت إلى الخصور

وقال آخر:

صادتك من بعض القصور ... بيض نواعم فى الخدور
حور تحور إلى صبا ... ك بأعين منهن حور
وكأنما بثغورهن جـ ... ـنى الرضاب من الخمور
يصبغن تفاح الخدو ... د بماء رمان الصدور

وقال آخر أيضا:

إن الخدود إذا بدا توريدها ... نارا قلوب العاشقين تزيدها
كادت تسير مع النسيم نفوسنا ... شغفا بها لولا الجفون تقودها

ثم يقوى العشق تارة بنفسه، وتارة بأسباب جديدة جاذبة، كما أنه قد ينقطع بأسباب نادرة، كقساوة قلب المعشوق وهجره وإساءته والغيرة عليه، قال الشاعر:

ولقد شكرت مفارقى إذا أساء فى أخلاقه

لو كان أحسن عشرتى لهلكت يوم فراقه

وقال آخر:

إن خلا مل منا خلنا بالله منه

هو لا يسأل عنا ما لنا نسأل عنه

(الوحدانية فى الحب)

ومما لا يسامح فيه فى مذهب المحبين التشريك فى المحبة، والتبديل والتغيير فيها، قال بعضهم فى المعنى الأول:

تركت حبيب القلب لا عن ملالة ولكن جنى ذنبا يؤدى إلى الترك

أراد شريكا فى المحبة بيننا وإيمان قلبى لا يميل إلى الشرك

وقال آخر يخاطب من يحب:

عمرك الله لا تمل لسوائى وتحكم ولو فيه فتكى

وانظر الحق على علاه كل شيء يمحوه غير الشرك

وما أحسن قول بعضهم، من قصيدة:

كم سهل خدك وجه رضى والحاجب منك يعقده

ما أشرك فيك القلب فَلِمَ فى نار الهجر تخلده

وقال آخر، فى المعنى الثانى، يخاطب محبوبته:

إن كنت أزمعت على هجرنا   من غير ما ذنب فصبر جميل
وإن تبدلت بنا غيرنا   فحسبنا الله ونعم الوكيل

وهذا فى معرض التشريك والتبديل . وهناك إعراض يصدر عن المحبوب لمحض الدلال والخفر ، فليس بمذموم ، قال الشاعر :

أيها المعرض عنا   إننا نهوى الدلالا
أترانا قط قلنا   حسبك الله تعالى

ولعله عرض بقول الشاعر :

يا رائحا بعد ماسبانى   يهديك ربا السما تعالى

(الاختيار والاضطرار فى الحب)

والغالب أن هذا المعرض الأخير قد يكون سببا لبقائه ورسوخه ، فمن هذا يفهم أن الحب فى مبدئه اختيارى ، وبعد ذلك يصير اضطراريا ، وذلك لأن الرجل تمر به المرأة فيكون ظاهر هيئتها وشكلها مشاكلا لطبعه ، فتتحرك نفسه ، وتنبعث همته من أول نظرة ، فهذا لا يكون عشقا ، لأنه يمكنه أن لا يكرر النظر فى الأوصاف ، فإذا كرر النظر ازداد الحب ، كما قيل :

لا تكثرن تأملا   واحبس عليك عنان طرفك
فلربما أرسلته   فرماك فى ميدان حتفك

وقال آخر :

يزيدك وجهه حسنا   إذا ما زدته نظرا

وإن حصلت مخالسة أو رؤية ، أو حصل من المحبوب نظر بتيه وإعجاب أفتتن المحب بالجمال ، ووقع من الحب فى أسر الحبال ، ودخل فى عداد المحبين ، فلا يعد على هذا عاشقا إلا بعد تلك المقدمات ، فكان يمكنه حسم المادة بعد النظرة الأولى ،

فيفهم من هذا أنه فى مباديه اضطرارى ثم يصير اختياريا، وإن شئت قلت: إن ابتداءه اضطرارى واستمراره اختيارى، ولذلك قال بعض العرب: إنه نبت بذرة النظر، وماؤه المزاورة، ونماؤه الوصل، وقتله الهجر، وحصاده التجنى. ويقال أيضا: أول الحب النظر، وأول الحريق الشرر. قال بعضهم:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم أثرت نظرة فى قلب صاحبها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر
من سر مقلته قد ساء مهجته ... لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

وقال الأصمعى: كنت فى بعض مياه العرب، فسمعت الناس يقولون: قد جاءت، فتحرك الناس، فقمت معهم، فإذا جارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط فى حسن وجهها وتمام خلقتها، فلما رأت كثرة تشوف الناس إليها أرسلت برقعا، فكأنه سحابة غطت شمسا، فقلت لها: لم تمنعين النظر إلى وجهك الحسن؟ فقالت:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما أتعبته النواظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ثم نظر إليها أعرابى وقال: إنا والله ممن قل صبره:

أوَحشية العينين أين لك الأهل ... أبا الحزن حلوا أم محلهم السهل
وأية أرض أخرجتك فإننى ... أراك من الفردوس إن فتش الأصل
قفى خبرينا ما طعمت؟ وما الذى ... شربت؟ ومن أين استقل بك الرحل؟
لأن علامات الجنان مبينة ... عليك وأن الشكل يشبهه الشكل

قال الأصمعى: قلت: هذا والله هو السحر الحلال، والعذب الزلال، والبدر السامى، فكأنى بها وقد ذكرت له الأهل، ووصفت له المحل من الحزن والسهل،

هنالك يأتيها سعيا على الرأس لا سعيا على القدم، وتكون وجناتها الحمر أحب إليه من حمر النعم. انتهى. يعنى إن شعره أثر فى قلبها فيرجى له منها الوصال.

(عشق الحواس وعشق القلب)

والعشق قسمان: عشق الحواس، وعشق القلب، فعشق الحواس المجرد من عشق القلب شهوانى، ينتهى بالوصال، ولذة الاتصال، وأما عشق القلب، الذى هو العشق الحقيقى، فهو حب قلبى يرسخ فى النفس ما دامت أسبابه التى جلبت القلب إلى المعشوق راسخة، فإذا عشق الإنسان صفات محبوبه، وكانت هذه الصفات خيالية، ومجرد استحضارات تصورية، كان العشق محض خيال وتصور، فإذا انجذب القلب لمحاسن وجودية، ثم انقضت، فإن العاشق يستصحب الأصل نوعا، يعنى أن العقل يدرك الحقيقة، ويسكت عنها، فكل عاشق يمدح معشوقه بصفات الجمال الكاملة، والمحاسن الشاملة، وكأن قد فات زمانها، فإنه إنما يشاهدها بعين الاستحضار، ويبصرها ببصيرة التذكار، فإذا وصف محبوبه بما ليس فيه لا ينسب إلى الكذب، وإذا تمدح بشمائل محبوبه لا يعد من أرباب السخافة والطيش، وإنما عقول السامعين تقبل ما يقوله، ولا تحكم بوجوده، وبالجملة، فالحب يعمى بصيرة العاشق، ويشوش ذهن الوامق، ويملك روحه ويتسلطن عليها، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم «الحب يعمى ويصم». ومن ثم كان للعاشقين أوهام لا تحصى، ووساوس لا تستقصى، تجلب إليهم ملامة اللوام، وعذل العواذل، فى جميع الوقائع والنوازل، ومع أنه بهذه المثابة لا يخلو من المثالب، ولا يخلص من الشوائب، إلا أنه يختلف فى كل إنسان باختلاف طبعه، واستعداده الخاص به ووضعه، فيكون على حسب قابلية عقله، وأصول تربيته وعقائده، وعرف بلده وعوائده، فيتبع طبيعة الإنسان المستحكمة فيه، ويطاوع ميله الغريزى فى باطنه وخافيه، فقد كانت طبيعة بلاد اليونان فى قديم الأحقاب والأزمان ساذجة، وعوائد أهلها بسيطة، وعيشتهم مستوية، وأفكارهم دائما فى الراحة والاطمئنان، فكانوا يحسون بالعشق إحساسا لطيفا، وينظمون فيه الشعر،

ويتغنون به، بخلاف الرومانيين، فإن أهل مدينة«رومة»، دار سلطنتهم، كانوا قديما أرباب زينة ورفاهية خارجة عن حد العادة، وأخلاقهم فاسدة، فكانوا يحتفلون بالعشق الشهواني، ويطرونه، وينهمكون فيه، فلذلك كانت اللذات مسلطة على حواسهم، فما كأنهم مخلوقون إلا للشهوات وما كأن الشهوات مخلوقة إلا لأجلهم.

وأما قدماء العرب فكانوا أشبه بقدماء اليونان فى بساطة عوائدهم، واستواء عيشتهم، وراحة قلوب أهلهم، إلا أن أحساسهم بالعشق مع العفة كان عنيفا قويا، لاسيما بنى عذرة، الذين ينسب إليهم الهوى العذرى، فكانوا غالبا شهداء العشق، قتلى المحبة، ولا يخلو قلب أحدهم من الحب، قال الشاعر:

أنا أفتى: إن ترك الحب ذنب ... آثم فى مذهبى من لا يحب
ذق على أمرى مرارات الهوى ... فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن ... صبوة عذرية ما ذاك قلب

حضر أعرابى بمجلس بعض الوعاظ، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا! فقال: عذرى ورب الكعبة، ثم سأله علة ذلك، فقال: لأن فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة. فكان من العرب فى القديم من هو متفرغ للعشق بالذات، وهم أهل البادية، لعدم اشتغالهم بالعوائق، ومن ثم كانوا أكثر الناس موتا.

وكان الفرس أيضا يرغبون فى العشق، ويحثون عليه، كما حكى أن بهرام جور لم يرزق سوى ولد، فأخذ فى ترشيحه للملك، وهو ساقط الهمة، إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق، فسلط عليه الجوارى يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن، فأمرها الملك بالتجنى عليه، وإنها لا تطلب إلا رفيع الهمة فى العلم والملك، فكان بسبب ذلك من أجلّ ملوك الفرس وأعلمهم، قال بعضهم:

وما سرنى أنى خلى من الهوى ... ولو أن لى ما بين شرق إلى غرب

قيل لبعضهم: هلا عشقت حتى تكاتب وتراسل؟ فقال: لا، فقيل له: لن تفلح والله أبدا، وقالت امرأة فى العشق:

رأيت الهوى حلوا إذا اجتمع الشمل ومُرّا على الهجران، لا بل هو القتل
ومن لم يذق للهجر طعما فإنه إذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل
وقد ذقت طعميْه على القرب والنوى فأبعده قتل وأقربه خبل

قال بعضهم:

قرب النساء يلذ ناعم لمسه ويفت فى عظم القوى الراسى
مثل الحلاوة للسان صديقة لكنها حرب على الأضراس

وقال بعضهم: إن أقل مزايا العشق تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الأخلاق، وذلك أن غاية العاشق رضى معشوقه، ورضى المعشوق اتصاف العاشق بما يوجب المدح، ويحسن المرتبة فى القلب. وإيضاح ذلك أن العاشق وإن بخل جدا فلا يمكن بخله على المعشوق، وإذا بخل على غيره ربما أوصل الغير الأمر إلى معشوقه، فيجود العاشق، فيؤدى الحال إلى مطل الكرم، وكذا باقى السجايا المذكورة، ولذلك جاء الناموس الشرعى بمطابقة القانون الحكمى، كما هو شأن الشرع فى غير هذا أيضا، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى، صلى الله عليه وسلم: «من عشق فصبر فعف فكتم فمات فهو شهيد». وشرط الشهادة الكتم والعفة، وإلى هذا المعنى أشار أبو القاسم القشيرى بقوله:

إن المحب إذا توفى صابرا كانت منازله مع الشهداء

قال الحافظ مغلطاى: وقد أجمع العلماء على أن الحب ليس بمستنكر فى الدين، ولا بمحظور فى الشرع. قال أبو محمد بن حزم[1]: وقد أحب من الخلفاء والأئمة

(١) أبو محمد على بن أحمد بن حزم القرطبى (٩٩٤ - ١٠٦٤ م) عالم ومؤرخ وفقيه ومحدث وأديب، كان ظاهرى المذهب، حتى لقب بابن حزم الظاهرى. وله مصنفات كثيرة من أشهرها (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) و (وطوق الحمامة) فى الإلف والإيلاف - أى الحب - وهو أول مصنف فى هذا الباب بقى لنا من تراث الإنسانية على الإطلاق.

كثير. وقال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رأيت امرأة فعشقتها، فقال له عمر: ذاك ما لا يملك. انتهى. ولذلك قال الشاعر:

يلومونني فى حب سلمى كأنما   يرون الهوى شيئا تيممته عمدا

ألا إنما الحب الذى صدع الحشا   قضاء من الرحمن يبلو به العبدا

وسئل بعض الأطباء عن ماهية العشق، فقال: إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم، ولا بحرص لهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المدنفة والأمراض المتلفة، فلا ينبغى إنكاره على من أبتلى به، بل يستحب مساعدته من غير تعنيف ولا زجر، كما فعله الصحابة والخلفاء الراشدون. وقال بعضهم: المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لايجد مساغا للالتفات لسواه، ولا يمكنه انفكاك عنه، ولا مخالفة لمراده، ولا وجود للاختيار عليه، لوجود سلطان الجمال القاهر للحقيقة بتخلية المستفيض عليه دون اختيار منه ولا مهلة ولا روية، فإن مغازلة الجمال لا يشعر بها، وأخْذته لا يقدر عليها، وحقيقة ما يتولد عنه لا يعبر عنها، فتنفى الأغراض وتفنى الحقائق والأعراض، فلا يبقى مع غير المحبوب قرار، ولا مع سواه أخبار، وقد قيل: إن من العناية أن تحب ويحبك من تحب، ومن الشقاء أن تحب ولا يحبك من تحب. كما قيل:

ومالى أنصار سوى فيض أدمعى   إذا بات من أهواه وهو مهاجرى

ويروى أن أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز، وكانت من العابدات، قالت لعزة: ما معنى قول كثير:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه   وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان هذا الدين؟ قالت عزة: وعدته قبلة، ومطلته بها. فقالت أم البنين: أنجزيها وعلى إثمها! ففعلت، ثم إن أم البنين ندمت على هذه المقالة، على ما يقال، وأعتقت أربعين عبدا عند الكعبة، وقالت: اللهم إنى أبرأ لك مما قلته لعزة. .

لو كـان للعشـاق فى الحب حاكـما　　أتيـت إليـــه واشــتكـيت مطـاله

وأثبت فى شـــرع المحبـــة حـجــة　　عليـــه بأنى اســـتحق وصـــاله

وذهب بعض المحبين إلى استعذاب المطل، والتسلى به عن الوصل، كما قال سلطان العاشقين الإمام شرف الدين ابن الفارض:

عـــدينى بوصل وامـطلى بنجــازه　　فعندى إذا صح الهوى حسن المطل

حتى إن بعض المحبين يعد الوعد والأمانى سبب الحياة، ولولا ذلك لمات، كما قال العفيف:

لولا مـواعــيـد آمـال أعـيـش بهـا　　لمـت يـا أهـل هذا الحى مـن زمـن

وكـــان ذلك يختــلف باختــلاف　　رتب المحــــبين فى المحـــبـــة

وكان أبو السائب المخزومى، أحد القراء الورعين والظرفاء الصالحين، يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة، وقد رئى متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين وقوى قلوبهم واعطف عليهم قلوب المعشوقين، فقيل له فى ذلك، فقال: والله، الدعاء لهم أفضل من عمرة فى رجب من الجعرانة [(١)] ثم أنشأ يقول:

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى　　للعـــاشـــقـــين يطيب يا هــجـــر

مـــــاذا تريـد من الـذين قـلوبـهم　　جـرحى وحـشـو حـشـاهم جـمـر

مـــتلذذيـن مـــن الهـوى ألوانـهـم　　ممـا تجن قـلوبـهم صــــفـــــر

وسـوابق العبـرات فوق خـدودهم　　درر تفـــيـض كـــأنهـــا قـطر

وبالجملة، فإن من الإنصاف التسربل بسربال العفاف، فحينئذ يكون المقصود من معنى الوصل ما قابل الهجران، ما دام القصد إنما هو تمتع النظر بحسان الشمائل وشمائل الحسان، كما حكى بعضهم عن امرأة هويها وهويته، إنه قال لها يوما: هل

---

(١) مكان بين الطائف ومكة، أقرب إلى مكة من الطائف، وبه نزل الرسول عليه السلام، وأحرم منه بالعمرة.

لك أن نحقق ما قيل فينا؟ فقالت معاذ الله أن أفعل ذلك، وأنا اقرأ: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف: ٦٧)، وقال بعضهم:

أهوى الحسان وأهوى أن أخالطهم — وليس لى فى حرام منهم وطر
فذلك الحب لا إتيان معصية — لاخير فى لذة من بعدها سقر

ولله در القائل حيث يقول:

انزه فى روض المحاسن مقلتى — وامنع نفسى أن تنال محرما

وقلت:

أقول لما بدا والكأس فى يده — وجوهر الخمر فيها مثل خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه — ونشوتى من معانى سحر عينيه

وسبب هذا كله ميل العرب لحفظ الناموس والشرف فى الأزمان القديمة. وكذلك فى الحديثة، فإن دين الإسلام يمنع جميع الآثام. (شعر):

وحلاوة الإيمان من قد ذاقها — لم يخش من شرق بماء ملام

ففى الأزمان المتأخرة أفكار الأهالى، لا سيما فى البلاد المتمدنة، متجهة صوب الشجاعة والحماسة، ونظافة العرض وحفظ الناموس، مع ما هم عليه من التعلق بالجمال، مع الصون والكمال، فيتوصلون إلى جلب القلوب بالتلطف والاستعطاف، وينالون من نسائهم كمال الميل والانعطاف، وإن اختلف ذلك باختلاف الأقطار والأقاليم، جنوبا وشمالا، وشرقا وغربا، بل ربما رأيناه يختلف أيضا باختلاف الحكومات العادلة والظالمة، وربما اختلف باختلاف مراتب الأمم والدول والملل والنحل فى درجات التمدن والعمران.

وقد شبه بعض الظرفاء العشق بالشراب، فإنه يختلف تعاطيه فى المشرق والمغرب، وفى البدو والحضر، فالبدوى يروى منه الصدى، وربما صار الحضرى بشربه معربدا، ففريق منهما مقل والآخر مكثر، وأما المتمدن المتأدب فمقتصد..

قال بعضهم: إن العاشق ينعشه آثار معشوقه ورؤيته فى المنام وتذكاره، كما قال الشاعر:

يراها بعين العشق قلبى على النوى ... فيحظى ولكن من لعينى برؤياها
إذا استوحشت عينى آنست بأن أرى ... نظائر تصبينى إليها وأشباها
واعتنق الغصن الرطيب لقدها ... وأرشف ثغر الكأس أحسبه فاها

وقيل:

وهيفاء وافت بعد وصل وألفة ... وعادت إلى المضنى طريح غرام
أسائلها: يا من سبى القلب حسنها ... متى تشتفى بالوصل منك سقامى؟
فقالت: متى الوصل الذى كان بيننا ... وأنت أخو وجد بنا وهيام
ويكفيك أن تلقى خيالى نائما ... فقلت لها: هيهات، أين منامى

وقيل:

ويوم الكتيب استشرقت لى ظبية ... مولهة قد ضل بالقاع خشفاها(١)
فما ارتاب طرفى فيك يا أم مالك ... على صحة التشبيه أنك إياها

وقال كثير عزة (٢) فى ظبية:

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى ... لك اليوم من وحشيه بصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ... فأنت لليلى ما حييت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... ولكن عظم الساق منك دقيق

وقال آخر:

---

(١) الخشف ولد الظبى أول ما يولد. وتنطق بفتح الخاء وكسرها وضمها.

(٢) (توفى سنة ٧٢٣ م) وهذه شهرته، أما اسمه فهو: أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعى، وغلبت عليه هذه الشهرة لهيامه وعشقه لعزة بنت أبى بصرة الضمرية، وكان كثير شيعيا، وأهل الحجاز يقدمونه - كشاعر - على بقية الشعراء.

يا مـن ســـبى أنفس البـــرايا بما يـجـــفنيـــه من فـــتـــور
أشـــبـــهـك الظبى فـى ثلاث فى الـلحظ والجـيــد والنفـــور

وقال آخر : وتشطيره لمؤلفه :

بالله يا ظبـيــات القــاع قلـن لنا هل استـعـرتن من ليلـى بها الحـور
فقلن: منها، فقلت: الجنس مختلف لبـلادى منكن أم ليلى من البـشـر؟

وقال بعضهم فى التذكار :

وجـرت أحـاديـث الحـمى فـكأنما دارت هنـالك عـند ذاك كـــؤوس
يا ســـائق الوجناء ألا عـــدت لى ذكـر الحـمى كـيـمـا يزول البـوس
وعـــمى بذكـــرى أهـله وأثيـله تـرتـاح أرواح لنـا ونـفـــــوس
وإذا القـــصـــائد طرزت بمديـحـه يومـــا فـعـــقــد نظامـــهن نفـيس

وقال آخر :

عـــد للـحـــمى ودع الـوســـائل وعن الأحـــبــــة قف وســـائل
فـــــالدمع من فـــــرط الـبكـا ء عليـــهـم بحـــــر وســــائل
وأســـال مـــراحـــمـــهم فـــهن لكـل مـــحــــروم وســــائل

وقال آخر :

وأحـــــزنـى مـن قـــــولـهـــــا خـــان عـــــهـــودى ولـهـــــا
وحـق مـن صـــــيــــــرنـى عـــبــــدا لديـهــــا ولهـــــا
مــــــا خطـرت بـخــــــاطـرى إلا كــــــــــتنى ولـهـــــا

وقال آخر :

وبالجـــذع حى كلمـا عنَّ ذكــرهم أمـات الهـوى منى فؤاد أو أحـيـاه
تمنيـــتـهم بالرقـــمـــتـين ودارهم بوادى الغـضى يا بعـد مـا أتمناه

والعاشق يُرى دائما مصفر اللون، نحيف الجسم، أدق من خلال، وأخفى من طيف خيال، ويعهد منه المحبوب وغيره ذلك، كما قال بعضهم:

تقول لما رأتني	نضوا كمثل الخلال
هذا اللقاء منام	وأنت طيف خيال
فقلت كلا ولكن	أساء بينك حالى
فليس تعرف منى	حقيقتى من محالى

وشبه بعض النساء العاشق المهجور بالورد الذابل الذى ذهب زهوه وبقيت رائحته من باب (يبلى القميص وفيه عرف المندل). وصور بعض قدماء الأمم العشق بصورة امرأة بديعة الجمال، ظريفةالشكل، كاملة الاعتدال، يخضع لها جميع العشاق، ويتخيلها أرباب الأشواق، وتميل إليها كافة الأذواق، وتهواها الأرواح والنفوس، فهى فى فكرة كل إنسان كالعروس، يصفر وجه من أمعن النظر فى ورد خدها الأحمر، كما قيل:

يصفر وجهى إذا تأمله	طرفى فيحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذى بوجنته	من دم قلبى إليه قد نقلا

وقريب منه قول ابن النبيه:

وقريب من شعوره مسبل	والشمس من طلعته تطلع
تزرع عيناى على خده	وردا ولا أجنى الذى أزرع

وقول آخر:

ألحاظكم تجرحنا فى الحشى	ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرحا بجرح فاجعلوا ذا بذا	فما الذى أوجب جرح الصدود

ومما ينبغي: أن يكون الحب الموجود فى قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض عبارة عن وداد خالص، وصفاء فؤاد خلى من تجربة الغرام، مشوب بحرارة الشبوبية فى

غالب الأحوال، فمتى تمكن الحب فى قلب كل منهما فجميع وسائل اللذة توجد فيهما، فالمحبة هنا مشوبة بالصداقة الأكيدة، كما قال بعضهم:

غـرضى مـن الدنيـا صـديق ... لـى صـدوق فـى المقـة[١]

يرعـى الجـميـل وعـينـه ... عـن كل عـيـب مطرقـة

وإذا تغـيـر من تـغـيـر ... كـنـت مـنـه عـلـى ثـقـة

وقال آخر:

إذا مـا صـديق أسـا مـرة ... وقـد كـان فـيـما مـضى مـجـمـلا

ذكـرت المقـدم من فـعـله ... فـلا يـنقـض الآخـر الأولا

وقال آخر:

وكنت إذا الـصديـق أراد غـيظى ... وأشـرقنـى علـى حنـق بريـقى

غـفـرت ذنوبه وصـفـحـت عنه ... مـخـافـة أن أعـيش بلا صـديق

فالصداقة هى التى ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف فى جميع الحركات والسكنات، والأحوال والأطوار، مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب بالمسامرة والمحادثة، والتبسم، وإظهار التلطف والتعطف، من كل ما يؤثر فى النفس تأكيد المحبة فتستحيل إلى عشق الشمائل المعنوية التى تبقى فى المرأة دائما وأبدا، فتخلف الجمال الظاهرى الزائل، وإنما يستحضر فقط ما كان عليه المعشوق، حتى إن بعض الرجال يرى زوجته بالعين التى رآها بها يوم عرسها، فإن المرأة لا ترضى أن تتنازل عن الوصف بصفة الجمال أصلا، ولا تتعلق بزوجها غاية التعلق إلا إذا فهمت منه ذلك، وهذا فى حق النساء الكاملات، وأما النساء من حيث أنوثتهن فقل منهن من يتوقعن تمييز رجالهن لهن ولا وفاءهم لهن، ولا ينوين الوفاء والصداقة، كما قال بعضهم:

---

(١) المقه: المحبة.

ومن صفات النساء قدما أيبس فى الود من صفاة[1]
وما يبن الوفاء إلا فى زمن الفقد والوفاة

يعنى إن النفس تأسف على ما فات. قال من أسف على فراق الأحباب:

قل لمن نحو أرضكم مدعينا وادعى فى هواكم ما ادعينا
أين آثار عهدكم إن دمعى مثل صوب الوادى إذ أمد عينا
لو تجلت حور الجنان لطرفى كف كفى عنهن ما مد عينا
لو ترا آى يوما لسلب قلوب ورآه العذول أرمد عينا

(الاحترام)

وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة الكاملة المتحببة إلى زوجها لا ترى أن فى الدنيا رجلا يساوى زوجها، وربما أحبته حبين : حبا لذاته، وحبا لحقوق الزوجية، فهذه هى المحبة الراشدة، جليلة الفائدة، المنزهة عن الهوى، وهى لداء الشقاق فى العائلة كالدواء..

لم يبق لى أمل سواك فإن يفت ودعت أيام الحياة وداعا
لا استلذ لغير وجهك منظرا وسوى حديثك لا أريد سماعا

فمن ذلك يعلم أن الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين الزوجين، ولو فقدت المحاسن الظاهرية، هى وجود الاحترام والإجلال بين النساء والرجال، وهناك شروط مؤكدة، وأسباب لدعائم المحبة موطدة، وهى أن يجتهدا فى تحببها لبعضهما حبا تاما، وأن لا يذم أحدهما الآخر فى غيبته، وأن لا يغضبا فى وقت واحد، وأن لا يكلم أحدهما الآخر بصوت عال، وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر، الرجل بالحب، والمرأة بالطاعة، وأن لا يلوم أحدهما الآخر على زلة مالم

---

(١) صفاة: الحجر الصلد الضخم.

يتأكد وجودها فيه، وأن لا يلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض، وأن لا يحوج أحدهما الآخر إلى تكرار الطلب فى حاجة، وأن يتمسك أحدهما بالآخر ولو كلفه فوات كل من سواه، وأن لا يبكت أحدهما الآخر، وأن لا يفارق أحدهما الآخر ولو يوما واحدا من دون أن يودعه بكلمة محبة لكى يتفكره بها مدة الغياب، وأن لا يلتقيا من دون ترحيب، وأن لا يدعا الشمس تغرب على غضب أو زلة، وأن لا يدعا زلة ارتكباها تمضى من دون إقرار بها، وطلب السماح عنها، وأن لا يتأوها على ما فات، بل يرضيان بما يوجد، وأن يجعلا الصدق دأبهما فى معاملة أحدهما الآخر، وأن لا يقول الزوج للزوجة: كانت المرحومة كذا وكذا، ولا الزوجة للزوج: كان المرحوم كذا وكذا، إذا كانت زيجتهما بعد الترمل.

فهذه النصائح لا ينبغى للزوج أن يزدرى بها لأنها موجهة إلى الزوجة، ولا للزوجة أن تستهين بها لأنها موجهة إلى الزوج، واتباعها هو من أكبر أسباب الراحة فى العائلة، وهى توجب كون الزواج إنما يكون بين قوم يراعون الحقوق العمومية التى لكل من الزوجين على الآخر، وإلا فلا فائدة لها بالنظر إليهم إلا فيما ندر.

الباب السادس

(فى أسباب عمارية البيوت والمنازل، وما يترتب على حسن تربية النساء من الفضائل.. وفيه فصول.)

الفصل الأول

فى الاجتماعات من حيث هى وعلى الخصوص اجتماع العائلة

لما كان الإنسان مدنيا بالطبع، مستأنسا بالوضع، وسمى إنسانا لأنسه وائتلافه مع أبناء جنسه، جعل الشارع للهيئة التأنسية الاجتماعية محافل جامعة، ومجامع عمومية، فسن الجماعة فى الأوقات الخمس، ليتم التأنس بين أهل الإيمان فى اليوم والأمس، وفرض الجمعة يوم الجمعة من كل أسبوع، وجعل صلاة العيد فى كل عام من الاجتماع العام المشروع، وندب لصلاة الكسوفين والاستسقاء، جماعة الناس، عسى أن ينتفعوا جميعا باستجابة دعاء الأتقياء، وفرض الحج والاعتمار، ليجتمع على الشعائر الإسلامية فى حرمه الشريف جمع من سائر الأقطار، وأوجب فى وليمةالعرس إجابة الدعوة، لتجديد مجامع الأنس بين أهل النخوة، وقضى بين أصحاب الأحوال والأوضاع وأرباب الأخلاق السليمة والطباع أن يجتمعوا للأذكار، مع حفظ الحشمة والوقار، ولم ينه عن مجامع الألعاب المشتملة على الرياضة التى لا تعاب، ولا عن المحافل والمواكب المؤذنة بتبجيل أولى المناصب والمراتب، ثم استحسنت بعد ذلك الاحتفالات للموالد السلطانية، لا سيما مولد أشرف البرية، فى المدائن والقرى، لما يبذله فى ذلك أهل الخير من الكرم والقرى.

ولذلك قال بعض أكابر الصوفية: إن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن ينشىء صورة آدم، من زمن تقادم، ابتناها على صورة مدينة محكمة المبانى، وأتقن فيها ما يدل على قدرة البانى، وحرك فيها مثالث ومثانى، تشير بأنه ليس له ثانى، ثم نصب وسط هذه المدينة قصر المملكة، وسماه بالقلب، إذ هو بيت الرب، وفيه اليمن والبركة، ومنه ينشأ السكون والحركة، وجعل مدار هذه المدينة عليه، ومرجع الكل

إليـه، بمصـداق: «ألا وإن فى الجسـد مـضـغـه إذا صلحت صلح الجسـد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». ووضع سبحانه وتعالى فى هذا القصر سرير العز والسلطان، وأجلس عليه ملكا يقال له الإيمان، وبث الجوارح فى خدمته كالغلمان، فقال اللسان: أنا الترجمان، و قالت العينان: نحن الحارسان، وقالت الأذنان: ونحن الجاسوسان، وقالت القدمان: ونحن الساعيان، وقالت اليدان: ونحن العاملان، وقال الملكان: ونحن الكاتبان، وقال صاحب الديوان: كما تدين تدان.

ثم اتخذ الملك لنفسه وزيرا وهو العقل، فقال الوزير: أيها الملك، لابد لك من خاصة تصطفيهم لنفسك، خلاصة، يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فأول ما تحتاج إلى تاج، وهو الولاية، وإلى معراج، وهو العناية، وإلى دليل، وهو الهداية، ثم لابد لك من مركوب، وهو الصبر، ومن حلة، وهو السكينة، ومن صاحب، وهو العلم، ومن بواب، وهو الورع، ومن سياف، وهو الحق، ومن كاتب، وهو المرقبة، ومن سجان، وهو الخوف، ومن ميدان، وهو الرجاء، ومن سراج، وهو الحكمة، ومن نديم، وهو الفكر، ومن خزانة، وهواليقين، ومن كنز، وهو القناعة، ومن صاحب بريد، وهو الفراسة.

ثم تنظر أيها الملك فى رعيتك بعين الرحمة، وتفتح لهم خزائن النعمة، وتعدل بينهم فى القسمة، وتبعث لكل واحد قسمه، ليقيم بذلك رسمه، فقال الملك: انظر أنت فى الرعية، وأزل عنهم الشكية، وتول تفرقة «الجامكية» [1]. فقالت اليدان: عليَّ جمع الآلة، وقالت الأسنان: وأنا أطحن وأعزل النخالة، وقال الريق: وأنا أعجن وأتولى إلى المعدة إرساله، وقالت المعدة: وأنا أطبخ ولا أريد على ذلك جعالة، وقال الكبد: وأنا آخذ ما صفا وأترك الحثالة، وقالت القدرة: وأناأتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة، فأبعث لكل عضو ما يطيق احتماله. فلما فرقت «الجامكية» نقدا، لا حوالة، صحح الملك أحواله، فقال الوزير: ما بعد النفقة إلا العوض وأداء الفرض، فناد فى جيشك بالطول والعرض، لينذر البعض منهم

(١) المرتبات والمخصصات.

البعض، قبل أن تبدل الأرض غير الأرض، فنادى مناديه فى ناديه : يا معشر الرعية، إن الملك قد أقسم بالالية، أن من عدل عن الطريق بالسوية، وكفر نعمة العطية، وأنفقها فى الخطية، فقد افسد النية، ونقض الأمنية، وأولئك هم شر البرية، ألا وإن للملك عدوا قد سكن جواره، يقال له النفس الأمارة، قد نازعته الإمارة، واستنصرت عليه بالدنيا الغدارة، وظاهرها الهوى، وبعث إليها أنصاره، وجاءها الشيطان، وكتبت له منشور الوزارة، وقد شنوا فى أرض الملك الغارة، فيا خيل الله إركبى، ومن الأعداء فلا ترهبى. فركب الملك : عن يساره خوفه، وعن يمينه رجاه، ومقدمته توكله، وساقته النجاة، متحملا أثقال (إياك نعبد) متمسكا بأذيال (وإياك نستعين). فلما وصل بجنوده إلى معبوده بصدق النية، نادى مناديه فى ناديه : إن الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنية، فمن شرب منه فليس منى، ومن عول عليه فليتنح عنى، فقال أهل الضرورة : لابد لنا من إقامة الصورة، فجاءت مروحة الراحة بالإباحة : إلا من اغترف غرفة بيده، فأما من عدم الفطنة، ووقع فى شرك الفتنة، فشربوا وطربوا. فلما قابلهم القوم، قالوا : لا طاقة لنا اليوم، فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)، فالتقيا بجيشيهما فى مجمع بحريهما، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، فكان التوكل موكلا بالحرص، والزهد محاذيا للدنيا، والتواضع مدافعا للعجب، والإخلاص ماحيا للرياء، والتقى منافيا للدعوى، والخوف موافقا للهوى، والتسبيح والتقديس فى محاربة إبليس، فتتقدم حزب الله وشعارهم : اللهم بك إقدامنا فثبت أقدامنا، فإنا لا ندرى ما قدامنا، فهزموهم بإذن الله، وما النصر إلا من عند الله، وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس، وما زالت النفس بأسرها فى أسرها، حتى اتصفت بكسرها، واعترفت بخسرها، وناداها من له المنة : يا أيتها النفس المطمئنة. انتهى.

ولما كان الإنسان من أصل خلقته فى شكل مدينة عامرة، كان مدنيا بالطبع، تميل أفراده إلى الائتناس والاجتماع، وأصل الجمعيات الأنسية الحائزة لأوفر خير وأوفى مزية، جمعيات العائلات والعشائر، التى هى إلى حسن العمران أفضل أشائر، وبالخير العاجل والآجل أكمل بشائر، وهى أولى الاجتماعات، والأولى

بالانتفاعات، بل هى دلائل الخيرات، وأمائر المبرات، ولا تكتسب إلا بحسن تربية الآباء والأمهات، تتوارث كابرا عن كابر، وتنتقل من الأصاغر إلى الأكابر، وأساسها صلاح القرين والقرينة، متى صدقت بينهما المحبة المتينة، لا سيما المرأة الصالحة، التى هى لزوجها ريحانة طيبة الرائحة، ويقال: أحسن زوجين فى الإسلام عثمان بن عفان ورقية بضعة سيد الأنام، وأما جمع على بفاطمة فهو أصح الجموع السالمة.

وأصل تشبيه النساء بالرياحين، قول الإمام على، رضى الله عنه: لا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإنها ريحانة وليست بقهرمانة.

وقال بعضهم: وقع خالد بن زيد بن معاوية يوما فى عبد الله بن الزبير، يصفه بالبخل، وزوجته رملة بنت الزبير، أخت عبد الله، حاضرة، فأطرقت ولم تتكلم بكلمة مع زوجها خالد بن يزيد، فقال لها خالد: ما لك لا تتكلمين؟ أرضى بما قلته، أم تنزها عن جوابى؟ فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال، وإنما نحن رياحين للشم والضم فما لنا والدخول بينكم؟ فأعجبه قولها، فقام فقبل بين عينيها. وحكى ابن الجوزى[1] فى كتاب (الأذكياء) قال: مر شاعر بنسوة، فأعجبه حسنهن، فأنشأ يقول:

إن النساء شياطين خلقن لنا … نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته إحداهن بقولها:

إن النساء رياحين خلقن لكم … وكلكم يشتهى شم الرياحين

فلله درها حيث كان قولها أقرب لما في الآية الشريفة، فقد قال تعالى، فى مقام الامتنان: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١).

---

(١) سبط شمس الدين (١١٨٦ - ١٢٥٧ م) مؤرخ عربى، أطلق على كتابه فى التاريخ اسم (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان).

وروى أن رجلا أتى النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، الرجل يتزوج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه، فلايكون إلا ليلة حتى لا يكون شىء أحب إليه منها وإليها منه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «تلك ألفة الله». وتلا قوله سبحانه وتعالى: (وجعل بينكم مودة ورحمة)، ومع ذلك فقد يكن أيضا فتنة، فقد روى البخارى عن أسامة بن زيد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء».

ومما يحسن هنا إيراده ما ذكره بعضهم فى مقامة أدبية تحاور فيها مع بعض الأتراب والأمثال، وهى مبنية على طريق المثال والخيال، كشف فيها عن وجه الحسن القناع، وجمع فيها من الذم والمدح لصفات النساء، على طبقاتهن، ما انعقد على حسنه الإجماع، ونصه بتصرف يسير، ولا ينبئك مثل خبير قال:

فقلت له: لقد قدمت فى كلامك أن المتيم من صيره الحب مملوكا وإن كان ملكا. فكيف قال السلطان محمد بن الأحمر الأندلسى فى إحدى جواريه:

أيا ربة الخال التى حسنت هتكى ... على أى حال كان لابد لى منك

فإما بذل وهو أليق بالهوى ... وإما بعز وهو أليق بالملك

فقال: لقد خطأه الصلاح الصفدى فى قوله هذا، ورد عليه بقوله:

تمسك بذل فهو أليق بالهوى ... لتنظم مع أهل المحبة فى سلك

متى لاق بالعشاق عز وسطوة ... كأنك من ذل المحبة فى شك

وقد انتصر ابن حجر فى شرح «بانت سعاد» لابن الأحمر، ورد على الصلاح الصفدى فيما اعترض به عليه وأنكر، حيث قال:

إذا لم يكن وصل من الحب مسعف ... وأمسيت تحت الضيق فى الحب والضنك

ولم تستطع صبرا على الذل والهوى ... فبالعز وصل الخود[1] أولى من الترك

---

(١) المرأة الشابة.

فقلت: فى كلام ابن حجر ما يقتضى عدول المحب عن الذل، الذى هو مقامه، وقد فاته، كالصلاح الصفدى، قصد ابن الأحمر ومرامه، لأن ابن الأحمر قد أشار إلى مرمى أخفى من السها، [1] وأبعد من سدرة المنتهى، وهو أن كل شخص إذا أحب آخر فلابد أن يحبه الآخر بمقدار ما أحبه، فكل من المحب والمحبوب محب من وجه ومحبوب من آخر، فإذا طلب المحب وصل حبيبه من حيث كونه محبا طلبه بذل، وهو أليق بالهوى، وإذا طلبه من حيث كونه محبوبا طلبه بعز، وهو أليق بالملوك، وهذا مما كشف الله لى عنه فى هذا الوقت الغطاء، وصير فهمى إليه أهدى من القطا، ومما يشهد بميل المحبوب إلى المحب حديث: «إن أحدا جبل يحبنا ونحبه». وإذا كان الجماد يميل إلى من يحبه طبعا، فما بالك بالإنسان الذى هو أشرف أفراد العالم قطعا، وأما قولهم: المحبوب لا يملك فمرادهم: لا يملك من وجه كونه محبوبا، فلا ينافى أن يملك من وجه كونه محبا كئيبا، وقد أشرت إلى ذلك بقولى:

سأطلب وصل الحب فى كل حالة	**لأبلغه من غير ريب ولا شك**
فأما بكونى عاشقا ذا صبابة	**فأطلبه بالذل فى الوسع والضنك**
وأما بمحبوبتى أطلب اللقا	**بعز وذاك العز أليق بالملك**

فقال: والله ما سمعت أذناى أحق بالصواب من هذا التحقيق، ولا أدق إدراكا من هذا التدقيق، فلا عدمتك رياض الأدب التى أنت غيث خضرتها، وأبكار المعانى، التى أنت أبو عذرتها. **فقلت**: أيها الشيخ، حيث جلبت أشطر المحبة، ولم ندع فى ضرعها من داعى اللبن لغيرك وزن حبة، فأخبرنى أيها اليعسوب، [2] والبحر الخضم اليعبوب، بألطف جواب اتفق لك سماعه من محبوب. **فقال**: مما اتفق لى، إننى كنت شغفت بجارية، كانت مياه الحسن فى جميع أعضائها جارية، قد قرنت بجمالها عذوبة ألفاظ، وقرأت ما فى ضمائر الناس من الألحاظ، وكانت،

---

(١) السها - بضم السين المشددة - كوكب خفى من بنات نعش الصغرى.

(٢) اليعسوب - هنا - المراد به الرئيس الكبير. واللفظ يطلق كذلك على ذكر النحل وأميرها.

مع شغفي بحبها، قد تمكن حبي من حبة قلبها، وكانت كأنها اللبؤه إذا سطت، والقطاة إذا قطت، والظبية إذا التفتت أو عطت، لها ردف مقعد، وثدى مقعد، وبنان يكاد من اللطافة واللين أن يعقد، فاشتهيت يوم أن ارتضع لمى ثغرها المعسول، فقالت: لا سبيل لما أردت ولا وصول، فقلت بأبى أنت ، وأمى كيف تبخلين على هذا المريض بدوائه، وتحولين بينه وبين شفائه؟ فقالت أيها المغرم الكئيب، والأريب الأديب، أما علمت أن المراضعة تحرم المباضعة؟ فقلت ياقرةالعين، ولكن التحريم مشروط بعدم بلوغ الرضيع حولين! فقالت: يا شقيق النفس، أما أنت ابن أمس، على أن الحب أضعفك حين ألقاك فى كل هوة، فأنت ما بلغت حولا ولا قوة، فقلت لها: وعلى تسليم ما إليه السيدة تذهب، فأقول إنى شافعى المذهب، وعندى لا تحريم إلا بخمس رضعات، بشرط كونها متفرقات، فقالت: والله إن مذهبك لواسع الحضرة، وقد سمحت لك بشربة من رضابى، فإياك أن تتبع الشربة بالجرة.

وقد اتفق لى مع جارية أخرى ما هو أعذب من هذا وأهنأ وامرأ، وقد كنت همت بها هيام توبة فى ليلى وجميل فى بثينة وعروة فى عفرا، وكان قد وخطنى المشيب، وبلى ثوب شبابى القشيب، وكانت ذات خدر لا ذات بعل، وهى لكل جمال وكمال أهل، فطالت بينى وبينها الصحبة، وعرضت لها يوما بالخطبة، فتألمت منها، وتغافلت عنها، ثم دعتنى يوما بلطافتها إلى ضيافتها، فلما وصلت إلى دارها العامرة بمحاسنها الباهرة، تلقتنى بالترحيب والتأهيل، والتعظيم والتبجيل، وأقبلت علىَّ بحديث لو سمعه الميت لعادت إليه الحياة، أو الظمآن لاكتفى به عن زلال الماء، فلما حضر وقت الطعام، مدت لنا مائدة الإكرام، فتأملت ما فيها من الأزواد، فلم أر فيها غير ضباب مقلية وجراد، فسئمت نفسى من ذلك وغثت وأشمأزت، وجاشت وخبثت، فلما رأت أن طبعى من ذلك قد نفر، قالت بسم الله، هلم إلى ما حضر، فقلت: إن علىَّ صيام يوم من رمضان هذا العام، وقد نويته الليلة البارحةقبل المنام، وإنما أجبت السيدة المصونة لدعوتها، امتثالا لأمرها وحفظا لحرمتها، فقالت: لا والله، وإنما أظنك استقذرت ما قدمته إليك، ولو علمت منك

ذلك لما كلفتك بما يشق عليك، فكيف تتقذر من أكله، وأنت معتقد لطيبه وحله؟ فقلت: يا سيدتى، ما كل حلال يشتهى، ولا كل ما يشتهى حلال، والغزال مع.

ظرفته يأكل الحنظل ويشرب الماء الملح ولا يشرب العذب الزلال، فقالت: الآن برح الخفاء، وذهب الجفاء، فدع الاعتساف، واحكم بالعدل والإنصاف، والعدل أن تعدل عن الهوى عدلك عن غير جنسك، وتحكم للغير كما تحكم لنفسك، فعند ذلك زال الشك والريب، وعلمت أنها تعرض بكراهة نكاحى لكراهتها للشيب، فنهضت من عندها والقلب كالجفن منكسر، والدمع كالغيث ينهمر، أعثر فى ذيول الخجل وآسف على خيبة الأمل، وها أنا إلى الآن كلما ذكرتها ينكسر فؤادى، ويذهب رقادى، وتطول حسرتى، وتزيد زفرتى. ثم قال: وأنت فأخبرنى بألطف جواب سمعته من الأحباب.

فقلت: مما اتفق لى أننى استنهضت يوما همة رئيس من السودان فى حاجة عجزت عن قضائها أعيان الزمان، فقضاها فى أسرع من مضغ ثمرة وحلب شاة، ومن وميض البرق وانحدار المياه، فتوجهت إلى محله لا شكره على حسن فعله، فلما رأيته قلت له: ماذا أقول فى مدحكم من بليغ الأقوال، ومنكم لقمان الحكيم وبلال؟ وحسبكم من الفخر أنتم ومن كان من أمثالكم أن الله تعالى لا يكمل حسن الحور للعين إلا بسواد بلالكم. فقال الأسود، مع شهرته بفرط الذكاء بين العباد، كيف يكمل الله تعالى حسن الحور للعين بذلك السواد؟ وكان هناك غلام قد راهق البلوغ، وأخجل الورد والبدر حتى ظهرت فيهماحمرة الخجل، هذا حال الخروج من الكمام وذلك حالة البزوغ، كأن رضابه العسل وقوامه العسال، يشهد فتك ألحاظه بأنه أسد ومسك خاله بأنه غزال، قد جمع ثغره بين الشهد والرحيق، والدر والعقيق، كما جمع غصن قده بين التفاح والرمان، والورد والريحان، والماء والنار، والمطوق والهزار، تشرق الشمس من وجهه، والبدر من صدره، ويود الهلال أن يكون قلامة ظفره، نبيه يترك قس البيان سطيحا، ويرى الكناية والإشارة والإيماء تصريحا، لو رأته النسوة اللاتى قطعن أيديهن لجمال يوسف بن يعقوب، لعدلن عنها إلى تقطيع الأكباد والقلوب، يغار من خاله قلب الشقيق، ويعلو حاجبه

على العيون علو الأحرار وهو الأسود الرقيق، فلما رأى تعجب ذلك الأسود من تكميل حسن الحور بسواد بلال، واستغرابه لذلك الأمر والحال، قال له: يا سيدى، لا تعجب من ذلك فهو أيسر مراد للبارى ومقدور، وذلك بأن يجعل بلال شامات تفرق فى خدود الحور، فلما سمع الأسود منه ذلك نعق من طربه نعقة الغراب، وقال له: أعيذك من عيون الحاسدين بآيات الكتاب، فما سمعت أذناى ألطف من هذا الجواب.

ومثل ذلك ما اتفق لى مع محبوب أجمل من هذا فى وصفه، وأكثر منه فى رقته ولطفه، وذلك أننى جالسته يوما وأطلت معه الجلوس، ومتعت منه بما يميت الهموم ويحيى النفوس، ثم أطلعت ساعة لأنظر فيها إلى ما مضى من أجزاء النهار فى مجالسته واغتنام رقائقها، فأخرج الآخر من عبه ساعة وصار يتأمل فى دقائقها، فقلت له: أقسم عليك بالذى جعل اللحاظ سيوفك، والرمح السمهرى قدك، ألا أخبرتنى بما عندك، فقال: عندى مثل ما عندك، فعند ذلك رغبت فى اقترابه، وذهلت من سحر جوابه. فقال الشيخ ما سمعت ألطف من هذين الجوابين المرقصين المطربين، وتالله لا يكمل جمال الإنسان إلا إذا كان فصيح اللسان، وما المرء إذا فاتته فصاحة اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملة، واللطيف لا يؤثر فيه إلا سحر البيان، لا ما فى الصور من الإتقان وألوان الدهان. قال سيدنا الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر الشيخ محيى الدين بن عربى، بلغنى الله به أربى:

أحب مليح الحس ليس ببارع جمالا ولا أهوى المليح بلا حس

عليك تصاوير الكنائس لذبها إذا كنت ميالا إلى الصور الخرس

وحكى أن حكيما مر بمليح فاستنطقه، فلم يحمد منطقه، على ما فيه من المحاسن، بل قال: نعم البيت لو كان به ساكن، يشير بذلك إلى أن السر فى السكان لا فى الأماكن.

فقلت: بالله أنشدنى بعض غزلك أو نسيبك، ليكمل عقد سرورى بفوائد تغزلك وتشبيبك.

فقال : والله إنى لا أحفظ من كلامى غير النزر اليسير ولم يحضرنى الآن منه غير مقطوعة جاش بها الضمير ، وهى قولى :

يأبى التى أمسست تشير إلى قومى بأن يصغوا إلى ملحى
بيد من الجمار معصمها وأنامل تروى عن البلح

فقلت : أعيذك بالله من شر البغاة والغواة ، فأفدنى هل كان البلحى من الرواة؟

فقال : نعم هو أبو العباس أحمد بن طاهر بن محمود ، من رواة الحديث الذين امتلؤآ معقولا ومنقولا ، ذكره ابن نقطة فى (كتاب الاستدراك) الذى استدرك فيه ما فات «ابن ماكولا» .

فقلت : وأنا أنشدك بيتين من غزلى الحديث ، وجهت فيهما بذكر راو من رواة الحديث ، ثم أنشأت أقول :

عصفور قلبى رماه الحب فى قفص من الضلوع فلم يبرح من الدورى
وقد أخذت حديث الحسن عن رشأ ورود وجنته تروى عن الجورى

فقال : نعم ، الجورى شيخ النيسابورى .

(رجع) وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الله ، واتقوا النساء ، فإن فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . قال بعضهم : يجب على العاقل أن ينظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة ، وهى أن ينظر إلى[1] الفقير بعين التواضع ، لا بعين التكبر ، وأن ينظر إلى الأغنياء بعين النصح ، لا بعين الحسد ، وأن ينظر إلى النساء بعين العفة ، لا بعين الشهوة . وقال الأسود الخاقانى ، وقد عتبته امرأة على هوى له :

وبك أن الملا يغرى الملوما ليس جرمى كما زعمت عظيما
إن أكن عاشقا فلم آت إلا ما أتته الرجال قبلى قديما

(١) غير موجودة فى الأصل والسياق يقتضيها . (الشروق) .

إنما يكثر التعجب ممن كان من فتنة النساء سليما

فلذلك قال صلى الله عليه وسلم، كما رواه البخارى عن ابن عباس، رضى الله عنهما: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم». انتهى. ومن المعلوم أنه لا أنفع لأمن فتنة النساء من العفاف والتصون ورجاء الثواب لمن منع النفس عن هواها.

الفصل الثانى

(فى العفة وأمانة الزوجين وصدقهما فى المحبة)

العفة، التى هى أمانة كل من الزوجين لصاحبه، فضيلة دقيقة، تفيد أن لا يصدر من أحد الزوجين ما يخدش صداقته للآخر، وفى الحقيقة، وجود هذه الفضيلة ينبغى أن يحرص عليها ولو كانت عزيزة، وقل من يتصف بها فى أعلى درجات كمالها، مع دقة النظر اللازمة لذلك. فهى عصمة معنوية، وهى أساس روابط الجمعية البشرية، لأن عقد الزواج بمجرد انتهائه رابط أحد الطرفين بالآخر، ومشروط فيه الأمانة، ضمنا، على الوجه الذى قضته الحكمة الإلهية، فتقصير أحد الزوجبن فى تأدية حقوق الزوجية يعد مضادا للأمانة الواجبة على كل من الزوجين على حد سواء، وبالنظر للعرف يقتضى أن تكون الأمانة فى المرأة آكد، وإن كانا مشتركين فيها، وسبب ذلك أن عوائد جميع البلاد وطبائع جميع المدن وعرف أرباب السياسة والدول والملل كل ذلك يقضى بأنه لا يليق من النساء إلا كمال الصيانة والعفة، وسلوك سبيل الحياء، أكثر مما يطلب من الرجال، فإن الحياء ممدوح، وعدمه مذموم، ففى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء - «أى لا يستحيى من الله، أو من الخلق، أو منهما» - فإذا نزع منه الحياء لم نلقه إلاّ مقيتا - بكسر الميم وبكسر القاف المتشددة فعيل «بمعنى فاعل أو مفعول»، من المقت وهو أشد الغضب - وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن لكل دين خلقا، وخلق هذا الدين الحياء».

وقال الشعبى، رحمه الله تعالى: حلية الرجال السماحة والفصاحة، وحلية النساء العفة والقناعة، وعند العرب أفضل النساء أطولهن إذا قامت، وأصدقهن إذا قالت، التى إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت ابتسمت، التى تلزم بيتها، ولا

تعصى بعلها، العزيزة فى قومها، الذليلة فى نفسها. وقال بعضهم: الحياء نوعان: **نفسانى**، وهو المخلوق فى النفوس كلها، كالحياء عن كشف العورة بحضرة الناس، **وإيمانى**، وهو الامتناع عن فعل ما يذم شرعا، خوفا منه تعالى. انتهى. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الحيى الحليم، ويبغض الفاجر البذئ». فالمرأة متى خلعت ثوب الحياء فكأنها تنازلت عن سلوك سبيل العفاف والصون، حيث إن خلع ثوب الحياء منها علامة قوية على نية خدش الأمانة التى يترتب عليها من العواقب الوخيمة مالا نهاية له، فإن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته الربانية وضع النسل فى بطون الأمهات، فلا يباح للنساء هتك حرمة هذا النسب، فإذا تخلت المرأة عن العصمة فربما دست فى العائلة ما ليس منها، فلا تكون أعضاء العائلة فى الواقع ونفس الأمر بينهم قرابة حقيقية ينبنى عليها صدق المحبة بينهم، بل يكونون فى الحقيقة أباعد وكالأعادى الذين عداوتهم كامنة، فالمرأة فى هذه الحالة إنما تسعى بينهم فى التوادد الظاهرى، وهى فى الحقيقة أعطت العائلة عدوا فى ثياب صديق. فالواجب على الزوجين أن يعيشا على الأمانة، كما يقتضيه عقد الزواج. وبالجملة، فينبغى أن يتمسك كل منهما مع غاية الدقة والانتباه بفضيلة الأمانة، التى يترتب عليها صحة النسب، فبهذا تمتنع الوساوس والشك والحيرة. وطهارة الأنساب فى العشيرة، ومجمع العفة والتصون آية ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ (النور: ٣٠)، فقد نهيت المرأة أن تنظر إلى غير زوجها، كما أن الرجل كذلك، لصدق المحبة، وما أحسن قول بعضهم:

قالت لطيف خيال زارنى ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلقته لو مات من ظمأ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت وفاء الحب عادته ... يا برد ذاك الذى قالت على كبدى

وقال آخر وفيه لزوم ما يلزم:

وأحزنى من قولها ... خان عهودى ولها
وحق من صيرنى ... وقفا عليها ولها
ما خطرت بخاطرى ... إلا كستنى ولها

وقد سبقت هذه الأبيات . وممن حافظ على وفاء العهد وصدق المحبة لابنة عمه «ابن زريق» الكاتب البغدادى، قال يخاطب المنزل :

فى ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يمرعه

من عنده لى عهد لا يضيع كما ... عندى له عهد صدق لا أضيعه

وهذان البيتان من قصيدته المشهورة التى قالها بعد أن قصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسى، وكان ذلك لفاقة عرته، فارق بسببها ابنة عمه، وكان يحبها حبا شديدا. وتوجه إلى بغداد، فمدح عبد الرحمن بقصيدة فأعطاه شيئا قليلا، فاعتل غما ومات، وكان عبد الرحمن اشتغل عنه أياما، ثم سأل عنه، فتفقدوه فى الخان الذى كان فيه فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة، ولكونها بين زوجين متحابين ناسب ذكرها ههنا وهى :

لا تعذليه فإن اللوم يولعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

جاوزت فى لومه حدا أضر به ... من حيث قدرت إن اللوم ينفعه

فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلا ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله ... فضلعت لخطوب البين أضلعه

يكفيه من لوعة التشتيت أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه

ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأى إلى سفر بالرغم يجمعه

تأبى المطامع إلا أن تجشمه ... للرزق كدا وكم ممن يودعه

كأنما هو فى حل ومرتحل ... وكل بفضاء الأرض يذرعه

إذا الزمان أراه فى الرحيل عنا ... ولو إلى السد أضحى وهو يزمعه

وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه

قد قسم الله بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله من خلق يضيعه

لكنهم ملئوا حرصا فلست ترى ... مسترزقا وسوى الغايات تقنعه

والحرص فى الرزق، والأرزاق قد قسـ ـمت بغى، إلا أن بغى المرء يـصرعـه
والدهر يعطى الفتى من حيث يمنعه دابا ويمـنعــه من حــيث يطعـــمـــه
استــودع الله فى بغـداد لى قــمـرا بالـكرخ من فلـك الأزرار مطلعـــه
ودعــــتــــه وبـودى لو يـودعنـى طيـب الحـيـــاة وأنـى لا أودعـــه
كم قـــد تشــفـع أنى لا أفــارقـــه وللضـــرورات حـــال لا تشــفـعـــه
وكم تشبث بى يوم الرحيل ضحى وأدمــعى مســتـهـلات وأدمـعـــه
لا أكـذب الله، ثوب العـذر منخرق عنى بـفــرقــتـــه، لكنى أرقـــعــه
رزقت ملكا فـلم أحسن سيـاسـتـه كـذاك من لا يسـوس الملـك يخلعـه
ومن غــدا لابســا ثوب النعـيم بلا شكـر عليـــه فـــإن الـله ينـزعـــه
إنى أوسع عـــــذرى فى جنـايتـــه بالبــين عنـى وجـرمى لا يـوسـعـه
كم قــائل: لك ذنب البـين قـلت له لذنـب والله ذنـبى لسـت أدفـــعـــه
ألا أقـمـت مكان الرشـد أجـمـعـه لو أننـى حـيـن بان الرشـد اتبـعـه
والله مــا وقـــعت عـينى على بلد فى ســفـــرتى هذه إلا وأقـطعـــه
ما اعتضت عن وجـه خلى عند فرقته كـــأسـا أجـــرع منهـا مــا أجـرعـه
يـا من أقـطع أيـامـى وأنفـــــدهـا حـزنـا عليـه وليـلى لست أهجـعـه
لا يطمـئن لجنبى مـضـجـع وكـذا لا يطمـئن له مـذ غـبت مـضـجـعه
مـا كنت أحسب أن الدهـر يفجـعنى به ولا خلـت بى الأيام تفـــجـعـــه
حتى جـرى الدهر فـيـمـا بيننا بيـد عـــســـراء تمنعـنى حظـى وتمنعـــه
وكنت من ريب دهـرى خـائفـا قلقـا فلم أوق الـذى قـــد كنت أجـــزعـه
بالله يا منـزل القـصف الذى درست أيامـــه وعـــفت مـــذ بنت أربـعـه
هل الزمـــان مــعــيــد فـيك لـذتنا أم الليــالى التى أمـضـتـه ترجـعـه
فى ذمــة الله مـن أصبــحت منزله وجـاد غـيث على مـغناك يمـرعـه

من عنده لي عهد لا يضيع كما	عندي له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا	جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمتعني	به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا	فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا	قلبا ستجمعني يوما وتجمعه
وأن تنل أحدا منا ميته	فما الذي بقضاء الله يصنعه

ـ (رجع) ـ قيل: لا عفة كالأمانة، ولا غنى كالقناعة، ولاسعادة كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسن كحسن الخلق، ولا إيمان كالحياء، ولاراحة كالتوكل، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ثلاث خصال من كن فيه نشر الله عليه رحمته، وعصمه، وأدخله جنته: من آوى المسكين، ورحم الضعيف، وأنفق على والديه، ورحم مملوكه ورفق به، وملك نفسه حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي». وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: « إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

قال أبو الفرج في (كتاب النساء) سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عليا، رضي الله تعالى عنه، وجماعة من الصحابة، رضوان الله عليهم، عما هو خير للنساء؟ فلم يدروا ما يقولون، فانصرف علي، رضي الله عنه، إلى فاطمة رضي الله عنها، فذكر لها ذلك، فقالت: إن خير النساء اللائي لا يرين الرجال ولا يرونهن، فأخبر علي بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «أمنك هذا أم من غيرك؟» قال: بل أخبرتني به فاطمة، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «إنما فاطمة بضعة مني».

وقال بعضهم: خرجت في ليلة مظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم، فعطفت عليها، فقالت: أما لك يا هذا زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين؟ قلت: يا هذه، والله ما يرانا إلا الكواكب! فقالت: وأين مكوكبها؟ ثم ذهبت عني !قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وقيل لبعض الأعراب، وقد طال حبه لجارية: ما كنت صانعا لو ظفرت بها ولا يراكما إلاّ الله تعالى؟ قال: لا والله، لا أجعله أهون الناظرين ولكن أصنع معها ما أصنع بحضرة أهلها: حديث طويل، ولحظ كليل، وترك ما يكرهه الرب وينقطع به الحب. قال نفطويه:

ليس الظريف بكامل فى ظرفه حتى يكون عن الحرام عفيفا

فإذا تعفف عن محارم ربه فهناك يدعى فى الأنام ظريفا

وقيل:

وأفضل الناس حر ليس يغلبه على الحجا شهوة فيه ولا غضب

وقال بعضهم لرجل من بنى عذرة غلب عليه الهوى: ما بال العشق يقتلكم معاشر بنى عذرة من بين أحياء العرب؟ فقال: فينا جمال وتعفف، ونرى محاجر لا ترونها!.

وكان الرشيد يستحسن من(*) قول ابن مطير هذين البيتين:

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها فقيرا ويغنى بعد بؤس فقيرها

فلا تقرب الأمر الحرام فإنه حلاوته تفنى ويبقى مريرها

قال اليزيدى: دخلت على الرشيد، وفى يده روقة، فكان تارة ينظر فيها وتارة ينظر إلى عنها، فقال: بيتان وجدتهما فأضفت إليهما ثالثا:

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى ينفتح لك بابها

فإن قراب البطن يكفيه ملؤه ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

وما أحسن البيت الأخير الناهى عن بذل العرض الذى هو صفة معنوية وفضيلة جامعة تبعث صاحبها على اعتبار نفسه، وأن يفى، مع النية الخالصة والشجاعة الفاضلة والهمة العالية، بما يجب عليه من كل ما ينتج عنه الاعتبار والاحترام، ويعبر عنه بشرف النفس، وهو أحد الأشياء التى يجب حفظها، وباقيها الدين والنفس والمال والنسب والعقل.

وعرف بعضهم العرض بأنه: موضع المدح والذم من الإنسان. وهو يحمل صاحبه على أن يفعل ما يكتسب به الاعتبار عند الناس وعند نفسه، وأن يجتنب ما يخل بمقام الإنسان واعتباره، وهو اللؤم، فإنه مذموم، كما قيل:

ألم تعلموا أن الزمان موكل بمدح كرام أو بذم لئام؟

وقال آخر:

إن الكريم إذا تمكن من أذى أنسته رأفته الحقود فأقلعا
وترى اللئيم إذا تمكن من أذى يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

وقال بعضهم: سياسة الكرام بالرغبة، وسياسة اللئام بالرهبة، وإن أقرب شيء على سياسة اللئام أن يعاملوا بالرهبة ويؤخذوا بالعنف، فما دام أحدهم خائفا من سطوتك فهو مقيم على الوفاء بعهدك، ومتى أمن ذلك عاد إلى طبعه. وقال الشافعى، رضى الله عنه، ثلاث إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة، واللئيم والمملوك. وقيل:

الحر بالبر والإحسان تملكه والنذل بالضد أفعالا وأخلاقا
يزداد لؤما إذا زدته كرما كالنفط يزداد بالتكريم إحراقا

وقالوا: من أمارات الكريم الرحمة، ومن أمارات اللئيم القسوة، ومن كرم أصله لان قلبه. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا ينزع الله الرحمة إلا من قلب شقى». ومن علامات الكريم: حب الإنصاف، ومن علامات اللئيم: عدم الإنصاف.

وقال بعضهم : من علامات اللئيم : إفشاء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الأحرار . وسوء الجوار .

فكل ما اشتمل على محامد الأخلاق ومكارمها فهو أساس العرض ، فصاحب العرض يبحث دائما عن حسن الصيت ، والشهرة الحميدة بالوفاء بما كلفه به الطبع والشرع ، بشرط أن لا يتشبث فى الحصول على ذلك بالوسائل التى يأباها الصلاح الحقيقى ، فصاحب هذه الفضيلة الشريفة يرجى له أن يورثها لذريته وللخلف من بعده ، وأن يبقى ذكر اسمه مخلدا بدون عيب ولا دنس ، وكما يشرف ذريته بصيته الحسن يشرف وطنه طول الزمن . ومن علامة شريف العرض والناموس إخلاص الإيمان ، وبغض النفاق ، وكراهة الموالسة ، والنفور من أهل الغش والخداع ، ومجالسة أهل الخروج والابتداع ، وعدم التلون ، فلا يكون داخلا فى قول القائل :

يا من تلون فى الطباع أما ترى ⁂ ورق الغصون إذا تلون يسقط

وقيل :

كل يوم تتلون ⁂ غير هذا بك أجمل

وقيل : من جالس أهل البدع تعلق بقلبه شىء مما يسمع . وقيل : لا تمكن زائغ القلب من أذنك ، فإنا رأينا قوما استهواهم تهاتر ابن الخطيب الرازى[1] حتى تزندقوا . ولا غيبة فيمن كان بهذه الصفة ، لأن ذمه مأمور به . وروى قولوا فى الفاسق ما فيه ليعرفه الناس .

والبدعة : ما كان مخترعا على غير مثال سابق ، ومنه (بديع السموات والأرض) أى موجدهما على غير مثال سابق ، وشرعا : ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام ، بأن يكون الحامل عليه مجرد الشهوة ، وقال صلى الله عليه وسلم : «أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين

---

(١) فخر الدين أبو عبدالله محمد (١١٤٩ ـ ١٢٠٩ م) متكلم وفيلسوف ومفسر للقرآن ، كان شافعيا فى مذهبه الفقهى ، أشعريا فى مذهبه الكلامى ، ولكنه كان مولعا بمناقشة الخصوم ، خصوصا المعتزلة منهم ، وكان أبوه خطيبا ، ولهذا سمى «ابن خطيب الرى» .

من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.» وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة، اثنان وسبعون فى النار، وواحدة ناجية، وهى ما أنا عليه وأصحابى». قال اللقانى:

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته». ومن دعائه صلى الله عليه وسلم: «اللهم زدنى علما، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

* * *

ـ (رجع) ـ ومن علامة شريف العرض أن يعرف وضع الأشياء فى موضعها، وأن يميز الغث من السمين وأن يؤثر العفاف، كما قيل:

دعنى ونفسى والعفاف فإننى جعلت عفافى طول عمرى ديدنى
وأصعب من قطع اليدين على الفتى صنيعة بر نالها من يدى دنى

وأن يبذل نفسه فى حب الخير والبر، وأن يأتمر بما تأمره به النفس المطمئنة، فبهذا يكتسب سعادة الدارين، ولا يجدها إلا فى الصدق والبر، ومن علاماته أن يعترف بالفضل لأربابه، ولا يدعى أكثر مما عرفه، كما قيل:

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئا يدعى أكثر منه

وقيل:

من تراه يدعى ما ليس فيه كذبته فى دعاويه الشواهد

ومن علاماته عدم الحرص، لأنه يسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها، فيمنع من التوفر للعبادة، ويبعث على التورط فى الشبهات، لقلة تحرزه منها، مع أن

الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى الإذلال لنفسه وإسخاط خالقه، كما قيل:

لا تطلبن معيشة بتذلل ... فليأتينك رزقك المقسوم
واعلم بأنك آخذ كل الذى ... لك فى الكتاب مسطر مرقوم

ومن المستحسن هنا قول بعضهم:

أمطرى لؤلؤا جبال «سرنديب» ... وفيضى«آبار تكور» تبرا
أنا إن عشت لست أحرم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الكرام ونفسى ... نفس حر تري المذلة كفرا

وعن أنس بن مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح يشكو من ضيق المعاش فكأنما يشكو ربه، ومن أصبح لأمور الدنيا حزينا فقد أصبح ساخطا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله، ومن تواضع لغنى لأجل غناه أحبط ثلثى عمله، ومن أهان فقيرا لأجل فقره ذهب ثلثا دينه، ومن أعطى القرآن فلم يعمل به أدخل النار وأبعده الله من رحمته». وفى الصحيح: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا». فأخبر أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «يأتى على الناس زمان: القابض على دينه كالقابض على الجمر.» رواه الترمذى عن أنس، كناية عن عدم المساعد والمعاون على الدين. وقيل: مثل الإيمان مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، قال الله تعالى﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ** ﴾ (الشعراء: ١١٩)، وقال بعضهم: عليكم بدين العجائز، وقد أنشد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد،[1] رحمه الله:

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلى ... وسافرت واستبقيتهم فى المراكز
وخضت بحارا لاقرار للجها ... وألقيت نفسى فى فسيح المفاوز

---

(١) موسى بن على (١٢٤٤ ـ ١٢٨٦ م) فقيه وشاعر، من «قوص» بصعيد مصر، وله فى فقه الشافعية كتاب (المغنى).

وبجت بى الأفكار ثم تراجع اختيا — رى إلى استحسان دين العجائز

وقال الإمام الشافعى، رضى الله عنه :

يا طالب الرزق فى الدنيا بحيلته — عليه من بلد تسعى إلى بلد

تبغى الزيادة والأرزاق قد قسمت — بين الخلائق لم تنقص ولم تزد

أتعبت نفسك فيما لست تدركه — أفنيت نفسك فى هم وفى نكد

أقصر عناك فإن الرزق منقسم — فالرزق يأتى ولو فى جبهة الأسد

ويقال : إنه وجد فى كتاب لجعفر بن يحيى خمسة أسطر مكتوبة بالذهب : الرزق مقسوم، والأجل محتوم، والحريص محروم، والبخيل مذموم، والحسود مغموم. ومن كلام المتنبى :

وأظلم أهل الأرض من بات حاسدا — لمن بات فى نعمائه يتقلب

وعن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال : «أربعة جواهر تزيلها أربعة أشياء، أما الجواهر فهى العقل، والدين، والحياء، والعمل الصالح، فالغضب يزيل العقل، والحسد يزيل الدين، والطمع يزيل الحياء، والغيبة والنميمة يزيل العمل الصالح». وفى المثل : صحة الجسد ترك الحسد، وإن رأوا فقيرا مقتوه. وقيل : الحاسد غضبان على من لا ذنب له! وقال أبو العتاهية :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه — فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها — حسدا وبغضا : إنه لدميم

وخير الناس من يُحسد، كما قيل :

ولا خلاك الدهر من حاسد — فإن خير الناس من يحسد

والحسد، تمنى زوال نعمة المحسود، سواء تمنى انتقالها إليه أم لا. فيشترك مع الغبطة فى أنهما طلب بالقلب، غير أنهما يفترقان من حيث أن الحسد تمنى زوال النعمة عن الغير، والغبطة تمنى حصول مثل نعمة الغير، من غير التعرض لزوالها

عن صاحبها. وحكم الحسد التحريم، وحكم الغبطة الإباحة، لعدم تعلقها بمفسدة، ودليل تحريم الحسد قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥)، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ (النساء: ٥٤)، والسنة قوله، صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا». وهو أول معصية عصى الله بها فى السماء حين حسد إبليس آدم، عليه السلام، فلم يسجد له، وفى الأرض حين قتل أحد ابنى آدم، وهو من لم يقبل قربانه، الآخر، وهو من تقبل قربانه. ولجمال الدين محمد بن نباتة[1]:

زد كل يوم فى العلى رفعة ... وليصنع الحاسد ما يصنع

الدهر نحوى كما ينبغى ... يدرى الذى «يخفض» أو «يرفع»!

وقيل:

وما الجود يفنى المال قبل فنائه ... ولا البخل فى مال البخيل يزيد

فلا تلتمس مالا تعيش بكده ... لكل غد رزق يعود جديد

وحكى أن قيس بن عاصم كان كريما جدا، فتزوج ابنة زيد الفوارس، فأتته فى الليلة الثانية بطعام فقال: وأين أكيلى فلم تعلم ما يريد، فأنشأ يقول:

أيا بنت عبد الله وابنة مالك ... ويا بنت ذى البردين والفرس الورد

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلا فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقا أو جار بيت فإننى ... أخاف مذمات الأحادث من بعدى

وإنى لعبد الضيف من غير ذلة ... وما بى إلا تلك من شيم العبد

وعن أبى الدرداء أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «ما من يوم غربت شمسه إلا بعث الله ملكين يناديان، يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين:

---

(١) ابن نباتة الجذامى، محمد بن محمد (١٢٨٧ - ١٣٦٦م) شاعر، يعده النقاد إمام الشعر فى عصره، وناشر كتب العديد من الرسائل المجموعة على طريقة القاضى الفاضل، وله أيضا عدد من الشروح والمختارات.

اللهم اعط منفقا خلفا، واعط ممسكا تلفا». ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ** ﴾ (الليل: ٥)، وقيل:

بقدر الكد أنفق كل يوم ومد الرجل فى حد الكساء
وشاور فى أمورك أهل فضل وحاذر من مشاورة النساء

ووقف «على» على سائل، فقال «للحسن»: قل لأمك تدفع له درهما، فقالت: إنما عندنا ستة دراهم للدقيق، فقال على: لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده، ثم أمر للسائل بالستة دراهم كلها، فما برح حتى مر به رجل يقود بعيرا، فاشتراه بمائة وأربعين درهما، وأنسأ أجله ثمانية أيام، فلم يحل عقاله حتى مر به رجل آخر فقال له: بكم؟ فقال بمائة وأربعين درهما. قال: آخذه بمائتى درهم. ودفع له الثمن. فدفع علىّ منه مائة وأربعين درهما للذى ابتاعه منه ودخل بالستين الباقية على فاطمة، رضى الله عنها، فسألته: من أين هى؟ فقال: هذا تصديق لما جاء به أبوك: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وروى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه قال: جاء ثابت بن قيس إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: إنى مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذى بعثك بالحق نبيا، ما عندنا إلا ماء! ثم أرسل إلى الأخرى، فقالت مثل ذلك، ثم قلن كلهن مثل ذلك: ما عندنا إلا ماء! فقال: من يضيِّف هذا هذه الليلة؟ فقام رجل من الأنصار يقال له أبو المتوكل، وقيل أبو الطلحة، فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شىء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبيانى، قال: فعلليهم بشىء، فإذا دخل ضيفى فأطفئى السراج ونومى الأطفال وقدمى للضيف ما عندك، ففعلت، وأظهرا له أنهما يأكلان معه، فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر: ٩)، فلما أصبح غدا إلى النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: قد عجب الله من صنيعكما الليلة بضيفكما، فإن قيل: إذا لم يكن ثم عندهما إلا قوت الصبيان، وهو يدل على أن الصبيان كانوا جياعا، فيجاب بأن الصبيان لم تشتد حاجتهم للأكل، وإنما خشيا أن الطعام لوجىء به للضيف وهم

مستيقظون لا يتركون الأكل منه، ولو كانوا شباعا، على عادة الصبيان، فيشوشون على الضيف.

وقال ابن عمر أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء، فقال: إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تد اولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول. وروى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة، ثم قال للغلام: إذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية، إذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها(*)، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: إذهب إلى معاذ بن جبل، وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، وقال: يا جارية، إذهبى إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ وقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران، فرمى بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فسر، وقال: إنهم إخوة، بعضهم من بعض. وقيل:

أولئك قوم أتلفوا مهجاتهم ... لإحياء دين الله بالطعن والضرب

بكل طويل من رماح ردينة ... وكل حسام مرهف ذكر عضب

على كل مخماص من الخيل أعوج ... يمر كمر الريح فى أثر السحب

فيوث إذا أعطوا ليوث إذا التقوا ... معادون منصورون بالرهب والرعب

وقال أبو يزيد البسطامى[1]: ما غلبنى أحد كما غلبنى شاب من أهل «بلخ»،

(*) فى الأصل (أنفذها) بالذال (الشروق).

(1) أبو اليزيد طيفور بن شرشوان (المتوفى سنة ٨٧٧.) صوفى، قدم إضافات غير مسبوقة فى علوم الصوفية ومكاشفاتهم، وأكثر كذلك من الشطحات الصوفية، ويتميز مذهبه الصوفى «بالسكر» الناشىء عن المحبة الإلهية.

قدم علينا حاجا، فقال لى: يا أبا يزيد، ما حد الزهد عندكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا كلاب «بلخ» عندنا! فقلت له: ما حد الزهد عندكم؟ فقال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا. والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وعن النبى صلى الله عليه وسلم، إنه قال ذات يوم لأصحابه: «كيف أصبحتم؟» قالوا: أصبحنا مؤمنين بالله، قال: «وما علامة إيمانكم». قالوا: نصبر على البلاء، ونشكر على الرخاء، ونرضى بالقضاء، فقال: «أنتم مؤمنون بالله حقا ورب الكعبة».

وكان هشام بن المغيرة المخزومى من أجاويد العرب، حتى اتخذت قريش يوم موته تاريخا، فقيل فيه من الرثاء:

وأصبح بطن مكة مقشعرا ... كأن الأرض ليس بها هشام

وقيل:

والمال ينفد والثناء يخلد ... والجود فى كل المواطن يحمد

وأخو السماحة فى البلاد جميعها ... بين العباد على الدوام مسود

وقيل إنه لما حج جعفر[1] اجتاز فى طريقه بالعقيق[2]، وكانت سنة مجدبة، فأعترضته امرأة من بنى كلاب، وأنشدته:

إنى مررت على العقيق وأهله ... يشكون من مطر الربيع نزورا

ما ضرهم إذ جعفر جار لهم ... أن لا يكون ربيعهم ممطورا

وقيل:

يسقط الطير حيث يلتقط الحب ... ويغشى منازل الكرماء

---

(١) المنصور، أبو جعفر عبد الله (المتوفى سنة ٧٧٥ م) ثانى خلفاء بنى العباس، والمؤسس الحقيقى لدولتهم، حكم من سنة ٧٥٤ حتى سنة٧٧٥ م.

(٢) اسم لعدة أماكن والمراد هنا المكان الموجود ببطن وادى ذى الحليفة، وهو الذى يهل للحج منه أهل العراق.

وقيل:

ثمن الإحسان شكر ... ويد المعروف ذخر

وثناء الحى بعد الموت ... للميت عمر

وقال بعضهم: ولعمرى إن الزمان الذى يثنى فيه على الميت بعد موته أحسن عمريه وأطولهما وأشرفهما، كما قيل:

ردت صنائعه إليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور

وقيل:

وما ضاع مال أورث المجد أهله ... ولكن أموال البخيل تضيع

و قيل:

أنفق فإن الله كافل عبده ... فالرزق فى اليوم الجديد جديد

المال يكثر كلما أنفقته ... كالبئر ينزح ماؤها فيزيد

وقيل:

إذا درت نياقك فاحتلبها ... فما تدرى الفصيل لمن يكون

إذا ظفرت يداك فلا تقصر ... فإن الدهر عادته يخون

وروى الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، عن ثوبان، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا يزيد فى العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وقال صلى الله عليه وسلم: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» - عن ابن مسعود - ولهذا الحديث قصة: أخرج العسكرى، قيل للأعمش: إن الحسن بن عمارة ولى القضاء، فقال الأعمش: يا عجبا من ظالم ولى المظالم! ما للحائكين والمظالم؟ فبلغ الحسن، فقال: على بمنديل وأثواب، فوجه بها إليه، فلما كان من الغد سئل

الأعمش عنه، فقال: بخ بخ[1]، هذا الحسن بن عمارة زان العمل وما زانه، فقيل له: قلت بالأمس ما قلت، واليوم تقول هذا؟ فقال: دع عنك هذا، حدثنى خيمة عن ابن عمر عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «جبلت القلوب». إلى آخره. وقيل: أبت النفس الخبيثة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسىء إلى من أحسن إليها، وقيل:

تنح عن القبيح ولا ترده ... ومن أوليته حسنا فزده

وقيل

دار جار الدار إن جار وإن ... لم تجد صبرا فما أحلى النقل

أراد مطلق الجار فى دار أو دكان، مسلما أو غير مسلم، وقيل: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، وقيل:

إذا طال الطريق عليك يوما ... فليس دواءه إلا الرفيق

تحادثه وتشكو ما تلاقى ... فيقصر بالحديث لك الطريق

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما زال حبيبى (أى جبريل) - يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وقال صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره». ولا يجوز للجار إحداث ما يكشف حرم الجار من شباك وطاقات، لأنه يضر به، وقال بعضهم: كل امرئ يعرف بقوله، ويوصف بفعله، فقل سديدا وافعل حميدا، من عرف شأنه، وحفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموتا وصدوقا، فالصمت حرز، والصدق عز، من كثر مقاله شتم، ومن أكثر سؤاله حرم، ومن استخف بإخوانه خذل[*]، ومن اجترأ على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. أجلّ النوال ما وصل قبل السؤال. وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، ولم يتعد طوره».

* * *

(١) كلمة تقال عند المدح للرضى بالشىء. (الطهطاوى).

(*) فى الأصل: (خزل) بالزاى. (الشروق).

ـ (رجع) ـ وقال بعض البلغاء : المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة ، والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة ، كما قيل :

إن الأمــــور إذا مــا الـله يســــرها — آتتك من حـيث لا ترجو وتحتسب

وكل مــا لم يـقــدره الاله فــمــا — يفيـد حرص الفتى فـيه ولا النصب

ثق بـالإله ولا تركـن إلى أحـــــد — والـلـه أكــرم مـن يرجى ويرتـقب

وقيل :

وقد يجـدز الحريص فى طلب الرز — ق فــيشــقى ويرزق المســتــريح

ويعـــاد العلـيل حـــينا من الـدهر — فـيسـير أو قـد يمـوت الصـحـيح

وقيل :

ومن ظـن أن الرزق يأتى بـحــيـلة — فــقـد كــذبتــه نفـســه وهو آثم

وقال بعضهم ، من قصيدة نبوية :

فــبــالأقـدار يـرزق غـيــر عـــان — بلا ســــعى ويـحـــرم من تعـنى

ولـم يفـت الفــتى بالـعــجــز حظ — ولا بالـســـعى يدرك مـــا تمـنى

والسعيد من توكل على رازق الطير فى عشه ، والمريض فى فرشه ، والدود فى الصخرة الصماء ، والجنين فى ظلمة الأحشاء ، كما قيل :

لازمـت دارى مــــثـل مــــا — لازم ضـب نـفـــــقـــــه

فـلـم يـدعـنـى خــــــالـقـى — ســـبـــحـــانـه من نفـــقـــه

ويحسن هنا إيراد شذرة من ضمن مقالة خطابية ، تحاور بها شيخ مع تلميذه ، فقد يتضح منها فى هذا المسلك السبيل ، وها هو عقدها البهى الجميل؟

فقلت ـ (أى التلميذ) ـ له ـ (أى شيخه) ـ فقلت له : أعيذ شيبك من الشوائب ، ونفسك من النوائب . .

فـيم اقتـحـامك لج البـحـر تركبـه   وأنت تكفيك منه مـصة الوشل [١]

فقال :

أريد بسطة كف أستعين بها   على داء حقوق للورى قبلى

وتا الله ما أسعى على نفسى التى ترضى باليسير ، ولكن على عيال يعتقدون أن وليهم على كل شىء قدير ، والفتى من يرجى دوام نفعه وخيره ، ولم يهتم فى سعيه لنفسه كالسعى لغيره . كما قلت سابقا :

إن الفتى من لم يزل   يحنو على أبناء جنسه

أبدا تراه لغيره   يسعى ولا يسعى لنفسه

ولله در من قال :

ظل الفتى ينفع من دونه   وما له فى ظله نفع

فقلت له : هلا كان ذلك قبل ارتحال شبابك ، وتمزيق إهابك ، وذهاب أطيبيك ، ونفاذ أعذبيك ، واجتماع قواك ، واعتدال شواك[٢] ، وكيف لزمت فى ذلك الوقت الدعة والوطن ، حتى استوجبت أن يقال لك : الصيف ضيعت اللبن ، وأصبحت قحلا[٣] نحلا[٤] ، تحكى الهلال دقة وشكلا .

فقال : كان لى حينئذ أهل معونة ، يكفوننى الثقلة والمؤنة ، فلما اجتثتهم ا لمنية ، وانقطعت منهم الأمنية ومات منهم من يعاش فى أكنافهم ، ويحتفلون بإخوانهم وأضيافهم ، وتشعث حالى ، ومر منه ما هو حالى ، تجشمت عرق القربة ، وتكلفت تعب الغربة ، وتا الله ما خرجت من الوطن الذى الفؤاد به معلق ، إلا بعد وصولى إلى حالة أعظم من حالة ابن المذلق ، ثم استعبر ، وأنشأ يقول :

---

(١) الماء القليل يتحلب من الصخر أو الجبل .

(٢) الشوى ، من معانيه : اليدان والرجلان والأطراف ، وما سوى المقتل من الأعضاء .

(٣) قحلا ، أى يابس الجلد .

(٤) نحلا ، أى هزيلا .

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا　　من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة　　ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

ويرحم الله من قال :

إذا لم يكن إلا الألسنة مركبا　　فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وفى المعنى قول الآخر :

ويركب حد السيف من إن تضيمه　　إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

وبعد هذا فإنى على ظن قد لا يتحقق، ورجاء قد تذروه رياح الأقدار فيمزق، ولكن قد أمر الله بالسعى وترك الدعة، فقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾ (النساء : ١٠٠)، وقال تعالى حاثا على السعى لخلقه : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ (الملك : ١٥)، وفى حديث عن الرسول صلى الله وملائكته عليه وسلموا : «سافروا تصحوا وتغنموا». وقال الشاعر :

إن خانك الدهر فكن لائذا　　بالبيد والظلماء والعيس

ولا تكن عبد المنى فالمنى　　رؤس أموال المفاليس

وفى المعنى قول أبى الأسود الدؤلى حيث يقول :

وما طلب المعيشة بالتمنى　　ولكن الق دلوك فى الدلاء

فإن مقادر الرحمن تجرى　　بأرزاق العباد من السماء

وقال أخر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه　　ويقضى إله الخلق ما كان قاضيا

ومن زعم أن مباشرة الأسباب تنافى التوكل فقد عمى عن أسباب الشر والخير، والتحقيق أن حق التوكل مباشرة الأسباب، مع عدم الاعتماد عليها كما يشير إليه حديث الطير، وإنما يباشرها العبد أدبا وامتثالا لرب الأرباب، وليرتقى بها إلى

معرفة ذاته التي هي السبب الأعظم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ**﴾ (ص: ١٠).

فقلت: وما حكمة أمر العبد بمباشرة السبب، ولو شاء الله لرزقه من غير تعب، لأن السبب أمر عادى عند كل منتبه، يخلق الله المسبب عنده لابه؟

فقال: تلك حكمة باهرة، وآية ظاهرة، أمرك بمباشرة السبب فى الدنيا لينبهك على إنك لا تنال إلا بشق الأنفس ما فيها من الشهوات الفانية، فكيف تنال مع الراحة نعيم الآخرة الباقية.

فقلت: صدقت، وبالحكمة نطقت، فكيف يلتئم ما قدمت من مدح السفر مع حديث «: السفر قطعة من العذاب؟»

فقال: إعلم أن السفر كالأفعى فيه السم والترياق، وكالماء فيه الحياة والإغراق، فقوله: «سافروا تغنموا» تعرض لخيره، وقوله «السفر قطعة من العذاب» تعرض لضيره، ومثله ما ورد فى المال من المدائح والمذام، ومنه: نعم البيت الحمام، وبئس البيت الحمام، وهذا نوع من أنواع البديع يسميه أهله بالمغايرة ، لا يقتدر عليه إلاّ كل ذى قريحة وفكرة ذكية غير فاترة، لكن لا بد أن يمدح فيه الشىء من غير الوجه الذى ذمه، وبالعكس، وذلك مما تنشرح له الصدور وتطيب به النفس.

قال: ثم أعود إلى بقية جواب كلامك، وما عرضت لى به فيه من ملامك، فأقول: وماذا على من أذهب أطيبيه وأعذبيه الزمان، إذا حفظ الله عليه القلب واللسان، وقد عرفت أن المرء بأصغريه، لا بأكبريه، و أما الشيب فهو ثوب الوقار وزهرة الأعمار، وزبدة حياة المرء التى مخضتها يد التهذيب والتأديب، وسبيكة الفضة التى سبكتها راحة التجريب، وفجر الوسنان، وأفضل الألوان، ونجوم الهدى ورجوم العدى، ونذير الأبرار، وبطاقة العتق من النار، ففى (الزبور) يقول البارى: الشيب نورى وأنا أستحى أن أحرق نورى بنارى. على أن ما نقص من المرء من شبابه، يزيد فى عقله وآدابه، كما قال ابن المعتز: [1].

---

(١) عبد الله بن محمد (٨٦١-٩٠٩ م) شاعر وبلاغى، تولى الخلافة يوما واحدا، ثم قتل، عندما فشل الانقلاب الذى قام به ضد الخليفة العباسى المقتدر.

ومـا ينتـقص من شـبـاب الرجـال   يزد فـى نهــاهـا وألبــــابـهــــا

وقال على، رضى الله عنه: بقية عمر المرء ليس لها ثمن، يستدرك بها ما فات، ويحيا بها ما مات، وقلت سابقا - من فصل - إذا رحل عن المرء شبابه، ووقع نسره وطار غرابه، ذهبت لذة عمره، ولم يبق منه غير دردى خمره [٢]، لكن ما أحسن تلك البقية، إذا استدرك بها من التقصير، وصرفها فى طاعة مولاه السميع البصير، فهنالك يبدل الله حركات نفسه سكنات، وسيآتها حسنات، فيسمع هواتف الحق تنادى نفسه بأذن تصغى إلى الله وتعى، ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي** ﴾ (الفجر: ٢٨)، فترجع إلى سعة رحمة الرحيم، ويسبح فى بحار كرم الكريم، وإنما الأعمال بالخواتيم.

وأما الصبا فهو شعبة من الجنون، ومطية المغرور المفتون، تسلك به أضيق المسالك، وتقتحم به فى حفر المهالك، وهو سكران من خمر الشهوات، غارق فى بحار اللذات، فلا يستفيق من سكرته إلا بسكرة تقطع الوريد، ويقول مديرها عليه: ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ (ق: ١٩) وأما قولك: إنى قحل نحل، فحسبك قوله تعالى﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ (النحل: ٦٨)، أما بلغك يا ذا اللسن، إن إمامنا الشافعى قال: ما أفلح سمين قط، إلا أن يكون محمد بن الحسن؟ أما علمت أن لحم الآدمى وشحم كلاه، لا يربو إلا لعدم همه بأمر آخرته ودنياه، ومن لم يهتم بإحداهما خرج عن الإنسانية، وتمحض للحيوانية، ثم قال سبحان الله ! لقد رأيت منك عجيبا، وأمرا غريبا.

قلت: وما ذاك، جعلت فداك؟ **فقال**: رأيتك تضحك وتمحك، وتقرب وتغرب، وتطلع وتغرب، وتطفو وترسب، وتغنى وتنوح، وتكتم وتبوح، وتتصابى وتتمشيخ، وتتواضع وتتبزخ، وتارة أراك صديقا، وأخرى أحسبك زنديقا، حتى كأنك فى تلونك الغول[١] أو الحرباء، أو أبو براقش [٢] أو أبو قلمون، مع علمك إن التلون يسقط الإنسان من العيون، كما يسقط أوراق الغصون، كما قيل:

---

(١) الغول: حيوان لا وجود له.

(٢) طائر صغير أعلى ريشه أغبر، ووسطه أحمر، وأسفله أسود، فإذا انتفش تغير لونه ألوانا شتى.

إياك تظهـر للأنام تلونا فيضيع قدرك عنده وتلام
أو ما تري الأوراق تسقط مذ بدا تلوينها فتدوسها الأقدام

وقال آخر :

كم أنت فى حق الصديق تفرط ترضى بلا سبب عليه وتسخط
يا من تلون فى الوداد أما تري ورق العصون إذا تلون يسقط

فقلت : والله ما اقتدحت زندك إلا لأرى ما عندك، ولا قرعت مروتك إلا لأرى مروءتك، وما اختبرتك إلا لأتخذك صاحبا وخليلا، وظلا ومقيلا، فقد أوصى الحكماء بالاختبار قبل الاصطفاء والاختيار .

* * *

ـ (رجع) ـ وعن أبى هريرة، قال : قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «خمسة مكتوبة على ساق ا لعرش : لا راحة فى الد نيا، ولا شفاعة فى الموت، ولا حيلة فى الرزق، ولا سلامة من ألسنة الناس، ولا راد لأمر الله . وقالوا : مثل الدنيا مثل ظل الإنسان، إن طلبه هرب، وإن ولى عنه تبعه . وأنشدوا :

مثل الرزق الذى تطلبه مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه طالبا وإذا وليت عنه تبعك

وليس للحريص غاية مقصودة، ولا نهاية معدودة يقتنع بها، ولو صدق الحريص نفسه، واستنصح عقله، لعلم أن من تمام السعادة الرضى بالمقدور، والقناعة بالميسور .

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل[1]، رضى الله عنه، أن يعظه فقال له الإمام : إن كان الله تعالى تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا، وإن كان الرزق مقسوما فالحرص لماذا، وإن كان الخلف على الله فالبخل لماذا وإن كانت الجنة حقا فالراحة لماذا، وإن

(١) (٧٨٠ـ ٨٥٥ م) صاحب المذهب الفقى الشهير .

كانت النار حقا فالمعصية لماذا، وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقا فالجمع لماذا، وإن كان كل شيء بقضائه وقدره فالحزن لماذا؟ وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها، ومصابها، وأجلها». وعنه صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله وأجملوا فى طلب الدنيا - (أى الحلال) - فإن كلا ميسر لما خلق له». فمع النظر لذلك لا فائدة فى سؤال الخلق، مع التعويل عليهم، فإن قلوبهم كلها بيد الله، يتصرف فيها على حسب إرادته، فوجب أن لا يعتمد فى أمر من الأمور إلا عليه، فإنه المعطى المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، له الخلق والأمر، وبيد قدرته الضر والنفع، وهو على كل شيء قدير، وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس».

- (ففقر النفس لا ينسد أبدا) - وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تنظر إلى من هو أكثر منك فتتعب، وانظر إلى من هو أقل منك فترتاح». وقال مجاهد[1] فى تأويل قوله تعالى: ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ (النحل: ٩٧). (أى القناعة)، وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ (الانفطار: ١٤)، النعيم القناعة، والجحيم الطمع. وفى تفسير البغوى:[2] الأبرار الذين بروا وصدقوا فى إيمانهم بأداء فرائض الله تعالى واجتناب نواهيه، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ (مريم: ٩٦)، (أى حبا فى قلوب الخلق)، وقيل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخرا يكون كصالح الأعمال

وقال بعض الأدباء: القناعة رضى، والحرص سخط، والعايش راضيا أحسن من العايش ساخطا، وقيل:

اقنع بما ترزق يا ذا الفتى ... فليس ينسى ربك النمله

إن أقبل السعد فقم مسرعا ... وإن تولى مدبرا فنم له

---

(١) من أصحاب ابن عباس، والمدرسة التى عنيت بتفسير القرآن الكريم.

(٢) أبو محمد الحسين بن محمد الفراء (المتوفى سنة ١١٢٢ م) فقيه وجامع للحديث ومفسر للقرآن وله فى الأحاديث كتاب (مصابيح السنة) و (شرح السنة).

قال بعضهم: يجب على العاقل أن يفعل فى دنياه خمسة أشياء: أن يهجر الحرص والأمل، وأن يواصل العلم بالعمل، وأن يجتنب ارتكاب الزلل، وأن يلاحظ قدوم الأجل، وأن يكون واقفا بين الرجاء والوجل. وعلامة الخوف قصر الأمل، وعلامة الرجاء أن تحسن الظن بالله تعالى.

ويسن للإنسان أن يكثر من ذكر الموت لخبر: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات،» يعنى الموت، فإنه ما يذكر فى كثير إلا قلله، ولا قليل إلا كثره، أى من الأمل والدنيا، وقليل من العمل، وهاذم أى قاطع، وقيل لبعضهم:

قد قلت إذا مدحوا الحياة وأسرفوا　　فى الموت الف فضيلة لا تعرف

منها أمان عذابه بلقائه　　وفراق كل معاشر لا ينصف

وقال أكثم بن صيفى:[1] من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة، وقيل:

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى　　ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

قال بعضهم: من كان له مال ولم يكن له واحد من عشرة أشياء فهو شقى: الدار الوسيعة، والخدم الملاح، والجوارى الصباح، والملابس الفاخرة، والمراكب السنية، والبساتين النزهة، والخلان الفكهة، والأطعمة اللذيذة، والأشربة الهنيئة، والعوارف الجزيلة. وقيل: الدار الضيقة العمى الأصغر! وقيل:

ولم يستقم للمرء يوم وليلة　　بلا شمس دينار ولا بدر درهم

وقيل: الدراهم مراهم، تنجى من النوائب الدواهم.

وكان أحمد بن يوسف الكاتب يقول: مجالسة الثقلاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتميت النفس، وتذهب النشاط، وتطوى الانشراح وقيل:

وما غربة الإنسان فى شقة النوى　　ولكنها والله فى عدم الشكل

روى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إذا أتى الرجل القوم

---

(١) عاش فى العصر الجاهلى، وكان من أحكم حكماء العرب، وأفصح خطبائهم، وأبلغ بلغائهم ولذلك لقب بحكيم العرب.

فقالوا: مرحبا، فمرحبا له يوم القيامة، وإذا قالوا: سخطا، فسخطا له يوم القيامة»[1] وقال صلى الله عليه وسلم: «مجالسة الثقيل أثقل من سكرات الموت».
وقيل: الموت الأحمر ولا مجالسة الثقيل؟

* * *

ـ (رجع) ـ وقال بعض البلغاء: إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله عز وجل نصره، ومن لزم القناعة أزال فقره. وقال بعض الأدباء: القناعة عز المعسر، والصدقة حرز الموسر، كما قيل:

قنعت بالقوت من زماني ... لصون عرضي من الهوان
مخافة الناس أن يقولوا ... فضل فلان على فلان
فمن رآني بعين فضل ... رأيته كامل المعاني
ومن رآني بعين نقص ... رأيته مثل ما يراني
من كنت عن بابه غنيا ... فلا أبالي إذا جفاني

وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالقناعة فإنها كنز لا ينفد». [*]وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يذل نفسه». وعن علي، رضي الله عنه: تفضل على من شئت فإنك أميره، واستغن عمن شئت فإنك نظيره، وأسأل من شئت فإنك أسيره.

وقيل:

من يكرم الناس يكرموه ... ومن يهنهم يجد هوانا

وقيل:

أفادتني القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة

(١) ومرحبا: أي صادفت أو لقيت رحبا ـ بضم الراء ـ سعة، وهي كلمة إكرام وإظهار مودة ومحبة، وتلقى الأحباب بها مندوب، للحديث. (الطهطاوي).
(*) في الأصل (ينفذ) بالذال. (الشروق).

فصيرها لنفسك رأس مال ⁂ وصير بعدها التقوى بضاعة

وقيل:

والنفس راغبة إذا رغبتها ⁂ وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقيل:

وما هي إلا جوعة قد سددتها ⁂ وكل طعام بين جنبي واحد

وقيل: إذا قنعت كثر عندك القليل، وإذا طمعت دق عندك الجليل . .

وقيل:

إذا ما شئت أن تحيا سعيدا ⁂ حبيبا للغنى وللفقير

فظن بمعشر الإسلام خيرا ⁂ وراع الوقت واقنع باليسير

وقيل:

تسربلت سربال القناعة والغنى ⁂ صبيا فكانا في ا لكهولة ديدني

وقد كان ينهاني أبي حف بالرضى ⁂ وبالعفو أن أولى يدا من يدى دني

وقيل:

تجنب كرام الناس واستغن عنهم ⁂ ولا تطلبن في الدهر فضل كريم

فمد اليدين لكريم مذلة ⁂ فكيف إذا مدت يد للئيم

وقيل: الحاجة تلجيء السيد إلى الأنذال، وربما أحوج المرض إلى شرب الأبوال! . وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع». وعن علي، رضي الله عنه: اللكع العبد، أو الأحمق، أو اللئيم، أي حتى يكون اللئام أو الحمقى أو العبيد رؤساء الناس.

وقيل:

إذا امتلأت كف اللئيم من الغنى ⁂ ثنى عطفه كبرا وقال أنا أنا

وأما كـريم الأصل كالغـصن كلما　　تحــمل من خــيـر تواضـع وانحنا

وقيل لأعرابى : ما السقم الذى لا يبرأ، والجرح الذى لا يندمل؟ قال : حاجة الكريم إلى لئيم، فإن فوت الحاجة أهون من طلبها من غير أهلها، وعليه قول الشاعر :

لا تطـلبن إلى لـئــيم حـــاجــة　　وأنت الكريم فـخـيـره مـيــسـور

ومن كلام بعض الحكماء : إذا سألت كريما حاجة فدعه يتفكر، فإنه لا يتفكر إلا فى الخير، وإذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير طبعه أن لا يفعل . وقيل :

أى شـىء أذل من بـذل وجـــــه　　لجـــواد، فكيـف من لا يجــــود

وقيل :

وقـــائـل مـــا الملك قـلت الغـني　　فـــقـــال: لا، بل راحـــة القـلب

وصـــون مـاء الـوجـه عن بـذله　　في نـيل مـــا ينـفــد عن قـــرب

وقال صلى الله عليه وسلم : «الذل في ا لسؤال، ولو أين الطريق» . وقيل في معنى ذلك :

لا تكـن طالبـــا لمـا في يد الـناس　　فـيـــزور عن لقـــاك الصـــديق

إنما الـذل في ســـؤالـك للـناس　　ولو فـي الســـؤال: أيـن الطـريق

وقيل :

بلوت الـناس قـرنـا بعــد قـــرن　　فلـم أر غـيـــر خـــتـــار وقـــال

وذقت مـــرارة الأشـــيـــاء طرا　　فـــمـــا شيء أمـــر من الســـؤال

ولـم أر في الـقلوب أشــد وقـعــا　　وأنكـي من مــعـــاداة الرجـــال

وقيل :

لا تحـــسـبن الموت مـــوت البـلي　　وإنما المـوت ســـؤال الـرجـــال

كـــلاهمـــا مـــوت ولـكن ذا　　أشــــد من ذاك بـذل الســـؤال

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو بعد صلاة الصبح ثلاث مرات بدعاء وهو : «اللهم إنى أسألك اللطف عند القضاء، والسلامة فى الدين، والبركة فى الرزق، والغنى بك عن خلقك». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس.» قال الفضل بن عياض، رحمه الله: أحب الناس إلى الناس من استغنى عن الناس ولم يسألهم شيئا، وأبغض الناس من احتاج إليهم وأحب الناس إلى الله تعالى من احتاج إليه، وسأله وأبغض الناس إلى الله تعالى من استغنى عنه، ولم يسأل منه شيئا وقيل:

فلا تيأس إذا أعسرت يوما   فقد أيسرت فى دهر طويل

فلا تظنن بربك ظن سوء   فإن الله أولى بالجميل

ومن كلام ابى السعود الجارحى، رضى الله عنه:

سلم له الأمر عل تسلم   واصبر على الدهر إن تمادى

لا تخش نارا ذكت بليل   فربما أصبحت رمادا

وقال صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى». قال ابن قتيبة: العليا هى المعطية، والسفلى هى السائلة. وقال صلى الله عليه وسلم: إذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه فى الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شرا حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، فشغله بدنياه، ووكله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد». وقيل:

عليك بالعدل تنال المنى   وترتجى الفوز بيوم الوعيد

فالظالم المغرور بين الورى   من أسخط المولى وأرضى ا لعبيد

يقال: إن موسى، عليه السلام، قال: يارب، إن فرعون جحدك مائتى سنة، وادعى أنه أنت مائتى سنة، فكيف أمهلته؟ فأوحى الله إليه: أمهلته لخلال فيه، إنى حببت إليه العدل والسخاء، وحفظته لتربيتك. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله

الله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه». وقيل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ــ فالظلم آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ــ يدعو عليك وعين الله لم تنم

وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «دعوة المظلوم لا تحجب.» وقال الإمام علي، كرم الله وجهه: ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. ويقال: حسن المقال ما صدقه حسن الفعال، وقال زهير في كلامه:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ــ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقيل:

كل امرئ راجع يوما لشيمته ــ وإن تخلق أخلاقا إلى حين

وقيل: حقيقة النفاق اختلاف السر والعلانية، ومخالفة القول العمل. وقيل: أشر الناس من هو في الظاهر صديق موافق، وفي الباطن عدو منافق، وعليه قول الشاعر:

صديق إذا زرته ساعة ــ يود من الملق بوس القدم

يريك البشاشة عند اللقا ــ ويبريك إن غبت برى القلم

فبت حبا لك من وصله ــ ولا تكثرن عليه الندم

ولأبي حيان، عليه من الله الرحمة والرضوان:

تغير إخوان هذا الزمان ــ وكل صديق عراه الخلل

وكانوا قديما على صحة ــ وقد داخلتهم حروف العلل

قضيت التعجب من أمرهم ــ فصرت أطالع باب البدل[1]

وله:

---

(١) الصحة، والعلل، والتعجب، والبدل: مصطلحات معروفة لدى الدارسين في كتب النحاة.

الناس مثل ظروف حشوها صبر وفوق أفواهها شىء من العسل
تغر ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل

وقال رحمه الله:

صبرت على غدر الزمان وحقده وطاب لى السم الزعاف بشهده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته فما دام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى من حسن ظنى به فلم يضىء لى على طول اقتداحى لزنده
وأغرب من عنقاء[1] فى الدهر صاحب أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده فليس مضاء السيف إلا بحده
وعزمك جرد عند كل مهمة فما نافع مكث الحسام بغمده
وكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الإنسان رزقا لعجزه كما لا ينال الرزق يوما بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة جرت بقضاء لا سبيل لرده

* * *

ـ (رجع) ـ وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافا، فإن الغنى مبطرة، والفقر مبذلة.» وقال أيضا: «اللهم أرزق آل بيتى كفافا. ومن كلام بعضهم:

لا شىء أخسر صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدى سبا ويزيله حرصا بجمع المال
لا خير فى كسب الحرام وقلما يرجى الخلاص لكاسب الحلال
فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة فالفضل تسأل عنه أى سؤال

---
(١) العنقاء طائر مجهول الجسم، تخيله العرب، وهو غير موجود.

وفي تاريخ ابن عساكر [1] عن أبي الرضى: العيش في ثلاثة أشياء: الاستغناء عن الناس؛ العدو والصديق، وصحة البدن، والأمن من الدين. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «الدين هم بالليل ومذلة بالنهار». وقيل:

سل الله ربك ما عنده ... ولا تسأل الناس ما عندهم

ولا تبتغي من سواه الغنى ... وكن عبده لا تكن عبدهم

وقيل: أرسل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بصرة فيها نفقة إلى أبي الدرداء، رضي الله عنه، على يد عبد له، وقال: إن قبلها فأنت حر لوجه الله تعالى، فأتاه، فلم يقبلها، فقال العبد: إقبلها فإن فيها عتقي! قال: إن كان فيها عتقك ففيها رقي! فعادوه بها فأبى أن يقبلها. وقيل:

إذا ترخص في قوم مكاسبهم ... بكل وجه ذميم واقتطاعات

فلا قضى لي أمر إذ يعوقني ... عن كسب مكرمة أو وقت طاعات

وقال الحسن البصري، رضي الله عنه: لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دنياهم، فيستخفون به، ويكرهون حديثه. وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادكم؟ قالوا: احتجنا لعلمه، واستغنى هو عن دنيانا! وقيل:

كد كد العبد إن آ ... ثرت أن تصبح حرا

لا تقل ذا مكسب يز ... ري، سؤال الناس أزرى

ومن دعاء بعض السلف: اللهم إجعلها في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا. وعنه صلى الله عليه وسلم: «إن الفاقة لأصحابي سعادة، وإن الغنى للمؤمن في آخر الزمان سعادة». وسبب ذلك أن جل الناس الآن ناظرون إلى الدنيا، وأهل الصدر الأول كان نظرهم إلى الدين، وقد شحت أهل الدنيا حتى بالقدر الواجب فاحتاج أهل العلم والصلاح ليستغنوا بها عن أهلها، فإن من احتاج إليهم هان قدره لديهم.

---

(1) (توفي سنة ١١٧٧ م) وتاريخه يسمى (التاريخ الكبير) كتبه في ثمانين مجلدا، حوت سير الأعيان من أبناء موطنه دمشق.

وقال بعضهم: نحبها للإنفاق لا للإمساك. وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى».

وقيل:

ولا بد من مال به العلم يعتلى وجاه من الدنيا يكف المظالما

وقيل:

حياة بلا مال حياة ذميمة وعلم بلا جاه كلام مضيع

وقال عمرو بن العاص، رضى الله عنه: المرء حيث وضع نفسه. يعنى إن عز نفسه علا قدره، ومن لا يكرم نفسه لا يكرم، وإن أهان نفسه وذلها ذل وهان قدره، فينبغى أن يرفع قدره بإعزاز نفسه، فإن أنفة القلب من همم الأكابر، لأنهم يعرفون قدر أنفسهم. وقيل:

إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

وقال عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله، أبوالبركات النحوى، كمال الدين بن الأنبارى: [1].

العلم أوفى حلية ولباس والعقل أوفى جنة الأكياس
كن طالبا للعلم تحيا دائما جهل الفتى كالموت فى الأرماس
وصن العلوم عن المطامع كلها لترى بأن العز عز الباس
والعلم ثوب والعفاف طرزه ومطامع الإنسان كالأدناس
والعلم نور يهتدى بضيائه وبه يسود الناس فوق الناس

وقيل:

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه فى العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخبطها أعمى البصيرة والآمال تخدعه

(١) (١١١٩ - ١١٨١ م) ألف فى النحو واللغة والتاريخ، وانقطع أواخر عمره للعبادة، ومن أشهر كتبه (الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) و(نزهة الألباء فى طبقات الأدباء) وهو كتاب فى طبقات النحاة.

وعن على، رضى الله عنه: من كان فى طلب العلم كانت الجنة فى طلبه، ومن كان فى طلب المعصية كانت النار فى طلبه. وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «منهومان ـ (أى حريصان) ـ لا يشبعان: طالب العلم، وطالب الدنيا.»

فأما طالب العلم فيزداد فى رضى الرحمن، وأما طالب الدنيا فيزداد فى الطغيان. وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «أفضل الأعمال على ظهر الأرض ثلاثة: طلب العلم، والجهاد، والكسب. لأن طالب العلم حبيب الله تعالى، والغازى ولى الله تعالى، والكاسب صديق الله تعالى.» وروى عن سالم ابن أبى الجعد أنه قال: إشترانى مولاى بثلاثمائة درهم، واعتقنى، فقلت فى نفسى بأى حرفة احترف؟ فاخترت العلم على كل حرفة، فلم تمض مدة حتى أتانى الخليفة زائرا! وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العلم خاف واسترجع على ذنوبه فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «العلم ميراثى وميراث الأنبياء من قبلى». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «الناس رجلان: عالم، ومتعلم، ولا خير فيما سواهما».

فعلماء الشريعة هم الزمام، وبانتظام أحوالهم يكمل الانتظام، فإذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال، واكتفوا شر السؤال، كما قيل:

إن حزت علما فاتخذ حرفة — تصون ماء الوجه لايبذل

ولا تهنه إن يرى سائلا — فشأن أهل العلم أن يسألوا

وقيل:

ست عيون من تأتت له — كانت له كافية شافية

العلم والعلياء والعفو — والعزة والعفة والعافية

قال بعضهم: وطلب الكسب لازم كطلب العلم، وهو أنواع أربعة: **فرض**، وهو كسب أقل الكفاية لنفسه وعياله وقضاء دينه، **ومستحب**، وهو كسب الزائد على الكفاية ليواسى به فقيرا أو يصل به قريبا، وهو أفضل من نوع العبادة، **ومباح**، وهو كسب الزائد على ذلك للتنعم والتجمل، **وحرام**، وهو كسب ما أمكن للتفاخر والتكاثر وإن كان من حل، وأفضل الكسب: الجهاد، ثم التجارة، ثم الزراعة، ثم الصناعة. والعلم أيضا أنواع أربعة: **فرض**، وهو تعلم ما يحتاج إليه لأداء الفرائض ومعرفة الحلال والحرام فى أحوال نفسه، **ومستحب**، وهو تعلم الزائد على ما يحتاج إليه وهو أفضل من نفل العبادة، **ومباح**، وهو تعلم الزائد على ذلك للزينة والكمال، **وحرام**، وهو التعلم ليباهى به العلماء ويمازى به السفهاء. ويجب على العالم تعليم غيره إذا طلب منه إلى أن يبلغ إلى المرتبة الأولى، ولا يجب على العالم أن يجيب عن كل ما يسأل عنه إلا إذا علم أن ما يسأل عنه لا يعلمه غيره، ولو طلب غير مسلم منه أن يعلمه القرآن والفقه فلا بأس به رجاء أن يطلع على محاسنه فتكون سببا فى غرس شجرة اليقين الإيمانى فى قلبه.

وقال بعضهم: يجب على العبد أن يحمد الله تعالى من ثمانية أوجه: **الأول**، أن أوجده من العدم، **الثانى**، أن خلقه حيوانا ولم يخلقه جمادا، **الثالث**: أن خلقه ناطقا ولم يخلقه صامتا، **الرابع**، أن خلقه ذكرا ولم يخلقه أنثى، **الخامس**، أن جعله مسلما ولم يجعله كافرا، **السادس**، أن جعله عالما ولم يجعله جاهلا، **السابع**، أن جعله طائعا ولم يجعله عاصيا، الثامن، أن وفقه لمعرفته. ونعم الله لا تحصى. قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ (النحل: ١٨).

* * *

ـ (رجع) ـ ومن علامة شريف العرض عدم الشح والبخل، فالشحيح هو الذى يبخل بماله ومعروفه، والبخيل هو الذى يبخل بماله فقط، فكل شحيح بخيل ولا عكس.

وسئل معاوية، رضى الله تعالى عنه، عن السفلة، فقال: الذى ليس له معروف، ولا نسب موصوف، فإذا ارتفعت الأسافل هلكت الأفاضل، وقال بعضهم فى ذلك:

ولقد عجبت من الزمان وفعله   في حط ذي شرف ورفعة أرذل
كطبيعة الميزان في أفعالها   تضع الرواجح والنواقص تعتلي

وقيل:

الدهر مع الأنام كالميزان   لا يرفع إلا صاحب النقصان

وقيل:

قد رمينا من الزمان بسهم   قدم النذل والكريم تأخر
مات من عاش بالفضيلة جوعا   وحظى مازح ومن يتمسخر

وقيل:

وما زال هذا الدهر يرفع ناقصا   كذوبا ويخفض فاضلا طيب الذكر
كما شاع سبت النور في الناس جهرة   وقد أخفيت من فضلها ليلةالقدر

وفي الحديث القدسي، عن النبي داود، عليه السلام، قال الله تعالى: يا داود، لا تقوم الساعة حتى تذل الأشراف، و ترتفع الأراذل، ويهجر كتابي فلا يتلى، ويكثر فيه رزق العاصي والفاجر، ويقل فيه رزق المؤمن الطائع الفاضل، فإذا صار الأمر إلى ذلك الزمان حببت الدنيا إلى أهل ذلك الزمان، ومنعتهم من محبة الآخرة، فإذا فعلوا ذلك سلطت عليهم سيف النقمة، وأغليت أسعارهم، وجعلت الصغير لا يوقر الكبير، وابتليتهم بالفسق والفجور، وذلك جزاؤهم عندي. وقال بعضهم:

سل الفضل أهل الفضل قدما ولا تسل بخـ   ـيلا وجانبه وخذ عنه معزلا
ويمم كريما عاش في العز واطرح   غلاما ربي في الذل ثم تمولا
فلو جادت الدنيا عليه بأسرها   ومقداره للفرقدين قد اعتلى
وجئت إليه في اضطرار سألته   تذكر ما قاسى من الذل أولا

وقيل:

مستحدث النعمة لا ترجه فكفه مملوءة فقرا

وورد عنه صلى الله عليه وسلم: « لأن تعطى يدك إلى التنين فيقضمها خير من أن تسأل ذا نعمة حدثت عليه»[1] وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس إليه، فمن لم يتحمل تلك المؤنة فقد عرض نعمته للزوال». وقيل:

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

وقال صلى الله عليه وسلم: « السخى: قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل: بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار». وقال صلى الله عليه وسلم: «طعام السخى دواء، وطعام البخيل داء». وقال صلى الله عليه وسلم: «لكل شىء زكاة، وزكاة الدار بيت الضيافة». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار».

ومن الخصال المذمومة: الفجور، والكذب، والخيانة، والبخل، والسخافة، والفظاظة، والحقد، والحسد، والبذاء، والشره، والطمع، والتملق، والظلم والجحد، والجهل، والنفاق، والبلادة، والكبر، والعجب، والجبن. وقال صلى الله عليه وسلم: «التملق ليس من أخلاق المؤمن». وعن أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «المؤمن حافظ الحدود، دائم الفكر، طالب العلم، كامل العقل، طيب اللسان، حسن الخلق، قليل الضحك، قليل اللهو، تارك الشهوات، مخالف الشيطان، طائع الرحمن، زاهد فى الدنيا، راغب فى الآخرة». وقيل:

عليك بتقوى الله فى كل حالة فتقواه مما يرفع الناس أرفع

هى العز فى الدنيا بغير عشيرة وزينتها يوم القيامة أنفع

---

(١) والتنين ضرب من الحيات. وقوله: فيقضمها ـ بضاد معجمة ـ أى يعضها. (الطهطاوى).

وورد الحديث الصحيح: «خمس بخمس: ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة - (أى الزنا) - إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين من القحط، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر». وروى حذيفة عن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: «يا معشر الناس، اتقوا الزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث فى الدنيا، وثلاث فى الآخرة، أما اللاتى فى الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما اللاتى فى الآخرة: فسخط الله سبحانه وتعالى، وسوء الحساب، وعذاب النار». أعاذنا الله من النار وما قرب إليها من قول وعمل، ورزقنا عفوه ومغفرته بمنه وكرمه.

وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «يقول الإنسان: مالى مالى، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس». وقيل:

يغتر بالدهر مسرورا بصحبته ... وقد تبين أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه ... وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه ... وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة ... من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الصعلوك كل الصعلوك الذى له مال لم يقدم منه شيئا». يعنى لم يتصدق منه بشىء، قال ابن دريد[1] فى مقصورته:

وللفتى من ماله ما قدمت ... يداه قبل موته لا ما أقتنى
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثا حسنا لمن وعى

وفى حديث حذيفة رضى الله عنه: «أول من يدخل الجنة معى من أمتى سبعون

(١) محمد بن الحسن (٨٣٧ - ٩٢٣ م) لغوى وأديب، كان أعلم علماء عصره باللغة، وهو واضع بذور فن المقامة فى الأدب العربى، ومن آثاره الفكرية (الاشتقاق) ومعجم (الجمهرة).

ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ليس عليهم حساب». وهذا تخصيص لقوله صلى الله عليه وسلم، كما عند مسلم من حديث أبى برزة الأسلمى: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وأينما أنفقه»؟. وقيل:

ونحن فى غفلة عما يراد بنا ... ننسى لشقوتنا من ليس ينسانا

وقيل:

المال ينفد حله وحرامه ... يوما وتبقى بعده آثامه

وعن بعض الحكماء: من اعتصم بعقله زل، ومن استغنى بماله قل، ومن اعتز بمخلوق ذل. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الصدقة، ولو قلت، تطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء». وعنه صلى الله عليه وسلم: «والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار». وعنه صلى الله عليه وسلم: «إن الصدقة تطفىء عن أهلها حر القبور». وقال صلى الله عليه وسلم: «كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس». وقال صلى الله عليه وسلم: «الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر». قال بعضهم: وذلك أن الصدقة قد تقع فى يد غنى فى الباطن، والقرض لا يأخذه إلا محتاج. وعنه صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه». وعنه صلى الله عليه وسلم: «من أنظر معسرا أمهله الله بذنوبه إلى أن يتوب». وعنه صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». وقال صلى الله عليه وسلم، عن الله عز وجل: «عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه». وعنه صلى الله عليه وسلم: «من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرا، فقد أبلغ فى الثناء». وقال صلى الله عليه وسلم: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء». وقيل:

فلا كانت الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب أو إساءة مجرم

وقال بعضهم: نحن فى زمان لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر إلا إقبالا، والشيطان فى هلاك الناس إلا أطماعا، إضرب بطرفك حيث شئت فلا تبصر إلا

فقيرا يكابد فقرا، وغنيا بدل نعمة الله كفرا، وبخيلا اتخذ حق الله وفرا، ومتمردا كأن فى سمعه من سماع الموعظة وقرا. وقيل: ما زال إبليس يضل فى الدين القويم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وقيل:

يقولون الزمان به فساد   وقد فسدوا وما فسد الزمان

وللإمام أبى حنيفة، رضى الله عنه:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

ونهجو فى الزمان بغير عيب   ولو نطق الزمان بنا هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب   ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وعن سعيد، عن أبى هريرة أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال، عن الله عز وجل: « يؤذينى ابن آدم بسب الدهر، وأنا الدهر، بيدى الأمور، أقلب الليل والنهار». ولفظ البخارى فى « التفسير والتوحيد»: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: «يؤذينى ابن آدم. .». إلى آخره، وفى رواية: «فإن الله هو الدهر». وقد أخرجه الطبرانى عن أبى عيينة بهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فقال الله تعالى فى كتابه: وقالوا ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ (المؤمنون: ٣٧) فيسبون الدهر، قال الله تبارك وتعالى: يؤذينى ابن آدم». فذكره. قال القرطبى: معناه يخاطبنى بالقول الذى يتأذى منه من يجوز فى حقه التأذى، والله تعالى منزه عن أن يصل إليه الأذى، وإنما هذا من التوسع فى الكلام، والمراد أن من وقع منه ذلك تعرض لسخط الله تعالى، وقوله: «وأنا الدهر»، قال الخطابى: معناه أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التى ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها وإنما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور، وكانت عادة الجاهلية إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر، فقالوا: بؤسا للدهر وتبا للدهر وقال النووى: قوله وأنا الدهر بالرفع فى ضبط الأكثرين والمحققين، ويقال بالنصب على الظرف، أى أنا باق أبدا، والموافق لقوله إن الله هو

الدهر بالرفع، وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسبون الدهر عند الحوادث فقال لاتسبوه، إن فاعلها هو الله. وقال بعضهم: خلق الله الخلق ليظهر قدرته، ويعذبهم ليظهر نقمته، ويدخلهم الجنة ليظهر رحمته.

* * *

ـ (رجع) ـ وقال بعض الحكماء: عشر خصال يبغضها الله تعالى لعشرة: البخل فى الأغنياء، والكبر فى الفقراء، والطمع فى العلماء، وقلة الحياء فى النساء، وحب الدنيا على الشيوخ، والكسل فى الشبان، والحدة فى السلطان، والجبن فى الغزاة، والعجب فى الزهد، والرياء فى العبادة. وقيل:

اثنان بغضهما على فريضة ... متكبر فى نفسه وبخيل

وقال صلى الله عليه وسلم، عن الله عز وجل: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، من نازعنى فيهما قصمته فى النار ولا أبالى».

وروى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إنه دخل على النبى، صلى الله عليه وسلم وهو على سرير قد أثر الشريط بجنبه الشريف، فبكى عمر، رضى الله عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك يا عمر»؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط! فقال صلى الله عليه وسلم: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة». وكان صلى الله عليه وسلم فى سفر فأمر بإصلاح شاة فقال رجل: يا رسول الله، على ذبحها، وقال آخر: وعلى سلخها، وقال آخر: وعلى طبخها، فقال صلى الله عليه وسلم: «وعلى جمع الحطب»، فقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك، فقال: «قد علمت، ولكنى أكره أن أميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه»، وقام فجمع الحطب، وهذا لكمال زهده وتواضعه صلى الله عليه وسلم.

وحكى رجاء بن حيوة الكندى أنه بات ليلة عند عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، فهم السراج أن يخمد، فقام إليه ليصلحه، فأقسم عليه عمر لتقعدن، وقام هو

فأصلحه، وقال: قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر. وقال صلى الله عليه وسلم: «رب الشيء أحق بشيئه، ما لم يعجز عنه». وهذا لنفى الكبر، وقيل:

تواضع إذا نلت العلى تعل رتبة وتكتسب الشكر الجميل من الورى

فلن يشكر الغيث الرفيع محله قرين الثريا أو يصير من الثرى

وقيل:

عجبت للإنسان فى فرحه وهو فى غد فى قبره يقبر

مابال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

والتواضع من أجل الأوصاف وأشرفها، قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**﴾ (الحج: ٣٤)، يعنى أهل التواضع. وقال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ (الفرقان: ٦٣) معناه متواضعين، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر[١]»، فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الجمال». وكان صلى الله عليه وسلم يعود المرضى، ويشيع الجنازة، ويجيب دعوة العبد، ويركب الحمار مخطوما بحبل من الليف، ويعلف البعير والشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع الخادم، ويحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغنى والفقير ويبدؤهما بالسلام. وقال صلى الله عليه وسلم: «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وأذل نفسه فى غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يفخر أحد على أحد، فإنكم عبيد الرب، والرب واحد». وقيل: ليس للمتكبر صديق. وقال مسلم بن قتيبة: ماتكبر أحد فى ولاية إلا من كبرت عنه، ولا تواضع فيها إلا من كبر عنها. وقيل:

ومعتقد أن الرياسة فى الكبر فأصبح ممقوتا بها وهو لا يدرى

---

(١) المتكبر من بطر الحق وغمط الناس. (الطهطاوى).

يجر ذيول العجب يطلب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

وقيل :

لم ألق مستكبرا إلا تلبس بى ... عند اللقاء به الكبر الذى فيه

ولا حلا لى من الدنيا ولذتها ... إلا مقابلتى للتيه بالتيه

وقال صلى الله عليه وسلم : « أكرم الكرم التقوى ، وأشرف الشرف التواضع » .

وقيل :

أقول له إذا طيشته رياسة ... إليه أنت مهلا فقد غلط الدهر

ترفق يراجع فيك دهرك نفسه ... فما سدت إلا والزمان به سكر

ألم تر لليقطين[1] عند طلوعه ... يطول ولكن لا يطول له عمر

وقال عمر ، رضى الله عنه : حسن التودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن السؤال نصف العلم ، وحسن التدبير نصف المعيشة . وقيل :

إن المناصب لا تدوم لأهلها ... إن كنت تنكر ذا فأين الأول

فاغرس من الفعل الجميل مكارما ... فإذا عزلت فإنها لا تعزل

وقيل :

إن الأمير هو الذى ... أضحى أميرا يوم عزله

إن زال سلطان الولاية ... لم يزل سلطان فضله

قال أبو عثمان الحيرى : لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل . وقال صلى الله عليه وسلم : «ليس الشديد من غلب الناس ، إنما الشديد من غلب نفسه» . وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «أشدكم من ملك نفسه عند الغضب ، وأحلمكم من عفا عند القدرة» .

---

(٤) نبات القرع بفتح القاف وسكون الراء ، نوع من اليقطين ، وهو غالب عليه عند إطلاقه ، وإن كان اليقطين يطلق على كل ما ساق له من النبات كالقثاء مثلا .

وقال بعضهم: إن الله خلق النفس شر الأشياء، وهى مطيتك، وأنت محتاج إليها، ومثلها كمثل السارق الواقف على متاع البيت، وهى قرينة الشيطان، ومأوى كل سوء، ولها صفات مذمومة: تحب الشر وتبغض الخير، تخالف العقل وتوافق الهوى، وهى فى الشبع مثل السبع، وفى الجوع مثل الطفل الضعيف، وفى الغضب مثل الملوك الجبابرة، وفى الشهوة مثل البهائم، وفى الخوف مثل الهر، وفى الأمن مثل الأسد والنمر، ومن سوء عاداتها: تخاف من الفقر والقلة ولا تخاف من الله تعالى ومن أليم عذابه، وهى مسخرة الشيطان ولها أعوان وأنصار، مثل الدنيا وزهرتها والهوى والشيطان، ولكل واحد من أعوانها جنود ووفود وحشم من زينة الحياة الدنيا، مثل كثرةالنوم، وكثرة الأكل، وكثرة الضحك، ومحبة حكايات الفساق، وحب الدنيا، والكبر، والحسد، والنميمة، والعداوة الذميمة، وارتكاب المعاصى، واللعب.

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان فى كل شىء، ففى أهله يحسن عشرتهم، ولا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يضيعهم». قال صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء إثما أن يضيع ما يعول، وإلى خدمه بأن لا يكلفهم من العمل ما لا يطيقونه، ولا يضيعهم، وإلى إخوانه بأن لا يغشهم، بل ينصح لهم، ويحسن صحبتهم، ويحمل أذاهم، ويكرم مثواهم، وإلى سائر الناس بأن يعلمهم ما ينفعهم لمعاشهم ومعادهم، وإرشاد سبيل الخيرات واجتناب المنكرات، وليحب لأخيه ما يحب لنفسه»، من الطاعات والمباحات الدنيوية وسواء كان ذلك فى الأمور الحسية كالغنى، أو المعنوية كالعلم، فيكون معه كالنفس الواحدة. كما حث صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله فى الحديث الصحيح أيضا: «المؤمنون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وقال ابن عباس، رضى الله عنهما: إنى لأمر على الآية من كتاب الله تعالى فأود أن الناس علموا منها ما أعلم. وكذلك يرفق بالحيوان بأن لا يجيعه ولا يعطشه، ولا يضربه، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيقه، ولا يستمر راكبا على الدابة وهى واقفة إلا لحاجة. وقد كان عمر، رضى الله عنه، يخرج إلى الحوائط يخفف عمن أثقل فى عمله من الرقيق والأحرار والبهائم، ويزيد فى رزقه لأن كف الأذى ودفع

الضرر من المصالح المطلوبة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: « لا ضرر ولا ضرار». وقال صلى الله عليه وسلم: « خياركم خياركم للماليك».

* * *

- (رجع) - وفى صحيح مسلم عن النبى، صلى الله عليه وسلم: « لا تسأل الإمارة، فإنك إن سألتها وكلت إليها، وإن سئلت لها أعنت عليها». وقال الإمام ابن عطاء الله السكندرى، رحمه الله تعالى: ما تعسر مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. وعن على، كرم الله وجهه: لا يغرنك حر الشتاء! وضحك الأمراء! وتملق الأعداء! وزهد النساء!. كما قيل:

إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وقال «الحسن»[1] لولا الأبدال لخسفت الأرض، ولولا الصالحون لهلك الطالحون، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم، ولولا الريح لأنتن كل شىء.

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله عز وجل، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال إلى نفسها فأبى عنها وقال: إنى أخاف الله رب العالمين». قال الله تعالى: ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (البقرة: ٢٧١) وقد كان الإمام زين العابدين، رضى الله تعالى عنه، ينفق سرا، ويتصدق سرا، حتى كان غالب أهل المدينة الشريفة يرمونه بالبخل، فلما مات وجدوه كان يقوت مائة بيت من أهل المدينة. وكذلك كان شيخ الإسلام زكريا الأنصارى يسر بصدقته، حتى كان غالب الناس يعتقدون أنه بخيل، وما كان فى علماء مصر أكثر صدقة منه،

---

(١) أى الحسن بن أبى الحسن البصرى. وتقدمت الإشارة إلى ترجمته.

وكان إذا أراد أن يعطى أحدا شيئا يقول له : صافحنى لأجل السنة ، ويضع له ما قسم له ، وتارة يقول : هل هنا أحد؟ فإن قيل : نعم ، يقول لمن يريد أن يعطيه شيئا : يا فلان عد إلينا مرة أخرى ، فإن لى بك حاجة . وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «لا يجنى على المرء إلا يده» ، وفى لفظ : «لا يجنى جان إلا على نفسه» . والمراد أنه لا يؤخذ إنسان بجناية غيره إن قتل أو جرح أو زنى ، وإنما يؤخذ بما جنته يده ، فيده هى التى أدته إلى ذلك . والأصل فى الدماء العصمة عقلا ونقلا ، أما الأول فلأن فى القتل إفساد الصورة الإنسانية المخلوقة فى أحسن تقويم ، والعقل يأباه ، وأما نقلا فلقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ (الأنعام : ١٥١) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ (النساء : ٩٣) ، وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « ليحذر أحدكم أن يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم يهريقه بغير حق» . وروى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «من خرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة أغناه الله من غير مال ، وأيده من غير جند ، وأعزه الله من غير عشيرة» .

قال بعضهم : إعلم أن أمور الدنيا خمسة أشياء ، وهى : الاعتقادات ، والعبادات ؛ والعمليات ، والزواجر ، والآداب . أما الاعتقادات فخمسة أنواع : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وأما العبادات فخمسة أنواع : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وأما المعاملات فخمسة أنواع : المعارضات المالية ، والمناكحة ، والمخاصمات ، والأمانات ، والشركات ، وأما الزواجر فخمسة أنواع : زاجر عن قتل النفس وهو القصاص ، وزاجر عن هتك الستر وإفساد الفراش وإضاعة النسب وهو حد الزنا ، وزاجر عن أخذ المال وهو حد السرقة ، وزاجر عن سلب العرض وهو حد القذف ، وزاجر عن إزالة العقل وهو حد الشرب . وأما الآداب فأربعة أنواع : الأخلاق الحميدة ، والشيم الحسنة ، والسياسات ، والمعاشرات . وروى عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «سألت جبريل عليه السلام ، أتنزل بعدى إلى الأرض؟ قال : نعم ، أنزل عشر مرات أرفع جواهر الأرض ، الأولى أنزل مرة أرفع البركة ، الثانية أرفع الشفقة من قلوب العباد ، الثالثة أرفع الحياء من النساء ، الرابعة

أرفع العدل عن الأمراء، الخامسة أرفع المحبة من قلوب الخلق، السادسة أرفع الصبر من قلوب الفقراء، السابعة أرفع السخاء من الأغنياء، الثامنة أرفع العلم من صدور العلماء، التاسعة أرفع القرآن من المصاحف، العاشرة أرفع الإيمان من أهل الإيمان». نسأل الله تعالى العافية بفضله وكرمه.

قال الإمام على، كرم الله وجهه: طلبت الرفعة فوجدتها فى التواضع، وطلبت الرياسة فوجدتها فى العلم، وطلبت النصرة فوجدتها فى الصبر، وطلبت العبادة فوجدتها فى الورع، وطلبت الغنى فوجدته فى القناعة، وطلبت الشكر فوجدته فى الرضى، وطلبت الراحة فوجدتها فى ترك الجهد، وطلبت ترك الغيبة فوجدتهافى الخلوة، وطلبت الملك فوجدته فى الزهد، وطلبت الصاحب فوجدته فى العمل الصالح، وطلبت العافية فوجدتها فى الصمت، وطلبت الأنس فوجدته فى تلاوة القرآن، وطلبت ثقل الميزان فوجدته فى ذكر الله دائما وطلبت البر فوجدته فى السخاء، و طلبت المروءة فوجدتها فى الصدق. وقال صلى الله عليه وسلم: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات. ومن أشفق من النار لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت هانت عليه اللذات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات.»وقيل:

الموت لابد منه فاستعد له   إن اللبيب بذكر الموت مشغول

وكيف يلهو بعيش أو يلذ به   من التراب على خديه مجعول

وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «علامة حب الله حب ذكره، وعلامة بغض الله بغض ذكره». وقال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بلا إله إلا الله، والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكتهم بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار». وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا»، قيل: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «حلق الذكر». وقال بعضهم: المروءة والفتوة رضيعا لبان، وشريكا عنان، وفرسا رهان. وقال الحسن بن على، رضى الله عنه: المروءة حفظ الرجل دينه، وإحراز نفسه عن الدنس، وقيامه لضيفه، وأداء الحقوق، و إفشاء السلام. وروى أبو هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: «يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على

الكثير». وزاد ابن المثنى: «والصغير على الكبير. وقيل: الفتوةحسن الخلق لمن تبغضه. وبذل المال لمن تكرهه. وقيل لبعضهم: ما الفتوة فقال: أن لا تميز بين أن يأكل عندك ولى أو كافر. قيل: استضاف مجوسى إبراهيم الخليل، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فقال له: بشرط أن تسلم، فمر المجوسى لحال سبيله، فأوحى الله إلى إبراهيم: منذ خمسين سنة أطعمه على كفره، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه لكان خيرا لك! فمضى إبراهيم الخليل فى أثره حتى أدركه، واعتذر له، فسأله عن السبب، فذكر ذلك له، فأسلم المجوسى، وقد سماه الله فتى لذلك.

ومن وصايا بعض الكبار: إياك وكثرة الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. وقيل:

النطق زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما أن ندمت على سكوتك مرة لكن ندمت على الكلام مرارا

وعن بعضهم: عفة اللسان صمته، فإن اللسان سبع ضار، فإن لم تؤنقه عدا عليك. وعن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، فى وصيته لابنه الحسين، رضى الله تعالى عنه: يا بنى، أمسك عليك لسانك، فإن تلاف المرء منطقه.

والكلام على ثلاث مراتب: مستحب، كالتسبيح والتحميد والتكبيروالتهليل والصلاة على النبى، صلى الله عليه وسلم، ومباح، وهو قول الإنسان لغيره قم واقعد ونحو ذلك، وحرام وهو الكذب والغيبة والنميمة والشتيمة والتملق والنفاق، ونحو ذلك، ويستثنى من الكذب الكذب فى الحرب للخديعة، وفى الصلح بين اثنين، وفى إرضاء الرجل أهله، وفى دفع الظالم عن المظلوم. وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك، إلا كان كفارة لما بينهما. أخرجه الترمذى.

وقيل: الصمت منام اللسان، والكلام يقظته. وقال الأصمعى: سمعت أعرابيا

يقول: دع من الكلام ما تعتذر منه، وتكلم بما شئت. وعنه صلى الله عليه وسلم: «من صمت نجا». وقيل:

إذا ما اضطررت إلى كلمة فدعها وباب السكوت اقصد
فلو كان نطقك من فضة لكان سكوتك من عسجد

وقال بعض الحكماء: دبر كلامك كما تدبر سهامك. وقيل: إن اللسان سهم يخطىء ويصيب. وقيل: لا تفتح بابا يعجزك سده، ولا ترم سهما يعجزك رده، واغتنم السكوت فإن أدنى نفعه السلامة، وإن أشقى الناس من ابتلى بلسان مطلق وقلب مطبق، فلا يحسن أن ينطق ولا يقدر أن يسكت.

وقال صلى الله عليه وسلم: «كل لهو يلهو به المؤمن باطل إلا رميته عن قوسه، وتأديبه فرسه، ومداعبته امرأته».

وقال رجل لأبى بكر الوراق: أوصنى، فقال: كن فى الدنيا كالنخلة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء، إذا فرعت فرعت، وإذا فرعت أثمرت. وكذلك المؤمن إذا أدب تأدب وإذا هذب تهذب، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ**﴾ (إبراهيم: ٢٤)، ولما نزلت هذه الآية قال النبى، صلى الله عليه وسلم: «ائتونى بشجرة تشبه المسلم، لا يتحات ورقها، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها»؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، قال ابن عمر: فسكت القوم، فوقع فى قلبى أنها النخلة، فقال عليه الصلاة والسلام: «هى النخلة». فقلت لأبى: لقد كان وقع فى قلبى إنها النخلة، قال: فما منعك أن تكون قلت لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا، فقلت: كنت فى القوم وأبو بكر وعمر فلم يقولا شيئا، فكرهت أن أقول. وفى هذا الحديث فوائد: منها استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم ويرغبهم فى الفكر والاعتناء، وفيه ضرب الأمثال والأشباه، وفيه توقير الكبار، كما فعل ابن عمر، لكن إذا لم يعرف الكبار المسألة فينبغى للصغير الذى يعرفها أن يقولها، لإظهار شرفه بالنجابة، وحسن فهمه. قال العلماء: وشبه

النخلة بالمسلم فى كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس ويتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وأوراقها وأغصانها، فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا وحصرا وحبالا، ونوأها ينتفع به علفا للإبل، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهى منافع كلها خير وجمال، كما أن المؤمن خير كله، من كثرة طاعته، ومكارم أخلاقه، فيواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات، وغير ذلك، فهذا هو الصحيح فى وجه التشبيه، وقيل وجه التشبيه إذا قطع رأسها ماتت بخلاف باقى الشجر، وقيل إنها لا تحمل حتى تلقح.

قال بعضهم: وهى أول شجرة استقرت على وجه الأرض، وهى شجرة مباركة لا توجد فى كل مكان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عمتكم النخلة». وإنما سميت عمة لأنها كما روى خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، لأنها تشبه الإنسان فى حسن استقامة قدها، وطولها، وامتياز ذكرها من بين النبات، واختصاصها باللقاح، ورائحة طلعها كرائحة النطفة، ولطلعها غلاف كالمشيمة التى يكون الولد فيها، ولو قطع رأسها ماتت، وإن أصاب جمارها آفة هلكت، والجمار من النخلة كالمخ من الإنسان، وعليه الليف كشعر الإنسان، وإن تقاربت ذكورها وإناثها حملت حملا كثيرا، لأنها تستأنس بالمجاورة، وإن كانت ذكورها بين إناثها لقحتها الريح، وربما قطع إلفها من الذكور فلا تحمل لفراقه، وإذا دام شربها بالماء المالح أو طرح الملح فى أصولها حسن ثمرها، ويعرض لها أمراض مثل الإنسان، ومن أمراضها سقوط الثمرة بعد الحمل. وقال صاحب (كتاب الفلاحة) إذا نقعت النوى فى بول بغل وزرعت منها ما زرعت جاء نخله كله ذكورا، وإن نقعت النوى فى الماء ثمانية أيام وزرعته جاء بسره كله أحمر، وإن نقعت النوى فى بول البقر أياما، وجففته ثلاث مرات، وزرعته جاءت كل نخلة تحمل حملا قدر نخلتين، وإذا أخذت نوى البسر الأحمر وحشوته فى التمر الأصفر وزرعته جاء بسرها أصفر، وكذلك بالعكس، وكذلك فلاحة النوى المتطاول والنوى المدور، وكيفية غرسه أن تجعل طرف النوى الغليظ مما يلى الأرض، وموضع النقير إلى جهة القبلة. وقيل:

وعن بعض ملوك الروم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه: قد بلغنى أن ببلدك شجرة تخرج ثمرها كأنه آذان الحمر، ثم ينشق كأحسن اللؤلؤ المنظوم، ثم يخضر فيكون كالزمرد، ثم يحمر ويصفر فيكون كشذور الذهب وقطع الياقوت، ثم ينقع فيكون أطيب من الفالوذج[1]، ثم ييبس فيكون قوتا، ويدخر، فلله درها من شجرة. فكتب إليه عمر، رضى الله تعالى عنه: صدق رسولك، وإنها الشجرة التى ولد تحتها المسيح، عليه السلام، وقال: (إنى عبد الله)، فلا تدع مع الله إلها آخر! ووصف خالد بن صفوان النخل فقال: هى الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل، الملقحات بالفحل، اليانعات كشهد النحل، تخرج أسفاطا غلاظا وأوساطا كأنها ملئت حللا ورياضا، ثم تنشق عن قضبان لجين وعسجد كشذر الفضة، ثم تصير ذهبا أحمر بعد أن كانت كالزبرجد الأخضر.

ومن خواص النخلة إذا مضغ خوصها يقطع رائحة الثوم، وكذلك رائحة الخمر، وقد قيل فيه شعر:

كأن النخيل الباسقات وقد بدت لناظرها حسنا قباب زبرجد

وقد علقت من قبلها زينة لها قناديل ياقوت بأعراش عسجد

ولا شك أن حرفة الزراعة، التى من ضمنها زراعة النخل، أفضل الحرف بعد الجهاد، ثم حرفة الخياطة، ثم التجارة، وقيل: التجارة شطارة، والصناعة لصاحبها ربح من غير خسارة، والزراعة من أجل الصنائع، والعطارة من أكمل الحرف والبضائع، وكل صنعة أخروية فهى أفضل، وكل صنعة يحتاج إليها فى أمور الدين وإقامة ركنه كالزراعة والخياطة ففيها فضيلة لتعليمها وتعلمها، لأن التغذى وستر العورة من أمور الدين وإقامة ركنه، فأى حرفة أشد احتياجا من أمور الدين والدنيا فهى أحرى من أختها. قال عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه: من خط وخاط

(١) نوع من الحلواء تصنع من الدقيق والعسل. والكلمة من الدخيل على العربية.

وفرس وعام فذاكم الغلام. ولما كان من أهم صفات شرف العرض العفة أطلق عليها عرفا، وإلا فهو أعم منها، وأحسن ما قيل فى ذلك قول السموأل[1] بن عاديا الذى خمسه الصفى الحلى:

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه   وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الذى فيه ركضه   إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
إذا المرء لم يحجب عن العين نومها   ويغلى من النفس النفيسة سومها
أضيع ولم تأمن معاليه لومها   وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل
وعصبة غدر أرغمتها جدودنا   فباتت ومنها ضدنا وحسودنا
إذا عجزت عن فعل كيد يكيدنا   تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل
رفعنا على هام السماك محلنا   فلا ملك إلا تفيأ ظلنا
وقد خاف جيش الأكثرين أقلنا   وما قل من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلى وكهول
يوازي الجبال الراسيات وقارنا   وتبني على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا   وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
ولما حللك الشام تمت أموره   لنا وحبانا ملكه وأميره
وبالنيرب الأعلى الذي عز طوره   لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

(1) ابن غريض بن عادياء (المتوفى حوالى سنة ٥٦٠ م) شاعر جاهلى، كان يهوديا، وله قصة شهيرة مع امرئ القيس جعلته مضرب المثل فى الوفاء.

يريك الثريا من خلال شعابه وتحدق شمس الأفق حول هضابه
وتقصر خطو السحب دون ارتكابه رسا أصله تحت الثرى وسما به

إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقصر على الشقراء قد فاض نهره وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع ما بين البرية شكره هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره

يعز على من رامه ويطول

إذا ما غضبنا فى رضى المجد غضبة لندرك ثأرا أو لنبلغ رتبة
تزيد عداة الكر فى الموت رغبة وإنا لقوم لا نرى القتل سبة

إذا ما رأته عامر وسلول

أبادت ملاقاةالحروب رجالنا وعاش الأعادى حين ملوا قتالنا
لأنا إذا رام العداة نزالنا يقرب حب الموت آجالنا لنا

وتكرهه آجالهم فتطول

ومنا معيد الليث فى قبض كفه ومورده فى أسره كأس حتفه
ومنا مبيد الألف فى يوم زحفه وما مات منا سيد حتف أنفه

ولا طل منا حيث كان قتيل

إذا خاف ضيما جارنا أو جليسنا فمن دونه أموالنا أو رؤوسنا
وإن أججت نار الوقائع شوسنا (١) تسيل على حد الظبات نفوسنا

وليست على غير الظبات تسيل

جنى نفعنا الأعداء طورا وضرنا فما كان أحلانا لهم وأمرنا
ومذ خطبوا قدما صفانا وبرنا صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا

إناث أطابت حملنا وفصول

(١) الشوس، جمع أشوس، الشديد الجرىء فى القتال.

لقد وفت العلياء فى المجد قسطنا وما خلفت عن منشأ الأصل شرطنا

فمذ حاولت فى ساعة العز هبطنا علونا إلى خير الظهور وحطنا

لوقت إلى خير البطون نزول

تقر لنا الأعداء عند انتسابنا وتخشى خطوب الدهر فصل خطابنا

لقد بالغت أيدى العلى فى انتخابنا فنحن كماء المزن ما فى نصابنا

كهام ولافينا يعد بخيل

نغيث بنى الدنيا ونحمل هولهم كما يومنا فى العز يعدل حولهم

نطول أناسا تحسد السحب طولهم وننكر إن شئنا على الناس قولهم

ولا ينكرون القول حين نقول

لأشياخنا سعى به الملك أيدوا ومن سعينا بيت العلاء مشيد

فما زال منا فى الدسوت مؤيد إذا سيد منا خلا قام سيد

فؤول بما قال الكرام فعول

سبقنا إلى شأو العلى كل سابق وعم عطانا كل راج ووامق

فكم قد خبت فى المحل نار منافق وما خمدت نار لنا دون طارق

ولا ذمنا فى النازلين نزيل

علونا فكان النجم دون علونا وسام العداة الخسف فرط سمونا

فماذا يسر الضد من يوم سونا وأيامنا مشهورة فى عدونا

بها من قراع الدار عين فلول

أبدنا الأعادى حين ساء فعالها فعاد عليها كيدها ونكالها

ببيض جلاجيل العقال صقالها معودة إن لا تسل نصالها

فتغمد حتى يستباح قتيل

هم هونوا فى قدر من لم يهنهم وخانوا غداة السلم من لم يخنهم

فــإن شـئـت خـيــر المال منا ومـنهم سلى إن جــهلـت الناس عنا وعـنهم

فلـيس ســـواء عـــالـم وجـــهـــول

وقال شميلة، من أشراف مكة، وكان نجدا شجاعا شاعرا :

ليس التــعلل بـالآمـال من شــيــمى ولا القنـاعـة بـالإقــلال من همـــمى

ولـســت بالـرجـل الـراضـى بمنـزلـة حـــتى أطأ الـفلك الـدوار بالقـــدم

هكذا تكون النخوة الهاشمية والشهامة القرشية، ولا يحسن الافتخار والحماس من عموم الناس، وإن حسن فهو من أهل البيت أحسن. جعلنا الله ممن أنعم عليهم بحبهم وأحسن.

فحفظ العرض، الذى هو أساس الفضائل، تدخل فيه ا لعفة، التى ينبغى أن تكون وصفا للذكور والإناث، فمن شرف المرأة وفاؤها بحقوق زوجها بحفظ عرضه، وماله، بأن تكون لزوجها راعية ومجيبة لطاعته سرا وعلانية، ولهذا كان الآباء والأمهات يوصون البنات بطاعة الأزواج.

الفصل الثالث

(فى خطبة الآباء والأمهات، ووصاياهم للبنين والبنات، وغير ذلك)

جرت العادة عند العرب، الذين هم خيار الناس، بأن الآباء والأمهات يصطفون لأبنائهم الأزواج والزوجات، مع مراعاة الأصالة والأعراق، والنباهة وحسن الأخلاق، وكرم الأصل والفعال، وظرف المعانى ولطف الخصال، ووضاءة البهاء والجمال، وجميع الصفات الباعثة على عدم الشقاق، الجالبة للوداد والوفاق. فمن ذلك ما حكى عن الحارث بن عوف، سيد قبيلته، أنه قال لبعض إخوانه: أترى أنى أخطب إلى أحد فيردنى؟ قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائى، الذى قال فى مدحه الشاعر:

الى أوس بن حارثة بن لام ... ليقضى حاجتى فيمن قضاها

فما وطئ الحصى مثل ابن سعدى ... ولا لبس النعال ولا احتذاها

فقال: اركب بنا إليه، فركبا، وسارا حتى أتيا أوس بن حارثة فى بلاده، فوجداه فى فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبا بك يا حارث، ما جاء بك؟ قال: جئت خاطبا، فأساءه فى الجواب، فانصرف ولم يكلمه، ودخل أوس إلى زوجته مغضبا، فقالت: من الرجل يسلم عليك فلم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث ابن عوف الطائى، قالت: فما بالك لم تستنزله؟ قال: إنه استخفنى، قالت: وكيف ذلك؟ قال: جاء خاطبا: أفتريد أن أتزوج بناتك، أم لا؟ قال: نعم، بل أزوجهن، ولا بد من الزواج، قالت: فإذا لم أتزوج سيد العرب فى زمانه، فمن تريد لهن؟ قال: كان ذلك، وندم، قالت له: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا؟ قالت: بأن تلحقه وترده، قال: وكيف ذلك، وقد فرط منى إليه ما

فرط؟ قالت: تقول له: إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط منى، فارجع فلك عندى كل ما أحببت، قال: فركب فى أثرهما، فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته، فقلت للحارث، وهو لا يكلمنى غيظا: هذا أوس فى أثرنا، فقال: وما أصنع به؟ فلما رآنا لا نلتفت، نادى: يا حارثة، أربع [1] قلبك على، فوقفا له، وكلمه بذلك الكلام الذى علمته زوجته، فرجع مسرورا، فلما دخل أوس منزله قال لزوجته: ادعى بفلانة، أكبر بناته، فأتته فقال لها: أى بنية، هذا الحارث بن عوف، سيد من سادات العرب، قد جاءنى خاطبا، وقد أردت أن أزوجك منه، فماذا تقولين؟ قالت: لا تفعل! قال: ولم؟ قالت: إنى امرأة ذات خلق، وفى خلقى رداءة، وفى لسانى حدة، ولست بابنة عمه فيرعى حقى ورحمى، ولا أنت مجاور له فى البلد فيستحى منك، وأخاف أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون ذلك على سبة وحسرة، قال: قومى بارك الله فيك، ثم دعا بابنته الثانية، فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل ذلك، فقال: قومى بارك الله فيك، ثم دعا بهنيسة، وكانت أصغرهن سنا، وأحسنهن جمالا وأدبا، وأرجحهن عقلا، فقال لها مثل ذلك، فقالت له: والله إنى الجميلة وجها، الرقيقة خلقا، الحسنة رأيا، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه، وإن أرادنى كنت له معينا على مضض الزمان وحوادثه، فقال لها: بارك الله فيك، ثم خرج من عندها إلينا، فقال: زوجتك يا حارث بنتى هنيسة، قال، قد فعلت، فأمر أمها أن تهيئ حالها وتصلح شأنها، ثم أمر ببيت فضرب لها، وأنزله إياه، ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة، ثم خرج إلىّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا، والله ما وصلت إلى شىء، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما أمددت يدى إليها، قالت: مه! أعند أبى وإخوتى؟ إنى لأستحيى منهم، هذا والله لا يكون أبدا! ثم أمر بالرحيل فارتحلنا بها معنا، وسرنا إلى مأمننا، ثم قال لى: تقدم، فتقدمت، فعدل بها عن الطريق فمال قليلا، ولحقنى، فقلت: أقضيت حاجتك؟ قال: لا، قلت: ولم ذلك؟ قال: قالت لى: أتفعل بى كما يفعل بالسبية الأخيذة؟ لا والله إلا حتى تنحر الجزور، وتذبح الغنم،

---

(١) أى أعطف قلبك على.

وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي! فقلت: والله إني لأرى همة وعقلا، وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة إن شاء، فسرنا إلى حينا، فأحضر البقر والغنم والإبل، ونحر، وأولم، ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت: أقضيت حاجتك؟ فقال: لا والله، قلت: ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها لأريدها، وقلت لها: قد أحضرت من المال فخذى ما تريدين، فقالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك! قلت: ولم ذلك؟ قالت: أتتفرغ للنساء، وبلغنى أن العرب يقتل بعضهم بعضا! وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان ـ قلت: فماذا تريدين؟ قالت: أخرج إلى القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك، فلن يفوتك ما تريد، وتفوز بالسيادة على قومك، فقلت والله إني لأرى عقلا ورأيا مباركا سديدا، قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فأمرناهم بالصلح، ودخلنا بينهم، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم يأخذوا واحدا فى واحد، وما زاد يأخذوا ديته، فكانت الزيادة على فريق منهم ثلاثة آلاف دينار فوزنوها، وانصرفنا بأجمل ذكر وأعظم سيادة، ثم دخل عليها، فقالت: نعم، الآن، فأقامت معه فى ألذ عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات، وكان من أمرهما ما كان.

قال الغزالى فى (الإحياء): زوج أسماء بن خارجة الفزارى ابنته، فلما أراد هداءها قال لها: إنك خرجت من العش الذى فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لا تألفينه، فكونى له أرضا يكن لك سماء، وكونى له مهادا يكن لك عمادا، وكونى له أمة يكن لك عبدا، و لا تلحفى به فيقتلك، ولا تتباعدى عنه فينساك، إن دنا فاقربى منه، وإن نآى فابعدى عنه، واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيبا، ولا يسمع منك إلا حسنا، ولا ينظر إلا جميلا، وكونى له كما قلت لأمك..

خذى العفو منى تستديمى مودتى ۞ ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب

فإنى رأيت الحب فى الصدر والأذى ۞ إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وقالت أخرى لبنتها: كونى له فراشا يكن لك معاشا، وكونى له وطاء يكن لك غطاء، وإياك والاكتئاب إذا كان فرحا، والفرح إذا كان كئيبا، ولا يطلعن منك على

قبيح، ولا يشمن منك إلا طيب ريح، ولا تفشين سرا لئلا تسقطى من عينه، وعليك بالماء والدهن والكحل فإنها أطيب الطيب.

وعلى ذكر النهى عن إفشاء السر قول عمرو بن العاص: ما استودعت رجلا سر فأفشاه فلمته، لأنى كنت أضيق صدرا حيث استودعته إياه. وقيل:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقيل:

لا تفش سرك ما استطعت إلى امرىء يفشى إليك سرائرا تستودع

فكما تراه بسر غيرك صانعا فكذا بسرك لا محالة صانع

وقيل:

إذا المرء لم يحفظ سريرة نفسه فإياك أن تفشى إليه حديثا

وقال صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقيل: من كتم سره ملك أمره. وقيل: كلما كثر خزان الأسرار ازدادت ضياعا.

* * *

ـ (رجع) ـ وقال شخص لابنته ليلة الهداء: كونى لزوجك أمة يكن لك عبدا. وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر، وبالماء فإنه رأس الطيب.

ولما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف بن ملحم الشيبانى، وكمالها، وقوة عقلها، دعا امرأة من كندة يقال لها عصام، ذات عقل، ولسان وأدب، وبيان، وقال لها: إذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهى إمامة ابنة الحارث، فأعلمتها ما قدمت له، فأرسلت إمامة إلى ابنتها، وقالت أى بنية، هذه خالتك أتتك لتنظر إليك، فلا تسترى عنها شيئا،

إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك، فدخلت إليها، فنظرت إلى ما لم تر قط مثله، فخرجت من عندها وهى تقول: «ترك الخداع من كشف القناع»، فأرسلتها مثلا، ثم انطلقت إلى الحارث، فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟ قالت: صرح المخض عن الزبد، رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل، وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سودا بحمم، [1] تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة، [2] بينهما أنف كحد السيف الصنيع، حفت به وجنتان كالأرجوان، فى بياض كالجمان، شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر ذات أشر [3]، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، بعقل وافر، وجواب حاضر، يلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقا كالشهد، فى رقبة بيضاء كالفضة، ركبت فى صدر كصدر تمثال دمية، وعضدان مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما، لين عصبهما، تعقد إن شئت منهما الأنامل، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين، يحرقان عليها ثيابها، تحت ذلك بطن طوى على القباطى المدمجة، كسر عكنها كالقراطيس المدرجة، تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر، لها كفل يقعدها إذا نهضت، وينهضها إذا قعدت، كأنه دعص [4] الرمل، لبده سقوط الطل، يحمله فخذان لفا كأنما قلبا على نضد جمان، تحتهما ساقان خذلتان [5]، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها، فزوجها إياه، وبعث بصداقها، فجهزت. وقيل:

ذات حسن لو استزادت من الحسن إليه لما أصابت مزيدا

فهى كالشمس بهجة والقضيب اللدن قدا والريم طرفا وجيدا

(١) بوزن حبر: الفحم. (الطهطاوى).

(٢) أى ممتلئة الجسم. (الطهطاوى).

(٣) تأشير الأسنان: تحزيزها وتحديد أطرافها. (الطهطاوى).

(٤) الدعص: كثيب الرمل.

(٥) أى ممتلئتان. (الطهطاوى).

فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها، قالت لها أمها: أى بنية، إن الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو مكرمة حسب لتركت ذلك معك، ولكنها تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل، أى بنية، لو استغنت ابنة عن زوج لغناء أبويها لكنت أغنى الناس عنه، ولكنا خلقنا للرجال كما خلق الرجال لنا، أى بنية، إنك فارقت الوطن الذى منه خرجت، والعش الذى منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، أصبح بملكه إياك عليه ملكا، فكونى له أمة يكن لك عبدا، واحفظى له خلالا عشرا، أما الأولى، والثانية: فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فإن فى القناعة راحة القلب، وفى المعاشرة بحسن السمع والطاعة رضى الرب، وأما الثالثة، والرابعة: فالتعهد لموقع عينه، والتفقد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب ريح، واعلمى أن الكحل أحسن الحسن الموجود، وأن الماء أطيب الطيب المفقود، وأما الخامسة، والسادسة: فالتعهد لوقت طعامه، والهدء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغصبة، أما السابعة، والثامنة: فالاحتفاظ ببنيه وماله، والرعاية لحشمه وعياله، فإن أصل المال من حسن التقدير، والرعاية على الجسم والعيال من حسن التدبير، وأما التاسعة، والعاشرة: فلا تفشين له سرا، ولا تعصين له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، واتق ـ مع ذلك ـ الفرح إن كان ترحا، والاكتئاب إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وأشد ما تكونين له إعظاما أشد ما يكون لك إكراما، وأكثر ما تكونين له موافقة أحسن ما يكون لك مرافقة، واعلمى إنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثرين هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت أو كرهت. ثم ودعتها، وصرفتها، بعد أن نبهتها وعرفتها.

ومن الوصايا للرجال فيما يخص التأدب بالآداب الحسنة، ومن جملتها العشرة مع الأزواج، وصية خطاب بن المعسلى، والمخزومى، القرشى، لابنه حيث قال: عليك بتقوى الله تعالى وطاعته، وتجنب محارمه، واتباع سنته ومعاملته، حتى يصح عيشك، وتقر عينك، فإنه لا يخفى على الله خافية، فإنى قد رسمت لك رسما، ووسمت لك وسما، إن أنت حفظته ووعيته وعملت به ملئت بك أعين

الملوك، فأطع أباك واقتصر على وصيته، وفرغ لذلك ذهنك، واشغل به قلبك ولبك، و إياك وهذر الكلام، وكثرة الضحك والمزاح، وممارات الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء، ويوقع فى الشحناء وعليك بالرزانة والوقار، من غير كبر يوصف منك، ولا خيلاء تحكى عنك، والق صديقك وعدوك بوجه الرضى، وكف الأذى، من غير ذلة لهم، ولا مهابة منهم، وكن فى جميع أمورك أوسطها، فإن خير الأمور الوسط، واقلل الكلام، وافش السلام، وامش متكئا ولا تخط برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلق رداءك، ولا تنظر فى عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مجلسا، ولا الحوانيت متحدثا، ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء، وإن قضيت فاختصر وإن مدحت فاقتصر، وإذا جلست فتربع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بلحيتك، وخاتمك، وذوآبة سيفك، وتخليل أسنانك، وإدخال يدك فى أنفك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التثاؤب والتمطى، وأشباه ذلك، فإن ذلك مما تستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك، وليكن مجلسك هادئا، وحديثك مقسوما، واصغ إلى الكلام الحسن ممن يحدثك بغير إظهار عجب منك، ولا تسأله إعادة، وغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك، ولا خادمك، ولا عن فرسك وسيفك، وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت الفرح بها طمع فيك السفهاء، فولدوا لك الأحلام، واغتمزوا فى عقلك، ولا تبدل العبد، وغب [1] بامتشاط لحيتك، وتوق نتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف فى الدهن، وليكن كحلك غبا، ولا تلح فى الحاجات، ولا تجشع فى الطلبات، ولا تعلم أهلك وولدك ـ فضلا عن غيرهم ـ بعدة مالك، فإنهم إن رأوه قليلا هنت، وإن رأوه كثيرا لم تبلغ به مرضاتهم، واجفهم من غير عنف منك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر فى حجتك، وأر الحاكم بينكما حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، وتوق حمرة الوجه، وعرق الجبين، وأن سفه عليك فاحلم، وإذا هدأ غضبك فتكلم، واكرم عرضك، والق الفضول عنك، وإن قربك السلطان فكن منه على حد السنان، وإذا استرسل إليك فلا تأمن انقلابه

---

(١) أى أمشطها وقتا بعد وقت.

عليك، وارفق به كل رفقك، وكلمه بما يشتهى مما لم يضيع حقا من حقوق الله تعالى، ولا يحملنك ما ترى منه من إلطافه إياك وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من أهله وولده وحشمه إلا بخير، وإن كان لذلك منك مستمعا، وللقول منك مطيعا، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعة، وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت به كمخافت الأخرس، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث الغريبة المستبشعة التى تنكرها القلوب، وتقف بها الجلود، وإياك ومضاعف الكلام: «نعم»، «نعم»، و «لا» و «لا»، و «أعجل»، و «أعجل»، وما أشبه ذلك، وإذا توضأت فأجد عرك كفيك، ولا تنخع[1] فى الطست، وليكن طرحك الماء من فيك مسترسلا، ولا تمجه فينضح على أقرب جلسائك، ولا تعض بعض اللقمة ثم تعيد ما بقى منها فى الفم، فإن ذلك مكروه، ولاتكثر الاستقاء على مائدة الملوك، ولا تعبث بالمشاش[2]، ولا تعب طعاما ولا شيئا ممايقرب على المائدة، من بقل أو خل أو تابل أو عسل، فإن الصحابة صيرت لنفسها المهابة بذلك، ولا تمسك إمساك المسكين المثبور[3]، ولا تبذر تبذير السفيه المغرور، واعرف فى مالك واجب الحقوق وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجون إليك، واعلم أن الجشع - يعنى الطمع - يدعو إلى الطبع، والرغبة - كما قيل - تدق الرقبة، والأكلة تمنع الأكلات، والتعفف مال جسيم وخلق كريم، ومعرفة الرجل قدره تشرف ذكره، ومن تعدى القدر هوى فى بعيد الفقر، والصدق زين، والكذب شين، ولصدق يسرع عطب صاحبه خير وأحسن عاقبةمن كذب يسلم صاحبه، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، والزوجة السوء ألد من داء العضال، وطاعة النساء تزرى بالعقلاء، تشبه بأهل الفضل تكن منهم، واتضح للشرف تدركه، واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنما ينسب الصارم لصانعه، والمرء يعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء، فإنهم يخونون من رافقهم، ويحزنون من صادقهم، وقربهم

---

(١) تدفع الشىء من صدرك أو أنفك.

(٢) أى العظام. (الطهطاوى).

(٣) المطرود.

أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب، وجفوة المستجير لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير رهن، والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك فى الرخاء، واحفظ صديق البلية، وتجنب صديق العافية، فإنه أعدى الأعادى، ومن اتبع الهوى مال به إلى الردى، ولا يعجبنك الظريف من الرجال، ولا تحقر ضئيلا كالخلال، وإنما المرء بأصغريه، وتوق الفساد وإن كنت فى بلاد الأعادى، ولا تفرش عرشك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام، وأمنح البشر جليسك والقبول، وكن منتهيا فى فرصتك، رفيقا فى حاجتك، مثبتا فى عجلتك، والبس لكل دهر ثيابه كما قيل:

من شاء أن يصفو له عيشه   يمشى مع العميان والطرش

ما شيمتى الذل ولكننى   أمشى مع الدهر كما يمشى

وقيل:

فاقسم لكل زمان ما يليق به   فإن للزند حليا ليس للعنق

وكن مع كل قوم فى سلكهم، ولا تعجل فى أمر حتى تنظر إلى عاقبته، وعليك بالتنوير فى كل شهر، وإياك وحلق الإبط بالنورة [1]، وليكن السواك من طبعك، وإذا استكت فعرضا، وعليك بالعمارة لأنها أنفع من التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع، ومنازعة اللئيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، ومعرفة الحق من إخلاص الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، من أيسر عظم، ومن افتقر احتقر، قصر فى المقالة مخافة عدم الإجابة، والساعى عاتب عليك، وطول السفر ملالة، وكثرة المنسى ضلالة، وليس للمعاتب صديق، وأدب الشيخ عياء، والأدب للغلام شفاء، والدين أزين الأمور، والشماتة سفاهة، والسكران شيطان، وكلامه هذيان، والعادة طبيعة لازمة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ومن حل عقدا احتمل حقدا، والفرار عار، والتقدم مخاطرة، وكثرة العلل مع الوجود من

(١) النورة، بضم النون المشددة، وسكون الواو، وفتح الراء، معناها هنا: أخلاط تضاف إلى حجر الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر.

البخل، وشر الرجال الكثير الاعتلال[١]، وحسن اللقاء يذهب الشحناء، ولين الكلام من أخلاق الرجال الكرام.

ابنى، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بزواج امرأة فاسأل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة، وأعلم أن النساء أشد اختلافا من أصابع الكف، فتوق منهن[*] كل ذات يد مجبولة على الأذى، فمنهن المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها رأت فضلها، ولاتشكره على جميل، ولا ترضى منه بالقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت الوقاحة ستر الحياء عن وجهها، هدّارة عقّارة، زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، لا ترعى له دينا ولا دنيا، ولا تحفظه لصحبته ولا لكبر سنه، حجابه مهتوك، وسره منشور، وخيره مدفون، يصبح كئيبا، ويمسى عانيا، شرابه شر، وطعامه غيظ، وبيته مستملك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن تكلم فكاره، وإن ضحك فراهب، نهاره ليل، وليله نهار، تلدغه مثل الحية، وتكرشه مثل العقرب، تهب مع الرياح، وتطير مع كل ذى جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم، قالت: لا، محتقرة لما فى يديه، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون الرجال، وتنقله من حال إلى حال، قلى بيته، ومل ولده، وغشه عرسه، وهانت عليه نفسه، حتى أنكره إخوانه، ورحمه جيرانه.

ومنهن الحمقاء، ذات الدلال فى غير موضعه، الماضغة للسانها، التاركة لشأنها، قد قنعت من زوجها بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالأتان الراتع، ترتفع الشمس ولم يسمع لها صوت، ولم يكنس لها بيت، طعامها بائت، وماؤها فاتر، وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب.

ومنهن العطوف الودود، المباركة الولود، المأمونة على الغيبة، المحبوبة فى جيرانها، الحافظة لسرها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل، الخافضة صوتا، النظيفة بيتا، خادمها مؤتمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها ناعم،

---

(١) يعنى فى القول. (الطهطاوى).

(*) فى الأصل: (منهم). (الشروق).

موصوفة بالخير والعفاف، معروفة بخير الأوصاف، جعلك الله يا بني فيمن يقتدى بالهدى، ويأتم بالتقى، ويتجنب السخط، ويحب الرضى، والله خليفتي عليك. انتهى.

وقال بعضهم:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً ... بأن جميع حياتي كساعة

فلم لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلها في صلاح وطاعة

وقيل:

معاصيك العظام عليك دين ... ويوم الحشر تبديها جميعا

فكن متجافياً عن كل ذنب ... فخير الناس من أمسى مطيعا

وقيل:

تزود جميلاً من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً عندهم ثم يرحل

ومن الوصايا ما أوصى به العلامة السهروردي[1] ابنه، قال: يابني، لا عقل لمن لا وفاء له، ولا مروءة لمن لا صدق له، ولا علم لمن لا رغبة له، ولا كرم لمن لا حياء له، ولا توبة لمن لا توفيق له، ولا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أرفع من الأدب، ولا رفيق أزكى من العقل، ولا دليل أوضح من الحق، ولا شفيع أبهى من التوبة، ولا غائب أقرب من الموت، ولا كرم أنفع من ترك المعاصي، ولا حمل أثقل من الدين، ولا عبادة أفضل من الصمت، ولا شر أشر من الكذب، ولا كبر أكبر من الحمق، ولا فقر أضر من الجهل، ولا ذل أذل من الطمع،

(١) السهروردي البغدادي، أبو حفص عمر (١١٤٥ - ١٢٣٤ م) وهو تلميذ لعمه: السهروردي، أبو النجيب عبد القاهر (١٠٩٧ - ١١٦٩ م)، وهو غير السهروردي، أبو الفتوح يحي بن حبش (المقتول) (١١٥٣ - ١١٩١ م).. وإلى السهروردي، البغدادي، أبو حفص هذا تنتسب طريقة السهروردية الصوفية، ويعد كتابه (عوارف المعارف) من أهم المؤلفات الصوفية.

ولا عار أقبح من البخل، ولا غنى أغنى من القناعة. يا بنى، من نظر فى عيب غيره استعظم زلة نفسه، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر حفرة لغيره وقع فيها.

يا بنى، من صارع الحق صرع، ومن تعرض لهتك مسلم هتك الله عورته، ومن أعجبه رأيه ضل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن شاور لم يندم، ومن جالس العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر، ومن قل كلامه حمدت عاقبته، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد، ومن طاوع نفسه فى شهواتها فضحته، ومن لم يعرف مقادير الرجال فألحقه بالبهايم. يا بنى، إنى ذقت الطيبات كلها فلم أجد ألذ من العافية، وذقت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة إلى الناس، ونقلت الحديد والصخر فلم أجد شيئا أثقل من الدين. يا بنى، جهد البلاء فى الدين ست خصال: سلطان يظلم رعيته، ورجل يضرب امرأته من غير ذنب، وكثرة العيال مع قلة المال، وانتظار شخص على المائدة، وصديق يمشى بهلاك صاحبه، وجار سوء يدفن حسناتك ويفشى سيئاتك. يا بنى، لا خير فى النساء، ولا تركن إليهن، ولا تبح إليهن بسرك، كن من خيارهن على حذر. يا بنى، إذا جاورك قوم فغض نظرك عن محارمهم. يا بنى، من أساء إليك فأحسن إليه، وازرع الجميل تحصد الجزيل، واصحب الأشراف وتجنب الأطراف، لأن الأشراف إن صحبتهم رفعوك، وإن ظلمت نصروك، وإن تكلمت سمعوك، والأطراف إن صحبتهم وضعوك، وإن أمنتهم خدعوك، وإن أطلعوا على سرك فضحوك، وإن استغنوا عنك تركوك. يا بنى، عليك بالندامة على الذنب، واذكر الله بالعشى والإبكار، واهرب من رفيق السوء. يا بنى، لا تصاحب ستة من الرجال: الأحمق، والفاسق، والنمام، والكذاب، والبخيل، والخائن.

وقال صلى الله عليه وسلم: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «المجالس بالأمانة». وقال الأعمش [1]: جواب الأحمق السكوت، والتغافل يطفئ شرا كثيرا، ورضى المتجنى غاية لا تدرك، والاستعطاف عون للظفر. وقيل:

(١) أبو محمد سليمان بن مهران (٦٧٩ ـ ٧٦٥ م) محدث، وقارىء، كان شيعيا محبا لعلى بن أبى طالب، وقراءته معدودة فى القراءات الأربع عشرة.

عود لسانك صدق القول تحظ به إن اللسان لما عودته اعتادا

وقيل:

وعد الفتى بلسانه دين على إحسانه

فإذا وفى ميعاده انحل عقد لسانه

وكان عليه الصلاة والسلام يقول الحق ولو كان مرا.

وقال بعض الحكماء: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك، ويستر عيبك، ويكون معك في النوائب، ويوثر الرغائب، وينشر حسنتك، ويخفي سيئتك، فإن لم تجد فلا تصاحب إلا نفسك. وقيل:

وإذا صاحبت فاصحب ما جدا ذا حياء ووفاء وكرم

قوله للشيء: لا، إن قلت: لا وإذا قلت: نعم، قال: نعم

وروى عن ابن مسعود، رضي الله عنه: مثل الجليس الصالح كمثل حامل المسك، إن لم يعطك منه أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين[1]، إن لم يحرق ثيابك أصابك من ريحه ودخانه. ووصف بعض البلغاء إخوانا له فقال: أخطأ الناس لديهم من أحسن إليهم، فإن قصر عنهم رفضوه وبغضوه، وإن حضروا عنده داهنوه، وإن غابوا عنه شاحنوه، وإن رأوا خيرا دفنوه، وإن سمعوا شرا أعلنوه. وقيل:

إذا رأوا سبة طاروا بها فرحا مني وما سمعوا من صالح دفنوا

وقيل:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وعنه صلى الله عليه وسلم: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها». وقال بعض الحكماء: ليس الإخوان من جلس على الخوان، إنما يحب امرؤ وده غير ممنون

(١) معناه هنا: الحداد.

وعقبه مأمون، فهذا هوالخليل الذى ما له عديل، وما عنه إذا غاب بديل [1] وشرطه أن يكون لك نافعا، وعنك مدافعا، تعده لنائبات الدهر إذا نزلت، وللمسرة إذا حصلت، فكل حبيب خليل، ولا عكس. سئل بعض الحكماء عن الصديق، ما هو؟ فقال: هو الذى إذا زرته سرك، وإذا زارك سرك. وسمى الصديق صديقا لصدقه إياك، وسمى العدو عدوا لعدوانه عليك إذا ظفر بك، وذلك مما يستدل به على لؤمه وخبث طويته، فقد قيل: الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادات الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقال الماوردى[2]:

وصاحب خلته خليلا ... وما جرى غدره ببالى

لم يحص إلا القبيح منى ... كأنه كاتب الشمال

ومن كلام بعضهم:

تنح عن الدنيا وصحبة أهلها ... وباينهمو ما دمت فى الدهر باقيا

فما منهم إلا حسود وشامت ... تراه بأقوال النميمة عاديا

إذا نلت خيرا أظهروا لك ودهم ... وأبدوا سرورا كلما دمت واليا

وإن ساءك الدهر الخؤون بصرفه ... ترى منهم الشىء الذى كان خافيا

وصار الصديق المظهر الود والرضى ... يجرد سيفا بالعداوة ماضيا

فما فى بنى الدنيا الدنية صاحب ... يدوم على عهد إذا كنت نائيا

فشمر إلى التقوى ودع كل حاسد ... وراع حقوق الله إن كنت راعيا

فما الخير إلا فى الخمول مع التقى ... وما الغنم إلا أن تقوم اللياليا

وقيل:

جزى الله الشدائد كل خير ... عرفت بها عدوى من صديقى

(١) والخوان: ما يؤكل عليه، وهو فارسى معرب، وجمعه أخونة وأخوان. ولا يسمى خوانا إلا إذا كان الأكل عليه. وقال الزجاج: الخليل هو الذى ليس فى خلته خلل. والخلة: هى الصداقة، وهى مأخوذة من تخلل المودة فى القلب. (الطهطاوى).

(٢) أبو الحسن على بن حبيب الماوردى (المتوفى سنة ١٠٥٨ م) صاحب (الأحكام السلطانية) الذى يعد من أهم الدراسات الدستورية فى التراث الإسلامى.

قل من ينصف فاجعل ... لك من بيتك قبرا
لا تخف ضيقة عيش ... إن بعد العسر يسرا

وقال بعضهم:

لو قيل لى خذ أمانا ... من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانا ... إلا من الإخوان

وقيل:

اهرب بنفسك واستأنس بوحدتها ... تلق السرور إذا ما كنت منفردا

وقال ذو النون: لا تصحب إلا من إذا مرضت عادك، وإذا أذنبت تاب لك.
وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وقيل:

إذا اعتذر المسىء إليك يوما ... تجاوز عن مساويه الكثيره
فإن الشافعى روى حديثا ... بإسناد صحيح عن مغيره
عن المختار إن الله يمحو ... بعذر واحد ألفى كبيره

ومن السنة تخفيف العيادة. قيل: مرض بكر بن عبدالله المزنى، فعاده أصحابه، فأكثروا عنده الجلوس، فقال: المريض يعاد، والصحيح يزار! وكذلك زيارة الأصدقاء والإخوان وسائر الصالحين ينبغى أن تكون خفيفة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «زر غبا تزدد حبا». ولقوله صلى الله عليه وسلم: «من زار أخاه خاض فى الرحمة حتى يرجع». لأنها من الأخلاق العلية، ومحاسن الآداب السنية، وأجمل المزايا، وأجل السجايا، بحيث لا تكون المدة التى بين الزيارتين طويلة مملة، ولا قصيرة مخلة، وهذا فى زيارة الأحياء، أما زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين فتستحب مطلقا، من غير نظرإلى طول أو قصر، أو قلة أو كثرة، لانتفاء العلة المذكورة. وقيل:

عليك بإغباب الزيارة إنها — إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا

فإنى رأيت الغيث يسأم دائما — ويسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

وقيل

لا تزر من تحب فى كل شهر — غير يوم ولا تزد عليه

فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم — ثم لا تنظر العيون إليه

وقيل:

لا تنكرن عدم الزيارة يا سيدى — فمحبتى طبع بغير تردد

ولكن ما أحسن ما قيل:

إذا آنست من خل ودادا — فزره ولا تخف منه ملالا

وكن كالشمس تطلع كل يوم — ولا تك فى محبته هلالا

ومرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله ما بك من السقم، وطهرك بالعلة من الخطايا، ومتعك بأنس العافية، وأعقبك دوام الصحة.

وفضل العبادة مشهور، وشرفها مذكور، وبها تعظم الأجور. وعاد بعض الناس مريضا، فأطال عنده الجلوس، فدعا الله فقال: اللهم علمنا كيف نعود المرضى! ففهم منه أنه أطال عنده الجلوس، فقام، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض الغريب فنظر عن يمينه وعن شماله وعن أمامه وعن خلفه فلم ير أحدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه». وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة فى ظل العرش: عائد المرضى، ومشيع الموتى، ومعزى الثكلى»[1]. روى السهروردى عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «من عزى ثكلى كسى بردا فى الجنة». وروى عنه أيضا قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة». والتعزية هى الحمل على الصبر، وذكر ما يسلى المصاب. ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وهى مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهى

(١) والثكلى: فاقدة الولد. ومن لوازمها الحزن. (الطهطاوى).

عن المنكر، وهى داخلة فى قولـه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٢). وتستحب التعزية قبل الدفن وبعده، قيل: وتكره بعد ثلاثة أيام، لأنها قد تجدد الحزن، وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين، وهما:

إذا كان المعزى، أو صاحب المصيبة، غائبا حال الدفن، واتفق رجوعه بعد ثلاثة، والتعزية بعد الدفن أفضل منها قبله، لأن أهل الميت مشغولون بتجهيزه، ولأن وحشتهم بعد دفنه لفراقه، هذا إذا لم ير منهم جزعا، فإن رآه قدم التعزية ليسكنهم. وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فأى لفظ عزى به حصلت، واستحب أصحاب الشافعى أن يقال فى تعزية المسلم بالمسلم: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك. وفى المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وفى الكافر بالكافر: أخلف الله عليك، ولا نقص عددك. وأحسن ما يعزى به ما روى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد، رضى الله عنه، قال: أرسلت إحدى بنات النبى، صلى الله عليه وسلم، إليه تدعوه، وتخبره أن صبيا لها، أو ابنا، فى سكرات الموت، فقال للرسول: «ارجع إليها فأخبرها، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فمرها لتصبر، ولتحتسب». قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦). وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يصاب بمصيبة، وإن قل عهدها، فأحدث لها استرجاعا إلا أحدث الله له أجرا، وأعطاه الله مثل أجر ذلك يوم أصيب بها.» وقال ابن المبارك: المصيبة واحدة، فإذا جزع منها صاحبها فهى اثنان، إحداهما: المصيبة بعينها، والثانية: ذهاب أجر المصيبة! وقيل: إن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن المعونة تأتى العبد من الله على قدر المؤنة، وإن الصبر يأتى العبد على قدر المصيبة». وكان صلى الله عليه وسلم إذا عزى قال: «آجركم الله ورحمكم».

وكتب بعضهم إلى صديقه يعزيه بأخيه، و يسليه: ما تصنع يا أخى والقضاء نازل، والموت حكم شامل، وإن لم تلذ بالصبر، فقد اعترضت على مالك

الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة، والدمعة الساكبة، حاجبا من فضلك، وحاجزا من عقلك، ودافعا من دينك، ومانعا من يقينك، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمخ إذا لم تقابل بالشكر، فصبرا صبرا، ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون [1] الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز على أن أخاطب مولاى معزيا، وأكاتبه مسليا، عن كبير أو صغير ممن يتعلق بذمته، أو ينتمى إلى جملته، فكيف الصنو الأكرم، والذخر الأعظم، والركن الأشد، والسهم الأسد، والشهاب الأسطع، والحسام الأقطع؟! لكن التعزية سير سارية، وسنة ماضية، وقدر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع، والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع، لأجللت مولاى أن أفاتحه معزيا، وأخاطبه مسليا، ولكن، بحمد الله، العالم لا يعلم والسابق لايقدم.

وروى أن أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، كان إذا عزى أمرأ قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكروا فقد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تهن عليكم مصيبتكم، صلى الله على محمد وأعظم أجركم.

وعزى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، رجلا فقال له: إن صبرت مضى أمر الله، وأنت مأجور، وإن جزعت مضى أمر الله، وأنت مأزور. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة». أنشدوا:

إذا ما حمام المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير

وقال صلى الله عليه وسلم: «من دفن ثلاثة من الولد حرم الله عليه النار».

رواه الطبراني. وقال صلى الله عليه وسلم: «من كفن ميتا كان له بكل شعرة منه حسنة». وقال العلامة الأجهورى: من علامة البشرى للميت أن يصفر وجهه، ويعرق جبينه، وتذرف عيناه، ومن علامة السوء أن تحمر عيناه، وتغبر شفتاه. وينبغى للجار أن يهيىء لأهل المصاب طعاما، لأنه قام بهم ما يشغلهم.

---

(١) متون الجبال: ما ارتفع منها.

وقد أوصى بعض الصلحاء وصية لابنه، ونفعها عام لجميع الناس، حيث قال: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ١٠) يا بنى، أرشدك الله وأيدك، أوصيك بوصايا إن أنت حفظتها وحافظت عليها رجوت لك السعادة فى دينك ومعاشك، بفضل الله ورحمته إن شاء الله تعالى: **أولها وأولاها:** مراعاة تقوى الله العظيم، بحفظ جوارحك كلها من معاصى الله عز وجل، حياء من الله تعالى، والقيام بأوامر الله عبودية لله، **وثانيها**: أن لا تجزع من المصيبة، **وثالثها**: أن تنصف من نفسك، ولا تنتصف لها، إلا لضرورة، **ورابعها**: أن لا تعادى مسلما ولا ذميا، **وخامسها**: أن تقنع من الله بما رزقك من جاه ومال، **وسادسها**: أن لا تستهين بمن الناس عليك، **وسابعها**: أن تحسن التدبير فيما فى يديك، استغناء به عن الخلق. **وثامنها**: أن لا تطيع نفسك فى الفضول بترك استعلام ما لم تعلم، والإعراض عما قد علمت. **وتاسعها**: أن تلقى الناس مبتدئا بالسلام، محسنا فى الكلام، منطقا صادق الوعد، متواضعا باعتدال، مساعدا بما تجد إليه السبيل، متحببا إلى أهل الخير، مداريا لأهل الشر، مبتغيا فى ذلك السنة، **وعاشرها**: أن لا تستقرعلى جهل ما تحتاج إليه فى مصلحة دينك ومعاشك. اللهم أهله فى ذلك لإمتثالها. وقيل:

على المرء أن تسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه أن يساعده الدهر

فإن نال بالسعى المنى تم أمره ... وإن غلب المقدور كان له العذر

وقيل:

وكن فاعلا مثل فعل الزمان ... فإن الزمان فعولن فعول

وقال بعضهم، فى تدبير اليقظة: إعلم أن الإنسان لا يصح أن يضيع زمانه بطالة فيمضى كله سدى. وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: إنى أكره أن أرى أحدكم لا فى عمل دنيوى ولا فى عمل أخروى. وقال الإمام الشافعى، رضى الله عنه: * فيا ضيعة الأعمار تمشى سبهللا *[1] وذلك أن الإنسان قد مضى عليه وقت

---

(١) وقال الكسائى: السبهلل: الذى لا شىء معه. (الطهطاوى).

النوم بغير فائدة، فينبغى أن لا يخلى نفسه من عمل دينى ولا من عمل دنيوى، فمن عرف الزمان أكثر من الاستعداد. وقيل:

إن مقام المرء فى بيته   مثل مقام المرء فى لحده

فواصل الرحلة نحو العلى   فالسيف لا يقطع فى غمده

فإن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى أرض، بل فرقها، وأحوج بعضها إلى بعض. وقيل: المسافر يجمع العجائب. ويكتسب التجارب. وقيل: ليس بينك وبين البلاد نسب. فخير البلاد ما حملك. وقيل:

سافر إذا حاولت قدرا   سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى   طينا ويخبث ما استقرا

وبنقلة الدرر النفيسة بدلت بالبحر نحرا

وأخصر وصية جامعة نافعة وصية عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على، قال لابنه: يا بنى، إنى مؤد حق الله فى تأديبك، فأد إلى حق الله، أى بنى، كف من الأذى، وارفض المبذا. واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام، فإن القول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا، لأنه يرديك لمشورته، واعلم، يا بنى، أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما، ووجدت هواك يقظانا، فإياك أن تستبد برأيك، فإنه حينئذ هواك، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك، وأن نتيجته لا تجنى عليك، وإياك ومعاداة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو معاداة لئيم. انتهى.

* * *

والمشاورة فى الأمور تفيد ازدياد البصيرة، ومثل ذلك المشاركة فى العلم، وكما قيل:

إذا اجتمعوا جاءوا بكل عزيمة   فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

وقيل :

شاور صديقك فى الخفى المشكل وأقبل نصيحة حازم متفضل

فالله قد أوصى بذاك نبيه فى قوله: شاورهم وتوكل

وقد أمر الله تعالى نبيه بمشاورة أصحابه فى قوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وفى الحديث : « ما ندم من استشار ، ولا خاب من استخار » . ومن استخار الله ليرشده إلى مصالحه فليعلم أن الذى قدره له هو الخير فى نفس الأمر ، والأصلح له وإن جاء على خلاف مايريد ، فإن الله خبير بمصالح عبده ، وبما يؤل نفعه إليه ، وما يندفع ضرره عنه ، فالخير له فيما قدره الله له ، وإن كرهه العبد ، كما فى الحديث القدسى ، عن الله : « وإن من عبادى من يصلح له الفقر ، ولو أغنيته لفسد حاله ، وإن من عبادى من يصلح له الغنى ، ولو أفقرته لفسد حاله» . فإرادة الله مع عباده مبنية على الحكم والمصالح . قال بعض الحكماء : من استعان بذوى العقول فإنه يدرك المأمول . وقال بعضهم : لا تصلح الأمور إلا برأى أولى الألباب ، ولا تدور إلا على الأقطاب . قال على ، كرم الله وجهه : نعم المؤازرة المشاورة . وقال بعض الحكماء : لا يستغنى العاقل عن المشورة ، كما لا يستغنى الفرس عن السوط . وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأدبا ، وبتقلب الأيام عظة . وقالوا : التجربة مرآة العقل ، والغيرة ثمرة الجهل . لذلك قالوا : المشايخ ينابيع الأخبار ، لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم وهم . وقال آخر : عليكم بآراء المشايخ ، فإنهم لو عدموا ذكاء الطباع أفادتهم الأيام ضنكة وتجربة ، وقد قيل فى ذلك :

إذا طال عقل المرء فى غير آفة أفادت له الأيام فى ذكرها عقلا

وقول عبدالله بن الحسن بن الحسين فى وصيته : واستعن فى الكلام بطول الفكر ، محله إذا لم تفت بذلك فرصة ، ولذلك لما قال بعضهم للخليفة المنصور ، حين عزم على قتل أبى مسلم الخراسانى :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبر فإن فساد الرأى أن تتعجلا

أجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عـزيمـة	فـإن فـسـاد الرأى أن تـتـرددا
ولا تمهل الأعـداء يـومـا بغـدوة	وبادرهم أن يـملكوا أمنـهـا غـدا

وهذا كقول الإمام على، رضى الله عنه: من فكر فى العواقب لم يشجع. فلكل من العجلة والتأنى مواقع، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ (آل عمران: ١٢٠)، قال فى (الكشاف): إن هذا تعليم من الله تعالى وإرشاد فى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقالت الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك. ومنه أخذ الإمام الشافعى رضى الله عنه:

إذا مـا شـئـت إرغـام الأعـادى	بـلا سـيف يـسـل ولا سنـان
فـزد فى مـكرمـاتك فـهى أعـدى	على الأعـداء من نوب الـزمـان

الفصل الرابع

فى أن التوادد والتحابب بين الزوجين مما ينتج حسن العشرة بينهما وبين ذريتهما

قال الإمام الغزالى رحمه الله فى كتاب (الأحياء): فوائد الزواج خمس: النسل، والتحصين لكسر الشهوة، وترويح القلب بالمعاشرة والمحادثة ونحوها، ومجاهدة النفس ورياضتها برعاية الأهل، والقيام بهن، وآفاته ثلاثة: التخليط فى الاكتساب بسبب العجز عن الحلال، والقصورعن القيام بحقوقهن واحتمال أخلاقهن، والاشتغال بهن وبأولادهن عن الله تعالى. وبعد هذا ينظر، فمتى وجدت فيه الفوائد أو بعضها وانتفت عنه الآفات فلا شك أن الزواج فى حقه أفضل، ومن انتفت عنه الفوائد واجتمعت عليه الآفات فالعزبة فى حقه أفضل، وإن تعاظمت الفوائد والآفات، كما هو الغالب، فليزن الأمرين بميزان الاعتدال، فإذا غلب على ظنه رجحان أحدهما عمل بموجب الراجح. انتهى. قال بعضهم: وأما إذا لم تدع الحاجة إلى الزواج، كالعجز عن المهر، أو الأهبة، أو الإنفاق، فلا ينبغى له الزواج. وعلى ذلك يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ - أى الظهر - الذى لا أهل له ولا ولد». والأمر كذلك، فمن تركه فقد أراح نفسه واستبرأ لدينه وعرضه، وكان عزيزا بين أقرانه، جليلا بين إخوانه، رفيعا عما سواه من مكانه، ومن تزوج وهو فاقد لما ذكر فقد أتعب نفسه فيما لا طائل تحته، وحملها ما لا طاقة لها به، من الذل والاحتياج ونحوه، أما إذا دعت الحاجة لذلك، بأن تاقت نفسه إلى الزواج، وكان واجد الأهبة وما يحتاج إليه الحال، فالأفضل له الطلب، لقوله صلى الله عليه وسلم: «تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة». وقوله صلى الله عليه وسلم: «شراركم عزابكم».

ومتى صح التوادد بين الزوجين ترتب على ذلك أن عائلة البيت تجلب له خصائص نافعة لكثرة رزقه وثروته، وحفظه من جميع آفات التباين والمشاجرات، فإن الزوجين المجتمعين فى بيت واحد، المتحدين قلبا وقالبا بالمحبة والألفة، يتوطنان فيه ويحبانه، ولا يخرج أحدهما إلا لعذر، فبهذا يسارعان فى تحصيل ما يلزم لهذا المنزل من الأثاث والمتاع والأهبة وجميع الخيرات، ويحسنان إدارته، فتجد كلا من الزوجين مجتهدا فى تربية ما يرزق به من الذرية، وهذا كله يجعل الخدم والحشم وغيرهم مجبولين على احترام هذا المنزل، وعلى الوفاء بالأمانة لأهله وساكنيه، وأن يمنعوا عنه جميع الأسباب المفضية إلى الخلل والكسل، فمتى سلك الزوجان مسلكا حسنا فى تحسين أحوال منزلهما وعائلتهما، عاشا فى السعة والاعتبار، بخلاف ما إذا نقض أحدهما أو كلاهما عهد المحبة والوداد، وزالت الأمانة من بينهما، فإن البركة تذهب من البيت، ويكثر فيه التشاجر والشقاق، وتشويش الخواطر والبغضاء والشحناء، حتى يسرى ذلك من الآباء للأبناء، والخدم والحشم، وتتعود الذرية والخدم على ارتكاب القبائح والمثالب المنزلية، فكل عضو من أعضاء البيت يسهل عليه أن يسرق ويبذر ويسلب وينهب ويتصرف فى جميع ما وقع فى يده، فتذهب أموال المنزل هباء منثورا، ويرتكب رب المنزل الديون من كل جانب، وربما كان ذلك سببا لتشتت العائلة والخدم لما يعتريهم من ضيق الحال، وربما حصل بين الزوجين المرافعات والمحاكمات، من كل ما يوقع أمر العائلة فى الفقر والمسكنة والذل ومد اليد للسؤال، وقيل:

ومن لم يكن فى بيته قهرمانة ... فذلك بيت لا أبالك ضائع

وقال آخر:

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة ... تدبره ضاعت مصالح داره

وقال بعضهم: ثمانية أشياء، أربعة منها سعادة، وأربعة منها شقاوة، فمن السعادة: الزوجة الصالحة، والجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنىء، ومن الشقاوة: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب الصعب، والمسكن الضيق. وقيل: الدار الضيقة: العمى الأصغر.

وقد ورد في الحديث، عنه صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم زوجة فرعون». وقيل: إن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يشكو إليه سوء خلق زوجته، فوقف ببابه ينتظره، فسمع الرجل امرأة عمر، رضى الله عنه، وهى تغلظ عليه بالقول، وهو ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل وهو يقول: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالى؟ فخرج عمر، رضى الله عنه، فرأى الرجل موليا، فناداه: ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خلق زوجتى واستطالتها على بلسانها، فسمعت زوجتك تغلظ عليك بالكلام، وأنت ساكت، فرجعت، وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالى؟ فقال عمر، رضى الله عنه: يا أخى، إنى أتحملها لحقوق لها على، إنها طباخة لطعامى، خبازة لخبزى، غسالة لثيابى، مرضعة لولدى، ويسكن قلبى بها عن الحرام، فأنا أتحملها لذلك. فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك أنا أتحمل زوجتى، قال: فتحملها فإنها مدة يسيرة وتنقضى. وقال عليه الصلاة والسلام. «من لم يكن فيه ثلاث خصال لم يجد طعم الإيمان: علم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجره عن المحارم، وحسن خلق يدارى به الناس». وقال حكيم: أربعة أشياء من أعظم البلاء: كثرة العيال مع قلة المال، والجار السيء الجوار، والمرأة التى ليس لها وقار، وصحبة الفجار. وقال صلى الله عليه وسلم: «سوء الخلق شؤم، وشراركم أسوأكم خلقا». وعنه صلى الله عليه وسلم: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». وقيل: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة القائم الصائم. وقال صلى الله عليه وسلم، لمعاذ بن جبل: «يامعاذ، حسن خلقك مع الناس». أى عاملهم بطلاقة الوجه وجبر الخواطر وكف الأذى، فإن ذلك يؤدى إلى اجتماع القلوب وانتظام الأحوال. فلا أحسن من الزوجين المتمتعين فى منزلهما بالسعادة والهناء، وبحسن إدارة المنزل، ولا أحسن من الزوج الذى يحسن إرضاء زوجته، ولا من الزوجة التى تحسن إرضاء زوجها. كما قيل:

إذا كنت عنى يا منى النفس راضيا أرى كل ما فى الكون لى يتبسم
وإن كنت عنى يا ضيا العين نائيا تنكر لى فى الدهر ما كنت أعلم

الحب فن نفيس

فمعرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس، وإن كان صعبا فى حد ذاته، لأنه يستدعى كمال التربية، والاتصاف بالعدل، وقوة العقل وذكاء الفطنة، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما فى المنفعة العمومية، فروابط الوداد الأكيدة بين الزوجين يتولد منها اعتمادية أكيدة فى أفعالهما وأقوالهما، وجمع قلوب بعضهما على بعض، فيكون كل منهما قوى الوداد شريف الفؤاد، فإذا حصل بينهما التناسل والذرية تأكدت هذه المحبة، التى قضت بثبوتها الزوجية، واقتدى الأولاد بالوالدين فى المحبة العمومية، فى الأشغال المنزلية الموجبة للعمارية.

وينبغى أن يكون لنساء هذه الأعصر، فى خدمتهن لمنزلهن، اقتداء بنساء النبى، صلى الله عليه وسلم، ونساء أصحابه، فإن نساء النبى ونساء أصحابه كن يسعين على عيالهن، ويخدمن أزواجهن، ويمتهن أنفسهن. قالت عائشة كنت أفتل قلائد هدى[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقلد هديه. وقالت: ما رأيت صانعا للطعام مثل حفصة، وقالت، فى زينب بنت جحش: لم أر امرأة قط خيرا منها فى الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل. وفى صحيح البخارى أن أبا أسيد الساعدى دعا النبى صلى الله عليه وسلم لعرسه وأصحابه، فما صنع لهم طعاما ولا قربه إليهم إلا امرأته، وبلت تمرات من الليل فى تور[2] من حجارة، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من الطعام

(١) الهدى المراد هنا هو الحيوان ـ الشاة ـ التى يضحى بها فى موسم الحج.
(٢) إناء صغير.

مائته[1] له فسقته، تتحفه بذلك، فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهى عروس. وفى الصحيح: قالت أم الربيع: كنا نغزو مع النبى، صلى الله عليه وسلم، فنسقى القوم، ونخدمهم، ونرد القتلى إلى المدينة، ونداوى الجرحى. وقالت أم عطية: غزوت معه صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، أخلفهم فى رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوى الجرحى، وأقوم على المرضى. وفى حديث أنس: كن يسقين الماء ويداوين الجرحى.

وقالت أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله عنها، امرأة الزبير، وهى أخت عائشة، رضى الله عنها: كنت أعلف فرسه، يعنى فرس الزبير، وأسقى الماء، وأخرز غربه[2]، وأعجن، ولم أكن أحسن أن أخبز، وكان يخبز جارات لى من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعها النبى، صلى الله عليه وسلم، وأحمله على رأسى، وهى على ثلثى فرسخ من المدينة، فجئت يوما والنوى على رأسى فلقيت النبى صلى الله عليه وسلم، ومعه نفر من الأنصار، فدعانى، ثم قال: أخ أخ، ليحملنى خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، فعرف رسول الله، صلى الله عليه وسلم أنى استحييت، فمضى، قالت: ثم أعطانى صلى الله عليه وسلم خادما فكفتنى سياسة الفرس. فكل هذه دلائل مصرحة بأن نساءهم كن يشتغلن بالخدمة وبالمهنة، رضى الله عنهم.

وروى أن آدم عليه السلام ذبح كبشا، ثم أخذ صوفه، فغزلته حواء، ونسجت هى وآدم، فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعا ـ أى قميصا ـ وخمارا. وعن ابن عباس، رضى الله عنه، أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: «نعم لهو المرأة المغزل». وعن سهل بن سعد أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وعن أنس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «مروا نساءكم بالغزل، فإنه خير لهن وأزين». وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يأكل من غزل أمه، وسمع بعضهم عليا، رضى الله

(١) خلطته.

(٢) معناها هنا: الدلو العظيمة.

عنه، يقول: إن الغزل من طيبات الرزق، وهو صنع العابدات الزاهدات. ولهذا قيل لعائشة يوم الجمل: إن صرير المغزل خير لها من السيف! وهذا يدل على استحسان مباشرة كل صنعة تليق بالمرأة.

وعن ابن عباس، رضى الله عنه، قال: قال النبى، صلى الله عليه وسلم، لأم سلمة: «إذا أدت المرأة فريضة ربها، وأطاعت بعلها، وحركت المغزل، كانت كأنها تسبح، وما دام المغزل فى يدها كانت كأنها تصلى جماعة، وإذا طبخت القدر لأجل أطفالها تساقطت ذنوبها، وغزل المرأة بمغزلها مثل عمارة القناطر والربط، وثلاثة أصوات تبلغ تحت العرش: أحدها: قسى الغزاة المجاهدين فى سبيل الله، والثانى صرير أقلام العلماء، والثالث أصوات مغازل المصونات من النساء». وقال صلى الله عليه وسلم: «شربة يشربها الرجل من يد امرأته خير لها من ألف بدنة تنحرها للمساكين تسبيحا، والمرأة إذا كست زوجها أعطاها الله ثواب من حج واعتمر، فإن رضاء الله لا ينقطع عن امرأة أصبحت وأمست فى رضى الزوج، وإذا باتت المرأة هاجرة محل زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، وأيما امرأة خففت عن زوجها مهرها إلا كتب الله لها بكل درهم حجة مبرورة متقبلة، وكانت من القانتات الذاكرات التائبات العابدات». فتبين من هذا أن حمل النساء بالنسبة للرجال ثقيل، ولهن أيضا تكاليف غير ما ذكر.

الفصل الخامس

فى بعض حقوق
يلزم كلا من الزوجة والزوج مراعاتها

من حقوق الزوجة حفظ مال الزوج، فإنها له راعية، وطاعته فيما أمر به سرا وعلانية، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «أعظم النساء بركة أقلهن مؤنة، وخيركم خيركم لأهله، وأكمل المؤمنين أحسنهم خلقا مع زوجته، وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وأهله وولده، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه». وقال صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عندكم وديعة لا يملكن لأنفسهن ضرا ولا نفعا، وإنما هن كأسرى بين أيديكم، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتموهن بكلمات الله فعاشروهن بالمعروف، ولا تظلموهن، وقوموا بحقهن». وقال الأحنف بن قيس: إن أردتم أن تحبكم النساء فعاشروهن بأحسن الأخلاق. وقال الأصمعى: كانت أشياخنا وعجائزنا يقولون: عاشروا الناس بخلق حسن، إن غبتم حنوا إليكم، وإن متم ترحموا عليكم. وقيل:

كل الأمور تبيد عنك وتنقضى ... إلا الثناء فإنه لك باقى

ولو أننى خيرت كل فضيلة ... ما اخترت غير مكارم الأخلاق

ومن حقوق الزوج على الزوجة: أن لا تحنث قسمه، ولا تكفر نعمه، ولا تخرج من بيته إلا بإذنه، وعليها الرفق بأقاربه، والأدب مع إخوته وأعمامه وأخواله، والرعاية لذريته بعد موته. وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه إلا لعنتها الملائكة حتى ترجع منزلها، فإن رضى عنها زوجها رضى الله عنها، وزالت اللعنة، وإن غضب عليها وماتت دخلت النار».

وقال بعضهم: إن أولها أن تأخذ من ماله ما تعلم رضاه به، فقد رخص لهن الرطب يأكلنه ويهدينه، وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: « إذا أنفقت المرأة طعام بيتها، غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، والخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا. » فهذه هى الحقوق الواجبة لأحد الزوجين على الآخر، فيجب عليها أن تفى بما يجب لزوجها، كما يجب عليه أن يفى بماعليه لها. وكثير من الرجال يرى أن له حقا على زوجته، وليس لها عليه حق، وأن جميع ما يفعله معها جميل، وقد وبخ مثل هذا بعضهم بقوله:

له حق وليس عليه حق ... ومهما قال فالحسن الجميل

وقد كان الرسول يرى حقوقا ... عليه لغيره وهوالرسول

ويحرم سفر المرأة بلا زوج لها أو محرم أو نساء ثقات، ويحرم تشبيههن بالرجال فى الملبس والهيئة، كما يحرم تشبه الرجال بهن فى ذلك، ويكره لهن ترك الحلى تشبيها بالرجال، ومن المعلوم أن التزين المطلوب من النساء إنما هو لأزواجهن أو لمن فى بيوتهن فى أنفسهن لا يتبرجن به للرجال الأجانب كعادة الأعجام المبنية على اختلاط الرجال بالنساء، فإن هذا لا يخلو من الاستحسان الذى يترتب عليه الافتتان، كما يحكى أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المروانى، أحد ملوك الأندلس، وجه شاعره يحيى بن الحكم، المعروف بالغزال [1]، إلى ملك الروم، فأعجبه حديثه، وخف على قلبه، وطلب منه أن ينادمه، فامتنع الغزال من ذلك، واعتذر بتحريم الخمر، وكان يوما جالسا معه وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها، وهى كالشمس الطالعة حسنا، فجعل الغزال يميل بطرفه إليها، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه، فأنكر ذلك، وأمر الترجمان بسؤاله، فقال له: عرفه أنه قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه، فإنى لم أر قط مثلها، وأخذ فى وصفها، والتعجب من جمالها، وإنها شوقته إلى الحور العين، فلما ذكر

---

(١) الغزال، يحيى بن الحكم الجيانى (٧٧٣ـ ٨٦٤ م) شاعر وسياسى أندلسى، وهو فى المغرب العربى أبى نواس فى المشرق عذوبة ورقة وولوعا بالغزل فى النساء والغلمان.

الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده، وسرت الملكة بقوله، والآن عند أهالى أوروبا من آكد الواجبات فى الجمعيات التأنسية ملاطفة النساء والبنات.

ومن حقوق الزوج عليها: الصيانة، والستر، وترك المطالبة بما وراء الحاجة، وتحسين خلقها، وحسن معاشرتها، والعفو عن زلته، والصبر عليه إن ضعف أوخرف، ومن حقها عليه أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام الوضوء والصلاة والصوم والحيض، وما يلزم أن تعتقده من قواعد الإسلام، وما يجب عليها من مهمات دينها، ونحو ذلك مما لا بد لها من معرفته، ويطعمها من الحلال، ولا يظلمها شيئا مما يجب لها من الحقوق، ولا يكلفها فوق طاقتها من الخدمة، فإنها غير واجبة عليها، ولا يفعل ما يؤذيها، وقال صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله». وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «أن الله رفيق» - أى لطيف بعباده، فلا يكلفهم فوق طاقتهم - «يحب الرفق» - وهو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، ويعطى عليه فى الدنيا من الثناء الجميل ونيل المطالب وتسهيل المقاصد فى الآخرة من الثواب الجزيل ما لا يعطى على العنف - (وهو بالضم المشقة) - وكل ما فى الرفق من الخير ففى العنف من الشر مثله، قال السبكى: مجامع السعادة سبعة أشياء: الدين، والدنيا، والعقل، والأدب، وحسن السمت، والتودد إلى الناس، ورفع الكلفة عنهم.

وعن فضالة بن عبيد، رضى الله عنه، أن داود، عليه السلام، قال: يا رب، أخبرنى بأحبابك من خلقك، قال: ذو سلطان يرحم الناس، ويحكم للناس كما يحكم لنفسه، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه ابتغاء وجه الله، وفى طاعة الله عز وجل، ورجل يفنى شبابه وقوته فى طاعة الله.

وفى رواية النسائى، مرفوعا: أن رجلا لم يعمل خيرا قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر واترك ما تعسر، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، فلما مات قال الله له: هل عملت خيرا قط؟ قال: لا، إلا أنه كان لى غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر واترك ما تعسر، وتجاوز لعل الله

يتجاوز عنا، قال الله تعالى: تجاوزت عنك. وروى الإمام أحمد، وغيره: من أنظر معسرا قبل أن يحل الدين فله بكل يوم مثله صدقة، فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة.

وكان صلى الله عليه وسلم مخصوصا بجوامع الكلم، أى الكلم الجامع لمعان كثيرة بألفاظ قليلة، قال صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لى الكلام اختصارا.» وسماحة الدين لخلوه من الآصار والتكاليف التى كانت على اليهود، من نحو وجوب قرض محل النجاسة، ومن التخفيف المفرط المفوت لمحاسن الآداب، قال صلى الله عليه وسلم: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة». والحنيف الطريق المستقيم، وسمى إبراهيم حنيفيا لأنه مال إلى الله تعالى، وقال صلى الله عليه وسلم: «الدين يسر، ولن يشادّ أحد الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى». قال أبو عبيدة: أوغل: أى سر فيه برفق، والإيغال السير الشديد، والمنبت هو الذى يعدو فى السير المنقطع به يتعب نفسه حتى تعطب دابته فيبقى منبتا متقطعا به، لم يقض سفره ولا بلغ وطره، وقد أعطب ظهره، فشبهه بالمجتهد فى العبادة حتى يكل ويمل.

وقال عمر بن معدى كرب الزبيدى: الكلام اللين يلين القلوب التى هى أقسى من الصخر، والكلام الخشن يخشن القلوب التى هى أنعم من الحرير. وقيل لبعض الفضلاء: من أضيق الناس طريقا، وأقلهم صديقا؟ فقال: من عاشر الناس بعبوس وجهه، واستطال عليهم بنفسه. وروى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنها قالت: إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق. وقال الله عز وجل: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ** ـ (أى سيء الخلق) ـ **لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وقال الله تعالى ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (المؤمنون: ٩٦، فصلت: ٣٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: «اليمن حسن الخلق والشؤم سوء الخلق».

وقال الحسن البصرى: حقيقة حسن الخلق بذل المعروف، وكف الأذى، وطلاقة الوجه. وقال القاضى عياض: هو مخالطة الناس بالجميل. وقال العسقلانى: هو اختيار الفضائل واجتناب الرذائل. وقيل:

من عـــاش بيـن الناس فليلتـــزم ســمـاحـة النفس وترك اللجــاج
وليــحــفظ المعــوج من خلقــهم أى طريق ليس فيـهـا إعـوجـاج

وقيل:

ولست بمســتبـق أخــا لا تلمــه على شـعث أى الرجـال المـهـذب

قال رجل لابن عباس، رضى الله عنهما: ادع الله أن يغنينى عن الناس، فقال: إن حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء فمتى يستغن المرء عن بعض جوارحه؟ ولكن قل: إغننى عن شرار الناس. وحكى عن معاوية، رضى الله عنه: إنى لآنف أن تكون فى الأرض حاجة لا يسعها مالى، أو ذنب لا يسعه حلمى. وجاءته امرأة ثعلب بن سليمان بن مهران، فقالت: يا أمير المؤمنين، مشت جرذان بيتى على العصا! فقال: لأدعنها تثب وثب الفهود كما ألطفت بالسؤال! فملأ لها البيت حنطة وغيرها. وحكى عن ابن عباس، رضى الله عنه، أنه كان يقول: من قصدنى كان له الفضل على حيث رآنى أهلا لحاجته. وقيل:

إن العـظيم يحــمل العـظيـمــا كـمـا الجـسيـم يحمـل الجسيـمـا

وقال بعضهم: سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال بعض الحكماء: ثمرة حسن الخلق الإحسان، وثمرة سوء الخلق الإساءة. وقيل: من ساء خلقه قل صديقه. وقال «الحسن»: إن حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان فى الأعمار. وقال بعضهم: عقل موفور يهدى إلى مراشد الأمور، فإن الحمق لا تثبت معه مودة، ولا تدوم لصاحبه استقامة، ومن لانت كلمته وجبت محبته. وسئل حكيم: ما اللبيب العاقل؟ قال: ا لفطن المتغافل، فإن التغافل من شيم الكرام، وقيل: الكرم شىء هين، بشاشة وجه وكلام لين.

وقال بعضهم: الجامع للأخلاق ومحاسن الشريعة على الإطلاق: الخلق الحسن، والأدب، والاتباع، والإحسان، فهذه أمهات الأخلاق. وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أربعة يسود بها العبد: العلم، والأدب، والعفة، والأمانة. وقواعد الأخلاق أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل ثعبان». وقيل: إنما تعرف الشجاعة عند اللقاء، والأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفقر والحاجة، والأصدقاء عند الشدائد.

قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: ثمانية أشياء هن زينة لثمانية: العفاف زينة الفقر، والصبر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والحلم زينة المعلم، والتذلل زينة المتعلم، وكثر البكاء زينة الخوف، وترك المن زينة الإحسان، والخشوع فى الصلاة زينة الصلاة. انتهى. فالمن مذموم، كما قيل:

لنقل الصخر من قمم الجبال أحب إلى من منن الرجال
يقول الناس هل فى الكسب عار فقلت العار فى ذل السؤال

* * *

ـ (رجع) ـ ويسن للزوج أن لا يمنع زوجته من زيارة والديها، ولا الخروج إلى المسجد، ونحوه، إلا لعذر، ويسن ملاعبتها إيناسا وتلطيفا لها، وأن يتزين لها كما يحب أن تتزين له، ويكره أن يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته أو أمته، ويكره أن تخبر المرأة زوجها أو غيره بحسن بدن امرأة من غير حاجة شرعية، ويكره للرجل وصال زوجته وهناك من يسمع حسه من امرأة أو نحوها، ويجب على المرأة الاحتجاب من الأجانب، ويحرم على الرجل النظر إلى شىء من المرأة الأجنبية، ولو زوجة لأخيه أو أختا لزوجته، ولو فى حالة أمن الفتنة، وكذلك نظر المرأة إلى الأجنبى حرام، ولو زوجا لأختها، ما لم يكن محرما، ويحرم أن يخلو رجل بأجنبية.

قال أبو المختار: لقيت امرأة من قومى بمكة، فجلست أحدثها، وعبدالله بن

عباس يصلى، فسمعنى أقول لها: يا فلانة استوحش لفراقك القلب، وجاورنى من لا أهوى، فكنت كما قال الأول:

أيبعد من أهوى وتسعفنا النوى   بمن لا أبالى أن يفارقه أهلى

فأقبل على ابن عباس، فقال: من هذه المرأة منك؟ قلت: من العشيرة وبنات العم، فقال: قم وإلا وقعتما فى فتنة، إن النساء حبائل الشيطان، فإياك أن تخلو بامرأة إلا أن تكون محرما. وروى البخارى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا يخلون رجل بامرأة(*) إلا مع ذى محرم». ولا بأس أن يخلو رجال أو عدة رجال بنسوة ثقات، لا رجل أو عدة رجال بواحدة، وأما ذوو المحارم من النسب والرضاع والمصاهرة، وهم الذين لا يحل تزوج بعضهم بعضا أبدا، فتجوز لهم الخلوة، ولا يجوز النظر فيما لا يحل إلا بأسباب: **أحدها**: النظر للمداواة بقدر الحاجة، **ثانيها**: النظر للوجه والكفين لمن يريد أن يتزوجها، **ثالثها**: النظر فى المعاملة المفتقرة للشهادة عليها، والتعريف لها، ونحو ذلك مما تدعو إليه ضرورة المعاملة، فينظر الشاهد إلى الوجه لا غير، **رابعها**: المعلم ينظر بقدر الحاجة والضرورة، ويجوز سماع صوتها والإصغاء إليه عند أمن الفتنة، على الأصح، ويجوز لها أن تستفتى وتستشير الرجال. وقالت عائشة، رضى الله عنها: رحم الله نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن فى ا لدين. وروى مسلم عن أنس، رضى الله عنه، أن أم سليم حدثت أنها سألت النبى، صلى الله عليه وسلم: عن المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل»، فقالت أم سليم: ـ واستحيت من ذلك ـ: وهل يكون هذا؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نعم، فمن أين يكون الشبه..» الحديث. ولبعضهم:

وليس العمى طول السؤال وإنما   تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقال عمر، رضى الله عنه: من رق وجهه رق علمه، وقال مجاهد: لن ينال العلم مستحى ولا متكبر. وكان سفيان الثورى يقول: حياة العلم بالسؤال والعمل،

---

(١) غير موجودة فى الأصل. (الشروق).

وموته بتركهما. وقد ورد فى كتم العلم ما رواه ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من كتم علما من أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». أى الممسك عن الكلام بمثل من ألزم نفسه بلجام، وتنكيرعلم يوهم شموله لكل علم، وخصه كثير بالعلم الشرعى، واحترز بقوله: «عن أهله» عن كتمه عن غير أهله، فمطلوب، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** ﴾ (النساء: ٥) شاهد على أن حفظ العلم عمن يفسده أو يضر به أولى، وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم أيضا، لا سيما إن عزت كتبه، وقد قال تعالى:

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، وقال عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عنى ولو آية».

وكان إبراهيم بن عيينة يقول: أطول الناس ندما يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس. وقيل: العلم حرب للمتعالى، كما أن السيف قاطع للمكان العالى، وأسباب التكبر سبعة: **الأول:** التكبر بالعلم، فالتكبر يسرع إلى العالم لأنه يرى الناس دونه فيستجهلهم ويتوقع منهم خدمته وتقديمه، وهذا أولى بأن يسمى جاهلا، لأن العلم الحقيقى هوالذى يعرف الإنسان به ربه ونفسه. **السبب الثانى:** الزهد والعبادة، وذلك لأن الزهاد والعباد يتزينون للناس بأخلاق الصلاح، ويرون أن غيرهم بزيارتهم أولى، وينظرون أنفسهم بعين النجاة والناس بعين الهلاك، ومن اعتقد ذلك فهو الهالك. جاء فى الصحيح أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان أن قل لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك، **الثالث:** النسب، فالذى نسبه شريف قد يستحقر غيره، وربما ظهر ذلك على لسانه، وافتخر رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان، فمن أنت، لا أم لك؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : افتخر رجلان عند موسى عليه السلام، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان، حتى عد تسعة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل للذى افتخر بأن التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم! **الرابع:** الجمال، وأكثر ما يجرى ذلك بين

النساء، وذلك يدعو إلى التنقيص والغيبة، **الخامس**: التفاخر بالغنى، حتى يستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا** ﴾ (الكهف: ٣٤) ثم بين الله تعالى عاقبة أمره فقال: ﴿ **وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا** ﴾ (الكهف: ٤٣)، **السادس**: **التكبر بالقوة، كما حكى الله تعالى عن قوم عاد**: ﴿ **وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾ (فصلت: ١٥)، **السابع**: التكبر بكثرة الأتباع، فمن حق من عرف الكبر ودواهيه وما يترتب عليه من الهلاك أن يتواضع لله ولعباده، فإن التواضع من أشرف الخصال، قال صلى الله عليه وسلم: «الكرم التقوى، والشرف التواضع». وقال صلى الله عليه وسلم: «من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه». وإنما ذهب ثلثا دينه لأن المرء بثلاثة أشياء: قلبه، ولسانه، وبدنه، فإذا تواضع بلسانه وبدنه ذهب ثلثا دينه، فلو اعتقد بقلبه ما حصل منه بلسانه وبدنه للغني من أجل غناه لذهب دينه كله، ومن عرف أن العزة لله فلا يتعزز على خلق الله، فإن العزة لله ولمن تعزز به، قال الله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ (فاطر: ١٠)، وقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (المنافقون: ٨)، فعزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين لله ملكا وخلقا، وعزته سبحانه له وصفا، فإذن العزة كلها لله عز وجل، وإذا عرف العبد أن العزة لله تعالى فلا يطلب العزة من غيره، فقد قيل: من استعز بغير الله ذل.

الباب السابع

(فى عموم القرابة وحقوق بعضهم على بعض.وفيه فصول)

الفصل الأول
فى القرابة

القرابة هم الآباء والأمهات والبنون والبنات والأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولاد العم والعمة وأولاد الخال والخالة، فالعصبات وأولو الأرحام قرابات مشتبكة، وفى سلسلة النسب مشتركة، ولهذا كان الولد الذى يشبه فى الأكثر أباه وأمه قد يشبه أخواله، فقد روى أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ﴿ **فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ (الانفطار ٨)، أى فى أى شبه من أب أو أم أو خال أو عم أو غيرهم، وربما أشبه الولد الخال فى المخايل والطباع، والأحوال والأوضاع، ولذلك تتمدح العرب بأصالة الخال كما تتمدح بأصالة العم، فيقال: فلان معم مخول، قال الشاعر:

خالى لأنت ومن جرير خاله … ينل العلاء ويكرم الأخوالا

قال آخر

فكيف ولم ينسب زعيم عشيرة … إلى المجد إلا كان خالى أو عمى

فإن أشبهتهم فى الفخار خلائقى … وفعلى فهذا الراح من ذلك الكرم

وقال آخر:

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى … بنصرى فإنى حازم وابن حازم

عطست بأنفى شامخا وتناولت … بنانى الثريا قاعدا غير قائم

وأما قول بعض العرب:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فإنما المراد به نسبتهم إلى قبائل آبائهم وعشائر رجالهم، وانتظامهم فى سلكهم عند شن الإغارات وإثارة الحروب وحماية الحقيقة، لا نفى القرابة بالكلية، ولا قطع النسب إلى أمهاتهم، فالعرب تتمدح بشرف النسب من الجهتين، وإن قويت لحمة العصوبة، فقد كان العلويون يدعون بنى العباس: أبناء عمهم، وقال بعضهم: رأيت بطريق مكة أعرابية، وما رأيت أحسن منها، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير فأخذ بأذنها فسارها، ومضى، فقلت لها: ما هذا الشيخ؟ قالت: زوجى، فقلت كيف يرضى مثلك بمثله؟ قالت، (شعر):

أيا عجبا للخود يجرى وشاحها تزف إلى شيخ من القوم تنبال

دعانى إليه أننى ذو قرابة يعز علينا من بنى العم والخال

ـ (التنبال الوغد القصير الدنىء) ـ وقال بعضهم:

ولا زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله، إن لى ابنة جامحة لا تريد التزويج، وكلما أتيت برجل إليها تأبى، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ائتنى بها بعد العشاء الأخيرة فى بيت عائشة، رضى الله عنها، فلما حضرت قال لها: مالك وبمخالفة ما أحل الله لك وأمر به؟ فقالت: إنى أحب ابن عمى زيد بن أرقم، وأبى لا يرضى به، فقال: أطيعى أباك، فإنه ما من امرأة عصت أمر والدها إلا عذبها الله بالنار، فقالت: يا رسول الله ،كيف أفعل بالقلب؟ فلما علم النبى، صلى الله عليه وسلم، تمكن الحب من قلبها، أرسل خلفها إلى أبن عمها، وأعلمه، فقال: يا رسول الله، وأنا لها بالحب أزيد، فزوجها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى ابن عمها، وقال له: أنت كفؤ».

وما أحسن ما كتب فى القرابة التى لا تنفع، كتابة بعضهم إلى صديق له: أما بعد، فإن قرابتك من قرب منك خيره، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرتك من أحسن عرتك. والسلام.

قال بعضهم: الدنيا خمسة وعشرون قسما، ترجع إلى خمسة أقسام، فمنها خمسة بالقضاء والقدر، وخمسة بالاجتهاد، وخمسة بالعادة، وخمسة بالجوهر، وخمسة بالوراثة، فأما التى بالقضاء والقدر فهى: الأهل، والمال، والولد، والسلطنة، والعمر، وأما التى بالاجتهاد فهى: الثواب، والعقاب، والعفة، والفروسية، والكتابة، وأما التى بالعادة فهى: الأكل، والشرب، والنوم، والمشى، والجماع، أما التى بالجوهر فهى: التواضع، والصدق، والوفاء، والسخاء، والحب، وأما التى بالوراثة فهى: الهيبة، والذهن، والذكاء، والحياء، وقال آخر: مجامع الهوى خمسة، وهى قوله تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ** ﴾ (الحديد: ٢٠)، والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة ستة، يجمعها قوله تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾ (آل عمران: ١٤)،

ثم إن الإنسان بالنسبة للأقارب ملعبة البخت، فإذا حسن بخته رزق بأفضل البنين، يعنى بالشاب البار، وبأفضل البنات، يعنى الخالية من العار، وبأفضل الأخوات، أى التى لا تفضح أخاها بالشنار. ومن فضائل الولد الصالح، ذكرا كان أو أنثى، إنه يلحق أبويه بركة دعائه، والبركة كما قال الراغب: ثبوت الخير الإلهى فى الشىء. والمبارك ما فيه ذلك الخير، كما فى حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». وهذا الحديث يشتمل على أساس الدنيا والدين، فكأنه حاصر لما يمدح به العامل بعد موته، من دوام عمله ثوابا، أو دواما مجازيا، كأنه عامل دائم العمل، مثاب دائم الثواب، والثلاثة الفضائل المخلدة لذكره وأجره، الباقيات بعد انقضاء عمره جامعة لمعالى الأمور، فإن الصدقة الجارية هى الصدقة التى لا ينقطع نفعها، ولا يمتنع من الدر ضرعها، وهذا معنى جريانها، كحفر الآبار، وغرس الأشجار، وإجراء الأنهار، وتسليك الطرقات للأسفار وحاجة التجار، وما أشبه ذلك من الأوقاف المخلدة، والأموال المرصدة على المصالح الخيرية، فالصدقة الجاريةاسم جامع لأكثر

عموم المنافع، وهى الفضيلة الأولى من المخلد للعمل بعد انقضاء الأجل. والفضيلة الثانية: العلم النافع، سواء كان اجتهادا كاجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم، أو تدوين المدونين الواضعين للعلوم الشرعية الآلية والفنون، وكل علم نافع للملة ولو صنعة، فإنها ذات قواعد وموضوعات، فإنها تدخل فى العلم، فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها، اختراعا أو تكميلا، فكل هذه الأشياء، اختراعها وتدوينها والتأليف فيها وتكثير كتبها، بكتابة أو طباعة، مما يحتمله فحوى العلم النافع، والأحسن التعميم لا التخصيص، لأن كلام النبوة يبين دائما مكارم الأخلاق. والفضيلة الثالثة: الولد الصالح، وهذا إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى النسل. فهذه الفضائل الثلاثة جامعة لكل خير، لا يخرج منه شىء من الأمور المعاشية والمعادية، باعتبار العمل والغاية، ما دام العمل صادرا عن نية، فإن المباح بنية القربة يعقبه الثواب، قال البرهان البقاعى، رحمه الله:

للعبد يجرى الأجر بعد الموت فى ... تسع كما قال النبى المصطفى

إجراء نهر، حفر بئر، غرس نخل ... نشر علم والتصدق فى الشفا

وبناء بيت ابن السبيل، ومسجد ... وبتركه ابنا صالحا، أو مصحفا

وكلها ترجع للثلاثة. وروى مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلته الطير فهو له صدقة، ولا يراه أحد إلا كانت له صدقة». وروى جابر بن عبدالله، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «لا يغرس رجل مسلم غرسا ولا زرعا فيأكل منه سبع أو طائر أو شىء إلا كان له فيه أجرا». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذى مروءة» [1] وقال بعض الأعيان: ألزمنى أحمد بن طولون صدقاته، فقلت: ربما مدت إلى اليد المطوقة بالذهب والسوار والمعصم والكم الناعم، أفأمنع هذه الطبقة؟ قال: هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، احذر أن ترد يدا مدت، واعط من استعطاك. وكان يتصدق فى كل أسبوع

---

(١) أى قوة وشدة. (الطهطاوى).

بثلاثة آلاف دينار . وقال صلى الله عليه وسلم : «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، فمن كسا لله عز وجل كساه الله عز وجل ، ومن أطعم لله عز وجل أطعمه الله عز وجل ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله عز وجل» . وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله يباهى ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده» وقال صلى الله عليه وسلم : «من حفر ماء ليشرب منه كبد حراء ، من جن أو إنس أو طائر ، إلا آجره الله يوم القيامة .» وقال صلى الله عليه وسلم : «من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين ، والولد فلذة الكبد» . قال بعض السلف : أولادنا أكبادنا . قال الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

فينبغى أن يرحمه بإحسان تربيته ، لحديث : «إن لكل شجرة ثمرة ، وثمرة القلب الولد ، إن الله لا يرحم من لا يرحم ولده ، والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم» ، قلنا : يا رسول الله ، كلنا رحيم ، قال : «ليست الرحمة أن يرحم أحدكم خاصته ، حتى يرحم الناس أجمعين» . قال الشاعر :

ابغ للناس من الخير كما تبغى لنفسك
وارحم الناس جميعا إنهم أبناء جنسك

وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» . وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «كونوا رحماء ، فإن الله رحيم يحب كل رحيم» . وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى النار امرأة حميرية تعذب بسبب هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[1] حتى ماتت ، وإن تلك الهرة إذا أقبلت تنهشها ، وإذا أدبرت تنهشها .

وكان عائذ بن عمرو المزنى لا يخرج من داره ماء إلى الطريق ، لا من مطر ولا غيره ، وكان إذا مات له سنور دفنه فى داره ، ولا يخرجه اتقاء أذاةالناس من رائحته .

---
(١) وخشاش الأرض ـ بمعجمات ـ حشراتها . (الطهطاوى) .

ومعنى الأذى ما يؤذى المارة كإلقاء قذر، وشوك وحجر، وحيوان مخوف، وردم بناء، وعظم، وقزاز، وغير ذلك مما يؤذى المار فى الطريق، فإذا رأى الإنسان شيئا من ذلك وأزاله من طريق المسلمين كتبت له بذلك صدقة، وغفر له. لما ورد: أن رجلا رأى غصن شوك فى الطريق فقطعه له، ورأى رجل فرخا وقع من عشه فرده إلى عشه، فغفر له، ورأى رجل كلبا يأكل الثرى من العطش فسقاه، فغفر له، وامرأة رأت كلبا يلهث عطشا فنزعت خفها وأخرجت له ماء وسقته، فغفر لها، وقد ورد: الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الرفق فى الأمر كله». وعن النبى، صلى الله عليه وسلم، إنه قال لعلى: «يا على، أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا».

قيل: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبدالله، ومحمد ابن كعب القرظى، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: قد ابتليت بهذه البلايا، فأشيروا على، فقال له سالم: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم أخا وأصغرهم ولدا، فبر أباك وارحم أخاك واحن على ولدك، وقال رجاء: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، وهذا هو الإنصاف، وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «البركة فى أكابرنا، فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا.» وقيل:

ارحم بنى جميع الخلق كلهم ... وانظر إليهم بعين اللطف والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم ... ثم ارع فى كل خلق حق من خلقه

وما يحكى عن صلاح الدين من شفقته على امرأة عيسوية، وعدم حرمانها من ولدها فيه عبرة، فينبغى أن يقتدى به فى ذلك، قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون فى خيا م الإفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيا رضيعا من مهده، ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا، واشتكت إلى ملوكها، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبى إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين، فبكت وشكت أمر ولدها، فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه،

فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع فى السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشترى، ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها مكرمة. انتهى(١).

وقد جاء فى الحديث أن النبى، صلى الله عليه وسلم، كان فى بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها ضيع، فلما وجدته حنت عليه وألقمته الثدى، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال صلى الله عليه وسلم: «الله أرحم بعبده المؤمن من الأم على ولدها». وقال صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرما، أو كشف عنه كربا». وعنه صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله، بعد الفرائض، إدخال السرور على المسلم». وقال صلى الله عليه وسلم: «من أدخل السرور على مسلم فقد أسرنى». وعن أنس، رضى الله عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو جاء العسر ودخل هذا الحجر لجاءه اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه». وروى الحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لن يغلب عسر يسرين، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ (الإنشراح: ٥، ٦) قال ابن أبى جمرة: كان على، رضى الله عنه، إذا كان فى شدة استبشر وفرح، وإذا كان فى رخاء، أى سعة، قلق، فسئل عن ذلك، فقال: ما من ترحة إلا وتتبعها فرحة، وما من فرحة إلا وتتبعها ترحة، ثم تلا هذه الآية ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ (الانشراح: ٥، ٦).

وقيل لا تشغل قلبك بما ذهب منك، ولكن احفظ ما بقى لك. وقال آخر: حفظك لما فى يدك أولى بك من طلب ما فى يد غيرك، والحيلة فى حفظ الأموال أداء الزكاة. قال صلى الله عليه وسلم: «ما ضاع مال فى بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة». فالشدائد والمحن بتقدير الله وقضائه، قال الله تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾ (الحديد: ٢٢).

---

(١) وانظر فى تفصيل هذه الحادثة كتابنا (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٥٧، ٥٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وقال بعضهم : إن للنكبات نهايات ، لا بد لأحد إذا نكب أن ينتهى إليها ، فينبغى للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضى مدتها ، فإن فى رفعها قبل انقضاء مدتها زيادة فى مكروهها . وقيل : لا ثناء مع الكبر ، ولا صحة مع الهم والتخم ، ولا شرف مع سوء الأدب ، ولا راحة مع الحسد . وقيل :

إذا ما أتاك الدهر يوما بنكبة ... فهيىء لها صبرا ووسع لها صدرا

فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

قال بعضهم : ومن العوارض النفسانية الحزن على فائت ، فينبغى أن لا يكثر التأسف ، فإن الدنيا بأسرها فانية ، وليعز نفسه بأنه لو أصيب بمصيبة أعظم منها لكان أعظم حزنا ، مثل أن يقع الحزن على فائت من المال فيقول : لو وقع هذا فى الولد كان أكثر مصيبة ، أو وقع فى الولد فيقول : لو وقعت هذه المصيبة فى روحه لكان أكثر مصيبة ، ونحو ذلك مما يهون عليه الحزن . وقال عمر ، رضى الله عنه : ما أصبت بمصيبة إلا ونظرت أن الله أنعم على فيها بثلاث نعم : الأولى : أن الله هونها على ، ولم يصبنى بأعظم منها ، وهو قادر على أعظم منها ، والثانية : أن الله تعالى جعلها فى دنياى ، ولم يجعلها فى دينى ، وهو قادر على ذلك ، والثالثة : أن الله تعالى يأجرنى بها يوم القيامة . وقيل :

إذا أراد الإله أمرا ... قضاؤه فى النفوس مبرم

فوضت أمرى وقلت : خير ... ما دفع الله كان أعظم

وقيل :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال تقى الدين ابن حجة :

وفى الخطوب تظهر الجواهر ... ما غلب الأيام إلا الصابر

لا تيأس من فرج ولطف ... وقوة تظهر بعد ضعف

وقيل:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق بها لك الصدر الرحيب
وأوطدت المكاره واطمأنت وأرست فى مناكبها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنت بحيلته الأريب
وكل الحادثات وإن تناهت فمقرون بها فرج قريب

وقال الشيخ زكريا الأنصارى، رضى الله عنه:

كفى مقلتى قرحا وفى القلب قلبها عسى يا إلهى تنقط القاف واحده
وأن تنقط الأخرى إلى الحاء بعدها بفضلك يا من لا يخيب قاصده

وقيل:

عسى فرج يكون غدا وقبل غد عسى الفرج
فلا تجزع لنازلة وإن ذابت بها المهج
ودم للباب تقرعه فكم من قارع يلج

وأخرج ابن عساكر، عن محمد بن عمر، أنه قال: أمر الحجاج بإحضار رجل من السجن، فلما أحضر بين يديه أمر بضرب عنقه، فقال له الرجل: أيها الأمير، أخرنى إلى غد، فقال له الحجاج: ويحك! وأى فرج فى تأخير يوم؟ ثم أمر برده إلى السجن، فسمعه الحجاج يقول:

عسى فرج يأتى به الله إن له كل يوم فى خليقته أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من القرآن العظيم. يعنى من قوله تعالى ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ** ﴾ (الرحمن: ٢٩)، فأمر بإطلاقه. وقيل: إذا اشتدت الأزمة انحلت الحزمة، أول الفرج آخر الضيق، وأشد الأعداء أقرب صديق، ولكل باطن ظاهر، ولكل أول آخر. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «اشتدى أزمة

تنفرجى». وعن أبى بن كعب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، قال: جمعهم فجعلهم أرواحا، ثم صورهم، فاستنطقهم، وآدم ينظر إليهم، فرأى الغنى، والفقير، والمبتلى، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: يارب، لم لا سويت بين عبادك؟ قال: إنى أحببت أن أشكر، فهذا نص من الله تعالى على الحكمة فى خلق الناس متفاوتين فى صفة الكمال والنقص، حتى أنه جعل أنواع البلاء متفاوتة إرادة الشكر، فلا ترى ذا بلاء إلا وهو يرى من هو(*) أشد بلاء منه، ولا ذا حال سيء إلا وهو يرى من هو أسوأ حالا منه ولو من نوع آخر، فترى مثلا الفقير الذى لا يجد قوته ويبيت الليالى طاويا، يرى من هو دنف ملازما للوسادة، وهو كثير المال، فيشكر الله على العافية، وذلك الدنف يرى هذا الفقير، وهو يتمنى القوت فلا يجده، فيشكر الله أن رزق الغنى مع سقمه ولم يجعله يتكفف الناس، وينظر الملك إلى ما حوله من النعيم ونفوذ الأمر فيشكر الله أن جعله أميرا لا مأمورا، ومالكا لا مملوكا، وتنظر آحاد الرعية إلى ما يقاسيه الملك من أنكاد الدنيا وهمومها، وخروج الخوارج عليه، وانتشار المفسدين والقطاع، وخوفه على نفسه من يغتاله أو يسلب منه ملكه ويقصده بأنواع المكائد، ثم ما يتبع ذلك من الحساب يوم القيامة على كل فرد من رعاياه، وهل قام فيهم بما أمر الله من العدل، وتخليص مظلومهم من ظالمهم، وإنفاذ أوامر الله فيهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وعلى كل ذرة من مال قبضها أو صرفها هل أخذها كما أمر الله، وصرفها فيما أمر الله؟ فيحمد الله ذلك المسكين إذ لم يجعله ملكا، فحينئذ لا ترى أحد من الناس إلا شاكرا، كل بحسب حاله. وانظر إلى هذه الحكمة البديعة فى جعل الناس، مع تباين أحوالهم، متفاوتين فى الحال الواحد، مقولين بالتشكيك لا بالتواطئ، فذوو الفقر متفاوتون ليرى كل دونه، وكذا ذوو البلاء، إلى غير ذلك. ومما يعزى للإمام الشافعى، رضى الله عنه:

من ذا الذى قد حاز راحة سره ... فى يسره إن كان أو فى عسره

فلربما يلقى الغنى بماله ... أضعاف ما يلقى الفقير بفقره

(*) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

وأخـو التجـارة خـائف متـرقب في يسـره إن كـان أو في عسـره
وأخـو الوزارة واجـد متـحـيـر أضعاف ما يلقى الفـقـير بفقره
وكـذلـك السلطان في أحكـامـه رهن الهـموم على جـلالة قـدره
ولقـد حسـدت الطـيـر في أوكـارها فـوجـدت أكـثـرهـا يصـاد بوكـره
تالـله لو عـاش الفـتى في أمـره ألفـا مـن الأعـوام مـالك أمـره
مـتلذذا فـيـهـا بكل عـجـيـبـة ومبـلغـا فـيـهـا مـآرب فـخـره
لا يعـتـريه السـقم فـيـهـا مـرة أبدا ولم تجـر الهـموم بفكره
وصـفـت له الأيـام حـتى أنـه لم تنطق الأصـوات عند مـقـره
ولـه طوال الأرض تـخـضع ذلـة مـسـتـشـهـدين له جـلالة قـدره
مـا كـان ذلك كـله مما يفـى بمبـيت أول لـيلة فـى قـبـره

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] : خيرة الله فيما يكرهه العبد أحسن من خيرته فيما يحب، وقد يكون الشيء أبدع في وقت وخلافه أبدع في وقت آخر، وكذلك الحياة والموت، اليسروالعسر، والأمن والخوف، والصحة والسقم، وذلك لعلم الله بحكمته البالغة أن الأبدع في هذا الوقت إيجاد أحد الضدين إلى وقت كذا، فإذا حل ذلك الوقت فالأبدع إيجاد ضده، فيوجده على حكمته، ومن قدح في شيء من هذا فقد قدح في الحكمة، وعارض حكمة الحكيم برأى من عنده. ويرجح ذلك قصة المنسوخ من الشرائع والأحكام، فإن الله تعالى عالم بحكمته البالغة أن الأبدع شرع هذا الحكم في هذا لوقت فشرعه إلى وقت كذا، فإذا جاء ذلك الوقت فالأبدع شرع خلافه فيشرعه.

---

(١) (١١٨١ ـ ١٢٦١) عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، وتصدر جميع علماء عصره، حتى لقبوه: «سلطان العلماء» وله مواقف شهيرة في التصدي للظلم والعمل لدفع الغزاة عن أرض الوطن. انظر ترجمته في كتابنا (مسلمون ثوار) ص ٦٦ ـ ٩٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.

حكى عن رجل من الراضين أنه كان يقول فى كل ما يصيبه : الخيرة فيما قدره الله . وكان فى بادية ، ومعه أهله ، وليس له إلا حمار يحمل عليه أمتعته ، وكلب يحرسهم ، وديك يوقظهم ، فجاء ثعلب أخذ الديك ، فقال : خيرة! وجاء ذئب فقتل الحمار ، فقال : خيرة! ثم أصيب الكلب فمات ، فقال : خيرة! فتعجب أهله من ذلك ، حتى أصبحوا وقد سبى من حولهم ، واسترقت أولادهم ، وكان قد عرف مكان بعضهم بصوت الديك ومكان بعضهم بنهيق الحمار ، فقال : قد رأيتم أن الخيرة فيما قدره الله ، فلو لم يهلكهم لهلكتم وهلكنا؟! . .

وما ثم إلا الله فى كل حالة فلا تعتمد يوما على غير لطفه
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى وخيرته فيها على رغم أنفه

وروى أن نبيا كان يتعبد فى جبل ، وكان بالقرب منه عين ماء ، فاجتاز بها فارس وشرب ، ونسى عندها صرة فيها دنانير ، فجاء آخر وأخذ الصرة ، ثم جاء فقير على رأسه حزمة حطب فشرب واستلقى يستريح ، فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها ، فأخذ الفقير فصلبه وعذبه حتى قتله ، فقال النبى : إلهى ، ما هذا آخذ الصرة! سلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله! فأوحى الله إليه : أن اشتغل بعبادتك ، فليس معرفة ذلك من شأنك! إن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص ، وأن أبا الفارس كان أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة فرددته إليه من تركته! فمن أتقن أمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله له ، وتعجب من جهل نفسه ، ولم يقل وكيف ، فرضى بما دبر الله فى ملكوته . وقيل :

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الخوض فى لج بحر الفلك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

وقال تعالى : الله لطيف بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ويعفو عن كثير من سيآتهم ، ولا يؤاخذهم بجميع جناياتهم ، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها ، ويكتب لهم الهم [1] بالحسنة ولا يكتب عليهم الهم

---

(١) أى العزم عليها والنية لها والشروع فيها .

بالسيئة . وقال الحليمى : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال بعضهم : الرحمة خاصة ، والبلاء عام ، وهذا من جملة رحمة الله بالعصاة ، إذ لو نزل البلاء كله على الذين يستحقونه بالمعصية لمحق الله تعالى أثرهم ، وإنما يوزع على الناس فيصيب كل واحد منهم قدر يسير لا يكاد يحس به ، ويحصل للعاصى مثل أحد الناس ، من باب سبق رحمته تعالى غضبه ، وأما المطيع فينز عليه أكثر الرحمة بطاعته ، لأنه محبوب لله ، فلا يحصل لغيره من الرحمة إلا اليسير ، ومن لم يحسن جوار نعم الله نفرت عنه ، إن الله لا يغير ما بقوم من الكروب حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب .

ومن لطفه : أن جعل الرزق من الطيبات ولم يدفعه إليك جملة لئلا تسرف فيه ، ومن لطفه بعباده : أن أعطاهم فوق الكفاية ، وكلفهم دون الطاقة ، ومن لطفه : أن يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعى خفيف فى مدة قصيرة ، وهو العمر ، ومن لطفه : إخراج اللبن من بين فرث ودم ، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، وإخراج العسل من النحلة الضعيفة ، والإبريسم[1] من الدودة النحيفة ، والدرة اليتيمة من الصدفة المهينة ، وأعجب من ذلك كله أن ركب فيك الشهوة وخلق من النطفة القذرة مستودعا لمعرفته وحاملا لأمانته ومشاهدا لملكوت سمواته ، وهذا لا يمكن إحصاؤه ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ (النحل ١٨) .

* * *

ـ (رجع) ـ وقال بعض الحكماء : الولد ريحانتك سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم بعد ذلك شريكك أو عدوك . وبشر الإمام عمر الفاروق ، رضى الله عنه ، بولد فقال : ريحانة أشمها برهة من الزمان ، عما قليل إما ولد بار وإما عدو ضار ، وأنشد بعضهم :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره ... فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

إن دام هذا ولم يحدث له غير ... لم يبق ميت ولم يفرح بمولود

---

(٢) حرير دود القز .

وقال بعض من لم يأنس فى ولده الرشد، بعد أن حاول رشده:

كم فــرحــة لى فى الحــشــا بــولــد لــى قــــد نـشـــا
كـنـا نـشـــاء رشــــده فــمــا نشـا كـمـا نـشـا

وقال آخر فى سوء حظه من ولده وعبده:

لـيـهـنك أن لى ولـدا وعـبـدا سـواء فـى المقــال وفى المقــام
فـهـذا سـابق من غـيـر سـين وهذا عـاقل مـن غـيـر لام

ولكون الولد فلذة الكبد، كما سبق، يتنافس فيه أبوه وأمه، ويطلب كل منهما أن يستحوذ عليه، ويتحاوران فى شأنه، فقد وقعت محاورة أبى الأسود الدؤلى وزوجته فى ولدهما أمام القاضى شريح، فقد قالت: أيها القاضى، إنى حملته تسعا، ووضعته دفعا، وأرضعته شفعا، حتى إذا نمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن يأخذه كرها، ويتركنى بعده ورها فقال أبو الأسود: إنى حملته قبل أن تحمليه، ووضعته قبل أن تضعيه! فقالت: حملته خفا وحملته ثقلا، ووضعته شهوة ووضعته كرها، إن بطنى كان له حواء، وثديى سقاء، ويدى وقاء، ورجلى حذاء! فقال: أيها القاضى، إنى أعطيتها مهرا كاملا، ولم أصب منها طائلا، إلا وليدا خاملا، فافعل ما رأيت فاعلا. فقضى لها القاضى شريح، رحمه الله.

وقد جرت العادة أن أعز الأقارب: الولد، لا سيما بالنسبة لمحبة أمه له، وشفقتها عليه، وقد تؤثر المرأة أخاها على ولدها، كما حكى أنه قيل لامرأة، قد أسر الحجاج زوجها وابنها وأخاها: اختارى أيهم شئت، فقالت: اختار الأخ، فإن الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود! فقال الحجاج: قد عفوت عنهم بحسن كلامها. وبعض النساء يوثر الزوج على الأب والأخ، كما حكى المدائنى أن رجلا مات عن زوجته، وكانت مليحة فصيحة محبة له، فبينما هى تمشى فى بستان أبيها إذ ذكرت زوجها، فبكت وأنشأت تقول:

إنمـــا أبـــكـــى لإلـــف خـــانه الـدهـر فـــمـــاتـا
قـلـت لـلـدهـر بـحـــزن أيـهــــا الـدهـر أســأتـا

لـــم تـــركـــت الأب والـــ أخ وبـــالـــزوج بـــدأتـــا

ثم التفتت فإذا بأبيها وأخيها خلفها، فسمعا ما قالت فقالا لها : ما هذا الذى تقولين؟ فقالت : لما رأيت شجرة الخوخ جفت قلت :

إنمـا أبكـى لخـــوخ خـــانه الـدهـر فـــمـــاتا

قـلـت لـلـدهـربحـــزن أيـهــا الدهـر أســأتـا

لـم تـركـت الـزرع والـكـر م وبـالخـــوخ بـدأتـا

فقالا لها : ما هذا الكلام؟ فقالت : ما كان إلا هذا، فتعجبا من فصاحتها، ووهبا لها البستان. والظاهر أن إنشادها الشعر إنما هو لمجرد شفاء غليلها فقط ، وأنها لو خيرت لم تختر موت أبيها أو أخيها على زوجها ، وأن ما صدر منها إنما هو نفثة مصدور، كما يحكى عن بعضهم أنه قال : خرجت إلى مقابر البصرة فإذا امرأة واقفة على قبر زوجها تنشد أبياتا آخرها :

يـا مـــوت مـــاذا أردت منى حـــقـــقت مـــا كنت أتقـــيـــه

دهر رمـــانـى بفـــقـــد إلـفى أذم دهـرى وأشـــتكيـــه

أمـــنـــك الـــلـــه كـــل روع وكل مـــا كـنت تتـــقـــيـــه

أسـكـنك الـلـه فـى مـــحـــل يقـــصـــر عن وصف ذاكـــريه

فأثر فى قلبى منظومها عند إنشادها، وكانت لى ابنة، لطيفة المحل من قلبى، نفيسة المنزل فى نفسى، ذات محاسن كثيرة ، وفضائل غزيرة، ورزقت حظا من التلاوة والآداب الدينية الصناعية، مع عقل رصين، وبراعة ودين ، فسلمت للرب جل جلاله قضاءه فيها، وعرفت حسن اختياره لى ولماذا كان خالقها أملك لها من والدها ورضيت ثواب الله عوضا منها، ولهجت بما فى هذه الأبيات، ومكثت أقطع ليلى ونهارى بترجيعها.

وبالجملة فالرجل لزوجته ملك وسلطان، تبكيه زوجته المحبة له طول الزمان، ولاتزال تصفه بصفات الكمال، كما يحكى أن بعضهم قال : مررت على قبر ببغداد وعليه امرأة تنوح على زوجها وتنشد :

فـــمن لـلســـؤال ومـن للـنوال ومن للـمـقــال ومـن ل لخطب

ومن لـلحـــمـاة ومن لـلكمـــاة إذا مـا الكـمـاة جـثـوا لـلركب

إذا قـــيل مـــات أبـو مـــالك فـتى المكرمـات قـريع الكرب

فـقلت لهـا: من هو أبو مـالك، الذى ترثينه بـذلك؟ فـقـالت: هذا أبو مـالك الحجام، الذى ختن الخليفةالمنصور، فقلت لها: ما ظننت بسماع كلامك إلا أنه سيد من سادات العرب! قال بعضهم: لا حرمة لنائحة، لأنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه، وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتبكى شجو غيرها، وتأخذ الأجرة على دمعها، وتزن الحى، وتؤذى الميت.

وبالجملة فالقرابة، عصبة أو رحما، والصاهرة، التى هى أيضا نوع من القرابة، يجب بينهم المحبة العمومية، وحفظ التوادد والتواصل، ولذلك كانت صلة الرحم فيها خصال محمودة: أولها: رضاء الله تعالى، لأنه أمر بتقواه وصلة الرحم، فقال تعـالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ** ﴾ (النسـاء: ١)الثانى: إدخال السـرور عليـهم، وأفـضل الأعـمـال إدخـال السـرور على المؤمن، الثـالث: حـسن الثناء، وزيادة العمر، والبركة فى الرزق.

وفى صلة الرحم سرور الأموات أيضا، لأن الآباء يسرون بصلة القرابة. قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «تعـرض الأعـمـال يوم الاثنين والخـميس على الله، وتعـرض على الأنبيـاء وعلى الآباء أو الأمـهـات يوم الجـمـعـة، فـيـفـرحـون بحسناتهم، وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم». وفى صلة الرحم أيضـا زيادة فى المروءة، لأنه إذا وقع لواصل الرحم سـرور أو حـزن اجتمعوا عليه وأعانوه أو سلوه، فيكون له زيادة فى المروءة، وزيادة بعد موته لأنهم يدعون له كلما ذكر بره.

وأقسام المروءة سبعة، ثلاثة فى الحضر، وأربعة فى السفر، أما التى فى الحضر: فـغض البـصـر، وإمسـاك الفـرج، وأداء الأمـانة، وأمـا التى فى السـفـر: فـبـذل الزاد، ومراعاة الرفيق، وإحسان الخلق، وإدلال الدال إلى الطريق.

والرحم هو القرابة من قبل الأب أو الأم من غير تقييد بمحرمية، وقيل بتقييدها، ورجحه الشهاب الرملى، وقيل: كل قرابة إلى ثمانية عشر جدا، وقيل: من تجب نفقته. وللأقارب حقوق، يقدم فى البر الأحوج فالأحوج، والصلة والإحسان إليهم، وقد وردت أحاديث كثيرة فى صلة الرحم، منها: «من سره أن يمد له فى عمره، ويوسع له فى رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه». ومنها: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله». ومنها: «يقول الله عز وجل: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى، فمن وصلنى وصلته، ومن قطعنى قطعته». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن صلة الرحم تقرب العبد إلى رحمة الله تعالى، وتباعده من عقوبته». وقال صلى الله عليه وسلم: «بروا أرحامكم ولو بالسلام». وما ذكر من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ (فاطر: ١١)، أن معناه: كل من طال عمره أو قصر فهو مكتوب فى الكتاب، وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ**﴾ (الأنعام: ٢) إن الأجل المسمى عنده هو الأجل الذى قضاه، وقوله تعالى﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ (الرعد: ٣٩)، على عمومه، حتى الشقاوة، والسعادة والأجل، والرزق، والخلق، لكن باعتبار متعلق الكتاب والعلم، لأن المشاهد أن الشخص يكون كافرا وذلك مكتوب فى اللوح المحفوظ لأنه من جملة الحوادث، ثم يسلم، ومسلما ثم يكفر، وفقيرا ثم يستغنى، وعكسه، ولا ريب أن كل ذلك، والحوادث كلها مكتوبة فى اللوح المحفوظ، فبالضرورة حصل المحو والإثبات، وأن علم الله بذلك أزلى لا يتغير ولا يتبدل، فقد ثبت بالدلائل القطعية أن الله عالم الآجال والأرزاق وغيرها، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه، فإذا علم الله أن زيدا يموت بوقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده، فلا يتغير علمه تعالى بذلك، وأن المعلوم هو الذى يتغير ويتبدل على وفق علمه، وينتقل من حال إلى حال، وذلك معلوم بضرورة المشاهدة، وإنه لا يمحو شيئا ولا يثبت إلا ما سبق علمه به، وأن صلة الرحم ونحوها تزيد فى العمر، وأن الدعاء يدفع البلاء. وروى

عنه صلى الله عليه وسلم : «اثنان لا ينظر الله إليهما : قاطع الرحم، وجار السوء» . وهو الذى إن رأى حسنة كتمها أو سيئة أفشاها .

فصلة القرابة هى أن يفعل القريب معهم ما يعد به واصلا غير منافر ولا مقاطع، فيصلهم بالهدية ونحوها، فإن لم يقدر على الصلة بالمال، وكانوا غير محتاجين إليه، وصلهم بالزيارة والإعانة على أعمالهم إن احتاجوا إلى ذلك، وإن كان غائبا عنهم وصلهم بالكتاب، وإرسال السلام، ولين الكلام، ونحو ذلك، فإن قدر على السعى إليهم بالحضور لمشاهدتهم فهو أفضل، ثم إن حقوق الأقارب من حيث البر والصلة مختلفة فى القوة كما سيأتى . .

الفصل الثانى

(فى بر الوالدين
وفى فضل العلم والحث على تعليمه
وفى آداب كل من المعلم والمتعلم)

بر الوالدين واجب شرعا وعقلا، قال الله تعالى: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ (النساء: ٣٦) وقال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا** ﴾ (العنكبوت: ٨)، ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ (لقمان: ١٥) وهذه الآية والتى فى العنكبوت وسورة الأحقاف نزلت فى سعد ابن أبى وقاص وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية (٤) لما أسلم وكان بارا بأمه، فقالت أمه: ما هذا الدين؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت! فمكثت كذلك أياما، فجاءها سعد فقال: يا أماه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى، فكلى واشربى إن شئت أو اتركى! فلما يئست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية، وأمر بالبر والإحسان إليهما، وأن لا يطيعهما فى الشرك، وقال تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ (الإسراء: ٢٣) ويسمى برهما أيضا بالمحبة البنوية، أى صداقة الولد والبنت للأب والأم، علوا وسفلا فى كليهما. وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن لى والدة أنفق عليها، وهى

---

(٤) يخطئ الطهطاوى فيقول إن اسمها همنه بنت أبى سفيان. والصحيح أنها حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، وليست بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. انظر (الطبقات الكبرى) لابن سعد. جـ٣. القسم الأول ص ٩٧ و (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) لابن الأثير. جـ٦ ص ١٤٨.

تؤذيني بلسانها، فكيف أصنع؟ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: «أد حقها، فوالله لو قطعت لحمك ما أديت ربع حقها، أما علمت أن الجنة تحت أقدام والدتك؟» فسكت الرجل، وقال: والله لا أقول لها شيئا، ثم أتى الرجل إلى والدته، وَقَبَّل أقدامها، وقال: يا والدتي بذلك أمرني رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وقد اقتضت حكمة الله، سبحانه وتعالى، بتكليف الأبناء ببر آبائهم لثلاثة أسباب أصلية: **السبب الأول:** الإحساس والشعور، فإن الأطفال يدركون من صغر سنهم، بإدراك غريزي، اعتناء والديهم بشؤونهم، وتعهد أحوالهم وأطوارهم، ومعاناة آبائهم وأمهاتهم حسن تربيتهم، فيرتسم في ذهن الأطفال، من المهد، هذه التربية، فيصير حب الآباء والتعلق بهم طبيعيا للأبناء، ويتعودون عليه، ويصير من جملة الوجدانيات.

السبب الثاني: أن العدل والإنصاف مركوز في طبيعة الإنسان، فالطفل متى استشعر من أبويه تعهد شؤونه لمحبتهم إياه عاملهم بالمثل، إجراء على قانون العدل والإنصاف، فلهذا تجد الأطفال يحسنون معاملة آبائهم بمثل ما عاملوهم به، بل يجب عليهم أن يعوضوهم شيئا جزاء لتربيتهم إياهم، وفي نظير ما أنفقوه عليهم من الأموال في صباهم، فبرهم واجب في مقابلة ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ (الرحمن: ٦٠).؟

السبب الثالث: وهو نتيجة الأول، إن المصلحة الخصوصية تقتضي سبق حسن المعاملة من الآباء لأولادهم، بقطع النظر عن البنوة، لأن الآباء إذا أساءوا تربية أبنائهم، ولم يحسنوا معاملتهم، كأنهم جعلوا لهم وسيلة للتأسي بهم، حيث عودوهم على العوائد السيئة المنتجة للعقوق، فكأنما الصغير شب بسوء تربيته على عقوق والده وعصيانه وكفران نعمه، فمتى صار كبيرا واحتاج إليه أبوه عامله عند الإبان بالمثل، فإذا أحسن الآباء تربية أبنائهم وعاملوهم بالإكرام كانت مصلحة الأولاد في محبة آبائهم وبرهم، لاسيما في حالة شيخوختهم، التي تكاد أن تكون عودا إلى الطفولية.

وحكى أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنه، رأى ولدا له يوم عيد، وعليه قميص خلق، فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: يا بنى؟ أخشى أن ينكسر قلبك فى يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق! فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه، أو عق أمه وأباه، وإنى لأرجو أن يكون الله راضيا عنى برضاك، فبكى عمر، رضى الله عنه، وضمه إليه، وقبل ما بين عينيه، ودعا له، فكان أزهد الناس بعد أبيه. وقيل:

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأناك اتضاع وارتفاع

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى غلام صغير السن، وقدأراد أن يتكلم، فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام، فقال له: صدقت، ولكن، يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذى مَنّ بك علينا، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة، أما الرغبة فقد أمنا بك فى منازلنا، وأما الرهبة فقد أمنا جورك ببعدك عنا، فنحن وفد الشكر، والسلام. فقال له عمر: عظنى يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تك ممن غره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدماك، وتكون من الذين قال فيهم: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾ (الأنفال: ٢١) فنظر فى سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة.

ومن الزهد دوام النظر فى الدنيا، والتفكر فى سرعة انصرافها، وقلة الحاصل منها، وغرور أكثر الخلق بالإقبال عليها، ومفارقتها لهم عند كمال محبتهم لها وإقبالهم عليها، وكون كل لذة منها مقترنة بآفة تلازمها، فكم من لذة فى مأكل ومشرب كانت سبب هلكة، وكم من لذة فى شهوة بجماع كانت سبب هم وغم وزيادة كلفة، وكذلك سائر أقسامها، من جاهها ومالها، فأرباب الجاه فيها معذبون بحفظ جاههم، والصيانة عن نزول قدرهم، وأرباب المال مشغولون بحفظه عما يتلفه عليهم، وبتنميته طلبا للزيادة عما لديهم، عمال فى نهارهم، سكارى فى ليلهم، فالفكرة فى الدنيا فى هذه الجهات، مع فراغ القلب من المشغلات، تدل

اللبيب على حقارة الدنيا، وتزرع فى قلبه الزهد فيها والإعراض عنها، فلا تغرنك زهرتها، ولا تفتننك زينتها، فإنها سلابة للنعم، أكالة للأمم. وقيل:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... ولكنها دار إنتقال لمن عقل

إذا أضحكت أبكت وإن هى أقبلت ... تولت وإن أعطت فأيامها دول

وحكى أن البادية أقحطت على أيام هشام، فقدمت عليه العرب، وهموا أن يكلموه، وكان فيهم دراوس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، وله ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال هشام لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل على إلا دخل، حتى الصبيان، فوثب دراوس حتى وقف بين يديه مطرقا برأسه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن فى الكلام طيا ونشرا، وإنه لا يعرف ما فى طيه إلا بنشره، فإن أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرته! فأعجبه كلامه، وقال: انشره لله درك! فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاثة السنة الأولى أذابت الشحم. والثانية أذابت اللحم، والسنة الثالثة أذابت العظم، وفى أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، إن الله يجزى المتصدقين. فقال هشام لمن عنده: ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذرا، فأمر للبوادى بمائة ألف دينار، وللغلام بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ فقال: ما لى حاجة لنفسى دون عامة المسلمين. فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم.

وقيل إن سعد بن ضمرة الأسدى لم يزل يغير على النعمان بن المنذر، يسلب أمواله، حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول: إن لك عندى ألف ناقة، على إنك تدخل فى طاعتى، فوقف عليه، وكان صغير الجثة، فاقتحمته عينه وانتقصه، فقال: مهلا أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشد يقول:

يا أيها الملك المرجو نائله ... إنى لمن معشر شم لذى بطر

فـلا تغـرنك الأجـسـاد إن لنا | أحـلام عـاد وإن كنـا إلى قـصـر
فكم طويـل إذا أبصـرت جثـتـه | تقـول هذا غـداة الروع ذا ظفـر
فـإن ألم بـه أمـر فـأفظعـه | رأيتـه خـاذلا للأهـل والزمـر

فقال: صدقتنا، هل لك بالأمور علم؟ قال: إنى لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم انظر فيها إلى ما تؤول، وليس للأمور بصاحب، من لم ينظر فى العواقب. فتعجب من فصاحته وعقله، ثم إنه أمر له بألف ناقة، ثم قال: يا سعد، إن أقمت عندنا واسيناك بالعطاء، وإن رحلت واصلناك بالإحسان، فقال سعد: قرب الملك أحب إلى من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من خواص نُداماه.

وقد جرت العادة أن الصبى الشريف النفس، الكريم الأخلاق، الحسن التربية، يرى من أوجب الواجبات عليه لأبيه وأمه شكر النعمة، حيث هما أصل وجوده، وسبب حفظه وصونه، فقد جبلت الطبيعة البشرية على دوام الإحسان لمن أحسن إليها وحماها وصانها، فارتباط الأبناء بالآباء ارتباط صحيح، يستدعيه الذوق السليم، والطبع المستقيم، فلا تخرج الأبناء من ربقة هذا التعلق، لا سيما بالآباء، فحسب الرجل أن يهذب ابنه، ويحسن تربيته، حتى يكون بذلك أبا منصفا، فبهذا يستحق على ولده البر والمحبة، فمن الناس من كان ديدنه مدح أبيه فى حياته ورثاؤه بعد مماته، ومنهم من أدته الخسة وقلة التربية لهجر والده، فمن القسم الأول ابن سناء الملك[1] حيث يقول فى مدح أبيه الرشيد:

أنا الغـوى بهـمى والرشـيـد أبى | هو الرئيـس على الدنيـا بهـمـتـه
أحى وأنشـر ميت المجـد مجـتـهـدا | فى لـم لمتـه أو رم رمـتـه

(١) هبة الله بن جعفر (١١١٥ ـ ١٢١١ م) أديب وشاعر، اشتهر بالإكثار من المحسنات البديعية فى شعره، وهو أشهر شعراء الدولة الأيوبية، وله فى الموشحات وقواعدها كتاب أسماه (دار الطراز)، كما اختصر كتاب (الحيوان) للجاحظ، تحت عنوان (روح الحيوان).

أصبحت أختال فى حالى ونضرتها   به وارتع فى عيشى وخضرته
وأسعد الناس من لاقى بلا تعب   مبدأ السعادة فى مبدأ شبيبته

وقال فيه أيضا :

يكفيك أنى بك يا سيدى   قد طاب أصلى وزكا محتدى
جاوزت حد البر بى صاعدا   فقف فما أبقيت من مصعد

ومن القسم الثانى ممن هجا والده ابن الرومى بقوله :

لو كان مثلك فى زمان محمد   ما جاء فى القرآن بر الوالد

وذكر السمهودى فى (كتاب النورين) : أن من أسباب زوال الإيمان ـ والعياذ بالله تعالى ـ أربعة أشياء : ترك الشكر على الإسلام ، وترك الخوف على ذهاب الإسلام ، وظلم أهل الإسلام ، وعقوق الوالدين . وروى عنه صلى الله عليه وسلم : «إن من أكبر الكبائر الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، ويمين الغموس[1]» .
وقال أبو العيناء : أنا أول من أظهر العقوق لوالده بالبصرة ، قال لى أبى : إن الله قرن طاعته بطاعتى ، فقال﴿ **اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾ (لقمان : ١٤) ، فقلت : يا أبت ، إن الله أمننى عليك ولم يؤمنك على ، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾ (الإسراء : ٣١) وقال بعضهم : إذا أتت الجفوة من موضع المبرة تضاعف إيلامها وإيجاعها ، كما أن المبرة إذا أتت من موضع العقوق حسن موقعها ، وأعجب أمرها ، قال الشاعر :

وما يوجع الحرمان من كف حارم   كما يوجع الحرمان من كف رازق

ومن علامات الساعة أن يكون الولد غيظا ، والمطر قيظا ، وأن يفيض الأشرار فيضا ، أى يكون الولد غيظ أبيه وأمه ، أى يعمل ما يغيظهما بعقوقه لهما ، ولا يكون فى طوعهما ، ويكون المطر فى الصيف ، فلا ينبت شيئا ، وهذا قريب من : أن من

(١) التى يتعمد الحالف بها الكذب .

أشراط الساعة كثرة القطر وقلة النبات، وفيض الأشرار كثرتهم. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: « دعاء الوالد يفضي إلى الحجاب». وعنه أيضا: «دعاء الوالد لولده كدعاء النبى لأمته». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «الجنة تحت أقدام الأمهات». وقال صلى الله عليه وسلم: «طاعة الله فى طاعة الوالد، ومعصيته فى معصية الوالد».

(حقوق الولد على الوالد)

ومن أعظم حقوق الولد على والده أن يتخير أمه، لئلا يعير بها، وظئره أى مرضعته، وأن يعيش الأب معها بكمال الوداد والمحبة، وسلوك طريق الإنصاف والعدل، لتكون المحبة مشتركة بين الأب والأم والولد، وإذا كان للزوج والزوجة عدة أولاد سووا بينهم فى تعهد شؤونهم وتقويم أودهم، ليشب الإخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض. وهذا ما يسمى بالمحبة الأخوية، وسيأتى ذكرها فى(الفصل الرابع) من هذا الباب.

ومن حقوق الولد أيضا على والده أن يحسن اسمه، أدبه، ويعلمه القرآن إذا عقل، ويزوجه إذا بلغ، وأن يعلمه السباحة والخط والحساب، وإن كانت أنثى زوجها جميلا تقيا، وينفق على ولده ويكسوه إذا احتاج. قال صلى الله عليه وسلم: «أكرموا أولادكم. واحسنوا آدابهم». ومن حقوق الأولاد على الوالد أى يسوى بينهم فى العطية، غنيهم وفقيرهم، وذكرهم وأنثاهم، قال صلى الله عليه وسلم: «ساووا بين أولادكم فى العطية، فإنى لو كنت مؤثرا أحدا لآثرت النساء على الرجال». وفى رواية: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم كما تحبون أن يبروكم». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن فى الجنة دارا يقال لها الفرح، يدخلها من فرح الصبيان». رواه ابن عدى عن عائشة، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله والدا أعان ولده على بره». وروى أبو هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. كان يؤتى بأول التمر فيقول: «اللهم بارك لنا فى مدينتنا،

وفى ثمارنا، وفى مدنا [١] وفى صاعنا [٢]، بركة مع بركة»، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الوالدان.

ومن حقوق الولد على الوالد أن يعق[٣] عنه بشاتين وعن الجاريةبشاة فى اليوم السابع، ومنها أن يحلق شعر رأسه ويتصدق بوزنه ذهبا، فإن لم يجد ففضة، كما روى عن سلمان به عامر الضبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «الغلام مرتهن بعقيقته». ومنها أن يختنه. لأن الختن من الفطرة، أى الخلقة الإسلامية والختان للذكور سنة، والخفاض للنساء مكرمة، واختتن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام «بالقدوم». وهى قرية من قرى كنعان، اختتن إبراهيم فيها بنفسه، لا ما ذهب إليه بعض الناس من الآلة التى تجرى مجرى الفأس، فإذا بلغ المولود سن التمييز أوصاه أن يتمسك بأخلاق الصالحين، وأن يصان عن مخالطة الفسقة، واتفقت الأمة على فضيلة التقوى، وطلبها، حتى قال بعضهم:

ولا تمش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

ومنها أن يعلمه أحكام الدين، والعربية، ويأمره بالصلاة، والنحو جمال الألسنة وكمال العلماء، يعلم به معانى الكتاب والسنة النبوية، ومخاطبة العرب بعضهم بعضا، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبوا العرب لثلاث، لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا العربية وعلموها الناس». والأصل فيه ما قيل أن أبا الأسودالدؤلى، رحمه الله تعالى، سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ورَسُولِهِ**﴾ (التوبة: ٣) بالجر عطفا على المشركين! فذهب إلى أمير

(١) المد: مكيال قديم، يساوى ثمانية عشر«ليترا»، على التقريب.

(٢) الصاع: مكيال قدره أربعة أمداد، وهو يساوى بالكيل المصرى قدح وثلث، أى سدس كيلة: انظر (دليل السالك لمذهب الإمام مالك) ص ٦٧.

(٣) أى يذبح العقيقة، وهى الشاة تذبح عند حلق شعر المولود بعد أسبوع من ولادته، وشعره هذا يسمى: عقه، ـ بكسر العين وفتح القاف المشددة ـ وعقيق.

المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وأخبره بذلك، فقال له: ذلك بمخالطتهم، يعنى صاروا يلحنون فى الكلام بسبب مخالطتهم لأبناء العجم، ثم قال: يا أبا الأسود، أقسام الكلام ثلاثة: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأعن حركة المسمى، والحرف ما أوجد معنى فى غيره، والفاعل مرفوع، وما سواه فرع عليه، والمضاف إليه مجرور، وما سواه فرع عليه، إلى آخره.. أنح لهم هذا النحو يا أبا الأسود. فلهذا سمى هذا العلم نحوا، ثم خلف أبا الأسود «ميمون الأقرن»، فزاد فيه أمورا كثيرا، إلى أن جاء سيبويه، والكسائى، فأخذ عن كل واحد منهما فرقة، فعن سيبويه البصريون، وعن الكسائى الكوفيون، فهذبوا الفن ورتبوا الترتيب الخاص المشاهد الآن.

وكان معاوية أرسل إلى الأحنف بن قيس، فقال له: يا أبا الحسن، ما تقول فى الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وأن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولاتك عليهم قفلا فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك، ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف! لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا على يزيد، فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن ابنه يزيد، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ومائتى ثوب، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، قاسمه إياها.

قال بعض التابعين: من دعا لأبويه كل يوم خمس مرات فقد أدى حقهما، لأن الله تعالى قال: (اشكر لى ولوالديك) فشكر الله أن يصلى كل يوم خمس مرات، فكذلك شكر الوالدين أن يدعو لهما كل يوم خمس مرات. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما بعد موتهما فيكتبه الله من البارين.» وقال صلى الله عليه وسلم: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله.» وقال: «لا يجزى ولد والده، إلا أن يجده مملوكا فيشتريه، فيعتقه.» وقال بعضهم: من فاته بر والديه فليصل ليلة الخميس ركعتين يقرأ فى كل منهما فاتحة الكتاب ويقرأ فى كل واحدة آية الكرسى

والإخلاص والمعوذتين خمسا، فإذا سلم يستغفر الله خمس عشرة مرة، ويهب ثواب ذلك لهما، فإنه يقوم مقام برّهما، إن شاء الله تعالى.

وروى عن ابن عباس، يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يسأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال له: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يا رب، إنى عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به». قال تعالى﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ (الطور: ٢١).

وروى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى وابن مردويه عنه، مرفوعا. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن إليه». وفى لفظ: «معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل، لتقربهم عينه»، ثم قرأ ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ (الطور: ٢١)، قال: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين.

وروى أبو نعيم عن سعيد بن جبير أنه سئل عن أولاد المؤمنين، قال: هم مع خير آبائهم، إن كان الأب خيرا من الأم فالولد مع الأب، وإن كانت الأم خيرا من الأب فهو مع الأم، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾ (النجم ٣٩)، فقد قال ابن عباس، رضى الله عنهما، هذا منسوخ الحكم بقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ (الطور: ٢١)أو كان هذا الحكم فى شريعة إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم من قراءة وصدقة وغيرهما، لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك قولا وفعلا. قال أبو العباس أحمد بن تيمية [٣]: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعلمه فقد خرق الإجماع وذلك باطل. انتهى. وروى عن جابر بن عبدالله، رضى الله عنه، أن الله

---

(٣) (١٢٦٣ـ١٣٢٨م) فقيه، ومحدث، و سياسى، وأحد علماء الكلام، كان خصما للصوفية، ولقد لقب بمحيى السنة، وإمام المجتهدين، ولقد جرت عليه الجرأة فى الفتوى خصومة الكثيرين فسجن بمصر والشام، وتوفى بسجن دمشق، ومذهبه الكلامى ينحو نحو الظاهر ويخاصم الفلاسفة والمنطقيين.

ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده، وأهل دويرته ودويرات من(*) حوله، ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرفع درجة العبد فى الجنة، فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك». وقيل:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويعديهم عند الفساد إذا فسد

يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت فى الأهل

وقال بعض العلماء: ترك الدعاء للوالدين يضيق العيش على الولد، وإذا كان كذلك فالدعاء لهما يوسع العيش عليه. وروى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم: كيف يسمع ربنا دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام كذلك إلى السماء السابعة، والأرضون مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك؟ فنزلت هذه الآية ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (البقرة: ١٨٦) والإجابة بمعنى القبول، وقال قوم: إن الله يجيب كل الدعاء، فإما أن تظهر الإجابة فى الدنيا، وإما أن يكف عنه سوءا، وإما أن يدخر له فى الآخرة، لما روى أبو سعيد، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخره له، وإما أن يكف عنه من السوء مثلها». وقال بعضهم، فيمن تعجل دعوتهم:

وسبعة لا يرد الله دعوتهم ... مظلوم، والد، ذو صوم، وذو مرض

ودعوة لأخ بالغيب، ثم نبى ... لأمة، ثم ذو حج بذاك قضى

وقال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». وقيل:

ورب ظلوم قد كمنت لحربه ... فأوقعه المقدور أى وقوع

وليس معى إلا سلاح تهجد ... وأدعية لا تتقى بدروع

(*) إضافة يقتضيها السياق (الشروق).

وهيـهات أن ينجـو الظلوم وخلفـه سـهـام دعـاء من قـسى ركـوع
مـهـذبة بالريـش من جـفن سـاهر وأنصـالهـا مـسـقـية بدمـوع

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب، يسأل أحدكم ربه حاجته حتى شع[1] نعله إذا انقطع، فكما يسأل منه سبحانه وتعالى الشىء الجليل يسأل منه الشىء القليل». وعنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يحب الملحين فى الدعاء». أى والمخلوق يغضب وينفر عند تكرار السؤال، وأنشدوا:

اللـه يغـضـب إن تركت سـؤاله وبنى آدم حـين يسـأل يـغـضب

فشتان ما بين هذين، وسحقا لمن تعلق بالأثر وأعرض عن العين، فإذا سألت فأسأل الله أن يعطيك إياه، ولا تسأل غيره، فإن خزائن الوجود بيده، وأزمتها إليه، إذ لا قادر ولا معطى ولا متفضل غيره فهو أحق أن يقصد، سيما وقد قسم الرزق وقدره لكل أحد بحسب علمه القديم الأزلى، وإن كان يقع فى ذلك تبديل فى اللوح المحفوظ بحسب تعليق على شرط، ومن ثم كان للسؤال فائدة، لاحتمال أن يكون إعطاء المسؤول معلقا على سؤاله. وقال طاوس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك ممن يغلق بابه دونك، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك، وقال عامر بن قيس: قرأت آيات من كتاب الله تعالى فاستغنيت بالله عن الناس، قرأت قوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾ (الأنعام: ١٧)، فلم أسأل غيره كشف ضرى، وقرأت قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ (هود: ٦) فلم أطلب الرزق من غيره، وقال صلى الله عليه وسلم: سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

وقال بعضهم: إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعى أن يكون عالما بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة، وحضور قلب، فإن الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب لاه، قال صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة». وأن يكون متجنبا لأكل الحرام،

(١) متفرق.

وإن لا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا، وأما إذا كان الدعاءغير جائز الطلب والفعل شرعا، كما إذا كان بإثم أو قطيعة رحم، فلا يستجاب، فيدخل فى الإثم كل مايأثم به من الذنوب، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين، وقال سهل بن عبدالله التسترى [1]: شروط الدعاء: التضرع، والخشوع، وأكل الحلال، وحفظ اللسان، وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحل، وحفظ الفرج من الحرام، وقال ابن عطاء: إن للدعاء أركانا، وأجنحة، وأوقاتا، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار فى السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه: حضور القلب، والخشوع، وأجنحته: الصدق، ومواقيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم. فالابتهال إلى الله بالتضرع والدعاء والاستغفار أولى وأحسن، فإن الله تعالى لا يرد سائله، ولا يخيب قاصده، ولا يضيع أجر العاملين، ورحمته قريب من المحسنين، وعفو الله واسع، ورحمته واسعة، ولطفه بخلقه وكرمه بهم جل عن إحصائه. وقال أبوالعطاء الوفائى الكبير فى دعائه:

إلهى لئن عذبت بالنار عاصيا ... فوعدك بالغفران ليس له خلف

وإن كنت ذا بطش شديد وقوة ... فمن شأنك الأفضال والجود واللطف

ركبنا خطايانا وسترك مسبل ... وليس لستر أنت ساتره كشف

إذا نحن لم نرفع إليك أكفنا ... فمن ذا الذى نرجو ومن ذا الذى يعفو

قال بعضهم: وقد دل العقل والنقل وتجارب الأمم، على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها، على أن التقرب إلى رب الأرباب بطلب مرضاته والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان

---

(١) (٨١٨-٨٩٦ م) صوفى، ومتكلم، إلى أقواله الألف تعود أصول «مذهب السالمية» فى التصوف، وهو يعنى مراقبة الباطن من خلال أعمال العبادة، واصطناع ألفاظ أشبه بألفاظ أرباب العرفان تسلم إلى التوحيد.

إلى خلقه، وقد رتب الله سبحانه وتعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة، وحصول السرور فى الدنيا والآخرة، فى كتابه العزيز، على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط، والعلة على المعلول، والمسبب على السبب، فقال، جل من قائل: ﴿ **إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ (الأنفال: ٢٩)، وقال: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ** ﴾ (النساء: ٣١)وقال: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ (إبراهيم: ٧)، وقال: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (الصافات: ١٤٤)، وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر وأحكام الشريعة على الأسباب، بل أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب. انتهى. وأن يخفض الداعى صوته لقوله تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ (الأعراف: ٥٥)، وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى، قال: صليت مع أبى إسحاق الغداة، فسمع رجلا يجهر بالدعاء، فقال: لكن زكريا: ﴿ **نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** ﴾ (مريم: ٣)، وينبغى للداعى أن لا يتكلف، ويأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع، لقوله عليه والصلاة والسلام: «إياكم والسجع فى الدعاء، فحسب أحدكم أن يقول: اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول عمل». وقيل: إن من شروط الدعاء أن يكون سليما من اللحن، كما قال بعضهم:

يناجى ربه باللحن ليث ... لذاك إذا دعاه لا يجيب

وقد قال الإمام الشعرانى: وأما زبدة علم النحو والبيان فهى كلها ترجع إلى ما يعرف به إصلاح اللفظ من اللحن المؤدى إلى فساد المعنى عند أهل هذه العلوم، وذلك لا يحتاج إليه أحد ممن يريد اللحوق بأهل الله عز وجل، لأن أهل الله عز وجل قد عمدوا إلى إصلاح قلوبهم بأكل الحلال وحفظ القلوب والجوارح، فنارت هياكلهم، فأدركوا الشرائع ودقائقها بذلك النور الذى جعله الله فى قلوبهم. فمن عمل على طريقهم أدرك جميع العلوم المستنبطة من الكتاب والسنة بالنور، لا بقواعد أهل النحو والمعانى والبيان، ولم يشتغل ولى منهم قط فى علم النحو، ومن قال إنما يتعلم النحو خوفا من أن يبدل أحد شيئا من القرآن باللحن، قلنا له: القرآن

معصوم من التبديل والتغيير إلى يوم القيامة، فهو محفوظ بالعصمة الإلهية لا بعلم النحو والمعانى، فلولا ظلمة الباطن ما احتاج عبد إلى آلات يفهم بها كلام أفصح الخلق صلى الله عليه وسلم وفصحاء أمته من العلماء رضى الله عنهم أجمعين.

(الولاية)

وقال بعضهم: اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ (الطلاق: ٣)، وقال تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ (الزمر: ٣٦) وقال: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴾ (العلق: ١٤)، وقال﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت: ٥٣) فبنى أمرهم فى بداياتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال، تحقيقا لفنائهم وتنبئة لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، حبا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، إن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولى ليس بإرادته لنفسه، لكن بإرادة الله له، بل مطلبه ـ إن كان له مطلب ـ الخفاء لا الجلاء، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم فى ذلك بتأييده، وواردات مزيده، لقوله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الرحمن ابن سمرة، لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها». ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده.

ولما علم الله، عز وجل، أن كل نبات لا ينبت ويثمر إلا بجعله تحت الأرض، تعلوه الأرجل، جعلوا أنفسهم أرضا للخلق، ليعطيهم الله تعالى ماأعطى أولياءه الأماجد، حتى تواضعوا للعباد، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندرى، فى حكمه: إدفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه!

فنفوسهم عندهم حقيرة، ذليلة، كسيرة، لا يشتغلون بما لا يعنيهم، ولا يلتفتون لما يلهيهم، قد تخلقوا بكل خلق سنى، وتنزهوا عن كل وصف دنى، فارقوا الأخلاق الطبيعية، وخرجوا عن الصفات البشرية، وتخلقوا بالصفات الروحانية، تخلقوا بأخلاق الله، وبأخلاق حبيبه ومصطفاه، لم يكن لهم مع الله اختيار إلا ما اختار، ومن ثم جانبوا من هذه الدنيا الدنية الاقتار والاستكثار والادخار.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى[1]، رضى الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه. انتهى. قال بعضهم: معرفة الأولياء بين الناس بلطائف ألسنتهم، وحسن أخلاقهم، وبشاشة وجوههم، وقلة اعتراضهم، وقبول عذر من اعتذر إليهم، وبتمام الشفقة على جميع الخلق، بارهم وفاجرهم، وصفتهم أن يكون الفقر كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحب الله لذتهم، ومع الله تجارتهم، وعليه اعتمادهم، به يقينهم، وعليه توكلهم، والجوع طعامهم، والزهد ثمارهم، وحسن الخلق لباسهم، وطلاقة الوجه حليتهم، وسخاء النفس حرفتهم، وحسن المعاشرة محبتهم، والعلم فائدتهم، والصبر سائقهم، والهدى مركبهم، والقرآن حديثهم، والذكر نهمتهم، والرضى راحتهم، والقناعة مالهم، والعبادة كسبهم، والشيطان عدوهم، والحياء قميصهم، والخوف سجنهم، والنهار فطنتهم، والليل فكرتهم، والحكمة سيفهم، والحق حارسهم، والرجاء مرحلتهم، والقبر حصنهم، والفردوس مسكنهم، والنظر إلى رب العالمين منيتهم، قال الله تعالى: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ (الفرقان: ٦٣).

وقد سئل العلامة النجم الغيطى عن كون العلماء أولياء لله تعالى، العامل منهم وغيره، أم لا؟ فأجاب، رحمه الله تعالى، بقوله: الولاية عامة وخاصة، فالعامة ولاية الإيمان، فمن آمن بالله ورسوله وما جاء به فهو ولى، قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (االبقرة: ٢٥٧)، ثم ولاية القيام بالمأمورات واجتناب المنهيات،

(١) صوفى جاء إلى مصر - واستقر بالإسكندرية - من مرسية بالمغرب، وسلك طريق الصوفية مريدا للشيخ أبى الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ١٢٥٨ م).

قال الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يونس : ٦٢) والولاية الخاصة محبة الله للعبد، وحفظه له، لقوله صلى الله عليه وسلم، عن الله عز وجل : «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به»، الحديث. وسيأتى، فالإيمان بداية الولاية، والصديقية القصوى غايتها، وبين الغاية والبداية «مراتب» و«مقامات» و«أحوال» تتفاوت فيها أقدام الرجال، وهى بكل ممدوحة ومطلوبة، لكن المراد حيث أطلقت فى كلام القوم وكتبهم الخاصة، فالعلماء العاملون وغيرهم يطلق عليهم أولياء الله تعالى من حيث دخولهم فى الولاية العامة، وأما الولاية بمعنى القيام بالمأمورات، والولاية الخاصة، فلا تطلق إلا على العلماء العاملين، فقد روى البيهقى فى مناقب الشافعى رضى الله عنه، من طريق الربيع بن سليمان، قال : سمعت الشافعى يقول : إن لم تكن الفقهاء أولياء الله تعالى فما لله ولى. ومراد الشافعى، رضى الله عنه، بذلك : الفقهاء العاملون.

وقال بعضهم، فى الكلام على الكرامات : اعلم أن الكلام فى الكرامات ينحصر فى طرفين : الأول الجواز، والثانى الوقوع، أما الجواز : فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات، لأنه إن لم تكن من الممكنات، فإما أن تكون من الواجبات، وإما أن تكون من المستحيلات، وباطل أن تكون من المستحيلات، فإن المستحيل هو الذى لو قدر وجوده لزم منه محال عقلى، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلى، وباطل أن تكون من الواجبات، إذ الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولى وليا وإن لم تخرق العادة له، فتعين أن تكون من الجائزات، وكل شىء كان من الجائزات فلا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل، ولم يرد بعدم وقوعه نقل، فجائز أن يكرم الله به أولياءه، ثم إن هذه الكرامة قد تكون اطلاعا على كوائن كانت وكوائن ستكون من غير طريق العادة، أو تكثيرا لطعام أو شراب، أو إتيانا بثمرة فى غير أوانها، أو انباع ماء من غير حفر، أو تسخيرا لحيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر فى غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور

العادة، أو إثمارا لشجرة يابسة، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية. وهناك كرامات هى عند أهل الله أفضل منها وأجل، وهى الكرامة المعنوية، كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ فى اليقين، والقوة، والتمكين، ودوام المتابعة، والاستماع من الله والفهم عنه، ودوام الثقة وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وقال بعضهم: اعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل، وقد ورد به النقل، قال أبو بكر فى مرض موته، وزوجته حامل: إن فى بطنك جارية، وكان كما قال، رضى الله عنه. وقول عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق، فسمع سارية صوته، وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو، فأمره بالانحياز إلى الجبل، فانحاز هو والجيش الذين معه فانتصروا وظفروا، وكان قال ذلك وهو فى أثناء خطبته على المنبر، فترك الخطبة وقال: يا سارية الجبل، عاد لخطبته، فجاء بعض الصحابة إلى على، رضى الله عنه، فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذ ترك الخطبة وقال: يا سارية الجبل! ثم عاد إلى خطبته، فقال على: ويحكم! دعوا عمر فإنه ما دخل فى شىء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية، وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر فى الوقت الذى نادى عمر، وقول عثمان، رضى الله عنه، لداخل دخل عليه، وكان قد نظر إلى محاسن امرأة فى الطريق: يدخل أحدهم وآثار الزنى بادية فى وجهه! وأما على ابن أبى طالب، رضى الله عنه، فقد جاء عنه فى هذا الباب العجب العجاب، حتى إنه ذكر أهل الأخبار أنه أرجفه بالكوفة أن معاوية قد مات، فقال على، رضى الله عنه، إذ بلغه: والله ما مات، ولن يموت حتى يملك تحت قدمى هاتين! فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية، وعلموا أن الأمر صائر إليه. وحكايات الأولياء فى كل زمن وقطر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر، فلا يمكن جحده.

ثم أنا أدلك، رحمك الله، على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله، بعد أن يشهد له الرسول، صلى

الله عليه وسلم، أنه إنما ينظر بنور ربه، لا بوجود نفسه، وكذلك قوله فى الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» ـ الحديث ـ إلى آخره، ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب عليه مستغربا، وفى بعض طرق هذا الحديث: «فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا وعقلا ويدا».
ولله تعالى خمس حضرات، وهى حضرة الذات، وحضرة الصفات، وحضرة الأسماء، وحضرة الأفعال، وحضرة الآثار، فمن أحب ذات الله وحدها فمحبته ذاتية، ومن أحب لطفه ورحمته ونحوهما من صفات كماله فمحبته صفاتية، ومن أحب أسماءه، كالحليم، والكريم، ونحوهما، فمحبته أسمائية، ومن أحب إيجاده وإمداده فمحبته أفعالية، ومن أحب بعض الصور التى خلقها فمحبته آثارية، ومحب آثاره محب له.

وأبين لك أمورا تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله، وأن لا تستكثرها عليهم: **الأول:** أن تعلم أن قدرة الله التى، لا يكبر عليها شىء، هى التى أظهرت الكرامات فى هذا الولى، فلا تنظر إلى ضعف العبد، ولكن انظر إلى قدرةالسيد، فجحد الكرامة فى الولى جحد لقدرة القدير، وعمى عن شهود عظمة وصفه سبحانه تعالى، **الثانى:** أنه ربما كان سبب إنكارك الكرامات استكثارها على ذلك العبد الذى أضيفت إليه، مع أن تلك الكرامة التى ظهرت على يدى هذا العبد شاهدة بصدق من العبد تابع له، وهو النبى، صلى الله عليه وسلم، فهى بالنسبة لمن ظهرت على يديه كرامة، وبالنسبة إلى من ظهرت ببركة متابعته معجزة، ولذلك قالوا: كل كرامة لولى فهى معجزة لذلك النبى الذى الولى تابع له، فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظم قدر المتبوع، **الثالث:** أن تعلم أن الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى لأوليائه من الإيمان واليقين، مما أنت مصدق به، ومثبت له، أعظم مما استغربته أو نكرته من الاطلاع على الغيب، ونحو ذلك، فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد من خواص الملك، أعطاه الملك سفطا مملوءا ياقوتا ثمينا، علمت أنت به، وكل ياقوتة تضمنها ذلك السفط تساوى عشرة آلاف دينار، ثم قال ذلك العبد، الذى هو من خواص الملك، أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار، فاستغربت أنت ذلك، فهل يستصوب استغرابك هذا ذو فهم

ولب؟ وما أكرم الله العباد فى الدنيا كرامة بمثل الإيمان، والمعرفة بربوبيته، لأن كل خير من خيرى الدنيا والآخرة فإنما هو فرع الإيمان بالله: من أحوال، ومقامات، وأوراد، وإرادات، ونور، وعلم، وفتح، ونفوذ إلى غيب، وسماع مخاطبة، وجريان كرامة، وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار ورضى الله ورؤيته، ونحو ذلك، إنما هو نتائج الإيمان ووجود آثاره، وإمداد نوره. انتهى.
وقد نظم بعضهم الأمر الخارق للعادة فقال:

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادة ... فمعجزة أن من نبى لنا صدر
وإن بان منه قبل وصف نبوة ... فالإرهاص سمه تتبع القول فى الأثر
وإن جاء يوما من ولى فإنه الكـ ... ـرامة فى التحقيق عند ذوى النظر
وإن كان من بعض العوام صدوره ... فكنوه حقا بالمعونة واشتهر
ومن فاسق إن كان وفق مراده ... يسمى بالاستدراج فيما قد استقر
وإلا فيدعى بالإهانة عندهم ... وقد تمت الأقسام عند الذى اختبر

وقال بعضهم: اعلم أن من الناس من أدركه الخذلان فأنكر كرامات الأولياء أصلا، فنعوذ بالله من هذا المذهب، قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ (المائدة: ٤١)وقيل: إذا أراد الله أن يضل عبدا لم ينصره عقل ولم ينفعه وفور علم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٠٩)ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا فى زمنهم، وكذبوا بكرامات أولياء زمنهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى، رضى الله عنه: وما هى إلا إسرائيلية، وصدقوا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم أدركوا زمنه. وقال بعضهم:

أتقدح فيمن شرف الله قدره ... وما زال محصوصا به طيب الثنا
رجال لهم سر مع الله صادق ... ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

وقيل:

احــذر احـذر أهل القـلوب وسلم　　إنهـم ســادة فــحــول رجـــال

لا يكـن منـك ذرة بـنـكيـــــــر　　فـسيـوف الأحـوال فيـهـا صـقـال

وقيل: الاعتقـاد عطية، والانتقـاد حرمان، كمـا قيل: إن المرء ينتفع حسب اعتقاده، ويحرم بسوء رأيه وانتقاده. وقال بعضهم: عليكم بحفظ لسانكم مع أهل الشرع، فإنهم بوابون لحضرات الأسماء والصفات، وعليكم بحفظ قلوبكم من الإنكار على أحد من الأولياء، فإنهم بوابون لحضرة الذات، وإياكم والانتقاد على عقائد الأولياء بما علمتموه من أقوال المتكلمين، فإن عقائد الأولياء مطلقة متجددة فى كل آن، على حسب الشؤون الإلهية، وقال العارف بالله سيدى على وفاء، قدس الله سره: امتهان العباد المكرمين بعد معرفتهم سم ساعة، فإذا خالط القلب مات لوقته، قال الله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الروم: ٤٧) ولا شك أن الصوفية، قدس الله أسرارهم. كاملو الإيمان، فنصرهم مقطوع به، لأنهم لا ينتصرون لأنفسهم، رضى الله عنهم، تسليما وتفويضا لله تعالى، فيغار الحق سبحانه وتعالى لهم، ويكون هو المحارب عنهم، فقد ورد فى الحديث القدسى: «من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب». ولا شك فى هلاك من حاربه الله تعالى.

وقال بعضهم: من الشهوة الخفية للولى إرادته النصرة على من ظلمه، وقد قال تعالى للمعصوم الأكبر: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ (الأحقاف)، أى فإن الله تعالى قد لا يريد إهلاكهم. انتهى. وقال بعضهم: للولى أربعة شروط: **أحدها**: أن يكون عارفا بأصول الدين، حتى يفرق بين الخلق والخالق، **والثانى**: أن يكون عالما بأحكام الشريعة، **الثالث**: أن يتخلق بالخلق المحمود الذى يدل عليه الشرع أو العقل، **الرابع**: أن يلازم الخوف أبدا، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما اتخذ الله من ولى جاهل، ولو اتخذه لعلمه» قال القشيرى، رحمه الله: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الأقوال والأفعال، والأكل من الحلال. وصدق النية فى جميع الأعمال. .

* * *

ـ (رجع) ـ وقال بعضهم فى الوصية بالوالدين :

قضى اللـه أن لا تعبدوا غـيره حـقا	**وبالبـر والإحـسان فى ذكـره أومـا**
وأوصـاكـمـوا بالوالدين فـبـالغـوا	**ببـرهما فـالأجر فى ذاك والرحـمى**
فكـم بذلا مـن رأفـــة ولـطافـــة	**وكم منحا عند احتياجك من نعمى**
وأمك كم باتـت بثـقـلك تشـتكى	**تواصل مماشـفـهـا البؤس والغـمـا**
وفى الوضع كم قاست وعند ولادة	**أمورا تذيب اللحم والجلد والعظما**
وكم سهـرت وجدا عليك جفـونها	**وأكبادها حزنا بـجمر الأسى تحمى**
وكم غـسلت عنك الأذى بيـمينهـا	**حنوا وإشـفـاقـا وأكثـرت الضـمـا**
وأنت قـــريـر العـــين ريان نـاعم	**مكب على اللذات لا تسـمع اللوما**
فـبـالوالـدين البـــر أوجب واجب	**ويا ويح من يـعـصى أباه أو الأمـــا**

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم : «اثنان يعجل الله تعالى عقوبتهما فى الدنيا لفاعلهما : «البغى» ـ أى مجاوزة الحد، يعنى التعدى بغير حق ـ و«عقوق الوالدين» ـ أى إيذاؤهما وعصيانهما ـ وقال بعضهم : خمسة أشياء من داوم عليها تزيد فى حسناته مثل الجبال الرواسى، ويوسع الله عليه رزقه : من داوم على الصدقة قليلها وكثيرها، ومن وصل رحمه، ومن داوم على الجهاد فى سبيل الله، ومن داوم على الوضوء ولم يسرف فى الماء، ومن أطاع والديه وداوم على طاعتهما، وقال صلى الله عليه وسلم : «من زار قبر والديه، أو أحدهما، يوم الجمعة، فقرأ عنده يس غفرالله له» . وفى (الإحياء) : قال صلى الله عليه وسلم : « من زار أبويه كل جمعة غفر له، وكتب بارا» . وقال بعضهم : إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما، فيدعو الله لهما من بعدهما، فيكتبه الله عز وجل من البارين، ثم إن الشخص إذا زار الموتى، أو زار أبويه، يخاطبهم خطاب الحاضرين، فيقول ـ كما فى خبر أبى داود : السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . وكنى بالدار عن أهلها . وعن أبى شيبه، عن الحسن، أنه قال : من دخل المقابر فقال : اللهم رب هذه الأجساد البالية، والعظام النخرة، التى خرجت من الدنيا وهى مؤمنة بك،

أدخل عليها روحا [1] من عندك، وسلاما منى. استغفر له كل من مات منذ خلق الله آدم.

وعن أبى الأسود الدؤلى، قال: قدمت المدينة، وقد وقع بها مرض، فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا، فقال عمر: وجبت، ثم مرت أخرى فأثنى على صاحبها شرا، فقال: وجبت، قال أبو الأسود: وما وجبت ياأمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال عليه الصلاة والسلام: «أيما مسلم يشهد له أربعة بخير إلا أدخله الله الجنة» قلنا: وثلاثة؟ قال: «وثلاثة»، قلنا: واثنان؟ قال: «واثنان». ثم لم نسأله عن الواحد. أخرجه البخارى والنسائى. وفى خبر آخر فقال عمر: يا رسول الله، ماوجبت؟ فقال عليه الصلاةوالسلام: «أنتم شهداء الله فى الأرض، فمن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار». وروى عن أبى هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يرويه عن ربه، عز وجل: «ما من عبد مسلم يشهد له ثلاثة أو اثنان بخير إلا قال الله، عز وجل: قد قبلت شهادة عبادى على ما علموا، وغفرت له ما أعلم». رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، وعن ابن عباس أنه مات ابن له«بقديد» [2] أو «عسفان»[3] فقال لبعض أصحابه: انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا أناس قد اجتمعوا، فأخبرته، فقال: هم أربعون؟ قلت: نعم، قال: أخرجوه، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه». رواه مسلم. وعنه صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يجمع، وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبت لمن أيقن بالآخرة كيف يستريح، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وزوالها كيف يطمئن إليها، وعجبت لمن هو عالم باللسان جاهل بالقلب، وعجبت لمن يطهر بالماء وهو غير طاهر القلب، وعجبت لمن يشتغل بالناس وهو غافل عن عيب نفسه، وعجبت لمن يعلم أن الله مطلع عليه كيف يعصيه، وعجبت لمن يعلم أنه يموت وحده ويدخل القبر وحده

(١) والروح بفتح الراء. (الطهطاوى).
(٢) موضع قرب مكة.
(٣) عسفان: مكان بين الجحفة ومكة.

ويحاسب كيف يستأنس بالناس». قال القرطبى، فى تذكرته: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، والنشاط فى العبادة، ومن نسى ذكره عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل فى العبادة. والكفاف الحالة الوسطى ما بين الغنى والفقير.

قيل: وجدت رقعة تحت وسادة الإمام حجة الإسلام الغزالى(١)، رحمه الله، فيها هذه الأبيات:

قل لإخوان رأونى ميتا ... فبكونى ورثونى حزنا
لا تظنونى بأنى ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصور وهذا جسدى ... كان بيتى وقميصى زمنا
أنا كنز وحجابى طلسم ... من تراب قد تخلى للفنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... طرت عنه فتخلى وهنا
أحمد الله الذى خلصنى ... وبنى لى فى المعالى سكنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجى ملأ ... وأرى الله جهارا علنا

---

(١) والغزالى هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الطوسى، الجليل، أبوحامد الغزالى، حجة الإسلام، ومحجة الدين التى يتوصل بها إلى دار السلام، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وكانت وفاته بها يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، وقد أطال السبكى فى طبقاته بما يليق بمقامه الكريم، وذكر كرامات له لاينكرها إلا حاسد أو زنديق لئيم، ومما أنشده أبو حفص عمر ابن عبد العزيز لنفسه يمدح الغزالى:

هذب المذهب حبر ... أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ... ووجيز وخلاصه

و نقل المناوى فى طبقات الأولياء أن كتب الإمام الغزالى التى صنفها وزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس ومن كلامه رضى الله عنه: جلاء القلوب وإبصارها يحصل بالذكر، ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الكبير. وقال: متى رأيت إنسانا سيء الظن بالناس، طالبا للعيوب، فاعلم أنه خبيث فى الباطن، والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق. وقال: من الذنوب ما يورث سوء الخاتمة، وهو ادعاءالرجل الولاية مع فقدها منه.
وعن الشاذلى رضى الله عنه: من كانت له إلى الله حاجة فليتوسل إليه بالغزالى، ونقل فى المصباح عن سبط الإمام الغزالى أنه أخبره أن الإمام المذكور منسوب إلى غزالة، قرية من قرى طوس، قال لى: أخطأ الناس فى تثقيل اسم جدنا، وإنما هو مخفف نسبة لما ذكر.

عـاكـفـا فى الـلوح أقـرأ وأرى | كـل مـا كـان ويـأتى ودنـا
وطعـامى وشـرابى واحـد | هو رمـز فـافـهـموه حـسنا
ليس خـمـرا سـائغا أو عـسلا | لا ولا مـاء يـرى أو لـبـنـا
فـافهـموا السر فـفـيـه نبـأ | أى مـعـنى تحت لـفظى كنـا
لا تـظـنوا الموت مـوتـا أنـه | لحـيـاة هو غـايات المنى
حـى هذا الـدار مـيت نـائم | فـإذا مـات أمـات الوسـنا
لا تزعكـم هجـمـة الموت فـمـا | هـو إلا مـن هـنـا إلـى هـنـا
اجـهـدوا فى الزاد والسيـر فـمـا | لـيس بـالعـاقـل منـا من ونـى
أحـسنوا الـظـن برب راحـم | يشـكر الـسـعى ويـولى مـننـا

ومن بر الوالدين بعد موتهما أن يأتى بما يسرهما من الطاعات لله تعالى وغيرها مما ليس بمنهى عنه، ومنه الإحسان إلى صديقهما، قال صلى الله عليه وسلم:

«إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه». قال الشاعر:

خـالل خلـيل أبـيك وارع وداده | واعلم بـأن أخـا أبيك أخـوكـا
وبـنوك ثـم بـنو أبـيك فـكـن بهـم | برا فـإن بـنى أبـيك بـنوكـا
والطف بجـدك عطفـة وترحـمـا | وارحم فـإن أبـا أبـيـك أبوكـا

وللوالد حقـوق على ولده، زيادة على ما ذكـر: **الأول**: إذا احـتـاج إلى الطعـام أطعمه؛ **الثانى**: إذا احتاج إلى الكسوة كساه إن قدر عليها، **الثالث**: إذا احتاج إلى الخدمة خدمه، **الرابع**: إذا دعاه أجابه وحضره، **الخامس**: إذا أمره بأمر غير معصية أطاعه، **السادس**: أن يتكلم معه باللين وخفض الصوت ولا يتكلم معه بالغلظ، **السابع**، **والثامن**: أن لا يدعوه باسمه فيقول: يا فلان، بل: يا أبت، أو: يا والدى، ولا يستسب له، ولا يمشى أمامه، ولا يجلس قبله، ويدعو له بالمغفرة كما يدعو لنفسه، ويرضى له ما يرضى لنفسه. وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم:

«لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تسبسب له» ـ (أى لا تعرضه للسب وتجره إليه بأن تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك) ـ وقد جاء مفسرا فى الحديث الآخر «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه». قيل: وكيف يسب والديه؟ قال: يسب الرجل، فيسب أباه وأمه».

ومن حقوق الوالدة على الولد: أن لا يدخل عليها إلا بإذن، فقد روى الإمام مالك فى (الموطأ) أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سأله رجل فقال: يا رسول، استأذن على أمي؟ فقال: «نعم»، قال الرجل: إنى معها فى البيت؟ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «استأذن عليها»، فقال الرجل: إنى خادمها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها». والاستئذان ثلاث مرات، فقد روى الإمام مالك، عن بكير بن عبدالله بن الأشبح، عن أبى سعيد الخدرى، عن أبى موسى الأشعرى، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «الاستئذان ثلاث مرات، فإن أذن لك فادخل، إلا فارجع».

* * *

وأما الحقوق التى للعباد بعضهم مع بعض، فهى: أن يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويبر قسمه إذا أقسم عليه، وينصحه إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. وقال صلى الله عليه وسلم: «عائد المريض يمشى فى مخرفة[1] الجنة حتى يرجع». رواه مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «عائد المريض يخوض فى الرحمة، ومن تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على وجهه أو على يده فيسأله: كيف هو؟ وتمام تحيتكم بينكم: المصافحة.» رواه أحمد عن أبى إمامة. وقال صلى الله عليه وسلم: «عودوا المرضى، ومروهم فليدعوا لكم، فإن دعوة المريض مستجابة، وذنبه مغفور».

---

(١) والمخرقة: البستان، وسكة بين صفين من نخل يخترق المخترق من أيهما شاء. (الطهطاوى).

وقيل: فى المرض ست خصال ما ينبغى للعبد أن يجحدها، فمنها: تنقية الجسم، وتمحيص الذنوب، وتذكير بالنعم فى حال الصحة، واستدعاء بالتوبة، وحث على الصدقة. وقال بعضهم: الذل فى ثمانية أشياء: فى العليل، والمحزون، والكذب، والغربة، والمديون، والفقير بين الأغنياء، والجاهل بين العلماء، ومن ترادفت عليه المصيبات.

* * *

ويجوز للوالد استخدام ولده الصغير، وضربه فيما فيه تدريب له وتأديب، وتعليمه فى صغره ما يلزم لإصلاح حاله. وقال بعضهم، عند قوله صلى الله عليه وسلم: «فغطنى الثالثة»، فى حديث بدء الوحى، إنه لا يجوز للمعلم الزيادة على ثلاث ضربات. ونهى صلى الله عليه وسلم أن يضرب المعلم الصبيان بالعود وباليد فوق ثلاث، وما زاد على ذلك فهو قصاص يوم القيامة، ولا يضرب بالدرة إلا ثلاثا.

وقيل:

إن حق التأديب حق الأبوة ... عند أهل الحجا وأهل الفتوه

وأحق الرجال أن يحفظوا ذا ... ك ويرعوه أهل بيت النبوه

وقيل:

بنى استقم فالعود تنمو عروقه ... قويما ويعروه إذا ما التوى التوى

وعاص الهوى المردى فكم من محلق[1] ... الى النجم إلا أن أطاع الهوى هوى

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر، والتعلم فى الكبر كالنقش على الماء».

وقيل:

تعلم يا فتى والعود رطب ... وجسمك لين والطبع قابل

فحسبك يا فتى شرفا وفضلا ... سكوت الحاضرين وأنت قائل

---

(١) المحلّق: ـ بكسر اللام المشددة ـ العالى الرفيع الذى وصل إلى ما لم يصله غيره. [الطهطاوى].

ومن الأخلاق المذمومة فى الشيوخ والصبيان: عدم الحياء، فربما تقوى قلةالحياء فى الطفل إذا لم يجد من يردعه عن ذلك لتزول عنه هذه الصفة إن كانت طارئة عليه، وتضعف إن كانت عنصرية، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن شر الناس عند الله من خافه الناس اتقاء فحشه».

وروى البخارى: عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». والأمر فيه للتهديد والتوبيخ، فإذا ارتفع الحياء منعت النفس ما تهوى، ومعنى الحياء، شرعا: خلق يبعث الإنسان على ترك القبيح، ويمنعه من التقصير فى حقه تعالى. قال العلماء، رحمهم الله: إن قوله: «مما أدرك الناس من كلام»، أى شرائع «النبوة الأولى»، يعنى ما اتفقت عليه الأنبياء، لأنه جاء فى شريعة آدم، واتفقت عليه بقيةالشرائع، فما من نبى من الأنبياء إلا وندب إليه، وحث عليه، ولم ينسخ فى شريعة من الشرائع، لأنه أمر قد علم صوابه، وظهر فضله، واتفقت عليه، العقول، وتلقته جميع الأمم بالقبول.

ويدخل فى جملة الحياء من الله ثم من الناس ستر العورة، فقد روى البيهقى، عن أنس، أنه قال: خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوما إلى غنم له، وفيها أجير له يرعاها، وإذا بالأجير متجرد من ثيابه فى الغنم، فدعاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: «كم لك عندنا من الأجرة؟» فقال: يا رسول الله، لم أحسن الرعاية والولاية؟ قال: «لا أحب أن يكون فيها من لا يستحيى من الله». ودخل محمد بن عبد الرحمن الحمام فرأى بعض إخوانه عريانا، فغمض عينيه، فقال له العريان: مذ كم عميت؟ فقال له: منذ هتك الله سترك! وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يستحى من عبد يشيب فى الإسلام أن يعذبه، أفلا يستحى الشيخ من الله تعالى أن يذنب وقد شاب فى الإسلام». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش». وقيل:

فلا تفخر على أحد بظلم ... فإن الظلم مرتعه وخيم
ولا تفحش وإن ملئت غيظا ... على أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخـــا لـك عنـد ذنب　　فـــإن الذنـب يغـــفـــره الكـريم

ومـــا جـــزع بمغن عنك شـيـــئـــا　　ولا مـا فـات ترجعـه الهـمـوم

وورد عنه صلى الله عليـه وسلم: «إن الله إذا أحب عـبـدا ـ (أى أراد به خيـرا ووفقه) ـ دعا جبريل وقال: إنى أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء ويقول ـ: ـ إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبـول فى الأرض. وإذا بغض عـبدا ـ (أى أراد به شرا أبعده عن الهداية) ـ دعا جبريل فقال: إنى أبغض فلانا فابغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء ويقول: إن الله يبغض فلانا فابغضوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء فى الأرض» فيبغضه أهلها جميعا، فينظرون إليه بعين الازدراء فتسقط مهابته من النفوس وإعزازه من الصدور من غير إيذاء منه لهم ولا جناية عليهم، فالعزيز من أعزه الله والذليل من أذله الله. قال الإما م الشافعى، رضى الله عنه:

إذا أكـرم الرحـمن عـبـدا بعـــزه　　فلم يـقـدر المخـلوق يومـــا يهـــينه

ومن كـــان مـــولاه العـــزيـز أهانه　　فـــلا أحـد بالعـــز يومـــا يـعــينه

روى الترمذى، عن عبدالله بن عباس، رضى الله عنهما، أنه قال: كنت خلف النبى، صلى الله عليه سلم، فقال: «يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك ـ (وفى رواية أمامك أى معك) ـ وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلاّ بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».
قال العلماء، رحمهم الله: قوله فى الحديث «إحفظ الله»: أى احفظ دين الله من التضييع والتبديل، بأن تحفظ أوامره التى أوجبها ونواهيه التى حرمها، فتقف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، فلا يراك حيث نهاك، فإذا أطعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أحاطك بمعقبات من بين يديك ومن خلفك يحفظونك من أمر الله، وحقيقة صيانة المحفوظ من الضياع أن لا تصل إليه أذية وضرر،

فيحفظك فى نفسك وأهلك ومالك، ومصداق ذلك قوله تعالى﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل : ٩٧)، وما يصيب الإنسان من نواكب ونوائب فإنما هو بتضييعه أوامر الله، وتعديه حدوده، بشهادة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى : ٣٠)، فمن حفظ الله فى صباه وقوته حفظه الله فى كبره، ومنعه بحوله وقوته، وقد قيل : إن القاضى أبا الطيب عاش مائة وستين سنة فلم يختل عضو من أعضائه، فسئل فى ذلك فقال : لم أعص الله بعضو منها! ويتعدى الحفظ إلى ذريته، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ (الكهف ٨٢)، وكان سعيد بن المسيب [١] يقول لولده : إنى لأزيد فى صلاتى من أجلك رجاء أن تحفظ، ثم يتلو ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾. وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما من مؤمن صالح يموت إلا حفظ الله عقبه وعقب عقبه. وقد يتعدى الحفظ إلى جيرانه وأهل ناحيته. لقول ابن المبارك : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التى حوله. انتهى. ورواية غير الترمذى «تعرف إلى الله» أى تقرب إلى الله بلزوم الطاعات والإنفاق فى القربات والشكر على ما أولاك - «فى الرخاء» - أى فى سعة الرزق وصحة البدن - «يعرفك فى الشدة» - بتفريج الهموم والغموم ويجعل لك من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا - «واعلم أن ما أخطأك» - مما قدر فى الأزل من خير أوشر - « لم يكن ليصيبك» - أى يصل إليك - «وما أصابك» - مما قدر فى الأزل من خير أو شر - «لم يكن ليخطئك»، إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قدر عليه، وهذا حث من النبى صلى الله عليه وسلم على التوكل على الله تعالى، والرضى بما قدره، ونفى الحول والقوة، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله. وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «إن الله إذا أراد بعبده الشر - وفى رواية «شرا» - أمسك عنه بذنبه حتى وافى به يوم القيامة». أى لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجيء فى الآخرة متوفر الذنوب وافيها فيستوفى ما يستحقه من العذاب، وهذا الحديث له تتمة وهى : «إن عظم الجزاء مع

---

(١) أفقه فقهاء التابعين بالمدينة، وأحد سبعة انتهت إليهم الرياسة فى الفتيا والقضاء. انظر ترجمته فى (الطبقات الكبرى) لابن سعد. جـ ٢ قسم ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩. طبعة القاهرة.

عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط.» وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل عذاب الأمة فى دنياها». وقال بعضهم: وقد جعل الله سبحانه وتعالى لقبضة السعادة أهلا، ولقبضة الشقاوة أهلا، فإذا تحرك صاحب قبضة السعادة جاءته العناية الأزلية، وسارت به على فلك التقريب إلى ما فيه سعادته الأخروية، وإذا تحرك صاحب قبضة الشقاوة جاءته الوساوس الشيطانية وقطعته عن إدراك الرتبة العلية، كل ذلك بمحض التقدير والإرادة الكائنين فى اللوح المحفوظ عن النقص والزيادة، فالطاعة به والعصيان، لكنه لا يرضى بالمعصية لإنسان..

إذا قدر الله الأمور على امرىء جرى ذلك المقدور حتما على العبد
فكم نصح المختار حقا لعمه فجاء له القرآن: إنك لا تهدى

وعن بعضهم: ما أوتى أحد بعد الإيمان أفضل من الصبر على الأذى. وعن عيسى، صلوات الله وسلامه عليه: من احتمل كلمة سفه كتب له عشر حسنات.

وقيل:

إذا ما هجانى ناقص لا أجيبه فإنى إن جاوبته فلى الذنب

وقيل:

وجدت الرفق أبلغ فى السمو ولم أر كالتواضع فى العلو
ومن بسط اللسان على عدو كمن دفع السلاح إلى العدو

وروى أبو هريرة، رضى الله عنه، انه عليه الصلاة والسلام قال: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: يا رسول الله، المفلس فينا من لا درهم له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، وكان قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا.» وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا**﴾ (الأنفال: ٤٦)وقيل: المخاصمة تكدر العيش، وتعقب الندم، وتمرض القلب، وتذهب الحياء، وتجسر عليك من كان

يهابك. وقيل: جرح اللسان لا يبرأ، وجمرة الحمية لا تطفأ، ونار الحقد لا تخمد، وعين العداوة لا ترقد، فلا توغر عليك صدرا، ولا تفعل ما يجلب إليك شرا، فإن قبيح الكلام سلاح اللئام. وقيل:

لاتنبش الشر فتبلى به ... واحذر على نفسك من نبشه
مواقع البغى لها مصرع ... تنكس السلطان عن عرشه

وسب رجل رجلا فلم يلتفت إليه، فقال: يا هذا، إياك أعنى! فقال: وعنك أعرض! وروى عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «مكارم الأخلاق من أعمال الجنة». وقال صلى الله عليه وسلم: «سب المؤمن فسوق، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله». رواه مسلم. ونهى صلى الله عليه وسلم أن يستهزئ الرجل الغنى بالفقير، وقال: «تستهزئ به ملائكة الله يوم القيامة».

وقيل:

أحب مكارم الأخلاق جهدى ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا

وقيل:

خاصمنى من سكت عنه ... فظن أن ليس لى لسان
فقلت: ما أنت لى بخصم ... وإنما خصمى الزمان

وقبل:

إن الضرورة للإنسان حاملة ... على خلاف الذى يهوى ويختار

ومن أمثال العرب: من غربل الناس نخلوه. ومعناه: من فتش على أحوالهم وأمورهم جعلوه نخالة. وقيل:

لا تهتكن من مساوى الناس ما ستروا فـيـهتك الـله سـترا من مـسـاويكا
واذكـر محـاسن مـا فـيهم إذا ذكـروا ولا تعب أحــدا منهـم بما فــيكا

وقيل:

قـبـيـح على الإنسـان ينسى عـيـوبه ويذكـر عيـبا فى أخـيه قـد اختـفى
فلو كــان ذا عـقل لمـا عـاب غـيـره وفـيـه عيـوب لو رآها بهـا اكـتـفى

وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «الحياء خير كله». وروى عنه أيضا: «الحياء حسن، ولكنه من النساء أحسن». وقال بعضهم: من الأدب ترك الأدب عند من لا يحتشمك ولا يحترمك. قيل لبعضهم: من أدّبك؟ فقال: لم يؤدبنى أحد، وإنما رأيت جهل الجاهل فتجنبته، ورأيت أدب العاقل فأحببته وسلكته. ويقال: شخص بلا أدب كلفظ بلا معنى وجسد بلا روح. وقيل: من لا أدب له لا علم له. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسى، قيل له: فكيف ذلك؟ قال: كنت إذا كرهت شيئا من غيرى لا أفعله بأحد مثلى. قيل: إن الحلم أفضل خصال الملوك، ولم ير على الإطلاق أحلم من رسول الله، صلى الله عليه وسلم. روى أنه لما انكسرت رباعيته فى غزوة أحد، وأدمى وجهه، قال: «كيف تفلح أمة خضبت وجه نبيها؟ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون!» فشق ذلك على أصحابه، فقالوا: لو دعوت عليهم؟ فقال: «إنى لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة» فهو نبى ما أحلمه، وشفيع ما أعظمه، وشفوق ما أشفقه، وكريم ما أرفقه، صلى الله وسلم عليه، وزاده شرفا وكرما لديه. وقال صلى الله عليه وسلم: «أتانى آت من عند ربى، فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئا». وقال صلى الله عليه وسلم «أدبنى ربى فأحسن تأديبى». وعنه صلى الله عليه وسلم: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقيل لابن عباس، رضى الله عنهما: من أجود الناس؟ ومن أحلمهم؟ ومن أبخلهم؟ ومن أسرفهم؟ فقال: أجود الناس من أعطى من غير طلب، وأحلمهم من عفا عمن ظلم، وأبخلهم من بخل بالصلاة والسلام على النبى، صلى الله عليه وسلم، وأسرفهم من يسرف فى صلاته.

وأوصى حكيم ولده، فقال: يا بنى، إن أصعب ما على الإنسان أن يكون فيه ستة أشياء: أولها: أن يعرف نفسه، ويعلم عيبه، ويكتم سره، ويهجر هواه، ويخالف شهوته، وأن يمسك عما لا يعنيه. وعن أبى هريرة رضىَ الله عنه، قال: دخلت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، أوصنى، فقال: «يا أبا هريرة، أوصيك بست كلمات فيهن ستمائة كلمة، إذا اشتغل الناس بالفضائل اشتغل أنت بالفرائض، وإذا اشتغل الناس بالخلق استغنى أنت بالخالق، وإذا اشتغل الناس بالعلم اشتغل أنت بالعمل، وإذا اشتغل الناس بالظاهر اشتغل أنت بالباطن، إذا اشتغل الناس بعمارة الدنيا اشتغل أنت بعمارة الآخرة، وإذا اشتغل الناس بالعيوب اشتغل أنت بعيب نفسك». وقال صلى الله عليه وسلم: «من رد عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». رواه الترمذى عن أبى الدرداء. وقيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله

قال ابن المعتز: النصح بين الملأ تقريع، كما قيل:

تعمدنى بنصحك فى انفرادى ... وجنبنى النصيحة فى الجماعة
فإن النصح بين الناس ضرب ... من التقريع لا أهوى سماعه
فإن خالفتنى طلبا لنقصى ... فلا تغضب إذا لم أعط طاعة

وأوصى حكيم ولده، فقال: يا بنى، تزود من الدنيا خمسة أشياء تبلغك للبعث وتؤنسك عند الوحدة: كف الأذى، وحسن الخلق، والصدق، والنصح، والبر. وورد عنه صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمةالمسلمين وعامتهم».

وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم» ـ أى لا يمكنكم ذلك ـ «ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق». أى لا تسع

أموالكم لعطائهم فوسعوا أخلاقكم لصحبتهم. وكان صلى الله عليه وسلم يكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ولا يقول إلا حقا. وعنه صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر». وقال الإمام الشافعى: لا علم إلا مع التقى، ولا أدب إلا مع العقل. وقال بعض العلماء: العقول أربعة: عقل الإيمان بالاستقامة، وعقل العلم بالاجتهاد، وعقل الأدب بصحبة الصالحين، وعقل العيش بالتدبير. وقال بعضهم: ثمانية إن أهينوا فلا يلومون إلا أنفسهم: الجالس على مائدة لم يدع إليها، والمتكبر على رب البيت، وطالب الخير من أعدائه، وطالب الود من اللئام، والداخل بين اثنين فى حديثهما، والمستخف بالسلطان، والجالس مجلسا ليس له أهلا، والمقبل بحديثه على من لم يسمع منه.

وقيل:

بكل تداوينا فلم نر نعمة ... أعز من النفس العزيزة والعقل

ونهى صلى الله عليه وسلم أن يدخل أحد إلى طعام لم يدع إليه. وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من دخل إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقا، وخرج معيرا». وروى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لا تصغر همتك فإنى لم أر أضر بالرجل من صغر همته. وقيل: على قدر المرء تكون همته، وقيمة كل امرئ همته.

(التفاضل فى الأرزاق والعقول)

وكما فضل الله العالمين بعضهم على بعض فى الرزق وكثرة المال، كذلك فرق بين العالمين فى العقول، ومنحهم منه ما شاء من كثير وقليل، فعقول الأنبياء والملائكة أكثر من عقول العلماء، وعقول العلماء أكثر من عقول العوام، وعقول العوام أكثر من عقول النساء، وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان. وقيل: العاقل من نفسه فى تعب، والناس منه فى راحة، والجاهل عكس ذلك. وقال الحارث بن

أسد المحاسبى[1] : لكل شىء جوهر وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر . ومن كلامهم : الصبر لا يتجرعه إلا حر . وقيل :

سأصبر حتى يعلم الناس أننى ... صبرت على شىء أمر من الصبر

وما أحسن الصبر الجميل مع التقى ... وما قدر المولى على خلقه يجرى

ولو أن ما بى بالجبال لهدمت ... وبالنار أطفاها وبالريح لم يسر

ومن قال إن الدهر فيه حلاوة ... فلا بد من يوم أمر من المر

وقال بعض الملوك لوزيره : ما خير ما يرزقه العبد؟ قال : عقل يعيش به، قال : فإن عدمه؟ قال : أدب يتحلى به، قال : فإن عدمه؟ قال : مال يستره، قال : فإن عدمه؟ قال : موت يريح منه العباد والبلاد! وقيل : ليس الفتى من يفتخر بقومه وأهله، وإنما الفتى من يفتخر قومه بفضله، فالدر لا تضره كثافة الصدف وملوحةالبحر، والشوك لا ينفعه شرب ماء المزن ولا مجاورة لطيف الزهر، فالعاقل لا يفتخر بالنسب، وإنما يفتخر بنسب الأدب، فإنما الرء ابن نفسه، إذ بها يعلو ويسفل بين أبناء جنسه، كما قيل :

نفس عصام سودت عصاما ... وعلمته الكر والإقداما

وصيرته ملكا هماما

وقيل :

رأيت العز فى أدب وعلم ... وفى الجهل المذلة والهوان

كفى بالمرء ذما أن تراه ... له وجه وليس له لسان

قال المقريزى [2]، فى رسالة له : إن لكل شىء غاية ، فغاية المعدن أن يصير

---

(١) أبو عبدالله الحارث (٧٨١ ـ ٨٥٧ م) صوفى، استمد أصول التربية الصوفية من الكتاب والسنة، وكان عالما فى الأصول، وتسميته بالمحاسبى راجعة إلى مذهبه فى محاسبة النفس، الذى أخذ به نفسه ومريديه فى حياتهم الروحية.

(٢) تاج الدين أحمد بن على (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م) مؤرخ مصرى، اشتغل بالمناصب الإدارية ثم تفرغ للدرس والبحث والتأليف، ومؤلفاته التاريخية هى أبرز الأعمال التى أرخت للدولة المملوكية. وللمقريزى كتب فى النقود ودراسة عن المجاعات فى مصر تدل على سبق وعبقرية فى علم الاقتصاد.

ذهبا، وغاية النبات النخلة، وغاية الحيوان الإنسان، وغاية الإنسان أن يكون عالما، وغاية العالم أن يكون كاملا فى وقته، باقيا بذكره.

وقيل: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وقيل: عقول الناس على قدر أزمنتهم، فالكامل هو الذى يحرص على بقاء ذكره الحسن. قال الله تعالى، حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ** ﴾ (الشعراء: ٨٤)، وقد منّ الله تعالى على نوح، عليه الصلاة والسلام، بقوله: ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ** ﴾ (الصافات: ١٠٨)، تركحنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة، ومَنَّ الله تعالى على رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، بقوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ (الزخرف: ٤٤)، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: يعنى أن القرآن الشريف شرف لك ولقومك، وقال تعالى على نبيه: ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ (الشرح: ٤)، أى إذا ذكرت ذكرت معى. وعن نبى الله سليمان ابن داود، عليهما الصلاة والسلام: الذكر الجميل خير من الرائحة الطيبة، والإنسان يوم يموت خير من يوم يولد، لأن الرائحة الطيبة قد لا تبلغ ربع ميل، والثناء الحسن والصفات الجميلة قد تبلغ أقصى الآفاق، وذلك أن الإنسان ما دام حيا يزهد فيه نظراؤه، فإن النفوس كأنها ظافرة به، ومن شأن المرء أن يزهد فيما ظفر به، لأنه فى يده، وقد أمن من فوته، وأن يحرص على طلب ما غاب عنه ويرغب فى تحصيله، فإذا مات الإنسان فقد فات، فتلهج الألسنة حينئذ بنشر أخباره وآثار فضله ونشر مآثره وإذاعة محاسنه، حتى كأن موته سبب لإشهار فضائله أكثر من إشهارها فى حياته. كما قيل:

المرء ما دام حيا يستهان به ... ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

وقيل:

وما ينفع الإنسان مما يحوزه ... إذا فارق الدنيا سوى طيب ذكره

وقيل:

وما تنفع الآداب والعلم والحجا ... وصاحبها عند الكمال يموت

وقيل :

وللخيـر أهل لم تكن أقعـدتهم عن الخير فيـمن أقعـدته الطبـائع
وللشـر أهل قـد تشـيـر إليـهم على كل حـال بالأكف الأصـابع

فالقول بأن يوم وفاة المرء خير من يوم ولادته إنما يراد به أن الإنسان حصل على الغاية، وغاية الإنسان : إما عالم باق أو جاهل غير متبع، فولادة الإنسان إنما هى ليكون له صدق فى الآخرين بحسن السيرة، فإن الفضائل كانت فيه وقت ولادته بالقوة، فإذا صارت له الفضائل بالفعل استحق الثناء عليه أيام حياته، وكثر انتشار فضائله بعد مماته، وانتشارها بعد مماته حياة باقية يتوجه إليها الصالحون، ويرغب فيها العارفون، فيوم كمال الغاية المطلوبة والفضيلة المتوجه إليها أكمل من يوم ولادته.

ومما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أهان خمسا خسر خمسا، من استخف بالعلماء خسر الدين، ومن استخف بالأمراء خسر الدنيا، ومن استخف بالأقارب خسر المروءة، ومن استخف بالجيران خسر المنافع، ومن استخف بأهله خسر طيب عيشه». قال الإمام القسطلانى[1]، رحمه الله : إذا ظهر الجاهل واستقل بالعالم، وصدق الكاذب، وائتمن الخائن واستحلت العلماء الرخص، واستحل الناس الحرام من تلقائهم، فقد محى الورع، وانقطع الزهد، ووجب الاعتزال.

* * *

ـ (رجع) ـ وكذلك يدعو التلميذ لأستاذه ولوالديه، وكذلك يفعل كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته أو مقابلته فى حضور أستاذه أو فى غيبته، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضا، ويدعو الأستاذ للتلميذ أيضا كما دعا له، وإن ترك التلميذ الاستفتاح بما ذكر، جهلا أو نسيانا، نبهه عليه وعلمه إياه وذكّره، فإنه من أهم الأدب. وقال بعضهم :

عـلـم الـعـلـم مـن أتـاك لـعـلـم واغـتـنم مـا حـيـيت منه الـدعـاء
وليكـن عندك الفـقـيـر إذا مـا طـلب الـعلـم والغـنى سـواء

---

(١) مصلح الدين مصطفى (المتوفى سنة ١٤٩٥ م) فقيه وقاض فى ا لدولة العثمانية، اشتغل بعلم الكلام، وخلف لنا شروحا على كتب العقائد للنسفى والتفتازانى.

وقيل:

وكم من جاهل أمسى أديبا ... بصحبة عالم وغدا إماما
كماء البحر مر ثم تحلو ... مذاقته إذا صحب الغماما

وقيل: من لم يتحمل ذل التعليم ساعة، بقى فى ذل الجهل أبدا. ومما ينسب للإمام الشافعى رضى الله عنه:

فإن يسر الله الكريم بفضله ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم ... وإلا فمخزون لدى ومكتتم
ومن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقال صلى الله عليه وسلم: «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله». ولبعضهم:

إذا شئت أن تبكى فقيدا من الورى ... وتندبه ندب النبى المكرم
فلا تبكين إلا على فقد عالم ... يبالغ فى التعليم للمتعلم
وفقد إمام عادل صان ملكه ... بأنوار حكم الله لا بالتحكم
وفقد شجاع صادق فى جهاده ... وقد نشرت أعلامه للتقدم
وفقد ولى حافظ الود والوفا ... مطيع لرب العالمين معظم
وفقد سخى لا يمل من العطا ... يفرج هم الكرب عن كل معدم
كذا زوجة ترعى أمانة بعلها ... ولو غاب عنها مدة الدهر أو عمى
فهم سبعة يبكى عليهم وغيرهم ... إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم

قال بعضهم: فإن موت العلماء من المصائب الكبرى، والنكائب العظمى، إذ هم أقمار الدنيا وشموسها، وبذهابهم تخسف الأقمار والشموس، وبموتهم تقل العلوم وتدرس الرسوم، فما ورد من ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ**

﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١)، قالوا: هو موت العلماء. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يرفع العلم انتزاعا، وإنما يرفعه بموت أهله». ومن ذلك ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم: «إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم، يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. فإذا النجوم انطمست يوشك أن تضل الهداة». وعنه صلى الله عليه وسلم: «من لم يحزن لموت العالم فهو منافق». وقوله صلى الله عليه وسلم: «خيار أمتى علماؤها، وخيار علمائها حلماؤها».

وقال صلى الله عليه وسلم: «وقروا من تعلمون منه العلم، ووقروا من تعلمونه العلم». رواه البخارى فى تاريخه عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما. فمن ذلك تبجيلهم وتعظيمهم عن غيرهم، ومنه قضاء مصالحهم والاهتمام بها، وقبول شفاعاتهم، ومنه إطعامهم الطعام، والقيام لهم، وتقبيل أيديهم وأيدى غيرهم من الصلحاء إجلالا لهم وتعظيما، فقد قال النووى، رحمه الله: يستحب تقبيل أيدى العلماءوالمشايخ أهل الفضل ومن يتلح منهم، آثار الخير والبركة والصلاحية، والتبرك بهم والتماس دعواتهم الصالحة، ونحو ذلك مما هو مطلوب، ويستحب لهم القيام أيضا، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «نزلوا الناس منازلهم». وقام صلى الله عليه سلم لصفوان بن أمية لما قدم عليه، وإلى عدى بن حاتم، قال السهيلى: وليس معارضا لحديث: «من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار». هذا الوعيد إما توجه للمتكبرين وإلى من يغضب أن لا يقام له. وكان صلى الله عليه وسلم يقوم لفاطمة، رضى الله عنها، وكانت تقوم له صلى الله عليه وسلم.

فحق المعلم أ ن يجرى متعلميه مجرى بنيه، فإنه لهم فى الحقيقة أشرف الأبوين، وأبو الإفاده أعظم حقا من أبى الولادة، فيوقرهم كما يوقر أولاده، ويوقرونه كما يوقرون آباءهم، كما قال الإسكندر، ، وقد سئل: أمعلمك أكرم عليك أم أبوك؟ فقال: بل معلمى، لأنه سبب حياتى الباقية، ووالدى سبب حياتى الفانية! فهو أحق بالتوقير من الأب، وقيل:

إذا أفـــادك بـعض الناس فـــــائدة	من الـعلوم فـــــواظب شكـره أبدا
وقل فـلان جـزاه الـله صـــالحـة	أفـادنيـــهـا والغ الكبـر والحـسـدا
فـالحـر يكثـر مـن ذكـر المفيـد له	علمـــا ويذكـره إن قـــام أو قـعـــدا

وعلى المفيد أن يعبر للمستفيدين بعبارة واضحة مفصلة، لأجل أن يفهموها، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد، قالت عائشة، رضى الله عنها: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه، وكان يعيد الكلمة ثلاثا لتفهم عنه، وذكر البخارى، رضى الله عنه، عند قوله: (باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا) عن معروف عن أبى الطفيل عن على رضى الله عنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ وعلى المفيد أن يعامل المستفيدين بالإرشاد والشفقة، ويهتم بمصالحهم، ويصبر على جفائهم وسوء أدبهم، ويعذرهم فى قلة أدبهم فى بعض الأحيان، فإن الإنسان معرض للنقصان، لا سيما إذا كان حديث السن كالصغير، وعليه أن يصرفهم عن الرذائل إلى الفضائل بلطف فى المقال وتعريض فى الخطاب، والتعريض أبلغ من التصريح. قال الغزالى: آفة العلم الخيلاء، فلا يلبث العالم أن يتعزز بالعلم ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم. وقيل: العلم حرب للمتعالى، كما أن السيل قاطع للمكان العالى!.

(خلق العلماء)

قال بعضهم: لا ينبغى للعالم حب الرياسة والتعظيم، والتسارع إلى نبذ من تلوح عليه شواهد العلم بالقصور، ويلتمس بكثرة الانتقاد والعثرات، ويستر رسوم الحسنات ببعض السقطات، وربما رأى بعضهم استحقاقه العلم بالتوارث، وقد قال الله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ (الجمعة: ٤)، وقال تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ**

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص ٦٨)، أى للفضائل والكمالات، وقد نص القرافى [1] على أن ذلك من البدع المحرمة. وقيل:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه … بمثل اعتراف الفضل فى كل فاضل

وإن أخس النقص أن يتقى الفتى … قذى النقص عنه بانتقاص الأفاضل

قال بعضهم: وينبغى له أيضا أن لا يمدح نفسه ولا يزكيها، ولا يفرح بمدح الناس له، ولا بثنائهم عليه، فقد قال تعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾ (النجم: ٣٢)، أى لا تمدحوها، وكان الحسن البصرى يقول: رب هالك بالثناء عليه، ورب مستدرج بالإحسان إليه! وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ قال: ثناء المرء على نفسه. إلا أن ينوى المادح التحدث بنعمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ (الضحى: ١١)، أو ينوى به إعلام حاله من العلم والعمل، ليقتدوا به، وليأخذوا عنه، وليعطوه حقه، ويدفعوا عنه الظلم، ونحو ذلك، فلا يكون مدحه لنفسه مذموما حينئذ. وينبغى له أيضا أن يتمسك بالسبب الأقوى، والحبل المتين، والزاد الموصل إلى القرب من رب العالمين، الذى ذكره الله فى محكم الكتاب بقوله: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ (البقرة: ١٩٧)، إذ التقوى رأس كل خير، والأمان من كل ضير، وقد مدح الله المتقين فى آيات كثيرة، ووصفهم بأوصاف جميلة، وأثنى عليهم بأشياء جليلة، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فى أحاديث شهيرة، فمن الآيات قوله تعالى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٣)، ولما نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ (آل عمران: ١٠٢)، تحرجت الصحابة، يعنى حصل لهم حرج وضيق فى أنفسهم، وشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن: ١٦)، فاطمأنوا بذلك، ومعنى اتقاءالله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ومن الأحاديث قوله

(١) أحمد بن إدريس (المتوفى سنة ١٢٨٥ م) فقيه مالكى، تخصص فى صناعة التماثيل المتحركة التى تتغير الوانها حسب ساعات النهار.

صلى الله عليه وسلم «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». يعنى من قصر فى العمل حتى تورط فى الأمور المهلكة لم يكد ينفعه نسبه، ولا يعتمد عليه، بل يقول: أنا ابن العالم الفلانى، وابن الشيخ الفلانى، والشريف الفلانى، معتمدا عليه، تاركا لما أمر به، إذ لم ينفعه ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ونهى صلى الله عليه وسلم أن يفتخر الرجل بآبائه وأجداده لأنهم قد صاروا إلى ما قدموا من العمل. وقيل:

إذا افتخرت بآباء مضوا زمنا   قالوا: صدقت، ولكن بئس ما ولدوا

وقيل:

وليس فخار المرء إلا بنفسه   وإن عد آباء كراما ذوى نسب

ولا ينفع ذلك إلا مع العلم والعمل..

قال بعض العلماء، رضى الله عنه: ما ثم أنفع لأولاد العلماء والصالحين من الدعاء لهم بظاهر الغيب، مع تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وذلك لأن أحدهم يتربى فى الدلال على الدوام، مع مساعدة أمه إن كانت، ويكتفى بتعظيم الناس له بحكم التبع لأبيه، فلا يصير عنده داعية إلى اكتساب الفضائل غالبا، ويقول فى نفسه: الذى كنت أتعب فى تحصيله من الجاه بالاشتغال بالعلم والرياضة قد حصل لى بواسطة والدى، بخلاف أولاد العوام والفلاحين، فإن أحدهم يفتح عينه على الكد والتعب والإهانة، فيصير يتفكر فى عمل حيلة تعتقه من تلك الإهانة، فيلهمه الحق أن يشتغل بالعلم والقرآن، فلا يزال كلما عظمه الناس يزداد رغبة فى العلم والمجاهدة حتى يصير شيخ الإسلام. وقال صلى الله عليه وسلم: «ويل[1] للعالم من الجاهل» - أى حيث لم يعلمه معالم الدين ويرشده إلى طريقه المبين مع أنه مأمور بذلك - «وويل للجاهل من العالم» - حيث أمره بمعروف، ونهاه عن منكر، فلم يأتمر بأمره، ولم ينته بنهيه، إذ العالم حجة الله على خلقه. قال الشافعى: العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم.

---

(١) ويل: كلمة تقال لمن وقع فى هلكة، ولا يترحم عليه. بخلاف «ويح». (الطهطاوى).

وينبغى له أيضا أن يتخلق بالأخلاق الحميدة، والمحاسن الشريفة التى ورد الشرع بها، والشيم المرضية، والخلال الزكية التى أرشد إليها، من الزهد فى الدنيا، والتقلل منها، وعدم المبالاة بها، وبأهلها، والسخاء، والجود، والكرم، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطلاقة الوجه فى غير خروج إلى حد الخلاعة، والصبر، والتقوى عن دنىء الاكتساب، وأن يكون ذا ورع صادق. قال الحكماء: عالم بلا ورع كأرض بلا نبات. وأن يكون ملازما للخشية من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨)وقال ابن عطاء الله، فى حكمه: خير العلم ما كانت الخشية معه. وأن يكون مهذب الأخلاق، ذا نفس مرضية وخلق حسن،

وقيل

يا من تقاعد عن مكارم خلقه ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة

من لم يهذب علمه أخلاقه لم ينتفع بعلومه فى الآخرة

وأن يكون مكثرا من الخشوع والسكينة والوقاروالخضوع، متجنبا للضحك والإكثار من المزاح، ملازما على الوظائف الشرعية الواردة عن خير البرية، كتنظيف الأوساخ والشعور التى ورد الشرع بإزالتها، كقص الشارب، وتقليم الأظفار، وتسريح اللحية، ونتف الإبط، وحلق العانة، وإزالة الروائح الكريهة، متجنبا للملابس الرثة المكروهة المبتذلة، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الشهرتين فى اللباس: المرتفعة جدا، والمنخفضة جدا. قال النووى، رحمه الله تعالى: كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجياد، والثياب الرذلة، إذ الأبصار تمتد إليهما، وبهذا ورد الحديث. فلبس المرقعات أمر مكروه شرعا، وربما يكون حراما إذا قصد إظهار الزهد للطلب. وأن يكون تاركا للشهرة، محبا للخمول، فإنه أحسن الخصال المفضلة، وأن يكون متواضعا لله تعالى، ومن تواضع لله رفعه، وقد رفع الله المتواضعين، وأثنى عليهم، ووصفهم فى كتابه العزيز بأوصاف جميلة، ومن المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان سيد المتواضعين، ورأس المتأدبين، وقد أمره الله تعالى بالتواضع وحسن الخلق ومكارم الأخلاق، فقد قال تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)والآيات والأحاديث والأشعار فى فضل التواضع والرفق ونحوهما كثيرة، وما أحسن ما قيل:

ولا تمش فى الأرض إلا تواضعا	فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت فى عز وجود ومنعة	فكم مات قوم هم منك أمنع

وقال آخر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر	على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه	إلى طبقات الجو وهو وضيع

وليحذر كل الحذر من الحسد والكبر والرياء والعجب، وأن يكون تعويله فى سائر أموره على الله تعالى، منقطعا إليه عن الخلق وعن التعلق بهم، غير ملتفت لما فى أيديهم، وينبغى أن يرفق بمن يقرأ عليه من المستفيدين، ويعلمهم برفق، لقوله صلى الله عليه وسلم: «ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، وما كان العنف فى شىء إلا شانه». وأن يرحب بهم، ويحسن إليهم بحسب حاله، فقد ورد عن أبى هارون العبدى قال: كنا نأتى أبا سعيد الخدرى، رضى الله عنه، فيقول: مرحبا بوصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا». رواه الترمذى، وابن ماجه، وغيرهما. وينبغى أن يبذل لهم النصيحة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة: لله، ولكتابه، لرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.» رواه مسلم. ومن النصيحة لله ولكتابه إكرام قارئه وطالبه، وإرشاده إلى مصلحته، والرفق به، ومساعدته بما أمكن، وأما ما يفعله معلمو القرآن الشريف وشدة تعنتهم وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين فى التعليم فهو خروج عن حد الشرع، ويترتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون من الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك، فلو عاملوهم بالرفق والحيلة فى التعليم لما امتنعوا من ذلك، خصوصا وأنهم مفارقون اللعب إلى الحبس والضيق، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «علموا

ولا تعنفوا، فإن العلم خير من العنف». وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «البركة فى أكابرنا، فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا» ـ (أى ليس متبعا هدينا وطريقتنا) ـ قال بعض العلماء: وينبغى للمعلمين أن يأذنوا لهم فى بعض الأوقات باللعب، ويكون لعبا جميلا غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب. كما سيأتى.

وينبغى للعالم أن يتألف قلوب الطالبين، ويتلطف بهم، ويحرضهم على التعليم، ويحثهم عليه، وينبههم إن غفلوا، وينبغى أن يذكرهم فضيلة ذلك ليكون سببا لنشاطهم وزيادة فى رغبتهم فى الخير، ويزهدهم فى الدنيا، ويصرفهم عن الركون إليها، والاغترار بها، ويخبرهم بأن الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية هو طريقة الحازمين وعباد الله العارفين، وأن ذلك رتبة الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وينبغى له أيضا أن يحب لهم ما يحب لنفسه وأن يكره لهم ما يكره لنفسه، لحديث الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». ينبغى أن يكون معترفا بنعم الله تعالى عليه، التى من جملتها العلم الذى صار به من أفضل الخلق، بل هو أجلها وأفضلها، فلا يغفل عن سؤال الله تعالى إدامة نعمته، شاكرا له آناء الليل وأطراف النهار، إذ الشكر قيد النعمة وعقالها، مستلزم للزيادة منها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)، ولأنه أدوم للنعمة عليه، لئلا تنفر عنه فلا تعود إليه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «قلما نفرت النعمة عن قوم فعادت إليهم». ولهذا قال بعض الحكماء: اعلموا أن صحائف الدهر مقلدة بالشكر والذم، إذا كان كذلك فأكرموا من له بيت فى الأصل، ومن له قدر فى المروءة، ومن له مكانة فى العلم، ولا يغرنكم سوء حاله وانقلاب الزمان به، فإن الدهر يجبر كما يكسر، ويكسر كما يجبر، وما أعطى الدهر شيئا بيمينه إلا واستله بشماله. كما قيل:

الدهر لا يبقى على حاله ... لا بد ما يقبل أو يدبر
فإن تلقاك بمكروهه ... فاصبر فإن الدهر لا يصبر

وقيل:

قل للذى بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن نشبت أيدى الزمان بنا ومسنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

* * *

(خلق المتعلم)

قال بعضهم : وأما ما يطلب من المتعلم فأمور كثيرة أيضا، إذ هو تابع له، فمما يطلب من المتعلم أن يكون متأدبا مع الله تعالى، ومع أستاذه، إذ لا شيء أحسن من الأدب فى حق المتعلم، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» . قال على، رضى الله عنه : لا شرف مع سوء الأدب، وأوصى حكيم ولده، فقال : أوصيك بخمس خصال : الأولى : لا تعاند من فوقك، الثانية : لا تقل ما لا تعلم، الثالثة : لا تتعاط ما لا تنال، الرابعة : لا تخالف بلسانك ما فى قلبك، الخامسة : لا يخالف قولك فعلك . وقيل : الحاكم لا يعاند، والقاضى لا يخاصم، والشاعر لا يعادى، وأن يكون متواضعا لأستاذه، محبا له، معتقدا فيه، سامعا لقوله، مطيعا لأمره، لما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم : «أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا، ولا تكن الخامسة فتهلك» . ـ يعنى مبغضا ـ وأن يكون بمنزلة العبد لأستاذه، وأستاذه بمنزلة المولى له، وجاء فى معلمى القرآن حديث مرفوع : «من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه» . أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة . ونحوه قول شعبة : من كتبت عنه حديثا فأنا له عبد . وأن يكون مجدا فى التعليم، مشمرا عن ساعد الجد والاجتهاد، قائما على قدم العناية والسداد، فإن ذلك من سبل الرشاد، فلعله أن يظفر ببعض المراد، فقد قيل : اعط العلم كلك يعطك بعضه . ولكل مجتهد نصيب، والأجر على قدر المشقة، وينبغى لطالب

العلم أن يكون متأملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلوم، ويعتاد ذلك، ولهذاقيل: من تأمل أدرك، ولا بد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابا، فإن الكلام كالسهم لا بد من تقويمه بالتأمل قبل الكلام حتى يكون مصيبا، وأن يكون مستفيدا فى جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص، قال صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها». وينبغى أن لا يكون للمستفيد فتور، فإنه آفة، وكان شيخ الإسلام برهان الدين، رحمه الله، يقول: إنما فقت شركاى لأنه لم تقع لى الفترة فى التحصيل. قيل: وقت العلم من المهد إلى اللحد. وقيل: إنه لما أوجع الفقر والحرمان القاضى عبد الوهاب البغدادى المالكى، رحمه الله، تمنى الكفاف ولزم العلم إلى الممات، فقال:

يا لهف نفسى على شيئين لو جمعا ... لكنت حينئذ من أسعد البشر

كفاف رزق يقينى ذل مسألة ... وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

ـ والكفاف حالة متوسطة بين الغنى والفقر ـ وقال صلى الله عليه وسلم: «ذكاء المرء محسوب عليه». وقال بعضهم فى ذلك:

إذا أبصرت ذا فضل فقيرا ... فلا تعجب لفقر فى يديه

فقد قال الرسول مقال صدق ... ذكاء المرء محسوب عليه

ومما ينسب للإمام الشافعى، رضى الله عنه:

ومن العجيب من القضاء وصنعه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همة يبلى برزق ضيق

ولربما مرت بقلبى فكرة ... فأود منها أننى لم أخلق

وقيل:

وأنكد الناس عيشا من تكون له ... نفس الملوك وحالات المساكين

أرى بعينى ما لا تستطيل يدى ... له وقد حازه من قدره دونى

وقال بعضهم: لا يخفى فضل العلم على المال عند ذوى الكمال، لأن المال تصلح به دنياك، والعلم تصلح به دنياك وأخراك، تتركه فى هذه الدنيا قهرا، والعلم يصحبك فى الدار الأخرى، حتى لقد ورد فى الحديث المرفوع إلى صاحب الوسيلة والدرجة العليا: «إن الناس يحتاجون إلى العلماء فى الآخرة كما يحتاجون إليهم فى الدنيا». والمال يشغلك عن الله وعبادته، والعلم يحثك على مراقبته وطاعته.

وأفضل أوقات تحصيل العلوم شرخ الشباب، ووقت السحر، وما بين العشاءين، وينبغى أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا مل علما اشتغل بعلم آخر. وكان ابن عباس، رضى الله عنه، إذا مل من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعر. وقد روى أنس بن مالك، رضى الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «متعلم كسلان» - يعنى لا يجتهد فى طلب العلم - «أفضل عند الله من سبعمائة عابد مجتهد»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا جهاد إلا الهموم فى طلب العلم». وينبغى للمستفيد أن يكون منقطعا تاركا لما يشغله من علائق الدنيا، هاجرا لإخوانه وخلانه، إذ هو الذى يتأتى له التحصيل من بين أقرانه، فقد قال الخطيب: لا ينال العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه. وقال بعضهم:

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى ... كما شغلوا عن مكسب العلم بالكثر
فكان لهم حظ من الجهل والغنى ... وكان لنا حظ من العلم والفقر

- والحظ، لغة: النصيب، وعرفا: ما وافق الغرض من مال وعلم وجاه ورياسة ونحوها، مما تألفه النفس، وما لم يوافقها يسمى: نصيبا، كالعمى والجهل وقلة المال، فكل حظ نصيب، ولا عكس، والحظوظ مما قدرها الله وقضاها فى الأزل، فلا تعلل لقضائه، بدليل: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (الزخرف: ٣٢)، يعنى خلقنا هذا غنيا وهذا فقيرا، وهذا عالما وهذا جاهلا، وهذا ملكا وهذا مملوكا، هذا عطاؤنا لا تبديل فيه ولا تغيير، ولا نقص ولا زيادة، ولا

محو ولا إثبات، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «رفعت الأقلام وجفت الصحف، وقضى ما هو كائن إلى يوم القيامة.» وقيل:

نحن قسمنا الرزق بين الورى ... فأدب النفس ولا تعترض

وسلم الأمر لأحكامنا ... فكل عبد رزقه قد فرض

وقال أهل السنة والجماعة: الأرزاق مقسومة معلومة، لا تزيد بتقوى المتقين ولا تنقص بفجور الفاجرين. وقيل: الدنيا يعطيها الله لمن يحبه ولمن لا يحبه.

وقال بعضهم: إعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما شدد البلاء على الأفاضل، لأن الله تعالى يبغض الدنيا، وحجبها عنهم ليكثر لهم الأجر فى الدار الآخرة، ويتفرغوا لطاعته، ولا يشتغلوا بها فتحملهم على المعصية، فإن النعمة قد تكون سبب المعصية، لقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً** ﴾ (الأنعام: ٤٤)، ولذلك قال بعضهم:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

وقال بعضهم: أحسن ما قيل فى حكمة عدم اجتماع الفضل والمال: لأن ذاك لعزة الكمال، لأنه لو حواهما شخص لحوى الكمال برمته، والله تعالى هو المنفرد بالكمال دون بريته، وقال بعضهم: فى قدرة الله أن يجعل الجبال ذهبا، فرد عليه بعضهم بقوله: مسلم ذلك، وأكثر منه، كيف وقد عرض على نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك فأباه! لكن الأبدع ما صنع الله إذ لو كانت الجبال كلها ذهبا لتعطل الوجود، وترك الناس الزراعة، وسائر وجوه المعيشة، فيؤدى إلى هلاكهم، وهذا هو السر فى انقسام الناس إلى زاهد وحريص، ووضع الأمل والرغبة فى الدنيا، ولو كان الناس كلهم زهادا ولا مال لهم لتركوا المعاش والمتاجر والأسفار وجلب الأمتعة من البلاد القاصية فلم ينتظم للناس معيشة، فكان صنع الله أبدع صنع ﴿ **اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (النمل: ٨٨)، وأيضا فلو كانت الجبال ذهبا لاقتتلوا عن آخرهم.

قال الإمام على، كرم الله وجهه: لا تحزن على شيء من أمور الدنيا، فإنها ستة: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح، فأفخر

طعامها: العسل، وهو بزاقة ذبابة، وأفخر شرابها: الماء، يستوى فيه جميع الحيوانات، وأفخر ملبوسها: الديباج، وهو نسج دود، وأفخر مشمومها: المسك، وهو دم غزال، وأفخر مركوبها: الخيل، وعليها تقتل الرجال، ومنكوحها النساء، وهو مبال فى مبال!! وقيل:

أرى اللذات فى الدنيا ثلاثا ... كما قال الثقات من الرجال

فبزق ذبابة مع غزل دود ... وأحسنها مبال فى مبال

وقيل: من آفات المال: شغل القلب، والحرص على الزيادة، والخوف من الفوات، وطمع قطاع الطريق فيه. وحرصه من السرقة، وذم على الدنيا فقال: من صح فيها هرم، ومن مرض فيها سقم، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن طلبها فاتته، ومن تركها أتته. وقال صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدنيا». يعنى الذى يجمعها ولا يفعل منها خيرا كزكاة وصدقة وصلة رحم، بل يكون حريصا عليها، وقال عمر، رضى الله عنه: ما كانت الدنيا هم أحد إلا لزم عليه أربع: فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفد أذاه، وأمل لا يدرك منتهاه. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإن من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه». وقيل:

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى ... فإنك لا تدرى أتصبح أم تمسى

فليس الغنى عن كثرة المال إنما ... يكون الغنى والفقر من قبل النفس

* * *

ـ (رجع) ـ وينبغى للمستفيد أن يكون مكبا على الاشتغال، ساهرا هاجرا للمنام، لأن الليل مجمع الحواس، ووقت الخلوة والمناجاة، والنفس من طبعها الكسل والميل إلى اللهو واللعب والتنعم والفتور عن الطاعات، خصوصا عن الاشتغال بالعلم وتحصيله، فإن من المعلوم عند أهله المشهورين بنيله وفضله، الملازمين لتحقيق مسائله وتدقيق دلائله، أنهم لا يلتذون بشىء أحلى منه، فإنه

يحصل لهم به من الفرح والسرور والغبطة والحبور والنشأة والطرب ما لا يحصل لغيرهم ممن يتحرى سماع الآلات وطرب الإنشادات، ولذة المآكل والمشارب، وغير ذلك. وما أحسن قول القائل:

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى | من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامى على أوراقها | أحلى من الدوكاة [1] والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها | نقرى لألقى الرمل عن أوراقى [2]
أأبيت سهران الدجا وتبيته | نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

ولذا قال الإمام أبو حنيفة، رضى الله عنه: لو علم الملوك لذة ما نحن فيه من العلم لقاتلونا عليها بالسيوف! وينبغى للمستفيد أن لا يواجه أستاذه بخلاف قوله، وإن كان هو الصواب، رعاية للأدب معه، وأن يكون فى حال البحث معه على غاية من السكينة والوقار والخضوع، وأن يحسن ظنه به لينتفع بما يستفيده، وأن يكون ضابطا لما يتعلمه، مقيدا له، فلا يتكل على حفظه، فإن الإنسان محل النسيان. وقيل: قيدوا العلم بالكتابة. وقال بعضهم، فى الاجتهاد وتكرار الدراسة لما حفظه:

خليلى لا تكسل ولا تهمل الدرسا | ولا تعد طوعا فى تكاسلها النفسا
ولا تترك التكرار فيما حفظته | فمن يترك التكرار لا بد أن ينسى

وأنشد بعض أهل الأدب لأبى الخوارزمى [3]:

لا تصحب الكسلان فى حاجاته | كم صالح بفساد آخر يفسد

(١) المدوك والمداك حجر يسحق به أو عليه الطيب، و المراد بالدوكاة هنا «الصلاءة» - الإناء الخاص - الذى يسحق فيه الطيب.

(٢) قديما كانوا يلقون الرمل على الكتابة حتى يجفف أحبارها، وهو ما نصنعه الآن بالورق «النشاف».

(٣) محمد بن أحمد (القرن العاشر الميلادى) صاحب أقدم دائرة معارف عربية - (مفاتيح العلوم).
وهو غير الخوارزمى، أبو عبدالله محمد بن موسى (المتوفى سنة ٨٥٠ م) والذى اشتهر فى ميادين علوم الفلك والرياضة والجغرافيا.

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

وكان أبو حفص الكبير رحمه الله، يكتسب، ويكرر: وإذا كان لا بد لطالب العلم من الكسب لنفقة العيال فليكتسب، وليذاكر، ولا يكسل، وليس الفقر لصحيح العقل والبدن مانعا من التعلم، فإنه لا يكون أفقر من الإمام أبى يوسف[1]. رحمه الله، ولم يمنعه ذلك من التفقه، فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح. وفى الحكمة: من استغنى بمال الناس افتقر، و العالم إذا كان طماعا لم يبق حرمة العلم، ولا يقول بالحق، ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع الشريف، صلى الله عليه وسلم، منه، ويقول: «أعوذ بالله من طمع يدنى إلى طبع» وقيل:

العلم بالتكرار والتأنى يدرك لا بالترك والتمنى

ولا بد للمستفيد من المذاكرة والمطارحة، والمناظرة مشاورة، فينبغى أن تكون بالإنصاف والتأنى والتأمل، ويحترز عن الشغب والغضب والمماراة، فإن كانت نيّته إلزام الخصم. وقهره فلا يحل ذلك، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق، والتمويه والحيلة فيها لا تجوز إلا إذا كان الخصم متعنتا، لا طالبا للحق.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من طلب العلم ليمارى به السفهاء، أو يكابر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار» - (أى فليتخذ لنفسه منزلا)» يقال تبوأ الرجل المكان إذا اتخذه مسكنا - وهو أمر بمعنى الخبر، أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكم، أو دعاء على فاعل ذلك، أى بوأه الله ذلك. ومن حديث عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث، ولا تتركه لثلاث، لا تتعلم العلم لتمارى، أو تجادل، به الناس ولا لتباهيهم به، بل تتعلمه ابتغاء وجه الله والتفقه فى دينه، ولا تتركه لثلاث، لا تتركه حياء فى طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضاء بجهالة، بل ينبغى للإنسان أن يتعلم العلم على قدر الضرورة والإمكان، ونهى صلى الله عليه وسلم عن مجادلة اليهود والنصارى، وقال:

---

(١) يعقوب بن إبراهيم (٧٣١-٧٩٨ م) أعظم فقهاء المذهب الحنفى بعد أبى حنيفة النعمان، تولى منصب قاضى القضاة على عهد الرشيد العباسى، ويعد كتابه (الخراج) من التراث الهام فى الاقتصاد عند العرب المسلمين.

«دلوهم فى دينهم بترك مجادلتكم إياهم» . يعنى صلى الله عليه وسلم : إنك إن جادلتهم وكذبتهم فإنهم يكذبونك ، وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيه تكرارا وزيادة ، وقيل : مطارحة ساعة خير من تكرار شهر ، ولكن إذا كانت مع منصف سليم الطبيعة ، وإياك والمذاكرة مع مشغب ، غير مستقيم الطبع ، فإن الطبيعة مسرية ، والأخلاق مغيرة ، والمجاورة مؤثرة ، وتفقه الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، بكثرة المطارحة والمذاكرة فى دكانه حين كان يزازا ، وبهذا تعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع التكسب ، قيل لابن عباس ، رضى الله عنهما ، بم أدركت العلم؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول . وقيل : العلم مزرعة ، والمطالعة مادة ، والمذاكرة ثمر ، ولكل شىء آفة ، وآفة العلم : النسيان ، وسبب النسيان : العصيان .

وقال الإمام الشافعى ، رضى الله عنه : لا تخرج من علم إلى غيره حتى تحكمه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة فى الفهم ، ولكن يبدأ منه بالأهم . قال عبدالله بن قتيبة : من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحدا ، و من أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم . وهذا ما أحسن ما نتخذه مذهبا ، وإلى محاسنه نميل ونذهب . وقيل : لا تدع الأمر إذا أقبل ، وتطلبه إذا أدبر . وقيل :

اغـتـنـم يـومـك هـذا إنمـا يـومـك صـيـف
وانتـهـب فـرصـة عـمـر حـاضـر فـالوقت سـيـف

وقد كان الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، يجالس الصوفية ، فقيل له فى بعض الأيام : ما استفدت من هؤلاء يا إمام؟ قال : استفدت منهم قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالسوء والضير . وقيل : عليك بالحفظ دون الجمع للكتب ، فإن للكتب آفات تفرقها ، والماء يغرقها ، والفأر يخرقها ، والنار تحرقها ، واللص يسرقها . وقيل : حفظ سطرين خير من حمل وقرين ، وفهم حرفين خير من حفظ سطرين ، فإذا تهاون فى الفهم ، ولم يجتهد مرة أو مرتين ، ويعتاد ذلك ، فلا يفهم إلا اليسير . وقال الإمام مالك : أهل المدينة ليس لهم كتب ، مات ابن المسيب والقاسم ولم يتركا كتابا ، ولم يكن عند ابن شهاب إلا كتاب فيه نسب قومه .

وقد كان أهل العصر الأول يتكلون على الحفظ، فكانوا لا يدونون الحديث، ولا يصنفون، اتكالا على حفظهم، ولذلك قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله: قال العلماء: كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث، واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظا كما أخذوه حفظا، لكن لما قصرت الهمم، وخشيت الأئمة من ضياع العلم بموت العلماء، دونوه بأمر عمر بن عبد العزيز لما كتب إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاجمعوه، وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى [1] على رأس المائة، بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، والتصنيف، وحصل بذلك خير كثير حينئذ، فيطلب تدوين الحديث النبوى وتخريجه خوفا من ضياعه.

وقال ابن الجوزى: الأمل مذموم إلا للعلماء، فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا. وفى الأمل سر لطيف، لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، وليحذر كل الحذر من استفادة العلوم من الكتب وأخذها منها من غير أستاذ يوقفه على معانيها ويبين له مبانيها، لئلا يكون هناك قول ضعيف، ولئلا يقع فى التصحيف والتحريف، وقال بعضهم: آلات العلم أربعة: عقل رجاح، ومرشد فتاح، وكتب صحاح، ومداد وألواح. وهذا فى غير الحديث، أما الحديث فيجوز نقله من الكتب المعتمدة، للعمل والاحتجاج به، كما هو مقرر فى مصطلح الحديث، فقد قال الطبرى [2]، رحمه الله تعالى: إذا وجدنا حديثا فى نسخة صحيحة جاز لنا روايته، والحجة به. حكى أبو إسحاق الإجماع على جواز النقل من الكتب المعتمدة.، ولا يشترط اتصال السند إلى مصنفها.

ومما يروى أن عبد الملك بن مروان دخل المسجد الحرام فرأى حلق العلم والذكر، فأعجب بها، وكلما أشار إلى حلقة وقال: لمن هذه؟ قيل: لفلان، وكلهم من أبناء

---

(١) محمد بن مسلم (٦٧٠ ـ ٧٤٢ م)، محدث مشهور، يقال إنه أول من جمع الحديث، وهو من الذين أخذوا عن سعيد بن المسيب.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير (٨٣٩ ـ ٩٢٣ م) مؤرخ، ومفسر، وفقيه. ويعد كتابه (تاريخ الرسل والملوك) أول كتاب فى التاريخ ـ على أصوله وقواعده ـ فى التراث العربى الإسلامى. وله فى التفسير كتاب (جامع البيان فى تفسير القرآن). أما فى الفقه فلقد حاول وضع مذهب خاص به.

الفرس، الذين من اليمن، المعبر عنهم بالأبناء، فرجع إلى منزله، وبعث إلى أحياء قريش فجمعهم، وقال لهم: كنا فيما قد علمتم، أى جاهلية، فمنّ الله علينا بمحمد، صلى الله عليه وسلم، بهذا الدين، حتى غلبكم أبناء الفرس! فلم يرد عليه أحد إلا على بن الحسين، رضى الله عنهما، فإنه قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم قال عبد الملك: ما رأيت كهذا الحى من الفرس، ملكوا من أول الدهر فلم يحتاجوا إلينا، وملكنا فما استغنينا عنهم ساعة، وفى اللباب لابن الأثير[1].

الأبناء: يقال فى التعريف: فلان من الأبناء، والنسبة إليه أبناوى، وكل من ولد باليمن من أبناء الفرس الذين وجههم كسرى مع سيف بن ذى يزن، وليس من العرب، يسمونه الأبناء، وممن نسب بهذه النسبة طاوس بن كيسان، ووهب بن منبه بن كامل اليمانى[2]، أبو عبدالله الأبناوى، بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها نون، ثقة من الثالثة. وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم». وقال صلى الله عليه وسلم، لعلى، رضى الله عنه«لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم». وقيل: تعلموا قبل ان تسودوا، أى تصيروا سادة منظور إليكم فلا يمكنكم التعلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

* * *

وقد ذكر الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى، رضى الله عنه، فى رسالة له مشتملة على بيان تعلم العلوم، وتعليمها، وحصر أنواعها، وبيان حدودها وفوائدها، وسماها (باللؤلؤ النظيم فى شروط التعلم والتعليم) لا بأس بذكرها هنا للانتفاع

---

(١) أبو الحسن على (١١٦٠ ـ ١٢٣٤ م) مؤرخ، وكاتب، صاحب (الكامل فى التاريخ) و (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) الخ . . الخ . . وابن الأثير هذا يعرف بابن الأثير الجزرى، نسبة إلى جزيرة ابن عمر - بلدة فوق الموصل - وذلك تمييزا له عن أخويه: «مجد الدين أبو السعادات» صاحب (جامع الأصول فى أحاديث الرسول) و(النهاية فى غريب الحديث والأثر)، و«ضياء الدين أبو الفتح» (١١٦٣-١٢٣٩ .) صاحب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر).

(٢) (٦٤٣ ـ ٧٣١ م) وينسب إلى صنعاء، وله آثار فى التاريخ، وآراء فى القدر، يقول ابن قتيبة إنه رجع عنها. انظر (المعارف) لابن قتيبة. ص ٦٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

بها، فقال: أما شروط تعليمها وتعلمها فاثنا عشر: **أحدها**: أن يقصد به ما وضع ذلك العلم له، فلا يقصد به غير ذلك العلم، كاكتساب مال أو جاه، أو مغالبة خصم، أو مكابرة، **ثانيها**: أن يقصد العلم الذى تقبله طباعه، إذ ليس كل أحد يصلح لتعليم العلوم، ولا كل من يصلح لتعلمها يصلح لجميعها، بل كل ميسر لما خلق له، **ثالثها**: أن يعلم غاية ذلك العلم، ليكون على ثقة من أمره، **رابعها**: أن يستوعب ذلك العلم من أوله إلى آخره، تصورا وتصديقا، **خامسها**: أن يقصد فيه الكتب الجيدة المستوعبة لجميع الفن، **سادسها: أن يقرأ على شيخ مرشد أمين ناصح، ولا يستبد بذلك بنفسه وذكائه، سابعها**: أن يذاكر به الأقران والأنظار، طلبا للتحقيق، لا للمغالبة بل للمعاونة على الإفادة والاستفاده، **ثامنها**: أنه إذا حصل ذلك العلم لا يضيعه بإهماله، ولا يمنعه مستحقه [1]، وأن يثبت ما استنبطه فكره، مما لم يسبق إليه، لمن أتى بعده، كما فعل من قبله، فمواهب الله سبحانه وتعالى لا تقف على أحد، **تاسعها**: أن لا يعتقد فى علم أنه حصل منه مقدارا لا يمكن الزيادة عليه، فذلك نقص وحرمان، **عاشرها**: أن يعلم أن لكل علم حدا فلا يتجاوزه ولا ينقص عنه، **حادى عشرها**: أن لا يدخل علما فى علم آخر، لا فى تعلم ولا فى مناظرة، لأن ذلك يشوش الفكر، **ثانى عشرها**: أن يراعى كل من المعلم والمتعلم حق الآخر، خصوصا الأول، لأن معلمه كالأب، بل أعظم، لأن أباه قد أخرجه إلى دار الفناء ومعلمه دله على دار البقاء.

واعلم أن للاشتغال بالعلم آفات كثيرة، فمنها: الوثوق بالزمان المستقبل، فيترك التعلم حالا، إذ التعلم والتعليم فى اليوم أفضل من غد، وأفضل منه أمسه، والإنسان كلما كبر كثرت عوائقه. ومنها: الوثوق بالذكاء، فكثير من فاته العلم بركونه إلى ذكائه، وتسويفه أيام الاشتغال. ومنها: التنقل من علم قبل إتقانه إلى آخر، ومن معلم إلى آخر قبل إتقان ما بدأ به عليه، فإنه هدم لما قد بنى. ومنها: طلب الدنيا، والتردد على أهلها، والوقوف على أبوابهم. ومنها: ولاية المناصب، فإنها شاغلة مانعة، كما أن ضيق الحال مانع أيضا.

(١) فى الخبر: «من علم علما وكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار. ولا يؤتيه غير مستحقه». [الطهطاوى].

(أنواع العلوم)

وأما حصر أنواع العلوم فهى: إما شرعية، وهى ثلاثة: الفقه، والتفسير، والحديث الشريف، وإما أدبية، وهى أربعة عشر علما: علم اللغة، وعلم الاشتقاق، وعلم التصريف، وعلم النحو، وعلم المعانى، وعلم البيان، وعلم البديع، وعلم العروض، وعلم القوافى، وعلم قرض الشعر، وعلم إنشاء النثر، وعلم الكتابة، وعلم القراآت، وعلم المحاضرات، ومنه علم التواريخ، إما رياضية، وهى عشرة: علم التصوف، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم التعليمى، وعلم الحساب، وعلم الجبر، وعلم الموسيقى [1]، وعلم السياسة، وعلم الأخلاق، وعلم تدبير المنزل. وإما عقلية، وهى ما عدا ذلك: كالمنطق، والجدل، وأصول الفقه، وأصول الدين، والعلم الإلهى، والعلم الطبيعى، والطب، وعلم الميقات، وعلم النواميس، والفلسفة، والكيمياء.

وأما بيان حدودها وفوائدها، **فعلم الفقه:** علم بحكم شرعى، مكتسب من دليل تفصيلى. وفائدته: امتثال أوامر الله ونواهيه. **وعلم التفسير:** علم يعرف به معانى كلام الله تعالى، من الأوامر والنواهى وغيرهما. وفائدته: الاطلاع على عجائب كلامه سبحانه وتعالى، وامتثال أوامره ونواهيه. **وعلم الحديث، رواية:** علم يشتمل على نقل ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم، قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة، **وفائدته:** الإحتراز عن الخطأ فى نقل ذلك. **وعلم الحديث، دراية:** علم يعرف به حال الراوى والمروى من حيث القبول والرد. وفائدته: معرفة ما يقبل وما يرد من ذلك. **وعلم اللغة:** علم يعرف به أبنية الكلم، ويقال: علم بنقل الألفاظ الدالة على المعانى المفردة. وفائدته: الإحاطة بها لمخاطبة أهل اللسان، وللتمكين من إنشاء الخطب والرسائل. **وعلم الاشتقاق:** علم يعرف به أصل الكلام وفرعه. وفائدته: التمييز بين المشتق والمشتق منه. **وعلم التصريف:** علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم، التى ليست بإعراب، وفائدته: الاحتراز عن الخطأ فى اللسان والتمكن من

---

(١) كان الطهطاوى - فى عصره - يرسم وينطق هذا المصطلح هكذا «الموسيقى»، وليس كما نرسمه الآن: «الموسيقى»، ونطقه ورسمه القديم أقرب إلى الكلمة الأجنبية المأخوذ عنها هذا المصطلح.

الفصاحة والبلاغة . **وعلم النحو**: علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء . وغايته : الاحتراز عن الخطأ فى اللسان . **وعلم المعانى**: علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال . وفائدته : فهم الخطاب وإنشاء الجواب بحسب المقاصد والأغراض ، جاريا على قوانين اللغة فى التركيب . **وعلم البيان**: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه . وفائدته : التمكن من مخاطبة أهل اللسان بذلك . **وعلم البديع**: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة . وفائدته : معرفة أحوال الشعر وما يدخل فيه من المحسنات وغيرها . **وعلم العروض**: علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر وفاسدها . وفائدته ، لذى الطبع السليم : أن يأمن اختلاط بعض البحور ببعضها ، وأن يعلم أن الشعر المأتى به أجازته العرب أو لم تجزه ، ولغيره : هدايته إلى الفرق بين الأوزان الصحيحة والفاسدة فى النظم . **وعلم القوافى**: علم يعرف به أحوال أواخر الأبيات الشعرية ، من حركة وسكون ولزوم وجواز وفصيح وقبيح . وفائدته : الاحتراز عن الخطأ فى القوافى . **وعلم قريض الشعر**: علم يعرف به كيفية النظم وترتيبه . وفائدته : تعرف كيفية إنشاء الموزون السالم من العيوب . **وعلم إنشاء النثر**: علم يعرف به كيفية إنشائه وفائدته : الاحتراز فى الإنشاء . **وعلم الكتابة**: علم يعرف به أحوال الحروف فى وضعها ، وكيفية ترتيبها خطا . وفائدته : الاحتراز عن الخطأ فى الكتابة . **وعلم القراآت**: علم بأصول يعرف بها أحوال ألفاظ القرآن الشريف ، من حيث النطق بها . وفائدته : معرفة ما يقرأ به كل من أئمة القراء ، والقرآن الشريف كلام الله تعالى المنزل على نبيه المكتوب بين دفتى المصحف . وفائدته : سعادة الدارين **وعلم التصوف**: علم بأصول يعرف بها صلاح القلب ، وسائر الحواس . وفائدته : صلاح أحوال الإنسان . **وعلم الهندسة**: علم يعرف به خواص المقادير ، والخط ، والسطح ، والجسم التعليمى ، ولواحقها ، وأوضاعها وفائدته : معرفة كمية مقادير الأشياء . **وعلم الهيئة**: علم تعرف به الأجرام البسيطة ، من حيث كمياتها ، وكيفياتها ، وأوضاعها ، وحركاتها اللازمة لها . وفائدته : معرفة أعيان تلك الأجرام ، وكلياتها ، وكمية كل مقدار منها ، وما يلحقها . **والعلم التعليمى**: ما يبحث فيه عن الأشياء ، صورة ومادة ، كالمقادير ،

والأشكال والحركات. وفائدته: معرفة أعيان تلك الأشياء، وكلياتها، وكمية كل مقدار منها، وما يلحقها. **وعلم الحساب**: علم بأصول يتوصل بها إلى استخراج المجهولات العددية. وفائدته: صيرورة ذلك العدد، من الحيثية المذكورة، معلوما باستعمال قوانينه. **وعلم الجبر**: علم بأصول يتوصل بها إلى استخراج المجهولات بمقدمة معلومة. وفائدته: صيرورة تلك المقادير المجهولة معلومة باستعمال قوانينها. **وعلم الموسيقى**: علم بأصول يعرف بها النغم، وكيفية تأليف الألحان بعضها مع بعض. وفائدته: بسط الأرواح وقبضها، ولهذا يستعمل فى الأفراح والحروب وعلاج المرضى. **وعلم السياسة**: علم بأصول يعرف بها أنواع الرياسات والسياسات المدنية الفاصلة بين الخصوم، والإنصاف بينهم. **وعلم الأخلاق**: علم يعرف به أنواع الفضائل، وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل، وكيفية اجتنابها. وفائدته: الاتصاف بأنواع الفضائل واجتناب أضدادها. **وعلم تدبير المنزل**: علم بأصول يعرف بها الأحوال المشتركة بين الرجل و زوجته وولده وخدمه. وفائدته: انتظام أحوال الإنسان فى منزله ليتمكن من كسب السعادة العاجلة والآجلة. **وعلم المنطق**: علم بأصول تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر. وفائدته: الاحتراز عن الخطأ فى الفكر. **وعلم الجدل**: علم بأصول يعرف بها كيفية الأدلة ودفع الشبه عنها. وفائدته: تحرير معرفة المباحث الفقهية والأصولية لتشحيذ الفكر. **وعلم أصول الفقه**: أدلة الفقه الإجمالية، وطرق استفادة جزئياتها، وحال مستفيدها، وقيل: معرفتها. وفائدتها: نصب الأدلة على مدلولها، ومعرفة كيفية الاستنباط منها. **وعلم أصول الدين**: علم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية. وفائدته: معرفة ما يطلب اعتقاده. **والعلم الإلهى**: علم بأصول يعرف بها أحوال الموجودات، وما يعرف لها. وفائدته: ظهور المعتقدات الخفية، والاعتقاديات الباطلة. **والعلم الطبيعى**: علم يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس، من حيث إنه معرض للتغيير. وفائدته: معرفة الأجسام الطبيعية البسيطة والمركبة وأحوالها، ويفارق علم الكلام بأنه مبنى على أصول الفلسفة من أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، وأن الواحد لا يكون قابلا وفاعلا معا، وأن الإرادة ممتنعة، وغير ذلك. وأما **علم الكلام**: فمبنى على أصول الإسلام. من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، والإجماع الذى

لا يخـالفـهـمـا، **وعلم الطب**: علم يعرف به أحـوال بدن الإنسـان، من صـحـة، ومرض، ومزاج، وأخلاط، وغيرها، مع أسبابها، من المآكل وغيرها. وفائدته: استعمال أسباب الصحة كمية والعلم بها. **وعلم الميقات**: علم يعرف به حقيقة النبوة، وأحوالها، ووجه الحاجة إليها. والناموس: يقال للوحى، وللملك النازل، وللسنة وفائدته: بيان ثبوت النبوة، وحاجة الإنسان إليها فى معاشه ومعاده. **وعلم الفلسفة**، ويسمى عند بعضهم: علم الأخلاق: علم بأصول يعرف بها حقائق الأشياء، والعمل بما هو أصلح. وفائدته: العمل بما اقتضاه العقل، من حسن وقبيح.

ويتفرع على ذلك علوم أخر: كعلم الارتماطيق، وعلم المساحة، وعلم البيطرة، وعلم الفلاحة، وعلم السحر والطلسمات، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم أحكام النجوم. **فعلم الارتماطيق**: علم يعرف به أنواع العدد، وأحواله، وكيفية تولد بعضه من بعض، أى من حيث أنه زوج أو فرد، أو من زوج زوج، أو من زوج فرد، ونحوها. وفائدته: ارتباط الذهن بالنظر فى المجردات فى المادة ولواحقها. **وعلم المساحة**: استخراج مقدار أرض معلومة بنسبة ذراع أو غيره. وفائدته: العلم بمقدارها. وعلم البيطرة: علم بأصول يعرف بها أحوال الدواب من صحة أو مرض. وفائدته: استعمال ما يصلح لها. **وعلم الفلاحة**: معرفة أحوال النبات، من حيث تنميته بالسقى والعلاج. وفائدته: معرفة حاله من نمو أو غيره. **وعلم السحر والطلسمات**: علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير فى عالم العناصر، إما بلا معين أو معين سماوى، والأول السحر، والثانى الطلسمات. وفائدتها: تغيير الشىء من حال إلى حال. **وعلم الفراسة**: معاينة المغيبات بالأنوار الربانية بسبب قرب آثار الصور. وفائدته: **الإخبار بما ظهر** بالتفرس. **وعلم تعبير الرؤيا**: علم يعرف به الاستدلال، من **التخيلات الحلمية**، على ما شاهدته النفس حال النوم من عالم الغيب وحكته القوة **المخيلة بمثال** يدل عليه من عالم الغيب والشهادة. وفائدته: الإخبار بما ظهر بالاستدلال بما ذكر. **وعلم أحكام النجوم**: علم يعرف به الاستدلال بالأشكال الفلكية على الحوادث السفلية. وفائدته العمل بما ظهر بالاستدلال بما ذكر.

واعلم أن بعض العلوم المذكورة قد يمكن دخوله فى بعض، كعلم الفرائض، فإنه وإن كان داخلا فى علم الفقه فقد أفرد على حدته، وكعلم الارتماطيق، فإنه وإن كان داخلا فى العلم التعليمى فقد أفرد على حدته. انتهى ما قاله العلامة زكريا الأنصارى فى رسالته..

* * *

وقال بعضهم: تنحصر العلوم الرياضية فى أربعة: الهندسة، والهيئة، والموسيقى، والحساب، وقال بعضهم:

إن علم الحساب علم رفيع ... فيه عون إذ تشترى وتبيع

لم يضع قط درهم بحساب ... وألوف بلا حساب تضيع

وقيل:

إن الحساب من العلوم جليل ... وعلى دقيقات الأمور دليل

فاحرص على علم الحساب فإنه ... برياضة المستصعبين كفيل

لولا الحساب لعلم كل فريضة ... لم يعلم التحريم والتحليل

وقال بعضهم: العلم علمان، علم اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب، فذلك العلم النافع. والعلم النافع هو الذى يتبعه العمل. وقال بعضهم: إن الحكمة هى كل ما دعت إلى مكرمة أو نهت عن قبيح، وهى ما قال فيها عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها حيث وجدها». وهى أيضا المرادة بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ (البقرة: ٢٦٩)، فسرها العلماء بتفاسير كثيرة ترجع إلى العلم النافع، ولله در من قال:

إنما النفس كالزجاجة والعلـ ... ـم سراج وحكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنك حى ... وإذا أظلمت فإنك ميت

وقيل: العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك. وقيل: الخير كثير، وقليل فاعله!

وأفضل العلوم: علم دين الله وشرائعه، فإن به حفظ الإيمان والإسلام اللذين هما من أجل ودائعه، وأفضله: علم العقائد الدينية، فإن به يهتدى المكلف إلى المسالك السنية، ويرتقى إلى المراتب السنية. والعلوم الواردة فى الكتاب والسنة منها ما يتعلق بأفعال المكلفين، ومنها ما يتعلق بأحوال المبدأ والمعاد، ومنها ما يتعلق بالأخلاق، من الزهد والصبر والرضى وحضور القلب فى العبادات، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

والأول منها إما أن يتعلق بأفعال المكلفين بطريق القصص والأخبار، ويسمى علم الوعظ والتذكير، وإما بطريق شرع الأحكام من الاقتضاء والتخبير، فإما أن يكون البحث عنها بتمهيد قواعد كلية يتوصل بها إلى استنباط الأحكام، ويسمى هذا بعلم أصول الفقه، أو باستنباط الأحكام الجزئية من أدلتها التفصيلية، ويسمى بعلم الفقه، وعلم الشريعة، وعلم المذهب.

وأما الثانى وهو المتعلق بالمبدأ و المعاد، أى بأحوالهما، فإن كان لإثبات العقائد الدينية فقط، فيسمى بعلم الاعتقادات، وعلم أصول الدين، وإن اعتبر مع ذلك الإلزام على المكابرين فى الحق والمعاندين فى الدين، يخص باسم علم الكلام، وأما الثالث، وهو المتعلق بالأخلاق الباطنة، فيسمى بعلم التصوف، وعلم الرياضة، ومكارم الأخلاق، فهذه العلوم الخمسة [1]، أعنى: علم التذكير، والأصول، والفقه، والكلام، و التصوف، وهى العلوم الدينية التى يجب تحصيلها على كل مكلف الذى تضمنه قوله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». ومن أشكل عليه علم من العلوم فعليه أن يرجع إلى أهله، فمن أشكل عليه شىء من تعلق الفقه رجع إلى أئمة الفقه، ومن أشكل عليه شىء من علوم الأحوال والرياضيات ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع إلى أئمة الصوفية.

قال بعضهم: ويجب على طائفة من الأمة أن يتفقهوا فى الدين، ليكونوا قدوة

(١) فى المطبوع: الستة. وهو لا شك خطأ يمنعه التقسيم الوارد فى السياق.

للمسلمين، وحفظا للشرع من الضياع، فإذا قامت به هذه الطائفة سقط فرض الكفاية عن غيرها، والمراد بالدين: دين الإسلام، وقد جاء صلى الله عليه وسلم بالهدى والنور، ومن ذلك ما شرعه الله على لسانه من التحليل والتحريم، والوصايا والآداب، وسير الأولين والآخرين، وما قص من أحسن القصص، فأين كان صلى الله عليه وسلم من الجانب الغربي إذ قضى الله إلى موسى الأمر؟ قال الله عز جل: ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ** ﴾ (القصص: ٤٤)، ولما انقلبت العصا حية، وولى موسى عليه السلام هاربا، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴾ (آل عمران: ٤٤)، وكانت الأخبار الماضية، وهى غيب لا يعلمها إلا الله، عز وجل، ثم من كان فيها، فأخبر هو عليه السلام بها، وشهدت العلماء منهم بذلك، كما قال عز وجل: ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ** ﴾ (الأحقاف: ١٠)، أى أنه لم يختلف خبره صلى الله عليه وسلم عن خبر التوراة والإنجيل، فكان هذا أمرا واضحا فى إعلام الله له بما كان من ذلك الغيب، وكذلك ما كان غائبا عن أهل وقته مما علم به كقوله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ (التحريم: ٣)، فأحاط بالغيب من الوجوه الثلاثة: الماضى، كقوله: (إذ قضينا) والمستقبل، كقوله (سيغلبون) والحاضر، كقوله: (نبأنى العليم الخبير) فأحاط بالغيب من جميع جهاته. ومما استدل به الأكثرون على أفضلية الفقه على غيره من العلوم، بعد معرفة الله تعالى، قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (التوبة: ١٢٢)، لما كان نفر جميع المؤمنين لطلب التفقه غير ممكن، قال الله تعالى: (فلولا) أى فهلا (نفر من كل فرقة منهم طائفة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم لتحصل بهم الكفاية (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتحملوا المشاق لأخذها وتحصيلها (ولينذورا قومهم) ليجعلوا عزمهم وصرف همتهم فى التفقه إنذار قومهم

وإرشادهم ونصحهم، فأجب تعالى النفر فى طلب التفقه على البعض دون الكل، لعدم إمكانه، ثم ينصرفون بعد التفقه راجعين إلى أوطانهم، فيعلمون غيرهم الذين لم ينفروا من أوطانهم، وقد أثنى الله تعالى عليهم بأن جعلهم منذرين. وقيل:

فلولا العلم ما شرفت أناس ولا عرفوا الحلال من الحرام

وأهل الله أهل العلم حقا بما حفظوه من حسن الكلام

فالفقيه، كل الفقيه: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم فى معاصى الله، ولم يؤمنهم عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره.

وقد جرت عادة الله تعالى فى خلقه، على مر الأعوام والدهور، أنه لا يخلو زمن من الأزمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الأعلام، لإقامة شرائع الإسلام وتقرير الحدود والأحكام، وأنه إذا انقرضت طائفة خلفتها أخرى، ولهذا قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتى قائمين بأمرى، متظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله». فسره البخارى: بطائفة أهل العلم، فالكتاب والسنة موجودان بين المسلمين إن شاء الله تعالى إلى يوم الدين.

وقد انتهى تدوين فروع الفقه إلى أربعة، كلهم عدول، عدلهم العلماء، وأخذوا عنهم، لتلقيهم الأحكام التى اجتهدوا فيها عن الصحابة والتابعين والعلماء مما استقر ذلك عمن ذكر، وهؤلاء الأربعة هم الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد الشافعى بن إدريس، والإمام أحمد بن حنبل، ولكل واحد من هؤلاء الأربعة أتباع قلدوا متبوعهم فيما ذكره، فكل مجتهد وكل مقلد لمجتهد، فيما صح عنه، على خير ، حيث أراد الله به الخير وفقهه فى الدين. وأما اختلاف الأئمة فى بعض المجتهدات فللرحمة العامة المبعوث بها صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء ١٠٧)ويحسن هنا قول الشيخ الجعبرى، رحمه الله، فى الأئمة، حيث قال:

بالشافعى بمحمد وبأحمد	وبمالك وأبى حنيفة نقتدى
علماء دين الله جل جلاله	أنصار شرع الهاشمى محمد
الخلف منهم فى المذاهب رحمة	وتفسح فى الدين فاسمع واقتد
ما كان خلفهم عنادا فاستمع	قولى ودع قول اللئيم المعتدى
كل روى عن أحمد ما قد روى	عن ربه فالكل هاد مهتدى
أخذوا بقول الله جل جلاله	حقا وبالخبر الصحيح المرشد
نقدوا الصحيح من السقيم وبينوا	نهج الصواب لأهل سنة أحمد
فيهم بدا نهج الهداية ظاهرا	فاسلكه ترشد للصواب وتسعد
فالله يرحمهم ويرضى عنهم	أهل الهداية والمقال الأرشد

وقال صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذه بحظ وافر». فالعلم أفضل العبادات، وأشرفها، وأكملها، وأفخرها، والعلماء أفضل الناس، وأرفعهم قدرا، وأحسنهم ذكرا، والأحاديث والآثار المرغبة فى إفادة العلم واستفادته كثيرة، وكيف لا، وهو أولى ما صرفت الهمة فى تحصيله، وأعلى ما دأب المكلف فى معرفة دليله ومدلوله، وهو، وإن تنوع، فمرجعه إلى علم ربوبية، وعلم عبودية، ومعرفة الله أولى بالتقسيم، وهى السبب الأعلى والطريق المستقيم. وروى البخارى، ومسلم، من حديث معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين». قال الإمام النووى، رحمه الله: وهذا من أقوى الأدلة على الحكم على طالب العلم بأن الله تعالى أراده واصطفاه، لأن إرادة الله بالخير للإنسان مغيبة عنا. وهذا فيمن طلب العلم مريدا به وجه الله تعالى، وأما إذا كان طلب العلم لغرض دنيوى، كمال، أو رياسة، أو منصب، أو جاه، أو شهرة، أو نحو ذلك، فهو مذموم، وقد قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي**

حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى : ٢٠). وقال صلى الله عليه وسلم : «من تعلم علما يريد به عرضا [١] من الدنيا لم يرح [٢] رائحة الجنة». أى لم يجد ريحها أو لم يشمه، وعنه صلى الله عليه وسلم : «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قيل : وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال : «حلق العلم». وروى عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال : قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «يا أبا ذر، لإن تغدو فتعلم آية من كتاب الله تعالى خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولإن تغدو فتعلم بابا من العلم، عمل به أو لم يعمل به، خير لك من أن تصلى ألف ركعة». قال بعضهم : وهو نهاية فى التحريض على نشر العلم وتعليمه للناس، والتصدى لتعليم أحكام الدين، وبيان جزيل الثواب للمعلم وإن كان ما يعلمه قليلا، وقوله صلى الله عليه وسلم : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته (بفتح اللام) فى الخير ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس». وقوله صلى الله عليه وسلم : «يا أيها الناس، إنما العلم بالتعلم». وقال بعضهم : أول العلم الصمت، والثانى الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره.

قال بعضهم : والمنكر لما وردت به الشرائع هو الذى كلّ ذهنه ووقف فهمه بسبب طربه من النظر فى علم المعقولات، ثم لا يتقنه ولا يحققه، فتختلط عليه الأمور وتلتبس، ولا يهتدى بشىء، ولهذا ترى كثيرا ممن ينسب إلى المعقولات عارض كثيرا من الأحاديث والسنن الثابتة، وأنكرها، وقال بخلافها، كالفلاسفة، وغالب أهل المنطق من الإسلاميين، وذلك أنهم لم يتقنوا المعقول كل الإتقان، فخلطوا، وظنوا أن الأحاديث النبوية تخالف القواعد العقلية، فلم يسعهم إلا ردها أو تحريفها لتوافق المعقول، بزعمهم، ولو اتقنوا المعقول لعلموا أن الشرع لم يرد بما يخالف العقل ألبتة، فكانوا يطبقون الأحاديث على المعقولات، انتهى. وكما يجب

(١) وهو بالعين، المهملة، وفتح الراء : متاع الدنيا وحطامها. (الطهطاوى).

(٢) وقوله : لم يرح - بفتح الياء والراء - أصله : يراح، أى : وجد الريح. وحكى بعضهم : ضم أوله وكسر الراء، والأول أجود، وعليه الأكثر، وحكى ابن الجوزى ثالثة : وهى بفتح أوله وكسر ثانيه، من راح يريح، وعبارة (النهاية) شاملة للغات الثلاث، ونصها : «راح يريح، وراح يراح، وأراح يريح، إذا وجد رائحة الشىء». (الطهطاوى).

علينا الإيمان والتصديق بكلام الأئمة، وإن لم نفهم علته، حتى يأتينا عن الشارع ما يخالفه. وقال بعضهم: كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلال.

وقال صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» ـ بضم القاف أى مارسوا الفقه وتعاطوه، أى أن أصول بيوتهم الشريفة تعقب أمثالها، ويسرى كرم أعراقها إلى فروعها، ولا يكون فيه خيار بمجرد ذلك، فلا خيار فى الإسلام إلا بالفضل والتقوى، فمن اتفق له مع ذلك أصل حميد شريف الأعراق كملت فضيلته، وربما فضل عن غيره، والسائحون فى قوله تعالى هم طلاب العلم، والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس، لأنه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة، وقد يلقى الأكابر من الناس فيستحقر نفسه فى مقابلتهم، وقد يصل إلى المدارس الكبيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم، فتتقوى معرفته، فالرحلة إلى العلماء والانتقال عن الأوطان فى طلب العلوم واكتساب الفضائل والفوائد هى أمر واجب أو مستحب، وحينئذ فمن لم يجد معلما يعلمه فى بلده أو وطنه ما يحتاج إليه من أمر دينه ومعاشه فليرحل وجوبا فى الواجب وندبا فى المندوب، اقتداء بالسلف الصالح والخلفاء التابعين، فقد رحل موسى إلى الخضر عليهما الصلاة والسلام للاستفادة منه، ورحل جابر بن عبدالله الأنصارى، رضى الله عنه، مسيرة شهر إلى أنس بن عبدالله فى طلب حديث واحد، ورحل عتبة بن الحارث من مكة إلى المدينة فى مسألة واحدة، ولا يخفى ما يحصل للإنسان فى غربته من الفضائل العظيمة والخصال الجسيمة، وقيل:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلى ... وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم، واكتساب معيشة ... وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

وإن قيل فى الأسفار ذل وغربة ... وقطع فياف وارتكاب شدائد

فموت الفتى خير له من حياته ... بدار هوان بين واش وحاسد

ومثل بعضهم، في معنى ذلك، بمثالين: **أحدهما**: أن الماء الصافي الزلال إذا استمر في محل واحد من غير ورود شيء عليه من ماء آخر فإنه يصير متغيرا منتنا، **الثاني**: أن البدر المنير لولا غربته وانتقاله من منزلة إلى منزلة لم يحصل له الكمال والشرف، وما أحسن ماقيل في معنى ذلك:

كثرة المكث في المنازل ذل   فاغتنم سفرة بها تتفنن

ما جرى الماء فهو عذب زلال   وإذا طال مكثه يتعطن

ومعلوم أن الغربة للإنسان أفضل من الإقامة في بلده، والله تعالى لا يزال في عون عبده، غائبا كان أو حاضرا، مقيما أو مسافرا. وكان صلى الله عليه وسلم يقول للمسافر: «استودع الله دينك وأمانتك». وجاء رجل فقال: إني أريد سفرا، فقال له: «زودك الله التقوى»، قال: زدني، فقال: «وغفر ذنبك»، فقال: زدني، فقال «ويسر لك الخير حيثما كنت وتوجهت». وذكر بعض الفضلاء أنه لما حج، وأراد الانفصال، كان قد صحبه أفاضل من أهل العلم بمكة، فخرجوا معه لوداعه، وقالوا له: تريد أن ترجع لهذا الموضع؟ قال: نعم، قالوا: اقرأ عند آخر رؤيتك هذا الموضع من سورة القصص قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ (القصص: ٨٥)، فإنك ستعود إن شاء الله تعالى، قال: فقرأتها فعدت، وقرأتها أيضا فعدت، وقرأتها وأنا راج أن أعود إن شاء الله تعالى. ويقوى ما قاله هذا الفاضل ما رواه أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه المسمى (بانبعاث الساكن إلى أشرف المساكن) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج مهاجرا من مكة إلى المدينة أدركته في الطريق الوحشة، فنزل عليه جبريل، وقال: قل: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾، ولا يبالي الشخص بما يقاسي في الغربة من الهموم والمذلة وكسر النفس والإهانة، وغير ذلك، حيث كان متمسكا بالتقوى، وقد أنشد الشيخ أيوب الشامي في ذلك حيث قال:

زعم الذين تشرقوا وتغربوا   إن الغريب وإن أعز ذليل

فأجبتهم إن الغريب إذا اتقى   مهما أحل به الركاب جليل

ثم، لا فرق بين أن يكون غنيا أو فقيرا ، مالكا أو مملوكا، فلا تحتقره لما هو فيه من الفقر والفاقة، بل اعتبر فضله دون عيبه، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». فلا عبرة بالظواهر، كما قيل:

يرى ظاهرى للناس فى حسن صورة ولى كبد ملقى على آلة السبك

ولى ظاهر ينكى العدو وباطن مليمى لو يدرى حقيقته يبكى

وقال صلى الله عليه وسلم: «شدائد الدنيا أربعة، أولها: غربة، ولو كانت ساعة، وثانيها: دين، ولو كان حبة، وثالثها: سفر، ولو كان فرسخا، ورابعها: سؤال، ولو كان مقدار خردلة». وقال بعضهم: السؤال مر، لما يترتب عليه من بذل الوجه الذى لا يعدله شىء فى الدنيا، ولهذا قيل:

وإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

قال العلماء، رضى الله عنهم: ما وجب عليك عمله من عبادة وغيرها وجب عليك العلم به فورا، عند إمكانه. وقال ابن عباس، رضى الله عنهما: كفاك من علم الدين ـ (أى الشريعة) ـ ما لا يسعك جهله ـ أى ما لا بد لك من معرفته فى إقامة واجبات الدين، ويكفى فى ذلك معرفة أحكامها الظاهرة، ، ولا تجب معرفة دقائقها، فالظاهرة نحو تعلم كلمتى الشهادة، وفهم معناهما، بحيث يجزم اعتقاده بذلك، ولو عن تقليد، وتعلم واجبات الطهارة، والصلاة، وتعلم الصوم، بأن يعلم أن وقته من الفجر إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه النية، والإمساك عن المفطرات من أكل ونحوه، وأن ذلك مستمر إلى رؤية الهلال أو تمام العدة. وتعلم واجبات ما لزمه من الزكاة، وتعلم كيفية الحج إذا عزم على فعله، بأن يعلم أركانه وواجباته وغير ذلك من دقائقه. وفى الأثر: من عبد الله تعالى بالجهل كان ما يفسده أكثر مما يصلحه. وروى الطبرانى فى الأوسط: ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، وقوله: ولفقيه واحد، أى وجوده وبقاؤه، فإن الفقيه يأمر الناس بالطاعة، ويدعوهم إلى سبيل الرحمن،

فيصلون إلى السعادة الباقية والدرجات الراقية، وكل ذلك مخالف لمراد الشيطان، فيكون العالم أشد عليه وأبغض إليه، بخلاف العابد، والمراد من الألف هنا: المبالغة فى الكثرة، وقال عمر، رضى الله تعالى عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا ـ بضم المثناة وفتح السين وتشديد الواو ـ أى تجعلوا سادة، ومعناه تعلموا العلم قبل أن تصيروا سادة منظورا إليكم فتستحوا أن تتعلموا بعد الكبر فتبقوا جهالا، وقيل قبل أن تتزوجوا وتشتغلوا بالزواج عن العلم، وروى أيضا: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى، فإذا رأى أن الله أقامه فى طلب العلم كان ذلك دليلا على أن الله تعالى أراد به خيرا».

(تعريف الدين)

وعـرّف بعضهم الدين بأنه: «وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة، باختيارهم المحمود، إلى ما هو خير لهم بالذات». فقوله: «وضع إلهى» أى أحكام وضعها المولى وشرعها وبينها، قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ (الشورى: ١٣)، وأما وصف نبينا بكونه شارعا فباعتبار نقلها عن الله، ولذلك يقولون: نبينا هو الشارع المجازى، والله هو الشارع الحقيقى، واحترز بذلك عن وضع الخلق كآلات النجارة والقزازة وغير ذلك فلا تسمى دينا، وقولنا: «سائق»، أى باعث، خرج به الأوضاع الإلهية غير السائقة، كإنبات الأرض وإمطار السماء، وقولنا: «لذوى العقول»، خرج به ما يسوقهم وغيرهم من الحيوانات، كالأوضاع الطبيعية التى تهتدى بها الحيوانات لمنافعها، كنسج العناكب، واتخاذ النحل بيوتا، ومضارها كاجتناب المهاوى والمهالك، وقولنا: «باختيارهم»، خرج به الأوضاع الإلهية الاتفاقية، كالحمية والعصبية، وقولنا: «المحمود»، احتراز عن الاختيارى المذموم، كالانهماك فى الدنيا والشهوات، فلا يسمى دينا، وقولنا: «إلى ما هو خير لهم بالذات»، كالانهماك فى خدمة الله وطاعته ومحبته، فإن ذلك خير ذاتى، يترتب عليه الفوز الأكبر غدا، واحترز بذلك عن الخير لا بالذات، كالانهماك فى تصحيح الأبدان بالحكمة والعقاقير وغير ذلك، فلا يسمى دينا.

وأجمع من هذا التعريف وأظهر منه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة: ٥)، وسمى دينا للتدين به، ويسمى ملة أيضا، وصراطا مستقيما، قال تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة: ٦)، أى الدين القيم الذى لا اعوجاج فيه، فمن سب الدين أو الملة أو المذهب فإنه يكفر، لأنها عبارة عن الشرع الشريف الذى شرعه الله لنا، قال تعالى ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (النحل: ١٢٣).

وقد فضل الله تعالى هذه الأمة على سائر الأمم بما خصهم به من الإيمان والحكم والعلوم الشرعية، خصوصا علم الشريعة والحقيقة، قال تعالى ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ (الحج: ٧٨)، ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة: ١٤٣) ومعنى الوسط، فى الآية: الجزء الذى بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط لتوسطهم فى الدين، فلم يغلوا كغلو النصارى، ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال. وقال الطبرى: الوسط فى كلام العرب الخيار، يقولون فلان وسط فى قومه، وواسط: إذا أرادوا الرفع فى حسبه. وقال الزمخشرى: قيل للخيار وسط، لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأوساط محفوظة. وقال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وهذه الآية مما استدل بها على أفضلية نبينا محمد، صلى الله عليه سلم، على جميع المخلوقات، إذ حاصلها الإخبار بأن أمته أفضل الأمم، ولا شك أن خيرية الأمم بحسب كمالهم فى الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذى يتبعونه، فتفضيل الأمة، من حيث إنها أمة، تفضيل للرسول الذى هم أمته. وروى عن عمر، رضى الله عنه، عن النبى، صلى الله عليه وسلم: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى». وفى حديث عبدالله بن بريدة:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة». وأدل دليل على عظم شرفهم ورفعة رتبتهم وكمال فخرهم عند ربهم قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (المائدة: ٣).

وأما الدين فثلاثة: إيمان، وإسلام، وإحسان. فالإيمان، لغة: التصديق، بمعنى إذعان الحكم وقبوله، وهو «أفعال» مأخوذ من الأمن، لأن حقيقته الأمن من التكذيب والمخالفة، وشرعا: تصديق القلب بما علم ضرورة مجيء الرسول به من عند الله. ولا يعتبر إلا مع التلفظ بالشهادتين من القادر، وهل النطق بهما شرط لإجراء أحكام المؤمنين فى الدنيا أو جزء من مسماه؟ قولان، ذهب جمهور المحققين إلى أولهما، وذهب كثير من الفقهاء إلى ثانيهما. ولكن من صدق بقلبه واخترمته المنية قبل اتساع وقت الإقرار به فهو مؤمن عند الله تعالى.

والإسلام: أعمال الجوارح من الطاعات، كالتلفظ بالشهادتين، والصلاة، والصوم، والحج، ولكن لا تعتبر الأعمال فى الخروج عن عهدة التكليف إلا مع الإيمان والتصديق.

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما فى خبر الصحيحين المشتمل على بيان الإيمان بأن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر كله، خيره وشره.

وجملة أحكام التكليف خمسة: واجب، ومندوب، ومحظور، ـ (أى حرام) ـ ومكروه، ومباح، فالواجب: يرسم بأنه الذى يثاب فاعله امتثالا، كالصلاة، ويعاقب، بمشيئة الله تعالى، تاركه، ويرسم المندوب بأنه: الذى يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه، ويرسم المحظور بأنه: الذى يعاقب، بمشيئة الله تعالى، فاعله، ويثاب تاركه امتثالا، ويرسم المكروه بأنه: الذى يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، ويرسم المباح بأنه: الذى ليس فى فعله وتركه ثواب ولا عقاب.

وشرائط التكليف ثلاثة: أحدها: البلوغ، وثانيها: العقل، وهو صفة يميز بها الحسن والقبيح، ومحله القلب، فلا تكليف على صبى ومجنون لرفع القلم عنهما. وثالثها: بلوغ دعوته صلى لله عليه وسلم إلى توحيد الله تعالى، قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥).

وجملة أركان الإيمان، أى أجزائه التى تتركب منها ماهيته، ثمانية، يجب على المكلف أن يعلمها، بأن يعتقد ويصدق بقلبه اعتقادا جازما، ومعنى تصديقه العلم بأنه تعالى واجب الوجود بذاته، وقدمه، ووحدانيته، وألوهيته، وبصفاته، وبرسله، وبأن دين الإسلام حق، وبأن الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، صادقان فيما أخبرا به، فلا يكفى الاعتقاد من غير علم، إذ اعتقاد صدق الله ورسوله إنما يصح بعد العلم بصدقهما فى أخبارهما، وإنما يكون كذلك بعد العلم بأنه حى، وبعد العلم بأنه فاعل، إلى آخر الصفات الآتية: **الأولى**: أن الله حى، لقوله تعالى ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ولأنه لا يجوز وجود شيء من الأمور الموجودة من غير حى. **الثانية**: أن تعتقد أن الله تعالى عليم بالجزئيات والكليات[1] لقوله تعالى ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (النساء: ١٦٦)، ولقوله تعالى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (الرعد: ٢٩ - المؤمنون: ٩٢)، ولأن الأفعال المشاهدة لا تحصل من جاهل، مع أن الجهل نقص. **الثالثة**: أن تعتقد أن الله قادر على كل شيء، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٠)، **الرابعة**: أن تعتقد أنه متكلم بكلام نفسى أزلى قائم بذاته من غير حرف ولا صوت ولا انتهاء، لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ﴾ (الفتح: ١٥)، ولقوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٤)، فالكلام المشتمل على الحرف والصوت دال على الكلام النفسى القائم بالذات، اتصف به المولى، و أسمعه نبيه موسى بهذا الوصف من غير حرف ولا صوت، والكلام صفة عبر عنها بالنظم المعروف المسمى بالقرآن، غير مخلوق، بمعنى أنه موجود أبدا وأزلا، مكتوب فى

---

(١) فى هذه القضية انظر «ضميمة العلم الإلهى»، لابن رشد، ولقد حققناها مع (فصل المقال) له أيضا. طبعة دار المعارف، بمصر سنة ١٩٧٢ م.

مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه، محفوظ في صدورنا، مقروء بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة. **الخامسة**: أن نعتقد أنه تعالى سميع من غير جهة قرب ولا بعد، سواء في ذلك السر والجهر، لا تختلف عليه الأصوات، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ﴾ (المجادلة: ١)، وأن عدم السمع نقص، والسمع صفة أزلية تحيط بالمسموعات. السادسة: أن تعتقد أنه تعالى بصير، من غير حدقة ولا جارحة، والإبصار صفة أزلية تحيط بالمبصرات فالله مبصر للأشياء بلا واسطة. السابعة: أن تعتقد أنه تعالى مريد لكل واقع في العالم، من خير وشر، وطاعة ومعصية، وإن كان لا يرضى المعصية من خلقه، والإرادة صفة تخصص أحد طرفي الشيء من الفعل والترك بالوقوع، ومذهب محققي أهل السنة: أن الإرادة والمشيئة غير الرضى والمحبة، لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ (الزمر: ٧)، مع قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** ﴾ (الأنعام: ١١٢)، **الثامنة**: أن تعتقد أنه تعالى باق، أي واجب الوجود لذاته، بغير زمان ولا نهاية، بمعنى أنه لا يسبقه قدم ولا يلحقه عدم. فهذه الصفات الثمانية للذات المقدس قديمة، لأنها قائمة بذاته لازمة له، وقد نظمها بعضهم في قوله:

حياة وعلم قدرة وإرادة　　كلام وإبصار وسمع مع البقا

صفات لذات الله جل قديمة　　لدى الأشعري الحبر ذي العلم

وأعمها: العلم والكلام، لتعلقهما بكل واجب وجائز ومستحيل، وتتعلق القدرة والإرادة بالممكنات دون الواجبات والمستحيلات، ويتعلق البصر بجميع الموجودات، قديمها كرؤيته تعالى ذاته وصفاته، وحادثها كرؤيته تعالى ذوات خلقه وصفاتهم، وكل صفة من صفاته تعالى متحدة لا تعدد فيها، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ (طه: ٩٨)، فمن مجاز التشبيه، لأن علمه تعالى واحد لا تعدد فيه ولا سعة، وإنما الاتساع من حيث كثرة التعلقات بالمعلومات، فيجب تنزيهه تعالى عن كل نقيصة، ذاتا وصفات، إذ له الكمال المطلق فيهما، وقد وصف نفسه بالأعلى لعلوه فيهما. إذ ذاته أعلى الذوات قدرا

وشرفا، وكذا كل صفة له، ووصف نفسه بالوحدانية، لتوحده، فلا شبيه له ولا نظير، قديم لا يسسبقه قدم، أبدى لا يلحقه عدم، لأنه لا أول له ولا آخر له، لأنه تعالى خلق العالم، ولأنه لو لم يكن قديما لكان حادثا، وهو باطل، ولا تجوز عليه التغيرات، ولا تحل به الحادثات، تعالى عن الجهة والحلول والهبوط والصعود والقيام والقعود، ليس بمتحرك ولا ساكن، ولا منفصل عن العالم، منزه عن الجسم والتحديد والتقسيم، فلا دهر يخلقه، ولا قهر يلحقه، ولا شيء يستره، ولا كشف يظهره، و لا عد يجمعه، ولا ضد يمنعه، ولا حد يقطعه، ولاكون يحصره، ولا عون ينصره، ولا يتقيد بزمان، ولا يحويه مكان، ولا يتصور فى الأوهام، ولا يتكيف فى الأذهان، ولا يشغله شأن عن شأن ولا يطرأ عليه نسيان، ولا يحمله شيء من مخلوقاته، ولا يعزب[1] عن علمه شيء من معلوماته، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يتوجه عليه عتب ولا لوم، تعالى عن الظلم والجور فى شيء من أفعاله، وعن التناقض فى شيء من أقواله، لا اعتراض عليه فى تصرفه فى مخلوقاته بما أراده فى الأزل من تقدير، أنه منزه عن الأغراض فى الأفعال والأحكام، أفعاله لا تعلل، وكلماته لا تبدل، لا يجب عليه شيء، يثيب من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله. وقال الإمام اللقانى:

فإن يثبنا فبمحض الفضل ... وإن يعذب فبمحض العدل

وقولهم: إن الصلاح واجب ... عليه زور ما عليه واجب [2]

ألم يروا إيلامه الأطفالا ... وشبهها فحاذر المحالا

له الأفضال بالنعم على مستحق النعم، لا قبح فى شيء من أفعاله، كلها حسنة، خيرها وشرها، نفعها وضرها، قليلها وكثيرها، لا حق لأحد عليه، وله الحق على

---

(١) لا يخفى.

(٢) الإشارة هنا إلى رأى المعتزلة، فهم يقولون بوجوب الصلاح والأصلح على الله لعباده. انظر رأيهم فى ذلك بالجزء ١٤ من (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) لقاضى القضاة عبد الجبار ابن أحمد. طبعة القاهرة.

غيره، له إيلام الأطفال والدواب، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، لا اعتراض عليه. ومن اعترض زاد شقاؤه واشتد بلاؤه وعظم عناؤه، ليست الربوبية مقيدة بمصالح العبودية، إذ لا حجر للعباد على ربهم حتى لا يفعل إلا ما يصلحهم، لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية، وقد اجتمعت صفاته الثبوتية والسلبية جميعها فى ضمن سورة الإخلاص، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ نفى الكثرة والعدد، لقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء ٢٢)، ولأنه لو كان معه غيره لما استقام بالخلق والأمر، إذ قد يريد أحدهما إيجاد شيء والآخر نفيه، فلا بد أن يكون أحدهما مقهورا، والمقهور لا يكون خالقا ولا غالبا، فلا يكون إلها، ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ نفى الشريك والمعين، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، نفى العلة والمعلول، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ نفى الشبيه والمثيل. ومن قال لك: ما ذات الله؟ فقل له: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لأن المتماثلين يجرى على أحدهما ما يجرى على الآخر، فلو شابهه غيره وجرى على غيره الحدوث وصفات النقص لجرى ذلك عليه أيضا، فلا يكون إلها. ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، لأن هذه الأمور تلزمه الحدوث، وصفاته النقص، والله تعالى بخلاف ذلك، ولا زمان له ولا مكان. وقيل: البحث عن ذات الله إشراك، والكف عن ذات الله إدراك، ومن قال: ما فعل الله؟ فقل له: كل يوم هو فى شأن، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تشغله الأشياء عن الأشياء، يدبر الأمر يفصل الآيات، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا يجرى فى العالم أمر إلا بإرادته وحكمه، لقوله تعالى ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ (الأنعام: ٥٩)، وإنه لو جرى فى العالم أمر بغير إرادته لكان مقهورا مجبورا، وذلك نقص. وأن تعتقد أنه مثيب لعباده الصالحين، ومعاقب للمذنبين، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧)، وقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)، ولأن الثواب والعقاب لو لم يثبتا لفعل من شاء ما شاء، ولبطل الأمر والنهى والعبادة، وكل ما يخطر ببالنا، مما يمتنع على ربنا، فهو باطل، والله بخلاف ذلك، يعنى أن ما هجس بالبال، أى الذهن، من تصور كيفيته

تعالى، وتشبيهه بشيء من الخلق، ذاتا أو صفة، فهو باطل، أوجبه قصور العقل والمعرفة، فإن الله بخلاف ما يخطر فى الأذهان، وفوق ما تنتهى إليه العقول، ما وحده من كيفه، ولا أصاب حقيقته من مثله، ظهر فبطن، وبطن فعلم، ولطف فجل، تعالى الله عما يقوله المبطلون علوا كبيرا. وما سمعته مما يوهم جارحة، كنحو ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠)، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص : ٨٨)، ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠)، فهو من المتشابهات التى نؤمن بها ونكل علمها إلى الله تعالى، مع القطع بالتنزيه عن ظاهرها، لا ستحالتها عليه سبحانه وتعالى، ونؤولها على ما يليق بجنانه المقدس. وكذا يجب الإيمان بأنبيائه ورسله، أى يجب علينا الجزم واليقين بأنبيائه ورسله، وهم قوم خصوا بنفوس قدسية حصلوا بها على المطالب دون اشتغال بالمبادئ الموصلة، فالنبوة والرسالة بفضل الله تعالى لا بالاكتساب، قال الإمام اللقانى :

ولم تكن نبوة مكتسبة	ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن	يشاء جل الله واهب المنن
وأفضل الخلق على الإطلاق	نبينا فمل عن الشقاق

والنبى : إنسان أوحى إليه بشرع، وإن لم يؤمر بتبليغه. والرسول : إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. والشرع ما شرعه الله من الأحكام للعباد، ولقوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (النساء : ٥٩)، أى لكتابه (والرسول) مدة حياته، وبعد موته إلى سنته، أى اكشفوا عليه منهما، فالكتاب والسنة هما البينات والهدى اللذان أنزلهما الله تعالى، قال تعالى ﴿ حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (غافر : ٢)، وقال جل ذكره وتقدست أسماؤه : ﴿ حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت : ٢)، والسنة أقوال نبيه عليه الصلاة والسلام وأفعاله، وذلك وحى منزل. وإذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها لا تخرج عن المناسبة، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى : ١٠)، لا يجوز التبديل بينهما، ونهى صلى الله عليه وسلم عن انتهار السائل، قال، صلى

الله عليه وسلم: «ردوا السائل ولو بشق تمرة، ولو بمثل رأس العصفور، فلك أجرها مرتين». وروى أن أعرابيا سمع شخصا يقرأ: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ (المائدة: ٣٨)، «والله غفور رحيم»، بدل قوله تعالى: (والله عزيز حكيم) فقال ما ينبغى أن يكون كلام الله تعالى هكذا، فقيل له: إن القارئ غلط، والقراءة (والله عزيز حكيم) فقال: نعم، هكذا يكون، فإنه لما عز حكم.

وكذا يجب الإيمان بالبعث والنشور، لقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ** ﴾ (البقرة: ٧٣)، ولقوله تعالى﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾ (التغابن: ٩)، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (الملك: ١٥)، ولأنه لو لم يكن بعث ولا نشر لما كان أمر ونهى، ولفعل كل من شاء ما شاء، وقيل:

فلو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حى

ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعد ذا عن كل شىء

وكذا يجب الإيمان بالبعث والنشور، لقوله تعالى: (كذلك يحيى الله وبالصراط، وبالميزان القسط، لقوله تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وبالحوض والشفاعة لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ (الكوثر: ١)، فسره النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال: «هو حوض آنيته أكثر من عدد نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ بعده أبدا». ونؤمن بالقرآن، وأنه كلام الله. غير مخلوق، وأنه معجز لجميع البشر، إنسهم وجنهم، مفترقين أو مجتمعين، قال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء: ٨٨)، قال السنوسى، رحمه الله: وأفضل المعجزات القرآن العظيم الذى تنزل آياته تقرع لسماع البلغاء، وتحرك لطلب المعارضة، على سبيل التعجيز، حمية اللسن المتوقدى الفطنة، الأقوياء المعارضين، الخائضين فى كل فن من فنون البلاغة طولا وعرضا، بحيث لا تفلت من معارضتهم أمنع كلمة، وإن لم يعرض فيها بعجزهم، فكيف وهم يسمعون فى تعجيزهم وصريح قوله تعالى: ﴿ **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾

(هود: ١٣)، ثم تنزل معهم، فقال تعالى: (**فأتوا بسورة من مثله**) ومع ذلك لم تتحرك أنفسهم، ومن عادتهم لا يتمالكون معها عند ورود أدنى عارض يقدح فى مناصبهم وإن كان ذلك حتف أنفسهم، فكيف بما هو من نوع البلاغة التى هى كلامهم وتدب فيهم دبيبا، حتى إنهم بها فى كل واد يهيمون، ومن لم يستح منهم وانتدب لمعارضة هذا الأمر الإلهى، كمسيلمة الكذاب، افتضح وأتى بمضحكة يتضاحك منها إلى قيام الساعة، ولو أنهم نقل إليهم القرآن نقل غيره من الكلام، نقل آحاد، لأمكن الاعتذار عنهم بعدم الوصول، كلا بل امتلأت بحملته وصحفه وإشادة أمره الأرض كلها، سهلها وجبلها، بدوها وحضرها، برها وبحرها، مؤمنها وكافرها، وإنسها وجنها، وتطاولت أزمنته على تلك الصفة قريبا من تسعمائة سنة [1]، أفيستريب عاقل بعد هذا فى كونه من عند الله جل وعلا، صدق به نبيه، صلى الله عليه وسلم؟ هذا مع ما فيه من الإخبار، قبل الوقوع، بالغيوب المطابقة، ومحاسن علوم الشريعة المشتملة على ما لا يقدر البشر على ضبطه من المصالح الدنيوية والأخروية، وتحرير الأدلة، والرد على المخالفين بالبراهين القطعية، وسرد قصص الماضين، وتزكية النفس بمواعظ يغرق فى أدنى بحارها جميع وعظ الواعظين، هذا كله على يد نبى أمى ما خط قط كتابا، ولا حصلت له مخالطة لذى علم يمكن بها تحصيل أدنى شيء من ذلك. علم ذلك كله بالضرورة، ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

ثم هذا إلى ما له من المعجزات التى لا تحصى، ثم إلى ما جبلت عليه ذاته الكريمة من الكمالات التى كادت أن تفصح، بل أفصحت، قبل بعثه برسالته خلقا وخلقا، ثم مع ذلك كله أكد الله تعالى صدقه بذكر اسمه، بجميع وصفه، فى الكتب الماضية، قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وأطلق ألسنة الأحبار قريبا من مبعثه بجميع ذلك، حتى أنه سبحانه بفضله مما أكد به زوال اللبس عن نبوته أن منع العرب قبله من التسمى باسمه الخاص به إلا

(١) الكلام للسنوسى، والتاريخ لعصره.

أناسا قليلين تسموا قريبا من مولده باسمه، رجاء حصول النبوة لهم، لما سمعوه من الأحبار، ثم من عظيم فضل الله تعالى فى إزالة اللبس عن نبوته إنه لم يطلق لسان أحد من أولئك الذين تسموا باسمه بدعوى النبوة، فإذا وقفت لعلم هذا كله حصل لك العلم ضرورة بصدق رسالة نبينا ومولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، فوجب الإيمان به فى كل ما جاء به عن الله سبحانه وتعالى، جملة وتفصيلا، كالحشر، والنشر، لعين هذا البدن لا لمثله، إجماعا.

وأما أمور الدين فهى: امتثال المأمورات، وهو أن تمتثل لكل ما أمر الله ورسوله به من فرائض وسنن، وأحكامها، والعمل بهما من غير تهاون ولا تقصير، واجتناب المنهيات، وهى كل ما نهى الله ورسوله عنه، ورضاء بقضاء وقدر، وهو أن ترضى بما قدره الله تعالى عليك من خير أو شر، والمقدر هو الذى يأتى المرء على رغم أنفه من غير اختياره، فنؤمن بذلك ونرضاه، فقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من لم يرض من ربه بوعده ووعيده فهو كافر». قال الله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ـ أى طرف وجانب من الدين ـ ﴿ **فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ (الحج: ١١)، وقال بعضهم: أمور الدين أربعة: صحة العقل، وصدق القصد ووفاء العهد، وحفظ الحد. فصحة العقل: معرفة الله تعالى. وصدق القصد: الإخلاص لله تعالى، ووفاء العهد: امتثال أوامر الله تعالى، وحفظ الحد: هى ترك المعاصى.

* * *

فينبغى لمعلم التلامذة أن يعلمهم أولا عقائد التوحيد، لأن أول واجب على الإنسان معرفة ربنا جل وعلا، ومعرفة أحكام عبادته، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات)، أى ليعرفون، ولأجل أن تتمكن من قلوبهم فى حال صغرهم، وهى خالية، بحيث إذا ورد على قلبهم شىء يخل بالعقيدة الإيمانية لا يتغير، كما قال الشاعر:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وحينئذ فالاشتغال به مقدم على كل الواجبات، إذ بمعرفته تنقذ المهج من أليم المهلكات، فالسعيد من وفق لتحقيق عقائد إيمانه، لما يراه بعد الموت من النعيم والسرور بواضح برهانه.

* * *

قال ابن حجر: إعلم أن الله تعالى أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالشريعة المطهرة والحنيفية السمحة إلى كافة الخلق، فكان ذلك سببا لسعادتهم، وموجبا لصلاح معاشهم ومعادهم، وكان ذلك على فترة من الرسل، ليس للناس شرائع ولا أحكام، ولا علم بالتوحيد، ولا أمر شرعى يحفظ دماءهم وأموالهم، فكانت شريعته جامعة لها ولغيرها من الحكم التى لا تحصى، والنعم التى لا تستقصى، وكان العلماء هم القائمين بعده، صلى الله عليه وسلم، بتقرير تلك الأحكام والشرائع، وتدوين العلوم والمسائل التى استمدوها منه، صلى الله عليه وسلم، ووصلت إليهم بالطرق الصحيحة والأسانيد المتصلة، وكانوا هم الوارثين لتلك المرتبة بعده، صلى الله عليه سلم، والمستحقين لها دون غيرهم، لكونهم نشروا الشريعة لأربابها، وعلموها لطلابها، ولم يكتموها عنهم، لما ورد من قوله، صلى الله عليه وسلم: «ماآتى الله عالما علما إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه». فنشروا العلوم عملا بقوله، صلى الله عليه وسلم، وردوا عن سننه المطهرة كلام الملحدة والمبتدعة وغيرهم، وبذلك صاروا أعظم الناس قدرا، وأكملهم فخرا، وأتقنوا الأصول وأرسوها، واشتغلوا بالفروع ودونوها، واستنبطوا المسائل الفقهية وأثبتوها، وصارت قريبة المأخذ، سهلة المراجعة، وحينئذ فليجد طالبها للتعليم والمطالعة.

* * *

وقد روى أن أبا إسحاق الإسفراييني، رحمه الله، صعد فى زمن هيجان المبتدعة إلى جبل لبنان لأولياء الله تعالى، فوجدهم هناك يتعبدون، فقال لهم: هربتم إلى

هذا الموضع تتعبدون وتركتم أمة النبى، صلى الله عليه وسلم، فى أيدى المبتدعة؟ فقالوا له: أيها الأستاذ، لا قدرة لنا على مخالطة الخلق، وأنت الذى أقدرك الله على ذلك فأنت أهله، فرجع، رضى الله عنه، واشتغل بالرد على المبتدعة، وألف كتابه (الجامع بين الجلى والخفى) أهـ.

وقال رسول صلى الله عليه وسلم: «لا خير فى العيش إلا لمستمع واع، أو عالم ناطق. أيها الناس، إنكم فى زمان هدنة، وإن السير بكم لسريع، وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد». فقال له المقداد، رضى الله عنه: يا رسول الله، ما الهدنة؟ قال: «دار بلاء وانقطاع، وإذا لبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وشاهد مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.»

وإذا علمت ذلك فالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها، والاشتغال بها من أفضل الواجبات، للحاجة إليها، والاضطرار إلى معرفة الحلال والحرام، والمشتبه منهما، ولذلك كان أهلها أفضل من غيرهم.

فأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى، وفهم معانيه، وأحكام آياته ومبانيه، وتبيين مطلقه من مقيده، ومبينه من مجمله، ومحكمه ومتشابهه، وقصصه ومواعظه، ومنسوخه وناسخه، فهم أساس الدين.

وأما الفقهاء فإنهم فضلوا على أصحاب الحديث بما خصوا به من الاستنباط فى فقه الحديث، والتعلق بدقيق النظر فى ترتيب الأحكام وحدود الدين، والترتيب بين الناسخ والمنسوخ وغيرها، فهم حكام الدين.

وأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى يقول:

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (الحشر: ٧)، واشتغلوا بسماعه ونقله وتدقيقه وتمييز صحيحه من سقيمه، فهم حراس الدين.

ثم إن الفقيه إذا اشتغل بالعبادة، واعتزل الناس، ولم يشتغل بالتعليم، فإن كان الناس مستغنين عنه بغيره فذلك ظاهر، وإن لم يكونوا كذلك، بل كانوا محتاجين إليه، فالأفضل فى حقه التعليم، فإن الله تعالى إذا فتح على قلب عبد مواهب العلوم، التى هى أخص صفاته، ولم ينفع بها غيره، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، لأنه حينئذ يكون كاتما للعلم المنهى عن كتمانه، فلا يليق به الإعراض عن المحتاجين والاشتغال عن الإنفاق على من أكرمه الله تعالى عليهم من العباد وأحوجهم إليه، فلا يشتغل بعبادة ولا صلاة نافلة، بل يشتغل بالتعليم، لأنه أفضل من ذلك، كما ورد عنه صلى لله عليه وسلم: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة». ولأن النفع المتعدى إلى الغير أفضل من النفع القاصر، وإن كان كل منهما عبادة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «خير الناس من ينفع الناس». فذو العقل الحاذق والملكة القوية من وفقه الله تعالى لإنفاق أوقاته فى تحصيل العلم واستفادته وأقدره على استنباطه وإفادته، إذ العقل أساس العلم ومنبعه، ولذا وقع الخلاف بين العلماء: هل العقل أفضل؟ أم العلم؟ فمن قائل بالأول، ومن قائل بالثانى، وقد ورد فى فضل العلم الآيات الكثيرة والأحاديث والآثار الشهيرة، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الزمر: ٩)، وقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا**﴾ (طه: ١١٤)، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (فاطر: ٢٨)، وإن من زاد علما فقد بلغ مناه وأرغم أعداءه وعلا قدره بين الأنام، وتكامل فخره بين الخاص والعام، وطاب له عيشه، وصفا له المورد الأهنى، وارتقى إلى المقام الأسنى، وظفرت يداه بالسعادة فى الدنيا والأخرى، وأما الأحاديث والأخبار فكثيرة لا تحصى ولا تستقصى، فإذا أخذ الفقيه حظه من الفقه، وسار حظا وافرا، فينبغى له أن لا يكون عليه مقتصرا وقاصرا، بل ينظر بعد ذلك فى العلوم ذات الترغيب والترهيب، لعله أن يكون له منها حظ ونصيب، ثم فى كلام الحكماء الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا، وارتفع الغطاء عنها حتى اتضح لهم حلية الحق عيانا، ثم فى شمائل السلف الصالحين الذين بذكرهم تتنزل الرحمة من رب العالمين.

وكان شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، رضى الله عنه، يقول: إذا لم يكن للفقيه

علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم فهو جاف، وقال الإمام مالك، رضى الله عنه: إذا كانت العلوم منحا إلهية، مواهب اختصاصية، فليس بمستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. فإياك أن تحتقر من منّ الله عليه بمحبة القوم ومطالعة كتبهم، وتقول ما بقى فى هذا الزمان من يفهم كلامهم، فقد سمعت ما قاله الإمام مالك رضى الله عنه، وقال بعضهم: لا يعترض على الجنيد[1]، والحلاج[2]، وأشباههم من المتقدمين، والشيخ محيى الدين بن العربى، وابن الفارض، ونحوهما من المتأخرين، رضى الله عنهم، وإن كانوا قد شطحوا وباحوا، وتكلموا بأشياء خارقة مما لا قدرة للجاهلين على سماعها، ولا سبيل إليها، بل يسلم إليهم أحوالهم فى الأقوال والأفعال، وحاشاهم أن يصدر منهم قول أو فعل مخالف لقواعد الشريعة، بل ولا يحفظ عنهم هفوة، ولا يصدر منهم زلة، بل لم يزالوا خائفين واقفين على قدم الخوف بالذل والانكسار. وما أحسن قول بعضهم: من لم يعرف مصلحتنا لا يجوز له الخوض فى طريقتنا، فالأولى التغافل عن أمورهم وأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ويحمل ما يراه منهم على أحسن محمل، والتسليم أسلم، ويؤوله على ما يليق به المقام.

وقال بعضهم: إن العلوم، إن تفاوتت أقدارها، وعظمت لدى النفوس أخطارها، فعلم الحديث خير من بينا بأن يشمر له ساعد الجد والعناية، إذ هو مع انتشاره يحتاج لإتقان الرواية قبل الدراية، وقد بذل السلف الصالح، فى ذلك هممهم العلية، وأفكارهم الألمعية، حتى تميزت الأحاديث الصحيحة من الضعيفة، وبلغوا بذلك المراتب الرفيعة الشريفة، فجزاهم الله عن إحياء سنته صلى الله عليه وسلم الجزاء الوافى، وأعطاهم الخير الكثير الشافى..

---

(١) أبو القاسم بن محمد (المتوفي سنة ٩١٠ م) صوفي بغدادي، بلغ في التصوف مرتبة عظيمة، حتى لقب بسيد الطائفة، وطاووس الفقراء، وشيخ المشايخ.

(٢) الحسين بن المنصور (٨٥٨ - ٩٢٢ م) من فلاسفة المتصوفين الذين تجمع من حولهم عدد كبير من المريدين والأنصار، جمهورهم من الفقراء، كانت له صلات ببعض التنظيمات السرية الباطنية، وعنده آراء تنحو نحو العدل الاجتماعي، ويعد مؤلفه (كتاب الطواسين) موسوعة فكره في التصوف الفلسفي. قبض عليه وحوكم وصلب وأحرق لأسباب ظاهرها الفكر وباطنها السياسة!!

جزى الله أصحاب الحديث مثوبة ... وبوأهم فى الخلد أعلى المنازل
فلولا اعتناهم بالحديث وحفظه ... ونفيهم عنه ضروب الأباطل
وإنفاقهم أعمارهم فى طلابه ... وبحثهم عنه بجد مواصل
لما كان يدرى من غدا متفقها ... صحيح حديث من سقيم وباطل
ولم نستبن ما كان فى الذكر مجملا ... ولم ندر فرضا من عموم النوافل
فحبهم فرض على كل مسلم ... وليس يعاديهم سوي كل جاهل

وروى عكرمة، مولى ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: سمعت على بن أبى طالب، رضى الله عنه، يقول: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم ارحم خلفاى»، قلنا: يا رسول الله، من خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى وسنتى ويعلمونها الناس». وقال صلى الله عليه وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». فهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمةالمسلمين، لحفظهما الشريعة من التحريف والانتحال الباطل، ورد تأويل الجاهلين.

وسئل الإمام مالك: هل يقدم فى الأحاديث أو يؤخر، والمعنى واحد؟ قال: أما ما كان من قول النبى صلى الله عليه وسلم فإنى أكره ذلك، وما كان من غير قوله فلا أرى به بأسا إذا اتفق المعنى. قيل للإمام مالك: أرأيت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزاد فيه الواو أو الألف، والمعنى واحد؟ قال: أرجو أن يكون خفيفا. وشدد غيره، لأن المعنى يختلف بذلك غالبا. وقال الإمام مالك: ولا يؤخذ العلم عن أربعة، ويؤخذ عمن سواهم، لا يؤخذ عن مبتدع يدعو إلى بدعته، ولا عن سفيه معلن بالسفه، ولا عمن يكذب فى أحاديث الناس وإن كان يصدق فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا عمن لا يعرف بهذا الشأن. وقال بعضهم: من جالس أهل البدع تعلق قلبه بشىء مما يسمع، وقيل: لا تمكن زائغ القلب من أذنك. وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته». وهذا إذا كانت البدعة محرمة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من أحدث» ـ أى اختراع وأتى من قبل نفسه بأمر حادث، وهو المسمى بالبدعة ـ «فى أمرنا هذا» ـ أى فى ديننا وشرعنا ـ «ما ليس منه» ـ أى ما ليس له فيه مستند من الكتاب والسنة، سواء كان ذلك الأمر الحادث قوليا أو فعليا أو اعتقادا ـ «فهو رد» ـ أى مردود على فاعله ببطلانه ـ، فكأنه قال: غير معتد به ولا معول عليه، وهو عام مخصوص بالحادث الذى دل الشرع على حرمته. ورواية الإمام مسلم «من عمل عملا» ـ أى أحدثه هو أو غيره وعمل به ـ «ليس عليه أمرنا» ـ أى لا يرجع إلى دليل شرعنا ـ «فهو رد» ـ أى مردود ـ. وقد قسم ابن عبد السلام الحوادث إلى الأحكام الخمسة، فقال: والبدعة: فعل ما لم يقع فى عصر النبى، صلى الله عليه وسلم، وتكون واجبة كالاشتغال بعلوم العربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، ومحرمة كالاشتغال بمذهب أهل البدع كالقدرية [(١)] والجبرية[(٢)] المخالفين لمذهب أهل السنة، وتكون البدعة مندوبة كإحداث الربط وبناء القناطر، وتكون البدعة مكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف. وقال المتولى، من الشافعية: لا يكره ذلك، لما فى ذلك من إعزاز الدين وتعظيمه، وتكون البدعة مباحة كالتوسع فى المأكل والمشرب والملابس الفاخرة، وغير ذلك. ومن البدع المباحة أيضا اتخاذ المناخل للدقيق، لأن أول شىء أحدثهالناس بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، اتخاذ المناخل، ولأن تليين العيش وإصلاحه من المباحات، ومن البدع المباحة الأكل بالملاعق. وقد حضر الإمام أبو يوسف، صاحب الإمام أبى حنيفة، رضى الله عنهما، مائدة الخليفة هارون الرشيد، فطلب الملاعق، فقال له أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، قد قال جدك ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ** ﴾ (الإسراء: ٧٠)، أى جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، ولم نجعلهم كالدواب تأكل بأفواهها! فرد الخليفة الملاعق، وأكل بأصابعه! فتبين من معنى الحديث الأمر باتباع ما جاء به الشرع، والتحذير من

(١) مصطلح يطلقه أهل السنة على المعتزلة، لأنهم يثبتون للإنسان قدرة، عندما يقولون إنه حر مختار صانع لأفعاله.

(٢) هم الذين ينكرون اختيار الإنسان، وصنعه لأفعاله، وهناك جبرية خالصة هم «الجهمية» أتباع «الجهم بن صفوان»، وجبرية متوسطة، تعد الأشعرية فيهم.. ولتفاصيل ذلك راجع كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. و (رسائل العدل والتوحيد) جـ ١، جـ ٢ التى حققناها وقدمنا لها. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م.

الابتداع، وحينئذ فالبدعة خاصة بالحادث المذموم. وروى عن ابن مسعود أنه قال: عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة. وعن أنس أنه قال: إذا مات صاحب بدعة فقد فتح فى الإسلام فتح. وأخرج الطبرانى، عن عبدالله بن بشير، أنه قال: من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام. وقيل: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وكان ابن عباس، رضى الله عنه، حبر الأمة، ومن الراسخين فى العلم بدعاء النبى، صلى الله عليه وسلم، له بالتفقه فى الدين، وبعلم التأويل، والحكمة، وكان ابن عباس يفتى على عهد سيدنا عمر وعثمان، رضى الله عنهما، إلى أن مات، رضى الله عنه.

وكتب أبو عمرو فى بعض رسائله: من كان من العلم محروما لم يكن من الزلل معصوما. فالعلم دعامة الإسلام والعلماء سرج الأنام.

وقال أمير المؤمنين على، كرم الله وجهه: قيمة كل امرىء ما كان يحسنه، أقل الناس قيمة أقلهم عقلا، ثمرة الأدب العقل الراجح، وثمرة العلم العمل الصالح. وقيل: كل شىء إذا كثر رخص إلا العقل، فإنه كلما كثر غلا. وفى هذا المعنى (شعر):

العقل أحسن معقل فاهرع إلى ... أبوابه العليا تنل كل العلا

واعلم بأن الشىء يرخص كثرة ... والعقل إن كثرت حواصله غلا

وقال بعضهم:

رأيت العقل لم يكن انتهابا ... ولم يقسم على قدر السنينا

فلو أن السنين تقسمته ... حوى الآباء أنصبة البنينا

وقيل:

ما وهب الله لامرىء هبة ... أفضل من عقله ومن أدبه

هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أجمل به

روى الثعالبى [1]، أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: « خير الناس وخير من يمشى على جديد [2] الأرض المعلمون، كلما خلق الدين جددوه، اعطوهم، ولا تستأجروهم، فإن المعلم إذا قال للصبى قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال الصبى: بسم الله الرحمن الرحيم، كتب الله براءة للصبى وبراءة لوالديه وبراءة للمعلم من النار». وقد اختلف فى جواز أخذ الاجرة على تعليم القرآن، فالجمهور على الجواز، متمسكين بقوله صلى الله عليه وسلم: « أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وكون الأحاديث المانعة لهذه ليس فيها ما تقوم به الحجة، فلا تكون معارضة، لما صح عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت خالد بن الوليد، رضى الله عنه، يوم اليرموك [3]، يرمى بين الهندمتين، ومعه رجال من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال: أمرنا أن نعلم أولادنا الرمى والقرآن. رواه الطبرانى.
وقال الشاعر:

إن المعلم والطبيب كلاهما ... لم يبذلا نصحا إذا لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... وأصبر لجهلك إن جفوت معلما

وكان العارف بالله تعالى ابن عراق، المدنى، يعلم تلامذته دعاء لحفظ القرآن فيحفظونه إذا لازموا الدعاء به وهو:

كلام قديم لا يمل سماعه ... تنزه عن قولى وفعلى ونيتى
به أشتفى من كل داء ونوره ... دليل لقلبى عند جهلى وحيرتى
فيا رب متعنى بسر حروفه ... ونور به سمعى وقلبى ومقلتى

وروى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه

(١) عبد الملك بن محمد (٩٦١ - ١٠٣٨ م) أديب، ولغوى، غلبت على مؤلفاته الطرائف والمختارات، وأهم آثاره الأدبية (يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر) وأهم آثاره اللغوية (فقه اللغة).
(٢) جديد الأرض: وجهها.
(٣) واد بالشام يصب فى نهر الأردن.

قــال : «نزل القــرآن على تســعــة أحــرف ، حــلال وحــرام ، ومــحكم ومتشابه ، وبشيرونذير ، وقصص ومواعظ وأمثال ، فأحلوا الحلال ، وحرموا الحرام ، واعملوا بالمحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال» . وقيل :

ألا إنما القــرآن تســعــة أحــرف أتيت بهـا فى شعـر بيت بلا خلل

حـلال حــرام مـحكـم مـتشــابه بشـيــر نذيـر قـصــة عـظة مــثل

وكان ينزل على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، على قدر الحاجة ، فكان أمد نزوله عشرين سنة ، بقدر نبوته ، وقيل : فى ثلاث وعشرين سنة ، مدة الوحى بمكة ثلاث عــشــرة سنة ، وبالمدينة عــشــر سنين . ومن شــعــائر الإســلام قــراءة القرآن ، والصلوات ، والجماعة ، والمساجد والمحاريب فى زماننا أكثر إذ النبى ، صلى الله عليه وسلم ، خرج من الدنيا والإسلام لم يبلغ غير جزيرة العرب ، وقال صلى الله عليه وسلم : «ابنوا المساجد واخرجوا القمامة منها ، فمن بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة» . وعاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة ، فأربعون مضت فى التعبد والباقى ثلاث وعشرون سنة فى النبوة والرسالة ، وصلاة الخمس المفروضات افترضت بعد اثنتى عشرة سنة من النبوة ، ومن قبل كان يسبح ويهلل ، وقال صلى الله عليه وسلم : «أدبوا أولادكم على ثلاث : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وعلى قراءة القرآن ، فإن حملة القَرآن فى ظل الله يوم لا ظل إلاظله» . والمراد بآل البيت : فاطمة ، وعلى ، والحسن ، والحسين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ويدل له حديث عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذات غداة ، وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجلس ، فأتت فاطمة فأدخلها فيه ، ثم جاء على فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن فأدخله فيه ، ثم جاء الحسين فأدخله فيه ، ثم قال : ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب : ٣٣) ، ثم قال : «أنا حرب لمن حاربهم ، وسلم لمن سالمهم ، وعدو لمن عاداهم» . والرجس السوء . وقال مجاهد : الشك . ودلت هذه الآية أيضا على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وعلى فضل أهل الكساء ،

رضى الله تعالى عنهم، لاشتمالها على غرر من مآثرهم، والاعتناء بشأنهم، وقال بعضهم فى ذلك:

إن النبى محمدا ووصيه   وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباءة إننى بولائهم   أرجو السلامة والنجا فى الآخره

وقد انقرض نسله صلى الله عليه وسلم إلا من فاطمة، رضى الله تعالى عنها، طاب أصلها أما وأبا، وانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين، ويقال لأولهما: حسنى، والثانى حسينى، ثم إن للشرفاء حقوقا على غيرهم من الناس، كما أن للناس حقوقا عليهم، فالحقوق التى على الشرفاء لغيرهم من الناس أن لا يفخروا بشرفهم على غيرهم، لأن فخرهم على الغير قد يؤدى من ضعف دينه إلى عداواتهم وبغضهم والبحث عن عوراتهم، وذلك ممنوع، لأنه يؤدى إلى الاستخفاف بحقه عليه الصلاة والسلام، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات: ١٣)، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». قال الماوردى: يعنى أن الفضل والكرم بالعمل لا بالنسب. وقد يؤدى فخر الشريف بنسبه، أو بسببه لغيره المفخور عليه إلى الإيذاء، فيكون قد فتح الذريعة إليه، فليحذر الشريف على نفسه وعلى المسلمين جهده، وليأخذ نفسه بالصبر والاحتمال. ومن حقوق الناس لهم أن يؤثروا رضى الأشراف على أهوائهم بما يجب من التبجيل والتعظيم عند الحضور معهم، لما أنهم بعض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن يبغضوا من يؤذيهم، لأنه يؤذيه صلى لله عليه وسلم، وأن يريدوا لهم التقدم بفضيلة نسبهم إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن يخلصوا لهم المودة ويؤازروهم وينصروهم أحياء وأمواتا، ويذبوا عن أعراضهم، ويضربوا عن مساوئ ذى المساوئ منهم صفحا، وأن ينشروا محاسنهم، ويتوسلوا بجاههم إلى الله ورسوله، لأنهم سلالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ (الشورى: ١٣) أى بأن تودوا قرابتى، ولقد أحسن من قال:

رأيت ولائى آل طه فـــريضـــة   على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى   بتـبـليـغـه إلا المودة فى القـربى

وينبغى للإنسان أن يعرف أولاد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويحفظهم، لأن النبى، صلى الله عليه وسلم سيدنا، وعار على الإنسان أن لا يعرف أسماء أولاد سيده، وهم سبعة: القاسم، وبه كان يكنى، وزينب، وهى أكبر بناته، ورقية، وفاطمة، وهى أصغر بناته، ولدت قبل النبوة بخمس سنين، وتوفيت بعده عليه الصلاة والسلام بستة أشهر، وتلقب بالزهراء، وكانت أحب أولاده إليه، صلى الله عليه وسلم، فكانت إذا دخلت عليه قام لها إجلالا، وأم كلثوم، ولا يعرف لها اسم، وإنما تعرف بكنيتها، وعبدالله، وهو الملقب بالطيب والطاهر، وولد بعد المبعث، وتوفى بمكة، ولما توفى قال العاص ابن وائل: قد انقطع ولد محمد، فهو أبتر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣)، وولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فى طيبة [١]، ولما مات بكى عليه صلى الله عليه وسلم وقال: «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان»، وقال: «من لا يرحم لا يرحم»، خسفت الشمس يوم موته فقال الناس: لموت إبراهيم! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة». وسبب ذلك إذا أراد الله أن يرى عباده آية يخوفهم بها أظهر لهم من عظمته. وكل أولاده صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة، أم المؤمنين، رضى الله عنها، إلا إبراهيم فإنه من مارية بنت شمعون القبطية، ومات جميع أولاده صلى الله عليه وسلم فى حياته إلا فاطمة

---

(١) طيبة ـ بفتح الطاء وسكون الياء وفتح ا لباء ـ اسم من أسماء «المدينة» (يثرب) وتسمى كذلك «طابة» (انظر مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ لصفى الدين البغدادى. ج ٣ ص ٨٧٤، ٩٠٠ ـ طبعة القاهرة) والمراد أن «إبراهيم» ولد والرسول بالمدينة ـ (طيبة) ـ وإلا فولادته كانت «بالعالية» على مسافة ثلاثة أميال من المدينة، حيث كان الرسول قد أسكن أمه مارية بالمكان المعروف الآن «بمشربة أم إبراهيم». انظر فى تحقيق ذلك (الطبقات الكبرى) لابن سعد ـ الجزء الأول ـ القسم الأول ص ٨٦، وكذلك (نهاية الأرب) للنويرى. ج ١٨ ص ٢٠٨.

فبعده بستة أشهر، كما سبق، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم أولاد من غيرها، وقد نظم بعضهم عدة أولاده صلى الله عليه وسلم:

فأول ولد المصطفى القاسم الذى ... به كنى المختار فافهم وحصلا

وزينب تتلوه رقية بعدها ... وفاطمة الزهراء جات على الولا

كذا أم كلثوم تعد وبعدها ... فى الإسلام عبدالله جاء مكملا

وكلهم كانوا أتو من خديجة ... وقد جاء إبراهيم فى طيبة تلا

* * *

ـ (رجع) ـ قال بعضهم: وينبغى للمعلم أن يكون متأنيا غير مبادر بالاستعجال بالعقوبة، ولا يؤاخذ أحدا بأول ذنب يصدر، وبزلة تندر، لأن العصمة من الخلق لمن سوى الأنبياء مفقودة، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف».

وقال بعضهم: يسن للمؤدب أن يأمر الصبيان بالصلاة لسبع، ويضربهم على تركها لعشر، ويأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والدعاء لهما، وتقبيل أيديهما عند الدخول إليهما، ويؤدبهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، ونحو ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع، مثل أنواع القمار ونحو ذلك.

وقال بعضهم: لا ينبغى للمؤدب أن يستخدم أحد الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم، ولا يرسله إلى داره، وهى خالية، لئلا تسلك إليه التهمة، قال بعضهم ويشترط فى السائق لهم أن يكون أمينا ثقة عاقلا غير بذئ اللسان، لأنه يتسلم الصبيان فى الغدو والرواح، ولأجل أن تكون تربية المعلمين بالأخلاق الحسنة سارية للمتعلمين، وأما إذا كانت أخلاق المعلمين سيئة فتسرى إلى المتعلمين لأن الطباع سراقة.

وقال بعضهم: يجوز للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر والمؤدب أن يقول لمن يخاطبه فى ذلك الأمر: ويلك! أو: يا ضعيف الحال! ويا قليل النظر لنفسه!

ويا ظالم نفسه! وما أشبه ذلك، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب، ولا يكون فيه لفظ قذف، لأن الغرض به التأديب والزجر، وليكون الكلام أوقع فى النفس، لما روى عن أنس، رضى الله عنه، أن النبى، صلى الله عليه وسلم، رأى رجلا يسوق بدنة[1] قال: «اركبها»، قال إنها بدنة، قال: «اركبها»، قال: إنها بدنة، قال فى الثالثة: «اركبها ويلك»! ولقول أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، لابنه عبد الرحمن، لما لم يجده عشى أضيافه: يا أغثر [2]. وقال بعضهم: من يأمر بالمعروف يحتاج إلى خمسة أشياء: أولها: العلم، لأن الجاهل لا يحسن الأمر بالمعروف، وثانيها أن يقصد به وجه الله تعالى وإعزاز الدين، وثالثها: الشفقة على الذى يأمره، فيأمره باللين والتودد، ولا يكون فظا غليظا، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون، حين بعثهما إلى فرعون: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا**﴾ (طه: ٤٤)، رابعها: أن يكون صبورا حليما، لأن الله تعالى قال فى قصة لقمان: ﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ**﴾ (لقمان: ١٧)، وخامسها: أن يكون عاملا بما يأمر به، لكيلا يعير به، ويدخل تحت قوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ (البقرة: ٤٤)، وقال فى آية اخرى: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف: ٢)، وقوله تعالى، فى سورة آل عمران: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (آل عمران: ١٠٤)، قال (الكشاف) فى تفسير هذه الآية: إنما أورد بمن التبعيضية، لأنه لا يصلح كل أحد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإنما يصلح لذلك من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيفية ترتيبهما، فلا يتغلظ فى مقام اللين، ولا يلين فى مقام التغليظ.

وقد ذكر ابن الجوزى فى (كشف مشكل الصحيحين): عبادة بن الصامت، رى الله تعالى عنه، وقال: شهد المشاهد كلها مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان يعلم أهل الصفة القرآن، وهو أحد النقباء الاثنى عشر، وهو كان يعلم ذلك بالمدينة والنبى، صلى الله عليه وسلم، فيها، ـ والصفة هى مكان مرتفع فى مسجد

---

(١) البدنة، هنا: الناقة المسمنة.

(٢) الأغثر، من معانيه: الجاهل. والغيثر: الواحد من سفلة الناس.

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يجلس فيه فقراءالصحابة الذين تزهدوا فى الدنياوانقطعوا إلى الله تعالى، وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ** ﴾ (الحشر : ٨).

وقال بعضهم : حفظ شيء من القرآن بمقدار ما تجوز به الصلاة فرض عين على المسلمين، وحفظ فاتحة الكتاب وسورة واجب على كل مسلم، وحفظ جميع القرآن على سبيل الكفاية على الأمة، وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «إن الله يريد العذاب بأهل الأرض، فإذا سمع تعليم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم». قال مروان : يعنى بالحكمة القرآن. وقد ورد فى الآثار ما يدل على أن أول دار فتحت للقراء بالمدينة المشرفة - ولا مانع من أن نعتبر أنها أول مدرسة فتحت فى الإسلام - فقد قال الواقدى : إن عبدالله بن أم مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة، فنزل دار القراء. ولعل عبادة بن الصامت كان يعلم فيها القرآن والكتابة، وكذلك عبد الله بن سعيد بن العاص كان يعلم الكتابة فى المدينة، كما سيأتى قريبا، فلعله أيضا كان من جملة من يعلم فى هذه الدار، وكذلك الأسرى الذين كانوا يَفْدون أنفسهم بتعليم كل واحد منهم الكتابة لعشرة من أبناء الأنصار، كما سيأتى.

وأما من بعثه صلى الله عليه وسلم إلى الجهات يعلم الناس القرآن فمنهم : مصعب بن عمير، رضى الله عنه، ففى سيرة ابن إسحاق [1] : ولما انصرف عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، القوم، يعنى الذين بايعوه فى العقبة الأولى، وهم اثنا عشر، بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدارين قصى، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، وكان يسمى المقرىء، بالمدينة ومنهم معاذ بن جبل، فإنه أرسله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة، يفقه الناس فى الدين، ويعلمهم القرآن، وبعثه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أيضا قاضيا إلى «الجند» فى اليمن، يعلم الناس القرآن

(١) محمد بن إسحاق، المدنى (المتوفى سنة ٧٦٧ م) أول من وضع كتابا فى سيرة الرسول سماه (سيرة رسول الله)، وبناه على الأحاديث الدينية والتقليد الدينى. وكتابه هذا لم يصلنا إلا من خلال سيرة ابن هشام (المتوفى سنة ٨٣٤ م).

وشرائع الإسلام، يقضى بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين فى اليمن، ومنهم عمرو ابن حزم بن زيد الخزرجى، من بنى مالك، على نجران، وهم بلحارث بن كعب، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم فى الدين ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر، بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا.

وممن كان يعلم الكتابة عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان اسمه فى الجاهلية الحكم، فسماه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عبد الله، وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة، وكان كاتبا محسنا. وخرج أبو داود، رحمه الله، عن عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، قال: علمت ناسا من أهل الصفة الكتاب والقرآن، وأهدى إلى رجل منهم قوسا، فقلت: ليست بمال، وأرمى عليها فى سبيل الله، ولآتين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله، رجل أهدى إلى قوسا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمى عليها فى سبيل الله، قال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار فاقبلها»! قال السهيلى فى (الروض الأنف) فى الكلام على غزوة بدر: إنه كان من الأسرى يوم بدر من يكتب، ولم يكن فى الأنصار أحد يحسن الكتابة، فكان منهم ، أى من الأسرى من لا مال له، فيقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الخط، فإذا حذقوا فهم فداؤه.

قال بعض العلماء: وينبغى للمعلم أن يرغب المتعلمين فى التحصيل، ويدلهم على مكانته، ويصرف عنهم الهموم المشغلة لهم، ويهون عليهم مؤنته، ويذاكرهم بما حصله من الفوائد والغرائب، وينصحهم فى الدين، فبذلك يستنير قلبهم ويزكو علمهم، وينبغى للمتعلم أن يكون جلوسه بين يدى المعلم، ويحضر كتابه الذى يقرأ منه معه، ويحمله بنفسه، ولا يضعه حال القراءة مفتوحا، بل يحمله بيديه ويقرأ منه، ولا يقرأ حتى يستأذن أستاذه، ولا يقرأ عند شغل قلب أستاذه أو ملله أو غمه أو غضبه أو تعبه، وكذلك إذا رأى أستاذه قد أتعبه الوقوف اقتصر، ولا يحوجه إلى قوله: اقتصر، وإن لم يظهر له ذلك، فإن أمره بالاقتصار اقتصر حيث أمره، ولا يستزيده، وإذا عين له قدرا فلا يتعداه، وكذلك ينبغى للمعلمين أن يأذنوا فى بعض

الأوقات للمتعلمين باللعب، ويكون لعبا جميلا غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب.

وهذه الرياضة تروح النفس، وتحرك الحرارة الغريزية، وتحفظ الصحة، وتنفى الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط، وتزكى النفس، فإن النفس تمل من الدؤوب فى الجد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو، وقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لحنظلة: «ساعة وساعة»، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم، قد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، وكان يستعين بالخاصة على العامة، وكان يقول: «أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى، فإن من بلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر». وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: روحوا القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا بلال، روحنا» وفى (الزبور) أوحى الله إلى داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: يا داود، إن العاقل لا يخلو من أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يمشى فيها إلى الإخوان الذين يخبرونه بعيوبه، وساعة يخلى فيها نفسه بين لذاتها الحلال. وعن على، رضى الله عنه: سلوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد، وكان ابن عباس، رضى الله عنهما، يقول، إذا فاض من عنده فى الحديث بعد القرآن والتفسير: احمضوا - أى إذا مللتم من الفقه والحديث وعلم القرآن، فخذوا فى الأشعار وأخبار العرب، كما أن الإبل إذا ملت ماحلا من النبت رعت الحمض، وهو ما ملح منه، ومنه قول الزهرى: هاتوا من أشعاركم فإن للأذن حاجة وللنفس حمضة أى أنها تشتهى الشىء بعد الشىء كما تفعل الإبل. انتهى وهذا كله ما لم يكن دائما متصلا، كما قال على: ساعة بعد ساعة، وأما إن كان ذلك عادة الرجل حتى يعرف به ويتخذه ديدنا، ويطرف به الناس ويضحكهم، فذلك مذموم غير محمود، دال على سقوط المروءة، ورذالة الهمة، وقد عد هذا النوع الفقهاء فيما يقدح فى عدالة الشاهد، قال بعضهم: وفيه من الفقه جواز المزح فى بعض الأحايين، ما لم يكن سفها، إباحة الدعابة مع الأهل، وبسط الوجه

واللسان مع جميع الناس بالكلام الحلو السهل، فهو من حسن العشرة، وقال صلى الله عليه وسلم: «ويل للذى يحدث فيكذب» ـ أى فى حديثه ـ «ليضحك به القوم، ويل له، ويل له». كرره إيذانا بشدة هلكته، وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إلى استجلاب الضحك الذى يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة، كان أقبح القبائح، ومن ثم قال الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة، وقيل: لا مروءة للكذاب، ولا كرم أعز من التقى، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية ـ والتقوى إمتثال المأمورات واجتناب المنهيات ـ وقد ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «ابن آدم، إذا أصبحت معافى فى جسدك، آمنا فى سربك ـ (أى فى نفسك) ـ عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء».

وقال الرشيد: النوادر تشحذ الأذهان، وتفتق الآذان، وقال الشاعر:

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلا منى بغير جهل

أمزح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحيانا جلاء العقل

وأحسن ما قيل فى المزح قول أبى الفتح البستى، رحمه الله:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم. وعلله بشىء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقدكان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلاحقا، ومن مزحه صلى الله عليه وسلم أن جاءه رجل فقال: يا رسول الله، واحملنى على جمل، فقال: «لا، أحملك على ولد الناقة!» قال: لا يطيقنى، فقال له الناس: ويحك! وهل الجمل إلا ولد الناقة؟ وقال صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار: «إلحقى بزوجك ففى عينيه بياض». فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة، فقيل لها: ما دهاك؟ قالت: النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: إن فى عينى زوجى بياضا! فقال: نعم، والله، وسوادا! وأتته أيضا عجوز أنصارية، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلنى الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلهاعجوز». فولت المرأة تبكى، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لها: «أما قرأت قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (الواقعة : ٣٧)» وقالت عائشة، رضى الله عنها : سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى، فضرب بكفى وقال : «هذه بتلك» . وعنها ، رضى الله عنها، قالت : كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى، فإذا رأين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سعين، فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «كما أنتن» ولا يعيب على، وقال على ابن أبى طالب، رضى الله عنه : لا بأس بالمفاكهة، يخرج بها الرجل من حد العبوس، وروى عن الصحابة، رضوان الله عليهم، أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحدا، وسئل النخعى : هل كان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، يضحكون؟ قال : نعم، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى، وكان نعيمان بن عمرو الصحابى من أولع الناس بالمزاح، وكان بدويا، قيل : إنه ذكر عندالنبى، صلى الله عليه وسلم، أنه يكثر المزاح والضحك، فقال : «دعوه فإنه يدخل الجنة وهو يضحك»! فمن مزاح نعيمان ما روى أنه أهدى لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، جرة عسل، اشتراها من أعرابى بدينار، وجاء بالأعرابى إلى باب النبى، صلى الله عليه وسلم . فقال : خذ الثمن من ههنا! فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم، ذلك، قال لنعيمان : «ما حملك على ما صنعت؟ قال : أردت برك، ولم يكن معى شىء، فتبسم النبى، صلى الله عليه وسلم، وأعطى الأعرابى ثمنه، وكذلك باع نعيمان سويبط بن حرملة، من الأعراب، بعشر قلائص، فسمع أبو بكر، فأخذ القلائص وردها، واسترد سويبطا، فضحك النبى، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه منه حولا كاملا، وكان سالم بن عبدالله يقول : ترك الضحك من العجب، وأعجب منه الضحك من غير سبب، وكان بالمغرب وراق فكتب مصحفا فى أسبوع، فقيل له : فى كم كتبته؟ فقال فى سبعة أيام ومامسنا من لغوب، فشلت يده، وهذا ممن أدركه الخذلان وسلب التوفيق فاستعمل الهزل فى موضع الجد، وتخطاه أن يتدبر قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ (التوبة : ٦٥)، وفى الخبر : «إياكم والمزاح،

فإنه يذهب بهاء المؤمن ويسقط مروءته ويجر غضبه». وهذا يحمل على من يكون الضحك ديدنه(*)، قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شىء عرف به. وقيل: لكل شىء بذر، وبذر العداوة المزاح.

قال ابن المعتز، رحمه الله: المزح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب. وقيل: المزح يذهب البهاء، ويجرىء عليك السفهاء، وتركه يقبض المؤانسين، ويوحش المخاطبين، وقيل:

لا تجعل الهزل دأبا فهو منقصة ... والجد تعلو به بين الورى القيم

ولا يغرنك من ملك تبسمه ... ما تسحب السحب إلا حين تبتسم

قال الإمام الشافعى، رضى الله عنه: الانبساط مع الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسب العداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط، وقيل فى المثل: «لا تكن رطبا فتعصر، ولا يابسا فتكسر». وكان ابن الماجشون ينشد:

إنما للناس منا ... حسن خلق ومزاح

ولنا ما كان فينا ... من فساد وصلاح

ـ والمزح: الدعابة، والممازحة: المفاكهة ـ. وعن زيد بن ثابت أنه كان من أفكه الناس فى أهله، وأصمتهم إذا جلس مع القوم، وكان مالك بن أنس من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده، وكان يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم، وحديث أم زرع مشهور وقد سبق الكلام عليه وفسره القاضى عياض فجاء فى سفر صغير، وأما حديث خرافة فخرج الترمذى فى الشمائل عن عائشة قالت: حدث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات ليلة نساءه حديثا، فقالت امرأة: كأن الحديث حديث خرافة، فقال أتدرون ما خرافة؟ قالوا: لا، قال: إن خرافة كان رجلا من عذرة، أسرته الجن فى الجاهلية، فمكث وهو فيهم، ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة، فهذا من حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

(*) غير موجودة فى الأصل، والسياق يقتضيها. (الشروق).

الفصل الثالث

(فى محبة الأمهات لأبنائهن وبناتهن وما يتعلق بذلك من التوسعة على العيال وحسن التأهيل)

هذه المحبة من الأمهات، وما يصحبها من شدة الشفقة والرأفة، سر إلهى أودعه الله تبارك وتعالى فى قلوب الأمهات من خلقه جميعا، من درجة الإنسان إلى آخر درجات الحيوان، فالأم دائما تحنو على المولود بما أودع فيها من السر الإلهى، وقد أودعت الحكمة الإلهية فى مهد الطفل ما لا يعد ولا يحصى من الإنعام والإحسان، وأكثرت فيه من الخير العميم والفيض الجسيم، والشفقة والرأفة والرحمة والكرامة ما لا مزيد عليه، فإن الولد أول وضعه يجد ثدى أمه غزير اللبن الجيد الغذاء الملائم لمعدة الصبى، وقد جعل الله سبحانه وتعالى فم الطفل بمجرد ولادته أنيسا لأمه ونديما لها، تأنس به بدون أن يؤذيها لخلوه عن الأسنان التى لو خلق بها لجرحت ثدى أمه حين الرضاع وآست عليها، فكلما كبر الطفل غزر اللبن وصار مادة مغذية كافية له، فإذا فطم الطفل وانفصل عن الرضاع نشف ما فى الثدى من غزير اللبن.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الأم يعتريها فى مدة رضاعها لولدها وهن وضعف، وأن قوتها تعود لها غب الفطام دفعة واحدة، فتقدر على أن تتحمل ما لا يستطيع أن يتحمله الرجل القوى الشديد فى تربية الطفل بعدالفطام، فتتعهد شؤون ولدها، وتربيه فى صغره حتى يكبر، وتقوم أوده بالقيام بضرورياته، فتتعهد أحوال ابنها آناء الليل وأطراف النهار، وتؤدى له جميع ما يحتاج إليه، وقد جعل الله سبحانه وتعالى فى المرأة الحاضنة لولدها خفة كاملة، وسرعة حركة شاملة لم تكن تعهد فيها قبل الولادة، فإنها تلمس طفلها النحيف البدن لمسا خفيفا بدون أن تؤلمه

ولا أن تؤذيه فى عضو من أعضائه النحيفة، وقد ألهمها الله تعالى أنها تؤمل من طفلها أن يكون زينة الحياة الدنيا، فإذا بكرت المرأة بمولود فكل شىء فى زمن الرضاع يؤذيها من صوت أو غيره، فتتأذى من كل شىء، وتحب خفيف المأكل والمشرب، وتجتنب المغلظات، وتحب رقيق الملبس ووطىء الفراش، ويخشى عليها من هبوب النسيم، وأما غب الفطام فإنها لا تتكلف شيئا، فقد يكفيها رغيف خبز ولو من الخشكار [1]. وثوب ولو من القماش الصفيق، وحصير من الحلفاء، وتقوى على تحمل الرياح والأمطار فلا تتأذى بشىء من ذلك، ومع هذا فقد لا تملك من الدنيا عند وضعها إلا اللبن الذى تسقيه لولدها، والكساء الذى تلف ابنها فى طرف منه، فلا يوجد أحد فى الدنيا إذا تذكر رأفة أمه به، وما اعتراها من المشقة فى تربيته، وتلطفها معه. ونصيحتها إياه، وتأديبها له، إلا أثر ذلك فى قلبه كل التأثير، حتى إن الإنسان إذا تذكر أمه من حيث إنها ولدته، بقطع النظر عن حسن صنيعها فى تربيته، حن قلبه إليها، وعظم حبه لها، وازداد ودها فى قلبه، فمحبة الأم تدوم وتعظم أكثر مما عداها من المحبة الطبيعية التى خلقها الله فى قلوب الناس.

وللرضاع تأثير ظاهر فى الأولاد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الرضاع يغير الطباع»، وقال: «لا تسترضعوا الحمقى، فإن اللبن يعدى، ويروى». ومعناه: أن المرضعة إذا أرضعت غلاما نزعت إليه أخلاقها فيشبهها، ولذلك تختار المرضعة العاقلة، صحيحة الحواس، ظاهرا وباطنا، معتدلة المزاج، عظيمة الثديين و تتغذى الحلو والسمين والسمك والرطب.

وأما محبة الوالد لأولاده فهى ناتجة عما يعلمه الأولاد من أن أباهم اهتم بتربيتهم، وعودهم على حسن الأفعال وطيب الأخلاق، ليتأهلوا لنفع الأوطان وإعانة الإخوان والخلان، فشفقة الوالد على ولده بهذا المعنى فضيلة من الفضائل العظيمة، وبركة من البركات الجسيمة، والأجداد فى ذلك كالآباء، فالأصل متى عود الفرع على العوائد الحسنة والأخلاق المستحسنة، وفقهه بما يجلب له أنواع

---

(١) الخشكار: الدقيق الردىء، والكلمة دخيلة على العربية.

الراحة، وأنفق عليه ماله وجاهه، تذكر الابن دائما فضل أبيه، وشكر له صنيعه، فما يصطنعه الآباء فى زمان شبوبيتهم لأولادهم من المنافع يجدونه عند شيخوختهم واحتياجهم إليهم، فتكون الأولاد أعوانا وأنصارا لآبائهم وقت الهرم، وكثيرا ما تكفى الأبناء الآباء جميع ما يحتاجون فى حال الكبر، يخففون عنهم أثقال الهرم التى لا بد منها، ويستحب التوسعة على العيال، لا سيما فى يوم عاشوراء من المحرم، وفى الأيام الفاضلة، والعيدين، قال صلى لله عليه وسلم: « من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه السنة كلها». قال سفيان: إنا جربناه خمسين سنة فوجدناه كذلك.

ومن الممدوح تسميةالولد محمدا، أوأحمد، فإنها من أحب الأسماء، قال صلى الله عليه وسلم: «سم ابنك محمدا يكثر خير بيتك». وقال صلى الله عليه وسلم: « أفضل الأسماء ما عبد وما حمد». وقال صلى الله عليه وسلم: « إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجلس ولا تقبحوا له وجها». وقال مالك: سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلا نما ورزقوا. وقال صلى الله عليه وسلم: «أحب الأسماء إلى الله: عبدالله، وعبد الرحمن وأصدقها: حارث وهمام». ويسن كنية أهل الفضل من الرجال والنساء ومخاطبتهم بها، فيكنى الإنسان، ذكرا أو أنثى، بأبى فلان وأم فلانة، سواء كان له ولد أم لا، وسواء الصغير والكبير، والأولى أن يكنى بأكبر أولاده، والأدب أن لا يذكر الإنسان كنيته فى كتابه أو خطابه إلا إن كان لا يعرف إلا بها أو كانت أشهر من اسمه، ولا يجوز التكنى بأبى القاسم لمن اسمه محمد.

فاعتناء الآباء بالأبناء إعانة للأبناء على بر الآباء، وفى الحديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «رحم الله والدا أعان ولده على بره». وقال بعض العلماء: إنما سمى الأبرار أبرارا لأنهم بروا الآباء والأبناء. وقال الأحنف: أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، بهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، ويمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم مقلا فيملوا حياتك، ويحبوا مماتك، ويكرهوا قربك،

وكما يجب تربية الأولاد تندب تربية الأقارب، بل وغيرهم، فقد ربى النبى، صلى الله عليه وسلم، على ابن أبى طالب، كرم الله وجهه، وزوجه، ورفعه، ونصره.

ثم إن الاعتناء بشأن البنات من الآباء فيه جزيل الثواب، فقد ورد عن النبى، صلى ا لله عليه وسلم: «من عال ثلاث بنات، تكفلهن، ورحمهن، وترفق بهن، فهو معى فى الجنة». وقيل:

أحب البنات فحب البنا ت فرض على كل نفس كريمة

وإن شعيبا لأجل ابنتيه أخدمه الله موسى كليمه

قال إسحاق بن خلف، المعروف بابن الطيب، فى ابنة أخت له كان رباها يتيمة، تسمى أميمة:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أجب فى الليالى حندس الظلم

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أبكى عليها من أذى الكلم

إذا تذكرت بنتى حين تندبنى فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم

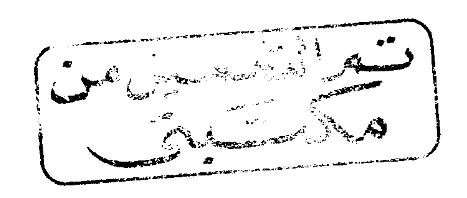
وقال صلى الله عليه وسلم: «خير بيوتكم بيت فيه يتيم مكرم». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «خيركم خيركم لنسائه وبناته». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أبا البنات الصابر المحتسب». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات». وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى».

(تزويج البنت بمن تحب)

ومن أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه، قال زيد بن عمرو: كان فينا رجل له ابنة شابة، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه، فمكثا بذلك دهرا، ثم إن الجارية خطبها بعض الأشراف، وأرغب فى المهر، فأنعم أبو الجارية،

واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأمها: يا أماه، ما يمنع أبى أن يزوجنى من ابن عمى؟ قالت: أمر كان مقضيا! قالت: والله ما أحسن ذلك، رباه صغيرا، ثم يدعه كبيرا! ثم قالت: أى أماه، إنى والله منه حامل، واكتمى إن شئت أو فبوحى! فأرسلت الأم إلى الأب فأخبرته الخبر: فقال: اكتمى هذا الأمر، ثم خرج إلى القوم فقال: يا هؤلاء إنى كنت أجبتكم، إنه حدث أمر عسى أن يكون فيه الأجر، وإنى أشهدكم إنى زوجت ابنتى فلانة من ابن أخى فلان، فلما انقضى ذلك قال الشيخ: أدخلوها، فقالت الجارية: هى بالرحمن كافرة إن دخلت عليه إلا بعد سنة تبين نفى حملها، قال: فما دخل بها إلا بعد الحول، قال: فعلم أهلها أنها احتالت على أبيها!.

ثم إن الأولاد الناتجين عن آبائهم وأمهاتهم إذا حسنت تربيتهم، وحسنت المحبة من الآباء لهم، حسن برهم لإبائهم، كان فى الغالب بينهم محبة ووداد بعضهم لبعض، واتحاد والتئام، وانتفت الغيرة منهم للتسوية بينهم فى التربية والتآلف، فيشبون عادة على محبة بعضهم لبعض، وتسمى هذه المحبة بالمحبة الأخوية.



الفصل الرابع

(فى المحبة الأخوية)

متى صح الود بين الآباء والأمهات، وصحت تربية البنين والبنات، بسلوك الآباء طريق العدل والإنصاف فى تسوية أبنائهم وبناتهم فى تقويم أودهم، شب الإخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض، فهذه محبة الأخوية، وهى فضيلة من الفضائل العظيمة، لأنها عبارة عن وجود الوفاق والاتحاد بينهم، فهذه الفضيلة تكسب العائلة قوة وأمنا، وحفظا وصونا، فإن اجتماع الإخوة المتحابين تعاون على الأجنبى، فيحمى بعضهم بعضا من عدوهم، فلا يصاب أحد الإخوة بضيم ما دام إخوته أنصارا له، وعند الضرورة المعاشية يعين بعضهم بعضا، ويساعد الأخ أخاه إذا جار عليه الزمان وحاربته صروف الحدثان، فباتحاد الإخوان يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها، ويكون له صورة وجود قوى فى خارج الأعيان، بخلاف ما إذا بغض الإخوة بعضهم بعضا، ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة، وصار أمر كل منهم موكولا على حدته لقوة نفسه، لا ناصر له ولا معين من إخوته، فإنه بهذه المثابة يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والانفراد، والضعف الشخصى المترتب على عدم الاتحاد، وهذا معنى ما ينسب لبعض العقلاء من ملوك التركمان، أرباب الحكمة والأمثال، فى قديم الزمان، وذلك ما يحكى أن «خاقانا» من«خواقين» التركمان كان مريضا فى فرشه، وقد أيس من حياته، فأحضر أولاده بين يديه، وأحضر حزمة من الرماح لديه، وأمرهم أن يحطموها بأيديهم، فعجزوا عن ذلك، مع كونهم فى عنفوان الشباب، ونضارة الإهاب، أقوياء العروق والأعصاب، ولم تؤثر فيها أيديهم شيئا، فأخذها «الخاقان» وفرقها من بعضها رمحا رمحا، فصار يحطم بأطراف أصابعه كل واحد منها حتى كسر الجميع، ثم قال لأولاده: انظروا

إلى فضل الاجتماع وثمرته، فإذا اجتمعتم عصبة واحدة كالحزمة الواحدة فلا غالب لكم من أعدائكم، وإذا تفرقتم تحطمتم كالقناة.

وكان بعض نساء العرب يفضل الأخ على الزوج والابن، وقيل لامرأة، كان أسر الحجاج زوجها وابنها وأخاها: اختارى أيهم شئت؟ فقالت: الأخ، فإن الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود! فقال الحجاج: قد عفوت عنهم بحسن كلامها! فلولا أنها ذات نسب ما نطقت بهذا الكلام.

وحزن متمم بن نويرة على أخيه مالك، لما قتل فى الردة، ورثاؤه له بقصائد طنانة رنانة، يدل أبهر دلالة على المحبة الأخوية، وقوله فيه حين قتل: فتى ولا كمثلك مما تضرب به الأمثال! أى فتى ليس له مثيل، وكذلك بكاءالخنساء[1] على أخيها صخر مما سارت به الركبان، وكذلك محبة أمه له، وحزنها عليه فى مرضه، وسآمة زوجته من طول علته، مما أطنبت فيه السير، وهو للفرق بين الأم والزوجة عبرة لمن اعتبر، وذلك أن صخر بن عمرو أخا الخنساء لما طعنه أبو ثور الأسدى طعنة فى جنبه مرض منها حولا كاملا حتى مله أهله، أى زوجته، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى: كيف بعلك؟ فقالت لا حى يرجى، ولا ميت فينعى، لقد لقينا منه الأمرين! فقال صخر:

أرى أم صخر لا تمل عيادتى   وملت سليمى مضجعى ومكانى

فأى امرئ ساوى بأم حليلة   فلا عاش إلا فى شقا وهوان

فلما طال به البلاء نتأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة، فقطعوا ذلك الموضع، فيئس من نفسه فمات، فصارت أخته الخنساء ترثيه وتبكيه دائما، فمن ذلك قولها:

يذكرنى طلوع الشمس صخرا   وأذكره بكل غروب شمس

(١) تماضر بنت عمرو بن الحارث (المتوفاة سنة ٦٤٥ م) أشهر شاعرات العرب، عاشت فى الجاهلية، ثم أدركت الإسلام، وأسلمت، ولقيت الرسول عليه السلام.. وشعرها فى رثاء أخويها صخر ومعاوية مضرب الأمثال فى الرثاء.

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما ينعون مثل أخي ولكن أسلي القلب عنه بالتأسي

وما حكاه الجاحظ عن أخت ملك «الخزر» يفيد نصيحة الأخوات لإخوتهم، فقد قال الجاحظ : حدثني حميد بن عطاء، قال : كنت عند الفضل بن سهل بدار الخلافة ببغداد، وعنده رسول ملك الخزر، وهو يحدثنا عن أخت ملكهم، قال : أصابتنا سنة احتدم شواظها علينا بحر المصاب وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك، فلم يدر ما يجيبهم به، فقالت أخته : «أيها الملك، إن الخوف لله خلق لا يخلق جديده، وسبب لا يمتهن عزيزه، وهو دال الملك على استصلاح رعيته، وزاجره عن استفسادها، وقد فزعت إليك رعيتك بفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزا، ولا ينقصه العودة بالإحسان إليهم ملكا، وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصى، ولا بركوب الدلالة من الدال، ولا بحسن الرعاية من الراعى، ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نقمة، وفى رضى لم يكدره سخط، إلى أن جرى عند القدر بما عمى عنه البصر، وذهل عنه الحذر، فسلب الموهوب، والواهب هو السالب، فعد إليه بشكر النعم، واستعذ به من فظيع النقم، فمتى تنسه ينسك، لا تجعلن الحياء من التذلل للمعز المذل سترا بينك وبين رعيتك فتستحق مذموم العاقبة، ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة، وبتذلل الألسن فى الدعاء بمحض الشكر له، فإن المالك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيء فعله إلى صالح عمل، أو ليبعثه على دائب شكر ليحرز به فضل أجر». فأمرها الملك أن تقوم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام، ففعلت، فرجع القوم، وقد علم الله منهم قبول الوعظ فى الأمر والنهى، فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع، فاعترف لها الملك بالفضل، فقلدها الملك، فاجتمعت الرعية لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب.

وقد خلق الله الناس أطوارا، فطائفة للعبادة، وطائفة للسياسة، وطائفه للفقه والسنة، وطائفة للبأس والنجدة، ورجوعة[1] بين ذلك يغلون السعر ويكدرون الماء.

(١) من معانيها الروث.

وكان العلامة الصالح المعمر الشيخ عبد الله بن حزام، أبو الطوع الفيومى، المالكى، يأتى إليه أحد العوام فيقول له: حاجتى فى بلد كذا، فقم معى حتى أقضيها، فيطيعه ويذهب معه الميلين والثلاثة، ويقضيها له، وقد تكرر ذلك منه، وكان له فى كل يوم صدقات على الفقراء والمساكين يفرقها عليهم بيده ولا يشمئز، وكان الذى على نسقه العلامة الشيخ سليمان الفيومى، رحمهما الله.

وقال الإمام على، كرم الله وجهه: من كانت له إلى حاجة فليرفعها إلى فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة، فوقف أعرابى للإمام على رضى الله عنه وقال: إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال: خطها فى الأرض، فخط: إنى فقير، فدفع إليه حلة، فلما تسلمها أنشد:

كسوتنى حلة تبلى محاسنها — فسوف أكسوك من حلل الثناء حللا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه — كالغيث يحيى نداء السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به — فكل شخص سيجزى بالذى فعلا

وروى عنه صلى الله عليه وسلم: «إن لله عبادا خلقهم لحوائج الناس». وروى عنه أيضا: «من مشى فى عون أخيه فله ثواب المجاهدين». وروى عن أبى هريرة، رضى الله عنه: إن لله ملائكة سائحين فى الأرض، فإذا أراد رجل يتكلم مع رجل فى قضاء حاجة وقفوا عندهما، فإن قضاها بسطوا أيديهم ودعوا له بالمغفرة والهداية وأمنوا على بعضهم.

وكان صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة، وهو لا يسأل فى شىء إلا أعطاه، وكان إذا دخل رمضان أطلق كل أسير، وأعطى كل سائل، وكان جوده صلى الله عليه وسلم بجميع أنواع الجود، من بذل الحلم والمال، وبذل نفسه فى إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع العميم بكل طريق، من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولم يزل صلى الله عليه وسلم على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة، رضى الله

عنها، فى أول بعثه، لما عاد إليها وأخبرها الخبر، وقت رجوعه من غار حراء، بعد ما غطه جبريل عليه السلام، لما أمره بالقراءة وحصل له الجهد من ذلك: والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم». وفى لفظ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». أى علامة من يحمل همهم أن يكون حاله كحال صاحب الأولاد يوم موت أعز أولاده أو إخوانه، وكان عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، إذا حصل للناس هم يخلع ثيابه ويلبس ثوبا قصيرا لا يكاد يبلغ ركبتيه، ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تدمعان حتى يغشى عليه، وكان إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط، وكذلك عمر بن عبد العزيز، وسفيان الثورى، وعطاء السلمى، حتى يرتفع ذلك البلاء. وكان الشيخ على الخواص إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف. روى إن موسى، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، قال: يا رب، دلنى على أحب الخلق إليك، فقال: يا موسى، أحب الخلق إلى من إذا سمع أن أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لها كأنها شاكته هو! وقيل: لا يصلح لصحبة الأمراء إلا رجال الرحمة، وأما رجال النقمة فلا يصلحون لصحبة الولاة، لأنهم يمقتونهم ويهلكونهم. ولولا رجال الرحمة وشفاعتهم فينا لنزل علينا العذاب فأهلكنا، لسوء ما نفعله، ومن أعان ظالما سلطه الله عليه، ومن طلب رضاه بسخط الله أسخط الله وأسخطهم عليه، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وقال الشيخ على الخواص: أعرف جماعة من أرباب الأحوال يقيمون دائما فى مواضع المعاصى، فيشفعون فى أهل هذه المعاصى كلما عصوا أو كلما أصروا، إما أن يغفر الله لهم وإما أن يتوبوا عقب ذنب ولا يصروا. وقال تقى الدين بن حجة:

وأسعد العالم عند الله ... من ساعد الناس بفضل الجاه

ومن أغاث البائس الملهوفا ... أغاثه الله إذا أخيفا

وإن من خلائق الكرام ... رحمة ذى البلاء والأسقام

وقد ورد: أن موسى، عليه الصلاة والسلام، لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه، إنما كان يهش بها قط، وكان لا يجيعها ولا يؤذها بعطش، وجاء بها مرة إلى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول إلى الماء، فحملها ونزل بها فسقاها، فلما رأى الحق منه قوة شفقته على غنمه بعثه الله نبيا وكليما، راعيا لبنى إسرائيل، وناجاه بالتوراة وغيرها، فمن رحم رعيته وشفق عليها اصطفاه الله من بين الخلق، وقال صلى الله عليه وسلم: «كما تكونوا يولى عليكم». وقيل: أعمالكم عمالكم.

ونهى صلى الله عليه وسلم أن يعذب أحدكم دابته بأن يحملها ما لا تطيق أو يتعبها فى الأشغال أو يعذب كلبه أوقطه بالجوع أو بالنار أو نحو ذلك، فإن الله تعالى لا يعذب أحدا بالجوع، ونهى عن أكل الكلاب وثمنها ودية الكلب السلوقى أن يكون درهما، ودية كلب الغنم كبش، ودية كلب الزرع فرق [1] من طعام، ونهى عن تحريق خشاش الأرض فإنه ما خلق الله شيئا عبثا.

وما ذكرناه من خطبة ملكة «الخزر»، التى يظهر أنها مترجمة بالعربية، يفيد أن فى نساء الأعجام من الفصاحة فى لسانهم والبلاغة فيه مثل ما يوجد فى نساء العرب، فإن لنساء العرب فصاحة وبلاغة قل أن توجد فى الرجال، وروى الأحنف بن قيس: قال: سمعت كلام أبى بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان حتى مضى، وكلام على بن أبى طالب حتى مضى، فلا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة، رضى الله عنها، وكان صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يلاطفها بقوله: «ياحميراء» [2].

وقال معاوية بن أبى سفيان: ما رأيت أبلغ من عائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها، ما غلقت بابا قط وأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابا وأرادت غلقه إلا غلقته. وروى الشعبى عن شبرمة قال: لما كان يوم الجمل لغط الناس فى عسكر عائشة، رضى الله عنها، فالتفتت، ثم أشارت: أن كفوا، فكأنما قطعت الألسن فى

(١) أى قسم من طعام.

(٢) تصغير حمراء، ومعناها: البيضاء. وفى القاموس: الأحمر: ما لونه الحمرة والبياض. (الطهطاوى).

الأفواه، ثم قالت: أيها الناس، إن لى عليكم حق الأمومة، وحق الصحبة، فلا بتهمنى منكم إلا من عصى ربه، قبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين سحرى ونحرى، وأنا إحدى نسائه فى الجنة، وله حصننى ربى عز وجل من كل بضع، وأبى ثانى اثنين، وأول من سمى صديقا، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وقلده رهق الخلافة، فرقد النفاق، واطفأ واقدة المشركين حين اضطرب حبل الدين، وأنتم يومئذ جحظ العيون، تسمعون الصيحة، وتتبعون الدعوة، فقام بحق الله حتى قبضه الله إليه، وإنى أقبلت أطلب بدم الخليفة المنتهكة منه الحرم الأربع، حرمة الخلافة، وحرمة الصحبة، وحرمة الإسلام، وحرمة البلد الحرام، فمن ردنا بالحق تابعناه، من ردنا بالباطل قاتلناه. انتهى. وكانت عائشة، رضى الله عنها تصوم الدهر كله ولا تفطر إلا يوم الأضحى ويوم الفطر، وتوفيت، رضى الله عنها ليلة الثلاثاء، لتسع عشرة خلون من شهر رمضان، سنة ثمان وخمسين[1]، وهى ابنة ست وستين سنة، وأوصت أن تدفن بالبقيع مع صواحباتها، وصلى عليها أبو هريرة، وروت عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ألفا ومائتى حديث، وروى عنها خلق كثر من الصحابة والتابعين، رضى الله عنهم.

وما تقرر من اتحاد الإخوة يقال مثله فى اتحاد الإخوان، ففى الحديث الشريف: «المرء كثير بأخيه». كما قيل:

ما ضر من كان له صاحب ... يقدر أن يصلح من شأنه

فإنما الدنيا بسكانها ... وإنما المرء بإخوانه

وقال تقى الدين بن حجة:

فإنما الرجال بالإخوان ... واليد بالساعد والبنان

لا يحقر الصحبة إلا جاهل ... أو مائق عن الرشاد غافل

(١) هجرية، وتوافق سنة ٦٧٧ م.

ومــوجب الصــداقة المســاعــدة ومــقــتــضى المــودة المعــاضــدة

لا ســيــمــا فى النــوب الشــدائد والمحن الــعظــيـــمـــة الأوابد

وقال بعضهم: اختبر من تريد اتخاذه صاحبا من الرجال بواحدة من ثلاث خصال: **الأولى:** أن تنظر كيف كان مع إخوانه وأهل عشيرته الذين سبقوك إلى مودته وصحبته، فإن رأيته تركهم وجفاهم وتركهم فتباعد عن صحبته، واعلم أنه لا جديد لمن لا خلق له، قال الشاعر:

إذا مـــا أردت إخـــاء امـــرىء فـــسل كـــيف كـــان لإخـــوانه

فــإمــا رغــبــت فــأحــبــبــتــه وإمـــا تــرغـــبت عن شـــأنه

الثانية: أن تنظر كيف صلته لرحمه، موجودها ومفقودها، لا سيما أبويه اللذين هما السبب القريب فى كون نفسه ووجودها، فإن وجدته لأحد أبويه منازعا ففر منه فرارك من العيب والعار، واعلم أن الله قاطعه عن كل خير، وأن مصيره إلى النار، ولعمرى إن قاطع الرحم أخبث من قاطع الطريق، فكيف يطمع العاقل أن يكون له من ذلك العدو خير صديق، ومن كان قاطعا لرحم الأنساب كيف يرجى وصله لرحم الأصحاب! **الثالثة:** أن تغضب من تريد اتخاذه صاحبا حميما، فإن الغضب يظهر لك من أخلاقه ما كان مكتوما.

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «اخبر نفله» وقيل: احذر الصاحب الصاخب، والنسيب النشيب، وعليك بالخليل الجليل الأثيل الأصيل النبيه النبيل، الذى يتباعد منك عند وضع الموائد، ويتفقدك فى أقات الشدائد، ويستر ما بدأ من عيبك، ويحفظك فى حضورك وغيبك، ويعينك إذا عثرت، ويفهم ما فى ضميرك من عينك إذا نظرت، ويغار عليك من خياله، ويفديك بنفسه وبماله، كما قال الشاعر:

إن أخـــاك الحق مــن كـــان مـــعك من يــضـــر نــفـــســـه لــيـنفـــعك

ومن إذا ريب الــزمـــان صـــدعك شـتت فــيك شـمـلـه لـيـجـمــعك

واحذر أن تتخذ صاحبا من السفل، وهو من يصحبك للأغراض والعلل، فإنه متى انقطعت علته تبعتها خلته، وإياك ووضع أمانة الأسرار فى خزائن صدور الأشرار، فإنهم أنم من الزجاج على الشراب، ومن المشيب على الخضاب، بل أنم من جرس ومن جوزتين فى مخلاة فرس! واسمع قول بعض الحكماء، الذى لا يضل من يسمعه: سر المرء من دمه، فلينظر أين يضعه، واحذر الشره، فإنه يهدم الشرف، وربما عجز صاحبه عن تلافى التلف، وانظر إلى من هو تحتك فى الدنيا وإلى من فوقك فى الدين، وازهد فى النعيم الفانى تفز بالنعيم الباقى أبد الآبدين.

وقال الإمام على، كرم الله وجهه: عليكم بإخوان الصدق، ومجانبة القرين السوء، فإن إخوان الصدق زين فى الرخاء وعدة عند البلاء، وقيل:

اجعل قرينك من رضيت فعاله   واحذر مقارنة القرين الشائن

وقيل:

تجنب قرين السوء واصرم حباله   وإن لم تجد منه محيصا فداره
واحبب حبيب الصدق واترك مراءه   تنل منه صفو الود ما لم تماره

وقال بعضهم: إن العقل فى ستة أشياء: مؤاخاة الأكفاء، ومداراة الأعداء، والحذر من السقطة، والتيقظ من الورطة، وتجرع الغصة، ومعاجلة الفرصة.

ولاشك أن المخالطة تؤثر، والطباع سراقة، ولذلك قيل: لا يصحب الإنسان إلا نظيره، وإن لم يكن من بلده، فصحبة الأخيار تورث الفلاح والنجاح، ومجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا، والنظر إلى الصور يؤثر أخلاقا وعقائد مناسبة لخلق المنظور إليه وعقيدته، كدوام النظر إلى المحزون يحزن وإلى المسرور يسر، والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الذلول، فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان، بل فى النبات، ففى النفوس أولى.

وقال عبد الله بن جعفر: لذتى فى ثلاث: يد اصطنعها، أوحاجة أقضيها، أو صديق استفيده. وقال بعض الحكماء: لقاء الإخوان جلاء الأحزان، وبالجملة،

فيجب فى جميع الأمور أن يجرى الجمهور على التخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، فهى نور على نور. قال عبدالله بن عمر، رضى الله عنهما، قلت لعائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها: صفى لى خلق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ كان خلقه القرآن. ومعنى هذا أن القرآن يجمع كل فضيلة، ويحث عليها، وينهى عن كل نقيصة، ويباعد عنها، مثل قوله تعالى ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وكما فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ (النحل: ٩٠)، قال بعضهم إن هذه الآيةالشريفة أجمع آية فى كتاب الله تعالى للخير والشر، وقال ابن مسعود، رضى الله عنه: أعظم آية فى كتاب الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وأجمع آية فى كتاب الله تعالى للخير والشر: ﴿ **اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ (النحل: ٩٠)، وأكثر آيه فى كتاب الله تعالى تفويضا: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ (الطلاق: ٢)، وأشد آية فى كتاب الله تعالى رجاء: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ (الزمر: ٥٣)، وما من شىء يحتاج إليه الناس من أمر دينهم مما يجب أن يؤتى ويترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية.

خاتمة حُسنى
(فيما يتعلق بحفظ الصحة، التى هى للإنسان أعظم منحة،
وفى شذرة من كلامه صلى الله عليه وسلم.
وفيها فصلان.)

الفصل الأول

(فيما يتعلق بحفظ الصحة
التى هى للإنسان أعظم منحة)

كانت العرب، فى قديم الزمان، جل طعامهم التمر واللبن واللحم والخبز، فمنهم من كان يقتصر على التمر واللبن، ومنهم من كان يقتصر على الخبز، فكان فى العرب عبدالله بن حبيب العنبرى، سيد بنى العنبر فى زمانه، يسمى آكل الخبز، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب فى اللبن، فكان بنو العنبر إذا تفاخروا قالوا: منا آكل الخبز، كان الخبز عندهم كالفالوذج عند الأعجام، ثم صار الفالوذج عند العرب أشرف طعام وقع إليهم، حتى إن عبدالله بن جدعان، من أشراف العرب، أول من أطعم الناس هذا الطعام، فمدح بذلك، واشتهر به، وأما الثريد، الذى هو الخبز مع اللحم فكان عند أشراف قريش عاما يضاهى الفالوذج، وغلب عليه هاشم حين هشم الثريد لقومه وأطعمه لهم فى المحل، فمدح به فى قول الشاعر:

عمر والعلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقال آخر:

لا أحد كهاشم وإن هشم كلا ولا كحاتم وإن حتم

فالثريد عند العرب هو أوفق للصحة من سائر الأطعمة، وقال صلى الله عليه وسلم: «فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على النساء». ضرب صلى الله عليه وسلم المثل بالثريد لأنه أفضل طعامهم، ولأنه ركب من خبز ولحم، ولا نظير له فى الأطعمة، لأنه جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة فى المضغ وسرعة المرور فى الحلقوم، والصواب أن الحاجة للخبز أعم، واللحم

أفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وخص صلى الله عليه وسلم المثل بالثريد إيذانا بأن عائشة جمعت من حسن الخلق وحسن الحديث وحلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأى ورصانة العقل والتحبب إلى البعل، ومن ثم عقلت عنه ما لم يعقل غيرها من نسائه، وروت عنه ما لم يرو مثلها من الرجال والنساء.

ولم يزل الثريد عند عرب الأرياف مستحسنا، ولو أن أشكال الأطعمة تنوعت إلى ما لا نهاية له، إلا أن اللائق بالأطفال والصبيان حفظ الصحة بعدم تعويدهم على الجشع والنهم، فلا ينبغى أن يمكن الصبى من جميع ما يطلبه من المأكل، فإنه يكون كالمستغيث من الجوع بما يقتله، فإن الصبى كلما اشتهت نفسه شيئا وظفر به كأنه وجد تمرة الغراب، كما يحكى أن بعض العرب دخل على أهله وهو جائع عطشان، فبشروه بمولود، وأتوه به، فقال: والله ما أدرى آآكله أم أشربه؟! فقالت امرأته: هو غرثان [1]! فاطعموه واسقوه، فلما طعم وشرب، قال: كيف الطلا وأمه، فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه وتفرغ لغيره، وبالجملة فينبغى تعويد الصبى على عدم النهم، وتقليل الطعام، ومن الأمثال: أقلل طعامك تحمد منامك، لأن كثرته تورث الآلام المسهرة والأمراض المنفرة.

ومن المعلوم أن المرض أمر مقلق شاق على النفوس، ومع ذلك فالصغار، لا سيما تلاميذ المكاتب، من غلمان وبنات، يجدون فيه بعض راحة، حيث إن الصغير المريض لايذهب إلى محل التعليم، ولا يكلف بحفظ درس ولا غيره، وإذا احتاج إلى دواء كريه للنفس ليشربه فإن الغالب أن يحلى له بأنواع الحلوى التى يميل إليها الصبى بالطبع، يروى أن بعض أبناء الملوك دخل على المبرد [2] وعنده سلة حلوى قد أعدها لبعض إخوانه، فوجد ابنه الفرصة فى اشتغال أبيه مع الداخل إليه، فأقبل يأكل منها، فنظر إليه المبرد فأنشده:

الناس فى غـفـلاتهم   ورحى المنية تطحن

---

(١) غرثان، أى جائع.

(٢) محمد بن يزيد (٨٢٦-٨٩٨) أديب، ولغوى، كان إمام مدرسة البصرة فى عصره، وفى الخصومة بينه وبين أحمد بن يحى الشيبانى (ثعلب) تحددت الفروق بين مدرستى البصرة والكوفة.. ومن أشهر كتب المبرد (الكامل) فى الأدب، و(المقتضب) فى اللغة.

وقد جرت العادة أن المريض يواسيه أهله ويلاطفونه أيام مرضه، فالصغار الذين يميلون إلى راحة أنفسهم عادتهم أن يألفوا المرض، ولا يكترثون به، لعدم تفكرهم فيما يحصل لأهليهم من التألم بذلك، بخلاف الصبيان الذين تحسن آباؤهم تربيتهم فإنهم يتفكرون فى أن قلوب آبائهم تضرم بنار القلق والحيرة عند تمرضهم، وإنهم لا يذوقون الراحة، ولا يتلذذون بالنوم، فهم دائما يحرصون على حفظ الصحة، واجتناب أسباب الأمراض، ولا يعرضون أنفسهم لذلك شفقة على آبائهم.

وقد جرت العادة كذلك ، أن المرء قليل الأولاد إذا كان له ولد بلغ من العمر فى السن أربع سنوات يعز على أبيه وأمه، فيربى فى الدلال والدعابة، يعنى تعود أن يفعل كما يشاء من السفه بدون أن ينهاه مربيه، فيشب هذا الولد على الاستعداد على أنواع التلف الصادر عن الغفلة وعدم النصيحة، فيكون هذا الولد لا بجريب عنده فى شيئ من العيشة، ويكبر بدون أن يعلم شيئا من أحوال الدنيا، فمثله كمثل الجيش الذى يحاول الانتصار على عدوه فيحتاج فى ذلك إلى قائد شجاع همام يكلفه التكليفات الشاقة حتى ينتصر على أعدائه، فمثل هذا الصبى يحتاج إلى مؤدب يسلك معه فى التربية سبيل الجد.

فنفرض أن هذا الصبى صار قوى الرأس كالبغل الحرون، وكثير الهذر فى الكلام كالببغاء، وسمين الجسم كجرو القصاب، فلا نشك من منظره أنه متسلطن عليه داء التخمة، وأنه نهم لا يشبع، وأن همه من الدنيا ليس إلا ملء بطنه، وأنها صنمه المعبود له، لا يعرف سوى أداء حقها بأكثر ما تستحقه من الطعام.

فكثيرا ما يصاب هذا الصبى بداء عدم الهضم، والتهاب المعدة، ويعالج منه حتى يشفى، ثم يعود إلى عادته، وتضرم فى جوفه النهامة، ولا يستطيع أبواه أن ينصحاه على ترك الإكثار من الطعام والشراب، حتى إن الحكيم[١] إذا نصحه، وقال له: إن كثرة الأكل تضر بالبدن، قال له: إن فى ذلك لذة وراحة! وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، حسب الآدمى لقيمات يقيم بهن صلبه، فإن غلبت الشخص نفسه فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس».

(١) أى الطبيب.

وورد عنه صلى الله عليه وسلم : «البطنة تذهب الفطنة» . وقال صلى الله عليه وسلم : «البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم بما اعتاد» . وقيل : إن رجلا سأل رجلا فى مرض موته ، فقال : أوصنى ، فقال : إن شئت جمعت لك علم العلماء وحكم الحكماء وطب الأطباء فى ثلاث كلمات ، أما علم العلماء : فإن سئلت عما لا تعلم فقل : لا أعلم ، وأما حكم الحكماء : فإذا كنت جليس قوم فكن أسكتهم ، فإن أصابوا كنت من جملتهم ، وإن أخطأوا سلمت من خطئهم ، وأما طب الأطباء : فإذا أكلت طعاما فلا تقم إلا ونفسك تشتهيه ، فإنه لا يلم بجسدك غير مرض الموت .

قال بعضهم : والأكل على ثلاث مراتب : فرض ، وهو قدر ما يندفع به الهلاك وتمكن معه الصلاة قائما ، ومباح ، وهو أدنى الشبع ، بنية أن يقوى على العبادة ، وحرام ، وهو مازاد على ذلك إلا للصوم فى غد أو لموافقة الضيف .

ومن سنن الأكل غسل اليدين قبله وبعده ، والتسمية قبله ، والشكر بعده ، ومن اشتد جوعه وعجز عن كسب قوته يجب على من علم بحاله إطعامه ، وإن لم يعلم به أحد يجب عليه أن يسأل ويعلم بحاله ، فإن لم يفعل حتى مات كان كقاتل نفسه ، ومن له قوت يوم لا يحل له السؤال ، ويباح له الأخذ ، وينبغى أن لا يجمع الإنسان بين حارين كاللحم والبيض ، ولا باردين كالسمك واللبن ، ولا بين رطبين كالفواكه واللبن ، ولا بين يابسين كالدخن والعدس ، ولا يأكل شيئا شديد اللزوجة يصعب على الأسنان قطعه ، فهو أصعب على المعدة أن تهضمه ، ولا يشرب عقب الأكل بسرعة حتى يسكن الطعام فى معدته ، فكل ذلك مضر ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : «أصل كل داء البردة ، وهى إدخال الطعام على الطعام» . وقال صلى الله عليه وسلم : «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء ، والأكل بقدر يفرح القلوب ويصلح الجسم ويزيد فى الحفظ ، ومن قلل الغذاء زاد نشاطه فى العداء ، فارفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه ، فإن الشهوة تبطل بعد ساعة» . وقال الأحنف بن قيس : اختارت الحكماء من كلام الحكمة أربعة آلاف حكمة ، ثم اختاروا منها أربعمائة كلمة ، ثم اختاروا منها أربعين كلمة ، ثم

اختاروا منها أربع كلمات، الأولى: أن لا تثق بالنساء، الثانى: لا تحمل معدتك ما لا تطيق، الثالثة: لا يغرنك المال وإن كثر، الرابعة: يكفيك من العلم ما تنتفع به. وقال أيضا: ثلاثة لا ينبغى للعاقل أن يتركهن: عمل يتزود به لمعاده، وصنعة يستعين بها على أمر دينه ودنياه، وطب يذب به الداء عن جسده وعن نفسه.

قال الحكماء: الأصلح فى كل يوم وليلة ثلاث أكلات وقت البرد، وقال بعضهم: كل يوم وليلة أكلة، وهى عند إفطار الصائم، و لا بأس بما قد تعود الناس عليه من الغداء والعشاء بكرة وعشية مع القدر اليسير من الطعام، وليجيد مضغه حتى يسهل على المعدة، ويبدأ ببسم الله، ويختم بالحمد لله، ويأكل مما يليه، وهذا هو الحال الأصلح، وقال أفلاطون: راحة الجسم فى قلة الطعام، وراحة اللسان فى قلة الكلام، وراحة الروح فى قلة المنام، وراحة القلب فى قلة الانتقام. وقال بعضهم:

جميع الطب فى بيتين حقا	وحسن القول فى قصر الكلام
فاقلل إن أكلت وبعد أكل	تجنب فالشفاء فى الانهضام
وليس على النفوس أشد تعسا	من إدخال الطعام على الطعام

روى عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم». وروى أبو سعيد، قال: جاء رجل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أخى استطلق بطنه [1]! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إسقه عسلا»، ثم جاءه فقال: إنى سقيته عسلا فلم يزده إلا استطلاقا، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة، فقال: «إسقه عسلا»، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «صدق الله وكذب بطن أخيك!» فسقاه وبَرِىء.

وقال بعضهم: الأدوية من جنس الأغذية، فمن غالب أغذيتهم مفردات كأهل

(١) أى أصيب بما نسميه «الإسهال».

البوادى، فأمراضهم قليلة جدا، وطبهم بالمفردات، ومن غالب أغذيتهم مركبات، كأهل المدن، يحتاجون إلى الأدوية المركبة، وسبب ذلك أن أمراضهم فى الغالب مركبة.

ولنذكر هنا محاورة طبيب مع صبى نهم، وهو أن ذلك الطبيب عاد ذات يوم من الأيام صبيا متعودا على المرض بالتخمة، واكتساب الآلام، وكان هذا الصبى دائما تظهر منه السخافة وخفة العقل، فوجده طبيبه على خلاف عادته متصفا باللطافة والظرافة، وفى يده كيس مكلل باللؤلؤ والمرجان، والصبى بهذا الكيس الظريف المملوء من النقود جذل فرحان، فقال له الطبيب: هل كيسك المملوء من الدراهم والدنانير يسع شيئا زيادة عما فيه من قليل أو كثير؟ فقال الصبى: حيث هو بالدراهم ملآن، فكيف يسع ما يدخله الآن! فقال الطبيب: إذا أعطيت شيئا من المال له بال فهل تقدر أن تدخله فى الكيس على هذا الحال؟ فقال الصبى: ليس فيه محل خال، فإدخال ما يزيد على ما فيه من المحال! فقال الطبيب: لو أردت أن تضع فيه الدراهم الزائدة بشدة القوة والعنفوان، لفزت بها إن وجدت لها فيه مكان، وساعدك الإمكان، وإلا تلف الكيس وتمزق، وتفتق وتخرق، فجرب لتعرف، وتعلم لتنصف! فقال له الصبى: تجربتى لوضع الدراهم الزائدة فى مثل هذا الكيس الظريف المرصع باللؤلؤ تكون مضرة، وبدون فائدة فقال له الطبيب: الحق معك، ولكن أخبرنى بصورة حضورك فى مجلس المائدة، إذا طلبت القدح للشراب، هل تملؤه لنفسك بنفسك؟ أو يملؤه لك بعض الأقارب والأحباب؟ فقال: أنا الذى املؤه لنفسى وأشربه بدون أن يكون أحد يقربه، فقال الطبيب: إذا قدحك امتلأ هل تستمر على صب الماء فيه على الولا؟ وإذا صببت عليه الماء ماذا يصيبه، وماذا يكون نصيبه؟ فقال الصبى: يسقط الماء الزائد على السماط، ويحصل لأهل المجلس الانقباض بعد الانبساط! فقال له الطبيب: إعلم أيها الصبى، إن معدتك ككيسك أو قدحك، فمتى ملأتها وزدت عليها شيئا فقد أتلفتها، وهى أعظم منحك، فإذا أكلت أزيد من ملء بطنك أضعفت معدتك التى داؤها عضال، ينتج عنه جميع الأوجاع والأوجال، وربما كانت التخمة سببا لقصر الأعمار والآجال، ومع نصيحة الطبيب لهذا الصبى السفيه، وإقناعه بالشواهد القوية، لم تنفعه الوصية، وإلا كان

يتبع نصح طبيبه ويقتفيه، قال الطبيب المذكور: اتفق لى ذات يوم من أيام المواسم التى تفرح فيها الصبيان، وتتعب منها الشيوخ من كثرة آلام الولائم، إننى كنت نائما عقب تعب ونصب، فأيقظنى أبو ذلك الصبى فجأة بدون أن أبلغ من نعاسى الأرب، ودموعه تسيل على خده، مع شدة حزنه ووجده، وقال: إن ابنى به خناق قبيح، وإنه من شدة الوجع يبكى ويصيح، وإن أهل المنزل فى غاية من الحزن والغم، لما ألم بهذا الولد من الألم. فأسرعت بالقيام لأنظر ما بهذا الصبى من الآلام، وآمر له من العلاج بما يلائم، فذهبت إليه للعيادة، فلم أجد به سوء الهضم كالعادة، بل وجدت به حمى ثقيلة لا تطاق، وأنه من الخطر يتحمل جميع المشاق، فبالسؤال عن السبب، وجد أنه لم يكتف من أكل الملبس والحلوى فى جميع يومه بالأرب، ولكن أثقل معدته بجزء وافر من الفطير، والكعك الناعم النضير، فرأيت جميع أعضائه ترتعش من الحمى الباطنة، التى حرارة نارها فى جميع بدنه كامنة، لا سيما وقد تمكنت من رأسه كل التمكين، حتى كأن بها تنورا يوقد فى كل حين، فبهذا أحمرت منه العينان، ويبس منه اللسان، ونشف الإهاب، وما هذا إلا لإصابة معدته بالالتهاب، وهو حريق لا يحمله الشيوخ فضلا عن الشباب، فوجب على أن آمر له بعلاج صعيب، يليق بقساوة الطبيب، فأمرت بأخذ الدم بالدود الكثير والحراريق العديدة وأشربة العقاقير، فعالجته بجميع أنواع الأدوية الصعبة، وكان غنيا عن ذلك لو أزمع من ذنب النهامة توبة، فكان هذا الداء عقوبة له على اتباع هوى بطنه، ولأهله على تمكينهم له من كل ما يشتهيه، بدون نظر إلى خوفه وأمنه، ومع ذلك فهم فى غاية من القلق والنكد، وجزاء لهم على ما عودوا عليه هذا الولد، وبهذا كله لم يتأثر الصبى بحزن أبيه وأمه، ولا يحب غير امتلاء بطنه، وفى هذه الحادثة البشعة ابتليت بطنه بسائر العلاجات، من الحمية التامة والحراريق واللبخات، وامتنع عن الأكل والشرب حتى خشينا أن المرض لا ينتهى إلا بأجله، وإن هذا جزاء انهماكه على الأكل وقبيح عمله، ولكن الحق سبحانه وتعالى أخذ بيد أبيه وأمه، وبحسن المعالجة تناقص المرض الحادث من السفاهة، ورجع الصبى بعد مدة مديدة إلى درجة النقاهة، بعدما أحزن العائلة، ولولا تعويدهم له على الأكل لكانوا أغنياء عن هذه الغائلة.

وهذا ما وقع لأحد أطباء أوروبا، ونظيره ما وقع لطبيب العرب العرباء، **لصبى** ممسك عن الرياضة، ومن المعلوم أن الرياضة بعد القناعة فى الطعام والشراب وغيرهما من أحسن ما يحفظ به الإنسان صحته، ويصون به قوة بدنه، بما يرى فيه مصلحته، وإن الكسل والبطالة يورثان فى المعدة الضعف، وفى البدن والأعضاء الحسية والمعنوية الكلالة، بخلاف العمل والحركة، فهما أصل اليمن والبركة، فيحفظان قوى الأبدان، وينعشان عقل الإنسان، ويقيان المرء من كثير من الأمراض، ويمنعان الإدراك من أن تتطرق إليه الأعراض، يروى أنه كان لملك من ملوك العرب صبى يهواه، حيث لم يكن له من الأولاد سواه، فأصيب بمرض عضال عجز عن تشخيصه الأطباء، مع ما أنفق الملك على علاجه من الأموال، وكان هذا الولد لا يحس بألم شديد من هذا الداء، وإنما فيه ذبول بالغ، لا يستطيع معه الحركة، فكأنما الضعف أثر السقم فى بدنه وانتهكه، فكان لا يتحرك فى فراشه، ولا يذوق الراحة فى معاشه، كثير القلق، شديد الأرق، تعطلت قواه الهاضمة، فقد الإيناس، ولا يألفه من حوله من الناس، ومع أن بنيته الطبيعية كانت عظيمة الأساس، كان يحس على ممر الأوقات بضعفها كمال الإحساس، وسبب ذلك أنه كان متعودا من صغر سنه على الدعة وعدم النشاط، ولاحظ له فى الألعاب التى لأقرانه فى سنه سنة متبعة، فلعدم ترويضه من صغر سنه على تحريك الأعضاء، أدى به السقم إلى هذا الحال وأفضى، وكان أبوه عن ترويضه قد أغضى.

فلما عجزت عن علاجه الأطباء، وأخبر أباه عن حكيم ماهر، خارج المدينة، بعض الأحياء، وإنه من أشهر حكماء العرب العرباء، أحضره الملك بديوانه، ووعده بمكافأة عظيمة تليق بمكانته ومكانه، إذا كانت مداواة ابنه فى إمكانه، فشخص فى الحال هذا الطبيب مرض هذا الصبى الأمير، وعلم بالاستفهام عن حقيقته أنه إلى الآن ليس بخطير، ووعد الملك أن يحضر ثانى يوم بدواء نافع، لداء هذا الصبى قاطع، فحضر فى اليوم الثانى بالديوان ومعه كرة وصولجان، وقال للصبى: هاك هذا الصولجان وتلك الكرة، فقد دهنتهما لك بمنقوع بعض العقاقير المعتبرة، مما فيه خاصة، بشفاء دائك خاصة، ففى كل يوم قبل الأكل فى الصباح والمساء، تروَّض بتحريك يديك فى الأيام الأوائل فى داخل رحبة الديوان والمنازل،

ثم اذهب إلى الخلاء مقدار ساعة كل يوم، واضرب بيديك الكرة بالصولجان، ومتى انقلبت فاجر وخذها من الميدان، وهلم جرا، فهذا الدواء يثمر الشفاء عن قريب، بشرط أن يسمع المريض وصية الطبيب، فعمل الصبى بما أوصاه به طبيبه، فكان له فيه من تعجيل الشفاء حظه ونصيبه، فما مضت عليه أيام قلائل، إلا وجد من علامات الشفاءأعظم دلائل، حيث عادت إليه لذة الطعام والمنام، وبعد مضى نصف شهر رجعت إليه قواه كالمرغوب والمرام، وبعد شهر اكتسى بحلة الصحة التامة، ووجد فى الرياضة التى أوصاه بها الحكيم المنفعة العامة، ولما شاهد الملك أن ابنه عاد إليه كمال الصحة، وأن الطبيب بذل فى العلاج نصحه، أراد أن يكافئه بما وعده من الإكرام، ويرضيه بما يستحقه من الإتحاف والإنعام، فقال له الطبيب: إعلم أيها الملك أن معارفى ليست هى التى أفادت ولدك الشفاء، لا استعملت فى علاجه أدوية عجيبة، ولا عقاقير غريبة، بل دهنت الكرة والصولجان بمنقوع حشائش، وهو أرخص دهان، جنيتها من الغياض، واقتطفتها من الرياض، بدون كلفة، بل بمجرد الاتفاق والصدفة، فالفضل للرياضة التى أذهبت البطالة والكسل، فليكن عليها فى ديوانك الشريف كمال العمل، وهى تمام الأمل.

الفصل الثانى
فى شذرة من كلامه صلى الله عليه وسلم

أما كلامه صلى الله عليه وسلم فبحره طام، لا تنفد مداد عبابه الأقلام، وأعجز الخاص والعام، من الأعلام، فلنذكر جملة من كلامه، صلى الله عليه وسلم، تحث على كل فضل:

قال صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». **وقال**: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه، ألا وأن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». **وقال**: «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس». وقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». **وقال**: «اجملوا فى طلب الدنيا، فإن كلا ميسر لما خلق له». **وقال**: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور». **وقال**: «كما تدين تدان» **وقال**: « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك» **وقال**: «لا يغنى حذر من قدر». **وقال**: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». **وقال**: «استفت قلبك وإن أفتوك». **وقال**: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك

بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». وفى رواية: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا». **وقال**: الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» **وقال**: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء». **وقال**: «من سعادة المرء حسن الخلق، ومن شقاوة المرء سوء الخلق». **وقال**: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وبشروا واستعينوا بالغدوة وشيء من الدلجة». **وقال**: «أفضل الأعمال أن يسلم الناس من لسانك ويدك، وما عظمت نعمة الله على امرىء إلا عظمت مؤنة الناس عليه». **وقال**: «أدّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس، وارض بما قسم الله تكن من أغنى الناس». **وقال**: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». وقال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وقال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك». وقال: «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك». وقال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء عليها». وقال: «المرء مع من أحب». وقال: «من تشبه بقوم فهو منهم. وقال: «من أحب شيئا أكثر من ذكره». وقال: «ألا انبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم: ذكر الله». **وقال**:«الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». **وقال**: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن

لم تكن تراه فإنه يراك» . **وقال:** «أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر» .
قال: « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» . وقال «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فأبى عنها وقال : إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» . **وقال :** «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا أوعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» . **وقال:** «أحسنوا جوار نعم الله ، لا تنفروها ، فقلما زالت نعمة عن قوم فعادت إليهم» .
وقال: «مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ، فمن كَثَّر كُثِّر له ، ومن قَلَّل قُلِّل له» .
وقال: «ما جعل الله وليا إلا على السخاء وحسن الخلق» . **وقال:** عن الله عز وجل : «من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب» . **وقال:** سأوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تآمر عليكم عبد ، وإن من يعش فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة» . وقال : «أشد الناس عذابا يوم القيامة : عالم لم ينفعه الله بعلمه» . **وقال:** «يأتى على أمتى زمان : القابض على دينه كالقابض على الجمر» . **وقال:** «بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» .
انتهى .